



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



عليه  
صلى  
عليه  
وآله  
وسلم

www. **Ghaemiyeh** .com  
www. **Ghaemiyeh** .org  
www. **Ghaemiyeh** .net  
www. **Ghaemiyeh** .ir

أنت دعيت

# الإمام الصادق

## والمذاهب الأربعة

مع إضافات وتحقيقات هامة

المجلد الرابع



دار الفکر للطباعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# الامام الصادق و المذاهب الاربعه

كاتب:

اسد حيدر

نشرت في الطباعة:

دار التعارف للمطبوعات

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

# الفهرس

5	الفهرس
10	الامام الصادق و المذاهب الاربعه المجلد 4
10	اشارة
15	الجزء السابع
15	اشارة
18	تقديم:
18	اشارة
28	1-الجمود الفكرى
40	2-خلق القرآن
62	3-البدع والضلالات
62	اشارة
64	من هو المبتدع
72	4-القصص و القصاصون
96	خلاصة البحث
100	الإمام الصادق و التفسير الصوفى
100	اشارة
115	الأول:الحب
117	الأمر الثانى: الزهد
142	أئمة المذاهب
142	اشارة
144	أبو حنيفة
144	اشارة
153	الحيلة الشرعية

160	صلته مع العلويين
160	اشارة
162	ويقول الأستاذ محمد أبو زهرة
165	أبو يوسف
187	وفاته
187	أولاده وأحفاده
188	قبره
189	أحمد بن حنبل 164-241 هـ
189	اشارة
198	أولاده
198	اشارة
199	صالح بن أحمد بن حنبل
199	عبد الله بن أحمد بن حنبل
200	سعيد بن أحمد
201	وفاته
209	الحنابلة في ظل المتوكل
217	أحمد و الشيعة
221	خاتمة و خلاصة
228	الجزء الثامن
228	اشارة
232	مقدمة و تمهيد
236	الإمام الصادق
236	اشارة
238	ولادته:
238	أمه:

239	كنيته وألقابه:
239	صفته:
244	نظرة إلى حوادث عصره .
244	إشارة .
252	دعوة الغلاة .
258	أضواء من سيرته عليه السلام .
280	مدرسة الإمام الصادق .
313	الإمام الصادق .
313	إشارة .
314	مرحلة الثورة و مرحلة الدعوة .
314	إشارة .
316	الإمام زين العابدين .
333	الإمام الباقر:
352	ثورات العلويين .
370	رؤساء المذاهب .
370	إشارة .
372	مالك بن أنس .
372	إشارة .
372	من هو الإمام مالك .
373	عصر مالك وعلمه .
387	مالك بين الأموية والعباسية .
394	موطأ مالك .
396	سيرة مالك .
403	وفاته .
403	أولاده وأحفاده .

406	الإمام الشافعي
406	اشارة
406	نسبه
408	طلبه العلم
415	بين الحديث و الرأي:
420	الانتقال إلى مصر:
424	أدبه و شعره
432	وفاته
433	أولاده
435	الإمام الصادق
435	اشارة
435	أولاد الإمام
435	اشارة
436	على بن جعفر عليه السلام
438	محمد
441	عبد الله
441	إسحاق
442	الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام
442	اشارة
444	ولادته
449	من حكمه و مواعظه
453	أولاده:
455	الإسماعيلية و الإمامة
455	اشارة
467	الإسماعيلية



490 ..... الدولة الفاطمية

490 ..... اشارة

495 ..... الحاكم بأمر الله:

506 ..... و الخلاصة:

510 ..... المهفت و الأظلة:

518 ..... خاتمة الكتاب

523 ..... تعريف مركز

اشارة

عنوان و نام پديدآور: الامام الصادق و المذاهب الاربعة / اسد حيدر

مشخصات نشر: دارالكتاب الاسلامي - بيروت - لبنان - 1422

زبان: عربي

مشخصات ظاهري: 4ج

موضوع: امام صادق عليه السلام

موضوع: مذاهب اربعه - اهل سنت

ص: 1





عنوان و نام پديدآور: الامام الصادق و المذاهب الاربعه / اسد حيدر

مشخصات نشر: دارالتعارف للمطبوعات - بيروت - لبنان - 1422

زبان: عربى

مشخصات ظاهري: 4ج

موضوع: امام صادق عليه السلام

موضوع: مذاهب اربعه - اهل سنت

ص: 4

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيد الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين ومن سار على هديهم إلى قيام يوم الدين .

أما بعد . . فقد وفقنا العلي القدير إلى طباعة الجزئين السابع والثامن من كتاب الإمام الصادق والمذاهب الأربعة الذي أبدعه يراع الأستاذ المرحوم العلامة المحقق أسد حيدر، بعد الإقبال الكبير الذي شهدته الأجزاء السابقة، وتهافت القراء عليه طلباً للحقيقة الكاملة، حيث ندر أن تناول كاتب واع هذا الموضوع بسعة وتجرد، وثناء مادة ومصادر . مع الإصرار الشديد الذي بذله المؤلف رغم تدهور صحته في السنوات الأخيرة من عمره وغربته عن وطنه وضعف بصره ووهن جسده . لكن الإرادة الصلبة والرغبة في اتمام البحث دفعاه إلى تحرير هذا المجلد بجزئيه الحاضرين .

نتمنى للقارئ العزيز كمال الاستفادة منه، والانتهاال من معينه، ونسأل المولى عز وجل أن يديم علينا منّه، ويوفقنا للاستمرار في نشر الكلمة السواء، التي فيها رضاه وصلاح الدارين لنا ولجميع المسلمين، إنه سميع مجيب . والحمد لله رب العالمين .

الناشر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا إِنَّا سَأَلْنَاكَ بِعَدْوِيٍّ يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ. رَبَّنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى  
رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ [آل عمران: 193 و 194]

ص: 7





## تقديم:

## إشارة

كان تأخر صدور هذا الجزء من كتابنا (الإمام الصادق و المذاهب الأربعة)-و هو السابع-فترة انقطاع بيننا و بين القراء، لم تكن مقصودة و كنا ننوى أن يكون الجزء السابع نهاية البحث و خاتمة المطاف فى سفر كلفنا ثمننا غاليا من الجهد و العناء، و قد خفف عنا ما لقيه من استجابة و إقبال لدى القراء، كم حاولت أن أتخطى عوائق العمل، و أذلل ما أواجه من صعاب لمواصلة و إكمال البحث فيه، ليخرج هذا الجزء إلى أيدي القراء قبل هذا الوقت، إلا- أن العوائق تلك و الصعاب كانت تزداد اتساعا و تعقيدا، و ها أنا ذا أزاول نشاطى لإكمال السلسلة، فأتناول أهم الأبحاث المخصصة للحديث عن كل واحد من أئمة المذاهب الأربعة بإيجاز استكمالا لما سبق و استدراكا لأمر لم نذكرها، إذ لم نتعرض لها من قبل كمعرفة الأولاد و الأحفاد، و الوقوف على بعض الآثار و الآراء و أمور فكرية و فقهية أخرى مما يضيق بها حيز الجزء السابع فأتبعناه بثامن.

نرجو الله أن يكون به كمال الفائدة و نهاية القصد. و قد آثرت تأخير الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام لما يتطلبه ذلك من إفاضة فى بعض الأمور كالإشارة إلى أولاده و أحفاده الذين ورثوا مدرسته، و ما يتعلق بذلك من استطراد يقتضيه البحث فى الحديث عن الطائفة الإسماعيلية التى تنسب إلى إسماعيل ابن الإمام جعفر بن محمد الصادق، و ما يحيط بحياته من ملابسات، و ما وقع فى ذلك من اختلاف.

وألترزم هنا نهج البحث في عوامل التعصب الطائفي وأسباب الخلاف المذهبي كمشكلة تاريخية سببت الفرقة بين المسلمين وفككت وحدتهم وبعادت بينهم، وقد خصصت في الأجزاء السابقة من الكتاب حيزا كبيرا لدراسة نتائج التعصب وعوامل قيامه، وأوضحت ما علق بفعل ذلك في أذهان الناس من أمور تسيء إلى مفهوم الانتماء إلى المذاهب وغلبة نزعة العدا على جوهر المبادئ، حتى أدى ظاهر الالتزام بها إلى الخروج عن ميزان الشرع، وحدوث انعكاسات سلبية على المجتمع فأحدثت خلافا فيه، إذ خرجت المنازعات عن حدود التوازن الفكري أو الخلاف الواعي، فتعددت حدود الاستقامة والاعتدال-في السلوك والتصرف-إلى الاعتقاد، حتى أصبح النص الوارد في الكتاب (عند بعضهم) لا يعمل به إن خالفه رئيس المذهب الذي أصبحت أقواله سنة، ومخالفته بدعة، وعدم اتباعه كفرا، حتى قالوا أن الكتاب تنسخه مخالفة أقوال علماء المذهب، يقول الكرخي (1): «الأصل أن كل آية تخالف قول أصحابنا فإنها محمولة على النسخ، أو على الترجيح والأولى على التأويل، من جهة التوفيق. الأصل أن كل خبر يجيء بخلاف قول أصحابنا فإنه يحمل على النسخ، أو يحمل على أنه معارض بمثله، ثم صار إلى دليل آخر أو ترجيح فيه، بما يحتج به أصحابنا من وجوه الترجيح، أو يحمل على التوفيق» (2).

وبين لنا هذا النص مدى الارتباط بالمذهبية والالتزام بأقوال الأئمة حتى وإن خالفت الواقع، ويخضعون الكتاب لموافقة أقوالها، وإذا امتنع النص القرآني فإنهم ينسخون ويعملون بما جاء عن أصحاب المذاهب «فهم مدفوعون وراء المذهبية تعصبا، ويطرحون الدليل ويؤولونه تأويلا بعيدا لا يتفق مع الحقيقة. فهذه هي المذهبية التي يبغضها الله ورسوله» (3).

ولقد أدت شؤون الحكم ومقتضيات السلطان إلى تبني التمدب وجعل الرئاسة في الفقه من أعمدة السياسة، فتأثر-تبعاً لمواقف الملوك والحكام، وجود ونشاط

ص: 10

---

1- (1) عبيد الله بن الحسن أبو الحسن الكرخي. ولد سنة ستين ومائتين، ومات سنة أربعين وثلاثمائة، انتهت إليه رئاسة الحنفية، كان من المجتهدين في المسائل على مذهب أبي حنيفة، وله المختصر وشرح الجامع الصغير وشرح الجامع الكبير.

2- (2) الدكتور مصطفى سعيد الجن، نقلا عن أصول الكرخي، ص 84 القاهرة 1972.

3- (3) الدكتور مصطفى سعيد الجن، أثر الأخلاق في القواعد الأصولية، ص 9.

و انتشار المذاهب إذ لم يجر الحكام على مذهب بعينه، وإنما يتقرر ذلك بحسب الظروف و الملابسات و عوامل النفوذ و الغلبة سيما و إن العالم الإسلامي بات مسرحاً للقوة يشهد نتائج الغلبة على شكل دول و وزارات و جيوش. و لا بد أن يكون القضاء- و هو من أكثر الوظائف استقراراً لأصوله المعروفة و أهميته في حياة الناس- من أوليات شئون السلطان التي تتسرب إليها موجات التمدد، و تتطلع إليها الرغبات، فحصرت بعد زمن بالمذاهب الأربعة، و سارت الأمور على الاستعانة بما كان من مقتضيات السلطان في الأساس، و هو تحديد المراتب الفقهية و المراجع في أشخاص بأعيانهم.

يحكى عن أبي زرعة- تلميذ البلقيني- أنه سأل أستاذه عن المانع للشيخ تقي الدين السبكي عن الاجتهاد و هو جامع للشروط. فسكت البلقيني و لم يجب. فقال أبو زرعة: «فما عندي ان الامتناع عن ذلك ليس إلا للوظائف التي قدرت للفقهاء على المذاهب الأربعة، و إن من خرج عن ذلك و اجتهد لم ينل شيئاً من ذلك، و حرم ولاية القضاء، و امتنع الناس عن استفثائه، و نسبت إليه البدعة. فتبسم و وافقني على ذلك».

و امتد تأثير ذلك لينعكس على نهج التعامل مع وقائع التاريخ و روح المبادئ، فراح أغلب المؤرخين يتقادون للنزعة الطائفية المشبعة بالعصبية الإقليمية أو القبلية معتمدين على الخرافات و الادعاءات التي تؤجج نار الفرقة و تزيد الانقسام، لتطغى حدة الخلاف على الحقيقة، و تدفع الأمور في مسار لا يخضع لمنطق و لا يأبه بالشواهد إرضاء لرغبة الحكام، و تزلفاً لذوى السلطة، و بذلك عجز التاريخ بما نجم عن تلك النزعات، فأصبح البحث عن الحقيقة و التوصل إلى استخلاص الواقع، أو استنباط الجوهر محاطاً بعوائق و صعوبات، بعد أن أدى تقادم الزمن و استمرار القناعة بما صدر عن مصادر التعصب و جهات الانقسام، إلى أن تكتسب شكلاً ثابتاً يقف بوجه موجات الوعي التي تنمو بين شبابنا المسلم المتصف بروح العلم و الموضوعية.

لقد كان التحيز في طرح مواضيع لها أهميتها لتعلقها بحياة المسلمين و تفاصيل وجودهم هوية الباحثين المرتبطين بالسلطة، و كانت نبرة الفرقة و دعوة الانقسام، بطاقة الدخول إلى عالم القصور و الرفاه السلطوي، و بذلك ارتكب هؤلاء جنایة على أجيالنا إذ تنصلوا من مهمات الباحث و مسؤولياته، و تخلوا عن أصول الأمانة في نقل الأحداث و تصوير الظروف و العوامل، فساقوا الآراء دون تمحيص أو تقدير لمرحلة أو وضع تاريخي معين. و أتى لنا الحصول على نهج تاريخي يراعى مصلحة الأمة و يقدر

ضرورات الدين أو الدعوة، ما دامت أهواء السلطة و التحكم كامنة وراء ما يصدر عن الباحثين.

ورغم ذلك، لم يتعدّ الخلاف بين المسلمين المسائل الثانوية و الفقهية، إذ لم يكن الخلاف يوماً في التوحيد أو الكتاب أو السنة، فهم بحمد الله متفقون على توحيد الله و على كتابه، و مجمعون على أن ما بين الدفتين هو القرآن بدون زيادة أو نقصان، و لم يختلفوا في وجوب الأخذ بسنة النبي صلى الله عليه و آله و سلم و إن اختلفوا في الفهم أو التفسير، أو توقفوا في تحقيق الطريق الموصل إلى أخذ الحديث صدر عن الرسول أو لم يصدر.

و لقد هيا الله لهذه الأمة علماء جندوا أفلانهم لمواجهة نتائج دعوات التعصب و الانقسام، فكتب الكثير منهم في ذلك حرصاً على سنة النبي صلى الله عليه و آله و سلم و منعاً لأيدي العابثين من الوصول إليها، و دحضا للكذابين و الجهال.

و قد ركزنا في البحث حول الخلافات المذهبية و النزعات الطائفية التي أدت إلى الفتنة و الشقاق، فعطلت قوى الأمة و شلت طاقاتها.

و إذا كان التاريخ الإسلامي قد شهد منذ فجر الدعوة بذور الفرقة و الشقاق، فإننا لا نود أن نتعرض في بحثنا إلى مجريات عهد الخلافة و آثار الخلافات على المجتمع الإسلامي، و بروز النزعات الشخصية و المصالح الذاتية. و لا للخصومة في مرتكب الكبيرة و غيرها. و إنما بحثنا في المذاهب و اتساع عوامل الفرقة و الخلاف التي أدت إلى فتن غداها الاختلاف في الآراء، و ما رافق ذلك من مهارات و خصومات تطورت إلى حروب سالت فيها دماء، و أهينت كرامات، و انتهكت حرمت.

و قد رأينا فيما سبق من أجزاء البحث، كيف تضافرت عوامل عديدة على إثارة المشاكل، و كيف وقعت الأمة في امتحان قاس، و قد كانت ظروف الفتنة و شيوع الاضطراب، فرصة للجهلة و الغوغاء من الناس للظهور و احتلال مواقع، فيما اضطهد المفكرون و كمت أفواههم، و نورد هنا قول العلامة المصلح الشيخ محمد عبده الذي يعكس هذا الظرف فيقول: «و السبب في بقاء قوة سلطان الخلاف و النزاع هو نقشى الجهل، و تعصب أهل الجاه من العلماء لمذاهبهم التي ينتسبون إليها، و بجاهها يعيشون و يكرمون، و تأييد الأمراء و السلاطين لهم، استعانة بهم على إخضاع العامة، و قطع طريق الاستقلال العقلي على الأمة. لأن هذا أعون على الاستبداد، و أشدّ

تمكيننا لهم مما يحبون من الفساد والإفساد. فاتفاق كلمة علماء الأمة واجتماعها على أن الحق كذا بدليل كذا ملزم للحاكم باتباعهم فيه، لأن الخواص إذا اتحدوا اتبعهم العوام، وهذه هي الوسيلة الوحيدة لمنع استبداد الحكام، فالدين يأمر برفع الشقاق والتنازع وبالاعتصام بحبل الوحدة، وهذا معنى قوله تعالى: **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** وقوله تعالى: **وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا** وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: **«و لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم أعناق بعض»**.

ثم يقول المرحوم الشيخ محمد عبده: وقد خالفنا كل هذه النصوص، فنفرقنا و تنازعنا، و حارب بعضنا بعضا باسم الدين، لأننا سلكنا مذاهب متفرقة، كل فريق يتعصب لمذهبه، و يعادى سائر إخوانه المسلمين لأجله، زاعما أنه بهذا ينصر الدين، و ليس فى ذلك إلا خذلانه بتفريق كلمة المسلمين، هذا سنّى يقاتل شيعيا، و هذا شافعى يغرى التتار بحنفى، و هذا حنفى يقيس الشافعية على الذمية» (1).

و يقول السيد رشيد رضا: **«حتى أن من اتباعهم (أى أئمة المذاهب) من قدّمهم على الأنبياء عند تعارض كلامهم مع الحديث الصحيح، فإنهم يردّون كلام النبي المعصوم- مع اعتقاد صحة سنده- بقول نقل عن إمامهم، و يتعللون باحتمالات ضعيفة»** (2).

و لا أملك أن أستطرد دون أن أشير إلى أن هذا القول هو تعبير عن واقع يأتى مصحوبا بخروج عنه، و ميل إلى ما استنكر فيه، إذ أن السيد رشيد رضا شهد فترة نضج جهود المصلحين المحدثين، و تبلور أفكار الوعى، غير أنه أسهم هنا و هناك فيما يخالف اتجاه التحرر من التعصب و نهج التحقق و البحث اللذين اتسم بهما فكر الفترة الدينية التى يتصدرها المرحومان السيد جمال الدين الأفغانى و تلميذه الشيخ محمد عبده، و الذى تلاقح و تمازج مع تيارات الوعى و دعوات الوحدة الإسلامية.

و هناك صور من حالات الانقسام و الشقاق ذكرها ابن قدامة: **«ففى طرابلس الغرب، ذهب بعضهم إلى المفتى و قال له: اقسم المساجد بيننا و بين الحنفية، لأن فلانا من فقهاءهم يعبر عنا كأهل الذمة، بما أذاع فى هذه الأيام من اختلاف الأحناف**

ص: 13

1- (1) ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين ص 65-66.

2- (2) انظر مقدمة المغنى لابن قدامة.

فى: هل يجوز للحنفى أن يتزوج الشافعية؟ فقال بعض الأحناف: لا يصح لأنها تشك فى إيمانها، لأن الشافعية يجيزون أن يقول المسلم: أنا مؤمن إن شاء الله. وهذا يدل على عدم تيقنها فى إيمانها فى الله، والإيمان لا بد له من اليقين.

وأن بعض الأتباع سمع رجلا يصلى مأموما يقرأ الفاتحة، فضربه بيده على صدره ضربة قوية وقع منها على ظهره و كاد يموت. وأن بعضهم كسر سبابة رجل لأنه رفعها فى التشهد، بفتوى أحد علماء الحنفية- وهو الكيدانى- بحرمة رفع السبابة، واعتبروا ذلك نصا إلهيا، و حكما قطعيا فمن خالفه عوقب على جريمته» (1).

ويذكر العلامة العز بن عبد السلام الشافعى فى أمور الأخذ بما فيه اختلاف، وأن لا بأس بفعل أو ترك ما لا ينقض الحكم الشرعى: أن الناس لم يزالوا على ذلك يسألون من اتفق من العلماء من غير تقييد بمذهب و لا- إنكار على أحد من السائلين، إلى أن ظهرت هذه المذاهب و متعصبوها من المقلدين، فإن أحدهم يتبع إمامه مع بعد مذهبه عن الأدلة مقلدا له فيما قال، فكأنه نبي أرسل إليه. وهذا نأى عن الحق، وبعد عن الصواب لا يرضى به أحد من أولى الألباب... الخ (2).

ويقول التاج السبكي: ولقد رأيت فى طوائف المذاهب من يبالغ فى العصبية بحيث يمتنع بعضهم عن الصلاة خلف بعض إلى غير هذا مما يستقبح ذكره، و يا ويح هؤلاء أين هم من الله. ولو كان الشافعى و أبو حنيفة رحمهما الله حيين لشددا النكير على هذه الطائفة (3).

كما يذكر ابن قدامة أن أربعمائة قاض حنفى و شافعى هاجروا فرارا من تحكم الغوغاء. و حدثت بدمشق عدة حوادث بين الشافعية و الحنابلة، و بين الشافعية و الحنفية، كل ذلك بسبب الطعن فى المعتقدات لأمر تافهة. فمثلا أن ابن القشيري- وهو أحد علماء الشافعية- يدخل بغداد، و يرقى المنابر للوعظ، فتقوم قائمة الحنابلة، و تقع بينهم و بين الشافعية فتنة، و بسبب ذلك يسجن بعض العلماء لإطفاء نارها.

و فى سنة 421 هجرى بين بعض الأتراك و بعض الهاشميين منازعة، فاجتمع

ص: 14

1- (1) المصدر السابق.

2- (2) انظر عقد الجيد فى أحكام الاجتهاد و التقليد للدهلوى ص 12.

3- (3) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوى ص 130 و 131. [1]

الهاشميون و من والاهم من الشيعة وغيرهم فى مسجد المدينة، ورفعوا المصاحف و استفزوا الناس، فاجتمع لهم العدد الكبير من الكرخ. و اجتمع الأتراک و هم جند الدولة و أعيان بغداد فى ذلك اليوم و اشتد القتال بين الطرفين (1).

و لا يخفى دور السلطة فيما يحدث، و أن الفتن التى تجرى- و ما يتخللها من نيل من مقامات العلم، و تعد على أصحاب المكنات الدينية- من صنعها، فىنحاز الحكام إلى طرف دون آخر. فى حين يعلم أن ذلك من تعاطى السفهاء- كما ينص ابن كثير فى وصفهم- و إلا كيف يضرب خطيب جامع بالآجر و يكسر أنفه و يخلع كتفه؟ و لما ذا يقبل آخرون على أناس يحيون ذكرى عاشوراء بالحديد، فىقتلون اقتتالا شديدا، و يقتل من الفريقين طوائف كثيرة، و تجرى بينهم فتن و شرور مستطيرة.

و يحدثنا ابن الجوزى فى حوادث سنة 494 هـ أن السلطان قتل خلقا من الباطنية يبلغ عددهم ثلاثمائة و نيفا، و كتب بذلك كتابا للخليفة، فتقدم بالقبض على قوم يظن فىهم ذلك المذهب، و زاد تتبع العوام لكل من أرادوا، و صار كل من فى نفسه شىء من إنسان يرميه بهذا المذهب، فىقصد و ينهب (2).

كما وقع كثير من الفتن بين الناس بسبب اختلاف الآراء بين العلماء من فقهاء و مفسرين، فبدلا من أن تعقد المجالس لرفع ذلك الالتباس و إزالة الخلافات، أصبحت مثار فتن و سببا لتدخل الغوغاء و أصحاب الأهواء الفاسدة، المندسين فى صفوف المسلمين.

و قد حدث أن اختلف الحنابلة و غيرهم من السنة فى تفسير قوله تعالى: عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً فقالت الحنابلة أن المقصود من هذه الآية أن يقعد الله نبيه على عرشه. و قال غيرهم: أن المقصود هو الشفاعة، و احتدم الجدل، و اتسع النزاع بسبب ذلك الخلاف، و اقتتل الحنابلة مع خصومهم (3) إذ كانت لهم القوة فى بغداد لمساندة السلطة لهم و التفاف العامة حولهم و انضمام كثير من الجند إليهم. و قتل منهم قتلى كثيرة، و كان جماعة أبى بكر المروزي أبطال هذه الفتنة (4) و اعتمدوا على القوة.

ص: 15

1- (1) ابن كثير، البداية و النهاية ج 12 ص 26 و 28. [1]

2- (2) المنتظم ج 9 ص 120. [2]

3- (3) السيوطى، تاريخ الخلفاء ص 154. [3]

4- (4) الكامل لابن الأثير ج 8 ص 132. [4]



و استمر مدة من الزمن يرهبون قلوب الناس، و يتعرضون بالشرّ لغيرهم من الطوائف، و إغراء بعضهم بعضا. مما حمل الخليفة الراضى على إصدار منشور فى ردعهم بالقتل إن لم يرجعوا عن غيهم (1).

و من الملاحظ أن هذا المنشور قد أوقف نشاطهم. عن إثارة الفتن و الوقيعة بغيرهم، و خفف عن الناس بعض تلك الشرور التى لحقتهم بفعل التعصب لعقائد فى التجسيم و آراء واهية مشبهة تجعل الله كالمخلوقات و المحدثات، و من نيل لمقامات الأولياء و مظاهر الاحتفال بسيرهم. و كان الراضى صريحا فى إعلاننه و شديدا فى بيانه و قد توعدّهم فى ختامه بالعقوبات الصارمة. و مما جاء فى منشوره: «ثم استدعأؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة و المذاهب الفاجرة التى لا يشهد بها القرآن، و إنكاركم زيارة قبور الأئمة و تشنيعكم على زوّارها بالابتداع، و أنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام... الخ» و مضمون البيان يعبر عن عودة إلى أصول الحق و قواعد التفكير السليم.

و فى أحضان الحكام و المتنقّذين، نشأ التعصب عنيفا، و غدا من أسلحتهم الفتاكة، فاستغل الحنابلة وجود من يتعصب لمذهبهم فى فترة ردود الفعل و انعطاف الخلفاء الحكام لاستمالتهم فى مواجهة آثار التطرف و التجاوز التى ارتكبت من المعتزلة عند ما ركنا إلى السلطان و تناءوا عن مصادر الفكر. فكان الوزير يحيى بن محمد بن هبيرة حنبليا متعصبا لمذهبه، فنعموا فى ظل سلطته، و تصرفوا فى أمور لا يسوغ لهم الدخول بها. و لم تعدم المذاهب الأخرى من مناصرين لها باستعمال سلاح التعصب و الطائفية، فكان من يعهد إليه بوظيفة يوجه جهوده لنصرة مذهبه، و التحامل على غيره. فكان مرجان الخادم شافعى المذهب، تعصب على الحنابلة، و كان بينه و بين الوزير بن هبيرة عداة لأنه حنبلى و يتعصب لهم، كما نصب العداة لابن الجوزى، - و هو عالم الحنابلة و المبرز فى عصره- و كان فى عصرهما الأمير محمد بن موسى التركى أمير دمشق - و هو حنفى المذهب- و يتعصب للحنفية تعصبا مفرطا، و يعادى بقية المذاهب، و بالأخص الشافعية، و كان يعلن بأنهم ليسوا من المسلمين، و يقول:

لو كانت لى الولاية لأخذت من الشافعية الجزية (2) و عند ما برز الوزير نظام الملك فى

ص: 16

1- (1) ابن مسكويه، تجارب الأمم ج 1 ص 322.

2- (2) ابن كثير ج 12 ص 175. [1]

محافل الملوك لم يقدر على تحقيق السيادة للشافعية، والحدّ من تعصّبات الجماعات التي عكفت على حسّ المعاداة، فكان يختار من العلماء من يستشعر فيه القدرة و المنزلة، و يبعثه إلى بغداد. ولكن الحنابلة كانوا لا يترددون عن استخدام الشتم و السب، و دفع الأمور إلى الاضطراب و الهياج. و قد تكلمنا غير مرة عن الأسباب التي أدت بالمسلمين إلى هذه الحالة التي أصبحوا عليها من تباعد و تباغض و تراشق بالكفر و الزندقة.

و لنمضى قليلا مع ألوان الأحداث و صور المجتمع و هو يقاسى الفرقة، و ما أحدثه التعصب من تباعد و عدا و تباغض تسيء إلى رابطة العقيدة، و تبعد عن روح الإسلام و نظمه التي تجعل لكل حقه، و قد كان أبطال التعصب و دعاة الفرقة و جنود الشغب يتعاهدون عوامل معينة بالرعاية، و يعملون على إذكائها و يحاربون كل ما من شأنه العودة إلى روح الدين و فضح البواعث و كشف الدوافع التي تقف وراء تلك الأحداث.

فهى إذا ما قامت من مستوى السلاطين، تلونت بحسب الرغبات و مصالح الحكم التي تمحورت حول أغراض ضيقة و غايات خاصة، و هى إذا ما بدرت من أصحاب المواقع على اختلافها و هيئاتها، كانت ستارا للإبقاء على واقع التمتع و النفوذ، فيما نرى الناس تكتوى بنار الفرقة، و يتمزق كيان المجتمع الإسلامى، و تسود روح من العدا التي تنكرها أبسط روابط الإنسانية، فكيف إذا كان الأمر بين أقوام و طوائف تجمعهم كلمة التوحيد، و يفترض أن تشدّ قلوبهم و تجمعها شريعة النبي المصطفى محمد صلى الله عليه و آله و سلّم.

و سنعرض فيما يلى بإجمال بعض العوامل الكثيرة الأخرى:



فقد ضمن الإسلام بمبادئه وقيمه وضعا فكريا يؤدي إلى تطور حالات الإنسان و تقدمه الحضارى، و يدفع بمن امتلك قدرة الفكر و موهبة العلم إلى اغتراف مناهل المعرفة و الأخذ بمضامينها، فكان التفاعل الفكرى و العطاء العلمى سمة المجتمع فى صدر الإسلام، و صفة الدعوة المحمدية التى بدلت أوضاع الإنسانية، و أحدثت الثورة فى حياة الشعوب التى آمنت بها و انشدت إليها.

و كان التطور الفكرى مقياسا أساسيا فى التعامل الحياتى و الوجود الإنسانى للمجتمع المسلم، حتى إذا حدثت الفرقة بعد استحكام النزعة الطائفية، و استفحال التعصب المذهبى، برزت عناصر كثيرة تقف بوجه ذلك التطور و التقدم الفكرى، إذ لا يمكن للآراء المنحرفة و الدعاوى الفارغة أن تجد لها موقع قدم أمام ما بلغه المسلمون من مستوى فكرى. فكان الجمود العقائدى أو الفكرى أقرب إلى الجهلة و ذوى الأغراض و الأفكار المنحرفة، و أنفع لهم، فلقى المفكرون ضروبا من المقاومة الشديدة و الجفاء الظاهر، لكى يعطل و عيهم، و يبعد أثرهم، و تنح لأولئك الذين يعملون على نشر الفرقة الفرصة ليعطوا جهلهم، و يحققوا لأنفسهم مكانة على حساب وحدة المسلمين و مصلحتهم.

و نحن عند ما نستعرض جوانب و صوراً من هذا الواقع -بعد قرون طويلة و مراحل متعددة- نرمى إلى كشف عوامل ذلك و عواقبه فى مرحلة يتصاعد فيها و عى نشتنا المسلم و أجيالنا الواعية، حتى يتبينوا واقع الدعوات و التيارات التى تحاول تجديد تلك الفرقة، و إعادة ذلك الخلاف بعقليات متحجرة و دعوات متخلفة، لا- تختلف فى دوافعها و حقيقتها عن عوامل و أسباب قيام الفرقة فى المراحل الأولى من التاريخ الإسلامى.

و الدعوة الصادقة تبقى محتفظة بتأثيرها و نقائها، و دعوات الفرقة مفضوحة مهما تلبّست ستار العلم أو برقع الثقافة، و إسهاما فى تحمل مسئولية نشر الألفة و المحبة، نعد عن التحامل على أحد، و لا نتجاهل واقعا نقف عليه، أو برهانا يفرض نفسه.

فالتزام النظرة الصائبة و الدعوة الصادقة يجعل ترسّبات الماضى موضعا للانتقاء و الاختيار، فيهمل ما كان منه مشوبا بهذه الصفحات، و يعتمد ما كان منها مدعاة للوحدة و الائتلاف.

لقد عصفت بالمجتمع الإسلامى عواصف الخلاف، و ظهر التصدّع فى الصفوف بعد أن منى الإسلام بداء عصبية عمياء، و مذهبية ما أنزل الله بها من سلطان، و كثرت عوامل الخلاف، و قويت شوكة الجهلة عند ما حورب العلماء، و رمى الفلاسفة بوجه عام بالزندقة، و تشعبت فروع ذلك، و أصبح المجال واسعاً لزراع بذور الفرقة، و كثر الصراع فى مسائل افترق المجتمع حولها، فتفرقت الكلمة، فمنها الجمود الفكرى.

و الجمود الفكرى - كما تقدم - كظاهرة قوية فى هذا الواقع المؤلم، بعد أن جعل الإسلام حرية الفكر نبراساً للعقول و الأفهام، و طريقاً للاهتداء إلى عالم الحق، و أصبح المفكرون فى نظر ذوى الجمود و فى نظر من آثر التسرّع فى الحكم على الأشياء قبل معرفتها، لعجزه عن المجاراة و المساهمة فى حركة الفكر أهواء أو زندقة، فذهبت الدعوة الصادقة ضحية الحجر على حرية العقل، أو نتيجة الجمود الفكرى الذى أقرته سلطات جائرة و أوضاع منحرفة و تدخلات مختلفة، فكان ذلك حائلاً دون تمتع الناس بحقوقهم.

و كان الذين يلتزمون نهج التحرر الفكرى و الاحتكام إلى العقل كالشيعة و المعتزلة و غيرهم من رجال الفكر قد لاقوا فى سبيل حرية الفكر بلاء، و واجهوا محناً، لأنهم لم يحجبوا نور العقل بظلمة التبعية العمياء، فربطوا بينهم و بين من شدّ فى علم الكلام عن النهج القويم، و ذلك عند ما أقبل المسلمون على دراسة الكتب المنقولة من كتب الأوائل من: منطق و رياضيات و طبيعيات و العلوم الإلهية و الطب و الحكمة العملية و غيرها من علوم الأوائل التى نقل شطر منها فى عهد الأمويين، ثم أكمل فى عهد العباسيين. فقد ترجموا مئات الكتب اليونانية و الرومية و الهندية و الفارسية و السريانية إلى العربية، و أقبل الناس يتدارسون مختلف العلوم، و لم يلبثوا كثيراً حتى استقلوا بالنظر، و صنّفوا فيها كتباً و رسائل، و كان ذلك يغيض علماء

الوقت، ولا سيما ما كانوا يشاهدونه من تظاهر الملاحدة و الدهريين، و الطبيعية و المانوية الخ (1).

و من المظاهر المؤلمة ما تعرّض له أبو جعفر بن جرير الطبري-صاحب التاريخ و التفسير المشهورين-سواء في حياته أو في مماته، فنحن نعلم أن للأسموات حرمة، و لأن كانت غريزة الكره و الحقد تجد مجالها بين الأحياء، فإن ارتحال الطرف الآخر كاف للكفّ عن استمرار الغرائز الملتوية. يقول ابن كثير: «و دفن في داره لأن بعض عوام الحنابلة و رعاعهم منعوا من دفنه نهاراً، و نسبوه إلى الرفض. و من الجهلة من رماه بالإلحاد، و حاشاه من ذلك كله. بل كان أحد أئمة الإسلام علماً و عملاً بكتاب الله و سنة رسوله، و إنما تقلدوا ذلك عن أبي بكر محمد بن داود الفقيه الظاهري، حيث كان يتكلم فيه و يرميه بالعزائم و بالرفض. و لما توفي اجتمع الناس من سائر أقطار بغداد، و صلوا عليه بداره، و دفن بها، و مكث الناس يترددون إلى قبره شهوراً يصلون عليه. و قد رأيت له كتاباً جمع فيه أحاديث غدير خم في مجلدين ضخمين، و كتاباً جمع فيه طريق حديث الطير. و نسب إليه، أنه كان يقول بجواز مسح القدمين في الوضوء، و إنه لا-يوجب غسلهما) و بمرور الوقت عجز خصومه عن طمس شواهد علمه، فأخذوا بالقول بأن هناك طبريين أحدهما شيعي يستحق هذا العداء. و إن كل ما جاء من الحق على لسان الطبري، و كل ما ذكره هذا المؤرخ و المفسر الكبير من الحقائق هو من الطبري الآخر، يقصدون محمد بن جرير بن رستم المحدث الإمامي الثقة، و قد اشتهر بكتابه (المسترشد في الإمامة) و عرف بالمناظرة و الكلام، و ليس هناك ما يساعد على الخلط بين الاثنين، فأثار كلّ منهما مستقلة و معروفة، و القول بمثل هذا ينم عن القصد السيئ.

و كان للمسلمين مكانة في علم الكلام و غيره، و امتازوا عن سواهم بأمر كثيرة.

و كانت مقاومة المفكرين بأساليب مختلفة و عبارات لا تعبّر إلا عن سوء الفهم. فقد رمى المتكلمون بالكفر و الزندقة و الخروج عن الدين حسب ما ترتضيه السياسة، و ما تراه في خدمة مصالحها، فوسعت شقّة الخلاف بين المتكلمين و بين الفقهاء، و شجعت الحملة على المتكلمين و رميهم بالكفر. فكانت تلك الحركة ضد علم الكلام سبباً في تضيق آفاق الفكر، و سد أبعاده، و تقييد روح الإبداع، حتى هدّد العلماء من المتكلمين.

ص: 21

وقد ساعد على ذلك آراء بعض أئمة المذاهب و أتباعهم، إذ كان بعضهم يرى لزوم تعزير أهل الكلام و ضربهم وإهانتهم، و أن يطاف بهم في العشائر. و اشتهر عن الشافعي أنه قال: إياكم و الكلام. و قال: لأن يبتلى الله المرء بكل ما نهى عنه ما عدا الشرك به خير من أن ينظر في علم الكلام.

و وجد زعماء الفتن و عناصر الشغب فيما أوتر عن الإمام الشافعي و غيره سلاحا مجردا يستخدمونه لتحقيق أغراضهم، و تغيير الواقع إلى جمود و تخلف. رغم أن هذه الآراء في حقيقتها و ظروفها تعبّر عن حرية الرأي و قدرة الاجتهاد، و مع هذا نجد أن الإمام الشافعي ينص على دوافع مثل هذا التوجه، و يلتفت إلى تلك الأجواء، إذ قال للربيع: إياك و علم الكلام. و عليك بالاشتغال بالفقه و الحديث. و لئن يقال لك أخطأت خير من أن يقال لك كفرت (1).

وقد نضج علم الكلام في عصر الشافعي، و اتسع نشاط المتكلمين، و أثرت هناك مسائل كثيرة دار حولها النقاش و الجدل. و لا بد لكل عالم أن يلتمس الدلائل و البراهين من طريق المعقول لتقوية جانبه، و الردّ على مخالفيه، و لكن من باب درء الخطر من الانهزام أمام المفكرين، أغلق الباب بحرمة تعلم علم الكلام، بل حرمة الاستماع إليه، و حكموا بكفر من يتعلمه.

و كان للفلسفة في أول زمن الدولة العباسية سوقا رائجا، فقد كانت بغداد في أواسط القرن الثاني إلى أواخر القرن الخامس ميدان الأفكار الجديدة، كما كانت البصرة كذلك منذ القرن الأول، يقصدها العلماء من البلدان القاصية، و يتذكرون صنوف العلم، و يتقارضون بأنواع الحكمة. و كانت بغداد مدة ثلاثة قرون مبعث الحركات الفكرية، و العلماء فيها يوحدون صفوفهم.

و كانت الحكومة لا تعارض مجالس النظر و الحجاج ما لم يضر بمصالحها، أما إذا كان البحث في الإمامة و ما يتعلق بها من إعطاء الفكر مجالاً في أمور يتطلب البحث فيها إيضاحاً لما أبهم منها؛ فإن ذلك محظور لا تسمح الدولة في خوضه.

و اشتدت الحكومات في القرن السادس بمطاردة علوم الحكمة. و حرّم ابن الصلاح المنطق و الفلسفة، و لم يتمكن أحد في دمشق من قراءة كتبها، و كان المنادى

ص: 22

ينادى: من ذكر غير التفسير و الحديث و الفقه، و تعرّض لكلام الفلاسفة ينفى. و أفتى الذهبى بتحريق كتب علوم الفلسفة، و إعدام علمائها و القائمين عليها، إذ يقول: و ما دواء هذه العلوم، و علمائها القائمين بها علما و عملا إلا التحريق و الإعدام من الوجود (1). حتى عدّ الاضطهاد فى سبيل المذاهب و الأفكار سمة السياسة لأنه «منذ ظهر الإسلام كان من يخالف الجمهور فى المعتقدات و الآراء يحمل إلى الولاة، فإما أن يستتيبوه أو يعاقبوه، و ما فتئ المهيمنون على الشريعة يثيرونها حربا شعواء على كل من جاهر بفكرة دعا إليها أو لم يدع، و يكفى فى بلائه خروجه عن المألوف و العرف» (2).

و انتهب العوام و المتفكّهة فرصة غضب الملوك على الفلاسفة، فراحوا يروّجون التهم حول كثير من علماء الأمة إذا وجدوا ميلا من السلطان نحوهم، و كان شهاب الدين السهروردى من الحكماء الذين قربه الملك الظاهر غازى ولد السلطان صلاح الدين، فحسده علماء عصره، و ناظروه فانتصر عليهم، فالتجئوا إلى الدسّ و الكذب، و رموه بالكفر و الإلحاد، و طلبوا استئصال الشرّ بقتله حتى لا ينفذ إلحاده، فتّم لهم ما أرادوا، و أمر السلطان ولده بقتله بلا مراجعة، فقتله سنة 586 هـ عن 36 سنة، و عرف فى التاريخ بالشاب المقتول.

و قد أورد ابن أبى أصيبعة أن الظاهر غازى بن صلاح الدين، دعا الفقهاء إلى مساجلة السهروردى، فانتصر عليهم و أفحمهم، فزاد حقدهم عليه، فدبروا له تهمة المروق عن الدين، و عملوا محاضرة بكفره، و سيّروها إلى الملك الناصر صلاح الدين و قالوا: إن بقى هذا فإنه يفسد اعتقاد الملك الظاهر، و كذلك إن أطلق فإنه يفسد أى ناحية يكون بها من البلاد. و زادوا عليه أشياء كثيرة من ذلك، فبعث صلاح الدين إلى ولده الملك الظاهر بحلب كتابا فى حقّه بخط القاضى الفاضل و هو يقول فيه: إنّ هذا الشاب السهروردى لا بد من قتله (3).

و مكانته فى الفلسفة لا ينكرها حتى أعداؤه، فهى من أبرز صفاته عندهم، كما

ص: 23

1- (1) كرد على، الحضارة الإسلامية 43/2.

2- (2) المصدر نفسه ج 2 ص 69.

3- (3) ابن أبى أصيبعة، الطبقات ص 642.



أن من أبرز معالم سيرته هو قتله دون بينة. حتى أن السلطان الذي غلب عليه الذين ساءهم انتصار السهروردي عليهم ندم و نقم على الذين أفتوا في دمه، و قبض على جماعة منهم و أهانهم و أخذ منهم أموالا عظيمة (1) كذلك فإن الذين يرمونه بالزندقة من المؤرخين لا يملكون إنكار براعته في علم الكلام، و كونه مناظرا محججا زاهدا من أذكيا بني آدم و رأسا في معرفة علوم الأوائل (2).

و ذكر العماد الأصفهاني - المعاصر له - أن الفقهاء دعوا السهروردي للمناقشة في المسائل الفقهية، و في مسائل الأصول، فظهر عليهم، فحقدوا عليه، و بيتوا أمرهم إلى الثأر منه، فدعوه إلى مناقشة عنية أخرى في مسجد حلب، و سألوه: هل يقدر الله على أن يخلق نبيا آخر بعد محمد؟ فأجابهم الشيخ: بأن لا حدّ لقدرته. ففهموا من إجابته أنه يجيز خلق نبي بعد محمد صلّى الله عليه و آله و سلّم و هو خاتم النبيين، و من ثمة أعلنوا مروقته من الدين، و كتبوا محضرا بكفره، سيروه إلى السلطان، فأمر بإعدامه و إحراق كتبه (3).

و استمر أعداء حرية الفكر و دعاة الخضوع لسلطان الجهل و التقليد الأعمى بالحرب لعلماء الأمر، فثارت الأحقاد، و ظهرت العداوات و الانتقام. فهذا الفيلسوف ابن رشد - و كان مالكي المذهب و من فقهاءهم - تولى القضاء بإشبيلية مدة تزيد على عشر سنوات، و قد قربه الملك أبو يوسف الملقب بالمنصور، مما أثار حسد الفقهاء و المتمزتين، فرموه بالكفر و الزندقة، و تمكنوا من تغيير الخليفة، فنقم عليه و استجوبه فقهاء قرطبة، و قرروا أن تعاليمه كفر، و لعنوا من يقرأها، و حكموا عليه بالكفر و النفي من بلده. و أمر الخليفة بحرق كتبه و كتب الفلسفة في جميع البلاد، و لعن ابن رشد، و نفى إلى جزيرة في قرطبة. و إنما لم يحكم على ابن رشد بالقتل أسوة بغيره ممن اتهم بسوء الاعتقاد لأن الذي يرأس المحكمة و يصدر الأحكام كان من علماء المالكية، فكانت المحكمة التي تعقد لمحاكمة المتهمين بالبدعة أو الضلالة أو الزندقة إنما يسند أمرها إلى القضاة المالكية لأنهم يخالفون سائر المذاهب في هذه التهم التي تلصق بمن تحاول الدولة قتله باسم الدين.

ص: 24

1- (1) المصدر نفسه ص 644.

2- (2) شذرات الذهب ج 2 ص 290. [1]

3- (3) انظر مقدمة كتاب هياكل النور.

ف عند المالكية يقتل المتهم بالضلال أو الزندقة أو البدعة أو ما شئت فقل من مقررات الحكم الجائر. فيصدر الحكم في حقه و إن تاب، بخلاف بقية المذاهب.

لأن رأى مالك أن المبتدع أو الزنديق ينفذ فيه حكم الإعدام و إن تاب.

لقد أدى شيوع ذلك إلى حالات من الجهل و الجمود و تحكم الفوضى. فنشطت العامة بما يرضى أطماعهم و يجلب عليهم نعم السلطة و المتحكمين، فأصبحت الطبقات الحاكمة هي التي تقرّ العقائد التي تراها أكثر نفعا لها و أقرب إلى الاستجابة عليها، فتلتقى إرادة المتحكمين مع رغبة المتتقذين و المستفيدين من تيارات التعصب هذه. ففي سنة 433 هـ تصدر الدولة أمرا باتباع ما تراه من العقائد، فكان منشورها يتضمن أهم المسائل العقائدية التي هي محور الخلاف في ذلك العصر، فهو يتضمن بعد التوحيد و الأقرار لمحمد صلى الله عليه و آله و سلم بالرسالة: عقائد مذاهب أهل السنة. و جاء فيه: أن من قال أن القرآن مخلوق فهو كافر حلال الدم. و أن يلتزم الناس بحب الصحابة كلهم. و أنهم خير الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و أن خيرهم كلهم و أفضلهم بعد رسول الله أبو بكر الصديق، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، و أن يشهدوا للعشرة المبشرة بالجنة، و أن يترحموا على أزواج النبي صلى الله عليه و آله و سلم و من سب عائشة فلا حظ له في الإسلام، و لا يقول في معاوية إلا خيرا، و لا يدخل في شيء شجر بينهم (1).

و وقع المنشور في أغلب ما تضمنه موافقا لرغبة العامة، حيث يؤدي بمحتواه إلى شلّ الحركة العلمية التي تخالف آرائهم. فاتباع ذلك النظام لازم، و مخالفه يعدّ كافرا، و قد كتب الفقهاء خطوطهم، و حكموا بفسق و كفر المخالف. كما أصبحت السلطة القضائية تخضع لهذا المرسوم، و تعاقب بموجبه، فمن اتهم بالمخالفة حكم بكفره، و حلية دمه، فأصبح العلماء بين خوف العامة و غضب السلطة، و ليس وراءه إلا سيف النعمة، فلا يستطيع أحد أن يبدي رأيا فيما توصل إليه من وراء تفكيره و النظر العقلي، و لا يستطيع المؤرخ أن يسجل حادثة فيها مخالفة لرأى السلطة، و ليس لباحث أن يثبت شيئا بعد تحقيقه و صحته، كما ليس للمحدث أن يناقش حديثا أو يثبت ما لا يتفق و آراء العامة. فكم ضاع من وراء هذا التحجير من الأفكار الحرّة و الحقائق التاريخية التي أهملها العلماء مخافة أن يعرفوا بها فيهلكوا، و بذلك حقنوا دماءهم،

ص: 25

و اتقوا نقاة أنجتهم من تسلط العتاة. فضاعت أخبار كثيرة، و خمدت القرائح، و شاع الجمود الفكرى، و فشى الجهل. و السلطة من وراء الجهال تشدّ أزرهم، و تفتك بمن يحاول الخروج عن الطاعة» (و إنه لطبيعى كذلك فى أن يكون الملك عدوا لدودا لكل بحث و لو كان علميا يتخيل أنه قد يمس قواعد ملكه و تقويض كرسيه و لهذا ضغطوا على حرّية العلم، و استبدّوا بمعاهد التعليم، و ربطوها بعجلة الدولة» (1).

و برغم ركام الأهواء تجدد الحقيقة لها ألسنة و أقلاما تعبّر عن جوهر الدافع فى الإبقاء على الجمود و بواعث سياسة الحكام الذين أحكموا إغلاق منافذ الفكر ليهيمنوا على الأمة، و أغلقوا باب الاجتهاد الذى تشبّث الشيعة لفتح حماية للفكر و إغناء للفقه، فلما رأى بنو العباس أن وسائلهم فى القهر لا- تجديهم، أرادوا أن يأتوا الناس من باب التعليم، فيتولوا أمره بأنفسهم، ليربوا العلماء على الخضوع لهم، و يملكوهم بالمال من أول أمرهم، و كانت الأمة هى التى تتولى أمر التعليم بعيدا عن الحكومة، كما تتولاه الآن الأمم الراقية.. فيقوم فى المساجد حرا لا يخضع لحكم ملك أو أمير، و يتربى العلماء بين جدرانها أحرارا لا- يرقبون إلا- الله فى علمهم، و لا يتأثرون بهوى حاكم، و لا تلين قناتهم لطاغية أو ظالم. فأراد بنو العباس أن يقضوا على هذا التقليد الكريم، و يتولوا بأنفسهم أمر التعليم بين المسلمين، فأخذوا ينشئون له المدارس بدل المساجد، و يحسون عليها من الأوقاف الكثيرة ما يرغب العلماء فيها، و يجعل لهم سلطانا عليهم، و أخذت الممالك التابعة لهم تعمل فى هذا بسنتهم، حتى صار التعليم خاضعا للحكومات بعد أن كان أمره بيد الرعية، و كان لهذا أثره فى نفوس العلماء فنزلوا على إرادة الملوك، و لم تقو نفوسهم على مخالفتهم فى رأيهم أو توجيه شىء من النصح إليهم (2) فلما انتشرت المدارس الحكومية قام بنو العباس بالخطوة المكملّة، فطلب من المنقّذين لسياستهم المشتغلين بالعلم ألا يذكروا شيئا من تصانيفهم، و ألا يلزموا الفقهاء بحفظ شىء منها؛ بل يذكروا كلام الشيوخ السابقين تأدّبا معهم، و تبرّكا بهم. فأجاب جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزى الحنبلى بالسمع و الطاعة.

ص: 26

1- (1) كرد على: الحضارة الإسلامية.

2- (2) انظر: عبد المتعال، الصعیدی، فى ميدان الاجتهاد ص 7.

فيما كان نهج الشيعة منذ صدر الإسلام حتى يومنا هذا يقوم على إثبات مذهبهم بالأدلة المنطقية، والكتابة العلمية، وكان مدار الإمامة و مصطلحاتها الفنية من أكبر ما اهتموا به لأنها من أركان الدين، وهي أصل إقامة المجتمع و مصدر بناء هيئاته، وهم الذين قسّموا علمها، و بوّأ أبوابه، و عيّنوا مجاله، و رسموا حدوده (1).

و كان للشيعة بتلك العصور ألمع الشخصيات الإسلامية كهشام بن الحكم، و كان يرأس مدرسة فكرية إسلامية أخذ تعاليمها من أستاذه الإمام الصادق عليه السّلام و يقول فيه ابن النديم: أنه هو الذي فتق الكلام في الإمامة، و هدّب المذهب، و سهّل طريق الحجاج. و كان حاذقا بصناعة الكلام، حاضر الجواب (2). و من جزاء شهرته في الكلام مع علوّ رتبته بالفقه و سائر العلوم، فقد تحاملوا عليه، و نسبوه إلى سوء الاعتقاد، كما طاردهته السلطة أيام هارون الرشيد، فهرب و مات متخفيا. و هكذا غيره من فلاسفة الشيعة و علمائها الذين امتحنوا في سبيل عقيدتهم أمثال: مؤمن الطاق محمد بن النعمان، و أبو يوسف الكندي، و بنى نوبخت، و الرازي، و الهمداني و غيرهم من متكلمي الشيعة و فلاسفتهم. و كان اشتهاهم بعلم الكلام مهّد لأعدائهم أن يتهموهم بسوء الاعتقاد، و البدعة و الكفر، و هذه البدعة هي بدعة سياسية، لأن مخالفتهم لنظام الحكم السائد جعلتهم مبتدعة في نظر أعوان السلطة. و نتيجة لذلك التعصّب الأعمى شاعت الافتراءات، و مؤهت في إطار فقهى أو مذهبي. لأن الشيعة التزموا نهج أهل البيت كأئمة هداة و صفوة معصومة تمثل الرسالة في أصولها و المبادئ في نقائها. و الذين كان نصيبهم الاضطهاد و الظلم، و الابتعاد عن السلطة التي انجرت إلى القيم الدنيوية و المادية. فوضعت السلطة مخططا لمواجهة التيار الذي يمثل الالتزام بخط أهل البيت، و التخلص من رجالات الشيعة و أفكارهم بكل السبل، سواء كانت بالقتل و الاعتداء، أو التحريف و قلب الحقائق، و العمل على نبذ كل ما يمتّ لهم بصلة. فوصل الأمر بالمتفقيين إلى الدعوة إلى ترك أحكام الشرع إذا كانت تشبه أحكام الشيعة. فعلى سبيل المثال لا الحصر:

1- قالوا: و من المصلحة أن يمنع المصلى عن اختصاص جبهته بما يسجد عليه

ص: 27

1- (1) النظريات السياسية الإسلامية ص 81-82.

2- (2) الفهرست ص 249-250. [1]

من أرض وغيرها لأن ذلك الاختصاص من شعار الشيعة (1).

2- حكم بعضهم بأفضلية المسح على الخفين بدون دليل، وإنما كان ذلك الحكم، لأن الشيعة طعنوا في المسح على الخفين، وإحياء ما طعن فيه المخالفون من السنن أفضل من تركه (2).

3- يقول ابن تيمية في منهاجه- عند بيان حرمة التشبه بالشيعة-: و من هنا ذهب من ذهب من الفقهاء إلى ترك بعض المستحبات. إذ صارت شعارا لهم (الشيعة) فإنه وإن لم يكن الترك واجبا لذلك، لكن في إظهار ذلك مشابهة لهم، فلا يتميز السنن من الرفضى، ومصلحة التمييز عنهم لأجل هجرانهم ومخالفتهم أعظم من مصلحة المستحب. وإن هذا لمن الإفراط فى الانحراف والغفلة عن أكبر خطأ يرتكب فى ترك أوامر الله سبحانه.

و لا زالت الحالة هذه تشق طريقها حتى فى العصور المتأخرة، كما يحدثنا الشيخ القاسمى عنهم بقوله:

«يدرس كثير من العلماء للطلبة فى المساجد، وهؤلاء المدرسون ندر من يكون منهم غير متعصب أو لا يوجد، ولذلك لا تخلو المساجد العامة التى يكثر مدرّسوها من ثورات تتناقلها الأفواه، وما منشؤها إلا التعصب، وهاك بيان ذلك: نرى مدرّس الفقه غير الحكيم يقرأ الفروع قراءة مشوبة بهضم المخالف لمذهبه وعدم رؤياه بشيء، وعدم الاعتداد بمذهبه كليا إلا ظاهرا، فلا ينصرف تلامذته من دراسة إلا وهم مملوون قوة بها، يدفعون من خالفهم فى تلك الفروع، وقد يرون بطلان ما عليه غيرهم. كما يعلمونه كراهة الاقتداء بالمخالف، مما يتبرأ منه هدى السلف والأئمة المتبوعين عليهم الرحمة والرضوان. وكما يحاولون دليلا ضعيفا فى مقابلة قوى كمرسل فى مقابل مسند، وإيثار ما رواه غير الشيخين على ما رواه مما يتبرأ منه الإنصاف» (3).

وعلى أى حال فإنّ التعصب المذهبى قد أحدث مظاهر شاذة فى المجتمع الإسلامى، ووُلد مراحل سوداء، سادتها ظروف سيئة ومتباينة، وقد رأينا ما أحدث

ص: 28

1- (1) انظر غاية المنتهى فى الجمع بين الإقناع والمنتهى ج 1 ص 135.

2- (2) نيل الأوطار ج 1 ص 176.

3- (3) إصلاح المساجد ص 164.

التعصب من فرقة و انقسام بين صفوف أمة واحدة ذات كتاب واحد و نبي واحد، ولكنه -و الحمد لله- لم يبلغ الخلاف إلى مستوى العقائد الأساسية التي هي دعامة الإسلام و ركيزة وحدة الأمة. و رغم أن روح التعصب و نزعات التحكّم قد أدت إلى اختلال القيم و تشويه المبادئ من خلال إخضاعها للأهواء و التعصب و التحزب؛ فإن روح الحرص و الإيمان بقيت تواجه حملات التضليل و تيارات الانقسام، فراح الكثيرون من علماء هذه الأمة و رجالاتها ينبذون الخصومة، و يرفضون التحزّب و إثارة روح الحقد، و يتمسّكون بروح الإخاء إطاعة لأمر الله و عملاً بمبادئه، و يبثون روح التفاهم، لتنمو من جديد. و عملوا جاهدين لحفظ تراث الإسلام، و إزالة كل ما يحول دون التقاء أبنائه على صعيد الأخوة الإسلامية.

و لو حاول مثير و الفتنة الاحتكام إلى مبادئ الإسلام و إلى روح الرسالة فيما يدعون من أمور و مسائل، لباءت حملاتهم و تحركاتهم بالفشل و الخسران. لكنهم توسّلوا بأمر مختلفوها، و نصوص أولوها لترضى مراميهم و أغراضهم؛ فصنعت في غمرة الفهم و الأقولات أسس و أصول الحياة التي أرسى دعائمها الإسلام، فكان من البديهي أن يكون الجمود الفكري غطاء لموجات التعصب و التحزّب التي أحالت الألفة إلى تناحر، و الأخوة إلى عداة.

و من تلك المشاكل مسألة خلق القرآن. و قد أشرنا لها سابقاً، و زيادة في البحث نذكر هنا بعض ما تدعو الحاجة لذكره:



تأثر المأمون بحركة العلوم التي كانت سائدة في عصره، وكانت حالة الأمة الفكرية قد اتسمت بخصائص و ظواهر مهمة، أثرت في السياسة من خلال شخصية الحاكم الذي نشأ و ميله إلى العلوم ينمو معه، حتى تفرّد بمواقف تكشف عن وعى و تصوّر خضوعاً للمنطق، و إذعانا للحق، خاصة في الأمور و الأحداث التي اكتنفت مسيرة الخلافة منذ قيام نظام الخلافة.

و كان من أبرز جوانب الحياة الفكرية، ظهور تيارات و اتجاهات كلامية و عقلية اهتمت بعقائد و أديان الأمم الأخرى، التي راحت بقاياها تكيّد للإسلام. فتعرّف المسلمون على مضامين و مناهج النشاطات المعادية، و تمثّلوها، و صاغوها. فماجّت مواطن الفكر الإسلامى بدراسات و أصناف من العلوم، عبّرت عن قدرات العلماء و المتكلمين الإسلاميين، فأسهّموا مساهمة كبرى في ردّ كيد الأعداء إلى نحورهم، و مناجزتهم بنفس السلاح الذي أشهروه بوجه الإسلام.

ولمّا تسلّم المأمون سدّة الحكم -بعد الأحداث الدامية المعروفة- مال بالنظام إلى الجهة التي تنسجم مع ميوله، و تناسب ما نطلق عليه «الحركة الفكرية» حيث غلبت صفة البحث و الطابع العلمى، فكان المعتزلة في هذه الفترة من أبرز المناظرين و أنشط المتكلمين، فكانوا أصحاب جدل و أنصار رأى. غير أنهم في الفقه و الأصول لم يتفقوا على قواعد ثابتة، لذلك لم يخرجوا من تيار الجدل و النظريات، و قد حسبوا كثيرا على الشيعة، بل أن البعض نظر إلى الأمر معكوسا و تناسى أصول الشيعة و وجودها التاريخى الذى يسبق ظهور المعتزلة. و ظل الالتباس قائما حتى اليوم من جرّاء اشتراك المعتزلة مع الشيعة في بعض الخصائص الفكرية: من اهتمامهم بالعقل، و رعايتهم



الفكر. وقد أسهم المأمون نفسه فى إثارة القضايا التى تخص عقيدة الشيعة، منها:

مسألة الخلافة، والأحقية والأفضلية؟ ولكن العمل السياسى كان يتمثل فى الموقف من العلويين، وإرساء قواعد الحكم على أساس رضا الناس وقبولهم النظام العباسى عن قناعة، بعد أن فضحت سياسة السابقين من آباءه خدعة الدعوة إلى الرضا من آل محمد، وكيف كثر العباسيون عن أنياب حقد أشد وأدهى على العلويين من حقد الأمويين. فكان أن حمل المأمون العلويين من المدينة وفيهم الإمام الرضا على بن موسى، وجاء بهم إلى خراسان. وكان غرضه شخص الإمام الرضا عليه السلام فأنزل العلويين دارا، وأنزل الإمام الرضا دارا وأكرمه وعظم أمره.

واختار المأمون أن يعلم الإمام الرضا بقصده من وراء ذلك عن طريق الوسطاء، وادعى أنه يريد أن يخلع نفسه من الخلافة ويقلدها إلى الرضا عليه السلام وكل الدلائل تشير إلى كذب هذا الادعاء. فالمأمون حاكم لم يتورع عن قتل أخيه فى سبيل كرسى الخلافة، ولا يمكن بأى حال أن يخرج عن أهم قواعد الحكم الجائر، ويتخلص من كره آل على، وإن ادعى ذلك وجاهر بأنه وجد أن العباسيين قد ظلموا وغضبوا آل على حقهم. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن الإمام الرضا فى سيرته وجوده، هو امتداد حى واستمرار متوقد لسيرة ابن الشهيد الإمام موسى بن جعفر، لم يحفل بالدنيا، ولم تبعده نوائب الدهر عن أمور دينه ورعاية أهل الإسلام بالدعوة إلى التمسك بالعقيدة والاتجاه إلى الإخلاص فى الدين.

وإن قدر المأمون بعض نظرة الإمام الرضا إلى السلطة السياسية من حيث تصنيفات الواقع، فليس من السهولة بمكان تناسى حقائق التاريخ الأسود للعباسيين وفضائعه.

ويروى الشيخ المفيد -قدس سره- فى الإرشاد، أن الإمام الرضا أنكر هذا الأمر وقال: «أعيذك بالله يا أمير المؤمنين من هذا الكلام، وأن يسمع به أحد» فرد عليه الرسالة: فإذا أبيت ما عرضت عليك، فلا بد من ولاية العهد من بعدى. فأبى عليه الرضا أباء شديدا. فاستدعاه، وخلا به و معه الفضل بن سهل ذو الرئاستين، ليس فى المجلس غيرهم وقال: إنى قد رأيت أن أقلدك أمر المسلمين، وأفسخ ما فى رقبتي وأضعه فى رقبتيك. فقال له الرضا عليه السلام: «اللهم الله يا أمير المؤمنين، إنه لا طاقة لى بذلك، ولا قوة لى عليه..» قال له: فإنى موليك العهد من بعدى. فقال له: «اعفنى

من ذلك يا أمير المؤمنين». فقال له المأمون كلاما فيه تهديد له على الامتناع عليه، وقال فى كلامه: إن عمر بن الخطاب جعل الشورى فى ستة أحدهم جدك أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام و شرط فيمن خالف منهم، أن يضرب عنقه، و لا بد من قبولك ما أريده منك، فإننى لا أجد محيصا عنه.

فكان جواب الإمام الرضا أبلغ تعبير عن فهم البواعث التى وراء مثل هذا الأمر، و خير رد يعزى الخطة التى ترمى إلى ترميم كيان الظلم بالإساءة إلى نهج آل البيت، و محاولة ثنيهم عن الابتعاد عن الركون إلى الظلمة، و جهادهم للإبقاء على سلطان الدين فى روحانية النفوس و علاقات المجتمع. و لما لم يجد الإمام الرضا أمامه إلا سيف الحكام قال للمأمون: «فإنى أجيبك إلى ما تريد من ولاية العهد على أننى لا أمر و لا أنهى، و لا أقضى، و لا أولى و لا أعزل، و لا أغير شيئا مما هو قائم». فأجابه المأمون إلى ذلك كله، لكى يحقق الغرض السياسى الذى أراد، و زين له و همه ذلك، فظن أن خدعة ولاية العهد تتطلى على الناس فيما جعلها فارغة ليست بشروطه التى عول عليها، بل بشروط الإمام الرضا.

و على هذا المنوال، عالج الجانب الفكرى و الحياة العقلية النشطة، فأقحمها فى دوائر السياسة و الحكم، و جعل رجال الفكر و أصحاب الاتجاهات العقلية- التى يفترض فيها ممارسة الدفاع عن الرأى- أعمدة للتحكم، فأوقع الحركة الفكرية فى تناقض. و هكذا استطاع المأمون أن يستفيد من ميوله و اهتماماته، و يؤثر فى أولئك الذين ارتضوا أن يكونوا جزءا من السلطة على ما هم عليه من صفات و سمات فكرية، تجعلهم من أهل العدل.

فى سنة 212 هـ أظهر المأمون القول بخلق القرآن، و تفضيل الإمام على بن أبى طالب عليه السلام و قال: هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم (1).

و فى سنة 218 هـ أعلن و جوب الاعتقاد بخلق القرآن، و أنه حادث غير قديم، و ذلك لنفى التشبيه عن ذات الله، و نفى الصفات عن الذات العلية، لئلا تتصف الذات بما يعددها. و نفى المعتزلة و من وافقهم من المسلمين الاعتقاد بقدوم الصفات كقدم

ص: 33

الذات، لأن الذات هي وحدها متّصفة بالقدم، و من أجله كانت الصفات محدثة ظاهرة في الغير، والكلام محدث، والقرآن محدث لأنه من الكلام.

ولجأ المأمون إلى استخدام القوة لفرض هذا الرأي، وأعدّ لسياسته في هذا المجال عدة زمنا طويلا، ونصب ديوانا للمحنة، وحمل الناس على هذا الاعتقاد، ومحاربة من يقول بأن القرآن قديم. لأنه من صفات الله، والذين لم يروا بدا من إثبات الصفات للذات وإنها قديمة قدمها الخ...

فحصل الانقسام، وعقد مجلس لامتحان، واختارت الدولة له أشد الناس جدلا من المعتزلة وغيرهم، كما اختار جماعة من الجلاّدين الأشداء الجفأة الذين مرونا على الضرب بالسياط، والحراس الغلاظ، وجعل في الديوان عقابا لكل ممتنع عن الأقرار (و تبتدى العقوبة بالحرمان من الحق-الذى نسميه في حياتنا-بالحق المدني في الحياة، وتنتهى بخشبة الصلب، فإذا لم يكن للرجل رزق و وظيفة عوقب عقوبة بدنية بقدر ما يمتنع عن الإجابة أو يحتال في الإنكار، أو يصطنع الخلاص) (1).

وهنا لا بد من الإشارة إلى التقاء المعتزلة مع الشيعة في القول في كون كلامه تعالى لا يكون إلا بكلام محدث، لأن حقيقة المتكلم من وقع منه الكلام الذى هو هذا المعقول بحسب دواعيه وأحواله، والكلام المعقول ما انتظم من حرفين فصاعدا من هذه الحروف المعقولة التى هى ثمانية وعشرون حرفا، إذا وقع ممن يصح منه أو من قبيل الإفادة. والدليل على ذلك أنه إذا وجدت هذه الحروف على هذا الوجه سمى كلاما، وإذا اختلّ واحد من الشروط لا يسمى بذلك. فعلمنا أنه حقيقة الكلام، ومتى ما وقع ما سميناه كلاما بحسب دواعيه وأحواله سمى متكلما، فعرفنا بذلك حقيقة المتكلم (2).

ولكن الشيعة لا يطلقون صفة «مخلوق» على القرآن، فكانوا أكثر حرصا على التنزيه وقالوا: ينبغى أن يوصف كلام الله بما سمّاه الله تعالى به من كونه محدثا، قال الله تعالى: ما يأتيهم من ذكرٍ من ربهم محدثٍ إلا استمعوه. وقال عز وجل: وما يأتيهم من ذكرٍ من الرحمن محدثٍ .

ص:34

1- (1) عبد العزيز سيد الأهل، شيخ الأمة أحمد بن حنبل ص 218.

2- (2) الشيخ الطوسى، الاقتصاد ص 65-67. [1]

و الذكر هو القرآن بدلالة قوله تعالى: وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ وَقوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ. وقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «القرآن محدث غير مخلوق وغير أزلى مع الله سبحانه». كما ورد عن غيره من أئمة الهدى النهى عن جعل اسم آخر للقرآن غير ما ورد عن الله.

لقد وصف الشيعة القرآن بما وصفه الله تعالى، فقالوا عربى لقوله تعالى:

بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ والعربية محدثة. و منعوا وصفه بأنه مخلوق، لأنه يوهم بأنه مكذوب أو مضاف إلى غير قائله، لأنه كالمعتاد من هذه اللفظة، قال الله تعالى: إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ وَ: إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ. وقال تعالى: وَ تَخَلَّقُونَ إِنْ كَأَفَنرى أن وصف الكلام بالخلق يأتى إذا أريد به الكذب أو الانتحال، كما يقولون هذه قصيدة مخلوقة و مختلفة، إذا كانت منتحلة مضافة إلى غير قائلها (1).

أما الأشعرية فيقولون إن الصفات التى أنيطت بها الأقوال و ابنتت عليها المسألة هى صفات معنوية، و هى صفات زائدة على ذاته، و بيان وجوب المشكلة يقتضى التفصيل، و نحن نقصد هنا الإشارة و ذكر إحدى القضايا التى نجم عنها أضرار و فرقة استمرت قرونا عديدة بآثارها، و توارثها حتى اليوم خلق عن أسلاف أورثوهم التعصب، و راحوا يستهزءون بما منّ الله عليهم من عقل و إدراك، و يؤثرون الجمود و التوقف عن النمو.

و القصد فإن المأمون أظهر من ألوان الاعتماد على المعتزلة و تقريريهم، ما جعلهم أعلى الناس مكانة و أوفرهم حظا، و خضعت مجالس المناظرات و النقاش لأهواء الحاكم، فكان مدارها المواضيع التى يرغب بها المأمون. و لا جدال فى تبنى المأمون لفكر المعتزلة، لكن نزعات الحاكم أو السلطان قد تغلبت على شخصية التلميذ أو ميول المتعلم، بل جعلها مادة للسياسة.

و المؤسف المؤلم أن توضع عناصر الغنى الفكرى و مناهج البحث فى خدمة أغراض السلطان، و تصبح من أسباب التدهور، و من وسائل الحاكمين و المتنفذين، فتؤدى إلى نتائج و عواقب لا تليق بالفكر الحر و العقل النير. و مع ما اتصف به المأمون من إمام و دراية، فإن كتابه السلطانى الذى أصدره سنة 218 هـ كان فى حقيقة أمره

ص: 35

تصرفاً إدارياً لا يختلف بشيء عن بقية إرادات الحكام، ولكنه تضمّن أفكار المعتزلة وآراءها، مما أساء إلى أهدافهم الأخرى التي تتصل بالعقل وحرية الفكر.

أما تنزيه الله سبحانه وتعالى عن الصفات التي يتصف بها المخلوقون، فالقرآن عندهم مخلوق وليس بقديم، فالله وحده قديم، وما ورد في القرآن هو كلام الله، ولكن عندهم أن الكلام لا يمكن أن يكون صفة لله تعالى هي ذاته كالعلم والقدرة، وأنكروا أن تكون الصفات أشياء وذواتا قديمة قائمة وراء الذات، لأن هذا يؤدي إلى تعدد القدماء، لذا فإن الذات والصفات شيء واحد. ويردّ الفلاسفة أن ذلك بعيد من المعارف، بل يظن أنه مضاف لها، وذلك أن العلم يجب أن يكون غير العالم، وإنه ليس يجوز أن يكون العلم هو العالم إلا إذا جاز أن يكون أحد المتضايقين قرينة مثل أن يكون الأب والابن معنى واحداً بعينه (1) بالنسبة لعقيدة الثالوث.

وأدت السياسة إلى أن يكون ذلك مثار فتنة شملت أيام المأمون والمعتصم والواثق، وحصلت من ورائها فرقة وتباعده، وصل الأمر إلى أن من يذهب إلى قدم القرآن يكفّر من يقول بأنه مخلوق، وذلك في عهد المتوكل، حيث ارتد عن تلك السياسة إلى منحى آخر، بعد أن كان بعض القضاة يسأل الشاهد عن هذه القضية، فإن أقر بأنه مخلوق قبلت شهادته وإلا ردّها (2).

ثم أفتى بعضهم وتأثير السلطة -بوجوب قتل من يقول بخلق القرآن، وبديهي أن هذا المفتى لم يستند بفتواه إلى دليل عقلي أو نقلي، بل كان مستندا إلى أمر تافه، وذلك أنه عند ما سئل عن دليل هذه الفتوى أجاب: أن رجلا رأى من منامه إبليس قد اجتاز بباب المدينة ولم يدخلها، فقيل لم لم تدخلها؟ قال إبليس: أغناني عن دخولها رجل يقول بخلق القرآن (3).

ونظير هذا ما حدثنا به التاريخ عن المهدي العباسي عند ما دخل عليه شريك بن عبد الله القاضي، فلما رآه المهدي، قال: عليّ بالسيف والنطع. قال شريك: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت في منامي كأنك تطأ بساطي، وأنت معرض عني، وقصصت رؤياي على من عبّرها فقال: إنه يظهر لك طاعة، ويضمرك معصية ما.

ص: 36

1- (1) ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ص 84-85. [1]

2- (2) الكندي، كتاب القضاة ص 447. [2]

3- (3) الاعتصام للشاطبي ج 1 ص 262.

فقال له شريك: والله ما رؤياك برؤيا إبراهيم الخليل، ولا كأن معبرك بيوسف الصديق، فبالأحلام الكاذبة تضرب أعناق المؤمنين؟ فاستحى المهدي وقال: أخرج عنى. ثم صرفه عن القضاء وأبعده (1).

ومرت مشكلة خلق القرآن عبر التاريخ تتوارثها الأجيال، واستغل الحنابلة ميول بعض الأمراء إليهم فراحوا يوقعون المكروه بمن يخالفهم، وقد استمالوا الملك الأشرف فأصبح يعتقد بأن من يخالف عقيدة الحنابلة فهو كافر حلال الدم، وأصبح هذا الاعتقاد هو الاعتقاد الرسمي (2).

وكان العز بن عبد السلام المتوفى سنة 660 هـ من العلماء المبرزين، ومن الدعاة إلى التحرر من نير التقليد الأعمى، وكان أشعري العقيدة، فتقدم الحنابلة إلى الملك الأشرف بأن الشيخ العز زائغ العقيدة، منحرف عما صحَّح من العقائد الدينية الصحيحة، وأن الدين الذي هم عليه هو اعتقاد السلف والإمام أحمد وفضلاء أصحابه، وعلى هذا الاعتقاد الذي فرضه السلطان يقول الرستمي:

الأشعرية ضلال زنادقة إخوان من عبد العزى مع اللات

بربهم كفروا جهرا وقولهم إذا تدبرته أسوأ مقالات

ينفون ما أثبتوا عودا لبدنهم عقائد القوم من أوهى المحالات

(3) وقد امتحن العز بن عبد السلام وغيره ممن يخالف الحنابلة في شيء من الاعتقاد، وكانت السلطة هي العامل الوحيد في بعث نشاطهم وامتداد حركاتهم، وبها ينتصرون على خصومهم الذين نبذوا الجمود واثروا التدبر والاحتكام إلى القرآن والسنة، فالشيخ عز الدين بن عبد السلام إنما كان غرضا لهم لما عرف عنه من أقوال و مواقف ثابتة تغاير ما يدعون إليه - وقد ذكرنا بعض أقواله - والتي نذكر منها قوله:

(و من العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعا، وهو مع ذلك يقلده فيه، و يترك من شهد الكتاب و السنة

ص: 37

1- (1) المصدر السابق.

2- (2) هامش ذيل تذكرة الحفاظ ص 263.

3- (3) المصدر السابق.

و الأقيسة الصحيحة لمذهبهم جمودا على تقليد إمامه، بل يتحيل لدفع الكتاب و السنّة و يتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالا عن مقلّده).

و فى بغداد جلس أحد الحنفية المقربين عند السلطان بجامع القصر و جامع المنصور، و أخذ يلعن الأشعرى على المنبر و يقول: كن شافعيًا و لا تكن أشعريًا، و كن حنفيًا و لا تك معتزليًا، و كن حنبليًا و لا تكن مشبّها، و أخذ يذم الأشعرى و يمدح المذاهب الأربعة (1).

و شاعت الاتهامات بالباطل، و مضى الحنابلة فى نشاطهم، فارتكبوا أعمال الفتك بمن لم يكن على عقيدتهم لأنه عندهم كافر حلال الدم استنادا إلى فتوى أحمد بن حنبل، فقد جاء عنه أنه يذهب إلى كفر من يقول بخلق القرآن، و سئل يوما عن رجل و جب عليه تحرير رقبة مؤمنة و كان عنده مملوك يقول بخلق القرآن؟ فقال:

لا يجزى، لأن الله تبارك و تعالى أمر بتحرير رقبة مؤمنة و ليس هذا بمؤمن هذا كافر (2).

و قال أبو الوليد: من قال: القرآن مخلوق فهو كافر، و من لم يعقد عليه قلبه على أن القرآن ليس بمخلوق فهو خارج عن الإسلام (3).

و قال على بن عبد الله: القرآن كلام الله، من قال أنه مخلوق فهو كافر لا يصلّى خلفه.

و قال أبو عبد الله الذهلى المتوفى سنة 255 هـ: من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر، و بانت منه امرأته، فإن تاب و إلا ضربت عنقه، و لا يدفن فى مقابر المسلمين، و من وقف و قال: لا أقول مخلوق: و قد ضاهى الكفر، و من زعم أن لفظى بالقرآن مخلوق فهو مبتدع، و لا يدفن فى مقابر المسلمين.

و سئل أحمد بن حنبل عن من قال: لفظى بالقرآن مخلوق، فقال: هذا لا يكلم و لا يصلّى خلفه، و إن صلّى أعاد. و ان لا يسمح لأصحابه بالسلم على من يخالفه فى رأيه.

ص: 38

1- (1) المنتظم ج 9 ص 107. [1]

2- (2) ذيل طبقات الحنابلة ج 1 ص 133.

3- (3) ابن العماد، شذرات الذهب ج 2 ص 322. [2]

و على أى حال، فإن مشكلة القول بخلق القرآن- كما مرت الإشارة إليها- بلغت حدًا يستغرب فيه الإنسان وقوع تلك الأحداث المؤلمة فى زمن اشتدت الصراعات فأصبحت فيه مقياسا يقاس به إيمان المرء و كفره، و بهذا انعطفت موجة الصراع المذهبى نحو مرحلة جديدة من الخلاف، خلفت وراءها مادة أخرى، و محورا جديدا تدور عليه مشاكل الأمة فى خلافاتها المتواصلة.

و فى عهد المتوكل العباسى، عند ما أفل نجم المعتزلة، و أفلت منهم زمام الحكم، و انحازت السلطة لجانب أهل الحديث و هو الجانب المعارض الذى يمثله جماعة أحمد بن حنبل، فانصبّ الغضب على المعتزلة بعد أقول نجمهم، و استغل دعاة الفرقة فرصة انتصار جانب المعارضة، و طلوع نجم أحمد بن حنبل باعتباره من الشخصيات المعارضة للدولة فى فرض القول بخلق القرآن.

فكثر أتباع هذا الجانب، و ظهرت الضغائن، و نبشت الدفائن، و سارت جموع مختلفة الاتجاهات، متباينة القوميات فى ركاب اتباع أحمد بن حنبل إذ كان لهم دور السلطة فى الدولة، و قد تجاوزوا أقصى حدّ فى العقوبة و الانتقام ممن خالفهم و بالأخص من المعتزلة و الشيعة لعنا و قتلا- و تكفيرا، و تمادوا فى مهاجمة المعتزلة حتى قالوا: أن المعتزلى لا تجوز الصلاة عليه، و أن دماءهم حلال للمسلمين، و فى أموالهم الخمس، و ليس على قاتل الواحد منهم قود و لا دية و لا كفارة، بل لقاتله عند الله القربة و الزلفى (1).

و قد ابتعدوا عن كل مبادئ العدالة، و خالفوا قواعد العلم مع المنطق، ففى سنة 323 هـ أحرق الحنابلة فى الكرخ طرف البزازين، فذهبت فيه أموال كثيرة للتجار، و أطلق لهم الراضى ثلاثة آلاف دينار، و كان العقار لقوم من الهاشميين، فأعطاهم عشرة آلاف دينار، و احترق ثمانية و أربعون صنفا من أسواق الكرخ فيه النار قوم من الحنابلة، حيث قبض بدر الخرشى على رجل من أصحاب البربهارى يعرف بالدلال، و احترق خلق من الرجال و النساء (2).

و خلفت الانفعالات و حالات التعصب و الجهل جنودا و أبطالاً ماهرين فى الأذى

ص: 39

1- (1) انظر الفرق بين الفرق ص 151. [1]

2- (2) تكملة تاريخ الطبرى ص 93.



وشجعانا فى الأضرار. وفى هذا الخضم استبيحت الدماء والأموال فى سنة 495 هـ قدم بغداد عيسى بن عبد الله الغزنوى، فوعظ الناس - وكان شافعيًا أشعريًا - فوقع فتنة بين الأشعرية والحنابلة (1) إذ لا يروق لهم أن يكون أشعري أو شافعي بوظيفة الوعظ فى تلك الأيام. فهاجوا لذلك، ووقع الفتنة، ووقع فيها حريق ببغداد.

وفى سنة 513 هـ دخل أبو نصر القشيري بغداد، فوعظ بها، فثارت الحنابلة ووقع فتنة بينهم وبين الشافعية، وأخرج القشيري من بغداد (2). وفى خوارزم أحرقت الحنابلة جامعًا عظيمًا فى مرو بناه نظام الدين مسعود بن على المتوفى سنة 596، بناه للشافعية، فحسدتهم الحنابلة وأحرقوا الجامع.

يقول أبو حامد الغزالي المتوفى سنة 505 هـ: وقد سلمت المدارس لأقوام قل من الله خوفهم، وضعفت فى الدين بصيرتهم، وقويت فى الدنيا رغبتهم، واشتد على الاستتباع حرصهم، ولم يتمكنوا من الاستتباع وإقامة الجاه إلا بالتعصب، فحسوا ذلك فى صدورهم، ولم ينبهوهم على مكائد الشيطان فيه، بل نابوا عن الشيطان فى تنفيذ مكيدته، فاستمر الناس عليه، ونسوا أمهات دينهم. فقد هلكوا وأهلكوا، فالله تعالى يتوب علينا وعليهم.

وقال ابن كثير وهو فى واقعه وحقيقته من كبار علماء الحنابلة رغم صبغة الشافعية بعد ذكره لهذا الحادث فى تاريخه: (وهذا إنما يحمل عليه قلة الدين والعقل).

والمواقع أن قضية خلق القرآن، هيأت للحنابلة عهدًا بعث لهم النشاط فى أعمالهم التى لا تدخل تحت نطاق الدين، ولا تخضع لحكم العقل، لأنهم قاموا بدور الغوغاء من الهمجية فى كثير من القضايا، فقد كمو أفواه العلماء بغوغائهم من الرد عليهم. خذ مثلاً قضية الشريف عبد الخالق بن عيسى شيخ الحنابلة عند ما توفى وأراد العوام أن ينبشوا قبر أحمد بن حنبل ويدفنوه معه، ولم يستطع أحد من العلماء أن يرد عليهم ويمنعهم عن نبش القبر، فقال أبو محمد التميمي من بين الجماعة: كيف

ص: 40

1- (1) راجع الطبرى 286/10 و ابن طيفور 181 و 182.

2- (2) راجع ابن كثير ج 12 ص 162. [1]

تدفنونه في قبر أحمد و ابنة أحمد مدفونة معه؟ فإن جاز دفنه مع الإمام، لا يجوز دفنه مع ابنته. فقال بعض العوام: أسكت فقد زوجنا بنت أحمد من الشريف، فسكت التميمي و دفنوه مع أحمد في قبره (1).

و نشط العوام في شذوذهم، فقابلوا حملة الفكر، و علماء الأمة بالعنف، و عاملوهم بالغلظة، و حجبوهم عن الاتصال بالمجتمع.

فهذا محمد بن أحمد المعتزلي الفيلسوف المتكلم، لزم داره مدة من السنين، لم يستطع الخروج لأنهم غضبوا عليه.

و الحافظ أبو نعيم صاحب الحلية المتوفى سنة 430 هـ تعصب الحنابلة عليه، فهجره الناس خوفا منهم.

قال محمد بن عبد الجبار: حضرت مجلس أبي بكر بن علي المعدل، و كان بين الأشعرية و الحنابلة تعصب زائد، فقام إلى ذلك الرجل أصحاب الحديث بسكاكين الأقلام، و كاد أن يقتل (2).

كما أنهم رجموا أبا الفرج الأسفراييني الواعظ في الأسواق مرات عديدة، و أظهروا لعنه و سبه لأنه لم يكن منهم. كما تعصبوا على الفقيه جعفر بن محمد الشافعي الموصلی و كان مقدما عند السلطان، فحسدوه، و كتبوا محضرا نسبه لكل قبيل، فنفي من الموصل سنة 323 هـ.

و لقي ابن عساكر شيخ الشافعية المتوفى سنة 620 هـ من الحنابلة أذى كثيرا، تعصبا عليه و تحديا لمقامه، و كان يتجنب المرور بهم خشية إيقاع المكروه به منهم.

و كان ابن قدامة عالم الحنابلة بدمشق يذهب إلى عدم إسلام ابن عساكر، لأنه يقول بالكلام النفسى، فلا يرد السلام عليه (3).

و كذلك الخطيب البغدادي المتوفى سنة 463 هـ تحامل عليه الحنابلة و اتهموه بالميل إلى المبتدعة، و يقصدون المبتدعة المتكلمين و الأشاعرة، و قد حملهم التعصب

ص: 41

1- (1) شذرات الذهب ص 337. [1]

2- (2) تذكرة الحفاظ ج 3 ص 277.

3- (3) طبقات الشافعية ج 5 ص 69.

فقالوا: إن الكتب التي تنسب إليه ليست له، وإنما للصولي، فسرقها ونسبها لنفسه (1).

و اتسع نشاطهم فعمّت الفوضى في البلاد، و ذلك في عهد الراضى، فأصدر منشورا يرّد عليهم و يعدّد مساوئهم، و يهدّدهم بالعقاب، و النكال. و جاء في المنشور الذى وجهه إليهم قوله:

وقد تأمل أمير المؤمنين أمر جماعتكم، و كشفت له الخبرة عن مذهب صاحبكم... (2) زَيْن لحزبه المحظور، و يدلى لهم حبل الغرور، فمن ذلك تشاغلكم بالكلام في ربّ العزّة تباركت أسماؤه، و في نبيّه و العرش و الكرسي، و طعنكم على خيار الأمة، و نسبتكم شيعة أهل بيت رسول الله إلى الكفر و الضلال، و إرصادهم في الطرقات و المحال، ثم استدعأؤكم المسلمين إلى التدين بالبدع الظاهرة و المذاهب الفاجرة التي لا يشهد بها القرآن. إلى آخر ما يتضمنه المنشور من تعداد مساوئ تلك الخصال، و التهديد لهم بالعقوبة و عظيم النكال.

إذن، تمكّن التعصب من نفوس العامة، و اشتدّ أمر الحنابلة، و كان منهجهم يتّسم بالعنف، و التعدى على كل من خالفهم الرأى. و هكذا تلونت الأحداث بتعدد الحكام و تعيّر الأغراض، فإذا ارتأى المأمون أن تكون قضايا الفكر و العمل شعارا لدولته فقد كان ينزع إلى خدمة الحكم و توطيد أركان السلطان، حتى استطاع أن يجعل المتعلقين بالحكم و المستفيدين من الخلافة تبعاً له في رأيه.

و يقتضى البحث أن نشير دون تفصيل إلى أوامره في هذه المشكلة، و هى إن أدرجت في عرض للمقارنة نراها تضمّ أفكار المعتزلة، و هذه الأوامر تذكر دوماً في المراجع و الكتب التي تؤرخ لهذه القضية، و تجدها مبسّطة فيها، و نحن نختار ما صدر من المأمون عند ما كان في الرّقة، و تقتصر منه على الجزء الذى يتناول مسألة خلق القرآن، و كان ذلك سنة 218 هـ - كما ذكرنا - فقد قرر المأمون أن يتولى إلزام الناس بالقول في خلق القرآن، و اختار أن يبدأ بأنفار عيّن أسماءهم، منهم: محمد بن سعد كاتب الواقدي، و أبو مسلم مستملى يزيد بن هارون، و يحيى بن معين، و زهير بن حرب أبو خيثمة، و إسماعيل بن داود، و إسماعيل بن أبى مسعود،

ص: 42

1- (1) ابن مسكويه، تجارب الأمم ج 1 ص 322.

2- (2) بياض في الأصل.

و أحمد بن الدورقي. فأشخصوا إليه، فامتحنهم و سألهم عن خلق القرآن، فأجابوا جميعاً أن القرآن مخلوق. و تبنت سلطته في بغداد أمر إشاعة ذلك عنهم و تقرير قولهم بحضور الفقهاء و رجال أهل الحديث (1).

و اتخذت أفكار المعتزلة و معتقداتهم صفة الأمر السلطاني كما جاءت على لسان المأمون في أمره إلى إسحاق بن إبراهيم (... و الله عز و جل يقول: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا و تَأْوِيلَ ذَلِكَ: إِنَّا خَلَقْنَاهُ. كما قال جل جلاله: وَ جَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْئَلَنَّ إِلَيْهَا و قَالَ: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا. وَ جَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ فَسَوَّى عَز و جَل بَيْنَ الْقُرْآنِ و بَيْنَ هَذِهِ الْخَلَائِقِ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي مَشِيئَةِ الصَّنْعَةِ، و أخبر أنه جاعله وحده فقال: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ فَقَالَ ذَلِكَ عَلَى إِحَاطَةِ اللَّوْحِ بِالْقُرْآنِ، و لا يحاط إلا بمخلوق. و قال لنبية صلي الله عليه و آله و سلم: لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ و قَالَ: مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مَنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ و قَالَ: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ و أخبر عن قوم ذمهم بكذبهم أنهم قالوا: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ أَكْذَبَهُمْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ فَقَالَ لِرَسُولِهِ: قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى فَسَمِيَ اللَّهُ تَعَالَى الْقُرْآنَ قُرْآنًا و ذَكَرًا و إِيمَانًا و نُورًا و هُدًى و مَبَارَكًا و عَرَبِيًّا و قِصَصًا فَقَالَ: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقِصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ و قَالَ: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ و الْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ و قَالَ: قُلْ فَآتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ و قَالَ: لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ و لَا مِنْ خَلْفِهِ فَجَعَلَ لَهُ أَوْلًا و آخِرًا، و دَلَّ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَحْدُودٌ مَخْلُوقٌ. و قد عظم هؤلاء بقولهم في القرآن المتكلم في دينهم و الحرج في أمانتهم، و سهلوا السبيل لعدو الإسلام، و اعترفوا بالتبديل و الإلحاد على قلوبهم، حتى عرفوا و وصفوا خلق الله و فعله بالصفة التي هي لله وحده، و شبهوه و الأشباه أولى بخلقه، و ليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حفا في الدين، و لا نصيباً من الإيمان و اليقين، و لا يرى أن يحل أحدا منهم محل الثقة في أمانة و لا عدالة و لا شهادة و لا صدق في قول و لا حكاية، و لا توليه لشيء من أمر الرعية... إلى آخر كتابه.

و مع هذه الحالة الفكرية و الصياغة الدينية، و ما اتصف به حكم المأمون من

ص: 43

1- (1) راجع الطبري 286/10 و [1] ابن طيفور 181 و 182.

ظاهر الميل إلى العلويين، فإن أغراض الحكام الشخصية تكاد في دوافعها تكون واحدة على مرّ الأجيال في التاريخ الإسلامي، فعندنا أن القالب جديد، غير أن الجوهر واحد، وهو استخدام الدين للمصالح و المنافع، وتأكيد السيطرة و الهيمنة.فها نحن أولاء أمام الحكام وهم يعرضون الأمة للبلاء مرة أخرى، ويعدون لأخصامهم النعمة و المحن.و عند ما يبدأ معاوية بإسقاط من يرى فضل على أو يروى حديثه من الديوان، و يأمر بهدم دار من يوالى عليا، حتى كانت النعمة على الزنادقة أهون من أفعال السلطة بمن يودّ أهل البيت.فقد كان رجال أهل البيت و الأئمة منهم قد تعاهدوا أمر أصحابهم بالسياسة الملائمة، أو بالثورة و السيف منذ عهد الإمام الحسن حتى نهاية عهد الإمام الصادق عليه السلام ثم جاءت الفترة العباسية، فكانت القيادة للإمام موسى بن جعفر بتقواه و زهده، ثم للإمام الرضا بعلمه و حكمته. فلم تحدث النتائج التي سنراها فيما بعد هذه الفترة، و قد استعرضنا في الأجزاء السابقة من كتابنا آثار مواقف الأئمة و على الأخص موقف الإمام الصادق و كيف اتّجه إلى تربية النفوس و شدّ القلوب بروابط الإيمان و العلم، و كان سلطانه على أتباعه و محبيه سلطان دين و عقيدة، فكانت طرقة في الدعوة إلى الدين و منهجه في الأحكام و الفقه منها لا أغنى الأمة، و اعترفت منه فطاحل الرجال.

و في مشكلة خلق القرآن، اتبع المأمون السياسة ذاتها، لأن الظاهر قد يتغير، أما الجوهر و حقيقة الدوافع فليس لها على صعيد الحكم غير القوة و التعدي و العنف و إراقة الدماء، فكاننا إذا ما قرأنا أوامر المأمون نقرأ تعليمات الأمويين و أوامره، فتراه يتهم بالكفر من يخالفه، و يأمر بضرب الأعناق. ليتسلّى برؤية الرؤوس. و لا نريد أن نذكر أوامره لطولها و تفاصيلها، إنما نذكر شيئا يسيرا (... و من لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمر المؤمنين في كتابك و ذكره أمير المؤمنين لك أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا و لم يقل أن القرآن مخلوق بعد بشر بن الوليد و إبراهيم بن المهدي، فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين، مع من يقوم بحفظهم و حراستهم في طريقهم، حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين، و يسلمهم إلى من يؤمن بتسليمهم إليه، لينصحهم أمير المؤمنين، فإن لم يرجعوا و يتوبوا حملهم جميعا على السيف).

و لقد فتح المأمون على الأمة بابا من البلاء لم يغلق، فقد بلغت سياسة حدّ الولع بما تواضع عليه الناس و استلموه و توارثوه ناجزا، عملت على تكوين عوامل

السلطة وأصحاب الأغراض المختلفة، فعمد إلى سلطة الحكم لأحداث هزة في طريقة بقاء الناس على استسلامهم واستمرارهم على موروثهم، وفكر في المجاهرة بأمر ينتهي إليها النظر الجريء والحرّ، لكن حركة الرأي ونشاط العقل مهما شهدت من ألوان وضروب متطورة، لم تشمل المجتمع بأسره، ولم تسع الناس جميعاً، ولا بد أن يبرز للموروث موقف، كما أنها ليست هي الدين كله. وقد أساء بذلك.

لقد تهيأت الظروف لأن يبرز أحمد بن حنبل. وكان وراءه شيوخ آخرون دفعوه إلى الثبات بوجه المأمون وعدم الإذعان، كأبي جعفر الأنباري الذي لحق بابن حنبل لما حمل إلى المأمون وقال له: يا هذا، أنت اليوم رأس و الناس يقتدون بك، فوالله لأن أجت إلى خلق القرآن ليحيني بإجابتك خلق من خلق الله، وإن أنت لم تجب ليمتنع خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فأنت تموت، ولا بد من الموت، فاتق الله ولا تجبهم إلى شيء. فجعل أحمد يبكي ويقول: ما شاء الله، ما شاء الله. ثم قال أحمد: يا أبا جعفر، أعد علي ما قلت. فأعاد عليه، فجعل يقول: ما شاء الله، ما شاء الله (1).

وقد انتهى الأمر إلى أن يبقى أحمد بن حنبل وحده في امتحان السلطة له، حيث تخلّى كل نفر عن الثبات، ولم يبق معه إلا محمد بن نوح الذي كان معه في الاقْتِياد إلى المأمون، وقام محمد بن نوح بما يقوم به الآخرون وهم خارج الاعتقال، والذين أخذوا يرون في أحمد رمزا لبقاء مناهجهم وطرقهم في القول والحكم. وقد كان محمد بن نوح حدثاً وهو يمثل حالة أو مرحلة عمرية تشد إليها من كانوا في عمره، فكيف إذا كانت نهايته الموت وهو في ظل الاعتقال والتعذيب، فقد مات وهما في الطريق إلى المأمون. ولكن محمد بن نوح كان يقول لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله الله، إنك لست مثلي، أنت رجل يقتدى بك، وقد مدّ الخلق أعناقهم إليك بما يكون منك. فاتق الله واثبت لأمر الله (2).

وتوفى المأمون في السنة نفسها، وخلفه المعتصم، وكان المأمون قد وضع لأخيه السياسة التي يلتزمها، وقد كان استمراره على القول بخلق القرآن لا عن وعي

ص: 45

1- (1) ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص 314.

2- (2) أيضاً ص 315.

وإمام، وإنما سياسة و تقليدا، فهو لا- يرقى إلى درجة أخيه في الاطلاع، فقد عرف عنه قلة علمه، و يروى أن أباه كان عنى بتأديبه فى أول أمره، فمَرّت به جنازة لبعض الخدم فقال: ليتنى كنت هذه الجنازة، لأتخلص من همّ المكتب. فأخبر الرشيد بذلك، فقال: والله لأعذّبنه بشيء يختار الموت من أجله. وأقسم ألا يقرأ طول حياته، و يبدو أنه كان قريبا من الأمية كما وصف نفسه فى بعض الروايات، و لهذا فإن بقاء القول بخلق القرآن يفقد فى عهده الجوانب الفكرية، و يبقى الدافع السياسى الذى شمل المتنفذين من المعتزلة أيضا ممن أغرتهم السلطة كأحمد بن أبى دؤاد الذى كان يمثل عامل بقاء سياسة المأمون، و فى الوقت الذى نجد فيه إشارات إلى خروج المعتصم عن نهج العنف، نجد ابن أبى دؤاد يذكر المعتصم أنه لو سلّم و لان، فسيقال حتما عن المعتصم أنه ناهض مذهب المأمون، و أن الناس سيرون أن أحمد قد أحرز نصرا على خليفته، و هى نتيجة قد تحفّر أحمد بن حنبل على أن يعدّ نفسه زعيما، مما يفضى بدولة الخلفاء إلى أوخم العواقب، و هو ما نص عليه المقرئ فى المقفى الذى نقل عنه المستشرق الأمريكى ولتر ملفيل و الذى نحن فى سياق قوله الآن (1) ذكر المقرئى: قال أبو عبد الله و جعلت بين العقابين. فقلت: يا أمير المؤمنين إن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله و إنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث...» الحديث (2) و قال رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم «أمرت بأن أقاتل الناس...» الحديث (3) فبم تستحل دمي، و لم آت شيئا من هذا؟ يا أمير المؤمنين أذكر و قوفك بين يدي الله عز و جل كوقوفى بين يديك، يا أمير المؤمنين راقب الله. فلما رأى المعتصم ثبوت أبى عبد الله و تصميمه، لان لأبى عبد الله، فخشى ابن أبى دؤاد من رأفته عليه فقال: يا أمير المؤمنين، إن تركته، قيل أنك تركت مذهب المأمون و سخطت قوله، و أنه غلب خليفته. فهاجته ذلك و طلب كرسيه، جلس عليه و قام ابن أبى دؤاد و أصحابه على رأسه. انتهى.

و من الصورة التى نطلع عليها، و فى وسطها أحمد بن حنبل، نرى أن ابن حنبل

ص: 46

- 1- (1) ولتر ملفيل پاتون، أحمد بن حنبل و المحنة، ترجمة عبد العزيز عبد الحق ص 150.
- 2- (2) تكملة الحديث: «كفر بعد إيمان، و زنا بعد إحصان، و قتل النفس بدون نفس» و فى بعضها غيره.
- 3- (3) تكملة الحديث: «حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإن قالوها عصموا منى دماءهم و أموالهم» و فى بعضها غير هذا النص.

فى السلوك و التصرف يلتزم بتعاليم السنة، و يحتج بأحاديث النبى محمد صلى الله عليه و آله و سلم و يحاول بهما أن يحمى نفسه و يصون كرامته، و يلوذ بالعلم، و يتوسل بالفقه ليردّ عنه كيد السلطة، حتى لتطالعنا من بين ملامح تلك الصورة أن أحمد بن حنبل ساير قوة السلطان، و أظهر ما يريد الحكام تحت وقع السياط، ليكفّ الأذى و يدفع العذاب، فهذا مؤرخنا اليعقوبى يقول: و امتحن المعتصم أحمد بن حنبل فى خلق القرآن، فقال: أنا رجل علمت علما، و لم أعلم فيه بهذا. فأحضر له الفقهاء، و ناظر عبد الرحمن بن إسحاق و غيره، فامتنع أن يقول أن القرآن مخلوق، فضرب عدة سياط.

فقال إسحاق بن إبراهيم: ولّنى يا أمير المؤمنين مناظرته. فقال: شأنك به. فقال إسحاق: هذا العلم الذى علّمته نزل به ملك، أو علمته من الرجال؟ فقال: بل علّمته من الرجال. فقال: شيئا بعد شىء أو جملة؟ فقال: علمته شيئا بعد شىء. قال: فبقى عليك شىء لم تعلمه؟ قال: بقى علىّ. قال: فهذا مما لم تعلمه، و قد علمك أمير المؤمنين. قال: فإنى أقول بقول أمير المؤمنين. قال: فى خلق القرآن؟ قال: فى خلق القرآن. قال: فأشهد عليه، فخلع عليه و أطلقه. انتهى. و هنا نلاحظ أن أحمد بن حنبل بعد خروجه من السجن و امتحان القوة له، قد وجد العامة التى تضررت بمواقف و سياسة المأمون و خلفه تنتظر خروجه و تتشوق للقياه، فيبالغ فى الرد، و يسمح لنفسه بالحكم على مخالفه بما لم يرد به نص، و بما يخالف ما احتج به أمام قوة السلطان و هو يمتحن أمام خلفاء بنى العباس و يتقى اعتداءهم. كما نلاحظ فى عموم سيرته غموضا، و أحيانا خفاء فى رأيه فى الإمام على عليه السلام أو يزيد بن معاوية، إذ تضرب كما فى الروايات، و مهما يكن من أمر، فإن العامة قد وجدت نفسها مستهدفة من قبل سياسة بنى العباس فى عهد المأمون و خلفيه حيث ظهرت السلطة بمظهر العلم و صفة المتكلمين. و قد كان المأمون شديدا عليهم و هو يستعير منطق المعتزلة و أفكارهم، و يصدر أوامره السلطانية من مرو ليلبس حكمه لبوس المرحلة، فيقول فى أول كتاب له: و قد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم و السواد الأكبر من حشو الرعية و سفلة العامة فمن لا نظر له، و لا رؤية و لا استدلال له بدلالة الله و هدايته، و لا استضاء بنور العلم و برهانه فى جميع الأقطار و الآفاق، أهل جهالة بالله و عمى عنه، و ضلالة عن حقيقة دينه و توحيده و الإيمان به، و نكوب عن واضحات إعلامه و واجب سبيله، و قصور عن أن يقدروا الله حق قدره، و يعرفوه كنه معرفته، و يفرقوا بينه و بين



خلقه بضعف آرائهم ونقص عقولهم، وخفائهم عن التفكير و التذكر (1). هذا والسلطة تتحول إلى الخضرة و تغير شعارها الأسود تقربا إلى الشيعة، وقضية إسناد ولاية العهد إلى الإمام الرضا ما زالت في الأذهان، ولا بد أن قضية سمّه و قتله لا تهّم الآخرين أكثر مما تهّمهم المظاهر، و بين فترة و أخرى يهّم المأمون في القول بمسألة على رأى الشيعة، بينما قضية امتحان السلطة للعلماء لها طابع معتزلي، و العامة أخذت تنظر إلى أهل الرأى و الفكر نظرة واحدة، لأن الفترة حديثة عهد، و الحركة ما زالت في بواكيرها، و مناهج الكلام و أساليب القول قامت كالموجة التي تهدد ركود الغدران بالتحول أو الفناء.

لقد أعلنت السلطة طابعها أو انحيازها إلى أهل الفكر و تيارات الكلام، و جاء بيانها شديدا استفزّ العامة الذين كانوا قاعدة الحكام منذ عهد معاوية، و تهيأ على مر المراحل ممن لس لبوس الدين، و تجلبب بجلباب العلم، أن يبذل أقصى ما يستطيع ليرضى السلطان، و يجعل الجمهور ينظر إلى حال الحاكم من خلال ما يصوّرونه لهم، فاحتل الحكام في أنظارهم موقع القداسة، و أحنوا الرءوس برغم ما يسفك من دماء، و تنتهك من حرّات، و يستباح من أعراض، فألفوا أمورا في كل شأن من شئون الاعتقاد و الحياة، و ورثوها على نمط الحكام و صياغة المنتفعين.

و للأسف، فإن تحوّل السياسة و انعطاف المأمون إلى أوجه جديدة فكرية متكلّفة، و ما أحدث ذلك من هزة عنيفة، لم تعالج بما يساعد على كبح جماع الانفعالات و لجم الجهل، فإضافة إلى توافر أسباب الهياج و شيوع مضمون سياسة السلطة، و ما يوفره ذلك من مادة غنية لشدّ الجمهور و التلاعب بعواطفه، و دفع مشاعره إلى أشد حالات النقمة، أصبحت كلمة الجهل أو الأوصاف التي يطلقها رجال المناظرات و أساتيد الكلام على خصومهم الذين يسترون جهلهم بالعناد و التعصب، أدلة أخرى ألّبت الناس على أهل الفكر قبل أن تألبهم على العباسيين و أغراضهم السياسية، فصاعت في وسط ذلك الأسباب الحقيقية لقيام مثل هذه المرحلة، و كان تقصير الجهات فيها متمائلا، إذ لم يبذل المعتزلة ما يكفى من جهد بعيدا عن السلطة، بل انتقلت حصيلة اعتقاداتهم إلى الحكام و ألحقتهم السلطة بها.

ص: 48

كما كان الطرف الآخر يعتمد على الاستشارة والاستفزاز، ليستفيد من نتائجهما في الإبقاء على ممسك الجمهور و محافظتهم على الأوضاع التي ألفوها وعاشوها، ولما اجتاز أحمد بن حنبل الأزمة صبّ جام غضبه على أصل القضية، فأباح لنفسه الفتوى والقول بكفر من يقول بخلق القرآن. وقد مرّ بنا ذلك وأشرنا إلى ما جاء عنه في كفر من يقول بخلق القرآن، إذ سئل عن رجل وجب عليه تحرير رقبة مؤمنة و كان عنده مملوك يقول بخلق القرآن؟ فقال: لا يجوز، لأن الله تبارك و تعالى أمر بتحرير رقبة مؤمنة.

و لم يكن أحمد بن حنبل أو الجمهور في حال يجاهرون بها بالخروج على رأى الحاكم أيام المعتصم، إذ يروى أن أحمد أمسك في عهد المعتصم حتى عن رواية الحديث الذي هو عماد مكانته و مقوم شخصيته، فهو الحافظ الذي ينبسط في الرواية و يتقيد بها حتى قيل: إنه أقرب إلى الحديث منه إلى الفقه. و لا ننسى أن هذه الفترة شهدت غياب الإمام الرضا، و كون ابنه الإمام محمد الجواد ما زال في مقتبل العمر، و تتضافر الروايات على ما بلغه في العلم و الحكمة و الأدب و كمال العقل، حتى أن المأمون أراد أن يوجد للصبغة التي أرادها لحكمه دلالة جديدة، فزوجه ابنته أم الفضل، و اتجه إلى المدينة، و ابتعاده عن العراق أمر له مغزى كبير، اختيارا منه و عملا بنهج أبيه، و كيف حمل ولاية العهد اسما، و لم تنجح وسائل المأمون مع الإمام الرضا في زجه في شئون السلطان، و إذا كان أهل البيت قد عملوا على تهذيب النفوس بتعاليم الإسلام و ترسيخ الأحكام في المجتمع بتربية النشأ و إرشاد الناس، فقد كان الرضا عليه السلام يقول: «إنما يؤمر بالمعروف و ينهى عن المنكر مؤمن فيتعظ، فأما صاحب سيف و سوط فلا». و كان قوله المشهور للمأمون: «ما التقت فئتان قط إلا نضر الله أعظمهما عفوا». فعاد الإمام الجواد إلى مهبط الوحي و مهد النبوة، و سعى عليه السلام إلى توجيه الناس و بث العلم و نشر الأحكام، و كانت الوفود تأتيه من الأقطار النائية لأنه وارث علم أهل البيت عن أبيه الرضا عليه السلام غير أن المعتصم أعاده إلى بغداد و انتهى شهيدا مسموما على يد بنى العباس.

فكان الناظر إلى أعمال بنى العباس في هذه الفترة يجد تقربا و رعاية إلى آل على، في حين أن حقيقة ما يعيشونه مكابدة رهيبه تنتهي بهم إلى الموت. كما أن العلويين استمروا في مناهضتهم للسلطة، و لم تنطل عليهم خدع الحكام و تكريم

المأمون للطالبيين أو العلويين، وعدم منعهم من الدخول عليه؛ حتى ثار عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ببلاد اليمن ودعا إلى الرضا من آل محمد. فأرسل إليه المأمون جيشا كثيفا تحت قيادة دينار بن عبد الله، وكتب معه أمانا لعبد الرحمن، فقبله و سار إلى المأمون، فمنع المأمون عند ذلك الطالبيين من الدخول عليه، وأمرهم بلبس السواد (1) و امتنع أكثرهم عن لبس السواد، فكان عقابهم السجن. فهذا عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب امتنع عن لبس السواد و حرّمه لما طولب به، فحبس بسر من رأى فى أيام المعتصم حتى مات فى الحبس (2) كما استمر على رفض سلطة العباسيين جماعة من العلويين و لجئوا إلى الثورة. ويمكننا القول أن محاولات بنى العباس بلونها هذا قد استطاعت أن تجعل الرقابة و القيود التى اعتاد عليها أئمة أهل البيت و المفروضة عليهم من قبل الحكام مناسبة لأصول اتجاهات الرأى و مدارس الكلام، لكنها فى حقيقتها واحدة. فعلم أهل البيت و تعليمات الأئمة كانت منهلا و ينبوعا لهذه الاتجاهات، و كان المعتزلة على الأخص من أقرب الناس رأيا إلى فقه أهل البيت، و إن ضمّت صفوفهم رجالا أبعد ما يكونون عن الولاء، حيث تأثر معتزلة البصرة بما يحيط بهم، و تأثر معتزلة بغداد بغير ذلك، و بناء عليه فكيف يدعى المأمون العلم و الانتصار للفكر، و يتبع سياسة السجن و اعتقال رجال أهل البيت الذين لا ينكر المعتزلة تأثرهم و اقتدائهم بهم؟ فأخذ بالتظاهر الذى يصعب معه الاطمئنان إلى زوال نوازع الكره و العداء لأهل البيت.

و كان المعتصم مقلدا و منفذا لسياسة المأمون بجوانبها المختلفة فى الموقف من رجال الفكر و معاملة أهل البيت، ثم جاءت مرحلة الواثق التى تمثل المرحلة الوسطى التى تسبق عودة السياسة العباسية إلى عهدا على يد المتوكل. و مع أن رجل المعتزلة السلطاني أحمد بن أبي دؤاد قد تمكّن من إبقاء قضية خلق القرآن على واجهة الحكم، إلا أن الواثق لم يتعرّض إلى أحمد بسوء، و أرسل إليه و قال له: لا تساكنى بأرض، فاخفى أحمد بقية حياة الواثق.

ص:50

1- (1) ابن الأثير 156/4. [1]

2- (2) المقاتل 385. [2]

ونحن نجد في أحداث هذه المشكلة من مظاهر الظلم و العنف ما تأباه النفوس، لكنها تصبح غير ملفتة إذا ما قورنت بأهوال السجون و مصائب التعذيب التي يلقاها آخرون، فذع عنك كيف استشهد الإمامان الرضا و الجواد على يد حكام يتظاهرون بالودّ، و خذ مثلا من عرف من العباسيين بعدائه لأهل البيت. و مع ذلك فلا يقرّ ما يجري في ظل الحكام من اعتداء على حرمة الرأى أو العلماء، بل نذكره للإدانة و نسطره لتعرف الأجيال ما ارتكب الحكام. و من أحداث هذه الفترة التي تتصل بالقول بخلق القرآن أن شيخا من الشام جىء به إلى الوثائق، فلما دار النقاش اتفق الوثائق مع رأى الشيخ فى جواز الإمساك عن هذه المقالة ما اتسع لهم كما اتسع لرسول الله و أبى بكر و عمر و عثمان و على، و أمر الوثائق بقطع قيد الشيخ، فلما قطعوا القيد ضرب الشيخ بيده إلى القيد حتى يأخذه، فجاز به الحداد، و أخذه من الحداد قائلا: لأنى نويت أن أتقدم إلى من أوصى إليه أن يجعله بينى و بين كفى حتى أخاصم به هذا الظالم عند الله يوم القيامة و أقول: يا رب، سل عبدك هذا لم قيدنى و روع أهلى و ولدى و إخوانى بلا حق أو جب ذلك علىّ؟ ثم جاءت فترة عهد المتوكل الذى استلم الحكم فى سنة 232 هـ فعاد النصب بأوضح صورته (1) و تجدد العدا لآل البيت بأقبح أشكاله، و ليس ذلك بردّ فعل لما سبق، و إنما ردود الفعل تمثلت فى موقعه فى مسلسل الحكام من بنى العباس. يقول ابن كثير: و كان المتوكل محبا إلى رعيته؟ قائما فى نصرة أهل السنة، و قد شبهه بعضهم بالصدىق فى قتله أهل الردّة لأنه نصر الحق و ردّه عليهم حتى رجعوا إلى الدين، و بعمر بن عبد العزيز حين ردّ مظالم بنى أمية، و قد أظهر السنّة بعد البدعة، و أحمد أهل البدع و بدعتهم بعد انتشارها و اشتهاها.

و أكرم المتوكل أحمد بن حنبل، و كتب إلى نائبه ببغداد أن يبعثه إليه، و كان حتى وفاة أحمد يتفقده و يوفد إليه فى أمور يشاوره فيها و يستشيره فى أشياء تقع له (2).

و بدأ الحنابلة مع السلطة منذ هذا التاريخ يسهمون فى تعميق روح الخلاف، و نحن - و إن قلنا برد الفعل - إلا أن الأمر تجاوز ذلك لاستسهال أمر الاتهام بالكفر و الخروج

ص: 51

1- (1) انظر الجزء الأول من الإمام الصادق و المذاهب الأربعة.

2- (2) ابن كثير 340/10. [1]

على الدين. فاهتزّ كيان الأمة، واختلّ بناء المجتمع، وقد أطلعنا فيما مضى على جانب من الأحداث التي تقوم بتأثير العصبية والجهل. واستمر الحنابلة يعنون بالهيمنة على الحكم، حتى أن المطيع بالله كان يتقرب إليهم بالتظاهر بسماعه وترديده أقوالاً لأحمد بن حنبل، وقد كان يحدّق به خلق كثير من الحنابلة قدروا بثلاثين ألفاً، فأراد أن يتقرب إليهم، في حين كان الناس يأكلون الأطفال والجيف لشدة الجوع، وإذا رأيت الدواب اجتمع جماعة من الضعفاء على الروث، فالتقطوا ما فيه من حبّ الشعير فأكلوه، وكانت الموتى مطرحين فربما أكلت الكلاب لحومهم (1).

و امتدت مشكلة خلق القرآن لعهود طويلة، وتأثير الحنابلة شملت الاتهامات أغلب الطوائف، ففي سنة 408 هـ استتاب القادر بالله فقهاء المعتزلة الحنفية، فأظهروا الرجوع وتبرّءوا من الاعتزال، ثم نهاهم عن الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للإسلام، وأخذ خطوطهم بذلك، وإنهم متى خالفوه حلّ بهم من النكال والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم، وامتثل يمين الدولة وأمين الملة أبو القاسم محمود أمر أمير المؤمنين واستنّ بسنته في أعماله التي استخلفه عليها من خراسان وغيرها في قتل المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة، وصلبهم وحبسهم ونفاهم، وأمر بلعنهم على منابر المسلمين، وإبعاد كل طائفة من أهل البدع، وطردهم من ديارهم، وصار ذلك سنة في الإسلام (2).

ثم تبادل الناس فيما بينهم الاتهامات، وغدت سنة الحكام شاملة، وشاع التعصب مع سعي حثيث إلى إدخال الحكام في صميم الأمر، والاستعانة بقوة السلطان، ونحن سنعرض إلى جوانب من ذلك بحسب مواقعها من الكتاب.

ص: 52

1- (1) المنتظم 344/6. [1]

2- (2) المنتظم 287/7. [2]

## إشارة

وهكذا أدت تدخلات الحكام إلى نتائج أساءت كثيرا إلى حركة الفكر والكلام، وشجعت قيام ظروف ملائمة للاتهامات والعداء. وإذا نظرنا إلى تاريخ الحكام في الإسلام وموقفهم من أعدائهم، رأينا أن سلاح التكفير والخروج عن الدين كان من أهم ما يشهره الحكام لاجتتاب العامة واستغلال مشاعرهم المختلفة، والبروز بمظهر ديني غير حقيقي، ولما حدثت هذه الأحداث وتحكمت النزعات وهيمن التعصب على النفوس، تبادلت الطوائف الاتهامات، وأصبح الاتهام بالبدعة والضلالة أمرا مألوفا، كما أصبح استحلال الدم وما يتبع ذلك من فظائع الأمور التي تشل حركة الفكر وتمزق المجتمع شرّ ممزق، إذ لم يكن استخدام لفظ البدعة والضلالة قائما على أساس صحيح مجرد من العواطف والنزعات الخاصة. فقد تدخلت الأغراض المختلفة: أغراض الملوک، وأغراض المتنفيين والمتزعمين في شتى الميادين. وقوبل استسهال الحكم بالكفر أو الضلال بأعمال وفتاوى مقابلة، ومرّت الأعوام ولفظ الضلالة والبدعة يستخدمان وفق الأغراض، وكل جهة يصدر منها الاتهام يصدر من أختها في الدين ما يقابل ذلك.

وأصبحت حركة المذاهب تتبادلها بسهولة، وهي في كل الأحوال تحدث في حالة تتغلب فيها العواطف على حكم الدين، فعقيدة الإسلام واضحة جلية وإن استجد ما يخرج على القواعد والأصول وروح الإيمان، فالتصدى لهذا الخروج وإطفاء باطله واجب على كل مسلم، فإذا كانت مبادئ الإسلام واضحة وعقائده جلية، فما لا يجري على منواله ويقتدى بروح القرآن بين معروف يكون من السهولة الإجماع عليه، أما إذا كان تحكما وخصوعا للأهواء فهو المصيبة التي نحن بصدد بيان بعض أجزاءها وجوانبها.

فالمذاهب أصبحت تدعى أن كلاً منها على حق، وغيرها على الضلالة.

و البدعة لغويا كل شىء أحدث على غير مثال سابق، سواء كان محمودا أو مذموما. و البديع: محدث عجيب غير معروف، و هى تقييد معنى الأحداث و الاختراع. أما البدعة اصطلاحا فهى مدار اختلاف الفقهاء شرعا، و يميل أغلب العلماء إلى أنها إحداث فى الشرع، و عند بعضهم قد يكون مذموما أو محمودا. و لكن روح العداة أخضعت اللفظين لأغراضها، فاتهمت كل طائفة الأخرى بالبدعة و الضلالة دون تمييز و هو انحراف عن واقع الحال، و بعد عن الحقيقة، و من هذا ما ذهب إليه ابن المقرئ الشافعى فى تمثيله للمبتدع بالحنفى، و صاحب البزازية الحنفى يمثّل المبتدع بالشافعى، و أمثال هؤلاء كثيرون بين المذاهب الأربعة (1).

كما و قد وضعت كتب تتضمن بيان الفرق الإسلامية و شرح عقائدها و تصف الكثير منها بالبدعة أو الضلالة أو الكفر أخيرا.

و تمرّ السنون، و تكثر الكتب من دون جدوى فى تحديد هذين الاصطلاحين لنعرف ما هى البدعة التى يستوجب صاحبها النار، بسبب الضلال عن الهدى؟ كما ورد فى الحديث: «كل بدعة ضلالة، و كل ضلالة فى النار». فكيف نتعرف على البدعة و نجتنبها؟ و ما هى الضلالة التى توجب دخول النار؟ هل لها حدّ شرعى أو تعريف لغوى؟ و قد اختلفت المصاديق و تعدّدت الأقوال. و حديث الفرق أن النبى قال: «ستفترق أمتى على ثلاث و سبعين فرقة، اثنتان و سبعون فى النار، و واحدة فى الجنة» و بلفظ آخر «كل على الضلالة إلا السواد الأعظم» فلهذا الحديث شأن و قد تعرّضنا له سابقا و شكّكنا فى صحته نسبته إلى النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم على إجماله بدون بيان، و هذا ما يوجب إغراء الأمة بعضها ببعض، و تحامل الناس بعضهم على بعض، و سنعود للحديث عنه إن شاء الله.

و بقى تعريف البدعة هو ما اخترع على غير مثال سابق، فهى لغويا كما فى لسان العرب: بدعه أنشأه كابتدعه. و بدع الله الخلق أحدثهم لا على مثال سابق. و بدع سمن، و بدع بداعة و بدوعا صار بديعا، و أبدع أبدا و الشاعر أتى بالبديع فهو مبدع، و منه البديع الخالق المخترع، و فى المذهب أنها إيراد أقوال لم يستند فاعلها أو قائلها

ص: 54

1- (1) سر انحلال الأمة ص 189.

فيها لصاحب الشريعة لأن أصل مادة بدع الاختراع على غير مثال سابق، كقوله تعالى:

قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَلَكِن مَجْرِبَاتِ الْأَحْدَاثِ وَتَطَوَّراتِ الْأُمُورِ جَعَلْتَ التَّعْرِيفَ فِي اخْتِلَافِ وَمَذَاهِبِ، فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهَا فِي الْعِبَادَاتِ خَاصَّةً، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهَا فِي الْعِبَادَاتِ وَالْعَادَاتِ.

فتعددت وجهات النظر في إطلاق البدعة أو الضلالة، واستهل الناس قذف الآخرين بها مما عمق الخلاف بين المذاهب أو الطوائف، فطائفة تتهم الأخرى بالبدعة والضلالة وتتهم أنها تحتكر الهدى وتسيطر على الحق دون غيرها، وهذا يحدث رد فعل عند الطائفة الأخرى، فيرد الاتهام على الطائفة بنفس الأسلوب، وبأنها مبتدعة خارجة عن الدين، وهي على الهدى. وبهذا فقد اشتد الهياج، وكثرت الفتن، وانتشرت الفوضى، وهنا نرى لزوم الحديث عن الفوارق التي حلت بين المسلمين، وكيف أصبحت كلمة بدعة أو مبتدعة سلاحاً يوجه للناس وهم في حالات أقرب بها إلى الله و مبادئ الإسلام من أولئك الذين يستخدمونها لتغطية ضعفهم و انهزامهم.

و كيف وجّهت إلى الجماعات التي تهدد مناهج الجمود والانغلاق ظلماً، كما وجّهت توجيهها سليماً إلى الجماعات التي لا غبار على بعدها عن السنة و خروجها على ما جاء به صاحب الشريعة صلى الله عليه وآله وسلم.

### من هو المبتدع

؟ لقد حدثت أمور بسبب الاختلاف في تمييز البدعة و من هو المبتدع فخلطوا بين السقيم و الصحيح و سارت الأمور على غير المنهج العلمى، فكانت هناك أشياء هي مدعاة للأسف لأنها تعكس سلوك رجال لم يسلكوا مع خصومهم الطريق التجردى المعقول، بل التجنوا إلى استخدام القوة و كل ما يتعارض مع حرية الفكر التي ضمنها الإسلام، و جعلها إحدى مقومات المجتمع الإسلامى، و لنقف على بعض الأقوال في لزوم تجنب صاحب البدعة، و لناخذ صورة عن تلك العصور المظلمة، و الوقوف على تلك المفارقات التي حدثت بالمجتمع.

يقول بعضهم: من جالس صاحب بدعة، نزعته منه العصمة و وكل إلى نفسه.

و عن يحيى بن كثير أنه قال: إذا لقيت صاحب بدعة في طريق، فخذ طريقاً آخر.

و عن الفضيل أنه قال: من جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة، و الماشى إليه معين على هدم الإسلام.



وقال هشام بن حسان: لا يقبل الله من صاحب بدعة صلاة ولا صياما، ولا زكاة ولا حجا، ولا جهادا، ولا عمرة، ولا صرفا، ولا عدلا (1).

وقد أوردوا عن صاحب الرسالة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أحاديث تدعم هذه الآراء، فعن هشام بن عرفة مرفوعا «من قرَّ صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام».

وعنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «من أتى صاحب بدعة ليوقره فقد أعان على هدم الإسلام، ومن أعرض عن صاحب بدعة بغضا له في الله ملاً الله قلبه أمنا وإيمانا، ومن انتهر صاحب بدعة آمنه الله يوم الفرع الأكبر، ومن أهان صاحب بدعة رفعه الله مائة درجة، ومن سلّم على صاحب بدعة أو استقبله بالبشر، أو استقبله بما يسره، فقد استخفّ بما نزل على محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ».

وجاء عن عائشة، أنها سألت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا؟ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «هم أصحاب الأهواء وأصحاب البدع وأصحاب الضلالة من هذه الأمة، يا عائشة: إن لكل ذنب توبة، ما خلا أصحاب الأهواء والبدع ليس لهم توبة، وأنا بريء منهم، وهم براء مني».

وغير ذلك من الآثار التي أسندت إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. ولسنا في معرض نقدها من حيث الصحة أو الدلالة، وبيان علتها، ولكن الأمر المهم أن ننظر إلى الواقع العملي وكيف استعملت كلمة البدعة في معان مختلفة، واتهم بها رجال هم مثال التمسك بالسنة. ونود هنا استكشاف الواقع حول انطباق هذه التسمية لنخرج بنتيجة وهي: من هو الذي تنطبق عليه هذه السمة في الإسلام؟ ومن هو صاحب السنة المتمسك بها؟ 1- فهذا أحمد بن حنبل في معرض كلامه عن الفرق المبتدعة يقول: ذكر محاسن أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وكلهم أجمعين، والكف عن مساوئهم، والخلاف الذي يشجر بينهم، فمن سب أصحاب رسول الله، أو واحدا منهم، أو تنقصهم أو طعن عليهم أو عرض بعيبيهم، أو عاب أحدا منهم فهو مبتدع رافضى خبيث مخالف، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا، بل حبههم سنة، والدعاء لهم قرينة، والافتداء بهم وسيلة، والأخذ بأثارهم فضيلة.

ص: 56

2- وقال: من زعم أنه لا يرى التقليد، ولا يقلد دينه أحدا فهو قول فاسق عند الله ورسوله، إنما يريد بذلك إبطال الأثر، والتفرد بالرأى والكلام و البدعة.

3- وأصحاب الرأى وهم مبتدعة ضلال، أعداء للسنة والأثر، ويطلون الحديث، ويردون على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويتخذون أبا حنيفة ومن قال بقوله إماما و يدينون بدينه، و أى ضلالة أبين ممن قال بهذا و ترك قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و أصحابه.

4- والولاية بدعة، والبراءة بدعة، وهم الذين يقولون: نتولى فلانا و تبرأ من فلان، وهذا القول بدعة فاجتنبوه.

فمن قال بشيء من هذه الأقاويل أو رآها، أو صوّبها، أو رضيها، أو أحبها فقد خالف، و خرج من الجماعة و ترك الأثر، وقال بالخلاف، و دخل فى البدعة و زلّ عن الطريق، و ما توفيقى إلا بالله.

و بهذا ختم الإمام أحمد هذا الفصل من رسالته أو اعتقاده الذى رواه عنه أحمد بن جعفر الأصبطخري و التى يقول فى أولها: هذه مذاهب أهل العلم و أصحاب الأثر. (إلى أن يقول) فمن خالف شيئا من هذه المذاهب أو طعن فيها، أو عاب قائلها فهو مبتدع خارج عن الجماعة. ثم يعدد العقائد أولا مما ينطبق على ما تذهب إليه الحنابلة فقط. و يذكر الأقوال ثم يعدد الفرق المبتدعة و منهم المرجئة و الخوارج و المعتزلة إلى آخر ما ورد فى الرسالة من أمور هامة.

و إذا وقفنا وقفة المتأمل فى عبارات هذه الرسالة، أو المرسوم الذى اتخذته الحنابلة منهجا و دستورا يسرون عليه فى معاملة المسلمين و بيان منزلتهم الدينية، يبدو لنا جليا أنه لم يسلم أحد من جميع الأمة الإسلامية من الضلالة، و ارتكاب البدعة. أو بعبارة أوضح، لم تسلم فرقة من فرق المسلمين من ذلك، إلا الحنابلة أنفسهم فهم المسلمون، و لهم الإسلام و حدهم دون سواهم كما يدعون و يصرحون بذلك. فهذا الشيخ عبد الغنى المقدسى من أشهر علماء الحنابلة، ذكر شيئا من العقائد أنكرها عليه بقية المذاهب، فعقدوا له مجلسا، و أصرّ على رأيه، فقال له الأمير برغش: كل هؤلاء ضلال و أنت وحدك على الحق؟ قال: نعم. فغضب الأمير، و أمر بنفيه من البلد، و كسر منبر الحنابلة.

قال ابن كثير: و جرت خبطة شديدة نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها و ما بطن (1) و يؤيد ذلك تصريح شيوخهم بأن غير الحنابلة مبتدعة. يقول قتيبة بن سعيد: أحمد بن حنبل إمام، و من لا يرضى بإمامته فهو مبتدع. و ادعوا على الشافعي أنه قال: من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر. فقيل له: تطلق اسم الكفر عليه؟ فقال: نعم، من أبغض أحمد بن حنبل عائد السنة، و من عائد السنة قصد الصحابة، و من قصد الصحابة أبغض النبي، و من أبغض النبي كفر بالله العظيم (2).

و قال أحمد الدورقي: من سمعتموه يذكر أحمد بن حنبل بسوء، فاتهموه على الإسلام.

و قال بعض الحنابلة: إذا رأيت البغدادي يحبّ أبا الحسن بن بشار، و أبا محمد البربهاري - و هما من شيوخ الحنابلة - فاعلم أنه صاحب سنة.

و من الصعب الإحاطة بما خلّفته تلك الظروف من ادعاءات و تقولات، و قد أعرضنا عن كثير مما وصلنا من ادعاءات الحنابلة في علمائهم عامة و ابن حنبل خاصة، و سواء صحّت تلك الأقوال أم لم تصح، فالعامّة يأخذون بها و يجعلونها شعارا في مسيرتهم نحو أهدافهم، و قد أوردوا عن أحمد بن حنبل و غيره أمورا لا يمكننا أن نصدّقها، فهي بعيدة كل البعد عمّا اتصف به أحمد من العلم، و الاتزان. و لكن الحنابلة جعلوا ذلك دستور حياتهم، بدون تثبّت، و قد دعمت تلك الأقوال حركاتهم في مقابلاتهم لجميع الفرق، و اشتدوا بصورة خاصة على الشيعة.

أما المعتزلة - و هم خصوم الحنابلة السياسيين - فقد نالوا من الأذى ما لا يوصف، و كذلك الأشعرية الذين اختلفوا معهم في العقائد، و قد صرّحوا بالظعن على الأشعري و نسبوا له أقوالا مخالفة لروح الإسلام، و ذهب بعضهم إلى كفر أصحابه، و خروجهم عن حظيرة الإسلام نظرا لما يعتقدونه مما يخالف عقائد الحنابلة، و بهذا وصفوا الأشعري نفسه بأنه مبتدع، ففي سنة 445 هـ أعلن بنيسابور لعن الأشعري رسميا، و كان قد رفع إلى السلطان طغرلبيك من مقالات الأشعري، فأمر بلعنه.

ص: 58

1- (1) البداية و النهاية ج 13 ص 2. [1]

2- (2) طبقات الحنابلة ج 1 ص 136. [2]

و وقعت فتنة عظيمة بين الحنابلة و الأشعرية حتى تأخر الأشاعرة عن حضور الجمععات خوفا من الحنابلة.

و خلاصة القول، أن الحنابلة يرون من خالفهم من المسلمين كفارا. و يقابلهم الأشعرية كلهم أو بعضهم بتكفير شامل لمن لا يعرف وجود البارى بالطرق التي وضعوها، و قد خالفهم الحنابلة فى جميع ذلك.

و ذهبوا إلى أن العدول عن مذهب الأشعرى و لو قيد شبر فهو كفر، و لو كان العدول فى شىء نزر فهو ضلال و خسر. و هكذا فالأشعرية و الحنابلة يكفّر بعضهم بعضا، و قد لقي الأشعرى من الحنابلة فى حياته، عنتا و تحاملا عليه و على أتباعه و مؤيدى أفكاره و آرائه، و لشدة تعصّبهم عليه أخفى أصحابه قبره بعد وفاته سنة 333 هـ حذرا من أن تنبشه الحنابلة، لأنهم حكموا بكفره و إباحة دمه. و لقد وقعت بين الحنابلة و الأشاعرة حوادث كثيرة و حروب و قتال فى شوارع بغداد، أهمها يوم دخلها القشيري، و وعظ بها. فاضطر إلى الخروج من بغداد، و كانت اللعنات تنهال على الأشعرى، و نسبوا إليه بعض الآراء الشاذة ليوجهوا الرأى العام ضد الأشعرية، و قد اتخذ الحنابلة يوم الجنائز إعلانا لمبدئهم، و تكفيرا لمن خالفهم، و قد كانوا يردّون فى تشييع الجنائز هتافات معادية للأشعرية و غيرهم من خصومهم، و بهذه الأمور المحزنة يستمر الوضع السيئ بين جماعات المسلمين، و تنتشر الفرقة بين صفوفهم، و الأمر يشتد كلما مرّ الزمن. و قد قطع الحنابلة فى مسيرتهم أشواطا بعيدة فى الدعوة لآرائهم بعنف و قوة، كما صبّوا جام غضبهم على من خالف بعض تلك الآراء.

و قد أفتى بعض علمائهم - و هو الشيخ عبد الله الأنصارى الملقب بشيخ السنّة فى خراسان - بعدم حلّية ذبائح الأشعرية، لأنهم كفار فى نظره تبعا لرأى العامة من الحنابلة.

و قد امتحن كثير من العلماء، و راحوا ضحية الجهل و الفوضى، و اتّهم كثير منهم بسوء الاعتقاد، كما رمى الكثير منهم بالكفر و الزندقة.

و كان ابن جرير الطبرى المتوفى سنة 340 هـ من أولئك الرجال الذى نالهم غضب الحنابلة - كما أشرنا سابقا - مع عظيم منزلته و مكانته العلمية، و هو صاحب التفسير الشهير و المؤلفات القيّمة، فرموه بالإلحاد و الزندقة لأنه خالفهم فى مسألة

اليدين، فقال في قوله تعالى: يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ أَي نَعْمَتَاهُ. وهم يرون أن اليد هي اليد الجارحة، كما زادوا في اتهامه أنه رافضى، لأنه كان يرى جواز المسح بالوضوء على القدمين، كما ألف كتابا جمع فيه أحاديث غدير خم، وآخر جمع فيه طرق حديث الطائر المشوى (1).

ومن هذا وذاك، فقد امتحن و غضبوا عليه، ورموا داره بالحجارة حتى علت على الباب، ومنع من التحديث، ولما مات منعوا دفنه نهارا، و دفن ليلا خوفا منهم. وكان أبو الحسن الأمدى حنبليا، ثم انتقل لمذهب الشافعي، وحدث بمدرسة الشافعية بالقرافة الصغرى، واشتهر فضله وانتشرت فضائله، فتعصبوا عليه وكتبوا محضرا بخطوطهم، واتهموه بمذاهب التعطيل والانحلال، وخرج إلى دمشق وانعزل ولزم بيته إلى أن مات. وألقى القبض على ظهير الدين الأردبيلي الشهير بقاضى زاده، وهو حنفى المذهب، وقطعت رقبته وعلقت على باب زويلة بالقاهرة، لأنه ذهب إلى عدم وجوب ذكر الصحابة فى الخطبة، فاتهموه بالبدعة، أو أنه يتشيع، فعوقب لذلك. وحكم على الحسن بن أبى بكر السكاكىنى بالزندقة وأنه يسب الصحابة، وأقيمت عليه الشهادة عند القاضى شرف الدين المالكى، فحكم عليه بالقتل، فضربت عنقه بسوق الخيل.

و اتهم لسان الدين بن الخطيب-عالم الأندلس-بالزندقة، فحكم عليه بالقتل.

وذلك أنهم أحصوا عليه كلمات فى مؤلفاته ورفعوها إلى القاضى، فسجل عليه الحكم بالزندقة، وأفتى بعض الفقهاء بقتله، فطرقوا عليه السجن فخنقوه وأخرجوا شلوه وأحرقوه.

وقد أشرنا سابقا إلى أن المحكمة التى تعقد لمحاكمة المتهمة بالبدعة أو الضلالة عن الدين هى تحت رئاسة قاض مالكى، و الزندىق أو المبتدع عن المالكية ينفذ فيه الحكم وإن تاب، بخلاف بقية المذاهب، وهو رأى مالك، وقد خالف ابن مخلد وابن الموازى ذلك.

قال الشوكانى: أبتلى أهل تلك الديار بقضاة من المالكية يتجرءون على سفك

ص: 60

---

1- (1) وقد رواه عدة من الصحابة عن أنس بن مالك: أن النبى أهدى إليه طائر مشوى، فقال: «اللهم اتنى بأحبّ خلقك إليك يأكل معى من هذا الطائر» فجاء على عليه السلام فأكل معه. رواه الترمذى وقال الحاكم فى المستدرک رواه عن أنس أكثر من ثلاثين.

الدماء بما لا يحلّ به أدنى تعزير، فأراقوا دماء جماعة من أهل العلم بجهالة و ضلالة و جرأة على الله، و مخالفة لشريعة رسول الله، و تلاعبا بدينه بمجرد نصوص فقهية و استنباطات فرعية ليس عليها آثار من علم، و إنا لله و إنا إليه راجعون.

و ربما كان حكم المالكي عن غضب و تأثر، فإن الباجريقى الشافعى الذى اتهم بانحلال العقيدة، حكم الحنبلى بعصمة دمه، فغضب قاضى المالكية و حكم بقتله.

و قدم رجل متّهم بالبدعة، و لما أحضر أنكر ذلك. فحكم بقتله، فقال: كيف تقتلوننى و أنا أقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله؟ قال ابن أبى عقيل: أنا أقتلك.

قال: بأى حجة؟ قال: يقول الله تعالى: فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَهُ .

و من الفظائع المؤلمة، إنهم حكموا على إبراهيم الضبى بالسجن، فضمّ إليه فى السجن رجل يعرف بابن الهذيل، ثم صدر حكم بأن يضرب ابن الهذيل خمسمائة سوطا، و أن تخبط رقبة إبراهيم ليلا، فاشتبه العامل و ضرب إبراهيم خمسمائة سوطا و أعاده إلى السجن، و أخرج ابن الهذيل فضربت عنقه، ثم انتبه الوالى للغلطة، فأخرج إبراهيم و ضربت عنقه، ثم ربطت أرجلهما بالحبال و جزّا مكشوفين غير مستورين من دار الإمارة، ثم صلبا ثلاثة أيام.

و استمر الحال على هذه الفوضى و التحكّم بأرواح الناس باسم حماية الدين و مقاومة المبتدعة و المفسدين، و كانوا يرون مؤاخذه هؤلاء بالشدة، و معاملتهم بالعنف انتصارا لمبادئهم، و إنجاحا لمخططاتهم، فلا يسمعون قول أحد فى الدفاع عن نفسه، و ربما لم يسمحو له بالدفاع عن نفسه، و لا يلتفت إلى ما يكتبه بالردّ على ما اتهم به خوفا من وضوح الحجة و عجزهم عن نقضها، و عمدوا إلى الاستعانة بالسلطة ليرغبوها فى إبادة المفكرين حماية لأنفسهم، فأخذوا بفتوى مالك و من رافقه من أصحاب الشافعى إلى قتل الداعية إلى البدع، فلا توبة له، و أعرضوا عن نصوص الدين فى قبول توبة المؤمن.



أدى تحول النظام الإسلامي إلى الملك، وتحكم الأفراد، إلى ظهور وسيلة جديدة من وسائل أصحاب السلطان في توطيد دعائم حكمهم و تثبيت نفوذ عوائلهم، فاستحدث القصص مرادفا لدور الخطباء أو الشعراء الذين انزلقوا مع الحكام في سياساتهم التي استخدموا بها الدين لأغراضهم و مصالحهم. ولا نعرف أثرا متفقا عليه يشير إلى وجود القصص أو ظهور القصصين كظهور الشعراء قبل الإسلام أو بعده، أو أن العرب عرفوا هذا النوع بما يقرب من الألوان التي عرفتها الشعوب الأخرى، فليس في الجزيرة من أمثال تلك الأساطير أو الحكايات، و ما كان فيها محدود التفاصيل و الأثر، أما في الإسلام فقد تميّز عن الأديان السابقة بوحدة العلاقة و الواسطة، و عدم وجود وساطات أخرى تفصح المجال للاستعانة بالخيال. و ما طرأ في العقائد كان من مخلفات بني إسرائيل التي منع الرسول محمد صلى الله عليه و آله و سلم من سلوك طريقها حيث يذكر أنه قال صلى الله عليه و آله و سلم: «إن بني إسرائيل هلكوا لما قصّوا».

و نودّ هنا أن نشير بعجالة إلى مبدأ هذا الأسلوب الذي وضع لخدمة أغراض الحكام، و الذي لعب دورا كبيرا في إثارة الفوضى و إشاعة الفرقة و تأجيج نار العدا، و تطور إلى صنعة يتكسب منها من لم يفلح في المجالات الأخرى، أو من لم ينجح في أمور الحياة، أو تدفعه نيات خبيثة و أحقاد على الإسلام. إضافة إلى كونها وظيفة من وظائف الدولة يتصل من خلالها القاصّ بأصحاب السلطة و الخلفاء من خلال ما يقوم بإشاعتها، و بقدر ما يحرك فيهم الإعجاب، و هو يعبر عن أغراضهم و ما يعملون على إشاعته و نشره.

و كان هذا النوع من النشاط من أشد الأساليب فتكا في جسد الأمة و تأثيرا سلبيًا



فى واقع الناس، وقد كانت لحمته مختلطة و متنوعة تجافى المنطق و العقل، و لعبت فى عقول الناس و ميولهم، ثم جرأت السلطة القصاصين على أن يتناولوا كل ما من شأنه خدمة دولهم و حكم أسرهم.

و القصاصون استعملوا قصصا تحمل الناس على ارتكاب المعاصى، أو تدفعهم إلى القتال و النزاع. ففى سنة 284 هـ أثار القصاصون الفتن بين أتباع المذاهب الدينية، مما حمل الخليفة المعتضد على منعهم (1).

و قد وصفوهم بالكذابين، و أنهم يروون الأعاجيب (2) و منع عضد الدولة ظهورهم فى المساجد سنة 267 هـ و غيرها، و اعتبرهم آفة المجتمع لأن أحاديثهم كانت سببا فى إثارة الناس (3).

و لم يعهد فى صدر الإسلام وجود قصاصين، و لكن الأمر محدث فى العهد الأموى، أحدثه معاوية حين كانت الفتنة، فكان للقصاصين نشاط سياسى يقومون به لتقويم دعائم الملك، إذ هم يحرضون الناس على تأييد الدولة، و يوغرون قلوب الناس بما يخترعون من القصص، و يلهبون شعورهم بما يضعونه من الأحاديث، فيزداد نشاط الناس بالغيظ و حب الانتقام.

و كان الحكم الأموى منذ لحظاته الأولى يخطط لكسب الأكثرية من الناس، و إيهام الرعية بشرعية سلطانهم، فلجئوا إلى أساليب كثيرة أهمها الدعايات الملفقة، و من صور الدعاية التى ابتكروها كان تجنيد القصاص لترسيخ دعائم حكمهم على حساب مكانة الرسول و أصحابه الأخيار، و لكى يضمن الأمويون الإفادة من جهود القصاص ألزمو الناس بلزوم الاستماع إليهم.

و لقد قام أولئك القصاصون بكل جهدهم بصياغة القصص و تلفيق الأحاديث.

قال حبيب بن الحرث الثمالى: بعث إلى عبد الملك بن مروان فقال: يا أبا

ص: 64

1- (1) الطبرى ص 182. و المنتظم ج 7 ص 88.

2- (2) مروج الذهب ج 5 ص 86 ط أوروبا. و المقدسى فى البدء و التاريخ ج 1 ص 199.

3- (3) العبر ص 65-66.

أسماء، إنّا قد جمعنا الناس على أمرين. فقلت: وما هما؟ قال: رفع الأيدي على المنابر يوم الجمعة، والقصاص بعد الصبح والعصر (1).

كما اتخذت السلطات فى العهد الأموى استخدام القصاص وسيلة لتشويه مبادئ الإسلام و تعضيد حكمهم و اختلاق النصوص و القصاص بما ينسجم مع سياستهم فى العنف و التحكم و إخماد حرية الرأى؛ فكان القصاصون ركيزة الدولة الأساسية فى مواجهة القوى التى أخذت تكشف حقيقة تركيب النظام الأموى و سياسته الظالمة، فبذل القصاص غاية جهدهم فى تشويه الحقائق، و السماح لهم باختلاق الروايات و وضع الأحاديث، و الإغضاء عن الافتعالات المفضوحة التى انضم بها القصاص إلى ركب المدّاحين و أهل الخطب الذين شوّها دور المنابر، و أساءوا إلى مهمة رجال العلم بصمتهم المطبق، و هم يرون سفك الدماء و انتهاك الحرمات، و التعدّى على تعاليم صاحب الرسالة و مبلغ الشريعة و أهل بيته الأطياب، و بجلجلة ألسنتهم و هم يركبون الكذب، و يجمعون الموضوعات، و يسوقون الخرافات و المنامات و الأساطير تزلفاً و تكسّبا، فباعوا دينهم بأبخس الأثمان، و عند الله الجزاء.

ثم انتشرت خرافات القصاص الإسرائيلية المعروفة بالإسرائيليات، و قد قام بذلك جماعة من اليهود، و فى طليعتهم كعب الأخبار، تلك الشخصية اليهودية التى دخلت الإسلام و هو يحمل على كتفيه مهمة نشر الإسرائيليات و بثّها فى ثنايا علوم الإسلام و فنون القرآن، فكان أكبر و أخطر مصدر لهذا الفن. و قد سفنا الحديث المروى عن النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم الذى يشير فيه إلى أن اليهود فى قصصهم قد هلكوا، و قصدنا إظهار ما فيه من تحذير، و قد جاء كعب ليكون من دعائم ببيان فن القصاص الذى عملوا على توسيعه، فالتقت الأغراض.

فاليهود هم أكبر عامل لإثارة الحزازات و النزعات العصبية بين القوميات التى تعيش فى المجتمع الإسلامى، و طريقتهم فى تأمرهم على الإسلام هى:

التظاهر باعتناقهم إياه، ثم يبدءون ببثّ سمومهم بما يلقونه من قصص و أخبار و هى ليست بذات قيمة؛ لكنهم يجيدون استغلال الظروف و التحرك المناسب.

و قد حدّر النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم من خطرهم، و أمر بإجلائهم، و كانت آخر وصية له صلّى الله عليه و آله و سلّم أن

ص: 65

قال: «اللّٰه في أهل بيتي، أوصيّكم في أهل بيتي خيراً، وأخرجوا اليهود من جزيرة العرب» ولكن المسلمين لم يأخذوا هذه الوصايا بعين الاعتبار، فكان ما كان من عواقب وخيمة.

وقد أجلى عمر بن الخطاب جماعة من اليهود، فسكنوا الكوفة، فكانوا قطب رحى الخلافات، وقد شوّهوا سمعة هذا البلد العربي المسلم. حتى عرف بالمكر والخيانة، والغدر، والخديعة. ولعب هؤلاء اليهود دوراً مهماً في نشر الخلافات في جيش الإمام الحسن عليه السلام وتمزيق وحدة الصف، وإثارة النعرات.

ولا يتسع المجال لشرح مواقفهم من قضية الحسين عليه السلام بدفع عجلة الحوادث، وتطوير الوقائع، للإسراع في القضاء على الحسين عليه السلام لأنهم يعدّون ذلك نصراً لهم، وفتحاً جديداً في موقفهم العدائي للإسلام، واستمرت أعمالهم في العهد الأموي يوسعون دائرة الخلافات، وقيمون العراقيين في طريق التفاهم بين الفئات المتناحرة.

وعلى كل حال، فقد استمر القصاص بمساندة السلطة وتأييدهم الحاكم الذي يصبح وضعه ينذر بالخطر لسوء السيرة وقبح المعاملة، فيلجأ إلى استعمال سلاح الحماية باسم الدين بشتى الوسائل، فيوعز إلى القصاص بالنزول إلى غمار العامة يقصّون عليهم ما يحرك شعورهم ضد الفئة المعارضة للدولة، أو يشغلونهم بحدوث فتنة. وقد استطاعوا أن يجلبوا أذهان السذج، ويؤثروا على تلك العقول في وضع الأحاديث و اختراع القصص، فكانوا أداة فرقة، وأكبر عامل لإثارة الفتنة.

قال ابن الجوزي: وكان القصاص في أواخر القرن الرابع أكبر مشيرى الفتنة بين السنة والشيعة.

ويقول أيضاً في موضوعاته: إن معظم البلاء في وضع الحديث إنما يجري من القصاص، لأنهم يروون أحاديث ترفق و الصحاح تقل في هذا. و اختلف أهل البصرة في القصاص، فأتوا أنس بن مالك فسألوه: أكان النبي صلّى الله عليه وآله وسلم يقص؟ قال: لا.

وأخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن نافع وغيره - من أهل العلم - أنهم قالوا: لم يقص في زمان النبي صلّى الله عليه وآله وسلم ولا زمان أبي بكر ولا زمان عمر؛ وإنما القصاص محدثة، أحدثها معاوية حين كانت الفتنة.

و لا شك أن معاوية استعمل تلك الفئة المرتزقة كما قدّمنا ليستعين بها في وضع الأحاديث لدعم ملكه، و حمايته بوجه موجة الاستنكار، و قد استطاع أن ينشر بين الناس مناقب عثمان الموضوعه، و مناقب البلدان، و مناقب بعض الرجال و العشائر كما يشاء.

كما أنه استطاع أن يختلق لخصومه مثالب أبرزها في قالب الابتكار و الخيال الواسع، و تمكّن بهذه القوة، أن يزوى ما لعل عليه السّلام من مناقب و ما ورد فيه من أحاديث صحاح، فكان بحكم تلك الدعايات التي هي كأوامر رسمية أن أصبح الخطباء يعلنون سبّ على عليه السّلام و شيعته، و كان الوعّاظ يختمون مجالسهم بشتمه عليه السّلام و كان يلزم الناس بإعلان سبّه و البراءة منه، و فرض عليهم تعليمه لأبنائهم، و أصبح معاوية بمقتضى تلك الأساليب و بتلك الأكاذيب هو: أمين الأمة، و كاتب الوحي، و خال المؤمنين، إلى آخر ما هنالك من أساطير.

و مهما حاول معاوية إخفاء فضل على عليه السّلام فقد انهار ما بنى، و بقي ذكر على و أهل بيته عليه السّلام تردّه الأجيال بفخر و اعتزاز على مرّ العصور و الأيام.

إذا ما بناء شاده الدين و التقى تهدّمت الدنيا و لم يتهدّم

و لسنا هنا بمعرض البحث عن تلك الأزمنة، فقد أشرنا إلى بعضها في الأجزاء السابقة، و جلّ اهتمامنا في جميع ما ذكرناه هنا و هناك، هو إعطاء صورة عن الأمور المحزنة التي تحرّز بالنفس، و التي حدثت في أزمنة متأخرة من الزمن. الذي كان ظرف تلك الحوادث و هي امتداد لما حدث فيها من خلافات.

و على أي حال، إن الأثر الذي أحدثه القصّاصون في ذلك المجتمع من إثارة فتن، و إيقاد نار البغضاء بين طوائف المسلمين، و إشعال حروب طاحنة؛ هو من أعظم الأمور التي ابتلى بها المسلمون في تلك الفترة المظلمة.

لقد كان أولئك نفر يحرضون الناس على القتال و النهب، و يحركون القلوب، و يثيرون الشعور بما يفتعلونه من أقوال و يضعون من أحاديث، يغذّون بها أدمغة العامة، كما قاموا في المساجد و الجوامع و الطرقات و الأندية يبيّنون سموهم.

فاتخذتهم السياسة سلاحا فاتكا- كما قدمنا- و هم ينتشرون في ساحات الحرب

يشجعون الجند على القتال. ولقد خضعت العامة لتصديقهم وقبول مفترياتهم، حتى أصبح من العسير الإنكار على واحد منهم. و من تجرأ فأنكر، يكون عرضة لسخط العامة. و حيث عظم خطرهم و فشا كذبهم و ظهر تلاعبهم بتفسير الكتاب العزيز، فأراد بعض العلماء أن يقوم بتوجيه الناس بحملة إنكار على هؤلاء الذين فتكوا بجسم الأمة بأكاذيبهم، و لكن أقعد أولئك العلماء خوف العامة، فتركوا الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر تقية و خشية من السلطان، لأنهم تحت رعاية الدولة. و ربما خرج القاصّ محاطا بالجند و مزوّدا بالسلاح.

ففى سنة 475 هـ عبر قاصّ من الأشعرية-يقال له البكرى-إلى جامع المنصور و معه الشحنة و الأتراك بالسلاح، و كان البكرى فى حدة و طيش، و كان النظام أنفذ ابن القشيرى، فتلقاه الحنابلة بالسبّ، فأرسل إليهم النظام هذا القاصّ، فأخذ يسبّ الحنابلة، و يستخفّ بهم، و قد أحيط بالسلاح من الأتراك، و صعد المنبر و قال: **وَ مَا كَفَرَ سَلِيمَانُ وَ لَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا مَا كَفَرَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَ لَكِنْ أَصْحَابُهُ كَفَرُوا.** و حكى على الحنابلة فى صفات الله عز و جل ما لا يليق، فأغرى بهم الناس، و أعلن شتمهم (1).

و أراد جماعة من العلماء الإنكار على محمد السمرقندى لأنه كان يقصّ و يحدث بأحاديث منكّرة، فلما حضروا عنده، اجتمع العامة، فخاف العلماء من شرّه.

و نزل قاصّ فى دار الحدائين و روى أحاديث منكّرة، فأراد يحيى بن معين أن ينكر عليه، و لكنه ترك ذلك تقية خشية أن يقتله الحدائون بشفارهم.

و حكى السيوطى قصته مع القصاص الذى حدّث الناس بحديث لا أصل له، و كذّبه السيوطى، و أفتى بأن هذا الحديث لا أصل له و هو باطل لا تحلّ روايته و لا ذكره و خصوصا بين العوام، و السوق، و النساء، و أنه يجب على هذا الرجل أن يصحح الأحاديث التى يروها فى مجلسه على مشايخ الحديث.

فنقل كلام السيوطى إلى ذلك القاص، فاستشاط غيظا و قام و قعد، و قال: مثلى من يصحح الحديث عن المشايخ؟! مثلى يقال له فى حديث رواه أنه باطل؟! أنا أصحح على الناس، أنا أعلم أهل الأرض بالحديث. ثم أغرى الناس بالسيوطى

ص: 68

فهاجت العامة، وقامت الغوغاء، وتناولوه بالسنتهم، وتوعّدوه بالقتل والرجم (1).

وأنكر على بن نبال على قاص بما حدّث، فعظم ذلك على العامة و همت بإيقاع المكروه فيه، فاختمى عنهم و توارى فى بيته. و سسمع الأعمش أحد القصاص يقول:

حدثنا الأعمش. فقام و توسط الحلقة، و جعل ينتف شعر إبطه. فقال القاص:

يا شيخ، ألا تستحى نحن فى حلقة علم، و أنت تفعل مثل هذا؟! فقال الأعمش: الذى نحن فيه خير من الذى أنت فيه.

قال: كيف؟ قال: إني فى سنّة، و أنت فى كذب. أنا الأعمش، ما حدّثتك مما تقول شيئا (2).

و تجنّب العلماء معارضة القصاصين، و الردّ عليهم تقيّة و خوفا على أنفسهم، لأن العامة ارتبطوا بالقصاص، و أقبلوا عليهم و تقبلوا كل ما يلقونه من الموضوعات، و القصص الخرافية. و قد قام أحد القصاصين فحدّث عن النبى صلى الله عليه و آله و سلّم أنه قال: من بلغ لسانه أرنبه أنفه لم يدخل النار. فلم يبق أحد منهم إلا و قد أخرج لسانه يومئذ بها إلى أرنبه أنفه. و من هذا الباب تسرّبت أكثر الأحاديث المرغبة فى كثير من الأعمال.

و دخلت أذهان العامة تلك الخرافات و الأباطيل، و أصبحت و كأنها حقائق لا تقبل الشك و لا تخضع للجدل، كما أدخلوا كثيرا من العقائد المفتعلة ضمن أحاديث مكذوبة أحدثوها، و ربما خلقوا لها أسانيد من أنفسهم. و من أغرب ما ورد عنهم أن أحدهم قام فحدّث عن أبى خليفة أنه قال: حدثنا الوليد بن سعيد، عن قتادة، عن أنس، عن النبى. فقام إليه أبو حاتم البستي و قال له: رأيت أبا خليفة؟ قال: لا. فقال له كيف تروى عنه و لم تره؟ فقال القاص: إن المناقشة معنا من قلة المروءة، أنا أحفظ هذا الإسناد الواحد، و كلما أسمع حديثا ضمّمته إلى هذا الإسناد.

و من ذلك أن قاصّا حدّث بحديث و أسنده عن أحمد بن حنبل و يحيى بن معين

ص: 69

1- (1) المصدر السابق فى المقدمة.

2- (2) الأسرار المرفوعة لعلى القارى 55. و الأحياء للغزالي 58/1 [1]

و كانا حاضرين بالمجلس. وبعد أن فرغ أوحى إليه ابن معين بيده، فأقبل متوهماً لنواله، لأن القصاص كانوا ينالون الأموال من المستمعين، فلما جلس قال ابن معين:

من حدثك بهذا الحديث؟ قال: حدثني يحيى بن معين وأحمد بن حنبل.

فقال ابن معين: هذا أحمد بن حنبل وأنا ابن معين، ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن كان ولا بد من الكذب فعلى غيرنا. فقال له: أنت يحيى؟ قال: نعم.

قال القاص: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، ما حققت إلا الساعة.

فقال له يحيى: كيف علمت أنى أحمق؟ فقال: كأنّ ليس في الدنيا أحمد بن حنبل وابن معين غيركما؟ قد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، فوضع أحمد بن حنبل كفه على وجهه.

وقال: دعه يقول.

ولم يستطع أحدهما والحالة هذه أن يشتد في الإنكار عليه مع عظيم منزلتهما واشتجارهما بين الناس خوفاً من الغوغاء (1).

و حدث بعضهم عن الأعمش بلا سند قال: خرجت في ليلة مقمرة أريد المسجد فإذا أنا بشيء عارضني، فاقشعر منه جسدي، فقلت: أؤمن أنت أم كافر؟ فقال: بل مؤمن. فقلت: أمن الأنس أنت أم من الجن؟ قال: بل من الجن.

فقلت: فيكم من هذه الأهواء والبدع شيء؟ قال: نعم.

ثم قال: وقع بيني وبين عفريت من الجن اختلاف في أبي بكر وعمر فاحتكمنا لإبليس.

قال العفريت: إنهما ظلما عليا واعتديا عليه. فحكينا ذلك لإبليس فضحك وقال: هؤلاء-أي الذين يقولون بهذه المقالة- من شيعتي وأنصاري وأهل مودتي. ثم قال: أ لا أحدتكم بحديث؟ قلنا: بلى. قال إبليس: إني عبدت الله في سماء الدنيا ألف عام، ثم رفعت إلى الرابعة، و رأيت فيها سبعين ألف صف من الملائكة يستغفرون

ص: 70

لمحبي أبي بكر وعمر، ثم رفعت إلى الخامسة فرأيت سبعين ألف ملك يلعنون مبغضى أبي بكر وعمر.

بهذا يتقدم قاصّ يعهد إليه توجيه المجتمع حسب رغبات الدولة، وأى خدمة أعظم من هذه، وهى إبراز خصوم الدولة وهم الشيعة-أو المبتدعة فى منطق السياسة -بمظهر يشتمر منه كل واحد، وقد وسموهم بأنهم يلعنون الشيخين و يبغضونهما، و شاع ذلك فى المجتمع بدون وقوف على واقع الحال.

كما اتخذوا من القصص وسائل تدخل فى أذهان العوام عند ما يسندون ذلك إلى عالم الغيب أو الخضر عليه السلام و هو يتردد على السنة القصّاص فى أكثر المناسبات لتوجيه الشعور إلى ما يمكن قبوله.

لقد حدثوا عن بلال الخواص أنه قال: كنت فى تيه بنى إسرائيل، فإذا رجل يماشى، فتعجبت منه، ثم إنى ألهمت أنه الخضر عليه السلام فقلت له: بحق الحق من أنت؟ فقال: أخوك الخضر.

فقلت له: أريد أن أسألك.

فقال: سل.

فقلت: ما تقول فى مالك بن أنس؟ قال: هو إمام الأمة.

فقلت: ما تقول فى أحمد بن حنبل؟ فقال: رجل صدق.

قلت: فما تقول فى بشر الحافى؟ فقال: لم يخلق بعده مثله (1).

وهكذا تدور هذه المحاوره الخيالية، و تبرز للوجود بهذا الشكل، لتلعب دورا فى مجال الدعاية المذهبية، و تأخذ طريقها إلى عقول تتقبل الخرافات و الأباطيل.

ص: 71

1- (1) أحمد بن زين، شرح العينية 511.



و لقد ابتلى الخضر عليه السلام بأولئك القصاصين، فهم يزجون بشخصه، و يدخلون اسمه فى كثير من قصص الدعاية المذهبية، كما جعله بعض الأحناف تلميذا لأبى حنيفة فى حياته و بعد مماته كما تقدم.

كما استعمل الصوفية من شخصيته وسيلة إعلام لبعض شخصياتهم أو شاهدا على صحة طريقتهم (1).

لقد دخل نشاط القصاصين فى أغلب زوايا المجتمع، و استخدمه الناس فى أغراضهم المختلفة، و لجأ إليه أصحاب المذاهب. و كانت القصص تتبدل شخصياتها بحسب تعبير المتفذين و الصنعة التى يحملونها: مذهبية أو عرقية أو إقليمية. و لكن الأمر الذى لا يتغير هو العداء للشيعىة و الهجوم عليهم تحت ستار سب الصحابة أو بغض الشيخين، لأن الحكام منذ عهد معاوية اعتمدوا هذه التهم، و راحوا يستميلون الأمة، و يجعلون اتجاه وجودها و استمرارها عدائيا تجاه الشيعة، و تأكيد سلطة الحكام و صفتهم الدينية من خلال أصحاب الصنعة فى الخطابة و الحديث و القصص.

كان مجلس القصاصين يضم الرجل و المرأة و الطفل، و كلهم على مستوى واحد من حيث قبول تلك القصص، و لا تتعدى أنظارهم و مدركاتهم حدود المنابر التى يرقاها مرة الوعاظ المرتزة، و مرة العلماء المأجورون، و مرة القصاص الكذبة و هو يسبحون بحمد الظلمة و يأترون بأمر البغات منذ أن قامت الفتنة على يد الطلقاء من الأمويين، و منذ أن اشربت الجاهلية من على دست حكمهم فى الشام، فراحت هذه الزمر و مؤسساتها تؤثر فى أذهان الناس، و تبنى عقائدهم كما تشاء. بحيث يصح الحاكم الظالم و الفاسق الفاجر إماما بنص مكذوب و أثر موضوع، فيتقبل الناس ما يلقونه إليهم من سموم.

و فتح من جراء ذلك شدة البغض لهؤلاء الذين يوصفون أو يتهمون ببغض الشيخين أو لعنهما، و بالأخص تضاعف التهم على الشيعة حتى أصبحت من الأمور الارتكازية. لهذا ثبت فى أذهان السذج أن بغض الشيعة من السنة، و أنه خير عمل يقدمه الإنسان لربه.

ص: 72

و جاء فى النجوم الزاهرة فى ترجمة الخفاف أنه كان شديدا من السنة، ولما مات ابن المعلم فقيه الشيعة- وهو الشيخ المفيد رحمه الله- جلس للتهنئة و قال: ما أبالى أى وقت مت بعد أن شاهدت موته.

قال مؤلف النجوم الزاهرة: و مما يدل على دينه و حسن اعتقاده بغضه للشيعة، و لو لم يكن من حسناته إلا ذلك لكفاه عند الله (1). فلا غرابة أن يصبح بغض الشيعة سنة معمولا بها، و هى عندهم خير ما يلقي الإنسان بها ربه. و قد أصبح الكثير من هذه البدع من المسلّمات عن العوام لا تقبل الجدل و النقاش، و أن الكثير من الخرافات قد ارتكزت فى الأذهان كحقيقة واقعية لا لبس فيها و لا غموض.

و قد خفيت تلك الخرافات على أكثر الناس، و أصبح لها مكانة. و هى عنصر فعّال فى توجيه الشعور ضد الخصوم، لا سيما أنهم أشركوا الشياطين و الجنّ فى المعاونة معهم بالعمل ضدّ كل من يخالف المتسلطين و دعاة التحجر و الجمود.

حدّث أحمد بن نصر قال: رأيت مصابا بالصرع، فقترأت فى أذنه، فكلمتنى الجنية من جوفه فقالت: يا أبا عبد الله، دعنى أحنقه، فإنه يقول بخلق القرآن (2).

و أحمد بن نصر هو من كبار العلماء، و ممن يقول بقدم القرآن، و قد امتنع عن القول بخلقه، فأحضره الواصل فقال له: ما تقول فى القرآن؟ فقال: كلام الله.

قال الواصل: افترى ربك يوم القيامة؟ قال: كذا جاءت الرواية.

فقام الواصل إليه بنفسه، فقتله صبيرا 3.

و يروى الخطيب البغدادي فى التاريخ أن الواصل قال له: ويحك يرى كما يرى المحدود المتجسّم؟ يحويه مكان و يحصره الناظر. أنا أكفر برب هذه صفته (3) و قد كان أحمد بن نصر من ضحايا السلطان، نصب رأسه ببغداد على رأس الجسر، و استخدم القصاص من الحنابلة طريقة موته، و ادخلوا المنامات، و كم للمنامات و الرؤى من أهمية عند ما يعزّ الأثر و تنعدم المادة، و هى من أسهل الأساليب. و قد عبّت بها

ص: 73

1- (1) النجوم الزاهرة ج 4 ص 161. [1]

2- ((2)) و ((3)) طبقات الحنابلة ج 1 ص 81. [2]

3- (4) انظر: الإمام الصادق و المذاهب الأربعة، [3] محنة خلق القرآن/ الجزء الأول.

المصتفات المختلفة، فأحاط القصاص موت أحمد بن نصر بما يخدم عقيدة التجسيم، إذ يروى الخطيب البغدادي عن الحنابلة: رأى بعض أصحابنا أحمد بن نصر في النوم بعد ما قتل، فقال: ما فعل بك ربك؟ فقال: ما كانت إلا غفوة حتى لقيت الله، فضحك إلى. أخبرنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن طاهر الدقاق، أخبرنا أبو بكر النجاد، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا أبو الحسن بن العطار محمد بن محمد قال: سمعت محمد بن عبيد -و كان من خيار الناس - يقول:

رأيت أحمد بن نصر في منامي فقلت: يا أبا عبد الله، ما صنع بك ربك؟ فقال:

غضبت له، فأباحني النظر إلى وجهه (انتهى). ثم ينشرها المختصون و يذيعونها. وقد ذكرنا فيما سبق أن الواثق كان يمثل المرحلة الوسطى التي تجمع بين المأمون في شدته و بين المتوكل في إدنائه الحنابلة و العامة، أو أن هناك ما يشير إلى ميل لتبرئة آل العباس من دماء الأبرياء و إبقاء صلة القرابة بالرسول صلى الله عليه و آله و سلم معتمدا لمكانتهم المقدسة، فوضعوا على لسانه أن أحدهم سأله و هو عليه السندس و الاستبرق و على رأسه تاج: ما فعل الله بك يا أخى؟ قال: غفر لى و أدخلنى الجنة، إلا أنى كنت مغموما ثلاثة أيام. قلت:

و لم؟ قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم مرّ بى، فلما بلغ خشبى حوّل وجهه عنى، فقلت له بعد ذلك: يا رسول الله، قتلت على الحق أو على الباطل؟ فقال: أنت على الحق، و لكن قتلك رجلا من أهل بيتى، فإذا بلغت أستحيى منك.

و يعقد ابن الجوزى بايين مستقلين فى المناقب يذكر فيهما المنامات التى روى فيها أحمد بن حنبل، و بابا آخر يذكر فيه تأثير موت أحمد عند الجن، نذكر منها على لسان رجل بطرسوس: أنا من اليمن و كانت لى بنت مصابة، فجنّت بالعرّامين، فعزموا عليها، ففارقها الجنى على أن لا يعاود، فعاود بعد سنة. فقلت: أليس قد فارقت على أن لا تعاود؟ قال: بلى. و لكن مات اليوم رجل بالعراق يقال له أحمد بن حنبل، فذهبت الجن كلها تصلى عليه إلا المردة و أنا منهم، و لست أعود بعد يومى. فما عاد.

و من المضحك، بل المخزى فى آن واحد ما وقع فى سنة 456 هـ أن قوما من الأكراد خرجوا متصيدين، فأوا بالبرية خيما سودا سمعوا فيها لطما شديدا و عويلا - كثيرا و قانلا - يقول: مات سيدوك ملك الجن، و أى بلد لم يلطم عليه و لم يقم له فيه مأتم قلع أصله و هلك أهله. فخرجت النساء من حريم بغداد إلى المقابر يلطن ثلاثة

أيام ويخرقن ثيابهنّ وينشرن شعورهنّ، وخرج الرجال يفعلون مثل ذلك، وفعل هذا في واسط وغيرها من البلدان (1).

بمثل هذه العقلية الضحلة، أصبح الناس يعيشون تحت ظلال علماء وقادة يدفعون بهم إلى مهاوى الجهل والتعصب، ويقعون في ظلمات الفرقة، وقد نشرت تحت ستار الوعظ خرافات وأوهام وأباطيل، وطغت موجة الغلو والتحدى لتعاليم الإسلام، وانتشرت عقائد بعيدة عن روح الإسلام ونظمه، ومصدر ذلك تلك الحلقات التي اتخذت لأغراض خاصة وأبواق المأجورين.

ولقد أخذت تلك الخرافات مكانتها في أدمغة السذج، وهي السمّ القاتل، والسلاح الفاتك، ثم تحولت إلى مادة يشطح فيها الخيال، ويحاط بها الأشخاص.

وتظهر على الساحة جماعات بمسوح دينية وشعائر مبالغ فيها، تجعل لها قادة من الرجال الأحياء أو الأموات، فتنسب إليها الأعمال أو تصوّر سيرهم بأوضاع لا تجد لها مستندا من عقل أو حقيقة، وما هي إلا أوهام تنجم عن حالات خاصة يمارسها الأشخاص، فتخلق أجواء يبرز بها مختصّون في الأداء والتوجيه، تجتذب أفعالهم السذج والبسطاء، فتصبح عندهم عقيدة وطريقة. وقد جاءوا بمناقب لمن وسموهم بالأولياء أو الشيوخ ذوى الكرامات.

فهذا يدعى له بأن الشمس وقفت له إكراما حتى يصل إلى وطنه عند ما ضايقه الليل كالشيخ محمد الحضرمي حتى قالوا في ذلك:

و من جابه أوما إلى الشمس أن قفى فلم تمش حتى أنزلوه بمقعد

(2) وقالوا: أنّ الكعبة توهّدت وهي تطوف بسريره.

وأوردوا عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلم: أن من قبل يد الشيخ الحضرمي دخل الجنة. إلى غير ذلك من خرافات وأوهام (3).

وكذلك ادعى للسيد أحمد الرفاعي أن الشمس وقفت في قرصها إلى أن دخل قرية أم عبيد (4) وأكثروا عن المشايخ نقل كرامات تدل على مبلغ ما وصل إليه

ص: 75

1- (1) طبقات الحنابلة ج 1 ص 81.

2- (2) اليافعي، مرآة الجنان 188/4. [1]

3- (3) ابن العماد، شذرات الذهب 262/5.

4- (4) الشيخ أحمد الوترى، روضة الناظرين 99.

الانحطاط الفكري، وقد جعلوا الاعتراف بها و الخضوع لها من عقائد الإسلام، فمن ماري فيها شكّوا في دينه (1).

فكانوا يلزمون الناس بالاعتقاد بأن شيان العجمي سخرت السماء لخدمته، عند ما يريد أن يغتسل، فهناك تأتي سحابة تمطره فيغتسل، و نسبوا لآخر منهم أنه يخرج في القافلة من البصرة يوم التروية، فيدرك الحج أول النهار.

وقالوا: أن إبراهيم الخراساني كان يمشى على البحر بين الأمواج، وأحمد بن خضير البلخي كان يفرش بساطه على البحر (2).

وغير ذلك من ادّعاءات كاذبة و مناقب مفتعلة، وليت الأمر يقتصر على تخيّل الكرامات و ادعاء المعجزات التي يسهل أمرها عند تحكيم العقل و تدقيق النظر، فإن قائمة الموضوعات امتدت إلى الأحكام الشرعية و ابتغائها على نتاج هذه الأمراض التي تكبّل طاقات البشر و تشلّ قدراتهم، فيعلم العيد من امتناع الوليد عن الرضاع و هو في حضن أمه. أو ما أوردوا للسيد البدوي من أنه بعد أن مات قام فغسّل نفسه، و بعد انتهائه من الغسل مات ثانية.

وقد ابتنى على هذا نزاع فقهي كما أورده الشيخ الباجوري و غيره في تغسيل الجنائز فقالوا: إن الميت لو غسّل نفسه لا يحتاج إلى من يغسله ثانية كما وقع للسيد أحمد البدوي.

و يروون أن جماعة من الفقهاء و الفقراء اجتمعوا عنده في المدرسة النظامية، فتكلم في القضاء و القدر، بينما هو يتكلم إذ سقطت عليه حية من السقف، ففرّ منها كل من كان حاضرا عنده و لم يبق إلا هو، فدخلت الحية تحت ثيابه، و مرت على جسده، و خرجت من طوقه، و التوت على عنقه، و هو لا - يقطع كلامه و لا غير جلسته، ثم نزلت على الأرض و قامت على ذنبها بين يديه، فصوتت، ثم كلّمها بكلام ما فهمه أحد من الحاضرين، ثم ذهبت. فرجع الناس و سألوها عما قالت؟ فقال: قالت لى لقد اختبرت كثيرا من الأولياء فلم أر مثل ثيابك. فقلت لها: و هل أنت إلا دويذة يحركك القضاء و القدر الذي أتكلم فيه (3).

ص: 76

1- (1) محمد الغزالي، الإسلام و الطاقات المعطلة 124.

2- (2) المناوي، الكواكب الدرية 192/1-198.

3- (3) انظر: طبقات الشعراني، [1] ترجمة الجيلي، الجزء الأول.

و من الغريب أنهم يربطون بين خرافاتهم و بين واقع الإسلام، كما أنهم اخترعوا أسطورة لرقصتهم في مجالس الذكر، و أنهم يفعلون ذلك اقتداء بأبي بكر، و قالوا:

حدّث الأشناني عن ابن عباس عن النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم: هبط علىّ الأمين جبريل و عليه طنقسة و هو متخلل بها. فقلت: يا جبريل، ما نزلت إلى بزىّ مثل هذا الزىّ؟ قال: إن الله أمر الملائكة بأن تتخلل بالعباءة إكراماً لأبي بكر. و رواها العلاء بسند عن ابن عمر. بينما الناس عند النبي و عنده أبو بكر و عليه عباءة، قد خللها على صدره بخلال، إذ نزل جبرئيل و قال: مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها؟ فقال النبي: يا جبرئيل قد أنفق ماله علىّ. قال جبرئيل: فأقرأه من الله السلام و قل له: يقول ربك: أراض أنت أم ساخط؟ قال ابن حجر في بقية الحديث: فبكى أبو بكر و قال:

أعلى ربي أغضب؟ و قد أورد هذه المنقبة صاحب الذهب الأبريز في شرح الوجيز ص 392، و هي أن أبا بكر أنفق ماله في سبيل الله، و أعتق عبده حتى تخلل بالعباءة، و نزل جبرئيل و قال يا محمد: إن ملائكة السموات تخللت بالعباءة إكراماً لأبي بكر من الله، و قل له:

إن ربك عليك راض فهل أنت عنه راض؟ فقال أبو بكر: إني عن ربي راض. و صار يفتل (يفتر) كالدولاب. و عنه أخذت الصوفية الدوران و الرقص.

و نسبوا إلى أبي بكر أنه ألبس أحدهم الخرقة في المنام و هو ابن هواد البطائحي و كان شاطراً يقطع الطريق، فكان أول من ألبسه أبو بكر - كما يروى الشعراني - ثوباً و طقية في النوم، فاستيقظ فوجدهما عليه؛ و يرقى بهم الحال، فيدعون للشيخ عبد القادر منزلة النبوة و درجة المناجاة مباشرة من دون واسطة، فيقول: يا رب. فيقول الله: لبيك. و قد جمعت هذه المناجاة و الوحي الإلهي في رسالة أسموها: الرسالة الغوثية. نكتطف منها ما يلي:

قال الشيخ عبد القادر الكيلاني:

الحمد لله كاشف الغمّة، باسط النعمة، و الصلاة و السلام على نبيه خير البرية.

قال الغوث الأعظم المستوحش بغير الله و المستأنس بالله.

قال الله تعالى: يا غوث الأعظم.

قلت: نبيك يا رب، الغوث.

قال: كل طور بين الناسوت و الملكوت فهو شريعة، و كل طور بين الجبروت و الملكوت فهو طريقة، و كل طور بين الجبروت و اللاهوت فهو حقيقة.

و قال لى: يا غوث الأعظم، ما ظهرت فى شىء كظهورى فى الإنسان.

ثم سألت فقلت: يا رب هل لك مكان؟ فقال لى: يا غوث الأعظم، إنا مكان المكان، و ليس لى مكان. و أنا سرّ الإنسان.

ثم سألت فقلت: يا رب هل لك شرب و أكل؟ قال: أكلى أكل الفقير، و شربه شربى.

ثم سألت و قلت: يا ربّ من أى شىء خلقت الملائكة؟ إلى آخر ما جاء فى هذا الباب من المناجاة التى تضمنتها «الرسالة الغوثية» و قد طبعت باللغة التركية، و ترجمت إلى العربية، و يأتى ذكرها فى تعداد مؤلفات الشيخ عبد القادر (1) و فيها تلك المناجاة، أو المقابلة بين الشيخ و ربه.

و قالوا عنه: أنه كان فى حفرة أيام رضاعه دليلاً على هلال شهر رمضان، لأنه

ص: 78

1- (1) هو الشيخ عبد القادر بن موسى بن عبد الله. أمه أم الخير فاطمة بنت السيد عبد الله الصومعى الزاهد. ولد فى بنيق قصبه من بلاد جيلان وراء طبرستان سنة 470 هـ 1077 ميلادية، و دخل بغداد فى سنة 488 هـ 1095 ميلادية، فقرأ الفقه و الأصول، و سمع الحديث، و اشتغل بالوعظ، و لازم الانقطاع و الخلوة، و أسند له الولاية. و عرف بالشيخ عبد القادر الكيلانى، و له مؤلفات كثيرة، كما ذكروا له كرامات و معاجز خصص لها كتب تنوف على أكثر من 30 كتاباً. توفى فى بغداد سنة 561 هـ و قبره ظاهر يزار، و محلة تعرف بمحلة باب الشيخ نسبة له. جاء فى النظرات ج 2 ص 91 الطبعة 6- مطبعة الرحمانية فى مصر سنة 1930 م. تحت عنوان: دمعة إلى الإسلام، يقول فيه: إنه ورد كتاب من الهند يصف كاتبه مؤلفاً موضوعه تاريخ حياة عبد القادر الجيلانى و ذكر مناقبه و كراماته و ما وصفه بصفات و ألقاب هى بمقام الألوهية أليق منها بمقام النبوة فضلاً عن مقام الولاية. كقوله: سيد السماوات و الأرض، النفاخ الضرّار المتصرّف فى الأكوان و المطلع على أسرار الخليفة محبى الموتى و مبرئ الأعمى و الأبرص و الأكمه، و أمره من أمر الله... إلى آخر تلك الألفاظ. و هلم معى فاقراً بقية الكتاب ص 93 يصف الكاتب أمة من الناس يسجدون لقبر ينسب لأولاد عبد الله سجدوا رقب من دون الله، و إن فى كل بلاد صورة مزار لقبر عبد القادر، فىكون القبلة التى يتوجه إليها المسلمون فى تلك البلاد الخ. أ صحيح هذا؟ نحن قرأنا كما قرأت و السلام.

كان يمسك عن الرضاع في شهر رمضان نهاراً، ولأنه صائم ورضاعه في آخر الشهر دلالة على هلال شوال!! وصادف أن غمّ الهلال على الناس في آخر الشهر، فسألوا أمه: هل رضع اليوم؟ قالت: نعم، فعلموا أنه العيد!!! وبعض المصادر الصوفية تروى ذلك على لسان والدته التي يصفونها بأنها: لها قدم في الطريق. وأنها قالت: لما وضعت ولدى عبد القادر كان لا يرضع ثديي في نهار رمضان، فأتونى وسألونى عنه؟ فقلت لهم: إنه لم يلتقم له ثدياً، ثم اتضح ذلك اليوم كان من رمضان (1).

لقد أدى إقبال العامة على القصص، ووضوح أهداف مجالس القصص في تمجيد الحكام والدفاع عن أصحاب القوة والنفوذ إلى ظاهرة أخرى، هي التي نحن بصددھا حيث نجمعھا في التأثير السلبي مع القصص.

و مع تباين الأغراض والنزعات فإننا إذا أخذنا بمقاييس البدعة ومعايير الأحداث، فإن ما يجمع بين هذه الأعمال هو تجاوز الحد والمبالغة في السلوك، سواء في الدفاع عن الظلمة والكذب على الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو في تعظيم الأشخاص ونسبة الأمور العظيمة إليهم والتقيّد بشعائر تخرج الإنسان المسلم من حال الاتزان والقبول.

ولا تحول صفة الزهد والتقشف أو أغراض الوعظ دون نظرنا إلى النتيجة.

يقول الإمام الحافظ أحمد بن محمد بن الصديق في كتابه (فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم على): وقد نص السلف على أن القصص بدعة، وأن التزهّد والتقشف الخارج عن السنّة بدعة أيضاً، فكان مقتضى هذا أن تردّ رواية كل زاهد ومذكر، ويعلق ذلك بزهده وتذكيره، لأنه وجد الكذب شائعاً، ووصفوا بالبدعة كما هو حال الآخرين.

(فإن قيل): لم يصدر الكذب إلا من جهلة الزهاد ومن لا تقوى عنده من القصص والوعاظ.

ص: 79



(قلنا): وكذلك المبتدعة، فإننا لم نجد الكذب شائعا إلا في فسقتهم، ومن لا يخشى الله منهم. أما أهل الدين والتقوى فوجدناهم في نهاية الصدق و غاية التحرز من الكذب. انتهى. وبما أن المصنف من أصحاب التصوف، فهو لم يتطرق إلى الكرامات، و تناول الجانب الذي يهتم بحثه فقط، وقد كان متصفا في محاولته تطبيق الأحكام التي تصدر بفعل العوامل التي ذكرناها و الظروف التي بينها من تسلط الحكام و تأثيرهم على أصحاب الفتوى و الحديث، و استخدام البدعة في الاتجاه الذي ترغب به السلطة. فهو يذكر ما ورد في ترجمة أحمد بن عطاء الهجيمي الزاهد. قال ابن المديني: أتيت يوما فجلست إليه، فرأيت معه درجا يحدث به، فلما تفرقوا عنه، قلت له: هذا سمعته؟ قال: لا ولكن اشتريته و فيه أحاديث حسان أحدث بها هؤلاء ليعملوا بها و أرغبهم و أقرّبهم إلى الله، ليس فيه حكم و لا تبديل سنّة. قلت له: أ ما تخاف الله، تقرّب العباد إلى الله بالكذب على رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم؟.

كما يذكر ما ورد في ترجمة زكريا بن يحيى الوفار: كان يتهم بوضع الأحاديث لأنه يروى عن قوم ثقاة أحاديث موضوعة قال: و الصالحون قد وسموا بهذا أن يرووا أحاديث في فضائل الأعمال موضوعة، و يتهم جماعة منهم بوضعها (1).

و لقد ظلت الصوفية تحتفظ بعناصرها العلمية و فلسفتها، و هي كطريقة في الحياة أو في العبادة لا تتناولها، فلا يعنينا ذلك، فهي قد تكون من أصول قديمة أبعده من الإسلام، ثم تجددت بعد فجر الإسلام، فوجدت في المنهج الحياتي للإمام علي عليه السلام خير تعبير عن اتجاهها، فجعلته القدوة. أو قد تكون إسلامية بحثة لها صفة العلم، و حمل ما جاء به رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و إن الله أعد لقبول ما جاء به الرسول أصفى القلوب و أزكى النفوس، فظهر تفاوت الصفاء، و اختلاف التزكية في تفاوت الفائدة و النفع. و سوقهم حديث أبي حمزة الثمالي: حدثني عبد الله بن الحسن قال:

حين نزلت هذه الآية: وَ تَعِيهَا أُذُنٌ وَاَعْيَةٌ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لِعَلِيٍّ: سَأَلْتُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَهَا أُذُنَكَ يَا عَلِيُّ. قَالَ عَلِيُّ: فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا بَعْدَهُ، وَ مَا كَانَ لِي أَنْ أَنْسِيَ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْوَاسِطِيُّ: آذَانَ وَعْتٍ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى أَسْرَارَهُ (2).

ص: 80

1- (1) فتح الملك العلمي ص 60.

2- (2) السهروردي، عوارف المعارف ص 12 و 13. [1]

وحرصهم على الاتصال بالإمام على عليه السلام شديد، حتى شملهم نصب ابن تيمية فتناولهم بلسانه و دبجت يراعه فى النيل، فهم جزءا من تراثه الحنبلى السلفى.

وأيا كان، فإن الكرامات والأحوال وتناقل خوارق الأعمال، يؤدي إلى بقاء المتعلقين بهم فى حالة من ضعف الإدراك وهن العزيمة، وطريقة أداء الأذكار قد شجعت على الحلول، وأدت إلى اعتقادات بعيدة عن الإسلام. وفى موضوع التصوف نلتمس آثار القصاص بمحاولات إبعاد طرق المتصوفة أو حالات الزهد الكامل والتكشف المقبول عن أى صبغة شيعية. والشيعية ليس لهم رغبة أو يد فى ذلك، لكن الكثير من طوائف المتصوفة مقيمون على ولائهم للإمام على و لآل البيت صلوات الله عليهم أجمعين، وعبر المراحل الزمنية واختلاط المحدثين والقصاص بأهل الذكر، وتطور أحوال المتصوفة نبع بينهم من أصناف إلى «الهوس» أصلا «سيئا» حرصا منه، ثم انتهت المجالس إلى غاية بذاتها تفوق أو تعلق على أية غاية. لتكون مسرحا لرواية الخوارق، وإقامة الحركات، والدق التي يعجز أى عاقل عن اختلاق أصل إسلامى لها.

وعلى أى حال، فلقد اشتد نشاط القصاص، وأخذوا مكانتهم من السلطتين الزمنية والتشريعية، فهم ينشرون بين الناس أحكاما ما أنزل الله بها من سلطان، كما أنهم يتمتعون باحترام العامة وتقديرهم، لأنهم يمثلون الجانب الروحى. وإلى جانب ذلك، لهم نفوذ إرادة، إذ الدولة تمنحهم رعايتها، وتعنى بشؤونهم، وقد استعملوا نفوذهم هذا ضد كثير من الطوائف وجماعات من الناس. وبدأت روح الاستياء تسرى فى جسم الأمة، ونمت خلال ذلك فكرة إيجاد مجالس لذكر الله وللعظ، ليشغل الناس عن مجالس القصاص، فاتجه الأفراد إلى هذا اللون الجديد. وصفها أبو طالب المكي بقوله: إن مجالس أهل العلم بالله وأهل التوحيد والمعرفة، هى مجالس الذكر (1).

وتطورت هذه المجالس، وتسربت إليها يد القصاصين، فتدخلوا فيها، وقد وضعت فيها أحاديث، وأحييت بهالة من التعظيم والتقدیس تشجيعا للناس والالتفاف حولها، حتى أصبح لها بين العامة شأن من الشأن، وتعلقوا بها وجعلوا الحضور فيها

ص: 81

1- (1) أبو طالب المكي، قوت القلوب ج 1 ص 152. [1]

من أعظم الطاعات وأفضل القربات، وتزاحم الناس على تلك المجالس، ولا ندري هل استغل المتصوفة هذه الفرصة، ومن هنا انتشر ذكرهم؟ وهل كان ظهور التصوف قبل انتشار هذه المجالس، أم أنه انطلق منها فكانت نقطة بداية؟ ومن المستحسن هنا الإشارة إلى نشأة التصوف وتطوره، وكيف أصبح وسيلة لنشر الخرافات وبعث الحزازات.

والذي يظهر أن بداية التصوف كان سنة 200 هـ في الاسكندرية عند ما ظهرت طائفة يسمون الصوفية، يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر فيما زعموا، ويعارضون السلطان في أمره، وترأس عليهم رجل منهم يسمى أبو عبد الرحمن الصوفى (1).

ويقول القشيري: انفرد خواص أهل السنة المرعون أنفاسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم بهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة (2).

وأول من سلك طريق الملامة: أبو صالح حمدون بن عمارة القصار المتوفى سنة 271 هـ وكان يفضل أن يكون مظهره مظهر المذنبين على أنه يخشى أن يصرفه تعظيم الناس له عن الله.

وقيل: إن فكرة الملاحية قديمة، فقد وصفها أفلاطون في أول الكتاب الثاني من الجمهورية، العادل: الحق الذي يظن الناس أنه ليس عادلا.

وكان التصوف قد شغل ناحية هامة من نواحي الحركة العقلية الإسلامية، بل العالمية من جهة، وكان لأعلام مفكرى الإسلام كالفارابى وإخوان الصفا وابن سينا والغزالي والحلاج وابن العربي فى التصوف آراء نظرية و خطط عملية.

ولسنا بهذا العرض نريد- كما قلنا- أن نتعمق فى البحث عن التصوف، ونشأته وتطوره فى مجال الفكر، وقد تناولت ذلك أقلام الكتّاب والمؤرخين. والذى يغنيننا هنا، هو أن نعرف كيف تطوّر التصوف، ومتى حصلت فيه تلك الآراء الخاطئة، وتحوّل إلى ادعاءات فارغة و وقوع أعمال منكورة، وقد أصبح ضرره على المجتمع لا يقل عن أضرار القصاصين؛ بل ربما اختلط المنهجان، وانطلقا سوية فى طريق البعد عن كثير من المدّعين الصلّة به، إذ أصبح فيه من الدخلاء ودعاة السوء ما تشوّه

ص: 82

1- (1) الكندى، الولاة والقضاة ص 162. [1]

2- (2) الرسالة ص 17.

حقيقته، وفتح على المجتمع حكايات خرافية و أساطير ادّعوا أنها دينية، ووضعوا أحاديث الرقائق، ويرون في ذلك طاعة الله و نصرة الدين، و أصبحت فكرة الاتحاد أو الحلول خارجة عما كان يسلكه القدماء من طريق النور و البصيرة الذى لا يتيسر إلا بطريقة العبادة، فكثرت ادّعاءاتهم فى قربهم لله، و وضع الكرامات الخارقة للعادة فى حق أصحابهم الذين لهم مراتب و أسماء و منازل و ألقاب تجعل منهم نظاما متكاملًا فى الأفضلية و التأثير و المقامات و الدرجات، طالما تدخلت الأهواء الخاصة و الرغبات الشخصية فى إبرازها فى زمننا لتحقيق المصالح و التظاهر بالعظمة الروحية و الخصائص الذاتية التى تجعل له مقدرة على الأعمال فى أمور الدعاء أو الشفاء، و الله أعلم بسرّ تلك الحالات التى اشتهرت بين الناس و أصبحت عندهم بمستوى اليقين.

و إضافة إلى ما أدى إليه التصوف و ما قام على حالاته من اعتقادات و أفكار، فإن من دواعى الإشارة إليه فى كتابنا و فى هذا الموضوع، تلك الأفكار التى وجدت مع البدايات، و لقد لمّحنا إلى الاختلاف فى أصل أو مصدر التصوف، و كان هذا الاختلاف موضع نقاش واسع و كبير اختص به كتاب كثيرون، و قد كان المتحاملون منهم يتبعون الأسس التى وضعها المستشرقون للطعن فى الإسلام و الدخول إلى أفكار الطبقة المثقفة منهم بطابع جديد، و على الأخص أولئك الذين تلقّوا دراساتهم فى أروقة الغرب، و تلمذوا على أساتذة الجامعات الإنكليزية و الألمانية و الفرنسية و الأمريكية، و كان مذهب أهل البيت غرضهم الأول الذى وجهوا إليه سهام الاتهام، فاختلقوا الأفكار الساذجة التى لا تستقيم و لا تثبت أمام الحقائق المعروفة، فادّعوا أن موقع القيادة التى أحل بها الشيعة أمتهم، و نظرة الاحترام و الإجلال التى أحاطوا بها زعماءهم من أهل بيت النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم لها مصادرها الأجنبية. و فى ذلك خروج على المنطق، و تجاوز و تعدّ على أبسط قوانين البحث و النظر، احتاج دحضه و الردّ عليه إلى جهود كبيرة، و ذلك لاتساع الجهات التى تولّت القول، و نصبت نفسها بالنيابة عن أعداء الأمة لترويج هذه الأقوال، و قد جئنا على بعضها فى الأجزاء السابقة من الكتاب، لكن الملاحظة الهامة أن أتباع الغرب من أبناء اليوم أو غيرهم من حشوية السلف و عاشقى الجمود لا يصرّحون بالتجريح، و يتردّدون فى الشتم و الاتهام فى عرضهم لحالات الهوس، و الأفكار التى جعلتنا نضمّ نتائج التصوف إلى العوامل التى أدت إلى تخلف و فرقة شديدين. و لا بد أن نذكر أن «الشيخ» ابن تيمية يكشف فى رده

على ابن عربي و محتويات كتابه «فصوص الحکم» عن غرضه الحقیقی، و هو تناول الشيعة و الإساءة إليهم، إذ ينسب كبارهم كالتلمساني و ابن سبعين إلى الفرق الغالية التي اقتضت الأغراض السياسية أن تحسب على الشيعة و تقرر بالإمامية، و كان يكفي «لشيخهم» ابن تيمية ذرة من إنصاف أو اطلاع و تحقيق ليعلم الفرق، و لو تخلى لحظة عن مرض الحقد الأعمى، و أنصت إلى ما يقوله الشيعة عن مذهبهم، لبعد عن الزلل و الخطأ الذي هو فيه و لو بقيد شعرة.

و عندنا أن حالات الحلول و المعتقدات الأخرى التي اتسم بها التصوف، تعود إلى الوضع النفسى الذى يتخلل أوقات القيام بطقوس الصوفية، و هى لا شك متفرعة عن تصرفات أشياخهم الأوائل الذين فى نظرهم أمسكوا بأصول المعرفة و مفاهيم المحبة الإلهية، و راحوا يبيحون لأنفسهم تصرفات و أفعالا- غزت عقول مريديهم، و حجت الأصول الحقيقية و المفاهيم الجليلة التي سنطلع عليها فى مظانها الصافية و مصادرها النقية عند رجالات أهل البيت النبوى، و موقع الإمام الصادق عليه السلام فى هذه السلسلة.

و نقف قليلا لنوضح بموجز من البيان منشأ كلمة الصوفى فى الإسلام، و مبدأ اشتقاقها، فإننا نجد هناك زخما من الأقوال فلا حاجة للسط فى ذلك، و لعل أهمها أنها نسبة إلى الصفة الأولى التي كان المتسككون يجتمعون عليها فى عهد النبى صلى الله عليه و آله و سلم و أكثرهم من الفقراء، حتى نسب إليها جماعة فيقال فلان من أهل الصفة، و الصفة مكان فى مسجد النبى صلى الله عليه و آله و سلم عند يمين الداخل من باب جبرئيل، و هناك قوم يقولون أنها نسبة إلى الصفاء- كما قلنا سابقا- أو انها نسبة من صافا ربّه فصوفى، و قيل أنها الصف الأول فى الصلاة، و قيل نسبة إلى بنى صفة. و فريق يقولون إنها مشتقة من لفظة يونانية الأصل هى صوفينا و معناها الحكمة، فيكون الصوفية قد لقبوا به نسبة إلى الحكمة لأنهم كانوا يبحثون فيما يقولونه بحثا فلسفيا، و آخرون يقولون نسبة إلى الصوف الذى اشتهر المتسككون به، و قد اختار هذا الاسم جماعة منهم.

و نجد التنسك فى الإسلام حيث تنسك جماعة من الصحابة فى عهد النبى و عرفوا به كأبى ذر و حذيفة و أويس القرنى و غيرهم. و كان المتصوفون فى أول نشأتهم يتسككون و يتعبّدون من دون إطلاق لتسمية المتصوفة عليهم، لأن تنسكهم و زهدهم من وجوه إيمانهم بأحكام القرآن و عقائد الإسلام، و هو ما كان سبب مأساة أبى ذر

الذى قصد إلى تطبيق نظام الإسلام و ضمان حق الفقراء. و تمسك بمبدأ الآخرة و زوال الدنيا، فكان شعاره قول الله سبحانه و تعالى: وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ فامتدت إليه يد الأغنياء. و رمته فى أحضان حكم معاوية، فكان لا يخفى إنكاره لما فيه معاوية من بذخ و ترف يتعارض مع الإسلام، و زاد على ترديده قول الله، قوله لمعاوية جهارا: إن كان ما أنفقت من مال الله فهو خيانة، و إن كان من مالك فإسراف.

و لقد أدت أوضاع الدعوة فى زمن الرسالة و ضرورات نشر الدين إلى معاناة كبيرة و تضحية بالغة شملت الأهل و المال و المسكن، فقد كان أهل الصفة (غرباء فقراء مهاجرين أخرجوا من ديارهم و أموالهم) و وصفهم أبو هريرة و فضالة بن عبيد فقالا:

يخرون من الجوع حتى تحسبهم الأعراب مجانين، و كان لباسهم الصوف حتى أن كان بعضهم يعرق فيه فيوجد منه ريح الضأن إذا أصابه المطر. هذا و وصف بعضهم لهم حتى قال عينية بن حصن للنبي صلى الله عليه و آله و سلم: أنه ليؤذيني ريح هؤلاء، أما ما يؤذيك ريحهم؟ و المتصوفة يتمسكون بنسبتهم إلى حال أهل الصفة، و أن التسمية منها، غير أن ذلك لا يتفق مع اللغة، و تأباه قواعد الصرف. أما النسبة إلى الصوف فقد تكون من حيث اتفاقها مع قواعد اللغة و التاريخ هى الأصح. و لا نعى بالقطع و اختيار أحدها على وجه اليقين، فليس لذلك أهمية فى نظرنا، و قد يخرج عن صلب البحث. كما أن الصوفية يريدون أن يجمعوا بين كل التسميات، و ربطها بالصفة و الصوف اللذين يتوحدان فى نظرهم، و من نسبهم إليهما فإنه عبّر عن ظاهر أحوالهم، و ذلك أنهم قد تركوا الدنيا فخرجوا عن الأوطان، و هجروا الأخدان، و ساحوا فى البلاد، و أجاعوا الأكباد، و أعروا الأجساد، لم يأخذوا من الدنيا إلا ما لا يجوز تركه من ستر عورة و سدّ جوعة (1).

و نختصر القول فى نصين كليهما لأحمد أمين، لأنى فى دار الغربية و الابتعاد عن الوطن حيث دارى و مكتبتي، أعانى معاناة لا يعرفها إلا الله من توفير ما احتاج إليه من ضرورات البحث و أمهات المصادر التى كانت متيسرة فى دارى فى النجف الأشرف، و أنفقت بين رياض الأفكار الشطر الأوفى من عمرى، كان حصيلته الأجزاء الستة

ص: 85

الماضية من كتاب الإمام الصادق و المذاهب الأربعة و مخطوطاتي الأخرى. ناهيك عن و هن البدن و ضعف البصر حتى الكلل. لك الحمد اللهم أولا و آخرا.

يقول أحمد أمين: و من ناحية أخرى تغالى الصوفية فى الأعمال النفسية الروحية، و لم يضغظوا ضغظا كافيا على الأعمال الظاهرة، فكان هناك فقهاء و صوفية، و عداء بين الفقه و التصوف. الصوفية يرمون الفقهاء بأنهم لا يعبتون إلا بالقشور من مظاهر الأمور، و الفقهاء يرمون الصوفية بأنهم غلوا فى أحوال الروح أكثر مما كان يعرفه الإسلام و سموهم أهل الباطن (1).

و يقول الدكتور أحمد أمين: و كان التصوف يغلو فى الباطن، و كان مرتعا خصبا للخرافات و الأوهام و التحرر من الشعائر، و ارتكاب الموبقات، و اخترعوا بجانب التصوف الموسيقى و الذكر و الشطح و الرقص و غير ذلك، و كان لهم أثر كبير فى النظام الاجتماعى المتهاافت، و كان من نتائج الصراع الشديد بين الفقهاء و المتصوفة أن آل الأمر إلى سجن بعضهم (2).

و هذا ما يكشف لنا جانبا من جوانب الصراع الحاد، مما يحدث رد فعل فى نفوس أكثر الناس، فالمتصوفة سلكوا الجانب الروحى ادعاء، و دعوا الناس إلى الاعتقاد بما لا يقبله العقل و لا ينطبق مع نظم الإسلام، و أصبح جانب التصوف يدعم تلك الخرافات التى انثالت على المجتمع بسم قاتل، و كانت تلك الرباطات مصدرا لأمر لا رابطة لها بالإسلام. و وجهوا الناس إلى تعظيم قبور من يسمونهم بأولياء على طرقهم المعروفة و أساليبهم الخاصة، يكمل هذا و ذاك ادعاءات الأحداث و الأفعال للأموات و الأحياء الذين يتصلون بهم، فتسود حالة من الإيمان بقدرات المخلوقين و الاعتقاد بكرامات أوليائهم، و تتحجر الأذهان و الأفهام على ألوان من الإيحاء التى يستفيد منها الذين يحتلون الصدارة.

و فى وسط فوضى القيام بأعمالهم و أشكال طرقهم، كان الناس يساقون إلى مستويات عقلية واهية، و يرفعون إلى مهاوى الجهل كما علمنا سابقا و مررنا فى ثنايا البحث.

ص: 86

1- (1) ظهر الإسلام 57/2.

2- (2) أحمد أمين، يوم الإسلام 101.

إن روح العداة التي سقط بها المجتمع في مخالفة صريحة لأحكام الشريعة و تعاليم السنة النبوية، تظافر على ظهورها عوامل عديدة و أسباب شتى، كانت يد المصالح الخاصة و أغراض السلطان هي الأقوى و الأغلب.

و من عوامل نجاح الدعوة إلى القضاء على محاولات استمرار العداة و الانقسام، قيامها على التحقيق و الثبوت و الابتعاد عن حمى الفرقة و داء التعصب الذي ما زال ينخر في نفوس بعض الناس في عصرنا الحاضر.

و قد بحثنا الجمود الفكري، و اطلعنا على آثار الجهل و نتائج مقاومة روح العقل و حرية الأفكار، و كيف التقت مصالح الحكام و أصحاب السلطان مع ذوى النفوذ و المكانات، و اجتمعت الجهود و الطاقات للوقوف بوجه انفتاح آفاق الفكر، و أسهم كل من موقعه و مسؤولياته في محاربة أصحاب الأفكار و العقائد، و احتل التعصب المنزلة العالية لدى الذين يخشون آراء الناس و إطلاق حريتهم، و تكوّنت لدى السلطان و الحكام فكرة تحدّد الخطر في جهة النظر و الاعتماد على الفكر، و تماسكت في العهد العباسي الأجزاء التي أوجدها الحكام المتسلطون منذ أن انحرفوا بالنظام الإسلامي و استبدّوا بالحكم بعد الإمام على عليه السلام و أصبحت مساهمتها في إرساء الظلم أعظم من السابق، فإننا نلاحظ أن معاوية كان يملئ إرادته دوما على فقهاءه و خطبائه و المنضمّين إلى سلطانه، أما في حكم بنى العباس فقد بات الاتجاه إلى تأسيس المذاهب أولا، و كانت العلاقات متبادلة و متوازنة في كثير من الأحيان بين تدخل الخليفة و رأى رجال الفقه، ثم برز على السطح من استهانة بروابط العقيدة و روح الأخوة في الدين و أغرته السلطة بمنافعها و ملاذها.



كذلك بحثنا مسألة خلق القرآن، وهى من أعظم المشاكل وأشدّها تعقيداً، ومن وجوه تعقيدها أن تحسب من عوامل الانحطاط فى المجتمع، ومن أسباب دفعه إلى التفرقة، فهى قد تكون مشكلة تتجه إليها الأفكار وتعدّد حولها المناظرات لتكون مادة تسلك بها مسالك الاستدلال وطرق الاستنتاج، وتقابل الحجة بالحجة، ويلاقى الرأى بالرأى على منهج التيارات الفكرية التى ظهرت فى تلك المرحلة، وتمثلت فى أفكار واعتقادات كان حافظها الدفاع عن الإسلام ودحض افتراءات أهل الكتاب. لكن أغراض أهل الحكم والسلطان جعلتها كبقية الأفكار والتيارات، وسلبتها ميزتها وأهم خصائصها، فباتت واحدة من أسلحة الخلفاء التى تنتهك بسببها الحرمات والأموال والدماء، وأحدثت نتائج بالغة الضرر ترتبت على أساليب السلطة الملتوية والسيئة فى تبنيها لأفكار المعتزلة، وقد أشرنا إلى مسئولية رجال العقل من المعتزلة فى ذلك وكأنهم التّدوا بالسلطة كما التّد بها من سبقهم.

وكانت مرحلة المأمون وخلفيه، قد أدت إلى زيادة وترسيخ علاقة العامة بالسلطة، واستسلامها للنظرة التقليدية التى عمل على رسمها بصفتها الدينية وصلاحتها الواسعة رجال متعددون، ارتبطوا بالخلفاء، وأذعنوا لرغبات الحكام فكانوا من أسباب الفرقة وحماية الظلم.

ثم اخترنا قضية البدع والضلالات، وهى التى أصبحت تطلق بلا روية، وتخضع للأهواء حتى شملت الطوائف جميعها.

كما اخترنا من عوامل تخلف المجتمع وانقسامه مسألة القصّاص ودورهم فى استماله العامة وخدمة الحكام وجيروت الملوّك، ثم ألقينا بهذا العامل -من حيث التأثير- قضية التصوّف وما أدت إليه من مستوى عقلى يتقبّل الخرافات ويقبل على الأوهام.

ومن يبحث ير أموراً أخرى عملت فى جسم المجتمع تمزيقاً، ودفعت به إلى مهاوى التخلف. غير أنّنا اخترنا هذه العوامل من غير أن ننكر دور العوامل الأخرى، وهى فى عمومها ما زالت آثارها باقية حتى الآن نسعى -والله من وراء القصد- إلى إظهار ظروف قيامها وتحكيم العقل والنظرة الواعية التى تسمو عن التعصب والجهل لنعود إلى أصول العقيدة، والبحث المنصف يسهم بتحقيق هذا الهدف، لأن الكشف

عن ملابسات وجود هذه العوامل، والتأكيد على حقائق قيامها، من أهم أسباب النجاح في إدانة الطائفية والتخلي عن التعصب والعناد. وقد بحثنا مشكلة خلق القرآن، وطرفا من أثر القصّاصين والوضّاع في عقول العامة في الجزء الأول من كتابنا، وزدنا هنا ما اقتضته ضرورة البحث ومتطلبات اكتمال كل جزء من الأجزاء الأخيرة السابع والثامن بمواد البحث المطلوبة التي تتيح الفائدة. وفي هذا الجزء مهّدنا من خلال التطرّق للبدع التي طرأت على الصوفية إلى التفسير الصوفي لسيرة الأئمة الأطهار.



من الأمور التي ثبتت و استقرت على أسسها، و احتفظت بملامحها الأصلية، و قاومت موجات العداء، هي سيرة الأئمة الطاهرين من أهل البيت عليهم أفضل الصلاة و السلام، فظلت شخصياتهم الفذة مصادر إلهام تستمدّ منها الأمة العبر و الدروس، و تتأسى بمواقفها و تجربتها. و بقي الشيعة يتلقون أمور دينهم من هؤلاء الرجال الذين تعرضوا لمختلف أنواع المحن و ضروب التجارب القاسية، فرسم الأئمة عليهم السلام لمحبيهم و أتباعهم في كل مرحلة طريق العمل، و وضعوا لهم سبل النجاة من خلال نماذج سلوكية و مواقف جهادية و فكرية تنير الطريق أمام شيعتهم، و هم يعانون الويلات على أيدي الحكام و الملوک و أصحاب السلطان و الجبروت.

و لا تحتكر الشيعة طرق الاتصال بتاريخ الأئمة الطاهرين، و لا تدعى اختصاص الأخذ عن تراث و أحكام أهل البيت بأحد، بل يرون أنهم رجال الإسلام و أعلام الهدى الذين تتجه رسالتهم إلى كل الطوائف من المسلمين، و تسع تعاليمهم جميع المسلمين.

و قد واجه الشيعة حملات ظالمة، و موجات عنيفة تزعمها رجال مختلفون على مرّ العصور، و إن لم تكن على هيئة حملات الحكام و موجات ظلمهم المتكررة ضد أهل البيت و أتباعهم، و ما يعنى ذلك من ألسن ترقى منابر يفترض أن تقوم بمهمات المنبر المحمدى، و قصاصات و مراسيم، و جنود و دماء و أسلحة تلاحق أهل البيت و شيعتهم. إلا أن الحملات التي يقوم بها نفر بين فترة زمنية و أخرى، و بين مرحلة و مرحلة، تجد لها أذانا صاغية لما تسترّ به من مراكز احتلتها بفعل ظروف سياسية و اجتماعية غلب عليها الطابع الدينى، و قد مهروا في دفع العامة إلى الإيمان بأقوالهم

والاعتراف بوجهات نظرهم التي هي في حقيقتها غير سليمة لقيامها على الاجتراء والتحكم. وقد تطرّقنا إلى ما انتهى إليه التصوّف من طقوس أسهمت في تخلف العامة، وتشجيع ظهور حالات يؤدون بها حركات تخرجهم عن الاتزان والسلامة، أو ادّعاء الكرامات التي يرافقها بيان وشرح تجعلها بمستوى المعجزات.

فكانت هذه النهايات في المتصوفة، إضافة إلى الأفكار والمعتقدات التي تألّوها عن شواهد وأحداث لآل بيت الرسول محمد صلّى الله عليه وآله وسلم مادة تعميق الانقسام في المجتمع الإسلامي، وتأكيد الفرقة بين السنة والشيعة وذلك لضياح التحقيق وفقدان التدقيق.

ولئن أدت حركة العلم والنشاط الفكري إلى اختلاط وتداخل بين دوائر الشيعة الفكرية وبين المعتزلة، فقد حسمتها دلائل كثيرة مادية ومعنوية في الفكر والتصرف، وبات واضحاً لكل ذي بصر ينظر بتجرد، أن تشابه المناهج وتقارب المنحى الفكري بين الشيعة والمعتزلة، لا يعني اتحادهما المطلق أو تشابههما التام، ومع هذا بقيت إلى يومنا هذا، كمثال قضية تشييع ابن أبي الحديد شارح كتاب نهج البلاغة، وعدم الالتفات إلى اعتزاله، وما ينطوي ذلك على أمور لا تقرّها الشيعة، وما ذلك إلا من نتائج إغفال التحقيق وإهمال أمانة البحث. وإلا فإن أصول التشييع تقترن بأصول الدعوة الإسلامية وجوداً ومضموناً، وكان أهل البيت من أئمة الشيعة قد امتازوا عبر كل عهود الحكام- وقبل ظهور تيارات الجدل والكلام- برعاية الفكر وتحفيز الرأي في حدود الشريعة والأحكام، وضرورة العقل. وكانت مدرسة الإمام الصادق عليه السلام من أعظم صروح الفكر الإسلامي، لما اضطلعت به من نشاطات ومهام تعنى بالفكر والدين، وقد تقدمت الإشارة في الأجزاء السابقة من الكتاب- وسنأتي على ذكرها في موضعها في الجزء الثامن إن شاء الله- إلى اتصال رجال المعتزلة بالإمام الصادق عليه السلام ولقد أصبحت مسألة تأثير الشيعة بالمعتزلة وأخذهم عنها من جملة المحاولات التي ترمى إلى الإساءة إلى مذهب الشيعة، والتقليل من شأنه، فالنظرة العجلى تظهر الحقائق، فما ظنك بالتحقيق ورعاية الأمانة؟ فما المعتزلة إلا تيار لا يختلف عن بقية التيارات التي تهب بعوامل مختلفة لفترة معينة، وقد نمت في ظل المباحكات والمناظرات، وقامت على أسس المناظرة والجدل، فهي في إطار الكلام و في مناحي العقيدة، تمثل مجموعة من الأفكار والنشاطات التي تتصل بالعقيدة، والقصد منها الردّ على جهات داخل صفوف الأمة

الإسلامية أو خارجها، وتبنى اعتقادات جديدة واجتهادات فى الجزئيات والفروع وأقوال فى الصفات، إلى غيرها من أبواب نشاط المعتزلة، ولا ندرى كيف يسمح لنفسه منصف أن يجعل الشيعة بفكرهم وبقههم وبرجال مذهبهم من أئمة الهدى وسادة أهل البيت تابعا ومتأثرا بالمعتزلة، الذين كان أفضل رجالهم تبعاً لأفكار الشيعة. وهو ما تميّزت به مدرسة بغداد الاعتزالية. ولقد كان من أخص الخصائص فى وجود الشيعة تاريخياً ودينياً، استقلالهم بالفقه والرواية، وقيام أسسها على مدرسة أهل البيت الطاهرين عليهم أفضل الصلاة والسلام. وما انتظم فكر المعتزلة من قضايا رئيسية انطوى فكر الشيعة على أصولها وأمّاتها قبل أن تستجد عوامل انبعاث تيار المعتزلة و ظهور أصولهم التى نادوا بها.

وفى الحقيقة، فإن قضية العلاقة بين الشيعة والمعتزلة، تبقى قضية من قضايا الفكر، تبرز فى مستويات للبحث تستلزم الأمانة وتتطلب الموضوعية، وأى تناول يزلّ عن غرض العلم، ويلجأ إلى أساليب التهجم والاتهام، يفضح دوافعه ويعرى أغراضه، ولهذا وجدنا الكثير من الباحثين المعاصرين، يتناولون القضية بطابعها الفكرى وفى حدود ظروف قيامها، وانتهاء تيار المعتزلة وبقاء طائفة الشيعة.

أما القضية ذات الخطر الجسيم، فهى قضية التصوف التى قصد فى كثير من استخداماتها إلى الطعن بالشيعة، وإبقاء الخلط بين الفرق التى تحسب على الشيعة، وبين طائفة الشيعة الإمامية.

يقول ابن تيمية فى ردّه على ابن عربى:

(ما تضمّنه كتاب «فصوص الحكم») وما شاكله من الكلام فإنه كفر باطنا وظاهراً، وباطنه أبح من ظاهره. وهذا يسمى مذهب أهل الوحدة و أهل الحلول، وأهل الاتحاد، وهم يسمون بالمحققين... فأقوال هؤلاء ونحوها باطنها أعظم كفراً وإحاداً من ظاهرها، فإنه قد يظن أن ظاهرها من جنس كلام الشيوخ العارفين أهل التحقيق والتوحيد.

و أما باطنها فإنه أعظم كفراً وكذباً و جهلاً من كلام اليهود والنصارى و عبّاد الأصنام.

ولهذا فإن كل من كان منهم أعرف هؤلاء بهذا المذهب و حقيقته، كان أعظم كفراً و فسقاً.

كالتلمساني، فإنه كان من أعرف هؤلاء بهذا المذهب، وأخبرهم بحقيقته.

فأخرجه ذلك إلى الفعل، فكان يعظّم اليهود و النصارى و المشركين، و يستحل المحرمات، و يصنف للنصيرية كتباً على مذهبهم، يقرّهم فيها على عقيدتهم الشركية.

و كذلك ابن سبعين كان من أئمة هؤلاء، و كان له من الكفر و السحر الذى يسمى «السيميا» و الموافقة للنصارى و القرامطة و الرافضة ما يناسب أصوله (1).

و لا نحتاج إلى بيان القصد عند ما أوضح ابن تيمية و جاء على أسماء الفرق ليجعل من إدراجه «الرافضة» بهذا الشكل دلالة على لون من ألوان نيئه من الشيعة، و كم له من نصوص لا يتردد فيها فى ذلك دون روية أو معتمد أو مسوّغ.

أما ابن خلدون، فهو أيضاً من أبطال الدعوة و رجال الحملة الظالمة على الشيعة، و كغيره من الذين استسلموا لأسلافهم، و لعبت بعقولهم الأهواء، يجد فى الصوفيّة مادة للطعن على الشيعة و يساهم فى إثارة الغبار الذى يحجب الفوارق و الحدود بين الشيعة و من ينسب إليهم، و لو طبقت المناهج المحدثّة التى استمدّت من ابن خلدون أفكارها الاجتماعية على هذا الجانب، لأصبحت قضية ما يحمل على الشيعة و ما يتّهمون به من الأفكار الغالية و الحلولية من أسس مناهج البحث التاريخى المعاصر، و لأدى تطبيقها إلى زوال ما ألصق بالشيعة ظلماً، غير أن ابن خلدون اتّخذ حجة و علماً فى فن- كما يرون- و أسهم فى أمر لا يقوم على فن أو شىء من الصحة، فمتى كان التعصب علماً، و متى كان الهوى منهجاً؟ فما التعصب إلا من صور الجهل، و ما الميل إلى الهوى إلا من قلة الإدراك، و لكنها إرادة الحكام و سياساتهم فى التأثير على أفكار العامة، و حملهم على الاعتقاد بأن كلما يصدر عن السلطان هو الحق، و ما يقوم به حاكم الزمان هو العدل، فكان ابن خلدون و غيره من خدمة حضرات الملوك و المتزلفين لكراسى السلاطين من الدعاة إلى ذلك. فانظر مقدمة مقدمته و ما خلع من ألقاب على الذين جعلهم كعبة تطلعه و مهوى أحلامه، و لقد كان أبعد الناس عن منهج التاريخ الذى أورده فى فصل علم التاريخ، لأنه راعى الملوك فى دولهم و الحكام فى سياستهم على مدى الأقطار، فأخلاقه تجعله يمدّ لكل حاكم يداً لأجل أن يستقرّ يوماً فى أحد الدواوين أو يضمّه أحد القصور، و ما التزم بما قال من أن فن التاريخ (محتاج

ص: 94

1- (1) ابن تيمية، الصوفية و الفقراء ص 44 و 55.

إلى مآخذ متعددة و معارف متنوعة و حسن نظر و تثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق و ينكبان به عن المزلات و المغالط).

يقول ابن خلدون:

(ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوّفة، المتكلمين في الكشف و فيما وراء الحسّ توغّلوا في ذلك، فذهب الكثير منهم إلى الحلول و الوحدة كما أشرنا إليه، و ملأوا الصحف منه، مثل الهروى في كتاب المقامات له، و غيره، و تبعهم ابن العربي و ابن سبّعين و تلميذهما ابن العفيف، و ابن الفارض، و النجم الإسرائيلى في قصائدهم، و كان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة، الدائنين أيضا بالحلول و ألوهية الأئمة مذهبا لم يعرف لأولهم، فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر، و اختلط كلامهم، و تشابهت عقائدهم، و ظهر في كلام المتصوّفة القول بالقطب و معناه رأس العارفين) (1).

لقد حاولنا الاقتصار على بعض أهم الأمور التي لا بد منها في تناولنا للتصوف، و على أبرز الجوانب التي جعلوها في طرقهم، و قلنا في السابق أنهم أوجدوا لهم نظاما متكاملًا على رأيهم حسب المراتب و الدرجات و المقامات و الأحوال، كالمريد و الغوث و القطب و الأبدال. و هي منازل وضعوا رجالهم بها، اصطلاحوا على خصائصها، و اتفقوا على ماهيتها بحسب تكوين عقائدهم، و ظروف نشأتهم و مع وضوح اختصاص المراتب بالتدرج الذي يدخل في أساليب الدعوات السرية و التعاليم الباطنية، فإن ابن خلدون يرى أن ذلك هو ما تقوله الشيعة في النقباء.

يقول ابن خلدون:

(و هذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية و لا دليل شرعى، و إنما هو من أنواع الخطابة، و هو بعينه ما تقوله الرافضة، و دانوا به، ثم قالوا بترتيب وجود الإبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء، حتى أنهم لمّا أسندوا لباس خرقة التصوّف ليجعلوه أصلا لطريقتهم و تخليهم، رفعوه إلى على رضى الله عنه، و هو من هذا المعنى أيضا، و إلا فعلى رضى الله عنه لم يختص من بين الصحابة بتخيلية و لا طريقة في لباس و لا حال؛ بل كان أبو بكر و عمر رضى الله عنهما أزهّد الناس بعد

ص: 95



رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأكثرهم عبادة، ولم يختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه في الخصوص، بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة، يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي وما شحنا كتبهم في ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفي أو إثبات، وإنما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم والله يهدي إلى الحق (1).

ويضطرنا تحامل ابن خلدون في الأمور الاعتقادية والتاريخية التي تخص الشيعة، إلى مناقشته بنصوصه، والجدير بالذكر، أن تحامل ابن خلدون كان من أسباب أقدامنا على تأليف الكتاب، فهو يقول عن مذاهب الشيعة في حكم الإمامة (إن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تقوِّض إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة) (2).

ولنوضح أن لا حجة ولا دليل لابن خلدون في الربط بين عقائد الشيعة وأقوال المتصوفة عن رجالاتهم والنظام الذي وصفوه فيه:

1- إن أمر الرسالة يحتاج إلى دوام في الدعوة، وبقاء في التوجيه يقوم على ميزات وصفات تتصل بصاحب الرسالة والقائم بالدعوة، وتنتمى إليه في التوجه والمضمون، لذلك فهي من أركان الدين. وحديثه صلى الله عليه وآله وسلم: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» ويروى: «من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية» صريح في الدلالة على وجوب معرفة الإمام لأغراض الدين واستيضاح الأحكام.

لذلك نرى الإمام أمير المؤمنين يقول: «وإنما الأئمة قوام الله على خلقه، وعرفاؤه على عباده، ولا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه».

وقد كان الإمام على عند ما آلت إليه الخلافة، قد أرسى حكمه على نظام الإمامة لأنها أقرب إلى جوهر الإسلام، وتمثل سلطانه الروحي. قال الله تعالى: وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يُهْدُونَ بِأَمْرِنَا (3) وقال الله تعالى: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ

ص: 96

1- (1) أيضا ص 397.

2- (2) المقدمة أيضا ص 164.

3- (3) سورة الأنبياء، آية: 73. [1]

عَهْدِي الظَّالِمِينَ (1) وقد أوضح الإمام على عليه السّلام الحالات التي تخرج صاحبها عن حدود رعاية الدين عند ما بيّن أصناف الناس في حديثه لكميل بن زياد، وبيّن أصل الإمامة الديني حيث قال: «اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهراً مشهوراً وإما خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيئاته، وكم ذا و أين أولئك، أولئك و الله الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً، بهم يحفظ الله حججه و بيئاته حتى يودعها إلى نظرائهم، يزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، و باشروا روح اليقين، و استلانوا ما استوعره المترفون، و أنسوا بما استوحش منه الجاهلون، و صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه و الدعاة إلى دينه» (2).

كما أوضح الإمام أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة و السلام أن الضلال في عدم التعرّف على الإمام، فلما سئل عليه السّلام: ما أدنى ما يكون به الرجل ضالاً؟ قال عليه السّلام: «أن لا يعرف من أمر الله بطاعته، و فرض ولايته، و جعله حجته في أرضه، و شاهده على خلقه».

فإذن، اتصال الإمامة بشئون الدين و أصوله يجعلها من أركان الدين، فهي لحفظ الشريعة و تدبير أمر الناس و استمرار الدعوة إلى الهدى و الإيمان و النيابة عن صاحب الأمر و إبقاء مقام النبوة من حيث بيان الأحكام و إيضاح علوم الشريعة و حفظ السنن، و الفرائض و الدعوة إلى الحق و العمل بالصدق.

فالأئمة عليهم السّلام هم الأوصياء و ورثة الأنبياء الذين خصّهم الله بالكمالات و العصمة، فقال الإمام الصادق عليه السّلام: «أمر الله كل واحد من الأئمة أن يسلم الأمر إلى من بعده».

يقول الفضل بن شاذان في الجواب عن علة نصب الأئمة و الأمر بطاعتهم: أن الخلق لما وقفوا على حدّ محدود، و أمروا أن لا يتعدّوا تلك الحدود لما فيه من فسادهم، لم يكن يثبت ذلك و لا يقوم إلا بأن يجعل عليهم فيها أميناً يأخذهم بالوقف عند ما أبيض لهم، و يمنعهم من التعدّي على ما خطر عليهم، لأنه لو لم يكن ذلك، لكان أحد لا يترك لذته و منفعتة لفساد غيره، فجعل عليهم قيماً يمنعهم من الفساد

ص: 97

1- (1) سورة البقرة، آية: 124. [1]

2- (2) شرح نهج البلاغة 311/4. و حلية الأولياء 80/1. [2]

و يقيم فيهم الحدود و الأحكام. و فيها: أنا لا نجد فرقة من الفرق و لا قلة من الملل بقوا و عاشوا إلا بقيم و رئيس لما لا بد لهم منه في أمر الدين و الدنيا، فلم يجزى في حكمة الحكيم أن يترك الخلق مما يعلم أنه لا بد لهم منه، و لأقوام لهم إلا به، فيقاتلون به عدوهم، و يقسمون به فيهم، و يقيمون به جمعهم و جماعتهم، و يمنع ظالمهم من مظلومهم. و منها إنه لو لم يجعل لهم إماما أميناً حافظاً مستودعاً لدرست الملة، و ذهب الدين، و غيرت السنن و الأحكام، و لزد فيه المبتدعون، و نقص من الملحدون، و شبّهوا ذلك على المسلمين، إذ قد وجدنا أن الخلق منقوصون محتاجون غير كاملين مع اختلافهم و اختلاف أهوائهم، و تشتت حالاً-تهم، فلو لم يجعل فيها قيماً حافظاً لما جاء به الرسول الأول، لفسدوا على نحو ما بيناه، و غيرت الشرائع و السنن و الأحكام و الإيمان، و كان في ذلك فساد الخلق أجمعين.. الخ (1).

2- إن أمراً بمثل هذه الأهمية و على مثل هذه الصفة الدينية، لا يمكن أن يهمله النبي المصطفى صلى الله عليه و آله و سلم و فحوى الاختلاف هي التي تعين الصفة الدينية أو الصفة الزمانية، لأن الأخذ بالوصية وفق منظور الأئمة، و الهداية الدينية يجنب الأمة ما انتهت إليه الأحوال في عهد بنى أمية أو بنى العباس. و لا يدع مجالاً لغلبة الأهواء أو تحكّم المصالح، و عندنا أن الناس عند التحاق النبي صلى الله عليه و آله و سلم بالرفيق الأعلى و انقطاع الوحي بموته، لم يكونوا جميعهم على درجة واحدة من الإيمان، بل كانت المدينة المنورة و الجزيرة العربية تضمّ أناساً من الذين أسلموا فحسب، و آخرين من المنافقين و ذلك بنص القرآن و شهادة النبي صلى الله عليه و آله و سلم قال الله تعالى: **إِذ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هُوَ لَاءَ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (2) و قال سبحانه:

**فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ** (3).

و قال تعالى أيضاً: **وَ إِذ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا** و قال: **يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي**

ص: 98

1- (1) علل الشرائع. [1]

2- (2) سورة الأنفال، آية: 49. [2]

3- (3) سورة المائدة، آية: 52. [3]

الْأَعْرَابِ يَسْتَأْذِنُ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَ لَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (1) وقال تعالى:

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ (2) صدق الله العلي العظيم.

ثم هل تخفى على ذى عقل دلالة ما نزل به جبرائيل أن يكون إشهار البراءة وإعلان انتهاء العهد مع المشركين على يد الإمام على بن أبى طالب، لأن ذلك يقتضى أن يكون على يد صاحب الشريعة أو واحد من أهل بيته يمثله (3) لإعلام المشركين ما ستكون عليه علاقتهم بأهل الإسلام بعد أن تمكنت الدعوة وأصبح لها من القوة ما تستطيع به أن تهاجم المشركين، وتتحول إلى محاربة وجودهم وعقائدهم؟ ولكن الأهواء والتعصب تجعل من كل حقيقة مثارا للجدل.

فأخذ الأمر بالصفة الدينية التى تتطافر عليها الأدلة القاطعة والنصوص الصريحة، يجعل مهمات الدعوة قائمة، ولا بد أن يكون لهذا الدين من أئمة يقومون بالأمر، وينشرون أحكام الدين وبيّنون أصوله. فمن أولى من عتره النبى محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟ وما قيل فيهم من قبل الشيعة ليس من أنواع الخطابة- كما يقول ابن خلدون- التى هى بضاعة خطباء الحكام أو نكاي المتصوفة، بل هى نصوص معتبرة تصف حال القائمين بالأحكام والداعين إلى الإسلام وانتهاجهم منهجا يحيى سنة الرسول الأعظم.

قال الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام:

«إن الإمامة منزلة الأنبياء وإرث الأوصياء، إن الإمامة خلافة الله وخلافة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ومقام أمير المؤمنين عليه السلام وخلافة الحسن والحسين عليهم السلام.

إن الإمام زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعزّ المؤمنين. الإمام أس الإسلام النامى وفرعه السامى. بالإمام تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وتوفير الفىء والصدقات وإمضاء الحدود ومنع الثغور والأطراف.

ص: 99

1- (1) سورة الأحزاب، آية: 20. [1]

2- (2) سورة البراءة، آية: 101.

3- (3) فى ذخائر العقبى للمحب الطبرى [2] بإسناده عن أبى هريرة، وفى رواية من حديث أحمد عن على أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لما راجعه أبو بكر قال له: «جبريل جاءنى فقال لن يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك». وفى صحيح البخارى: «إلا أنا أو رجل منى».

الإمام يحلل حلال الله ويحرم حرامه، و يقيم حدود الله، و يذب عن دين الله، و يدعو إلى سبيل الله بالحكمة و الموعظة الحسنة و الحجة البالغة).

فيكون السلوك و النسب من جنس الدعوة و صاحب الدعوة. فإذا كان أصحاب الطرق و مرید و بعض الأشخاص قد أرادوا أن يتقربوا من آل البيت، أو يتظاهروا بذلك على مختلف الأغراض و الدوافع، فليس إلى تساويهم مع الأئمة الأطهار من سبيل يقره المنطق، إلا إذا غلب التعصب و الهوى. فكل غوث أو بدل أو أى مرتبة عندهم لا تسمو إلى أى فرد من أهل بيت النبوة الأئمة الأطهار عليهم السلام حتى و إن ساقوا أحاديث صححوها و حسّ نوها و رواها أحمد كحديث: الإبدال فى هذه الأمة ثلاثون رجلا- قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا.

و حديث: الإبدال فى أمتى ثلاثون بهم تقوم الأرض و بهم تمطرون و بهم تنصرون. أو الذى رواه الطبرانى عن عوف بن مالك و وصفه السيوطى بالحسن: الإبدال فى أهل الشام، و بهم تنصرون، و بهم ترزقون. فإذا قيل أن المقصود بهم يشمل أئمة أهل البيت فإن خصائص الأئمة الأصلية التى بيّناها هى الأحق.

و لو أعدنا النظر فى قول ابن خلدون لنتاول نقطة أخرى من بين النقاط التى تستدعى التوقف و المناقشة، فابن خلدون هكذا شأنه فى كل أمر يتعلق بآل البيت الأطهار، فهذا النص على قصره يضمّ عدة نقاط نترك مناقشتها للقارئ الكريم، و لضيق ما نخصصه لابن خلدون هنا، و هى فى أغلبها بادية النصب و العداء، و لنعد إلى قوله: ثم قالوا بترتيب الإبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة فى النقباء حتى أنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلا لطريقتهم و تخليهم رفعوه إلى على رضى الله عنه، و هو من هذا المعنى أيضا، و إلا فعلى رضى الله عنه لم يختص من بين الصحابة بتخلية و لا طريقة فى لباس و لا حال، بل كان أبو بكر و عمر رضى الله عنهما أزهّد الناس بعد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و أكثرهم عبادة... إلى آخر كلامه.

و ابن خلدون على الانحراف و التحول عن أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله و سلم اللذين دفعا من سبقه و من اتبعه إلى أن يبعثوا أصول التصوف التى اتفق عليها المتصوفة و أدعوها عن مجالات أهل البيت و مواقع القرب منهم، و مدى صحة ذلك و قرينه أو بعده عن الحقيقة من شئون المتصوفة و طوائفهم لا من شأن الشيعة، لأن الشيعة هم أتباع الأصل و أنصار الجوهر. و كما حفلت صفحات المناقب التى يقصد بها المضاهاة أو التأثير

على مناقب أهل البيت وعظيم منزلتهم، حفل تيار الانحراف في اهتمامه بما يتعلق بالتصوف وأصوله التي أقيم عليها بما ينجم عن هذا القصد منها: أن أبا بكر لما أنفق ماله في سبيل الله وأعتق عبده حتى تخلل بالعبادة، نزل جبرائيل وقال: يا محمد: إن ملائكة السموات تخللت بالعبادة إكراما لأبي بكر من الله، وقل له: إن ربك عليك راض فهل أنت عليه راض؟ فقال أبو بكر: إني عن ربي راضى (1).

وسرى ذلك إلى صفوف المتصوفة، وسمح لكثير من أشياخهم باحتلال المراتب التي يسعون إليها، مع أن القسم الأعظم -و على الأخص في مصر- بقى محتفظا بصورة الأصول التي أقاموا عليها طرقهم، وجعلوا من سيرة أهل البيت الأطهار مصدرا ثابتا، وأقاموا على الولاء الذي خالطته حالات الطرق التي أشرنا إليها، وبعض من آثار التيارات الأخرى التي ظهرت على ساحة الإسلام.

كما أن الصوفية يأخذون بالإمامة لتكون على معنى الدرجات التي تكون نظامهم غير أنهم يختلفون في شرط النسب.

و إذا نظرنا إلى نظرياتهم وقواعد سلوكهم، لوجدناهم يستخلصون أغلبها من أحداث تاريخ أهل البيت، إذ لديهم في الولاية نظرية ولاية العلم وولاية الحكم أو خلافة الحكم، وأن الإمام على اختصاص بالأولى.

وفي مجال الإمامة يقولون بإمامة الأشباح والأرواح، وهي ما تقصده في الحديث عن السلطان الروحي لأهل البيت وأئمتهم الأطهار، وكيف أقاموا منزلهم في نفوس شيعتهم ومحبيهم على أساس النصح والإرشاد والوعظ والتبليغ، وعزفوا عن سلطان الحكم، وجهوا أتباعهم إلى عوالم دينية وروحية تجعل من الأحكام والفرائض ديناً ومجتمعاً قائماً. يروى الشيخ الصدوق رحمه الله عن جابر عن أبي جعفر عن أبيه عليه السلام أنه قال: «إذا كان أول يوم من شهر شوال نادى مناد أيها المؤمنون اغدوا إلى جوائزكم» ثم قال أبو جعفر عليه السلام: «يا جابر جوائز الله عز وجل ليست كجوائز هؤلاء الملوك». ثم قال: «هو يوم الجوائز».

كما يروى عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً: «ما من عيد للمسلمين أضحى ولا فطر إلا وهو يجدد لآل محمد فيه حزن، لأنهم يرون حقهم في يد غيرهم».

ص: 101

يقول أبو المعالي محمد سراج الدين الرفاعي عن الإمامة عند الصوفية: وجعلها إطار الدرجات و المنازل التي لديهم، واشترط النسب الشريف: وهي الإمامة التي عنها حجاجة الصوفية، وسموها بالقطبيّة الكبرى، و الغوثية العظمى، و الإمامة الجامعة، وقالوا لصاحب مرتبتها: الغوث، و قطب، و الإمام الجامع، و الإنسان الكامل، و أطبق جماهير الصوفية سلفا و خلفا أن الغوث هذا المعنى بهذه الإمامة لا يكون من غير أهل البيت النبوي أبدا، وقالوا: إن أهل البيت النبوي لمّا فاتتهم إمامة الأشباح التي هي الخلافة الظاهرة، عوّضهم الله سبحانه و تعالى ما هو خير منها، و ذلك إمامة الأرواح، فإمامهم هذا أعنى القطب الغوث يتصرّف في ذرّات الأكوان، و صاحب خلافة الظاهر ذرة منها...

ثم يورد قول السيد إبراهيم أبو إسحاق الأعزب الرفاعي: كلمتان مردودتان عند أهل البساط: كلمة شريف يطلب نيل الإمامة الظاهرة بعد أن انعقدت على الإمامة الجامعة الروحية بيعة الأرواح لأهل البيت، و أمضى الله تعالى و رسوله صلّى الله عليه و آله و سلّم لهم ذلك، و ها هي تنقلب بحمد الله تعالى فيهم، و لا تنزع منهم حتى تختم بسيدنا الإمام ولي الله المهدي عليه السّلام. و الكلمة الثانية كلمة رجل قال أن قطبية الأقطاب يعنى الغوثية و الإمامة الكبرى الروحية، تكون في غير أهل البيت، فإن هذه الكلمة من عثرات ألسن بعض أهل الرى لا يلتفت إليها و لا يعول عليها. نعم إن المحاذاة للغوث ثابتة عند المتمكنين، فقد يحاذى الولي الذي ليس بشريف -بمحض فضل الله و توفيقه- مرتبة الغوث الجامع، و لكن لا ينزل تلك المنزلة بعينها أبدا (1) بسبب منزلة أهل البيت في قلوب الناس، و ميل النفوس إليهم لم يكن من السهل إغفال هذا الشرط، و لكن من السهل ادّعاء النسب و الالتصاق بالشجرة الطاهرة المباركة النقية. و ظل الصوفية يرون آل البيت بمنظار طرفهم و عقاندهم. اقرأ هذا النص الصوفي:

(و ذكر بعضهم أنها تروى -الطرق- من جهة الحسن عن النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و من جهة عن علي، لأن الحسن كان أول فتحه و مدده من يد النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم ثم صحب و اقتدى بوالده عليه السّلام كما وقع لكثير من أهل الله تعالى حصل لهم الفتح من يده صلّى الله عليه و آله و سلّم مباشرة، برؤيا منامية أو اجتماع روحاني، ثم صحبوا بعد ذلك الشيوخ للسلوك و التهذيب، أو انتسبوا إليهم للأدب مع الشريعة و الركون إلى الواسطة.

ص: 102

1- (1) صحاح الأخبار في نسب السادة الفاطمية الأخيار ص 50 و 51.

وذكر بعضهم أن الحسن ورث القطبية من والدته سيدة نساء أهل الجنة صَلَّى اللهُ عليها وسلّم، وهي أول الأقطاب على الإطلاق، وكل هذا صحيح، فإنهم بيت النبوة، ومنبع المعارف والكمالات والأسرار، وقد ألبسهم النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلّم جميعاً بكسائه الشريف، وسقاهم بمدده العظيم، وشملهم بنوره الفخيم، فحازوا منه صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلّم أعلى مراتب الولاية.

وأقصى ما يصله البشر من درجات العرفان) انتهى.

ثم يطلّ المتصوّفة على مأساة كربلاء و فاجعة الطف، حيث مسرح ثورة أبي الأحرار الحسين بن علي عليهما السّلام و موضع نهضة سيد الشهداء، و صفحات البطولة، و مواقف الجهاد، فيروون بطرقهم أن الإمام الحسين لما انكشف له في سرّه تدلى الخلافة الروحية التي هي الغوثية و الإمامة الجامعة فيه و في بنيه علي الغالب، استبشر بذلك، و باع في الله نفسه لنيل هذه النعمة المقدسة، فمنّ الله عليه بأن جعل في بيته كعبة الإمامة، و ختم بينه هذا الشأن، على أن الحجة المنتظر الإمام المهدي عليه السّلام من ذريته الطاهرة و عصابته الزاهرة (1).

فإذا كان النظر في جوانب عظمة الإمام علي عليه السّلام كان التّأثر على أشده، و راحوا يقتبسون من سيرته، و يؤسسون على فضائله، و يصفونه بحسب أوصافهم التي قد يلتقون عبرها مع شيعة أهل البيت أو ينفردون بها، كما أنهم لا يطبقون على رأي و ليسوا كالشيعة في الوصية و الإمامة، فمنهم من يجعل الإمام في الطبقة الأولى من طبقات المتصوّفة، و يمضى في ذلك حسب ترتيب الخلفاء، و منهم من يقول أن الأفضلية التي يراها السنّة في الخلفاء لا تستلزم الأعلمية، و يسوقون أدلة على ذلك كقصة الخضر مع موسى عليهما السّلام فإن القرآن أثبت أعلمية الخضر بالحقائق على موسى، مع أن موسى أفضل منه بلا خلاف بين أحد يعرفونه. و يقولون: و يكفي أن الخضر نبي و موسى عليه السّلام رسول، بل من أفضل الرسل، و لا يوجد من يقول بأن هناك نبي أفضل من بعض أولى العزم من الرسل عليهم السّلام.

و في الإمام علي يقولون:

بأنه مدينة العلوم و المواهب، و لى المتقين و إمام العادلين، أقدمهم إجابة و إيماناً، و أقومهم قضية و إيقاناً، المنبئ عن حقائق التوحيد، المشير إلى لوازم بوارق

ص: 103



علم التفريد، ذو القلب العقول و اللسان السئول. و الأذان الواعية و العهود الوافية.

ختم الله به الخلافة كما ختم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم النبوة، الأخيشن في دين الله، الممسوس في ذات الله. وقد قيل: التصوف مرافقة المودود و مصارمة المعهود. قال حذيفة: قالوا يا رسول الله: أ لا تستخلف علينا؟ قال: «إن تولوا عليا و ما أراكم فاعلين تجدوه هاديا مهديا». و سئل المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عنه فقال: «قسّمت الحكمة عشرة أجزاء، فأعطى تسعة و الناس واحدا» و قدم عليه يوما فقال: «مرحبا بسيد المسلمين و إمام المتقين. إن الله أمرني أن أدنيك و أعلمك لتعي» و قال: «من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه و عاد من عاداه» و قال: «على منى و أنا منه» و قال: «أنا مدينة العلم و على بابها» و قال: «لا يحبه إلا مؤمن و لا يبغضه إلا منافق». و قال: «من أذى عليا فقد أذاني، و من سبّه فقد سبّني، و من أبغضه فقد أبغضني، و من أحبّه فقد أحبّني» و قال: «على مع القرآن و القرآن مع على» و قال ابن عباس رضى الله عنه: ما نزل في أحد من كتاب الله ما نزل في على رضى الله عنه، و كان إذا غضب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم لم يجسر أحد أن يكلمه إلا على. و قال: لعلنى ثمانى عشرة منقبة ما كانت لأحد من هذه الأمة. و قال يوم خيبر: «لأعطين الراية رجلا يحبّ الله و رسوله، و يحبه الله و رسوله». و جعل حبه علامة الإيمان و بغضه إمارة النفاق. و قال الإمام أحمد: ما ورد لأحد من الصحابة من الفضائل ما ورد لعلنى رضى الله عنه. رواه الحاكم و غيره، و كان رضى الله عنه الانقياد و الاستسلام شأنه، و التبرّى من الحول و القوة مكانه. و قد قيل: التصوف إسلام الغيوب إلى مقلب القلوب، و إذا أردت أن تعرف منزلته من المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فتأمل صنيعه في المؤاخاة بين الصحابة، جعل يضم الشكل إلى الشكل، و المثل إلى المثل، فيؤلف بينهما إلى أن آخا بين أبى بكر و عمر رضى الله عنهما، و ادّخر عليا كرم الله وجهه لنفسه، و اختصه بأخوته، و ناهيك بها من فضيلة، و أعظم بها من شرف (1).

ثم يستمدّون من سيرته ما يؤيد المقالات الصوفية، و من أقوال أئمة المسلمين فيقول المناوى: و قد شهد له بكمال الزهد الإمام الشافعى رضى الله عنه. قيل له: ما نقرّ الناس عن على رضى الله عنه إلا أنه كان لا يبالي بأحد. فقال الشافعى رضى الله عنه: كان عظيما فى الزهد، و الزاهد لا يبالي بأحد، و كان بذات الله عليما، و عرفان

ص: 104

اللّٰه في صدره عظيما. وقد قيل: التصوف البروز من الاحتجاب إلى رفع الحجاب.

وأعيان رجالهم وكبارهم المشهور عندهم أن طريقتهم تتصل بالإمام أمير المؤمنين عليه السّلام يقول الوترى: نعم، إن خرقة الصوفية رضى اللّٰه عنهم تتصل بالخليفة الرابع أسد الملاحم والمعامع، شيخ أئمة الآل، فحل الرجال، صهر رسول الثقلين، والد الريحانتين، إمام المشارق والمغارب، أمير المؤمنين أسد اللّٰه سيدنا على بن أبي طالب كرم اللّٰه وجهه ورضى اللّٰه تعالى عنه، وقد ندر اتصال خرقة بغيره، وكلهم على هدى يتصلون بسيد المخلوقين حبيب رب العالمين صلّى اللّٰه عليه وآله وسلّم ولا يلتفت لما تقوله البعض في شأن خرقة الصوفية، فإن ذلك قد نشأ عن هفوات لا تعتبر، ولا يبنى عليها الشك بعد اليقين بصحة الخبر (1).

ثم يحسبون الأئمة من آل البيت صلوات اللّٰه عليهم أجمعين أعيانا لخرقتهم، فيقول الوترى: وإن أعيان أهل الخرقة ساداتنا أهل بيت النبي صلّى اللّٰه عليه وآله وسلّم وأعيانهم أئمة الآل الأعلام عليهم الرضوان والسلام، وهم: السبط الجليل القدر، الوفير المنن أمير المؤمنين الإمام أبو محمد الحسن، والسبط العظيم المقام، قرّة عين سيد الكونين أمير المؤمنين الإمام أبو عبد اللّٰه الحسين، وسيدنا الإمام علي زين العابدين، وسيدنا الإمام محمد الباقر، وسيدنا الإمام جعفر الصادق، وسيدنا الإمام علي الهادي، وسيدنا الإمام الحسن العسكري، وسيدنا الإمام الخلف الصالح قرّة عين الأئمة الهادين الإمام محمد المهدي سلام اللّٰه عليه وعليهم أجمعين، فهؤلاء السادات الأعيان، أحوالهم المذكورة، وأعلامهم منشورة، وتراجمهم أشهر من أن ينبت عليها، وفضائلهم أفعمت بها الدفاتر، وجفت لها المحابر، وهم سادات السادات، وأعيان الأولياء، الذين خرق اللّٰه لهم العادات.

ما ذا يقول المادحون بوصفهم وهم السراة خلائف المختار

ضربت قباب فخارهم وسمّوهم بين البتول الطهر والكرّار

للّٰه جعفر طاب من أنسابهم عقدت عليه سلاسل الأقمّار

(2)

ص: 105

1- (1) أحمد بن محمد الوترى، روضة الناظرين و خلاصة مناقب الصالحين.

2- (2) المصدر نفسه.

و لا نظيل فى تفاصيل مقالات الصوفيين أو تعريفاتهم، و تقتصر على أمرين نراهما المدخل الذى جاء منه الصوفية إلى رياض أهل البيت فى سيرهم، و راحوا يعقدون أكاليل معتقداتهم منها.

## الأول: الحب

:

و جعل مدار الحب إلهيا، يصبغ علاقة المسلم بربه، و هى فى أشكالها تقوم على فكرة الإمام على عليه السلام و تحديده ماهية العبادة أن تكون عبادة أحرار، لا طمعا فى ثواب أو خوفا من عقاب، و عليها أسسوا ذلك، و لا تبعد بأى حال عن ثواب أو خوفا من عقاب، و عليها أسسوا ذلك، و لا تبعد بأى حال عن أصلها الحقيقى مهما تعددت الأقوال.

يقول القشيري: من عرف الله عن طريق المحبة دون خوف هلك بالبسط و الإدلال، و من عرفه من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد، و من عرف الله من طريق المحبة و الخوف أحبه الله فقربه و علمه و مكّنه.

أما أبو طالب المكي فيقول: و كل محب لله خائف، ليس كل خائف محبا.

و ربما كانت المحبة ثوبا للخوف و مزيدا له، و هذا فى مقام رب العالمين. و ربما كان الخوف مزيدا للمحبة و ثوابها، و هذا فى مقام العالمين. فمن كانت المحبة مزيدة بعد الخوف فهو من المقربين. و من كان الخوف مزيد محبته، فهذا من الأبرار المحبين و هم أصحاب اليمين (1).

و أرى من المستحسن هنا أن نذكر شيئا من نصوص التراث الشيعى القائم على أفكار أئمتهم صلوات الله عليهم و مواعظهم، بعد الإشارة إلى تعلق هذا المدخل بالجانب الإشراقى الذى أغناه الرئيس ابن سينا فى الإشارات:

يقول الشيخ الجليل محمد مهدي النراقي فى «جامع السعادات» و تحت فصل المنكرين لحب الله: (قد ظهر مما ذكر ثبوت حقيقة المحبة و لوازمها من: الشوق و الأنس لله تعالى، و أنه المستحق للحب دون غيره. و بذلك ظهر فساد زعم من أنكروا إمكان حصول محبة العبد لله تعالى و قال: لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله،

ص: 106

و أما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس و المثل. و لما أنكروا المحبة أنكروا الأنا و الشوق و لذة المناجاة و سائر لوازم الحب و توابعه، و يدل على فساد هذا القول، مضافا إلى ما ذكر، إجماع الأمة على كون الحب لله و لرسوله فرضا، و ما ورد فى الآيات و الأخبار و الآثار من الأمر به و المدح عليه و اتصاف الأنبياء و الأولياء به).

انتهى.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «حب الله، إذا أضاء على سرّ عبد أخلاه عن كل شاغل و كل ذكر سوى الله، و المحب أخلص الناس سرّا لله، و أصدقهم قولاً، و أوفاهم عهداً، و أزكاهم عملاً، و أصفاهم ذكراً، و أعبدهم نفساً، تتباهى الملائكة عند مناجاته، و تقتخر برؤيته، و به يعمر الله بلاده، و بكرامته يكرم الله عباده، و يعطيهم إذا سألوه بحقه، و يدفع عنهم البلياء برحمته، و لو علم الخلق ما محله عند الله و منزلته لديه، ما تقربوا إلى الله إلا بتراب قدميه».

و قوله عليه السلام يعطينا صورة واضحة عن منهجه فى الدعوة إلى التمسك بالدين، و الانصراف لمرضاة الله، فى وسط تلك المعتركات و المحن التى تشهدا الأمة على أيدي المتسلطين، الذين يتخذون من دين الله ستارا لأغراضهم و أطماعهم، فاختط لنفسه و لمريديه طريق الإخلاص لله، و التقرب منه، الذى يبعث فى النفوس الطمأنينة. و يحيى الأمل بعد تلك النكبات و الفواجع التى ألمت بأهل البيت الكرام صلوات الله عليهم، و امتدت إلى المؤمنين من أتباعهم.

و يوضّح الإمام الصادق عليه السلام أصول اتجاهه الروحى، و يجعل شيعة و مريديه على معرفة و بينة من خصائص السلوك الذى يدعوهم إليه، و دقائق المنهج الذى يحملهم عليه، فيقول عليه السلام: «نجوى العارفين تدور على ثلاثة أصول: الخوف و الرجاء و الحب. فالخوف فرع العلم، و الرجاء فرع اليقين، و الحب فرع المعرفة.

فدليل الخوف الهرب، و دليل الرجاء الطلب، و دليل الحب إثارة المحبوب على ما سواه. فإذا تحقق العلم فى الصدر خاف، و إذا صح الخوف هرب، و إذا هرب نجأ، و إذا أشرق نور اليقين فى القلب شاهد الفضل، و إذا تمكن من رؤية الفضل رجأ، و إذا وجد حلاوة الرجاء طلب، و إذا وفق للطلب وجد، و إذا تجلى ضياء المعرفة فى الفؤاد هاج ريح المحبة، و إذا هاج ريح المحبة استأنس فى ظلال المحبوب على ما سواه، و باشر أوامره و اجتنب نواهيه، و اختارهما على كل شىء غيرهما، فإذا استقام على

بساط الأنس بالمحبوب مع أداء أوامره واجتناب نواهيه وصل إلى روح المناجاة و القرب. و مثال هذه الأصول الثلاثة كالحرم و المسجد و الكعبة، فمن دخل الحرم أمن من الخلق، و من دخل المسجد أمنت جوارحه أن يستعملها فى المعصية، و من دخل الكعبة أمن قلبه من أن يشغل بغير ذكر الله» (1).

كان الصادق عليه السلام فى مركزه الدينى و مكانته العلمية، يتصدى لمهمات القيادة الروحية، و يضع لأصحابه الإشارات التى يميزون بها فى خصم ذلك المعترك. من أقبل على نهجه بإخلاص، و يطلب من أصحاب البحث عن الصفات بطريق العمل و الالتزام بين صفوف شيعته فيقول عليه السلام:

«امتحنوا شيعتنا عند ثلاث: عند مواقيت الصلوات كيف محافظتهم عليها، و عند أسرارهم كيف حفظهم لها من عدونا، و إلى أموالهم كيف مواساتهم لإخوانهم بها».

### الأمر الثانى: الزهد

الذى راح الصوفية ينهلون منه ما يشاؤون، و يضعونه فى أوعية خاصة بهم من شأنها أن تحوّل طعم المحتوى، و تغيّر لونه هو: الزهد.

و للعلماء فى حقيقة الزهد اختلاف كبير، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بالخرقة و الطريقة، فلا بد أن يؤخذ الظاهر الذى يعضد الأقوال أو يدعّم الأسس. و نحن هنا نعرض القليل القليل مما يتحاشاه الذين يسوؤهم ذكر الحقيقة على حالها.

فالإمام على أمير المؤمنين عليه السلام فى حياته الشريفة و سيرته الطاهرة، قد أخذ منذ آلت إليه الخلافة و انتهى إليه الحكم بجعل فترة إمامته فترة تتولى معالجة آثار التطورات الماضيه، و تتجه إلى المستقبل لأحكام الصلة بين عهد الرسالة و حياة النبى محمد صلى الله عليه و آله و سلم بإشراقهما و نورهما، و بين أسس سياسته، حتى تهدأ النفوس و تستقر على الهدى، و لو لا فترة حكمه و تطبيقات إمامته لكانت عودة الجاهلية و أحقاد المشركين بأعنف مما كانت عليه، و لما راعت أحدا من أهل الإسلام، و لذلك فإن الإمام عليا فى سلوكه لم يدع إلى ابتعاد عن الحياة، و لا إلى انغلاق. و إنما هو المكلف بحفظ السنّة على أصولها، و إبقاء الشريعة على مقاصدها.

ص: 108

عن أنس قال: جاء ثلاثة رهط إلى أزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يسألون عن عبادة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً. وقال الآخر:

أنا أصوم النهار ولا أفطر. وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقال: «أنتم الذين قلتُم كذا وكذا؟ أما والله إنى لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وما بينى عليه من مظاهر سيرة الإمام على عليه السلام لدى الصوفية، وخاصة في القرن الثاني الهجري، وبدايات اتساع طرقها وشيوع تعاليمها، يغفل المقاصد الحقيقية التي تكمن في كل ناحية من حياة الإمام على عليه السلام وتعلق بما ينسجم مع نزعتها.

فإذا قيل: إن الإمام عليا كان يلبس إزارا خلقا مرقوعا، فذلك نصف الحقيقة، لأن تصرف الإمام وجوانب سيرته، تظهر فلسفتها في أقواله. فعند ما قيل له في ذلك الإزار، قال عليه السلام: «يخشع له القلب، وتذل به النفس، ويقتدى به المؤمنون».

وقوله عليه السلام: «...إن الله تعالى فرض على أئمة الحق أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبغ بالفقير فقره» أى يجب على الإمام العادل أن يشبه نفسه في لباسه وطعامه بضعفة الناس، لكيلا يهلك الفقراء من الناس، فإنهم إذا رأوا إمامهم بتلك الهيئة وبذلك المطعم، كان ادعى لهم إلى سلوان لذات الدنيا، والصبر عن شهوات النفوس.

ومن أحكام القرآن يتخذ الإمام عليه السلام سياسته الاجتماعية والاقتصادية ويقول:

«إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير، إلا بما متع به غنى، والله تعالى سائلهم عن ذلك».

وفي ثنايا أقواله المأثورة، نجد تناوله للفقير من نواحي عديدة، أولها: الناحية الدينية، ثم وجوده الاجتماعي، ويجعل عليه السلام من الفقر إلى الله أصلا، ثم يعرض جوانب الفقر الأخرى، وفي نهجه ما يغنى وما لا يحاط به بمثل هذا العرض الموجز.

ولكن من المهم القول، أن حياة الإمام على من زاوية التصوف، ينظر إليها بأكثر من زاوية، أهمها جميعا ما يأخذ بالظاهر ويتشبهت بإبقاء الصفات والصلة إلى الحد الذي يضع على لسانه تعريفا للتصوف، ليس فيه أى صفة أو علامة من صفات أو علامات

منهج الإمام في بلاغته وأفكاره، وإنما هي من صفات المقالات الصوفية. فيروى على لسانه عليه السلام: التصوف ثلاثة أحرف: الصاد صبر و صدق و صفاء، و الواو و د و و د و و د، و الفاء فرد و فقر و فناء.

و الزاوية الثانية التي ينظر منها، هي زاوية المتخصصين و أصحاب التجربة المقرونة بالنظر، كما هو الحال عند الرئيس أبي علي بن سينا في كتاب الإشارات الذي ينقل عنه ابن أبي الحديد. قال أبو علي في مقامات العارفين: العارفون قد يختلفون في الهمم بحسب ما يختلف فيهم من الخواطر، على حسب ما يختلف عندهم من دواعي العبر، فربما استوى عند العارف الكشف و الترف، بل ربما أثر الكشف، و كذلك ربما استوى عنده التفل و العطر، بل ربما أثر التفل، و ذلك عند ما يكون الهاجس بياله استحقار ما عدا الحق، و ربما صغا إلى الزينة، و أحب من كل شيء عقيلته، و كره الخداج و السقط، و ذلك عند ما يعتبر عادته من صحبته الأحوال الطاهرة، فهو يرتاد إليها في كل شيء، لأنه مزية حظوة من العناية الأولى، و أقرب إلى أن يكون من قبيل ما عكف عليه بهواه، و قد يختلف هذا في عارفين، و قد يختلف في عارف بحسب وقتين. انتهى.

و ينقل الصوفية المتأخرون قول العارف بالله المعروف بالباقي بالله شيخ السادة النقشبندية في كتابه (المثوى) عن جعله تكنية النبي صلى الله عليه و آله و سلم للإمام علي عليه السلام بأبي تراب- و قصتها معروفة- أصلاً يتفق مع خواطرهم و مقاصدهم و معناه: أن التراب إشارة إلى وجود أهل التوحيد و الفناء، فيكون حاصل معنى أبي تراب: أنه عليه السلام هو الأصل المقتدى به في هذا المعنى، و المرجع لطائفة الفقراء أرباب الفناء الكمل.

و من جهة أخرى يحملون معاني الأحاديث و الأخبار النبوية في الإمام علي عليه السلام على مقاصدهم و طبيعة نهجهم، و هي أحاديث رواها و صححها كبار المحدثين من أهل السنة، و جاءت في مصنفات علمائهم كمسند الإمام أحمد و منها:

«يا علي أن الله قد زينك بزينة لم يزين العباد بزينة أحب إليه منها، هي زينة الأبرار عند الله تعالى في الدنيا، جعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً، و لا ترزأ الدنيا منك شيئاً. و وهب لك حب المساكين، فجعلك ترضى بهم أتباعاً و يرضون بك إماماً، فطوبى لمن أحببك و صدق فيك، و ويل لمن أبغضك و كذب فيك».

و هي نبوءة كشفت عمّا سيقع من أمر، و كيف سيكون الحال بين جنده و محبيه

وهم يستميتون من أجل صون الرسالة و حفظ مبادئ العدل فى مواجهة البغى و الأثرة و الجاهلية الجديدة التى تتخذ من الإسلام ستارا و هى ستارا و هى تشيد حكمها و ملكها على الأثرة و الاستغلال، و النهب و القتل.

و إذا عدنا إلى سيرة الإمام الصادق عليه السلام و وجدنا- أن منهجها الفكرى و الدينى الذى شد إليه الناس، و جذب نحوه رجالات الأقطار و علماءها، فتتلمذوا على يديه، و تخرّجوا من مدرسته، يتّسم ببناء دقيق، لأنه يتجه إلى بناء المسلم من الداخل، فيتكلم عليه السلام بألفاظ و مفردات توّضح القصد، كما تسهّل التأثير و الفعل. و فى مجال الإيضاح و التفسير، يتحدث أبو عبد الله الصادق عليه السلام بصور و بيان يجسّد المطلوب و يجلو ما يخفى على الآخرين. فهو عليه السلام فى خصم المعترك السياسى و المأسى الكبرى، يتجه إلى داخل النفوس و ما نجم عن معاناة الرعية بأشكالها المختلفة، و يهتم عليه السلام بطهارة الأرواح و استقامة السلوك.

قال الإمام الصادق:

«المرضى ثلاثة، عن النفس، و عن القلب، و عن الروح. فمرض المنافق عن النفس، و مرض المؤمن عن القلب، و مرض العارف عن الروح. فدواء المنافق دار جهنم، و دواء المؤمن معرفته و حبّه، و دواء العارف لقاءه و قربه» (1).

و قوله عليه السلام:

«من خاف الله أخاف الله منه كل شىء، و من لم يخفف الله أخافه الله من كل شىء» (2) يقصد به أن يعلم الناس أن قوة الحكام الظلمة لا تظال المؤمنين، و أن اللجوء إلى الله هو الحصانة و المنجى من كل متسلّط جبار. و قد اخترنا هذين القولين، لنخلص إلى أن الإمام الصادق عليه السلام فى حياته قد صبّ جهوده على أمرين، الأول:

النصح و الإرشاد و وعظ الناس و الدعوة لدين الإسلام. و الثانى: التأكيد على السلطان الروحى و العبودية لله تعالى التى تجعل من أشكال اضطهاد الرعية و ألوان عنف المتجبرين و قوتهم امتحانا زائلا و مازقا طارئا، و أن المواجهة الدامية بعد التجارب التى

ص: 111

1- (1) الاثنى عشرية [1] فى المواعظ العددية.

2- (2) أصول الكافى.



مرّت بها الأمة ورّوع بها الناس، لا تؤدى فى مثل تلك الظروف التى يعيشها إلا إلى الهلاك على يد الحكام، لذلك سلك مع العباسيين مسلكا يجنب أهل بيته و شيعته مخاطر سلطانهم.

فلما اتخذ رأيه فى عدم لبس السواد ذريعة من قبل الأعداء، أتقاهم بما يزيل التهمة و يحفظ حياته، فأخذ يلبس جبة سوداء. و روى أنه كان يلبس خفا أسودا مبطنا بسواد و فتق مرة ناحية منه و قال: «أما إن قطنه أسود» و أخرج منه قطن أسود، ثم قال عليه السلام: «بيّض قلبك و ألبس ما شئت» (1).

أما إذا أضفنا الأقوال الأخرى للإمام الصادق، فإن الصوفية لا يكتفون بالتأسيس عليها أحوالا لهم و مقامات، بل إن ما نراه من أحداث طبيعية تحفل بها سيرة الأئمة الطاهرين من أهل البيت. يرون فيها كرامات لتعزيز أقوالهم بأصحابهم، و ادعاء الأعمال الجليلة لهم.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «من أدخل قلبه صافى حب الله شغله عمّا سواه» (2).

و هو قول من مصادر الصوفية لا يخرج عن مضامين مدرسة الإمام الصادق أو أقواله، إلا أن ما يجعلونه أساسا للمقامات و الأحوال عندهم، و ما يصرفون إليه كلام الإمام عليه السلام يسىء كثيرا إلى الموقف الدينى و الفكرى الذى اقتضته مصلحة الأمة، و الذى اختطه الإمام الصادق، و أطلقنا عليه «الدعوة الصامتة» و يظهر أن الصوفية تنسج على نزعته و تحيك على هواها المقاصد و المعانى، لأن واقع الإمام الصادق و حركته الدائبة و نشاطه المعطاء، يفند الغرض الذى يختمى وراء القول بالتخلى أو الخمول. إذ لا يهدأ بحال فى أذهان الشيعة قول الإمام الصادق: «كونوا لنا دعاة صامتين» و اقتران الدعوة بالصمت يشير إلى منهج الصادق فى الابتعاد عن مواجهة الحكام بما يحمى دماء الناس و أعراضهم و وجودهم، فيما أولوا بعض أقواله عليه السلام تأويلات اعتبروها أساسا لأوضاع قادتهم و هو: «عزّت السلامة حتى لقد خفى مطلبها، فإن تك فى شىء فيوشك أن تكون فى الخمول، فإن لم توجد فيه ففى التخلى، و ليس كالخمول، فإن

ص: 112

1- (1) علل الشرائع للشيخ الصدوق.

2- (2) الكواكب الدرية. [1]

لم تكن فيه ففى الصمت، فإن لم تكن فيه ففى كلام السلف الصالح، والسعيد من وجد فى نفسه خلوة (1).

و هذا من النصوص التى لعب الخيال فى إيجادها، وكانت نتيجة الغرض الذى.

انطوت عليه نفوس قائلها، فجعلوا من أصل الفكرة فى توخى السلامة وسط مجمع مائج بالأهوال و المحن و الابتلاءات، و مقتضيات الإمام و مسؤولياته تجاه ربه و دينه منوالاً لأفكارهم، و تنادى ألفاظ القول على بعدها عن البناء اللغوى و التوجه الوعظى الذى تمتاز به أقوال الإمام الصادق عليه السلام. و المقارنة بالأصل تظهر الفارق، فقد قال عليه السلام فى السلامة: «أطلب السلامة أينما كنت، و فى أى حال كنت لدينىك و لقلبىك و عواقب أمورى فى الله، فليس من طلبها وجدها... و السلامة قد عزت فى الخلق و فى كل عصر، خاصة هذا الزمان و سبيل وجودها فى احتمال جفاة الخلق و أذيتهم، و الصبر عن الرزايا و حقيقة الموت، و الفرار من أشياء تلزمك رعايتها، و القناعة بالأقل من الميسور، فإن لم يكن؛ فالعزيمة، فإن لم تقدر فالصمت، و ليس كالعزيمة، فإن لم تستطع فالكلام ينفعك و لا يضرك، و ليس كالصمت، فإن لم تجد السبيل إليه فالانقلاب و السفر من بلد إلى بلد، و طرح النفس فى بوارى التلف بسرّ صادق و قلب خاشع و بدن صابر، قال الله عز و جل: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ أَرْضًا مَّوَسَّعَةً فَتُهَاجَرُوا فِيهَا .

و انتهب مقسم عباد الله الصالحين، و لا تتنافس الأشكال، و لا تدع فى شىء و إن أحاط به علمك و تحققت به معرفتك، و لا تكشف به سرّك إلا على أشرف منك فى الدين، و أنى تجد المشرف، فإذا فعلت ذلك أصبت السلامة».

و من أقواله عليه السلام:

«ثلاثة أشياء لا ينبغى للعاقل أن ينسأهن على كل حال: فناء الدنيا، و تصرف الأحوال، و الآفات التى لا أمان لها» (2).

فهل كانت مثل هذه الأقوال دافعا لأصحابه على اعتزال الدنيا و ترك مهمات الحياة، أم أن الرجل منهم كان يدعو أهل زمانه و يتصدى لنشر تعاليم دينه و هو محمّل

ص: 113

1- (1) الكواكب الدرية 95/1 و [1] صفة الصفوت.

2- (2) تحف العقول. [2]

بمهمات الإرشاد والهداية، مقبل على الدنيا لأنها تربة يزرع بها الإنسان الخير بتمسكه بدينه، ونصرة عقيدة الإسلام، وتولى أهل بيت الرسالة الذين خصّهم الله بالإمامة، فجعلهم ينابيع هدى وتقوى، يغذوهم بالعلم، ويمدّهم بالسداد والتوفيق.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى أعطى محمداً صلّى الله عليه وآله وسلّم شرائع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى: التوحيد والأخلاص وخلع الأنداد، والفطرة الحنيفية السمحة لا رهبانية ولا سياحة، أحلّ فيها الطيبات، وحرم فيها الخبائث، ووضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، ثم افترض عليه فيها الصلاة والزكاة والصيام والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحلال والحرام والموارث والحدود والفرائض والجهاد في سبيل الله وزاده الوضوء» (1).

وما تراه الشيعة من خصائص أهل البيت لمنزلتهم الدينية ومكانتهم الروحية التي يعزّهم الله من أجلها، ويكلّوهم لحماية دينه، يدرجه المتصوّفة في باب الكرامات الصوفية، فمثلاً: موقف المنصور العباسي منه، ومسلك الإمام الصادق عليه السلام في اتقاء شره، ونقله هنا حسب مصنفات رجالهم: عند ما حجّ المنصور سنة سبع ومائة، قدم المدينة، فقال للربيع: ابعث إلى جعفر بن محمد من يأتينا به متعباً، قتلني الله إن لم أقتله. فتغافل الربيع عنه وتناساه، فأعاد عليه في اليوم الثاني وأغلظ في القول، فأرسل إليه الربيع. فلما حضر، قال له الربيع: يا أبا عبد الله، أذكر الله تعالى فإنه قد أرسل لك من لا يدفع شره إلا الله، وإنى أتخوف عليك. فقال الإمام: «لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم». ولما دخل على المنصور، أغلظ له في القول وقال: يا عدو الله، اتخذك أهل العراق إماماً يجبون إليك زكاة أموالهم، وتلحد في سلطاني، وتتبع لى الغوائل، قتلني الله إن لم أقتلك. وأحضر الرجل الذي سعى به إلى المنصور، فقال له المنصور: أحقاً ما حكيت لى عن جعفر؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين. فقال الإمام الصادق: «استحلفه» فبادر الرجل وقال: والله العظيم الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الواحد الأحد، وأخذ يعدّد فى صفات الله تعالى. فقال الإمام: «يحلف بما أستحلفه» فقال: حلفه بما تختار، فقال الإمام: «قل: برئت من حول الله وقوته، والتجأت إلى حولى وقوتى لقد فعل جعفر كذا وكذا». فامتنع الرجل، فنظر إليه

ص: 114

1- (1) الفصول المهمة للحر العاملى، باب إباحة الطيبات. [1]

المنصور نظرة منكرة. فحلف بها. فما كان بأسرع من أن ضرب برجله الأرض وخرّ ميتاً. فلما خرج الإمام لحقه الربيع وقال له: يا أبا عبد الله رأيتك تحرك شفتيك، وكلمها حركتها سكن غضب المنصور، بأى شيء كنت تحركها؟ قال: «بدعاء جدّي الحسين: يا عدّتي عند شدّتي، ويا غوثي عند كربتي، احرسني بعينك التي لا تنام، واكلفني بركنك الذي لا يرام، وارحمني بقدرتك علىّ، فلا أهلك و أنت رجائي، اللهم إنك أكبر وأجلّ وأقدر مما أخاف وأحذر، اللهم بك أدرا في نحره، وأستعيذ من شرّه، إنك على كل شيء قدير» (1). ويضيف المناوي إلى هذه الحادثة وهو يقول: وله كرامات كثيرة ومكاشفات شهيرة، منها ما أخرجه الطبري من طريق ابن وهب قال:

سمعت الليث بن سعد يقول: حججت سنة ثلاث عشرة ومائة، فلما صليت العصر، رقيت أبا قبيس، فإذا رجل جالس يدعو فقال: «يا رب يا رب» حتى انقطع نفسه، ثم قال: «يا حي يا حي» حتى انقطع نفسه، ثم قال: «إلهي إني أشتهي العنب فأطعمنيه، وإن بردى قد خلق فاكسني» قال الليث رضي الله عنه: فما تم كلامه حتى نظرت إلى سلّة مملوءة عنبا وليس على الأرض يومئذ عنب، وإذا ببردين لم أر مثلهما، فأراد الأكل، فقلت: أنا شريكك لأنك دعوت و أنا أؤمن. قال: «كل ولا تخبي ولا تدخر» ثم دفع إليّ أحد البردين، فقلت: لى عنه غنى، فأتزّر بأحدهما و ارتدى بالآخر، ثم أخذ الخلقين ونزل، فلقية رجل فقال: أكسني يا ابن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم فدفعهما إليه. فقلت: من هذا؟ فقال: جعفر الصادق (2). وهي لا شك من وحي الخيال الذي يرجون به أصفاء الواقعة على ما ينسبونه إلى أوليائهم و رجالهم، لأن الحال الذي تصوّر الرواية فيه الإمام الصادق بعيد عن شواهد حاله المعروفة، أو رغباته التي تدور في طاعة الله و مناجاته ربه فيما يهّم المسلمين و صالح الأمة. فإذا ما قارنّا بين الأحداث و هي تروى بطرقنا، و صورتها و هي تفرّغ في قوالب خاصة بهم، نجد أن الأمر فيما يتعلق بالإمام الصادق أو غيره من أئمتنا، يمثل لجوء الأئمة إلى الله فيما يهّمهم، و لو اذهب بقوته و عظمته. فلما قتل داود بن علي والى المدينة المعلى بن خنيس مولى الإمام الصادق الأثير عنده، هلك داود تلك الليلة، و أن الإمام الصادق قال في دعائه: «اللهم إني أسألك بنورك

ص: 115

1- (1) الشيخ الشبلخي، نور الأبصار [1] في مناقب آل بيت النبي المختار، [2] بتصرف بسيط. و انظر الكواكب الدرية. [3]

2- (2) الكواكب الدرية. [4]

الذى لا يطفى، وبعزائمك التى لا تخفى، وبعزك الذى لا يتقضى، وبنعمك التى لا تحصى، وبتسلطانك الذى كفت به فرعون عن موسى)» و دعا على داود حتى سمعوه يقول: «الساعة الساعة» فما استتم دعاءه حتى سمعت الصيحة فى دار داود (1).

وقد قلنا فى الجزء الثانى أن المنصور اقتضت سياسته عند اشتداد ملكه بأن يقضى على الإمام الصادق، واتخذ شتى الوسائل فى ذلك، فكم مرة يحضره للفتك به، وكانت سلامته فى تلك المواقف أعجوبة، لأن المنصور لا يتورع عن إراقة الدماء، ولكن عناية الله وعينه التى كانت ترعى الإمام دفعت عنه كيدته فى كل مرة كان المنصور ينوى بها الفتك بالإمام الصادق.

يحدثنا على بن مسيرة، قال: لما قدم أبو عبد الله على أبى جعفر، أقام أبو جعفر مولى له على رأسه، وقال له: إذا دخل جعفر بن محمد فأضرب عنقه. فلما دخل أبو عبد الله نظر إلى أبى جعفر وأسرّ شيئاً فى نفسه ثم أظهره: «يا من يكفى خلقه كلهم ولا يكفىه أحد، اكفى شرّ عبد الله بن على» فسلمه الله من شرّه واستجاب دعاءه (2).

و خلاصة القول، أن الإمام الصادق لم يكن يرى التصوّف أو يقصد تأييد ما ظهر من أفكاره فى عصره، بل ما رأته الصوفية وأولته وصبته فى قوالب أفكارها، هى معالم سيرة طاهرة عرف بها أهل البيت فى كل عصر كقادة للأمة وهداة وأئمة. فلذلك لما جاء قوم - ممن يظهرن التزهّد، ويدعون إلى التقشّف - إلى الإمام الصادق، كما رواها الحسن بن على بن شعبة الحرّانى الحلبي فى تحف العقول كان مما خاطبهم به الإمام الصادق عليه السلام «هاتوا حججكم» فقالوا: إن حجبتنا من كتاب الله. قال لهم عليه السلام: «فأدلوا بها فإنها أحق ما اتبع وعمل به» قالوا: يقول الله تبارك وتعالى يخبر عن قوم من أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم: وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَنَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ فمدح فعلهم. وقال فى موضع آخر: وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا فنحن نكتفى. فقال الإمام عليه السلام: «أخبرونى أيها نفر ألكم علم بناسخ القرآن من منسوخه، ومحكمه من متشابهه الذى فى مثله ضلّ من ضلّ وهلك

ص: 116

1- (1) الكافى ج 2 ص 557 [1] ط 2.

2- (2) الكافى ج 2 ص 561. [2]

من هلك من هذه الأمة؟» فقالوا: بعضه، فأما كله فلا. فقال لهم عليه السلام: «من هاهنا أتيتم، وكذلك أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أما ما ذكرت من إخبار الله إيانا في كتابه عن القوم الذين أخبر عنهم بحسن فعالهم، فقد كان مباحا جائزا ولم يكونوا نهوا عنه، و ثوابهم منه على الله، وذلك أن الله جلّ و تقدّس أمر بخلاف ما عملوا به، فصار أمره ناسخا لفعالهم، وكان نهى الله تبارك و تعالى رحمة للمؤمنين لكي لا يضربوا بأنفسهم و عيالاتهم، فهم الضعفة الصغار و الولدان، و الشيخ الفان، و العجوز الكبيرة الذين لا يصبرون على الجوع، فإن تصدّقت برغيفي و لا رغيف لي غيره ضاعوا و هلكوا جوعا، فمن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: خمس تمرات أو خمس قرص أو دنانير أو دراهم يملكها الإنسان و هو يريد أن يمضيها، فأفضلها ما أنفقه الإنسان على والديه، ثم الثانية على نفسه و عياله، ثم الثالثة على القرابة و إخوانه المؤمنين، ثم الرابعة على جيرانه الفقراء، ثم الخامسة في سبيل الله». ثم ساق عليه السلام جملة من أحاديث جدّه النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم و قال بعد أن رواها:

«فهذه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصدّقها الكتاب، و الكتاب يصدّقه أهله من المؤمنين، ثم من قد علمتم في فضله و زهده سلمان و أبو ذر، فأما سلمان فكان إذا أخذ عطاءه، رفع منه قوته لسنته حتى يحضره عطاؤه من قابل، فقليل له: يا أبا عبد الله، أنت في زهدك تصنع هذا و إنك لا تدري لعلك تموت اليوم أو غدا؟ فكان جوابه أن قال: ما لكم لا ترجون لى البقاء كما خفتم على الفناء، أو ما علمتم يا جهلة أن النفس قد تلتث على صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه، فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنت. و أما أبو ذر فكانت له نويقات و شويهاة يحلبها و يذبح منها إذا اشتهى أهله اللحم، أو نزل به ضيف، أو رأى بأهل الماء الذين هم معه خصاصة نحر لهم الجزور أو من الشاء على قدر ما يذهب عنهم قرم اللحم (الشهوة إلى اللحم) فيقسّمه بينهم، و يأخذ كنصيب أحدهم لا يفضل عليهم، و من أزهّد من هؤلاء و قد قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما قال، و لم يبلغ من أثرهما أن صاروا لا يملكان شيئا البتة، كما تأمرون الناس بالقاء أمتعتهم و شيئهم، و يؤثرون به على أنفسهم و عيالاتهم...

أخبروني لو كان الناس كلهم كما تريدون زهادا لا حاجة لهم في متاع غيرهم، فعلى من كان يتصدّق بكفارات الأيمان و النذور و الصدقات من فرض الزكاة، إذا كان الأمر على ما تقولون لا ينبغي لأحد أن يحبس شيئا من عرض الدنيا إلا قدّمه و إن كان به خصاصة، فبئس ما ذهبتُم إليه، و حملتم الناس عليه من الجهل بكتاب الله و سنة

نبيه، وأحاديثه التي يصدّقها الكتاب المنزل، أو ردّكم إياها بجهالتكم، وترككم النظر في غرائب القرآن من التفسير بالناسخ من المنسوخ و المحكم والمتشابه والأمر والنهي...» إلى أن يقول لهم عليه السّلام:

«فتأدّبوا أيها النفر بأداب الله للمؤمنين، واقتصروا على أمر الله ونهيه، ودعوا عنكم ما اشتبه عليكم مما لا علم لكم به، وردّوا العلم إلى أهله تؤجروا وتعذروا عند الله، وكونوا في طلب الناسخ من القرآن من منسوخه، ومحكمه من متشابهه، وما أحلّ الله فيه ما حرّم، فإنه أقرب لكم من الله، وأبعد لكم من الجهل، ودعوا الجهالة لأهلها فإن أهل الجهل كثير وأهل العلم قليل، وقد قال الله عز وجل: وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ».

وإذا كان المتصوّفة لا يتزحزون عن الخرقه في انتسابهم إلى الإمام على عليه أفضل الصلاة والسلام، فلا بد أن تكون سيرة زهده و معالمة ورعه من الأمور التي يتوهم بها المتصوفة أنهم يحجّون بها غيرهم حتى وإن كان ولده إمام الأمة و علم الهدى جعفر بن محمد الصادق عليهم السّلام فتكثر الروايات التي تدل على ذلك، وقد أشرنا إلى أن ما رواه الصوفية في باب الكرامات يبعد عن صفته في اللباس وأحواله في المعاش، ومن هذه الروايات: أن رجلاً قال للإمام الصادق عليه السّلام: أصلحك الله، ذكرت أن على بن أبي طالب كان يلبس الخشن، يلبس القميص بأربعة دراهم و ما أشبه ذلك، ونرى عليك اللباس الجيد؟ فقال له الإمام عليه السّلام: «إن على بن أبي طالب صلوات الله عليه كان يلبس ذلك في زمان لا ينكر، ولو لبس مثل ذلك اليوم لشهّر به فخير لباس كل زمان لباس أهله».

و على أي حال، فإن الإمام الصادق قد تزعم الحركة الدينية والفكرية في زمنه، وقاد أنصار العلويين عبر عهدين، واستطاع أن يواجه مشكلة الحكام بما يخفف عن العلويين أعباء التضحيات و سفك الدماء.

و كانت شخصية المصلح التي تمثّلت به عليه السّلام قد اجتمعت فيها مؤهلات كبرى و صفات عالية، جعلته يحتلّ تلك المكانة السامية و المنزلة المرموقة في

المجتمع، واحتل موقع القيادة والأعلمية؛ فاتجهت إليه الأنظار، وقصدته الوفود من كل الأمصار.

وقد شهد في حياته فترة من العصر الإسلامي اشتدت فيها التحولات السياسية ونمت فيها بذور التطورات الفكرية، واستطاع الإمام الصادق عليه السلام أن يقف في زحمة الأحداث ووسط تلك المعتركات على اختلاف صورها، ويترك آثاره في كل جانب من حياة المجتمع، ويؤثر في كل ناحية فكرية، فلا غرو أن تكون سيرته مصدر إلهام ومعين علم. أما إذا تحكّم الهوى وغلبت الرغبات، فلا عجب أن تخرج شواهد سيرته وأحداث حياته عن إطارها الحقيقي، وتصرف أقواله عن مقاصدها الأصلية، وأن تبرز عبر فترات متفاوتة ومتوالية آراء تبغى الإساءة، وتفضح مقاصدها وأغراضها.

ولا ننسى أن نذكر من يضاف إلى هؤلاء من المستشرقين (1) الذين بثوا سموم دعاواهم ونظرياتهم بين أبناء أمتنا، حتى أن البعض منهم عند ما يرى الجوانب العظيمة في شخصية الإمام الصادق، يحاول أن يرجعها إلى أصول يونانية. وهو قول نراه من السخف بحيث لا يستحق أي عناء في الرد.

لقد كان لأبي عبد الله الإمام جعفر بن محمد الصادق من البيان والحكمة ما جعله متميزاً في الفقه، ومنهج الوعظ، وخطة الإصلاح.

سئل أبو حنيفة: من أفتقه من رأيت؟ قال: ما رأيت أفتقه من جعفر بن محمد الصادق، لما أقدمه المنصور بعث إليّ فقال: يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهبيّ له من المسائل الشداد. فهيات له أربعين مسألة، ثم بعث إلى أبو جعفر - وهو بالحيرة - فأتيته، فدخلت عليه و جعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلني لأبي جعفر، فسلمت عليه وأوماً إليّ فجلست، ثم التفت إليّ فقال: يا أبا حنيفة. ألق عليّ أبي عبد الله من

ص: 119

1- (1) لم نخض في افتراءات المستشرقين على شخصية جابر بن حيان أبي الكيمياء وتلميذ الإمام الصادق عليه السلام وسلوكهم مختلف الوسائل للإساءة إلى أستاذ جابر وإمامه من تشكيك ونسبة إلى الصوفية أو الإسماعيلية أو إنكار وجوده وغيرها، وجميعها لم تؤثر على مكانة الإمام الصادق، واتصال جابر بمدرسته عليه السلام والتخرّج على يديه. ومن الجليّ أنهم استعظموا أن يكون في الإسلام رجل كجابر الذي أنكروا وجوده، فكيف لا - يهولهم أن يكون في تاريخنا من هو أعظم من جابر وصاحب فكر تخرّج عليه العلماء. راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب.



مسائلك. فجعلت ألقى عليه، فيجيني فيقول: «أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا» فربما تابعنا وربما تابعهم، وربما خالفنا جميعاً، حتى أتيت على الأربعين مسألة ما أخلّ منها بمسألة. ثم قال أبو حنيفة رحمه الله: ألسنا رويناً أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس (1).

وللإمام الصادق عليه السلام بناء بلاغى فى المواعظ يقوم على عوامل من الفقه والتصوير والبيان، ليجعل منها وسيلة للنفوس والأفهام، كتقوله عليه السلام: «التقوى على ثلاثة أوجه: تقوى بالله فى الله، وهو ترك الحلال فضلاً عن الشبهة، وهو تقوى خاص الخالص. وتقوى من الله، وهو ترك الشبهات فضلاً عن الحرام، وهو تقوى الخاص.

وتقوى من خوف النار والعقاب وهو ترك الحرام، وهو تقوى العام. ومثل التقوى كماء يجرى فى نهر، ومثل هذه الطبقات الثلاث فى معنى التقوى كأشجار مغروسة على حافة ذلك النهر من كل لون وجنس، وكل شجرة منها تستمص الماء من ذلك على قدر جوهره وطعمه ولطافته وكثافته، ثم منافع الخلق من تلك الأشجار والثمار على قدرها وقيمتها».

فكان هذا البناء البلاغى مادة للدعاء بتفسيرات صوفية للقرآن تنسب إلى الإمام الصادق عليه السلام تولّى إشاعتها والإقدام على وضعها الصوفى أبو عبد الرحمن السلمى (2) فى طبقاته، وفى حقائق التفسير.

ومن رجال الصوفية الكبار ممن صنفهم السلمى فى الطبقة الأولى كأبى يزيد البسطامى، من راح يتعلّق بمناسبة وبدون مناسبة بالاتصال بالإمام الصادق، ويزيد فى ذلك ويبالغ، كما راح أبو يزيد يأخذ أقوال الأئمة ليصوغها بألفاظه، وعلى الأخص أقوال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام منها: «عرفت الله بالله، وعرفت ما دون الله بنور الله».

وسئل: ما علامة العارف؟ فقال: أن لا يفتر عن ذكره، ولا يملّ من حقه، ولا يستأنس بغيره.

وهم أرادوا أن يقحموا الإمام الصادق فى حالاتهم، ويدّعون عليه زورا ما

ص: 120

1- (1) مناقب الإمام أبى حنيفة للموفق المكي ط 1 ص 173 ج 1.

2- (2) محمد بن الحسين بن موسى الأزدى النيسابورى المتوفى سنة 412.

درجوا عليه من الحلول أو التجسيم التي كان يغالى بها البسطامى، و من أخفها قوله:

إنه ضرب الخيمة محاذة العرش. وأنه يرى الله فى المنام، وأنه مرة جلس فى محرابه فمدّ رجله، فهتف به هاتف: من جالس الملوك ينبغى أن يجالسهم بحسن الأدب.

و حكى عنه أنه كان يقول: سبحانى سبحانى.

فيقولون أنه نقل عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه خرّ مغشيا عليه و هو فى الصلاة، فسئل عن ذلك، فقال: «ما زلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها» (1).

و إذا استعصى عليهم القول، ساقوه عن الإمام الصادق بنصه، ثم ألحقوا به إشارة أو بيانا يفيد ما يقصدون، كذكرهم قول الإمام الصادق: «لقد تجلّى الله تعالى لعباده فى كلامه، ولكن لا يبصرون». فيبينون بعد النصّ قصدهم بالقول: فيكون لكل آية مطلع من هذا الوجه، فالحدّ: حد الكلام، والمطلع: الترقى عن الكلام إلى شهود المتكلم! مما يوهم بالاعتقاد بالرؤية، والقول فى الله بمشابهته عز و جل للمخلوقات من حيث النظر إليه سبحانه كما ينظر الإنسان إلى جسم محدود، تعالى الله عن ذلك، و حاشا أئمة أهل البيت و أعمدة الهدى و نواب صاحب الرسالة من قول ذلك.

و السلمى من أكثرهم نقلا- للأقوال التي تنسب للإمام الصادق عليه السلام و هى تتراوح بين الإيغال فى الغوامض و الإشارات على طريقتهم المعهودة، و بين محاكاة الرموز، كذكره لقول الإمام عليه السلام الحمد لله: من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد، لأن الحمد حاء و ميم و دال. فالحاء من الوجدانية و الميم من الملك و الدال من الديمومة.

و لقد حسم الإمام الصادق عليه السلام هذه المسألة بقول يغلق أبواب التأويل و يفضح التقوّل و الادّعاء، إذ قال عليه السلام: «و الله لقد تجلّى الله عز و جل لخلقه فى كلامه، ولكنهم لا يبصرون». و نجد أن التعقيب على النصّ و الإشارات القائمة عليه غريبة و أجنبية لا تؤثر فى عقيدة التنزيه و ردّ التجسيم و التشبيه.

كذلك فإنهم فى النصوص ينتزعون ما يوافق هواهم و مقاصدهم و لا يذكرون النصّ بكامله، و لا يوردون القول بتفاصيله، فقوله عليه السلام الذى مرّ بنا و هو يرّد الآية جاء مبتورا، إذ حقيقة قوله: «ما زلت أردد الآية على قلبى، حتى سمعتها من المتكلم

ص: 121

1- (1) السهروردي، عوارف المعارف. و [1] الإحياء للغزالي ج 3 ص 520. [2]

بها، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته» أى أنه عليه السّلام كان يتدبّر في وجوه القدرة و جوانب العظمة و دلالة الوجود.

و عن أبى بصير عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: قلت له: أخبرنى عن الله عز و جل هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟ قال «نعم، و قد رأوه قبل يوم القيامة» فقلت:

متى؟ قال عليه السّلام: «حين قال عز و جل لهم: أ لست بربكم قالوا: بلى» ثم سكت ساعة، ثم قال عليه السّلام: «و إن المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة، أ لست تراه في وقتك هذا؟» قال أبو بصير: فقلت له جعلت فداك، فأحدّث بهذا عنك؟ فقال عليه السّلام: «لا، فإنك إذا حدّثت به فأنكره منكر جاهل بمعنى ما نقوله، ثم قدّر أن ذلك تشبيه كفر، و ليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين، تعالى الله عما يصفه المشبّهون و الملحدون».

كما أن الإمام الصادق كان يأمر أصحابه بمنع الزكاة عن من قال بالجسم.

إن التدقيق في أقوال الإمام جعفر بن محمد الصادق، و الإمعان في معرفة منهجه في الوعظ و الإرشاد، يؤدي إلى معرفة ما يرمى إليه الإمام عليه السّلام من إصلاح الأمة و توجيه الرعية بسبل واضحة و ألفاظ جلية، تستمد من القرآن و السنة معانيها و مضامينها، فليس للخيال الذى يفلت من النص أثر في جوامع كلمه عليه السّلام كما أنه عليه السّلام يتقيد بالنص و مناسبته أو علتة، لكى لا يدع للآخرين مجالاً يتذرعون به، فيتركون العنان لشطحاتهم و نزعاتهم تنال من أسباب التشريع أو تنحرف عن أغراض التنزيل ينتحلون ما يشاؤون.

و من حق الصوفية أن يثنوا على نظرية الإمام في المعرفة، و أقواله في التوبة و محاسبة النفس، لكن ليس من حقهم أن يجعلوا تراثه الفكرى مادة لبناء مصطلحاتهم و مباحثهم، فالإمام تناول كل ما يتعلق بسلوك المؤمن و علاقة المسلم بربه، و أوضح بمزيد من البيان كل ما يتعلّق بوجود المؤمن في مجتمعه، و علاقة المسلم بإخوانه، فليس هناك من أحاديث الصادق عليه السّلام المأثورة ما يشبه في صياغته و بنائه بيان الصوفية و صورهم و أخيلتهم، فمنها ما لدينا عن الشيخ الصدوق في معانى الأخبار، أن الإمام الصادق قال في قوله عز و جل: إهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ قال عليه السّلام:

«يقول: أرشدنا إلى الصراط المستقيم، أرشدنا للزوم الطريق المؤدى إلى محبتك و المبلّغ إلى دينك، و المانع من أن تتبع أهواءنا فنعطب، أو نأخذ بآرائنا فنهلك».

ولأن هذا القول مشهور لدينا وصحيح بسنده لا يكاد يذكر أو يأتي محرّفًا، مما يدل على أن أصل أقوالهم هو من نسج الخيال والتأثر بشخصية الإمام الصادق وعظيم منزلته في عصره. وكذلك غيره من تفاسير الإمام الصادق، والتي إما أن تكون بيانًا لدلالة المعنى وشرحًا للمفردات القرآنية التي تتعلّق بالقصد والإرادة. أو شرحًا لمناسبتها وحادثتها، كقوله عليه السّلام في قول الله عز وجل: لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَالِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ كَانَتِ الْمَرَاضِعُ، مما تدفع إحداهنّ الرجل إذا أراد الجماع تقول: لا أدعك، إني أخاف أن أحبل، فأقتل ولدي هذا الذي أرضعه. وكان الرجل تدعوه المرأة فيقول: إن أجامعك فيقتل ولدي. فيدعها ولا يجامعها، فنهى الله عز وجل عن ذلك، أن يضارّ الرجل المرأة، والمرأة الرجل».

وروى عنه عليه السّلام تفسيره لقوله تعالى: إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً قال عليه السّلام: «يعنى بقوله: وأقوم قِيلاً، قيام الرجل عن فراشه بين يدي الله عز وجل لا يريد به غيره».

وقال في قوله تعالى: وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَعْجِرُونَ «كانوا يستعجرون الله في آخر الوتر، في آخر الليل سبعين مرة».

أما غيرها كما في مورد تفسير قوله تعالى حكاية عن سليمان: يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ يورد المفسرون رواية الإمام الصادق عن جدّه الإمام زين العابدين عليهما أفضل الصلاة والسّلام قال: «إذا صاح النسر قال: يا ابن آدم، عش ما عشت آخره الموت.

وإذا صاح العقاب قال: البعد من الناس أنس. وإذا صاح القنبر قال: إلهي العن مبغض محمد وآل محمد. وإذا صاح الخطاف قال: الحمد لله رب العالمين، ويمد العالمين كما يمد القارئ (1) وقد أوردوا عن ابن عباس أيضا أن القنبر يقول: اللهم العن مبغض محمد وآل محمد (2).

ولا نعلّق على ذلك بشيء، لأننا في مقام إظهار منزلة أهل البيت، وأنهم ينبوع الأحكام ومناط الإيمان. فلا غرابة أن ينهل الناس منهم فيحلو المشرب ويصفو إذا كان في وعاء الولاية والولاء، وفي صحف الدراية والمعرفة فيقر منها ما كان موافقا

ص: 123

1- (1) انظر تفسير الخازن و [1] تفسير البغوي / [2] سورة النمل.

2- (2) المصدر نفسه ج 5 ص 111.

للأصول و متفقا مع بداهة العقول، و يغفل أو يهمل ما خالف الأحكام و ناقض العقول، و يشمل ذلك كل ما نسب إلى أهل البيت بغض النظر عن الصبغة و المذهب.

و لا نلتفت إلى من ينسب إليه حفظ التفسير و نسخته، و إنما يهمننا الادعاء بوجود تفسير صوفى للآيات لدى الإمام الصادق عليه السلام على طريقة أقوال الصوفية، و منهجهم فى تأويل النصوص و المغالاة فى الباطنية، و إلا فليخبرنا من يدعى علما، متى أضاف الإمام الصادق كلمة آمين فى نهاية الفاتحة حتى تصبح من جملة ألفاظ و مفردات سورة الفاتحة التى يذكرها التفسير فىقول: قال جعفر: [«آمين» أى قاصدين نحوك، و أنت أكرم من أن تخيب قاصدا]. لأن الشيعة فى صلاتهم لا- يجوزون قول آمين فى آخر الحمد و ذلك اتباعا لإمامهم جعفر الصادق و أهل بيت النبوة.

فمن المسائل الفقهية فى المذهب الجعفرى، أن لا- يصل الإمام و لا غيره قراءته «و لا الضالين» بآمين، لأن ذلك يجرى مجرى الزيادة فى القرآن مما ليس منه، و أن الإمام الصادق نهى عنها لأن اليهود و النصارى يقولون فى طقوس صلاتهم «آمين».

و قد تواترت عند غيرهم من المذاهب الإسلامية حتى أصبحت و كأنها من التنزيل، و هو ما كان يخشاه أئمة الشيعة، و تبهوا إلى عدم جواز ذكرها بعد قراءة الفاتحة لكى لا يسمعها الجاهل فىراها من التنزيل و هى ليست من التنزيل، فإن قال: «آمين» تأمينا على ما تلاه الإمام، صرف القراءة إلى الدعاء الذى يؤمن عليه سامعه، قال الإمام الصادق:

«إذا كنت خلف إمام فقرأ الحمد و فرغ من قراءتها، فقل أنت: الحمد لله رب العالمين و لا تقل آمين».

و كل ما وصلنا من تفسير عن الإمام الصادق فى مصادرنا المعتبرة، لا يتطرق إليه التكلّف الواضح لتحصيل صرف المعانى إلى ما يميل إليه الصوفية، و نرى أن الانتحال واضح و صريح، سواء من جهة النصوص نفسها و ما تدل عليه المقارنة، أو من جهة المصادر التى هى أدنى من الصوفية إلى الإمام الصادق و أوثق فى النقل عنه.

و من الملاحظة البسيطة للنصوص التى جاءت بطرقها الحسنة و إسنادها المعتبر يظهر الفرق بين النوعين.

ذكر الشيخ الطبرسى فى الاحتجاج: عن حفص بن غياث (1) قال: شهدت

ص: 124

---

1- (1) النخعي توفى سنة 194 هـ خرّج حديثه أصحاب الصحاح. انظر ترجمته فى الجزء الأول من هذا الكتاب.

المسجد الحرام و ابن أبي العوجاء يسأل أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى: كَلَّمَا نَضِيَ جَتَّ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ مَا ذَنْبُ الْغَيْرِ؟ قال: «ويحك هي هي، وهي غيرها».

قال: فممثل لي ذلك من أمر الدنيا.

قال: «نعم، أرايت لو أن رجلا أخذ لبنة فكسرها، ثم ردّها في ملبنها، فهي هي وهي غيرها».

وهذا في مورد الاحتجاج على الزنادقة. ورد أقوالهم ومحاولاتهم في الطعن والتشكيك، وهي تجمع الوضوح وعمق الدلالة.

أما الأقوال الأخرى للإمام في التفسير، فهي تظهر أموراً لا يلتفت إليها غير من تمتع بعلم خاص، والغرض هنا إيضاح المنهج في التفسير، و بيان بنائه في القول، لأن الأمر الأول يحتاج إلى بحث آخر. فقد سئل الإمام الصادق عن قول الله عز وجل في قصة إبراهيم عليه السلام: قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ قَالَ:

«ما فعله كبيرهم، وما كذب إبراهيم؟» قيل: وكيف ذلك؟ فقال: «إنما قال إبراهيم:

فاسألوهم إن كانوا ينطقون، فإن نطقوا فكبيرهم فعل، وإن لم ينطقوا فكبيرهم لم يفعل شيئاً، فما نطقوا، وما كذب إبراهيم عليه السلام».

وسئل عن قوله تعالى في سورة يوسف: أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنِّكُمْ لَسَارِقُونَ؟ قال:

«إنهم سرقوا يوسف من أبيه».

فسئل عن قول إبراهيم: فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ. فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ.

قال: «ما كان إبراهيم سقيماً، وما كذب، إنما عني سقيماً في دينه أي مرتاداً».

وفي قوله تعالى: إِنَّتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام: «يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر». إلى غيرها من الأقوال التي تفسر الآيات، وجميعها ليس فيها تعيين لحالات وأوضاع على حسب الخيال، أو تشبيه وتقريب إلى حد التجسيم والتحديد بالجهة، تعالى الله سبحانه، وحاشا أئمتنا الأطهار.

ولنلاحظ ادعاء التفسير الصوفي في آية: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَأَنَّ الْإِمَامَ الصَّادِقَ عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ: هل ينظرون إلا إقبال الله عليهم بالعصمة والتوفيق، فيكشف عنهم أستار الغفلة، فيشهدون بربّه و لطفه، بل يشهدون البار اللطيف.

وفي تفسير قوله تعالى: وَ طَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ: طَهَّرَ نَفْسَكَ عَنْ

مخالطة المخالفين، والاختلاط بغير الحق، والقائمين مع فؤاد العارفين، المقيمين معه على بساط الأُنس والخدمة. وَالرُّكْعُ السُّجُودُ: الأئمة السادة الذين رجعوا إلى البداية عن تناهي النهاية.

فجميعها من صور الأحوال لديهم، وصياغتها لا تختلف في شىء عن مقالات رجالهم، بل ما أبعدا عن أقوال الأئمة ومشاهد مناجاتهم لله، أو تضرعهم بين يديه بما لا يشعر إلا بالعبودية وتنزيه الله تعالى عن كل مشابهة بالمخلوقات، والتبرؤ عن أدنى ميل إلى الحلول أو الاتحاد أو التجسيم.

و لقد أوضحنا سابقا أن الإمام الصادق احتج على الصوفية في أمهات أفكارهم وأسس طريقتهم، ورأينا كيف ميّز موقفه، فقد يكون من بين الذين يدخلون عليه جماعة يرون في الذي عليه الصوفية متفقا مع عبادته ونسكه وأجواء الانقطاع لله التي يحسّونها في كل حركة وإشارة. و الإمام الصادق يدعو إلى أن يكون الإيمان والعمل شعار حياة المسلم، فلا تحول عبادة وأداء فريضة عن مسؤوليات الحياة العملية، وينزوي الناس عن حياة مجتمعهم وهي الصعيد الحقيقي للدعوة والبناء.

و نحن شيعة أهل البيت عليهم السلام وأصحاب المذهب الجعفري نعلم أن هناك من بين كتبنا ما فيه بعض الأقوال التي تدرج في التفسير أو تنسب إليه، وهي في حقيقتها أقوال تنطلق من واقع ولاء يأخذ الصورة التي تطلّ من وراء نص أو حديث، ويرفعها بوجه تيارات العداء والنصب التي لعبت في عقول خدم الحكام وعبيد الخلفاء، وعلى قلة هذه الأقوال أو ندرتها، فما أعتبر منها لا يخرج عن باعث الولاء لأهل البيت والتعبّد ببعض الصور المأثورة، كما قيل في: **مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (1)**. وليس هنا موضع بحث ذلك، فهو يحتاج إلى سعة في القول يوفى بالغرض ويوضّح الفرق بين قول لا- يقصد به إلا الصورة وليس الحال وأسباب النزول، وبين النحل أو الادعاء للاستفادة من موقع الإمام الصادق ومنزلته العظيمة في النفوس، وإن كدّا لا نفي وجود الحب والولاء لدى أهل الصوفية وميلهم إلى الإمام الصادق عليه السلام كما لا تقوتنا

ص: 126

---

1- (1) وهي مشهورة بسندها عن ابن عباس، ولم يختص بإيرادها الشيعة وحدهم، بل علماء السنة أيضا كالخوارزمي. وهي تشبيهات يساعد عليها اللفظ، وقد أدّت سياسات النّصب و حملات العداء لآل البيت إلى الاستشهاد بها وذكرها محرّفة.

الإشارة إلى وجود محاولات لإدخال التعابير الصوفية في العقائد الشيعية وفي مجال التفسير، وهي قائمة على أساس واضح من فهم عقائد أهل البيت وأحكامهم، لذلك فهي لا تتعدى استعارة الألفاظ الصوفية و استعمالها في الكتابة بسبب من الاتجاه والسلوك في الحياة، والرغبة في الزهد الظاهر والتشّف الغالب، وهي محاولات تفسيرية متأخرة رأت في اتجاهها وسلوكها ما يجمعها مع مفاهيم التصوّف و صيغه التعبيرية، ولكنها تعتمد عقائد الإمامية ركنا و أساسا يضبط استعمالها في الكتابة مما ينسجم مع بيئات الزهد في خراسان و المشرق، و التي قامت على أساس جهاد النفس و قمع هواها تزكية، لها لتكون أهلا لمعرفة الله و حمل رسالة الإسلام و أحكام المصطفى الهادي صلّى الله عليه و آله و سلّم و هو الأساس الذي يمكن أن يعزى إليه، و يوافق القبول روح الزهد في الدنيا و العزوف عن ملذّاتها و زخرفها، و الإقبال على الآخرة بالطاعات و العمل الصالح من دون انقطاع عن وتيرة الحياة و مسلك العيش و البقاء في صميم المجتمع.

و نورد بعض أقوال تفسير الإمام الصادق المعروفة بطرقها من مختلف المذاهب الإسلامية، كقوله عليه السّلام: «نحن جبل الله الذي قال الله فيه: **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا**». لأن الإمام الصادق عليه السّلام تبوء موقع الإمامة في ذلك المنعطف الحاسم الذي يشهد غليان الأطماع و تكالب الناس على الدنيا، و اتجاههم إلى الحكام، فكان عليه أن يواجه ذلك بنهجه في توحيد صفوف الأمة و جمعها حول ما يمثل روح القرآن و رسالة محمد صلّى الله عليه و آله و سلّم و يصون كيانها من سيوف الظلمة، و حرّمت المؤمنين من تعدّيات الحكام و عقائد الأمة من انحرافات القصور.

لقد كان عليه السّلام يوجّه الناس في ضوء الأحداث، و يوصي أصحابه بما عليهم أن يقوموا به، و قد يصل به الأمر إلى أن يطلب من أصحابه أن يعتزلوا لأمر يخشى منه إما من جور أو فساد كما في وصيته لحفص بن غياث: «إن قدرت أن لا تخرج من بيتك فافعل، فإن عليك في خروجك أن لا تغتاب و لا تكذب و لا تحسد و لا ترائي و لا تتصنّع».

و يجعل الناس على ثقة من زوال البلوى السياسية، و يتخذ من سلاح الدين وقاية، إذ يقول لسفيان الثوري (1): «إذا أحزنك أمر من سلطان أو غيره فأكثر من: لا

ص: 127

1- (1) الكوفي. ثقة و حافظ و فقيه و حجة. توفي سنة 161 هـ مرّت ترجمته في الجزء الأول.



إن الإمام الصادق يقيم سلطته الروحية على نصوص من القرآن، يسوق تفسيرها ويجهر بها، وقد كانت من أعظم الأخطار التي هددت الأمويين والعباسيين.

ولكنه عليه السلام يعلن مقاصد الشريعة، ويحرص على إظهار تفاسير النصوص التي تلاعب بها موالى الحكام وأذئاب الولاية في كل عهد ومرحلة. دخل عليه الحسن بن صالح بن حي فقال له: يا ابن رسول الله، ما تقول في قوله تعالى: أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ من أولو الأمر الذين أمر الله بطاعتهم؟ قال «العلماء» فلما خرجوا قال الحسن: ما صنعنا شيئاً، ألا سألناه من هؤلاء العلماء؟ فرجعوا إليه فسأله، فقال:

«الأئمة منا أهل البيت».

ونستظهر من تفسير الإمام الصادق أن معتمده في إمامته، ومنزلته الروحية نص صريح يفصح عنه الإمام الصادق بكل ثقة وقدرة، وهو في سلطانه الروحي هذا غير منازع، فقد أعجز السلطة حصر تأثيره أو حجزه عن الناس، وقد كان من متطلبات خطته في الإصلاح وقيادته العمل ضد الجائرين. أن يكون منهجه واضحاً وقويماً وسهلاً، حتى أصبح من الممكن التفريق بين ما صدر عنه وما أسند إليه من غير صحة تحت تأثير مختلف العوامل. وأقوال التفسير المروية عن الإمام الصادق كثيرة جداً، ولا نجد في ما نقل منها - خلا ما تقول الصوفية - بعداً عن دلالات المعنى والأغراض القرآنية كقوله عليه السلام في تفسير قول الله عز وجل: فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ: «إن الله سبحانه يقول للعبد يوم القيامة: عبدي أ كنت عالماً؟ فإن قال نعم، قال له سبحانه: أ فلا عملت بما علمت؟ وإن قال: كنت جاهلاً، قال له سبحانه: أ فلا تعلمت حتى تعمل».

وأيضاً ما في الكافي: قال عليه السلام: «إذا أراد الله بعبد شراً، فأذنب ذنباً اتبعه بنعمة، لينسيه الاستغفار. و يتمادى بها وهو قوله: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ بالنعم عند المعاصي» ثم قال عليه السلام في الاستدراج: «هو العبد يذنب الذنب، فيملى له، ويجدد له النعم، فيلهيه عن الاستغفار عن الذنوب، فهو مستدرج من حيث لا يعلم».

و خلاصة القول، أن منحى التفسير الصوفي يوافق رغبات أصحابه في ظروفها كما يوافق اليوم أصحاب النظريات التي تبحث عن أصول العقائد الحلولية ومصادرها

اليهودية والمسيحية، فتأتى نسبة التفسير الصوفى زورا ليتلقفها الذين فى قلوبهم زيغ وأمراض، ويستمدوا منها أقوالهم فى الطعن بعقائدنا و  
أئمتنا. و لو تحلّى البعض بيسير من قيم الأمانة، لما نازعوا الأمر أهله، ولأخذوا ببينة دامغة وشواهد ناصعة، إن لم يناد بها الشيعة فإن كتبهم  
تصرخ فى نفيها ودحضها، وإذا قبلنا من المتصوفة حب آل البيت، فلا يقبل أحد-يحرص على الإسلام و ملته-أن يمدّ الأعداء بما يشفى  
غليلهم وضغينتهم، ويجعلوا من آل بيت النبي و عترته-و هم عدل الكتاب-غرضا لأعداء الدين و المستشرقين.

و يجمع هؤلاء ما انتحله المتصوفة إلى أفانين الغلاة و أقوالهم، ليقيموا و همهم و آراءهم على أحاسيس و تخيلات تبعد عن واقع الأئمة، فإن  
النظرة المتزنة و الاطلاع على تاريخ الشيعة و عقائدهم، يكشفان عن الفروق و الاختلافات، و إن التعميم بتأثير عدم التمييز ما هو إلا افتراء  
محض و خيانة للأمانة التاريخية التى يجب أن يتحلّى بها المختص إن كان من غير أهل الإسلام، و خيانة للأخوة الدينية إن كان من أهل  
الشهادة.

فيجمعون نصوص المتصوفة فى الحلول و الاتحاد إلى نصوص الفرق الأخرى التى يتجاهلون اختلافها فى العقائد عن الشيعة، و ينمقون  
التّهم، و هى على هذا النمط الذى قدمناه كثيرة. و غيرها من الكتب الأخرى لغير المتصوفة من الفرق الأخرى، كالنصوص التى تجدها  
موضوعة على لسان الإمام الصادق عليه السّلام برواية المفضل الجعفى، نذكر منها هذه النبذة القصيرة:

قال المفضل:

أخبرنى يا مولاى عن قصة الحسين كيف اشتبه على الناس قتله و ذبحه كما اشتبه على من كان قبلهم فى قتل المسيح؟ قال الصادق: يا  
مفضل، هذا سرّ من أسرار الله، أشكله الله على الناس، فعرفه خاصة أوليائه و عباده المؤمنون المختصّون من خلقه...

إن الإمام يدخل فى الأبدان طوعا و كرها، و يخرج منها إذا شاء طوعا و كرها، كما ينزع أحدكم جبته و قميصه بلا تكلف و لا ريب... (1).

إلى آخر ما فى الكتاب من أقوال باطنية نسجتها الخيالات، و أدّت إليها ظروف

ص: 129

و أوضاع الحركة الباطنية التي سمحت لنفسها بالتغذى من الأوهام، والابتعاد عن جوهر أفكار الإمام الصادق و تعاليم أهل البيت، فاستقبلها أعداء الإسلام ليحكموا على حركة التشيع و ما قدمه الشيعة عبر التاريخ من خلال نصوص الآخرين المختلفة، و لم يحكموا العقل، بل غلبهم الحقد و الهوى. غير أن من نواميس الحياة و سنن الكون بأن يعمل العقل و يطلق، فإن عطل في فترات، و فرضت مصالح الحكام أن يقمع الشيعة و تكبل اتجاهات النظر و التدبر، فليس للشذوذ عن النواميس و السنن بقاء. و لذلك فمن حق كل نص ناقض العقل أن يرد أو يهمل، أما التي تخالف الأصول فشانها أخطر و أعظم.

و مما قدمناه من تقاسير مأثورة، و بطرقها المعتمدة توضح لنا نهج أهل البيت، و طريقة الإمام الصادق عليه السلام في بيان وجوه النص و تفسير القرآن، و إذا ما ورد استشهاد بآي من القرآن في موارد تعين أحوال الأئمة من أهل البيت، فإن المعروف منها بأنها نزلت في حق أهل البيت، و لم يشك فيها إلا- من أفسد قلبه المرض، و شوه عقله الزيف، فراح لا يأبه بأقوال الحق و بالإذعان للصدق، حتى و إن كانت من غير الشيعة، بل غلبه التعصب و صرعه النصب، فأدى به جهله إلى الإنكار، و عناده إلى الافتعال، و ما نراه إلا من سلالة الذين ارتوى سيف الإمام على من دمائهم، و اختص بقطع أعناقهم، أو من الذين أعمى الله بصيرتهم؛ فضلوا و حبطت أعمالهم.

أما تلك الجوانب من أحوال أهل البيت عليهم السلام التي تروى عن الإمام الصادق، فإنها تقوم على التشبيه و التمثيل الذي لا يمنع منه مانع، سيما و أن وجوه الشبه ظاهرة، و أمارات التقارب واضحة، فإن من لم يقرّ بولاية على بن أبي طالب أو ينصب له العدا، ليس أصدق من وصف حاله بأنه: بطل عمله مثل الرماد الذي تجيء الريح فتحمله. و هو أخذ من الآية الكريمة: **مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ لَتَصْوِيرِ الإِحْبَاطِ.**

و صفوة القول أن دعاوى الاتجاه الصوفى أو صدور التفسير الذي يتعلق بهذا الاتجاه ما هي إلا تأولات بعيدة بنيت على ظاهر اختص به أهل بيت النبي الأطهار و هو في حدود واقعهم و حياتهم اليومية يقوم على أساس من القرآن و الإيمان، و لكن أصحاب الاتجاه الصوفى أخذوا ظواهر التقشف و الزهد في سير أهل البيت و التي تعنى التهيؤ لأعباء المهمات الدينية، و الاستعداد لتحمل الرسالة، و مواجهة الحياة على

أساس خصائص الوصاية و خصال الإمامة، لا الانقطاع و الاعتكاف الذى تميّز به التيار الصوفى. و لا نذهب بعيدا فنورد ما جاء فى بعض الروايات التى تنص على تبرؤ الإمام الصادق من دعاوى هذه الجماعة، إلا أنه عليه السّلام يشير إلى أنه «سيكون منهم أقوام يدعون حبنا، و يميلون إلينا، و يتشبهون بنا» و يحذّر من ذلك. و كذلك وردت بعض الروايات عن أبنائه الطيبين الأئمة الميامين و الأوصياء من بعده، إذ كان اتجاه التصوّف يتّسع و هو يتّخذ أوصاف العزلة، و يجعل له مظاهر مفتعلة، فيما كان الأئمة من أهل البيت فى مراحل حياتهم يواجهون أوضاع الأئمة، و يضطلعون بأعباء الإمامة و الحفاظ على بقاء نهج الحق و الصدق بطرق من الاتجاه إلى الله و الاعتماد على تسديده و الانقطاع إليه، تجعلهم موضع خطر يتهدد عروش الطغاة.



نعود مرة أخرى إلى الحديث عن أئمة المذاهب لاستكمال جوانب البحث عن حياتهم، وقبل البدء في الحديث عن شخصيات أئمة المذاهب، لا بد من القول أن لكل شخصية من شخصياتهم مقوماتها وميزاتها الخاصة، ولكل منهم سيرة يهتزّ فيها الواقع وتغمر فيها الحقائق أمام الغلو أو التطرف في العدا، شأنهم شأن كل ما يرتبط بفترات الانقسام والاختلاف. لذا أصبح البحث عن حياتهم يتّصف بالصعوبة والتعقيد، ولكننا حاولنا أن نستخرج شخصياتهم في إطارها العلمي و ظرفها التاريخي دون التأثير بموجات الغلو أو العدا. فهم في مواقعهم ومراكزهم الحقيقية والواقعية لم يكونوا بحاجة إلى مثل هذه التيارات لو أن عناصر الفتنة والعداء تعاملت مع سلوكهم وسيرهم ومآثرهم تعاملًا نزيها ينبع من الحرص على الإسلام، والالتزام بمبادئ الإخاء في الدين، والمحافظة على وحدة الأمة. ولكننا رأينا فيما مرّ كيف عملت المصالح على دفع الأمة إلى أوضاع سيئة، فتفرّق الشمل، وتمزّق الجمع، واختلطت الأغراض، والحكام وراء ذلك يتابعهم أقوام غلب عليهم التعصّب وتحكّمت فيهم الأهواء.

وحقًا إنها لأحداث مؤسفة ينزف لها القلب دما، وقد حكم الدين والتاريخ أن الجهل آفة، ومن الجهل أن يتحكّم العدا في نفوس أهل الإسلام ودين الإخاء والوحدة، وكلنا أمل أن تكون الاستجابة إلى داعي الحق ونبد التعصّب ومظاهر الجهل الأخرى خاتمة لعهود الانقسام، ونهاية لأغراض الحكام.

وقبل البدء في البحث عن أئمة المذاهب، لا بد من الإشارة إلى أمر مهم ما زلنا نعاني من نتائجه وآثاره، وقد رأينا في موضوع البدع والضلالات كيف أطلقت

و تبودلت من غير دليل واضح، ودون وجود سبب معلوم خروجه على السنة، أو ما علم من الدين بالضرورة، ومن التفاصيل التي أوردناها علمنا أن المذاهب قد شملتها حرب الاتهامات، وكان الشيعة دون هذه المذاهب في أتون الفرقة والانقسام، يتألب الحكام ضدهم، ويوجهون إليهم سيوفهم، وقد مرّت السنون وتعاقبت القرون، فإذا الحكام ما زالوا يرون في الشيعة خطراً، ويؤلبون عليهم المذاهب الأخرى، فيبذلون الأموال الطائلة، ويستأجرون الأفلام الرخصية. ولو لا مصالح المتحكّمين لرأينا أن الروح الإسلامية التي تجمّعنا إلى إخواننا في الدين ونعيشها في حياتنا اليومية وفي المحافل واللقاءات، وما تقود إليه نظرة الحق والإنصاف من علاقات تستهين ببعده الديار، وتناهي الأقطار هي الغالبة. وقد عشت علاقات من الودّ والإخاء تجمّعني مع إخوان علماء ومختصين في الأقطار الإسلامية، كان سبب تعارفنا هو تبادل الرأي والمناظرة الحرّة، وكم واجهت حروبا من الجهلة المتعصبين الذين تحجّروا وأغلقوا على أنفسهم منافذ الرأي وطريق التدبّر.

ولا نريد هنا أن نهمل ذكر الدوافع الأساسية على نهجنا في العرض لأئمة المذاهب، فنحن نعتزف بالمكانة العلمية والمنزلة التاريخية لكل منهم، ونجهد في إبراز جوانب حياتهم، والتي تكشف لنا أن أئمة المذاهب بعلمهم ودينهم لم يباشروا بأنفسهم العداة للشيعة، ولم يسهموا في إقامة العداة بين المذاهب، فإن حدث اختلاف في الرأي فهو في مجالس العلماء وأصحاب الشأن، يتم بتقاليد المناظرة وطرق الاحتجاج ويبقى الحكم للحق. كما أن أئمة المذاهب لم يعرف عنهم بعدّ يؤدي إلى العداة، بل كانوا ما بين متلق مباشرة عن الإمام الصادق، أو متعلم من مدرسة أهل البيت وفقههم، وممن لا يتجاهلون مكانة الصادق وأهل بيته. وقد كان للحكام أثرهم في اتجاهات الناس ومشاعرهم، فيما كان الإمام الصادق يتمتع بذلك السلطان الروحي، ويقوم بأعباء الرئاسة الدينية في إمامته.

ورأينا بعد هذه الفترة من الانقطاع بين صدور آخر جزء من الكتاب وصدور الجزء السابع والثامن، أن نجعل كل جزء يتضمّن بحثاً عن حياة إمامين من أئمة المذاهب.

ونبدأ بالبحث عن حياة الإمام أبي حنيفة:

:

ذكرنا في الجزء الأول من كتابنا بعضاً من جوانب شخصية الإمام أبي حنيفة وعوامل شهرته، ويواجه الباحث في ذلك أكثر أنواع الإعجاب وأشد أشكال العدا. فقد أطلق عليه أنصاره كل ما يخطر ببال من مفردات الإطراء والإعجاب، فرفعوه إلى مستوى الأنبياء، وفوق درجة الأولياء. بينما هبط خصومه بشخصيته إلى مستوى الدون، فجزّده من كل فضيلة، وسلبوه كل ما يؤهله لمنزلة علمية أو مكانة دينية.

ونحن في خضم هذه التناقضات، نستخلص شخصية النعمان كرئيس مذهب وصاحب مدرسة، لنكشف بعض العوامل التاريخية التي بقيت مهملة عن قصد، أو لم تتضح للكثيرين ممن تصدّوا للبحث، ولم يتمثلوا عناصر التاريخ أو يستوعبوا طبيعة الظرف.

والإمام أبو حنيفة من أقرب الناس إلى أهل البيت، وأكثر أئمة المذاهب اتصالاً بالإمام الصادق عليه السلام ولقد انعكس ذلك بآثاره الواضحة في أفكاره ومواقفه.

وما كان الإمام أبو حنيفة ليظهر في نظر البعض بعيداً عن أهل البيت لو لا نظرة المنصور السياسية. ومحاولته التأثير في مواقف أبي حنيفة وتصرفاته، والاستفادة من علمه في التأثير على مكانة الإمام الصادق عليه السلام ودفعه إلى خط العدا لآل البيت.

ولقد مرّ أبو حنيفة بظرف يقرب من المحنة، استطاع أن يجتازها، وأن يحمي نفسه من عذاب الحكام ولذعات عنفهم.

تمتع أبو حنيفة بشهرة تضافرت على قيامها عوامل كثيرة، أهمها قدرته في القياس، واستطاع أن تكون له مدرسة متميزة هي التي خدمت شخصيته، وعملت على شهرته ورفع مكانته، فقد كان أبو حنيفة محور دائرة الخلافات بين أهل الرأي وأهل الحديث، إذ عرف بالرأي وكثرة القياس، مع قلة العمل بالحديث، وقد اشتهرت مدرسته بذلك، ولقيت معارضة شديدة من حملة العلم وأهل الحديث لاقترانها بالرأي والقياس.

و سار أصحاب أبي حنيفة على رأيه، وطبقوه فيما عرض لهم من مسائل. وقام



تلامذته بنصرة مذهبه، و في طليعتهم القاضي أبو يوسف، و بواسطته نالت المدرسة شهرة واسعة. إذ كانت بيده تولية القضاة، و هو بمنزلة وزير العدل في العصر الحاضر فهو لا يولّى إلا من كان على مذهبه. كما قام جماعة بنصرة المذهب و نشره، منهم:

زفر بن الهذيل، و محمد بن الحسن الشيباني، و الحسن بن زياد اللؤلؤي. و غير هؤلاء من أهل العراق الذين عرفوا بأهل الرأي كابن سماعه، و عافية القاضي، و مطيع البلخي و بشر المريسي... و منشأ تسميتهم بأصحاب الرأي، هو أن عنايتهم بتحصيل وجه القياس و المعنى المستنبط من الأحكام و بناء الحوادث عليها، و ربما يقدّمون القياس الجلي على أخبار الآحاد كما اشتهر عن أبي حنيفة أنه قال:

علمنا هذا رأى، و هو أحسن ما رأينا، فمن قدر على غير ذلك فله ما رأى و لنا ما رأينا (1).

و جاء عن أبي يوسف أنه قال قبيل وفاته: كلما أفتيت به؛ فقد رجعت عنه (2).

و جاء عن أبي حنيفة أنه قال لأبي يوسف: ويحك يا يعقوب لا تكتب كلما تسمع مني، فإنني قد أرى الرأي اليوم و أتركه غدا، و أرى الرأي غدا و أتركه بعد غد (3).

و قد اشتهر عن أبي حنيفة قوله: لا يحلّ لمن يفتي من كتبي أن يفتي حتى يعلم من أين قلت (4). و في رواية: حرام على من لا يعرف دليلي أن يفتي بكلامي. و قد زيد في رواية قوله: فإننا بشر نقول القول اليوم و نرجع عنه غدا.

و لقد تشدد أبو حنيفة في الحديث، و كان لذلك أسبابه، إذ إن تلك الفترة قد شهدت موجات الوضع في الحديث، و لكي يضمن أصحاب المسائل القبول، كانت فتاواهم تساق إلى الناس بصيغ الحديث بالنص أو بالمعنى أو بغيرها من الطرق التي شاعت، فأصبح الكذب على الرسول الأعظم سهلاً و تكسّب به لإرضاء الحكام، و وضع الأحاديث وفق أهوائهم حتى بلغ الأمر حداً يثير سخيرية الحكام، كما يشير

ص: 136

1- (1) فريد وجدى، دائرة المعارف ج 4 ص 156.

2- (2) شيخ الأمة لسيد الأهل ص 138.

3- (3) الاجتهاد و المجتهدون ص 102.

4- (4) الانتقاء لابن عبد البر ص 145.

الأذى فى نفوس المؤمنين (1). و كان أبو حنيفة لا يرى أن يروى الحديث إلا ما حفظه عن الذى سمعه منه، و هى رواية أبو يوسف. أما رواية أبو حمزة فبعضها: سمعت أبا حنيفة يقول: إذا جاء الحديث الصحيح الإسناد عن النبى عليه السّلام أخذنا به، و إذا جاء عن الصحابة تخيرنا، و إن جاء عن التابعين زاحمناهم و لم نخرج عن قولهم. و فى أخرى: و ما جاءنا عن أصحابه رحمهم الله اخترنا منه و لم نخرج عن قولهم، و ما جاء عن التابعين فهم رجال و نحن رجال (2). و الأخيرة أقرب إلى حقيقة موقف أبى حنيفة و أخذه بالرأى.

و قد توافر لمدرسة أبى حنيفة أنصار عملوا بالرأى و أخذوا بالقياس، و أعلنوا اختلافهم عن أهل الحديث. فاشتهرت مدرسة الرأى، و ارتبطت باسمه و تزعم تيارها.

و لأن تلامذة أبى حنيفة و أنصاره كانوا من النشاط و الفعالية بالدرجة الملحوظة: فقد استقرت مدرسة الرأى و انتشرت فى العراق.

و هناك خلاف حول الشخص الذى أرسى دعائم مدرسة الرأى و أعلى بنائها؟ هل هو إبراهيم، أم حمّاد؟ و يذهب بعضهم إلى القول بأن مؤسسها هو الخليفة عمر بن الخطاب. فيقول أحمد أمين: و كان حامل لواء هذه المدرسة عمر بن الخطاب، و أشهر من سار على طريقته عبد الله بن مسعود فى العراق، فكان يتعشق عمر و يتعجب بآرائه. و جاء فى أعلام الموقعين: أن ابن مسعود كان لا يكاد يخالف عمرا فى شىء من مذاهبه.

و قد انطوى عهد عمر إلى أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعري على إشارات تحضّ على القياس عند ما قال: الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب و لا سنة، ثم أعرف الأشباه و الأمثال، و قس الأمور عند ذلك، و أعمد إلى أشبهها بالحق.

ص: 137

1- (1) نضرب مثلا- بأبى البخترى و غيره ممن جاء بعده فى مسألة إقبال خلفاء بنى العباس على تطيير الحمام. دخل أبو البخترى على هارون و هو يطير الحمام، فقال له: تحفظ فى هذا شيئا؟ فقال: حدثنى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: أن النبى صلّى الله عليه وآله و سلّم كان يطير الحمام. و يأتى غيره فيضع بلا حياء حديثا على لسان النبى الأعظم بإضافة «جناح» إلى حديثه صلّى الله عليه وآله و سلّم: لا سبق إلا فى خف أو حافر. ليرضى خليفة آخر من بنى العباس.

2- (2) الانتقاء لابن عبد البر.

و مع أن صحة هذا العهد موضع نظر، إلا- أنه من أكبر دعائم القول بقدم الرأى عند القائلين به، رغم أن الطرف الآخر ينسب إلى عمر قولاً يعارضه.

وقال الشعبي: كان عبد الله لا يقنت، و لو قنت عمر لقنت عبد الله (1) و يظهر من هذا أن عمر كان يعمل بالرأى، و هو مؤسس هذه المدرسة، و سار عبد الله بن مسعود على منهجه، فكانت فتواه هى فتوى عمر بن الخطاب، فالرأى متحد.

أخذ أبو حنيفة العلم عن حمّاد بن سليمان، و أخذ حمّاد عن إبراهيم النخعى، و أخذ إبراهيم عن علقمة بن قيس، و علقمة هو تلميذ ابن مسعود، فكان إبراهيم لا يعدل بقول عمر و ابن مسعود، و إذا اجتمعا كان قول عبد الله أعجب لأنه كان أطف.

و من هذا اشتهرت مدرسة الرأى فى العراق لأن عبد الله بن مسعود كان قد أقام فى الكوفة مدة من الزمن، و كان يفتى الناس و يحدثهم.

قال أبو عمر الشيبانى: كنت أجلس إلى ابن مسعود حولاً لا يقول: قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فإذا قالها استقلت الرعدة (2).

فإذا كان إبراهيم أزم لأقوال ابن مسعود، فأبو حنيفة كان يلازم أقوال إبراهيم و أقرانه، و لا يجاوز إلا ما شاء الله، و كان عظيم الشأن فى التخريج على مذهبه، دقيق النظر فى وجوه التخريجات. و إذا أردت أن تعلم حقيقة ذلك، فلخص أقوال إبراهيم من كتاب الآثار لمحمد، و جامع عبد الرزاق، و مصنف أبى بكر بن أبى شيبة، ثم قايسه بمذهبه؛ تجده لا يفارق تلك المحجة إلا فى مواضع يسيرة، و هو فى تلك الموارد اليسيرة لا يخرج عمّا ذهب إليه فقهاء الكوفة (3).

و لقد أعلنت المدينة غضبها على أهل الرأى و بالأخص الكوفة و العراق بصورة عامة، و من شدة الصراع و تقاوم الخلافات، تحامل حملة الآثار على أهل العراق.

فقالوا بعدم علمهم بالحديث، الأمر الذى ألجأهم إلى التمسك بالرأى و العمل بالقياس.

ص: 138

1- (1) فجر الإسلام ص 240 ط 7.

2- (2) نفس المصدر السابق.

3- (3) ولى الله دهلوى، رسالة الإنصاف. و دائرة المعارف، فريد و جدى ج 3 ص 206.

وقد صدرت عن مالك بن أنس ألفاظ تعبر عن عمق التأثر، فقد قيل عنه أنه قال: أنزلوهم- أى العراقيين- منزلة أهل الكتاب، لا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد (1).

ودخل عليه محمد بن الحسن الشيباني فسمعه يقول هذه المقالة، ثم رفع رأسه فقال للشيباني: يا أبا عبد الله، أكره أن تكون غيبة، كذلك أدركت أصحابنا يقولون.

وكان مالك إذا نظر إلى أصحاب الرأي من العراقيين يقرأ: تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ (2).

وكان يسمى الكوفة: دار الضرب. يعنى أنها تضع الأحاديث وتخرجها كما تخرج دار الضرب الدراهم والدنانير.

وقال عطاء لأبي حنيفة: من أين أنت؟ قال: من أهل الكوفة.

قال: أنت من أهل القرية الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاء؟ وإن صدور أمثال هذه الأقوال من رجل كمالك بن أنس- الشخصية الدينية و السياسية فى آن واحد- لها أثرها، وإن شيوع أشياء كهذه لها نتائجها الخطيرة التى تستلزم حشد الجهود و تعبئة القوى لردّ خطر ما ينجم من ورائها من تفاعلات. فكانت مقابلات حادة و مواجهات تتصف بالعنف و الخروج عن قواعد المساجلات العلمية.

وقد كانت شهرة أصحاب الرأي سريعة، استطاعت أن تكون يازاء مدرسة الحديث بتاريخها و مواقعها، و لما كان أبو حنيفة ينتقى أصحابه و يختارهم فيتعاهدهم بالرعاية و العناية كاختياره لأبي يوسف و رعايته للآخرين، لذا فقد تأثروا به غاية التأثر، و أصبحوا متفرغين لتطبيق منحنى الرأى و الدفاع عنه.

كما كان أبو حنيفة يشجع الجدل بين تلامذته، و يتركهم يتبادلون الأقوال و الحجج، و قد يستغرق ذلك وقتاً طويلاً فى جلسة واحدة و بإشراف أبى حنيفة. حتى نبغ تلامذته، و كانوا من أعمدة القياس، و أصبحت صورة حلقة أبى حنيفة فى أذهان الناس تتكون من أجزاء بعضها يكمل بعضها، حتى قال وكيع لرجل قال أخطأ أبو

ص: 139

1- (1) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله ج 2 ص 157. [1]

2- (2) ضحى الإسلام ج 2 ص 152.

حنيفة: كيف يقدر أبو حنيفة أن يخطئ و معه مثل أبي يوسف و زفر في قياسهما؟ (1).

ولكن الأمر في المدينة غيره في العراق، فقد كانت الصورة تظهر أبا حنيفة و هو يقود حركة القياس. فيروى عن الشافعي رحمه الله أنه قال: قيل لمالك بن أنس: هل رأيت أبا حنيفة؟ قال: نعم، رأيت رجلا لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لتمام بحجته.

لقد بلغ أبو حنيفة من حضور الذهن و توقّد الذكاء مستوى جعله يتغلب على منافسيه بطرقه و قياسه، كابن أبي ليلى، الذي كان اختلافه معه في المسائل مادة كاملة ضمها مصنف كامل. و منها عند ما اجتمع أبو حنيفة و ابن أبي ليلى عند أبي جعفر المنصور فسأل ابن أبي ليلى أبا حنيفة عن باع ثوبا و تبرأ من العيب؟ فقال: إذا برأه فقد برىء. و قال ابن أبي ليلى: لا يبرأ حتى يضع يده على العيب. فلم يزل يدخل عليه أبو حنيفة حتى قال: لو أن امرأة [و ذكر ما يعنى أنها من العباسيين] باعت عبدا و على رأس ذكره برص، أوجب عليها أن تضع يدها على رأس ذكره؟ فقال ابن أبي ليلى: يجب عليها ذلك. فغضب المنصور عند ذلك و أهانه، فظفر به أبو حنيفة.

لقد كان أبو حنيفة محور دائرة الخلافات، و الهدف الذي يوجه إليه الطعن. و قد حمل العلماء على أهل الرأي حملة شعواء، و أورد أهل الحديث روايات عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم في ذم الرأي، منها:

«إن الله لا ينزع العلم من الناس بعد إذ أعطاهموه انتزاعا، و لكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى أناس جهّال يستفتون برأيهم فيضلّون و يضلّون» (2).

و حدثوا عنه صلّى الله عليه و آله و سلّم: «تفترق أمتي على بضع و سبعين فرقة، أعظمها فتنة قوم يقيسون الدين برأيهم، يحرمون به ما أحلّ الله، و يحلّون به ما حرم الله» (3) و أوردوا عن عمر بن الخطاب قوله: إياكم و أصحاب الرأي، فإنهم أعداء السنن، أعييتهم الأحاديث أن يحفظوها؛ فقالوا بالرأي، فأخلّوا و أضلّوا.

ص: 140

1- (1) تاريخ بغداد ج 14 ص 247. [1]

2- (2) أخرجه الحافظ ابن عبد البر بطريق عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

3- (3) أخرجه الحافظ ابن عبد البر بطريق عن ابن مالك الأشجعي.

إلى كثير من الأحاديث التي أوردوها، والأقوال التي نقلوها عن الصحابة و التابعين و أتباعهم. واشتد النزاع و تحوّل إلى تعصّب قبلى و تحزّب إقليمى، و أصبح من المحتّم على أصحاب الرأى و على العراقيين و الكوفة بالأخص أن تردّ على تلك الهجمات، و أن تنتصر لوطنها و آرائها.

و على هذا النحو استمر الوضع من تربّص كل فريق بالآخر، فتنازروا و تقابلوا بانتقاص البعض للبعض، و عيّرُوا أهل الكوفة بالنبيذ، و أهل المدينة بسماع الغناء.

و اشتدّت عصبية كل قوم لبلدهم، و كان للأدب قسط وافر فى هذا الصراع فى عصر أبى حنيفة و بعده.

قال عمار الكلبي يذم أهل الحديث:

إن الرواة على جهل بما حملوا مثل الجمال عليها يحمل الودع

لا الودع ينفعه حمل الجمال له و لا الجمال بحمل الودع تنتفع

و يقول بعضهم:

يحمل أسفارا له و ما درى إن كان ما فيها صوابا أو خطأ

إن سئلوا قالوا كذا روينا ما ان كذبناه و لا اعتدينا

و قال بكر بن حماد قصيدة منها:

و كل شياطين العباد ضعيفة و شيطان أصحاب الحديث مرید

و أثارت هذه القصيدة حمية كثير من الشعراء المنتصرين لأهل الحديث، فعارضوها بعدة قصائد كابن غياث عبد السلام بن يزيد إذ يقول:

تعرضت يا بكر بن حمّاد حطة بأمثالها فى الناس شاب وليد

فذمك هذا فى المقال مذمّم و ذمك هذا فى الفعال حميد

و هى قصيدة طويلة (1).

و منها قول أحمد بن عصفور يعارض ابن حمّاد:

ص: 141

أيًا قادحا في العلم زند عمائه رويدا بما تبدى به و تعيد

جعلت شياطين الحديث مريدة ألا إن شيطان الخلال مرید

و جرّحت بالتكذيب من كان صادقا فقولك مردود و أنت عنيد

و مهما كان الشعر في معركة الرأي و الحديث فإنه لا يبلغ في تأثيره و فعله ما يصدره أصحاب الحديث أنفسهم و الذين يتصدّون للردّ على أهل العراق و إعلان سخطهم على أبي حنيفة لأنه يتزعم حركة القياس بإزائهم.

و قد أجحف خصومه في نقده و التحامل عليه و الطعن في معتقده حتى قالوا عنه: إنه استتيب من الكفر مرتين (1). و إنه إذا جاء الحديث عن النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم فيخالفه إلى غيره (2) و قد خالف مائتي حديث عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم (3).

و قد حددوا كفره بالقرآن بآيتين، كما ورد عن شريك أنه قال: كفر أبو حنيفة بآيتين من كتاب الله... (4).

و قد جعلوا وجوده ضررا على الإسلام، و بقاءه هدمًا للدين و فتكا بالمسلمين، لأنه يهدم الإسلام عروة عروة، و أنه شر مولود ولد في الإسلام (5).

و قد أورد الخطيب في تاريخه، و ابن عبد البرّ في انتقائه أقوالا كثيرة أطلقها خصومه، و شاعت في أندية المجتمع، حتى بلغت إلى المنامات و الأطياف، إذ كان لها سوق رائج في عصور التطاحن المذهبي، و لا أرى داعيا لاستعراض تلك الأقوال مناقشا لها أو مؤيدا. و سنعاود بحث أمرها في الجزء الثامن.

و على أي حال، فقد دلنا التتبع على أن شخصية أبي حنيفة لمعت بعد أن رسخت قدم تلامذته في الدولة، و أصبح لهم النفوذ التام عند ما ارتبطوا ارتباطا وثيقا بسياساتها، و كان فيهم القضاة و ذوو النفوذ، فانتشر المذهب المنسوب إليه، و اتسعت مدرسته بقوة تلامذته، و قد أدت عوامل التضارب و شدة الخلافات إلى إيجاد جو

ص: 142

1- (1) الانتقاء لابن عبد البر ص 150.

2- (2) مختلف تأويل، الحديث ص 63.

3- (3) ابن عبد البر، الانتقاء ص 150.

4- (4) الخطيب، تاريخ بغداد ج 13 ص 372. [1]

5- (5) الانتقاء ص 150.

مضطرب حمل بعض الاتباع على أن يضعوا الأخبار، ويختلفوا الحكايات. بل وضعوا كتباً مطولة لإعلاء شأنه. مما أدى بالباحث عنه أن يجد الصعوبة في بحثه عن الحقيقة الكامنة وراء أكذاس من الدعايات. فإذا أردنا الوقوف على حقيقة ما يدعى له من سعة العلم، وأن الناس عيال عليه، وإنه وضع سبعين ألف مسألة في الفقه، فإننا نجد أقرانه ومعاصريه لم يعرفوا عنه ذلك، كما أن تلامذته والمنتسبين لمدرسته قد خالفوه في كثير من الآراء، وردوا الكثير من أقواله. وأقوالهم في جميع الأبواب الفقهية إلى جنب أقواله. فمرة يتفقون معه، و مرة يخالفونه. وقد بينا منزلته في الحديث، وما قالوه عنه: بأنه لم يكن صاحب حديث بل قياساً. وأنه لم يعرف إلا سبعة أحاديث. وقد وجدنا أكثر الرواة والمحدثين لم يرووا عنه، وضعفه البخاري (1) وترك حديثه، وكذلك بقية أصحاب الصحاح الستة. وقال يحيى بن معين: لم يكن أبو حنيفة صاحب حديث. وقد مرّت الأقوال في ذلك. ونحن لا نذهب لتأييدها، لأنها كانت مصوغة بقلب التحامل عليه.

لقد كان أبو حنيفة حريصاً على طلب العلم، عرف بقدرته على المناظرة وذكائه ونباهته، وكان محمد يختلف إلى الإمام الصادق عليه السلام ويسأله عن كثير من المسائل مع أدب واحترام، ولا يخاطبه إلا بقوله: جعلت فداك يا ابن رسول الله. وقد روى أبو حنيفة عن الإمام الصادق. وكان الإمام الصادق ينهيه عن القياس، ويشدد الإنكار عليه ويقول: «بلغني أنك تقيس الدين برأيك، لا تفعل فإن أول من قاس إبليس».

وقد علم الإمام الصادق صفات أبي حنيفة وقدراته، فكان عليه السلام يوجه إليه المسائل التي تتفق مع ما عرف عن أبي حنيفة من الذكاء. قال له الإمام عليه السلام: «يا أبا حنيفة ما تقول في محرم كسر رباعية ظبي؟ قال: يا ابن رسول الله ما أعلم فيه. فقال:

أنت تتداهى ولا تعلم أن الظبي لا يكون له رباعية، وهو ثنى أبداً» (2).

ص: 143

---

1- (1) كان طعن البخاري في أبي حنيفة في كتابه الضعفاء لا يقلل نقمة وسخطاً عن منهج الخطيب البغدادي على قلة العبارة و موجز القول. وقد كان النسائي في كتابه الموسوم بالضعفاء والمتروكين أقل سخطاً.

2- (2) المصايد والمطارد لكشاجم ص 202. ووفيات الأعيان ج 1 ص 212. و [1] مرآة الجنان ج 1 ص 305.



و يظهر لنا تاريخ حياة أبي حنيفة، أنه كان من الشخصيات المرموقة في عصره، و كانت له حلقة درس يرتادها جماعة و في طليعتهم تلميذه الأول أبو يوسف.

و أصبحوا من بعده علماء و لهم أراؤهم الخاصة و أقوالهم المنفردة عن قوله، و لأن أبا حنيفة قد عرف بالقياس؛ فقد نغم عليه علماء عصره، و شددوا عليه النكير. فلم يخضع لواحد منهم إلا للإمام الصادق عليه السلام كما يستدل من قوله المشهور: لو لا السنن لهلك النعمان. و المراد بالسنن هما اللتان قضاهما في المدينة مع الإمام الصادق عليه السلام في آخر أيامه، و أخذ عنه العلم، و قد نهاه عن استعمال القياس و قال له: «إنه أول من قاس إبليس» في قصة طويلة. و مما يدلّ من بعض آثاره أنه ترك القياس، إلا أن مدرسته ظلّت تأخذ به، و كما اشتهرت مدرسة أبي حنيفة بالقياس، فقد اشتهرت باستعمال الحيل الشرعية، و قد نسبوا له كتاب الحيل الشرعية. و من المستحسن الإشارة لذلك بموجب من البيان لتظهر لنا حقيقة لها أهميتها في تاريخ حياة الإمام أبي حنيفة. فهل كان أبو حنيفة يستعمل الحيل، و أنه وضع في ذلك كتابا تداوله الناس، أم أنها نسبة لا أصل لها؟.

### الحيلة الشرعية

:

الحيلة مأخوذة من الاحتيال، و هي الحذق و جودة النظر، و القدرة على التصرف.

و أكثر استعمالها فيما في تعاطيه خبث، و قد تستعمل بما فيه حكمة، و لقد غلب في العرف اللغوي إطلاقها على ما يكون من الطرق الخفية التي يتوصل بها إلى حصول الغرض، بحيث لا يتفطن له إلا بنوع من الذكاء و الفطنة، و تنصرف أيضا إلى الطرق الخفية التي يتوصل بها إلى الغرض الممنوع منه شرعا أو عقلا، أو عادة. و يقصد بها الحيل التي تستحلّ بها المحارم، و أطلقها الفقهاء على المخارج من المضايق بوجه شرعي لمن ابتلى بحادثة دينية. و الحيلة ترتبط بالرأي، و حيث كانت مدرسة أبي حنيفة معروفة بالرأي، فقد عرفت هذه المدرسة بالحيل الشرعية. و قد اشتهر عن أحمد بن حنبل أنه قال: هذه الحيل التي وضعها أبو حنيفة و أصحابه، عمدوا إلى السنن فاحتالوا في نقضها، أتوا إلى الذي قيل إنه حرام احتالوا فيه حتى أحلّوه.

و يظهر من كلمة الإمام أحمد هذه أنهم- أي أصحاب أبي حنيفة- استعملوا الحيل غير الجائزة و الممنوعة شرعا، و قد اهتم المذهب الحنفي من بين المذاهب

بالحيل، فقد ألفوا كتباً في الحيلة، وقد نسب لأبي يوسف كتاب في الحيل (1) ولكنه مفقود الآن، وكذلك لمحمد بن الحسن الشيباني كتاباً في الحيل رواه عنه معاصره أحمد بن حفص البخاري. ورواه أيضاً موسى بن سليمان الجوزجاني المتوفى سنة 244 هـ كتاباً ألف أحمد بن عمر الشيباني الخصّاف - أحد قضاة الدولة المتوفى سنة 261 هـ - كتاباً في الحيل، وكثير من الكتب في هذا الموضوع نسبت إلى الحنيفة.

أما أبو حنيفة، فلا يعلم بالضبط أن له كتاباً في الحيل كان أبو حنيفة يستعمله، وقد نسب لابن المبارك أنه قال: من استعمل كتاب الحيل لأبي حنيفة أو أفتى بما فيه؛ فقد بطل حجّه، وبانت منه امرأته.

ولا نعلم مقدار صحة هذا القول من ابن المبارك، فهو من أصحاب أبي حنيفة و مناصريه، ولا ندري هل أن أبا حنيفة استعمل الحيل الجائزة أم المحرمة. فإن كان الأول، فليس لنا أن نحصر الأمر به، فإن حدّة الذهن والتخلّص من المشاكل لم يكن من امتياز أبي حنيفة وحده، إذ الأمور المشروعة في الحيل قد سبق العمل بها في العصر الذي سبق عصر أبي حنيفة. أما إذا كان استعماله للحيل غير الجائزة وهي الاحتيال على حلّية ما هو حرام، أو على إسقاط ما هو واجب أو غير ذلك، فهل يمكننا أن نحمل أبا حنيفة مسؤولية فتح هذا الباب، ولم يصل إلينا كتاب يدل على استعماله للحيل غير الجائزة؟ فهو لم يؤلف في ذلك كتاباً لا في الحيل ولا غيرها، أما كتاب العالم والمتعلم فهو كتاب صغير لا يدل على مكانته العلمية ومنزلته التي وصفوه بها، ولم يتفق على صحّة نسبته إلى أبي حنيفة.

وليس ببعيد أن يكون أصحابه قد استعملوا الحيل غير الجائزة ونسبوا لرأيه، كما هو شأنهم في كل مسائل المذهب، فإنهم يستخرجون المسألة الشرعية حسب نظرهم ورأيهم، ويقولون هذا رأى أبي حنيفة، مستندين إلى قاعدة: أنه يعمل بما صحّ عنده من الحديث. فهم يصحّحون الأحاديث لتقويم فتاواهم، ويسندون الكل لأبي حنيفة. وقد عقد ابن قيم الجوزية فصلاً طويلاً في كتابه (أعلام الموقعين) ذكر فيه

ص: 145

الحيل المحللة و الحيل المحرّمة، و ذكر الأخبار في ذلك، و أفاض في البيان فأكثر و قال فيما قال:

و المقصود أن هذه الحيل لا تجوز أن تنسب إلى إمام، فإن ذلك قدح في إمامته، و ذلك القدح يتضمّن القدح في الأمة، حيث اتّمت بمن لا يصلح للإمامة، و هذا غير جائز. و لو فرض أنه حكى عن واحد من الأئمة بعض هذه الحيل المجمع على تحريمها، فإما أن تكون الحكاية باطلة، أو يكون الحاكم لم يضبط لفظه، فاشتبه مع بعد ما بينهما. و لو فرض وقوعها منه في وقت ما فلا بد أن يكون قد رجع عن ذلك.

و ليس الأمر هنا للافتراض و اللابدية، و إنما المدار على الواقع. فإن الأكثر ينسبون لأبي حنيفة فتاوى بالحيل الممنوعة، كما نسبوا إليه كتابا في ذلك، و الأمر يحتاج إلى تدقيق و تمحيص، لا للافتراض و اللابدية.

و قال ابن قديم: فهذه الحيل و أمثالها لا يحلّ لمسلم أن يأتي بها في دين الله، و من استحلّ الفتوى بهذه، فهو الذي كفره الإمام أحمد و غيره من الأئمة حتى قالوا: (إن من أفتى بهذه الحيل؛ فقد قلب الإسلام ظهرا لبطن، و نقض عرى الإسلام عروة عروة).

و إلى هذا الحد لم تتعين الفرقة التي اتسعت دائرة الحيل باستعمالها، هل هم الحنيفية فقط؟ أم يشاركهم غيرهم في ذلك؟ و قد نقل عن بعضهم أنهم قالوا: ما نعموا علينا من أنّا عمدنا إلى أشياء كانت حراما عليهم، فاحتلنا فيها حتى صارت حلالا؟ و قال آخرون منهم: إنّنا نحتال للناس منذ كذا و كذا سنة في تحليل ما حرّم الله عليهم.

و لا ندرى من هو القائل، و إلى أي فرقة ينتسب، و إلى أي مذهب يرجع.

قال أحمد بن زهير: كانت امرأة هاهنا بمرو، أرادت أن تختلع من زوجها، فأبى زوجها عليها. فقيل لها: لو ارتددت عن الإسلام لبنت منه. ففعلت، فذكر ذلك لعبد الله بن المبارك فقال: من وضع هذا الكتاب فهو كافر، و من سمع به فهو كافر، و من حمّله من كورة إلى كورة فهو كافر، و من كان عنده فرضى به فهو كافر. قيل له:

يا أبا عبد الرحمن: إن هذا الكتاب وضعه إبليس؟ قال: إبليس من الأبالسة. و قال النضر بن شميل في كتاب الحيل ثلاثمائة و عشرون أو ثلاثون مسألة كلها كفر. و ذكر كتاب الحيل لشريك بن عبد الله القاضي فقال: من يخادع يخدعه. و قال إسماعيل بن حمّاد: قال القاسم بن معن قاضي الكوفة: كتابكم هذا الذي كتبتموه في الحيل

كتاب الفجور. وإسماعيل بن حمّاد هو حفيد النعمان بن ثابت أبي حنيفة. ومن هنا يظهر أن الكتاب الذي يتضمن الحيل المحرمة هو من وضع الحنيفة، لا من وضع أبي حنيفة نفسه.

قال يزيد بن هارون: لقد اُفتى أصحاب الحيل بما لو أُفتى به النصراني أو اليهودي كان قبيحا (1). ونقل عن أحمد بن حنبل عن محمد بن مقاتل قال: شهدت هشاما وهو يقرأ كتابا، فانتهى بيده إلى مسألة فجازها، فقبل له في ذلك فقال: دعوه.

وكره مكاني، فتطلعت في الكتاب فإذا فيه: لو أن رجلا لَفَّ على ذكره حريرة في شهر رمضان، ثم جامع امرأته نهارا فلا قضاء عليه ولا كفارة (2).

فالحيلة في فسخ المرأة النكاح: أن ترتد، ثم تسلم.

والحيلة في سقوط القصاص عن قتل أم امرأته: أن يقتل امرأته إذا كان لها ولد منه.

والحيلة في سقوط الكفارة عن أراد الوطى في رمضان: أن يتغذى، ثم يطأ بعد الغداء.

والحيلة لمن أراد أن يفسخ نكاح امرأته ويحرّمها على نفسه على التأييد: أن يطأ حماته أو يقبلها.

والحيلة لمن أراد سقوط حدّ الزنا: أن يسكر، ثم يزني.

والحيلة لمن أراد سقوط الحج عنه مع قدرته: أن يملك ماله لابنه عند خروج الركب، فإذا أبعد استردّ ماله.

والحيلة لمن أراد أن يملك مال غيره بغير رضاه: أن يفسد عليه، أو يغيّر صورته فيملكه، فيذبح شاته، ويشقّ قميصه، ويطحن حبه.

والحيلة لمن أراد قتل غيره ولا يقتل به: أن يضربه بلبوس أو مرزبة حديد، ينثر دماغه فلا يجب عليه القصاص.

ص: 147

1- (1) أعلام الموقعين ج 3 ص 148.

2- (2) أعلام الموقعين ج 3 ص 150.

و الحيلة لمن أراد أن يسقط عنه حدّ السرقة: أن يدعى أن المال له، وأن له فيه شركة، فيسقط عنه الحد بمجرد دعواه.

و الحيلة لمن أراد سقوط حدّ الزنا عنه بعد أن يشهد عليه أربعة عدول غير متّهمين، أو أن يصدّقهم فيسقط عنه الحدّ بمجرد تصديقهم.

و الحيلة لمن أراد الصيد في الأحرام: أن ينصب الشباك قبل أن يحرم، ثم يأخذ ما وقع فيها حال إحرامه بعد أن يحلّ.

هذا بعض ما ذكره من استعمال الحيل. وقد نقل عن أبي حنيفة أنه يفتى ببعضها كاستئجار الجارية لكنس البيت. و حوادث أخرى مشهورة ذكرتها المصادر.

منها: ما ذكره ابن عبد البر في الانتقاء عن شريك أنه قال: كنا في جنازة غلام من بنى هاشم، وقد تبعها وجوه الناس و أشرفهم، فأنا إلى جنب ابن شبرمة أماشيته إذ قامت الجنازة، فقيل: ما للجنازة لا يمشى بها؟ قيل: خرجت أمه والهة عليه سافرة وجهها في قميص. فحلف أبوه بالطلاق لترجعنّ، و حلفت هي بصدقة ما تملك لا رجعت حتى تصلى عليه، و كان يومئذ مع الجنازة ابن شبرمة و نظراؤه، فاجتمعوا لذلك، و سئلوا عن المسألة، فلم يكن عندهم جواب حاضر. قال: فذهبوا، فدعوا بأبي حنيفة - و هو في عرض الناس - فجاء مغطّياً رأسه و المرأة و الزوج و الناس و قوف، فقال للمرأة: علام حلفت؟ قالت: علىّ كذا كذا. و قال للزوج: بم حلفت؟ قال: بكذا. قال ضعوا السرير فوضع، و قال للرجل تقدّم فصلّ على ابنك. فلما صلّى قال: ارجعي، فقد خرجتما عن يمينكما، احملا مئيتكم. فاستحسنها الناس.

و كان المنصور يعرف عنه هذه القدرة في إيجاد المخارج. يروى حمزة بن عبد الله الخزاعي أن أبا حنيفة هرب من بيعة المنصور جماعة من الفقهاء، ثم قال أبو حنيفة: لى فهم أسوة. فخرج مع أولئك الفقهاء، فلما دخلوا على المنصور أقبل على أبي حنيفة وحده من بينهم فقال له: أنت صاحب حيل، فالله شاهد عليك أنك بايعتني صادقاً من قلبك؟ قال: الله يشهد علىّ حتى تقوم الساعة. فقال: حسبك. فلما خرج أبو حنيفة قال له أصحابه: حكمت على نفسك ببيعتته حتى تقوم الساعة؟ قال: إنما عنيت حتى تقوم الساعة من مجلسك إلى بول أو غائط أو حاجة، حتى يقوم من

مجلسه ذلك (1). وعلى كل حال فقد اشتهر المذهب الحنفي بالعمل بالحيل الشرعية.

يقول الدكتور على عبد القادر: بقى أبو حنيفة فى نظر أتباعه صاحب الفضل فى الحيل المتعلقة بالحلف، و من هنا أخذ الأحناف يذكرون عن إمامهم ماله من حدة ذكاء فى مسائل الحلف، وقد كانت كتب الحنفية فى الحيل قد انتشرت بين الناس، فكان من أثر هذا أن أخذ الشافعية كذلك ينافسونهم فى هذا الميدان، ويؤلفون فى الحيل.

هذا فى رأينا هو الباعث على وجود كتب الحيل فى مذهب الشافعى بعد إن كان إمامهم يحكم عليها بالحرمة أو الكراهة، بالرغم من الاعتراف بصحتها من حيث الظاهر، وقد استمر على مخاصمة الحيل فى المذهب كل من: الغزالي و عبد الرحمن بن زياد. و لكن ابن حجر نازعهم فى هذا فى فتاويه، وبقى رأيه هو الذى عليه العمل فى المذاهب (2).

و من مسائل الحيل التى كثر الاختلاف بها هى الحيلة على إسقاط حق الشفعة، وقد أقرت الشريعة الإسلامية حق الشفعة للشريك. و قام الدكتور عبد السلام ذهنى بتناولها فى كتابه (الحيل المحظور منها و المشروع).

و ذهب بعض العلماء الأول إلى أن القياس يابى ثبوت حق الشفعة، لأنه يتملك على المشتري ملكا صحيحا له بغير رضاه، و ذلك لا يجوز، فإنه من نوع الأكل بالباطل، و تأييد هذا بقول النبى صلى الله عليه و آله و سلم: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه» و لأنه بالأخذ يدفع الضرر على نفسه على وجه يلحق الضرر بالمشتري فى إبطال ملكه عليه، و نقل هذا الوجه عن أبى بكر الأصم (3) و قيل فى الشفعة بأن فيها رفعا لضرر موهوم عند الشفيع، فى مقابل ضرر محقق لدى المشتري (4). و لذا تجب العناية بالضرر الواقع، و صرف النظر عن الضرر الموهوم. و قيل فيها بأن حكمة الشارع منها اقتضت رفع الضرر عن المكلفين ما أمكن (5).

ص: 149

1- (1) الانتقاء، ص 159 و 161.

2- (2) نظرة عامة ص 241.

3- (3) انظر: نيل الأوطار.

4- (4) ابن عابدين ج 5 ص 143.

5- (5) أعلام الموقعين ج 3 ص 247.

وقد اختلفوا بجواز التحايل فيها، وصوروا لذلك صوراً منها: إذا ترك البائع قطعة أرض على ملكه بين العقار المبيع والشفيع حتى لا يستطيع هذا الأخير الادعاء بالجوار. أو أن يهبه تلك القطعة الفاصلة لتحول دون الشفعة بسبب الهبة.

وقال أبو حنيفة والشافعي بجواز الاحتيال في الشفعة لإسقاطها، لأنها من الحقوق غير المستحبة. وقال بذلك مالك، وأحمد، وحجتهم أن الحيلة أمر مستتب من الكتاب والسنة؟! ويقول فريق آخر: بعدم جواز الحيلة في سبيل إسقاط الشفعة، لأن الحيلة إنما هي رخصة لضعفاء المؤمنين، ولأن التحيل لإبطال الشفعة شرعت لدفع الضرر. فلو شرع التحيل لإبطالها، لكان عوداً على مقصود الشريعة بالإبطال، ويلحق الضرر الذي قصد إبطاله (1).

واتفق علماء المسلمين على ثبوت الشفعة للشريك، أما الشفعة بالجوار فقد اختلفوا على ثلاثة أقوال: فأهل الكوفة يثبتون شفعة الجوار ولو مع تمييز الطريق والحقوق. وأهل المدينة يسقطونها ولو مع الاشتراك. وأهل البصرة يثبتونها إذا وقع الاشتراك في حق من حقوق الأملاك.

وعلى أي حال، فإن هذه المسألة هي من المسائل الهامة التي اشتهرت بها مدرسة أبي حنيفة، وقد ضاعف ذلك تقاوم النعمة عليها وتوجيه الانتقاد إليها، وقد نسبوا إلى أبي حنيفة أنه وضع كتاباً في الحيل فهم يستمدون منه ويأخذون عنه، ولا بد من التحقق من ذلك وثبوته، وربما أنهم أخذوا من فتاوى أبي حنيفة وقواعده وزادوا، فسوّغوا استعمال الحيل بشتى أنواعها، كما هو الشأن في جميع أبواب الفقه المنسوب لأبي حنيفة، فإسناد الفتوى له إنما هو استنتاج يكشف عن رأيه، بمعنى أنه لو عاش أبو حنيفة لكان هو رأيه، أو على قاعدة الترخص منه بقوله: إذا صح الحديث فهو مذهبي.

ص: 150

---

1- (1) أعلام الموقعين ج 3 ص 229. والميزان للشعراني ج 2 ص 87.

:

نشأ أبو حنيفة في الكوفة، وكانت منبعاً للحركات الثورية، فكم من ثورة عارمة قامت ضد سلطة فأخمدتها القوة، وأخرى استطاعت أن تخدم قوة السلطة و تقيم دولة مستقلة زمناً طويلاً، والحركة التي أطاحت بالدولة الأموية كان منشؤها الكوفة، البلدة التي ولد فيها أبو حنيفة ونشأ فيها، وكان يشارك الثوار في حركاتهم سرا أو علانية، وقد نكل به ابن أبي هبيرة عامل بني أمية، وضربه بالسياط.

وعاش أبو حنيفة وسط أحداث سياسية، كان لها الأثر في نبوغه و معرفة اتجاهه و منحاه السياسى الذى ينتهجه.

وقد تجلّت موهبته، و ظهر نشاطه و ميله للعلويين عند ما ظهر زيد بن على بالكوفة سنة 124 هـ فكان يرى إمامة زيد، وأنه على الحق، فأرسل إليه زيد رسالة مع الفضل ابن الزبير يدعوه إلى بيعته، فلما بلغه الفضل رسالة زيد، ذكره أبو حنيفة بكل جميل، و ألزم الخروج معه، وقال: لو علمت أن الناس لا يخذلونه كما خذلوا أباه لجاهدت معه لأنه إمام الحق، و لكن أعينه بمالى. ثم بعث إليه بالمال و هو ثلاثون ألف درهما، و قيل ثلاثون ألف ديناراً، و قال للرسول: أبسط عذرى عنده..

و سئل أبو حنيفة عن خروج زيد فقال: ضاهى خروج رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم يوم بدر.

فقيل له: لم تخلف عنه؟ قال: حبستنى عنه و دائع الناس، عرضتها على ابن أبى ليلى فلم يقبل، فخفت أن أموت محمّلاً. و كان كلما ذكر خروج زيد بكى.

كما إنه انتصر لمحمد بن عبد الله بن الحسن و أخيه إبراهيم، و كان يحثّ الناس على الخروج للحرب مع إبراهيم و كان يقول: غزوة مع إبراهيم أفضل من خمسين حجة بعد حجة الإسلام (1). و كان الإمام أبو حنيفة عند ذكر مصاب محمد النفس الزكية، يفعل كما يفعل عند ذكر استشهاد زيد، فتدمع عيناه..

و جاءت إليه امرأة فقالت: إن ابنى يريد هذا الرجل -أى إبراهيم- و أنا أمنعه؟ فقال: لا تمنعيه (2).

و قال أبو إسحاق الفزارى: جئت إلى أبى حنيفة فقلت له: أما اتقيت الله! أفئتيت



أخى بالخروج مع إبراهيم بن عبد الله بن الحسن حتى قتل؟ فقال: قتل أخوك حيث قتل، يعدل قتله لو قتل يوم بدر، وشهادته مع إبراهيم خير له من الحياة (1). فكان إسحاق يبغض أبا حنيفة.

و من هذا نستظهر أن أبا حنيفة معروف بميله للعلويين، ولذا وجه إليه زيد الدعوة للخروج معه، وجاء في اعتذار أبي حنيفة في بعض الروايات أنه كان مريضا.

و أن لديه ودائع للناس ملزم بحفظها أو ردّها، كما أن استفتاء الناس له بالخروج مع إبراهيم، يدلّ على مكانته الاجتماعية في ذلك المجتمع. و بجانب ذلك، فقد كانت له مكانة سياسية و يد في الثورة، وقد أرسل رسالة إلى إبراهيم، يشير عليه أن يقصد الكوفة ليعينه الزيدية، وقال: انتها سرا، فإن من فيها من شيعتكم يبيتون أبا جعفر فيقتلونه أو يأخذون برقبته فيأتونك به.

و لما توجه إبراهيم لمقابلة عيسى بن موسى -القائد العباسي- وقامت الحرب بينهما، كان أبو حنيفة يدعو الناس للخروج معه. قال أبو نعيم: سمعت زفر بن الهذيل يقول: كان أبو حنيفة يجهر في أمر إبراهيم جهرا شديدا، ويفتى الناس بالخروج معه. فقلت له: و الله ما أنت بمتمته عن هذا، حتى توافي فتوضع في أعناقنا الحبال (2).

و حدّث محمد بن الحسن وغيره من أصحابه: أن أبا حنيفة كتب إلى إبراهيم بن عبد الله لما توجه إلى عيسى بن موسى: إذا أظفرك الله بعيسى وأصحابه فلا -تسر فيهم سيرة أبيك في أهل الجمل، فإنه لم يقتل المنهزم و لم يأخذ الأموال، و لم يتبع مدبرا، و لم يذف على جريح، لأن القوم لم يكن لهم فئة. و لكن سر فيهم بسيرته يوم صفين، فإنه سبى الذرية، و ذف على الجريح لأن أهل الشام كانت لهم فئة، و كانوا في بلادهم (3).

فظفر أبو جعفر بكتابه، فكان الهدف الرئيسي من عرض القضاء على أبي حنيفة -بعد مدة- هو اتخاذ وسيلة للقضاء عليه بحجة امتناعه عن معاونة الدولة، و كان أبو

ص: 152

1- (1) المقاتل ص 246. [1]

2- (2) المقاتل و [2] تاريخ بغداد ج 13 ص 329 و 330. [3]

3- (3) المصدر السابق ص 247. [4]

حنيفة يرى حرمة التعاون معهم لأنهم أئمة جور. وقد كان لأبي حنيفة اتصال بالإمام الباقر عليه السّلام وولده الإمام الصادق عليه السّلام و يعدّ من تلامذتهما، كما أنه اتصل بعبد الله بن الحسن و كان يعدّ من شيوخ أبي حنيفة.

## و يقول الأستاذ محمد أبو زهرة

:

لقد كان أبو حنيفة يميل إلى أولاد علي، و يرى أنهم أحقّ بالخلافة من بنى العباس، و كانت لرابطة العلم تأثير في ولائه و اتجاهه السياسى، إذ كان تلميذا لعبد الله بن الحسن، كما أنه على علاقة وثيقة بزيد و جعفر الصادق، و لذلك لمّا خرج إبراهيم بن عبد الله بن الحسن على المنصور، كان هوى أبي حنيفة معه، و لم يكتف بذلك، بل ثبّط أحد قواد المنصور- و هو الحسن بن قحطبة- عن الخروج لحرب إبراهيم.

و يبدو تأثير الإمام الصادق على أبي حنيفة من خلال مقاطعته الدولة العباسية، فقد صرّح الإمام الصادق- كما رأينا- بعدم معاونة الظالمين، و قطع الصلة بين الرعية و بين السلطة الحاكمة، و هو ما يسمى ب(العصيان المدنى) (1). فعند ما أراد المنصور أن يختبر طاعته و ولائه عرض عليه القضاء، فامتنع أبو حنيفة. ثم أراد إخراجه، فطلب منه الاشتراك بالعمل في بناء مدينة بغداد- و هى ما زالت تبنى- فأبى أبو حنيفة.

و أقسم المنصور أن يفعل، و أبو حنيفة يابى. ثم قبل منه أن يعدّ اللبن في بناء بغداد، و أبرّ بذلك قسم المنصور (2) و لكنه لم يثبت هذا القول، و لم يرد فيما ورد عن أبي حنيفة في أقواله و آرائه.

و على أى حال، فإن أبا حنيفة كان ذا صلة بآل البيت، إذ أخذ عن الإمام محمد الباقر و ولده الإمام الصادق، و عن زيد بن علي، و عبد الله بن الحسن. و كان يحتجّ بقول الإمام علي، و ربما كان يروى عنه بقوله: عن أبي زينب. خشية من الأمويين.

كما أنه لم يسالم الأمويين، و اشترك في حركة الشيعة للإطاحة بحكمهم، فقدّم لثورة زيد دعما ماليا، كما أن المعروف عنه أنه لم يسالم العباسيين، و لذا فإن فتواه التى كان

ص: 153

1- (1) انظر الجزء الثانى من الإمام الصادق المذاهب الأربعة.

2- (2) تاريخ ابن خلدون ج 3 ص 418. [1]

يفتى بها، ونقده الشديد للأحكام التي كان يصدرها الحكام كانت تثير السخط عليه.

فمن ذلك أن المنصور استفتاه في الذين انتفضوا عليه من أهل الموصل، هل تحلّ له دماؤهم؟ فأجابه أبو حنيفة:

إنهم شرطوا لك ما لا يملكونه، وشرطت عليهم ما ليس لك، لأن دم المؤمن لا يحلّ إلا بثلاث. فقال له المنصور: يا شيخ، القول ما قلت، ولكن لا تفت الناس بما هو شين على إمامك.

والحقيقة أن المنصور من خلال إصراره على تولى أبي حنيفة القضاء يكشف عن نيته في الإيقاع به، وليس الأمر إلا العامل السياسي الذي كان يستفز المنصور ويجعله يقدم على قتل الناس وسفك الدماء. لذا فإن امتناع أبي حنيفة عن تولى القضاء لا يجعل المنصور يقتله هذه القتلّة الشيعة، وإنما أرسل المنصور ليحضر أبا حنيفة من الكوفة ليقتله ويرتاح منه لأن أبا حنيفة كان يتعاون مع العلويين، ويساعد الثوار منهم، ويقوى إبراهيم أحمر العينين. وكان مقام أبي حنيفة في الكوفة يؤدي إلى إثارة الرأي العام، لأنه مقبول القول عند الناس، ذو حال واسعة من التجارة. فكان المنصور يخشى من اتساع دعوة أبي حنيفة لإبراهيم وأخيه محمد، وطلبه من الكوفة إلى بغداد، ولم يجسر على قتله علنا (1).

وعلى الجملة فإن ميل أبي حنيفة لأهل البيت كان أمرا يبعث السلطة على العدا له وترصد الدوائر به. و سنأتى على مزيد من القول فيه.

يقول الأستاذ محمد أبو زهرة:

(و ننتهى من الكلام أن أبا حنيفة شيعى فى ميوله و آرائه فى حكام عصره، أى أنه يرى الخلافة فى أولاد على من فاطمة، وأن الخلفاء الذين عاصروه قد اغتصبوا الأمر و كانوا لهم ظالمين) (2).

و أن الشىء المهم الذى يلزم أن نقف إمامه وقفه تأمل هو: شهرة أبى حنيفة العلمية التى اكتسبت طابع الانتشار بعد موته، حتى أصبح مرجعا لملايين المسلمين،

ص: 154

1- (1) انظر: السيد عفيفى المحامى، حياة الإمام أبى حنيفة.

2- (2) أبو حنيفة ص 165.

فما هي العوامل التي ساعدته، وأدت إلى هذا الاشتهار؟ فإنا إذا لحظنا أبا حنيفة ذاته وجدنا أنه لم يكن له امتياز على كثير من العلماء المبرزين من أقرانه في عصره، نعم كان مشهورا بالقياس، وهذا ما أوجب نقمة كثير من العلماء عليه.

أما تفوقه العلمي وشهرته، وبقاء مذهبه وانتشاره في الأقطار الإسلامية، فيرجع إلى شهرة أبي يوسف، فهو تلميذ أبي حنيفة وقد نال أبو يوسف مودة الرشيد، فكان يحبه حبًا شديدًا ويقول: لو جاز أن أدخلك في نسبي لفعلت. فكان لأبي يوسف المنزلة والكلمة النافذة في الدولة.

ولو لا أبو يوسف لما ذكر أبو حنيفة، ولكن منزلة أبي يوسف في الدولة، وتوليته رئاسة القضاء جعلت ذكر أبي حنيفة ينتشر، وقد التفّ حوله جميع المنتسبين لمدرسة أبي حنيفة وتلامذتهم، فكان نشاطهم محسوسا، ونالت أقوالهم الصبغة الرسمية. ثم عمدوا لنشر مذهب أبي حنيفة، فكانوا لا يقربون إلا من كان على طريقتهم في الاجتهاد والفتيا، وهم على طريقة أبي حنيفة في الاستنباط.

ويمكننا أن نعتبر تمكن أبي يوسف وسلطته التشريعية نقطة بداية وضع أسس المذهب، فتطورت في المستقبل، إذ وجدت الظروف والإمكانات اللازمة.

وعلى هذا فقط نشط أصحاب أبي حنيفة بتوليتهم القضاء، ونشر أقوال أبي حنيفة وآرائه، وكانوا يسرون على قواعد مذهبية في الحديث، ومنهم المجتهدون، وأكثرهم ينفرد بقول، ويذهب إلى رأى غير رأى أبي حنيفة.

وقد اعتبروا استنباطهم للمسائل التي لم يكن لأبي حنيفة قول فيها هو رأيه وقوله، كما هو واضح لمن تتبع موارد الاستنباط عندهم، فيرون عن أبي حنيفة أنه قال لأبي يوسف: ويحكم، كم تكذبون على في هذه الكتب ما لم أقل. وكيفما كان فقد تكوّن المذهب بجهود أصحابه الذين ينتمون لمدرسته، ويعرفون بالانتساب إليه، وكان عددهم ستة وثلاثين رجلا، وفي طليعتهم أبو يوسف، فهو الذى تزعم هذه المجموعة، وساعدته الظروف بأن يتولى منصب رئاسة قضاة الدولة في إبان قوتها، فقرب أصحابه وتقرب الناس إليهم حبًا لما في أيديهم من الدنيا، فوسّ عوا دائرة المذهب، ونشروا الأحكام باسم أبي حنيفة، وتوارث تلامذتهم نصرة المبدء ونشر المذهب حتى جاء عصر التطاحن والتكالب على الدنيا، فكان هناك تعصب أعمى،

وطائفة حمقى، و تحامل بدون مبرر، و مدح بدون لياقة، و شتم بدون ذنب. ف اتسعت دائرة الدعوة إلى المذاهب، حتى جاء دور التحجير و الإلزام بالأخذ عن هذه المذاهب دون غيرها، و كان للمذهب الحنفي شأن واسع و ذكر منتشر.

## أبو يوسف

:

و ليس من المبالغة أن يقول عمار بن أبي مالك: لو لا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة. لأن ارتباطه بالحكم هياً له نفوذاً شخصياً و سياسياً كبيراً ساعد على أن يكون رأيه في الفقه و مذهبه هو المذهب الرسمي. فأبو يوسف هو أول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، و أملى المسائل و نشرها، و بث علم أبي حنيفة في أقطار الأرض (1).

لقد كان أبو يوسف أول من دعى بقاضى القضاة، و لآه موسى الهادى و هارون الرشيد. و كان يفهم من ذكر (قاضى القضاة) أن المراد به أبو يوسف. و لم يكتف أبو يوسف بنفسه، بل أستخلف ابنه يوسف على الجانب الغربى، فأقره الرشيد على عمله، و قد غلب عليه الاهتمام بشئون الحكام، و لم يكن من الفقه بتلك المنزلة التى تشير الناس إليه، و تضمن له موقعا علمياً. فيروى الخطيب البغدادي بسنده قول هلال بن يحيى: كان أبو يوسف يحفظ التفسير و المغازى و أيام العرب، و كان أقل علومه الفقه (2).

و لهذا كان ما اشتهر من كتبه هو من شئون الحكم أكثر منه أن يكون من قضايا الفقه، فالخراج كان من تنظيمات السلطة، و تخطيط اقتصاد الحكام، و كذلك (الرد على سير الأوزاعى) فليس هو من فقهه، و إنما صنفه أبو يوسف للرد على الأوزاعى الذى صنف كتاباً ردّ فيه على سير أبى حنيفة، و ليس فيه إلا المسائل التى كان أبو يوسف قد تلقاها على أبى حنيفة. و كذلك الأمالى و هى الطريقة نفسها التى اتبعها فى نشر أصول الفقه من خلال موقعه و اتصاله بالحكام. فكان نفوذ المذهب يستمدّ من نفوذ السلطة. و لأبى يوسف كتب كثيرة دون فيها آراؤه و آراء شيوخه، ذكرها ابن النديم

ص: 156

1- (1) الخطيب البغدادي 246/14. [1]

2- (2) الخطيب و شذرات الذهب ج 1 ص 299. و [2] وفيات الأعيان ج 5 ص 425. [3]

منها: كتاب الصلاة، كتاب الزكاة، كتاب الصيام، كتاب الفرائض، كتاب البيوع، كتاب الخراج، كتاب الوكالة، كتاب الوصايا، كتاب اختلاف الأنصار، كتاب الرد على مالك وغيرها. وله إملاء رواه بشر بن الوليد القاضي يحتوى على ستة و ثلاثين كتابا.

قال رجل لأبى يوسف: رجل صلى مع الإمام فى مسجد عرفة، ثم وقف حتى دفع بدفع الإمام؟ قال: ما له؟ قال: لا بأس به. فقال: سبحان الله، قد قال ابن عباس:

من أفاض من عرفة فلا حجّ له، مسجد عرفة فى بطن عرفة؟ فقال: أنتم أعلم بالأحكام، ونحن أعلم بالفقه. قال: إذا لم تعرف الأصل فكيف تكون فقيها؟ (1).

إن أبا حنيفة قد رعى أبا يوسف رعاية خاصة. وكان يتفقدّه ويتعاهده ويمدّه بالمال حتى استغنى وتموّل بعد أن كان فى ضيق وفقر، وكان أبوه ينهاه عن طلب العلم على أبى حنيفة لئلا يؤثر ذلك على رزقهم وتحصيل قوتهم. ويروى أبو يوسف ذلك: (توفى إبراهيم بن حبيب، و خلفنى صغيرا فى حجر أُمى، فأسلمتني إلى قصّار أخدمه، فكنّت أدع القصّار وأمرّ إلى حلقة أبى حنيفة، فأجلس أستمع. فكانت أُمى تجيء خلفى إلى الحلقة، فتأخذ بيدي وتذهب بي إلى القصّار. وكان أبو حنيفة يعنى بي لما يرى من حضوري و حرصى على التعلّم. فلما كثر ذلك على أُمى، وطال عليها هربى، قالت لأبى حنيفة: ما لهذا الصبى فساد غيرك، هذا صبى يتيم لا شىء له، وإنما أطعمه من مغزلى، وأمل أن يكسب دانقا يعود به على نفسه. فقال لها أبو حنيفة: مرى يا رعناء هذا هو ذا يتعلم أكل الفالودج بدهن الفستق) ثم يقول: إنه ضحك عند ما كان يجالس الرشيد و يأكل معه فالودجة بدهن الفستق.

وقد أشرنا إلى طريقة أبى حنيفة فى الدرس، وكان يقربّ كلا- من أبى يوسف وزفر أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، ويدعهما يتجادلان. وتختتم الروايات عن أستاذية أبى حنيفة بعبارة واحدة لها معناها، إنه كان يضرب بيده على فخذ زفر قائلا:

لا يطمع فى رئاسة فيها أبو يوسف. وهى برواية عمر بن حمّاد بن أبى حنيفة (2).

ويروى ابن إبراهيم بن عمر عن فراسة أبى حنيفة التى ينظر بها فىرى ما سيصير

ص: 157

1- (1) الخطيب البغدادي ج 14 ص 256. [1]

2- (2) الخطيب و ابن العماد فى الشذرات و ابن خلكان.

إليه أبو يوسف: كان أبو حنيفة حسن الفراسة، فقال لداود الطائي: أنت رجل تتخلى للعبادة. وقال لأبي يوسف: تميل إلى الدنيا.

و محمد بن صبيح بن السماك-الذى كان يعظ الرشيد-ينظر إلى موقع أبي يوسف فى السلطان و مكانته فيقول: لا أقول إن أبا يوسف مجنون، و لو قلت ذاك لم يقبل منى، و لكنه رجل صارع الدنيا فصرعته.

و لكنّ شخصية أبى يوسف أثرت فى النظر إلى المذهب الحنفى أو إلى فقه أبى حنيفة نفسه من ناحية، كما أن روح اتباع الحكام و سيرة الخضوع للسلطة و خلفائها المتجبرين، عزلت أبا يوسف عن أبى حنيفة و أصحابه الآخرين، لكى يكون متميزا عن مواقف إمامه التى ذكرناها فى الابتعاد عن الحكام و التعامل معهم بحذر. أو أنها ظلت شيئا من سيرة أبى حنيفة لا تلزم أصحابه، فيما ظل المذهب فى أصوله من اختصاصه و هو فى السلطان، و أصبح جزءا من الحكم حتى قيل: و قد تجد الرجل يطلب الآثار و تأويل القرآن و يجالس الفقهاء خمسين عاما و هو لا يعدّ فقيها، و لا يجعل قاضيا، فما هو إلا أن ينظر فى كتب أبى حنيفة و أشباه أبى حنيفة، و يحفظ الشروط فى مقدار سنة أو سنتين، حتى تمر ببابه فتظنّ أنه من بعض العمال، و بالحرى ألاّ يمر عليه من الأيام إلاّ اليسير حتى يصير حاكما على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان (1).

و الاتجاه الأول يمثله عبد الله بن المبارك الذى كان من علمه ما أثر كثيرا على منزلة أبى حنيفة، و راح يطعن فيه. غير أن أصحاب المذهب عمدوا إلى وضع أقوال مخالفة تماما لما اشتهر عن ابن المبارك، حتى تجدها فى ترجمة أبى حنيفة فى تاريخ بغداد، أو الانتقاء متناقضة متباينة.

فعن عبد الرزاق بن عمر قال: كنت عند عبد الله بن المبارك، فجاءه رجل فسأله عن مسألة، فأفتاه فيها. فقال له: قد سألت أبا يوسف فخالفك. فقال له: إن كنت صليت خلف أبى يوسف صلوات تحفظها فأعدها.

كما يروى عن ابن المبارك أنه سئل: أيما أصدق أبو يوسف أو محمد؟ قال: لا تقل أيهما أصدق، قل أيهما أكذب؟!!

ص: 158

وسئل يزيد بن هارون: ما تقول في أبي يوسف؟ قال: لا تحلّ الرواية عنه، إنه كان يعطى أموال اليتامى مضاربة، ويجعل الربح لنفسه.

أما الذين أسلموا دينهم وديناهم إلى أهواء الحكام، فيهبّون للدفاع عن أبي يوسف، وإبعاد صلته عن أبي حنيفة، ويختارون لذلك تهمة الجهمية، اتباع الجهم بن صفوان الذى قال من جملة ما قال: بأن لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى، وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين مجازاً، وأنه لا يصف الله بوصف يجوز إطلاقه على غيره.

قالوا: كان أبو حنيفة جهمياً، وكان محمد بن الحسن جهمياً، وكان أبو يوسف سليماً من الجهم. وهو لأبي الزرعة الرازى.

وعمر الناقد قال: ما أحب أن أروى عن أحد من أصحاب رأى إلا عن أبي يوسف، فإنه كان صاحب سنّة.

والدارقطنى كان يقول: هو (أبو يوسف) أقوى من محمد بن الحسن. كما يروى عنه أنه قال: أعور بين عميان.

ولسنا هنا فى معرض ذكر أصحاب أبى حنيفة، وإنما ذكرنا أبى يوسف لغرض بيان علاقته بالسلطان، وانضمامه إلى الحكم على نحو يخالف فيه رأى أبى حنيفة وسيرته. ولذلك نسوق بعضاً من أوجه خضوعه لخلفاء بنى العباس، والعمل على إرضائهم، فيما كان يمدّ فى رقعة اتساع مذهبه، ويوسّع من نطاق انتشاره من خلال سلطته ونفوذه، وعلى طريقة استتباطه وصوغ أفكاره التى وضعت أصول المذهب الحنفى ورسّخت كيانه. وقد ذكر الخطيب البغدادى أن البخارى قال: حكى لنا عن النعمان أنه قال: (ألا تعجبون من يعقوب؟ يقول على ما لم أقل). مما يظهر أن أبى يوسف كان يسمح لنفسه فى حياة شيخه أن يستتبط ما يشاء، ويدخل فى المذهب ما يراه. ففى كتاب الخراج يذكر رأى أبى حنيفة، ثم يصرّح برأيه على خلافه، كما أنه لم يكن لأبى حنيفة كتاب مستقل فى الفقه، نعم نسب إليه كتاب (العالم والمتعلّم) وقد بيّنا الاختلاف حوله، وأنه ليس له.

يقول الشيخ محمد الخضرى: وقد حاول بعض الحنفية أن يجعل أقوالهم المختلفة أقوالاً للإمام رجع عنها.



و الحاصل، إن مذهب أبى حنيفة لم يكن هو مجموع أقواله و آرائه، قد رأينا أصحابه ينفردون بأقوالهم. و لكن حاول الحنفية جعل جميع الأقوال منسوبة إليه لأنها على قواعده و أصوله.

يقول ابن عابدين: (إن ما خالف فيه الأصحاب إمامهم الأعظم لا يخرج عن مذهبه، إذا رجّحه المشايخ المعترفون. و كذا ما بناه المشايخ على العرف الحادث لتغيير الزمان، أو للضرورة، أو نحو ذلك، لا يخرج عن مذهبه أيضا، لأن ما رجّحوه لترجيح دليله عندهم مأذون فيه من جهة الإمام. و كذا ما بنوه عليه من تغيير الزمان و الضرورة، باعتبار أنه لو كان حيا لقال بما قالوه، لأن ما قالوه إنما هو مبنى على قواعده أيضا، فهو مقتضى مذهبه.... الخ (1).

لقد ابتليت الأمة بحكام أسرفوا فى البذخ و التمتع من الدنيا، كما أسرفوا فى الظلم و التعدي على الرعية. و قد قام كل من أهل البيت بما يجب عليه فى نصرة العدل و محاربة الظلم، و بذلوا أنفسهم لتحقيق ما دعا إليه الإسلام بما يكفل للأمة السعادة، لذلك كانوا طعمة لسيوف الظالمين، لأنهم كانوا حربا على الطغاة و الجبارين، و لم يركنوا إلى الظلمة، و لم يتعاونوا معهم امتثالا لأمره تعالى: **وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ** و إذ رأينا اتصال أبى حنيفة بأهل البيت و ميله السياسى إلى حركة زيد الشهيد، و اعترافه بأن الإمام الصادق أفقه الناس، و إقباله على الأخذ عنه، فإن رفض أبى حنيفة العمل للحكام قد يكون من نتائج تمسكه بنهج أهل البيت فى التباين مع الظالمين و عدم الدخول فيما هم فيه.

و لئن نشأ أبو حنيفة فى أجواء مغربية و ظروف مواتية، فإن ما عاناه كان شاقا و عسيرا، إذ كان عليه أن يوفق بين وجوده وسط تلك الأجواء، و بين اعتقاداته و قناعاته. و اكتشف أن السياسة لها نهجها الثابت فى معاداة أهل البيت بالرغم من تغيير الرجال و ما تبعته القربى من احتمالات بعد أن جاء بنو العباس إلى الحكم تحت ستار الرضى من آل محمد، و هم أقرب نسبا و أولى بالبر، فرأى كيف تزهد الأرواح و تداس الكرامات و ترتكب المجازر بحق آل البيت. ثم وقع عليه اختيار السلطة فى أن يكون

ص: 160

أداتها في الإساءة إلى علم الإمام جعفر بن محمد الصادق عند ما كلفه المنصور بأن يحضّر من المسائل ما يتوهمه صعبا على الإمام الصادق. وكان حقد المنصور على الإمام قد سوّغ له أن يتوسل بأمر ليس للإمام الصادق منازع فيه أو صنو. ونعلم أن لقاء أبي حنيفة هذا الذى تم بإشراف المنصور، قد فتح لأبى حنيفة مرحلة جديدة فى علمه و سير حياته. فكان لا يدع فرصة تقربه من الإمام إلا استغلها خاصة فى الموسم، وليس بخاف أن الإمام الصادق كان لا- يقرب أحدا إلا أن يكون ذا نفع، حتى أنه أبعد عنه المتقربين إلى الحكام و حرّم الولاية لهم، لأنه عليه السّلام كان يرى: «أن ولاية الجائر دروس الحق كله، وإحياء الباطل كله، وإظهار الظلم و الجور». و مما ورد عنه أيضا:

«العامل بالظلم و المعين له و الراضى به شركاء». و دخل عليه عذافر فقال عليه السّلام:

«بلغنى أنك تعامل أبا أيوب و الربيع، فما حالك إذا نودى بك فى أعوان الظلمة؟» و نهى يونس بن يعقوب عن معاونتهم، حتى على بناء المساجد (1).

و إذا نظرنا إلى الفترة التى برز فيها أبو يوسف، لم نجد من أسباب للبعد عن مواقف أبى حنيفة و التحوّل عن نهجه تحت ظروف الخوف أو الإكراه، و هى فترة خطيرة الأثر فى حياة المسلمين، إذ على يديه أرسيت قاعدة المذهب الرسمى للدولة، و بفعل منصبه كقاضى للقضاة اقترنت بشكل جذرى حركة المذاهب بأغراض السياسة و مشيئة الحكام.

و ليس هناك فارق زمنى كبير يبرّر ما حدث من تفاوت بين سيرة و سلوك رئيس المذهب الذى تعرّض للتعذيب و القتل على يد الحكام، و بين أبرز تلامذته الذى انضمّ إلى الحكّام، فكان واحدا منهم.

و إذا تغيّر الحاكم العباسى بعد المنصور، فيأتى الهادى، ثم الرشيد، فإن أسس السياسة و أغراضها واحدة، و يازائها نرى مسيرة الأئمة من أهل البيت ثابتة و راسخة، فبعد وفاة الإمام الصادق عليه السّلام قام مقامه فى الإمامة ابنه العبد الصالح (2) الإمام موسى بن جعفر الكاظم، الذى عانى من أهوال بنى العباس و ظلّمهم الأمرين حتى استشهد.

ص: 161

1- (1) للمزيد راجع الجزء الثانى من الكتاب.

2- (2) كان الإمام موسى يعرف بالعبد الصالح لكثرة عبادته.

عن صفوان الجمال قال: دخلت على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فقال لي: «يا صفوان، كل شيء منك حسن جميل خلا شيئاً واحداً».

قلت: جعلت فداك، أي شيء؟ قال: «كراك جمالك من هذا الرجل» - يعني هارون - قلت: والله ما أكرهته أشراً ولا بطراً، ولا للصيد ولا للهو، ولكن أكرهته لهذا الطريق - يعني طريق مكة - ولا أتولاه بنفسى، ولكن أبعث معه غلمانى.

قال: «يا صفوان، أيقع كراك عليهم؟» قلت: نعم جعلت فداك.

قال: «أتحب بقاءهم حتى خرج كراك؟» قلت: نعم.

قال: «فمن أحب بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم فهو كمن ورد النار».

قال صفوان: فذهبت وبعث جمالى.

وقد حاول الرشيد أن يسىء إلى الإمام موسى الكاظم، وعلى طريقة أسلافه، فاستدعى رجلاً ليجمعه بالإمام موسى الكاظم لغرض الإساءة إلى الإمام فى المجلس، ولعله يقطعه أو يحرقه، فكانت الغلبة الباهرة للإمام موسى الكاظم.

ولقد عانى الإمام موسى الكاظم منذ زمن خليفة بنى العباس (المهدى) وتعرض إلى صنوف من التعذيب والأذى، لأنه كان يمثل لبني العباس هاجساً وخطراً يتهدد كراسى حكمهم كل حين، لما فى منزلته التى يحتلها فى قلوب الناس من منافسة، وما يسببه سلطان الإمامة الروحية من عوائق تؤثر على سياستهم وتسلطهم على الرعية.

وقد استدعاه المهدي إلى بغداد فحبسه، فلما كان فى بعض الليالى رأى المهدي الإمام على بن أبى طالب وهو يقول له: «يا محمد فهل عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ فاستيقظ مذعوراً، وأمر به، فأخرج من السجن ليلاً، فأجلسه معه وعانقه وأقبل عليه، وأخذ عليه العهد أن لا يخرج عليه ولا على أحد من أولاده.

فقال: «والله ما هذا من شأنى، ولا حدثت فيه نفسى» فقال: صدقت (1).

ص: 162

وأسهم الرشيد بدوره في اضطهاد أولاد النبي وعترته الطاهرة، إذ حمله خوفه على سلطان بنى أبيه، وحقده على الإمام موسى بن جعفر على أن يذيقه ألوانا من العذاب والتنكيل وأن يدس له السم.

وفي معاملة الرشيد للإمام موسى بن جعفر، يتضافر عداء الحكام لمن يرونهم خطرا، والحقن الشخصي المحض.

ذكر ابن عمار وغيره ممن كانوا على اطلاع: أنه لما خرج الرشيد إلى الحج وقرب من المدينة، استقبله الوجوه من أهلها، وتقدمهم موسى بن جعفر عليهما السلام على بغلة، فقال له الربيع: ما هذه الدابة التي تلقيت عليها أمير المؤمنين؟ وأنت إن طلبت عليها لم تدرك، وإن طلبت لم تفت؟ فقال عليه السلام: «إنها تطأأت عن خيلاء الخيل، وارتفعت عن ذلة العير، وخير الأمور أوساؤها» قال: ولما دخل هارون الرشيد المدينة، توجه لزيارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومع الناس، فتقدم إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال:

السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا ابن عم -مفتخرا بذلك عليه- فتقدم الإمام فقال: «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبة. فتغير الرشيد، وتبين الغيظ فيه.

وفي إضافة تبين لنا مبلغ ما كان يحسه الرشيد من خيبة، وما سببه له ذكر الحقيقة التي عجز عن طمس إشعاعها وفعلها في النفوس عشرات الحكام. يذكر ابن كثير أن الرشيد قال: هذا هو الفخر يا أبا الحسين. ثم لم يزل ذلك في نفسه حتى استدعاه في سنة تسع وستين وسجنه (1).

هذا الحاكم الذي هو على هذه الدرجة من الكراهية لأهل البيت كان أبو يوسف يعمل جهده على إرضائه، ويبدل ما في وسعه للتقرب من عائلته وأهله، لينعم بما يدره عليه ذلك. فلا عجب أن يكون من الرشيد بذلك الموقع، ويحبه ذاك الحب الذي تمتى معه أن يشركه في نسبه فقال: لو جاز أن أدخلك في نسبي لفعلت. ولا عجب أن ينحو أبو يوسف بأول مذهب رسمي للدولة ذلك المنحى في اتباع الحكام من الأمويين والعباسيين في معاداة اتباع أهل البيت، وتعاطى اتهامات الحكام المعهودة

ص: 163

للشيعة بأمرهم منها براء. فشبّ في ظل مذهب أبي يوسف أناس تابعوه على الارتباط بمثل هؤلاء الخلفاء وإرضائهم.

ومع كل ما هم فيه من نفوذ وجاه، فإنهم لم يأمنوا غدر الخلفاء، ويقون كبقية الرعية معرّضين لنزول الأذى بهم، فحتى أبو يوسف نفسه يصبّ الماء ويتخبّط توقعا لكل مكروه عند ما دعاه الرشيد في إحدى الليالي (1). ولننظر ما ذا كان يريد الرشيد من أبي يوسف عند ما جاءه هرثمة بن أعين وعلی لسان أبي يوسف: (فقلت: تأذن لي أصبّ عليّ ماء و أتحنّط، فإن كان أمر من الأمور كنت قد أحكمت شأنی، وإن رزق الله العافية فلن يضّرّ فأذن لي، فدخلت فلبست ثيابا جددا، و تطيّبت بما أمكن من الطيب، ثم خرجنا فمضينا حتى أتينا دار أمير المؤمنين الرشيد، فإذا مسرور واقف، فقال له هرثمة: قد جئت به؟ فقلت لمسرور: يا أبا هاشم خدمتي و حرمتي و ميلي، و هذا وقت ضيق، فتدرى لم يطلبني أمير المؤمنين؟ قال: لا. قلت: فمن عنده؟ قال عيسى بن جعفر. قلت: و من؟ قال: ما عنده ثالث. قال: مرّ، و إذا صرت إلى الصحن فإنه في الرواق و هو ذاك جالس، فحرّك رجلك بالأرض، فإنه سيسألك، فقل: أنا. فجنّت ففعلت، فقال من هذا؟ قلت: يعقوب. قال: أدخل. فدخلت، فإذا هو جالس و عن يمينه عيسى بن جعفر، فسألته فردّ عليّ السلام، و قال: أظننا روّعناك. قلت: إي والله و كذلك من خلفي. قال: أجلس. فجلست حتى سكن روعي، ثم التفت إليّ فقال: يا يعقوب، تدرى لم دعوتك؟ قلت: لا. قال: دعوتك لأشهدك على هذا، إن عنده جارية، سألته أن يهبها لي فامتنع، و سألته أن يبيعها فأبى، و الله لئن لم يفعل لأقتلته. قال: فالتفت إلى عيسى، و قلت: و ما بلغ الله بجارية تمنعها أمير المؤمنين، و تنزل نفسك هذه المنزلة؟ قال فقال لي: عجلت عليّ في القول قبل أن تعرف ما عندي؟ قلت: و ما في هذا من الجواب؟ قال: إن عليّ يمينا بالطلاق و العتاق و صدقة ما أملك أن لا أبيع هذه الجارية و لا أهلها. فالتفت إلى الرشيد فقال: هل له من ذلك مخرج؟ قلت: نعم! قال: و ما هو؟ قلت يهب لك نصفها، و يبيعك نصفها، فتكون لم تبع و لم تهب. قال عيسى: و يجوز ذلك؟ قلت: نعم! قال فأشهد أني قد وهبت له نصفها و بعته النصف الباقي بمائة ألف دينار. فقال: الجارية. فأتي بالجارية و بالمال،

ص: 164

1- (1) تاريخ الخطيب ج 14 ص 250. و [1] وفيات الأعيان ج 5 ص 247. [2]

فقال: خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها. قال: يا يعقوب بقيت واحدة. قلت:

وما هي؟ قال هي مملوكة ولا بد أن تستبرأ، والله إن لم أبق معها ليلتي إنى أظن أن نفسي ستخرج. قلت: يا أمير المؤمنين تعتقها وتزوجها، فإن الحرة لا تستبرأ. قال:

فإنى قد اعتقتها، فمن يزوجنيها؟ قلت: أنا. فدعا بمسرور و حسين، فخطبت و حمدت الله، ثم زوجته على عشرين ألف دينار. ودعا بالمال فدفعه إليها ثم قال لى: يا يعقوب انصرف. ورفع رأسه إلى مسرور فقال: يا مسرور. قال: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: أحمل إلى يعقوب مائتي ألف درهم وعشرين تختا ثيابا فحمل معي).

و كان الرشيد يقول لأبى يوسف فى الأحوال التى تتطلب مخرجا: اذهب فاحتل (1).

ويقول الغزالي فى وصف هذا المنحى بأنه من فتنة الدنيا، فى مساق قوله أن الفقيه فى الزكاة ينظر إلى ما يقطع به مطالبة السلطان، حتى إذا امتنع عن أدائها، فأخذها السلطان قهرا؛ حكم بأنه برئت ذمته. و حكى أن أبى يوسف القاضى كان يهب ماله لزوجه آخر الحول، ويستوهب ماله إسقاطا للزكاة. فحكى ذلك لأبى حنيفة رحمه الله فقال: ذلك من فقهه. ويعقب الغزالي: صدق، فإن ذلك من فقه الدنيا، ولكن مضرتة فى الآخرة أعظم من كل جنائية. و مثل هذا هو العلم الضار (2).

و لا نظن أن حكم الغزالي متعلق بهذه الحادثة فحسب، لأنها حادثة تهون أمام بقية الأحداث، و إذا كان الغزالي على غير علم ببقية الحوادث و قال هذا القول، فما الظن به عندئذ؟ و بين حريم القصور العباسية كان أبو يوسف يتمتع بمكانة ما هى إلا امتداد لموقعه عند الرشيد، يذكر الخطيب أن أم جعفر كتبت إلى أبى يوسف: ما ترى فى كذا، و أحب الأشياء إلى أن يكون فيه كذا؟ فأفتاها بما أحببت. فبعثت إليه بحق فضة فيه حقائق فضة مطبقات فى كل واحدة لون من الطيب، و فى جام دراهم و سطرها جام فيه دنانير. فقال له جليس له: قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها» فقال أبو يوسف: ذاك حين كانت هدايا الناس التمر و اللبن.

ص: 165

1- (1) تاريخ الخطيب ج 14 ص 254. [1]

2- (2) إحياء علوم الدين ج 1 ص 32. [2]

و رويت هذه الحادثة بإضافات أخرى و تفاصيل تولّد في النفس أحاسيس نكفّ عن التعليق عليها، و ندع الأمر على ما يوحيه، و نتركه على ما تصوّره الأحداث.

و لكن لا بد من الإشارة إلى أن عصور الانحطاط و التردّي التي وقعت بها الأمة على أيدي الحكام و الجبابرة، كانت نتيجة معلومة سلفا لمقدمات لا تقتصر على مبادئ حكم العباسيين، بل تتعدّها لتستغرق عودة الجاهلية الأولى في حكم معاوية بن أبي سفيان.

و لهذا قلنا إن أبا حنيفة كان يستغفر الله من تركه الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و تلك من أهم أوجه الاختلاف بين أبي حنيفة و تلامذته المقرّبين. و من أظهر الصفات التي اكتسبها من هدى آل رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم على أن ذلك لم يمنع من أن تشمله النظرة التي ينظر بها إلى أصحابه، فعّد أبو حنيفة إلى جانب أصحابه ممن اتصلوا بخدمة هارون الرشيد، و قوّوا مذهبهم، و حصل لهم العلم و السلطنة (1).

و لا بد هنا من التعرّض إلى موقف الأنصار و الخصوم، و استعراض الأقوال فيه و آراء الناس حوله، لنقف على ركام من الأخبار المختلفة و الآراء المتناقضة، فهناك تعصّب و غلوّ في شخصيته، و إعجاب مفرط في مواهبه. و هناك نقد مرّ لأعماله، و تحامل شديد عليه، و وصف بما لا يليق بشخصية رئيس مذهب و إمام طائفة.

فطائفة محبّيه و مرديه قد رفعوه إلى منازل النبيين، و زعموا أن التوراة بشّرت باسمه، فذكر اسمه إلى اسم اليهوديين: و هب بن منبّه و كعب الأحبار. و أنه وجد في بعض الكتب المنزلة صفة ثلاثة رجال من أمة محمد صلّى الله عليه و آله و سلّم يفوقون أهل زمانهم فقها و علما (2).

و أن النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم أخبر به قبل ولادته، فروى مشايخهم بسندهم عن أبي هريرة أن رسول الله قال: يكون في أمّتي رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمّتي يوم القيامة (3).

و عن أبي هريرة أيضا: يكون في أمّتي رجل اسمه النعمان، و كنيته أبو حنيفة هو سراج

ص: 166

1- (1) مناقب الشافعي للرازي ص 139.

2- (2) مناقب الموفق.

3- (3) جامع مسانيد الإمام الأعظم ج 1 ص 141.

أمتي، هو سراج أمتي (1). وبسندهم عن ابن عمر: يظهر من بعدى رجل يعرف بأبي حنيفة يحيى الله سنتي على يديه.

و يجعل لأمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام نصيب في ذلك، فسندهم عن عبد الله بن مغفل قال: سمعت أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضی الله عنه يقول: ألا- أنبئكم برجل من كوفان، من بلدتكم هذه، أو من كوفتكم هذه، يكتى بأبي حنيفة قد ملئ قلبه علما و حكما، وسيهلك به قوم آخر الزمان، الغالب عليهم التناز، يقال لهم البنانية كما هلكت الرافضة بأبي بكر و عمر رضی الله عنهما (2).

و كذلك لابن عباس بسندهم عن الضحاک عن ابن عباس قال: يطلع بعد النبي صلی الله عليه و آله و سلم بدر على جميع خراسان يكتى بأبي حنيفة.

و إذا توصّل أنصاره إلى إشاعة ذلك، غلب الهوى كل ميل للحق، و تحكّم التعصب في القول، و أغلقوا كلّ منفذ. قال خلف بن أيوب: صار العلم من الله تعالى إلى محمد صلی الله عليه و آله و سلم ثم صار إلى أصحابه، ثم صار إلى التابعين، ثم صار إلى أبي حنيفة و أصحابه. فمن شاء فليرض، و من شاء فليسخط (3).

و يرفعونه فوق منزلة الأنبياء، لأن عيسى إذا رجع يقلّده و يحكم بمذهبه، و أن الخضر تعلم أحكام الشريعة منه.

يقول قاضي زاده: اعلم أن المذهب لا يقلّده من الصحابة و التابعين إلا أبو حنيفة، فإن عيسى لما ينزل يحكم بمذهبه (4).

و لم يأبه المغالون بشيء، فوصفوا إمامهم بصفات لا يمكن تصديقها في حدود إمكانات البشر، كقراءة القرآن سبعين ألف مرة في محل واحد، و صلاته في كل ليلة ركعتين يختم القرآن في كل ركعة، و صلاته الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة. و قد سوى الغلوّ و التعصّب بين أبي حنيفة و بين آخرين اندفع أصحابهم في ادعاء العبادات لرجالهم على هذا النمط.

ص: 167

1- (1) نفس المصدر. و تاريخ بغداد. و [1] مناقب الموفق.

2- (2) جامع المسانيد.

3- (3) الخطيب البغدادي. [2]

4- (4) جامع الرموز ج 1 ص 2.



و مهما بذل الباحث من جهد فى تحليل الاعتماد على ما يمجه الذوق و ينبو عن العقل فلا يتجاوز الهياج العاطفى و غليان الهوى، إذ تتصارع الانفعالات و يعمد إلى الإسفاف و الابتعاد عن الحقيقة، و مهما جهد المرء فى مواجهة اضطراب المنفعل، فلا يلق إلا انفعالا و زيادة فى الاضطراب تدفعه إلى الإغراق أكثر و الإسفاف إلى أبعد مما فى ذهنه، و فى نهاية الأمر تصبح الإساءة عن طريق الهوى و الغلو هى الحصيلة الدائمة.

قالوا: إن الله خصّ أبا حنيفة بالشرعية و الكرامة. و من كرامته أن الخضر عليه السلام كان يجىء إليه كل يوم وقت الصبح و يتعلم منه أحكام الشرعية إلى خمس سنين. فلما مات أبو حنيفة ناجى الخضر ربه و قال: إلهى، إن كان لى عندك منزلة فأذن لأبى حنيفة حتى يعلمنى من القبر على حسب عادته حتى أتعلم شرع محمد صلى الله عليه و آله و سلم على الكمال.

فأحياء الله، و تعلم منه العلم إلى خمس و عشرين سنة. و بعد أن أكمل الخضر دراسته، أمره الله أن يذهب إلى القشيري و يعلمه ما تعلم من أبى حنيفة. و صنّف القشيري ألف كتاب، و هى لا تزال وديعة فى نهر جيحون، إلى رجوع المسيح، فيحكم بتلك الكتب. لأنه يأتى فى زمان ليس فيه من كتب شرع محمد صلى الله عليه و آله و سلم فيتسلم المسيح أمانة نهر جيحون، و هى كتب القشيري (1).

و فى وفاة أبى حنيفة يذكرون بكاء الجنّ له، و لهم أسانيدهم أن الجن بكت أبا حنيفة ليلة مات، و كانوا يسمعون الصوت و لا يرون الشخص.

ذهب الفقه فلا فقه لكم فانتقوا الله و كونوا خلفا

مات نعمان فمن هذا الذى يحيى الليل إذا ما سدفا

(2) أما الطائفة الثانية من معاصريه و غيرهم فقد رموه بالزندقة، و الخروج عن الجادة، و وصفوه بفساد العقيدة، و الخروج على نظام الدين، أو مخالفة الكتاب و السنة. و طعنوا فى دينه و جرّده من الإيمان (3).

و قالوا: اجتمع سفيان الثوري، و شريك، و حسن بن صالح، و ابن أبى ليلى

ص: 168

1- (1) الإشاعة فى أشراف الساعة ص 120. و الباقوتة لابن الجوزى ص 45.

2- (2) آكام المرجان للقاضى الشبلبي ص 149.

3- (3) انظر أبو حنيفة، محمد أبو زهرة ص 5.

فبعثوا إلى أبي حنيفة فقالوا: ما تقول في رجل قتل أباه، و نكح أمه، و شرب الخمر في رأس أبيه؟ فقال: مؤمن. فقال ابن أبي ليلى: لا قبلت لك شهادة أبدا. و قال له سفیان الثوري: لا كلمتك أبدا (1).

و حكى عن أبي يوسف، قيل له: أ كان أبو حنيفة مرجئا؟ قال: نعم. قيل: أين أنت منه؟ قال: إنما كان أبو حنيفة مدرّسا، فما كان من قوله حسنا قبلناه، و ما كان قبيحا تركناه عليه (2).

و حدّث إبراهيم بن بشار، عن سفیان بن عيينة أنه قال: ما رأيت أحدا أجرا على الله من أبي حنيفة. و عنه أيضا: كان أبو حنيفة يضرب لحديث رسول الله الأمثال فيبرره بعلمه (3).

و عن الوليد بن مسلم قال: قال لي مالك بن أنس: أ يذكر أبو حنيفة في بلادكم؟ قلت: نعم. قال: لا ينبغي لبلادكم أن تسكن (4).

و عن الأوزاعي يقول: إننا لا ننقم على أبي حنيفة أنه رأى، كلنا يرى، و لكننا ننقم عليه أنه يجيئه الحديث عن النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم فيخالفه إلى غيره (5).

قال ابن عبد البر في الانتقاء: و ممن طعن عليه و جرحه: محمد بن إسماعيل البخاري، فقال في كتابه (الضعفاء و المتروكين): أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، قال نعيم بن حماد: حدثنا يحيى بن سعيد و معاذ بن معاذ، قالوا: سمعنا سفیان الثوري يقول: استتيب أبو حنيفة من الكفر مرتين. و قال نعيم الفزارى: كنت عند سفیان بن عيينة، فجاء نعي أبي حنيفة، فقال:.... كان يهدم الإسلام عروة عروة، و ما ولد في الإسلام مولود أشرّ منه. و قال ابن الجارود في كتابه (الضعفاء و المتروكين): النعمان بن ثابت جلّ حديثه و هم.

ص: 169

1- (1) الخطيب ج 13 ص 374.

2- (2) نفس المصدر.

3- (3) الانتقاء لابن عبد البر ص 148.

4- (4) ميزان الشعراني ج 1 ص 59.

5- (5) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص 63.

وقد روى عن مالك رحمه الله أنه قال في أبي حنيفة نحو ما ذكره سفيان: إنه شرّ مولود ولد في الإسلام، وأنه لو خرج على هذه الأمة بالسيف كان أهون. وروى عنه أنه سئل عن قول عمر بن الخطاب: بالعراق الداء العضال؟ فقال مالك: أبو حنيفة. وروى ذلك كله أهل الحديث.

وعن وكيع بن الجراح أنه قال: وجدت أبا حنيفة خالف مائتي حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقيل لابن المبارك: كان الناس يقولون إنك تذهب إلى قول أبي حنيفة؟ قال: ليس كل ما يقول الناس يصيبون فيه، كُنَّا نأتيه زمانا ونحن لا نعرفه، فلما عرفناه تركناه (1).

ولقد جمع ابن عبد البر بعضا من أقوال المادحين والطاعنين أخذنا منها ما تقدم وسواها كثير بإمكان القارئ الرجوع إليها في الانتقاء، في مظانها الأخرى كالخطيب البغدادي الذي طعن علماء الحنفية فيما أورده، ونسبوه إلى التعصب الأعمى، وأجابوا عما ذكره، وألفوا في (تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب). على أن أعظم الأقوال تأثيرا ما ضمته مصنفات أصحاب الصحاح والسنن والتي تتخذ مستمسكا وأصلا يعملان في النفوس والأذهان، فكان ما ذكره النسائي عن أبي حنيفة من أكبر ما يرفع في الحملة ضد أبي حنيفة حيث قال: وقال لنا أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب: وأبو حنيفة ليس بالقوى في الحديث، وهو كثير الغلط والخطأ على قلة روايته. ثم يصنّف أصحابه إلى ضعفاء وثقات (2) فتضم هذه الأقوال إلى بعضها، وتكون مادة للطاعنين.

وصفوة القول، أن دراسة حياة أئمة المذاهب تقتضى التوقف كثيرا عن ركامات ما أنتجته العاطفة وما أفرزه التعصب، وكما أسلفنا فليس من سبل الحق وطرق الأمانة الاعتماد على ذلك، إذ لا يجنى أحد إلا أمورا لا تمت إلى الحقيقة، ولا صلة لها بالواقع. وهي تسيء أكثر مما تنفع، وتضعف أكثر مما تعضد، والطرفان في غنى عن ذلك لو أخلصوا في المأخذ، واتخذوا من خصائص الرجال ومكانات أئمة المذاهب مادة لا يتعدّوها إلى نزغات التعصب أو التحامل الفظ. فمن محب مغال يفتح أبواب

ص: 170

1- (1) الانتقاء لابن عبد البر ص 151. والخيرات الحسان ص 76.

2- (2) كتاب الضعفاء والمتروكين ص 124.

الخيال و يتخلى عن الواقع فيسمح لنفسه بإشراك الجن أو المخلوقات الأخرى التي تتخذ وسيلة إلهية في سياق رسالة نبي أو إظهار معجزة لولى بدونها قد يلحق بالشريعة أذى وقد يصيب دين الله الضرر، و من متحامل ناغم يتخلى عن روابط العقيدة و يتناسى و شائع الدين، فيخرج هدفه من حظيرة الإسلام. أما المنامات فأمرها عجب، حيث لا يلتفت أحد من مستخدميها-مادح أو قادح- إلى سخر تعبيريها أو تدنى تأليفها، فطلت مادة متيسرة لا تكلف ثمنا، يتناولها ذوو الأغراض يسر و سهولة، و يتلقاها الواقعون تحت تأثير مروّجها و باعثها بثقة و استسلام، و تصبح سلاحا بيد العامة، فتهيج على سطح المجتمع لغة المنامات و ما يلحق بها من ادعاءات و كرامات.

أما المصنّفات التي تشتمل على المناقب، فهي جمع لكل ما أشرنا إليه، و أخذ بكل ما راج و كثر، و هي كثيرة، و مع كثرتها فهي لا تهدي السبيل و لا تنير الطريق، إذ أنها-كما يقول الشيخ أبو زهرة-طوائف من الأخبار يسودها المبالغة، و لا يكاد يخلو خبر منها من الإغراق، فتميز صحيحها من سقيمها يحتاج إلى مقاييس النقد المستقيمة، فأخبارها لا ترفض جملة و لا تؤخذ جملة، إذ هي بلا شك فيها الحق و الباطل، و أخذ الحق من بينها يحتاج إلى نظر فاحص (1).

لقد وجد بعض أتباع أبي حنيفة في حقيقة كونه فارسيا أمرا غير مرض فحاولوا وضع نسب عربي فقالوا: إن ثابت هو ابن طاوس بن هرمز ملك بني شيبان.

و قالوا أيضا: إنه من الأنصار، فهو النعمان بن ثابت بن زوطا بن يحيى بن رشاد الأنصاري.

أو أنه تيمى كوفى من رهط حمزة الزيات.

و المشهور من نسب أبي حنيفة أنه: النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه. ولد سنة 80 هـ و توفى سنة 150 هـ.

و الذين توقفوا عن التلاعب بحقيقة النسب قالوا: بأنه من نسل أفريدون-من ملوك العجم- و وضعوا لذلك حديث: لو كان العلم في الثريا لتناوله أبناء فارس، أو قوم من أبناء فارس، فخصّصوا عمومهم في أبي حنيفة.

ص: 171

1- (1) أبو حنيفة ص 7.

وفى نهجنا هنا تجريد البحث عن حياة أبي حنيفة من زوائد فرضتها الميول والأغراض المتعددة، فقد غلبت على أكثر كتّاب حياة أبي حنيفة من أتباعه عاطفة قوية، وسيطر عليهم الاندفاع، حتى أنهم لم يترددوا فى استخدام الأساطير والخرافات، فهو إمام الأئمة، وأعلم الأمة، وما من عالم من علماء الدنيا إلا وهو تحت ختمه، وما من فقيه إلا وهو عيال عليه، وأنه نودى من زاوية البيت الحرام:

عرفت فأحسنت المعرفة، وخدمت فأخلصت الخدمة، غفرنا لك ولمن اتبعك ولمن كان على مذهبك إلى يوم القيامة (1).

وقد كنا هناك مضطرين إلى ذكر ما أورده من أحاديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ومناقشتها، وعند ما وضعناها فى ميزان الاعتبار، لم تحرك كفة عن مستواها فضلا عن ترجيحها، لأن الدوافع واضحة والأغراض جلية، وهى ناجمة عن أوضاع سادت فيها الفرقة وتعرضت شخصية أبي حنيفة إلى الانتقاد، فنالوا منه، ووصفوه بكل مكروه.

وقد قطعت خطة تأسيس المذاهب شوطا كبيرا على الساحة، وأخذت ترسى دعائمها، فتقتطع من أجزاء المجتمع وتسرى فى أحشائه، وينشأ جيل وآخر على مثل هذه العلاقات. وعبر كل المراحل تختبئ أغراض الحكام وراء كل جانب من جوانب العداوة والفرقة، كما كانت أغراضهم وراء تصنيف الناس وتقسيم دينهم.

ولقد كانت الخصائص التى تجاهلها الكثيرون ولم يذكرها بحقائق أسمائها ودلالة وجودها فى شخصية أبي حنيفة ومواقفه تمثل مشكلة للمنصور الدوانيقى (2) الذى عرف بعدائه للعلويين، وميل أبي حنيفة واتصاله بهم معروف، فتعارضت أغراض المنصور وأهدافه فى إثناء أبي حنيفة، وتوجيه الأنظار إليه، ليقف بإزاء شخصية الإمام جعفر الصادق، إذ قال له المنصور: يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهبى له من المسائل الشداد (3). تعارضت هذه الأغراض مع خصائص أبي حنيفة وسلوكه، حتى أنه عجز عن تحويله وإبعاده عن توجيه النقد اللاذع الذى كان شيئا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذى لا يطبقه المنصور

ص: 172

1- (1) مفتاح السعادة 82/2. و [1] مقدمة المناقب للخوارزمي.

2- (2) الدوانيقى أو أبو الدوانيق من الألقاب والكنى التى أطلقت على المنصور لشحه وبخله.

3- (3) المناقب [2] للموفق.

على أصوله، ولا يقوى على مواجهة أهله، الذين قلّ عددهم، وانزوت جموعهم تحت ضغط أفعال الحكّام وسياسة بنى العباس. وهكذا ضاق المنصور بأبي حنيفة، وقرر الخلاص منه، وكان لا بدّ له من سبب ظاهرى يأخذه به أمام الناس، فعرض عليه قضاء بغداد ثانية، ورفضه أبو حنيفة. ووصله بهدية أرسلها إليه، فردّها عليه، فحبسه وضيّق عليه، وجعل يضربه كل يوم عشرة أسواط، حتى ضرب عشرة و مائة سوطا (1).

إن الأفكار وليدة التجارب، وللبيئة أثرها فى توجيه سلوك الأفراد، وقد كانت لأبى حنيفة تجارب كثيرة، فقد ولد ونشأ فى الكوفة، وهى البلدة العربية التى عرفت بنزعتها الثورية واتجاهها السياسى ضد الحكم الأموى وميلها للعلويين، وقد شبّ أبو حنيفة فى عهد الحجاج بن يوسف. فرأى قسوته واستبداده وسيرته السيئة وحكمه القاسى، ومعاملته للناس بما لا يطيقونه من الأذى والعسف، ومات الحجاج وعمر أبى حنيفة حينها خمسة عشر عاما، وشاهد ولاة الأمويين يسيرون بالأمة بالجور، ويخالفون نظم الإسلام اتباعا لملوكهم وطبقا لرغباتهم.

وأصبحت الكوفة قاعدة الثورة ضد الظلم الأموى، ومركزا تتجمع فيه القوات الموالية للعلويين والعباسيين معا. أضف إلى ما احتفظت به الكوفة من نشاط فكرى وصراع عقائدى أورثها مشاكل كثيرة، وأصبح مجتمعها مسرحا للخلافات.

وفى عصر أبى حنيفة، نشطت الدعوة العلوية لوجود كتلة شيعية قوية أثرت تأثيرا غالبا فى الحركات الفكرية والسياسية، ومع أن الدعوة للثورة كانت مشتركة بين العلويين والعباسيين، فإن الدعاية العباسية كانت محدودة الأثر بالرغم من استغلال العباسيين لشعار الدعوة إلى آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإقامة تنظيماتهم على هامش المناداة بالرضا من آل محمد، فتعاطف الناس معهم ودخلوا فى صفوفهم وهم يظنون بهم خيرا، وأنهم لا- يختلفون عن الشيعة الذين كانوا يسعون بإخلاص إلى الانتصاف لآل بيت نبيهم الأطهار الذين ينطبق عليهم لفظ آل محمد، وأن الخلافة من أمور الدين، وهم أحق الناس بالقيام بأمر رسالة جدّهم المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

وعند ما نزلت بالأمة كارثة استشهاد سيد الشهداء الإمام أبى عبد الله

ص:173

الحسين عليه السلام على أيدي يزيد، كابد الشيعة من نتائجها السياسية و النفسية أهوالا و آلاما دفعتهم إلى مواصلة الجهاد ضد الظلمة و تفجير الثورات، و كانت السلطة بتجبرها و طغيانها لا تتورع عن سفك الدماء و إزهاق الأرواح و انتهاك الحرمات، و الشيعة لا يكفون عن التفانى و تقديم التضحيات. و لما قامت ثورة زيد بن علي، شاع بين الناس من جديد تيار ثورة الإمام الحسين، و انتشر بين صفوفهم نداء نهضة السبط الشهيد مرة أخرى. فكان أبو حنيفة من المتحمسين لثورة زيد الشهيد، و قد مرّ بنا جانب من وجوه انحيازه إلى جانبه، و قد حثّ على الالتحاق بجيش إبراهيم، كما أفتى بالخروج مع الثوار من أهل البيت بعد أن بايعه (1).

و جاءت إليه امرأة فقالت له: إنك أفتيت ابني بالخروج مع إبراهيم فخرج فقتل.

فقال لها: ليتنى كنت مكان ابنك (2).

و قال أبو إسحاق الفزاري: جئت إلى أبي حنيفة فقلت له: ما اتقيت الله، أفتيت أخى بالخروج مع إبراهيم بن عبد الله حتى قتل؟! فقال: قتل أخيك حيث قتل يعدل قتله يوم بدر، و شهادته مع إبراهيم خير له من الحياة (3).

و غير ذلك من الإجابات و الأقوال- كما ألمحنا إليه سابقا- و التي تكشف انحيازه للثورة، و تعلقه بقادتها إلى حدّ تتضح فيه ظروف إقامة أبي حنيفة في ظل المنصور الذي أقضت مضجعه تلك الثورة، و بقى كأنه يتقلب على ألسنة النيران أو يبيت على حسك السعدان، حتى اتسخت ثيابه، و زرى مظهره، و هو يتلظى يطلب رءوس أهل البيت. و أبو حنيفة يكتب إلى إبراهيم يشير عليه أن يقصد الكوفة و يقول: انتها سرا، فإن من هاهنا من شيعتكم يبيتون أبا جعفر فيقتلونهم أو يأخذون برقبته فيأتونك به (4). و يجهّزه بأربعة آلاف درهم لم يكن عنده غيرها (5) و يقول له:

فإذا لقيت القوم و ظفرت بهم فأفعل كما فعل أبوك في أهل صفين، أقتل مدبرهم،

ص: 174

1- (1) عمدة الطالب ص 109. [1]

2- (2) مرآة المعارف 97/1. و عمدة الطالب. [2]

3- (3) المقاتل ج 2 ص 712. [3]

4- (4) المقاتل. [4]

5- (5) عمدة الطالب. [5]

وأجهز على جريحهم. ولا- تفعل كما فعل أبوك في أهل الجمل، فإن القوم لهم فئة (1) فلا يفرق بين دولة معاوية وبين دولة المنصور، مما يجعل تقدير خفاء وضعه على المنصور بعيدا. وهو الملك الذي عدّ من دهاة عصره، وقد أحرّ تنفيذ حكمه إلى حين الانتهاء من الأوضاع المعقدة و الظروف الشائكة التي يسببها له أهل البيت عليهم السّلام سواء بمكاناتهم الدينية أو سلطانهم الروحي أو حركاتهم الثورية و تصديّهم لظلمه بحد السيف. و مهما يكن الاختلاف و كثرة الأقوال عن الأسباب التي دعت المنصور إلى الحقد عليه، فمما لا شك فيه أن السبب الأساس الذي يعنى السلطة هو صلة أبي حنيفة بالعلويين و ميله إليهم. و قد مرّ بنا المزيد من ذلك بما لا زيادة عليه في رأينا (2).

و يبدو أن مدرسة أبي حنيفة-برغم وجوده حيا- كانت تتأثر بالسلطة، يتلمذ الأصحاب على إمامهم في العلم و الفقه، و يفتحون على الحكام و الساسة في المواقف و السلوك. و قد رأينا مدى التحوّل في خط أبي يوسف. أما زفر بن الهذيل فيقول:

كان أبو حنيفة يجهر في أمر إبراهيم جهرا شديدا، و يفتي الناس بالخروج معه. فقلت له: و الله ما أنت بمنة عن هذا حتى نوتى، فتوضع في أعناقنا الحبال (3).

و في الجملة، فإن موقف امتناعه عن تقلّد القضاء من أهم شواهد السلوك الذي تميز بها أبو حنيفة، و هو يشتمل على دلالات لم تغب عن بال المنصور. لأن الرفض يفسد خطة المنصور السياسية التي وضعها لمواجهة نفوذ أهل البيت عليهم السّلام و لذلك فإن فكرة المذاهب الرسمية أو السلطوية لم تلصق بأبي حنيفة، إذ أعاقها رفضه و امتناعه، و إنما ترتبط بأعمدة مدرسته. كذلك فإن امتناع أبي حنيفة عن تولي القضاء يعنى منع التعاون معهم و حجب التأييد عنهم، و ما يحمل ذلك على أنه يرى عدم صحة إمامة المنصور فلا يجوز تولي القضاء لهم. و كيف لا يعتقد ذلك منه، و قد تأثر بأساتذته من سادة أهل البيت، حيث حضر عند الإمام الباقر عليه السّلام المتوفى 114 هـ زيد الشهيد عليه السّلام المتوفى سنة 122 هـ و الإمام الصادق عليه السّلام المتوفى سنة 148 هـ.

ص: 175

1- (1) مراقد المعارف. و المقاتل. و العمدة. [1]

2- (2) انظر ج 1 من الكتاب.

3- (3) المقاتل. [2]



و حقيقة الأمر أن جلّ ما تشير إليه أخباره في هذا المقام يبين منه أنه كان قلبه مع العلويين في خروجهم أولا- على الأمويين، ثم في خروجهم ثانيا على العباسيين، وكان لا يرى لبنى أمية على أي حال حقا و لا سلطانا من الشرع أو الدين، ولكنه لا يحمل السيف، و لا يثور، لاعتبارات لها مقامها (1).

و يبدو أن ذلك كان مشهورا منه منذ عهد الأمويين، فتوحّدت وسيلة الإيقاع به من قبل النظامين، و اتخذ القضاء محكا لأنه منصب ديني و سلطة تشريعية تسند إلى من يميّز بالعلم و المكانة الدينية، فضلا عن أن توليها يعنى التحاق صاحبها بالملوك و الحكام، و قد ألمحنا إلى محنته مع ابن هبيرة والى الأمويين حتى لتكاد تتساوى العقوبة كأنها تصدر عن وال واحد، و ليس ذلك بغريب لأن التهمة واحدة. يروى الحسن بن زياد-صاحب أبي حنيفة- عن أبي حنيفة قال: كان بنو أمية يطلبون الفقهاء للإفتاء، فدعاني واحد منهم و كان أول ما دعيت، و عن يمينه و شماله ابن أبي ليلى و ابن شبرمة، فقال لأحدهما: ما تقول في امرأة زوّجت نفسها في عدّتها؟ قال: تفرق و تضرب ضرب النكال، و المهر في بيت المال. و قال الآخر مثل ذلك. فقال: يا نعمان، ما تقول أنت؟ فاسترجعت و قلت: هذا أول ما دعيت، كيف لا أقول ما أدين به، و قولي فيها قول على رضى الله عنه، و بنو أمية لا يذكر عندهم على و لا يفتون برأيه، فقلت: أصلحك الله، اختلف فيها بدرّيان من أصحابه عليه السلام فقال عمر رضى الله عنه بما قالنا، و قال الآخر تفرق، و تتم عدة الأول و عليها عدة مستأنفة من الثاني إذ دخل بها، و عليه المهر بما استحل من فرجها، و لا يجعل في بيت المال.

قال: من قال هذا؟ قلت: على بن أبي طالب رضى الله عنه. قالوا: أبو تراب؟ قلت نعم. فنكس رأسه و قال لأشبه القولين بالحديث... ه. و في أخرى زيادة قال (ابن هبيرة) بأى القولين تأخذ أنت؟ قال: قلت: عمر عندي أفضل من على، لكن برأى على آخذ.

و جلى أن أبا حنيفة إضافة إلى ما صرح به من خشيته جانب الحاكم الأموى.

و تدرّجه في الإجابة الحذرة، فإنما بادر إلى تقديم ذكر الأفضلية لتهدئة نفس الحاكم، و من ثم التحوّل إلى الرأى. حكى أن الكردرى يعقبه بالقول: و إنما ذكر حديث

ص: 176

1- (1) أبو حنيفة لأبى زهرة ص 31.

الأفضلية- وإن لم يكن له دخل في المقصود- لئلا يتهم بالرفض أو الاعتزال، وكان بنو أمية لا يذكر عندهم عليّ، وكل من ذكره عندهم عاقبوه. وكانت العلامة فيه أن يقولوا: قال الشيخ كذا، وكان الحسن البصرى إذا ذكره قال: قال أبو زينب كذا (1).

و من المعروف عن رأى أبي حنيفة أنه: ما قاتل أحد عليا، إلا و عليّ أولى بالحق منه. عن الحسين بن زياد قال: سمعت أبا حنيفة يقول: لا شك أن أمير المؤمنين عليا إنما قاتل طلحة و الزبير بعد أن بايعاه و خالفاه. و فى رواية أنه قال: و هو (الإمام علي) علّم المسلمين السنّة فى قتال أهل البغى (2).

كما أنه كان يروى عن أسانيد، و يبدو لعلّه لا تعدو الحكام و الإشفاق منهم، و كأنه يهرب من بلائهم، فيروى عن حمّاد قال: قال إبراهيم: عليّ أحبّ إلينا من عثمان (3) و معلوم علاقة حمّاد و إبراهيم و دورهما فى تكوين مكانة أبى حنيفة و الصلة التى تجمعهم.

و قد حضر أبو حنيفة عند علماء الشيعة، و أخذ عنهم العلم، و روى أحاديثهم، نذكر منهم على سبيل الإشارة لا الاستقصاء:

جابر بن يزيد بن الحارث الجعفى المتوفى سنة 128 هـ.

حبيب ابن أبى ثابت أبو يحيى بن قيس الكوفى المتوفى سنة 119 هـ.

فحول بن راشد، أبو راشد النهدي المتوفى 141 هـ.

عطية بن سعد العوفى المتوفى سنة 111 هـ.

أجلح الكندى، و قيل اسمه يحيى بن عبد الله، و لقبه الأجلح المتوفى سنة 145 هـ. إسماعيل بن أبى عبد الرحمن بن أبى كريمة المتوفى سنة 127 هـ.

المنهال بن عمر الكوفى التابعى.

عدى بن ثابت الأنصارى الكوفى المتوفى سنة 119 هـ.

زبيد بن الحارث الأيامى المتوفى سنة 122 هـ.

ص: 177

1- (1) المناقب 1/173. [1]

2- (2) المناقب [2] للموفق 2/84.

3- (3) المصدر السابق.

وغيرهم من رجال الحديث، وقد خرّج أحاديثهم كبار المحدثين، وضمّت كتب الرجال تراجمهم وأسماء من حضر عندهم من العلماء (1).

## وفاته

:

توفى أبو حنيفة سنة 150 هـ ببغداد، ودفن بالجانب الشرقي بمقبرة الخيزران، وفيها قبر محمد بن إسحاق صاحب السيرة (وكانت قبلا مقبرة للمجوس تسمى أيضا الحضرية) (2).

وفي سبب وفاته ثلاث روايات:

الأولى: أن أبا حنيفة بقى في السجن مضيّقا عليه إلى أن وافته المنية.

والثانية: أن المنصور أخرجه من السجن، وفرض عليه الإقامة الجبرية في المدينة، ومنعه من الاتصال بالناس إلى أن توفى.

والثالثة: أن المنصور دسّ له السم.

وجميعها تدين الحكام بموته، لأن ذنبه في نظر المنصور لا يغتفر.

## أولاده و أحفاده

:

لم يكن لأبي حنيفة عقب مشهور أو ذرية واسعة. أما الشهرة بكنيته (أبي حنيفة) فليست قائمة على اسم لبنت له، فليس له بنت تسمى حنيفة، وإنما كتّى بأبي حنيفة لملازمته لدواة على هيئة خاصة و تعرف بحنيفة، فهو دائما يستصحب تلك الدواة ذات الشكل المستطيل الذي يجلب انتباه الناظر إليه.

ولم نعر على ولد له غير حمّاد.

و كان حمّاد قد تفقه على يد أبيه، و ولّى قضاء الكوفة بعد القاسم بن معين تلميذ أبي حنيفة.

ص: 178

1- (1) انظر الخلاصة للخزرجي. و ميزان الاعتدال للذهبي. و لسان الميزان لابن حجر. و هداية الباري لشرح صحيح البخاري وغيرها.

2- (2) تاريخ جامع الإمام الأعظم للشيخ هاشم الأعظمي ص 21.

قال الذهبي: حمّاد بن أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ضعّفه ابن عدى وغيره من قبل حفظه، وتوفى سنة ست و سبعين و مائة.

و كان لحمّاد بن أبي حنيفة ولد يسمى إسماعيل، روى عن أبيه عن جده أبي حنيفة.

قال ابن عدى: ثلاثتهم ضعفاء.

وقد ولى قضاء الرصافة و قضاء البصرة، و كان عارفا بالقضاء، و مات سنة 212 و هو شاب و قد تفقه على يد أبي يوسف. و لم نعثر على شيء له يعتبر.

## قبره

:

أما قبره فكان أول رواق بنى عليه سنة 379 هـ و يروى أنه فى سنة ست و ثلاثين و أربعمائة وضع أساس مسجد بالكلس و النورة فى موضع ضريحه، و كان المنفق عليه تركى قدم حاجا.

و يذكر ابن خلكان أن شرف الدين الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمى مستوفى مملكة السلطان ملك شاه السلجوقى بنى على قبر أبى حنيفة مشهدا أو قبة نيابة عن الملوك السلاجقة، و بنى عنده مدرسة كبيرة للحنفية، و لما فرغ من عمارة ذلك، ركب إليها فى جماعة من الأعيان ليشاهدوها (1). و يقول ابن الجوزى: و ان حنфия متعصبا. و كان ذلك سنة ثلاث و خمسين و أربعمائة، فهدم جميع الأبنية التى فى المسجد و ما يحيط بالقبر و بنى القبة، و قد جاء بالقطّاعين و المهندسين، و قدّر لها ألف، و ابتاع دورا من جوار القبر، و حفر أساس القبة، و كانوا يطلبون الأرض الصلبة، فلم يبلغوا إليها إلا بعد حفر سبعة عشر ذراعا، فى ستة عشر ذراعا فخرج من الحفر عظام الأموات الذين كانوا يطلبون جوار النعمان (2).

و قد تكوّنت حوله محلة عرفت بمحلة أبى حنيفة، و اسم الأعظمية حادث.

و عنى الأتراک عناية فائقة بالقبر و صاحبه، و بذلوا جهدا كبيرا فى إعلاء شأن

ص: 179

1- (1) وفيات الأعيان ج 5 ص 46. [1]

2- (2) انظر: المنتظم ج 8 ص 245 و 246. [2]

المذهب. فلما احتل السلطان سليمان القانوني بغداد سنة إحدى وأربعون و تسعمائة هجرية أقام مسجد الإمام الأعظم و مشهده، و باشر بإصلاح ما تهدّم من قبره أيام الفرس، و بنى عليه قبة و مدرسة، و عمّر في أطرافها قلعة و اتخذها جامعا و دار ضيافة و حماما و خانا، و عيّن للقلعة محافظا و جنّد لحراستها مائة و خمسين، و وضع فيها معدات كافية. كما بنى مسنأة في الأعظمية لحفظها من الفيضان.

و إضافة إلى قيام الأتراك بتشديد مرقد أبي حنيفة و اهتمامهم بأمره، فقد أعلنوا اتخاذ مذهبهم مذهبا رسميا، و أصبحوا يرجعون الناس إليه، و يلزمون الأمة باتباعه، حتى وازى وجود المذهب و مناطق انتشاره حدود و نفوذ العثمانيين و مناطق احتلالهم، و سبب ذلك أنهم وجدوا في عدم اشتراط القرشية في الخلافة عند أبي حنيفة مقوّما لاستيلائهم و تحكمهم برقاب المسلمين، فاحتل أبو حنيفة المكانة السامية في نفوس العثمانيين، و تعلقت به أفئدة العائلة الحاكمة. فنجد أم السلطان عبد العزيز السيدة الصالحة تنذر في مرضها إن شفاها الله عز و جل لتشيدنّ مسجد الإمام الأعظم مجددا (1).

كما كان الحنفية أنصارا للأتراك و اتباعا للباب العالي، ففي مصر وجد منهم نصيرا قويا أطلق يده في حكم وادي النيل و في تقرير مصيره، و كان من نتيجة تفصيل السلطات الرسمية لأتباع المذهب الحنفي أن تحوّل إليه كثير من أتباع المذاهب الأخرى (2).

**أحمد بن حنبل 164-241 هـ**

## إشارة

و نعاود الحديث عن أحمد بن حنبل، و قد رأينا بحث بعض جوانب شخصيته في هذا الجزء لتقدم الإشارة إليه في بدء الجزء السابع، و نرجو أن لا يعدّ ذلك خروجا على قواعد الأفضلية أو الرتبة الزمنية، فأنا لا نراها كانت في يوم مناط إجماع أو إلزام في غيره أو في شخصه. كما إن تقديمه لا يعني خلاف ذلك؟

ص: 180

1- (1) المقدسي، أحسن التقاسيم.

2- (2) دائرة المعارف الإسلامية/ مادة الأزهر.

و تتبع منهجنا التحليلي في نهاية البحث لنكمل ما سلف من إشارة عنه وعن الحنابلة، ونبدأ ببعض المعلومات و الصور عنه.

وقد مرّ بنا شيء من هياج الحنابلة الذين تجاوزوا القصد وألحقوا بالمسلمين الآخرين البلاء، ونرغب عن الخوض في عوامل اتخاذ العامة للحنبلية شعاعاً يوحى بالعناد والتزمّت والأذى. ونعمل على سوق الأحداث والاتجاه إلى دراسة شخصية الإمام أحمد في عناصرها الأساسية، ولا نفيض في البحث بأكثر مما يقتضيه الغرض.

وأحمد بن حنبل في مكانته وشهرته، هو نتاج مشكلة (خلق القرآن) وهي المشكلة التي اتخذها المأمون وسيلة لإقامة سلطانه حسب ميوله الفكرية وتكوينه المتأثر بروح العصر، ليواجه ما توارثته العقول واستقر في الأذهان على أنماط الحكّام وطرق الموجهين ولكن بأساليب قمعية كان ضحيتها الفكر وروح التحرر قبل أن يضحى بسببها بأى شيء آخر. ولأن الإمام أحمد كان رجل المحنة، وتعرض إلى الأذى الجسدي والنفسي، وتجرّع آلام السجن؛ اتصلت به عواطف الناس وتعلقت به مشاعرهم، بعد أن وجدوا أنفسهم معرضين إلى السخط، وقد اضطرب كيانه، واهتزت شبكة معتقداتهم التي وجدوا عليها أباؤهم وألّفوها عبر عشرات السنين متعارف عليها بين أوساط الحكّام والخطباء والمتنفذين.

وبدءاً نقول: إن نتائج المحنة تركت آثاراً قوية لفتت كل جوانب حياة أحمد بن حنبل، وأدت في كثير من الأحيان إلى الغموض أو التعارض ليتحاشى ما يشبه الهاجس في الداخل.

ولنرافق أحمد بن حنبل في ترجمته فهو:

أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي، كان جده حنبلاً والياً من قبل الأمويين على سرخس، ويقال: إنه دخل بعد ذلك في سلك الدعوة العباسية، فكان من دعائها المبرزين، وبذلك فإن الإمام أحمد ينسب إلى جده حنبل، وقد يكون ذلك لوفاء أبيه ونشؤه في ظل جده أو عمه.

وقد وقع الاختلاف في موت محمد والد أحمد، هل مات في مرو، أو أنه نزع

إلى بغداد مع زوجته والدة أحمد و هي: صفية بنت عبد الملك بن سودة بن هند الشيباني، ونقل عن أحمد ما يؤيد القول الأول، وأنه قال: قدم أبي من خراسان وأنا حمل، وولدت هاهنا-ببغداد- ولم أر جدّي و لا أباي، ولا تزوجت إلا بعد الأربعين (1).

نشأ أحمد في بغداد، واتجه لطلب العلم، وحضر عند علمائها. وله رحلات متعددة، واتصل بالشافعي محمد بن إدريس، وحضر عنده كما حضر عند أبي يوسف، فكتب فقه أهل الرأي (2).

وروى عنه أنه قال: أول ما طلبت الحديث ذهبت إلى أبي يوسف القاضي، ثم طلبنا بعده فكتبنا عن الناس. ثم قال: أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف، وأنا لا أحدث عنه (3).

وذلك أنه رأى أبا حنيفة وأتباعه يقدمون الرأي (4) وأقبل أحمد على الحديث حتى عدّ من المحدثين لا الفقهاء، وهذا ما أثار غضب الحنابلة على الطبري وغيره من الذين قالوا بهذا الرأي.

وقد مرّ الحديث عن حياة الإمام أحمد منذ نشأته، ورافقناه في محنته، تلك المحنة التي هبّت عواصفها السياسية والعقائدية، فأحدثت انقساماً في صفوف المسلمين، وذلك عند ما أعلن المأمون سنة 218 هـ وجوب الاعتقاد بخلق القرآن، وأنه حادث غير قديم كما يراه المعتزلة وغيرهم، وقد فرض المأمون القول بخلق القرآن بالقوة، وعقد مجلساً للامتحان كما اختار جماعة من الجلاّدين الجفاة الذين مرنوا على الضرب بالسياط.

وقد امتحن جماعة من العلماء، فامتنع بعض وأقرّ آخرون.

وقد أوجدت هذه المحنة مشكلة كلامية تحتاج إلى دراسة واسعة في علم

ص: 182

1- (1) طبقات الحنابلة 63:1. [1]

2- (2) المدخل إلى فقه الإمام أحمد ص 38.

3- (3) أحمد بن حنبل لسيد الأهل ص 36.

4- (4) نفس المصدر.

الكلام، وبيان المراد من الكلام النفساني وتعلقه بالذات، وقد تناولتها الأقلام قديما وحديثا، وربما وقع وهم من بعض من تعرّض لهذه المسألة تاريخيا فسار وراء ظواهر الأقوال، وعبر عن الخلق بالمعنى اللغوي وهو الكذب، فيقال إنه مخلوق أى مكذوب.

وكان الخليل بن أحمد يمنع أن يوصف الكلام بالمخلوق، ويقول: إن الكلام متى أطلق عليه الخلق فالقصد الكذب، ولهذا يقال: كلام خلقه فلان أى تقوله. وكان ذلك من رأى الشيعة كما تقدم فى أول الكتاب.

وقد ورد فى كثير من أقوال العرب: اختلق كذا أى كذب فيه. وسئل بعض الفقهاء فى المحنة فقال: أصفه بأنه محدث، ولا أقول إنه مخلوق لقوله تعالى: ما يأتيهم من ذكرٍ من ربهم محدثٍ فمعنى أنه مخلوق وهو غير منزل. وبهذا أخذ العوام فى إثارة البغضاء وإيقاد نار الفتنة ونشر الدعاية ضد المعتزلة بأنهم يذهبون إلى خلق القرآن أى إلى عدم كونه منزلا من الله تعالى، واتسعت شقة الخلاف، وحدث فى صفوف الأمة الانقسام. وكان الإمام أحمد قد امتحن و ثبت، فاجتاز المحنة عند ما اعتلى الحكم المتوكل العباسى، فكان انتصارا لأحمد ولمن اتصل به، وبخروجه باتت المحنة تشمل العامة، فاحتفلت بالانتصار بعواطف هياجة ونقمة عارمة طافت على سطحها وركبت موجها وجوه تضررت مصالحها وتضاءلت مكائنها، فاندفعت بكل ما أوتيت من قدرات إلى تمجيد المتوكل وتعظيمه، واتبعهم على ذلك بإخلاص أخلافهم.

قال ابن الجوزى: أطفأ المتوكل نيران البدعة، وأوقد مصابيح السنّة، وقد قال من سبقوه: الخلفاء ثلاثة أبو بكر الصديق قاتل أهل الردّة حتى استجابوا له، وعمر بن العزيز ردّ مظالم بنى أمية، والمتوكل محا البدع وأظهر السنّة. كما خلقوا له مناقب وأطيفا، ورفعوا شعار العدالة باسمه وهو أظلم خليفة من بنى العباس، فأسدلوا على ظلمه ستار المدح الزائف، وجعلوا سيئاته حسنات، وأخذ القصاصون بنشر الأطفاف بحقه حيا وميتا.

أما الإمام أحمد، فإنه أصبح إمام السنّة وبطل الإسلام، وأنه ما قام أحد بأمر الإسلام كما قام به أحمد.

وقالوا: أحمد بن حنبل إمام، ومن لا يرضى بإمامته فهو مبتدع ضال.



وقالوا: أحمد بن حنبل إمام المسلمين و سيد المؤمنين، و به نحيا و نموت، و به نبعث. فمن قال غير هذا فهو من الجاهلين (1).

و جعلوا بغضه كفر، و حبه من السنة.

وقالوا: إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل، فأعلم أنه صاحب سنة و جماعة (2).

و أسندوا إلى الشافعي أنه قال: من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر. فقيل له:

تطلق عليه اسم الكفر بالله العظيم؟ فقال: نعم، من أبغض أحمد بن حنبل قصد الصحابة، و من قصد الصحابة أبغض النبي، و من أبغض النبي كفر بالله العظيم (3).

فيكون الناتج من هذه القضية، أن من أبغض أحمد بن حنبل كفر بالله العظيم. و هذا غريب من الشافعي، إذ يعتمد على نتيجة مقدمة كاذبة.

وقد رأينا فيما تقدم من بيان الإغراق في المدح من قبل أتباع أئمة المذاهب ما خرجوا به عن طريق المعقول و تجاوزوا فيه حدود المنطق. على أن جولة الحنابلة في عصر التطاحن المذهبي، خلقت كثيرا من الأمور المناقضة للحقيقة و المخالفة لما يقتضيه واقع الإمام أحمد و سيرته، فقد اندفعوا بصورة واسعة إلى خلق مشاكل في المجتمع، و أربهوا الناس، و اضطرب حبل الأمن من جراء نشاطاتهم حول نشر مذهبهم مما لا ربط له بآمامهم.

و في عصر المتوكل كان نشاطهم سياسيا أكثر من أن يكون عقائديا، و قد شد المتوكل أزرهم، و أخبر المتوكل بعد موت أحمد أن الحنابلة يكون بينهم و بين أهل البدع (و هم غيرهم من الطوائف) الشر، فقال لصاحب الخبر: لا ترفع إليّ من أخبارهم، و شدّ على أيديهم فإنهم و صاحبهم من سادة أمة محمد.

و استغل الحنابلة هذه الفرصة، فراحوا في ذلك الودّ يتنفسون حرية الكلام

ص: 184

1- (1) ذيل طبقات الحنابلة ج 1 ص 136.

2- (2) الجرح و التعديل ج 1 ص 308.

3- (3) طبقات الحنابلة ج 1 ص 13. [1]

و حرية الانتقام من خصومهم أيام المحنة، فلم يسلكوا طريقة أحمد في حياته في الصّبح و التّجاوز، لأنهم خضعوا لأناس آخرين كان نفعهم في الأذى و مصلحتهم في الأضرار، و منه من رأى في التّحول على يد المتوكل و العودة إلى ما كان عليه الأمر قبل المأمون فرصة تسمح لهم بأن يفعلوا بالآخرين ما فعله المأمون، و هكذا تنتهي محنة لتبدأ أخرى.

و قد أخذ المتوكل بإضفاء الطابع الحنبلي على حكمه من خلال قوله و إذاعته المسائل التي يّتميز بها أحمد، فقسّم الجوائز على فقهاء و محدّثين، و أجرى عليهم الأرزاق، و أشخصهم، و كان فيهم مصعب الزبيري، و إسحاق بن أبي إسرائيل، و إبراهيم بن عبد الله الهروي، و عبد الله و عثمان ابنا أبي شيبّة. و أمرهم المتوكل أن يجلسوا للناس، و أن يحدّثوا بالأحاديث التي فيها الرد على المعتزلة و الجهمية، و أن يحدّثوا في الرؤية (1). و هي الأمور التي اشتغل بها أحمد، و أثرت عنه رسالة اشتملت على آرائه و معتقداته في البدعة و السنّة و الرؤية و إجابات ضمّنها أقواله، أشرنا إليها فيما مضى.

و يبدو أن المتوكل أراد أن يستكمل خطته في تبنّي المذهب الحنبلي، فعزم على استقدام أحمد بن حنبل إلى مقرّ ملكه في سامراء. و هي و إن لم تكن على طريقة أسلافه، لأن عمله و ميله إلى أحمد بن حنبل تتداخل فيه عوامل كثيرة، هي مزيج من مشاعر و أهواء و أغراض. إلا أن أحمد نفسه كان غير مستعد لمثل هذا العمل، فهو يتردد أو يحذر من مخالفة الحكام لسبب لا يتفق مع الأسباب التي يدعو إليها أصحاب مبدأ مقاطعة سلطان الظلمة، إذ هو يدعو إلى إطاعة «الإمام» البر و الفاجر مما يجعله بعيدا عن أصحاب الدعوة إلى الثورة على الظلمة، و يحصر القضية في أمور هي من أكبر عوامل الظلم و الجور، و لكنه لا يقرّ بها أسبابا للثورة أو الخروج على حكم المتسلطين.

كان إسحاق بن إبراهيم من كبار رجال الدعوة العباسية، فأمره المتوكل بإشخاص أحمد بن حنبل من بغداد إلى سامراء بعد انتهاء المحنة، فأخبره إسحاق

ص: 185

بذلك، ثم قال لأحمد: أسألك عن القرآن مسألة مسترشد لا مسألة امتحان، و ليكن ذلك عندك مستورا، ما تقول في القرآن؟ قال أحمد: القرآن كلام الله غير مخلوق.

قال إسحاق: من أين قلت: غير مخلوق؟ فأجاب أحمد: إن الله عز وجل يقول: أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ ففَرَّقَ بَيْنَ الْخَلْقِ وَ الْأَمْرِ.

فقال: الأمر مخلوق؟ فقال أحمد: يا سبحان الله، أ مخلوق يخلق مخلوقا؟! قال إسحاق: وعمن تحكى أنه غير مخلوق؟ قال أحمد: جعفر بن محمد الصادق قال: ليس بخالق ولا مخلوق. فسكت إسحاق (1).

و هذا يدلنا على شدة التكتّم فى المسألة، و عدم الخوض فى شىء من ذلك، لأنه يؤدى إلى مخالفة رأى السلطة. و هذا الرجل أى إسحاق هو من رجال الدولة يسأل مسترشدا أو يطلب ستر ذلك، لأن إظهاره يجره إلى نكال المؤاخذة.

و مهما يكن من أمر، فقد سكت إسحاق مقتنعا بظاهر القول و دلالة اللفظ.

و الغرض أن المسألة هى من المسائل العلميّة الهامة، و هى على جانب كبير من الخطر، فلم يكن هناك مجال لعرض الآراء و استماع الحجج و إقامة البرهان من كلا الطرفين، و بهذا أصبح الأمر فوضى، فقد استساغ المعتزلة حمل خصومهم على الاعتقاد بالقوة، و لهذا باءت سياستهم بالخيبة و الخذلان، و انتصرت عليهم قوى العامة التى آثرت التمسك بالسنة و الآثار، و ترك الخوض فى علم الكلام، و تحكيم العقل.

و قامت هناك عاطفة دينية تدعو إلى صيانة كتاب الله عن الطعن فيه، أو عدم نزوله.

كما حرّفوا مدلول المسألة.

و فى مواجهة المشكلة، كان أحمد يرى أن الخوض فى قضية خلق القرآن لم تكن مطروقة و ليست من السنة، حتى أنه كان يطالب مناظريه بشىء من السنة فيما

ص: 186

يدعونه إليه. و لا- ننكر أن دافع الحرص على قدسية النص كان وراء موقف أحمد وإجاباته، غير أن الإمام أحمد بالغ في انتهاج النصية و الاعتماد على السلف إلى حدّ ألغى فيه فرص التحوّل وإمكانية المناظرة، وأدى به إصراره إلى تحاشي الرأي كليا، حتى لكأنه حاول أن يجعل نفسه بعيدا عن الأحداث و لا يقرّ بتحوّلات الظروف و تطورات الوقائع التي وضع الاجتهاد لمعالجتها و هدى الأمة بالاستنباط من الأصول، وإرشادها باستخراج الأحكام من النصوص، حتى يجد المسلمون في كتاب الله و سنّة نبيّه مصدرا يسع كل ما يجد من أحداث، و ينطوي على كل ما يقع من الوقائع.

لقد غلب على الإمام أحمد التقيّد بالنص و الاتباع و التقليد، و لم يدع مجالاً للرأي، و كان يتحرّى المسائل على ما سمعه و روى له، و يحذر من إجماله الرأي أو التقدير، و لا- يجيب إلا- في مسألة وقعت. فإن كان احتمالا أو توقّعا امتنع، و لا يحفل إن كان ذلك على أشباه الوقائع القريبة، أو بعيدا عنها.

و على يديه وضعت مبادئ ما عرف عن ابن تيمية و ابن قيم الجوزية من تعنّت و ترمّت. و يثير قولنا هذا- السلفية و الوهابية- و لا شك، لأنهم أخذوا ما رآه الإمام أحمد وقاية و تحصنا. و جعلوه أساسا لمنطقهم القائم على الإفهام بالابتداع، و استسهال إطلاق الكفر على غيرهم، فيما تركوا الكثير من أقوال الإمام أحمد التي تأتي مرادفة للنصوص التي احتوت أصول أفكارهم، منها: أن الرجل لا يخرج من الإسلام إلا الشرك العظيم، أو ردّ فريضة جاحدا لها فيما أخذوا معتمدا لهم و أصلا قوله: (فمن قال مخلوق فهو كافر بالله العظيم، و من لم يكفره فهو كافر) فاستسهلوا تكفير غيرهم. و منهجه في غلق أبواب النقاش توقّيا و حذرا بقوله: (و لا يقال لم و لا كيف) لأن الأمور التي تبحث العقول عن حقيقتها في ظل ظروف المحنة يراها ليست من السنن، و الكلام فيها مكروه، بل منهى عنه: (لا يكون صاحبه- و إن أصاب بكلامه السنّة- من أهل السنّة حتى يدع الجدل و يسلم و يؤمن بالآثار) فجعلوا ذلك مسوّغا لجمودهم و انغلاقهم.

و خلاصة القول: إنه تمسّك بالأثر دون تمحيص، و اعتمد على السلف، و حكم بأن من يخالف شيئا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها؛ فهو مبتدع خارج

عن الجماعة، زائل عن منهج السنة. واتجه هذا الاتجاه في حياته، وأخذ به، فتمسك بحرفية النص و ظاهره، ولا يسمح لنفسه تخريج أو تفسير أو جدل ينم عن تصدّر للاجتهاد، أو تصدّر للإفتاء، ولا يتعدى الأخذ بالأثر والجمود على النصوص والعمل بظاهرها. وقد نسب إليه ذلك في شعر وهو قوله:

يا طالب العلم صارم كل بطّال و كلّ غاد إلى الأهواء ميّال

و أعمل بعلمك سرّاً أو علانية ينفعك يوماً على حال من الحال

ولا تملنّ يا هذا إلى بدع تضلّ أصحابها بالقييل والقال

خذ ما أتاك به ما جاء من أثر شبها بشبه و أمثالا بأمثال

إلا فكن أثريا خالصا فهما تعش حميدا، ودع آراء ضلّال

وقد اتجه إلى الحديث، فروى أنه كان يحفظ ألف ألف حديث، ويأخذ بالضعيف منها و يعلم به إذا لم يكن ما يعارضه، وأصبحت له خبرة بالحديث، وسعة اطلاع جعلت له منزلة بين المحدثين. وإذا صحّ ما كان يحفظه، فإنما نميل إلى أن تكوينه النفسى قد طغت عليه ملكة الحفظ، و أنس في نفسه قوتها دون غيرها؟ و ساعدت على ذلك اعتبارات الفترة و نتائج المحنة، ولذلك لم يكن له في حياته مدرسة فقهية، حتى أن ابن عبد البر لم يجعله مع مالك و الشافعى و أبى حنيفة في كتابه (الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء) و أن عنوان الكتاب ينطوى على هذا القصد، و لا بد أن المالكية على هذا الرأى جميعهم، فإن القاضى عياض قال عنه: إنه دون الإمامة فى الفقه، و جودة النظر فى مأخذه.

وقد مرّ بنا ما ذا فعل الحنابلة بابن جرير الطبرى، فهو لم يعدّ مذهبه فى الخلاف بين الفقهاء و قال: إنما هو رجل حديث. و على هذا الرأى غيره من الشافعية.

و من تتبّع سيرة الإمام أحمد، يترجّح لدينا أنه لم يقصد إلى تأسيس مذهب خاص به، و لم يستجب إلى إغراءات السلطان. و لكن تلامذته قد أفرغوا تعاليمه و أقواله بعد موته فى قوالب محدودة هى قواعد و مبادئ لفقه ينسب إلى الإمام أحمد، فتألّفت جماعة فقهية كان رجالها أصحابه من ذوى الإحاطة، فكان نشوء المذهب الحنبلى. كما أن المسند كان من جمع ابنه و أصحابه. و يعتقد أحمد أن منحاه فى التقيّد بالحرفية و الظاهر هو المنهج الأقوم و الطريقة المثلى، و يردّ بها على اتجاهات

الرأى و تيارات الجدل. و وضع بذلك المنحى مسوِّغا للاحتماء بالتقليد، و مبررا للاتهام بالمروق. و لوقابل الاتجاهات و المدارس الفكرية التى نجمت عنها المسائل التى كره الخوض فيها و أنكر شيوعها، و أدت به إلى المحنة بطرق مماثلة تقابل الحجة بالحجّة، و تعتمد الاستدلال و المنطق؛ لما استغلت أقواله ذلك الاستغلال الذى أطلق العامة من عقالها، فراحت تعرّض أمن الناس للخطر، و تنزل بهم الويلات، و تصف الناس بالكفر.

يقول الإمام أحمد: (الدين إنما هو كتاب الله عز و جل، و آثار و سنن و روايات صحاح عن الثقات بالأخبار الصحيحة المعروفة، يصدّق بعضها بعضا حتى ينتهى ذلك إلى رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و أصحابه و التابعين و تابعى التابعين، و من بعدهم الأئمة المعروفين المقتدى بهم، المتمسّكين بالسنة و المتعلقين بالآثار، لا يعرفون بدعة، و لا يطعن فيهم بكذب، و لا يرمون بخلاف، و ليسوا بأصحاب قياس و لا رأى، لأن القياس فى الدين باطل، و الرأى مثله و أبطل منه، و أصحاب الرأى و القياس مبتدعة ضلال، إلا أن يكون فى ذلك أثر عمّن سلف من الأئمة) (1).

و هو يرى نفسه دائما متّبعاً، فلا يتحدّث إلا بما أخبر و حدّث، و يدعو إلى الاتباع: (هذه مذاهب أهل العلم و أصحاب الأثر و أهل السنة و المتمسكين بعروقتها المعروفين بها، المقتدى بهم فيها من لدن أصحاب النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم إلى يومنا هذا، و أدركت من أدركت من علماء أهل الحجاز و الشام و غيرهم عليها، فمن خالف شيئا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو أعاب قائلها، فهو مبتدع خارج من الجماعة، زائل عن منهج السنة و سبيل الحق) (2).

## أولاده

## إشارة

:

ولد لأحمد بن حنبل عدة أولاد و هم صالح و عبد الله من أم، و حسن و محمد و سعيد من جارية تسمى حسن، و ولدت له بنتا سمّاها زينب، و قبل ولدت له ولدا رابعا سمّاها حسنا أيضا:

ص: 189

1- (1) طبقات الحنابلة ج 1 ص 31. [1]

2- (2) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل لابن بدران ص 26.

:

ولد سنة 203 هـ و توفي سنة 265 هـ وهو أكبر أولاد أحمد، كان راوية لأبيه.

و حدث كثيرا عن سيرته وأحواله وتاريخ حياته، ويبدو على صالح رفضه لمسلك التقشف الذي أخذ أبوه به، وعدم القناعة بموقف الانصراف عن الحكام في أمر المنح والعطايا التي توالى على أحمد في عهد المتوكل، حتى إنه كان يتصرف في الأموال التي يتحرّج في أخذها بدون موافقة أبيه عند ما يراه يمتنع أن يقدم منها إلى أحفاده (1).

وكذلك عند ما صارحه أبوه في أن يدع الرزق الذي يأتي من المتوكل فلا يأخذه ولا يوكل فيه أحدا، فرفض ذلك. فقد كان معيلا. وكان الإمام أحمد يدعو له. وكان الناس يكتبون إليه من خراسان - حيث موطنهم الأول - يسأل لهم أباه عن المسائل.

ولّى القضاء بأصبهان، كما ولّى القضاء بطرسوس. نقل إليها من أصفهان. قال صالح: كان أبي يبعث خلفي إذا جاءه رجل زاهد متقشف لأنظر إليه، يحب أن أكون مثلهم، أو يراني مثلهم. ولكن الله يعلم ما دخلت في هذا الأمر إلا لدين غلبنى، وكثرة عيال (2).

حدث عنه ابنه زهير، وروى عنه ابن أخيه محمد بن أحمد بن صالح، وأحمد بن سليمان النجار. وتوفي زهير سنة 330 هـ.

وأما أحمد بن صالح فقد روى عن جده أحمد حديث عائشة: كنت أغتسل أنا ورسول الله من إناء واحد.

ولأحمد بن صالح ولد اسمه محمد كان يروى عن عمه زهير، وروى عن أبيه قول عائشة كما ذكره، ورواه عنه الدارقطني وتوفي سنة 330 هـ.

## عبد الله بن أحمد بن حنبل

:

ولد سنة 213 هـ و توفي سنة 290 هـ وكان أعلم أولاد أحمد وأكثرهم رواية عنه، وهو الذي جمع مسند أبيه، وزاد فيه كثيرا من الأحاديث التي لم يأخذها عن أبيه، ورواه عنه أبو بكر القطيعي وزاد فيه أيضا، فالمسند يرويه عبد الله عن أبيه سماعا،

ص: 190

1- (1) انظر البداية و النهاية 338/10.

2- (2) طبقات الحنابلة 174/1 و [1] تهذيب تاريخ ابن عساکر ج 6 ص 364.

وقسم رواه عن غير أبيه و هو المسمى عند المحدثين بزوائد عبد الله، وقسم لم يسمعه من أبيه بل وجدّه بخطّه، وقسم رواه القطيعى عن غير عبد الله وأبيه.

وأول من سمعه منه: حنبل بن إسحاق بن حنبل - وهو ابن عم أحمد - وعبد الله بن أحمد، وصالح بن أحمد. قال ابن السّمّاك: حدثنا حنبل بن إسحاق قال: جمعنا أحمد بن حنبل أنا وصالح وعبد الله، وقرأ علينا المسند، وما سمعه منه غيرنا (1).

وذكر الشيخ محمد أبو زهو في كتابه (الحديث و المحدثون) أنه سمع المسند من الإمام أحمد أولاده الثلاثة: صالح وعبد الله و حنبل. ثم ذكر رواية ابن السّمّاك (أو السّبّاك) وهذا خطأ فإن حنبلا لم يكن ولدا لأحمد، بل هو ولد عمه إسحاق كما ذكره ابن الجوزى وغيره، وجاء في ترجمته في طبقات الحنابلة، قال حنبل بن إسحاق:

جمعنا عمى لى و لصالح و لعبد الله، وقرأ علينا المسند و ما سمعه منه غيرنا (2).

ونقل ابن الجوزى عن ابن السّمّاك قال: حدثنا حنبل بن إسحاق قال: جمعنا أحمد بن حنبل، أنا وصالح وعبد الله، وقرأ علينا المسند و ما سمعه منه غيرنا (3).

فقول الشيخ أبو زهو أن حنبل من أولاد أحمد خطأ، و ما هو بأول خطأ يرتكبه، وقد أشرنا لكتابه و أخطائه فيما سبق.

و مهما يكن من شىء، فإن عبد الله كان أشهر أولاد أحمد بن حنبل، و أكثر رواية عنه، و قد ولى القضاء فى خلافة المكنفى، و توفى فى جمادى الآخرة سنة 290 هـ. و لما مرض قيل له: أين تحب أن تدفن؟ فقال: صحّ عندى أن بالقطيعه نبيا مدفونا، و لأن أكون بجوار نبى أحب إلى من جوار أبى.

### سعيد بن أحمد

:

ولد سعيد قبل موت والده بنحو من خمسين يوما، و توفى سنة 303 هـ و قيل:

بل توفى قبل هذا التاريخ بمدة طويلة فى حياة أخيه عبد الله. و قد ولى سعيد قضاء الكوفة، و أما بقية أولاد أحمد، فلا يعرف من أخبارهم شىء.

ص: 191

1- (1) مناقب أحمد ص 191.

2- (2) الطبقات ج 1 ص 143.

3- (3) المناقب ص 191.



توفى أحمد بن حنبل فى ربيع الأول سنة 142 هـ وقيل 12 منه، وصلى عليه الأمير محمد بن طاهر. ودفن بمقبرة باب حرب (1). وقد وصفوا تشييعه بأنه ما كان فى الجاهلية ولا فى الإسلام جمع أكثر منه، وقد اشترك فيه النساء والرجال يتبادلون النوح والصراخ، وأعلن الحنابلة اللعنة على من خالفهم، وعلت الهتافات بلعن بشر المريسي والكرايسى. فسأل المتوكل عن الكرايسى (2) من هو؟ قالوا هو رجل أحدث قولاً لم يتقدمه أحد. فأصدر المتوكل أمره إليه بلزوم بيته، فلزمه إلى أن مات.

وينقل الحنابلة عن يوم الجنازة ما لا يقبله العقل ويقره المنطق كقول الوركاني:

أسلم يوم مات أحمد بن حنبل عشرون ألفاً من اليهود والنصارى والمجوس. ووقع المأتم والنوح فى أربعة أصناف من الناس: المسلمين و اليهود والنصارى والمجوس (3).

ومنذ وورى ابن حنبل، لزم بعض الناس القبر وباتوا عنده، وجعل النساء يأتين، فأرسل السلطان أصحاب المسالحي، فلزموا ذلك الموضوع حتى منعوهم مخافة الفتنة (4). ويبدو أن الجنازة تحولت إلى مناسبة أظهر فيها الحنابلة أنفسهم والدعوة إلى منهجهم والطعن على غيرهم، حتى قال ابن الجوزى: (فسر الله المسلمين بذلك على ما عندهم من المصيبة لما رأوا من العزّ وعلوّ الإسلام، وكبت الله أهل البدع والزبغ والضلالة).

ويذكر المسعودى أن اجتماع الجنازة كان للعامّة فيه كلام كثير جرى بينهم بالعكس والضدّ فى الأمور منها: أن رجلاً منهم كان ينادى: العنوا الواقف عند الشبهات. وهذا بالضدّ عمّا جاء عن صاحب الشريعة صلى الله عليه وآله وسلم. وكان عظيم من عظمتهم ومقدّم فيهم يقف موقفاً بعد موقف إمام الجنازة، وينادى بأعلى صوته:

ص: 192

1- (1) باب حرب تنسب إلى حرب بن عبد الله - أحد أصحاب المنصور - أو حرب بن عبد الملك، وإليه تنسب محلة الحرّية، وفيها أيضاً قبر بشر الحافى.

2- (2) المناقب لابن الجوزى 417.

3- (3) طبقات الحنابلة 16/1. [1]

4- (4) المناقب 418.

وأظلمت الدنيا لفقد محمد و أظلمت الدنيا لفقد ابن حنبل

يريد بذلك أن الدنيا أظلمت عند وفاة محمد صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلمَّ وأنها أظلمت عند موت ابن حنبل كظلمتها عند موت الرسول صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلمَّ (1).

و ازدحم الناس على قبر أحمد يتبركون به، ويقصدونه للزيارة، وهنا تجددت نشاطات الدعايات المذهبية، وطغت موجة المناقبية، وقام القصاصون والوعاظ -الذين هم من قبل الدولة- بنشر خرافات لو كان أحمد حيا لحنجل منها وتبراً من قائلها، وإليك نموذجاً منها:

1- ادعى أحدهم أنه زار قبر أحمد، فرأى القبر قد التصق بالأرض، وسمع صوتاً من القبر يقول: هذا من هيبة الحق، لأنه عز وجل زارني فسألته عن سرّ زيارته إياي في كل عام. فقال: لأنك نصرت كلامي...

2- أن من يدفن في مقبرة أحمد يكسى حلّتين من حلل الجنة، ويوضع على قبور مجاوريه قناديل، و من يعذب يرحم لأجله (2) وكان فيهم رجل محنت فشمله العفو (3).

3- حدّث علي بن إسماعيل السجستاني: كأن القيامة قد قامت و كان الناس يزدحمون عن قنطره، لا يترك أحد يجوز حتى يجيء بخاتم، و رجل ناحيه يختم للناس و يعطيهم، فسألته عنه فقالوا: هذا أحمد بن حنبل (4).

4- أن أبواب السماء تفتح لزوار قبر أحمد بن حنبل، و الملائكة تنزل عليهم بثياب خضر تطير بهم في الهواء. و كان قبره يقصد للزيارة من ستمائة فرسخ (5) ولا يتسع المجال لعرض ما ادعى من منامات و أحلام في قبر أحمد و زيارته، و عظيم الأثر الذي خلفته الدعاية في قلوب الناس من تعظيم قبره و التبرك به و تقبيله. و قد سأله رجل في الرؤيا: لم يقبل قبر الإقبرك؟ فأجاب: هذا ليس كرامة لي، و لكن كرامة

ص: 193

1- (1) مروج الذهب 102/4 و 103. [1]

2- (2) تاريخ بغداد ج 1 ص 22.

3- (3) ابن الجوزي، المناقب ص 463.

4- (4) ابن الجوزي، المناقب ص 446.

5- (5) ابن الجوزي، المناقب ص 482.

لرسول الله، لأن معي شعرات من شعره، ألا و من يحبني لم لا يزورني في شهر رمضان.

وقد بقي قبر أحمد بن حنبل مقصدا لمحبيه، ويتبركون بزيارته، و ادعى أن الماء حار حول قبره عند طغيان دجلة سنة 725 هـ فغمر جميع الأمكنة إلا قبر أحمد، فلم تبل الحصر كما يدعون. ولكن دجلة أعاد الكرة، فاكسح القبر و ابتلعه، و ذهب به و بآثاره إلى اليوم.

وقد دفن في مقبرته خلق كثير، و نقل إليه من الأماكن النائية جثث كثيرة لأموات أمثال: عبد المغيث بن زهير الحربي الحنبلي محدث بغداد. و من الغريب بل من الشذوذ الفكري أن يوصف هذا الرجل بأنه صالح متدين أمين مجتهد في السنة، حافظ زاهد يشبه أحمد بن حنبل، مع اعترافهم بأنه وضع جزء في فضائل يزيد بن معاوية أتى فيه بالموضوعات كما يقول الذهبي (1).

و من أعيانهم: عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة 597 هـ و صاحب المؤلفات الكثيرة، دفن عند أبيه بباب حرب عند قبر أحمد، و كان يوم تشييعه يوما مشهودا و ذلك في شهر رمضان، و قد أفطر جماعة من الناس من كثرة الزحام و شدة الحر (2).

و لعل المسوخ لإفطارهم اعتقادهم بأن تشييع ابن الجوزي أعظم ثوبا من صيام شهر رمضان، لأنه كان ناصرا للسنة محاربا للبدعة. و قد وصف بأنه كحاطب ليل، و هو لا يفرق بين الضار و النافع، و الحق و البطل، و كانت مؤلفاته تناقض بعضها بعضا، و هو يورد الشبه، و ليس له قدرة على ردّها، و قد نغم عليه العلماء، و لكن لا ينفع ذلك مع تجمع العوام عليه.

و كثير من العلماء الحنابلة دفنوا عند قبر أحمد تبركا بجواره، و منهم من نقل إلى مقبرة أحمد بعد مدة من دفنه كسعد الله الحنبلي المتوفى سنة 564 هـ دفن بمقبرة الرباط، ثم نقل بعد خمسة أيام و دفن في مقبرة أحمد. و كمال الدين بن وضاح الحنبلي المتوفى سنة 627 هـ دفن عند رجلى أحمد. و منهم: محمد بن محمد بن

ص: 194

1- (1) الشذرات ج 4 ص 275. [1]

2- (2) البداية و النهاية ج 13 ص 331. [2]

الحسين الحنبلي المتوفى سنة 527 و نقل إلى مقبرة أحمد بن حنبل سنة 534 أى بعد مضى سبع سنوات على موته. وغير هؤلاء خلق كثير أحصينا عددهم بما يقارب الخمسين شخصا. وبطبيعة الحال فإن قبورهم ذهبت فى طغيان دجلة كما سبق و ذكرنا.

و لا بد من التعرّض لما جاء فى لغة العرب المجلد الخامس من السنة الثامنة ما ذكره الدكتور مصطفى جواد: أن عبد الحميد عيادة نشر فى لغة العرب أن فى جامع حاج أفندى - ويسمى مسجد اللالات بمحلة كوك نفر ببغداد أن رخامة فى الجوار الذى يلى الباب، مكتوب عليها ما صورته: (هذا قبر المرحوم المغفور له الدارج فى رحمة الله الشيخ المجتهد السيد أحمد من الأربعة المجتهدين و ذلك فى 13 ربيع الأول سنة 562 هـ) ثم قال: توارد إلى خاطرى أنه قبر الإمام المشار إليه، أى أحمد بن حنبل إذ لا يبعد أنه نقل إلى محله الحالى لسبب غرق بغداد الخ.

و هذا بعيد كل البعد، لأن التاريخ إما أن يكون تاريخ الوفاة أو تاريخ النقل، فتاريخ الوفاة سابق عليه، لأن وفاة أحمد سنة 241 هـ و أما تاريخ النقل عند الغرق، فهو متأخر عن هذا التاريخ.

وقد نقل لقبير أحمد رجال من الحنابلة بعد هذا التاريخ منهم: كمال الدين على بن وضّاح المتوفى سنة 672 هـ و فى سنة 765 هـ دفن القاضى جمال الدين بن خليل الخضرى الحنبلى محدّث بغداد، و فى سنة 766 هـ دفن الشيخ نور الدين الحنبلى، و فى سنة 784 هـ دفن أبو طالب عبد الرحمن بن عمر الحنبلى نزيل بغداد.

و الحاصل أن مقبرة أحمد بن حنبل بقيت مدة من السنين مهوى أفئدة الحنابلة، و مقصد الزوار، و تدفن حوله الأموات تدينا و تقريبا لنيل ما أعدّ من الجزاء لمن يدفن حوله. فقد أشاع الحنابلة أن من يدفن حول قبر أحمد يكسى حلتين من حلال الجنة، و يوضع على قبر مجاوريه قناديل، و من يعذب يرحم لأجله (1). إلا أن ذلك القبر قد غمره الفيضان فانهار، و لم يبق له أثر، إذ امتلأت مقبرة أحمد كلها، و لم يسلم منها إلا موضع قبر بشر الحافى لأنه على نشز من الأرض، و كان من يرى مقبرة أحمد بعد أيام

ص: 195

من مضى الفيضان ليدهب عند ما يرى القبور قد قلبت، وجمعت العظام كالتل، جمعها السيل-سيل الماء-وكذلك ألواح القبور (1).

وقال الياضي: إن دجلة زادت زيادة مفرطة حتى أخرجت مقبرة أحمد بن حنبل، ودخل الماء في دهليز البيت، وذلك في سنة 725 هـ. وقال ابن العماد نقلاً عن الذهبي: إن مقبرة أحمد بن حنبل غرقت سوى البيت الذي فيه ضريحه، فإن الماء دخل الدهليز علو ذراع، ووقف بإذن الله تعالى، وبقيت البواري عليها الغبار حول القبر.

ولقد علق المرحوم السماوي على هذا القول بقوله:

ألا من عذيري يا بني العلم والحجى من الياوفي الحنبلي المجلل

يكذبني إن قلت قبر ابن فالهم عليه استدار الماء للمتوكل

ويزعم حازّ الماء ثم تجل غبرة على حصر كانت بقبر ابن حنبل

هذه لمحة موجزة عن السيرة المستمرة في نقل الأموات ونشهم بعد دفنهم، وهي باقية حتى يومنا هذا عند إخواننا السنة، فإنهم ينقلون الموتى من الأماكن. فمن مات خارج العراق نقل إليه، ومن مات في العراق فإما أن ينقل إلى بلده و مسقط رأسه، أو يدفن في مقبرة وليّ كآبي حنيفة والإمام الأعظم والشيخ معروف ببغداد، والبعض ينقل من بغداد إلى مقبرة الخاتونة في السماوة إن كان من أهلها، وأغلب أهل الجنوب من إخواننا السنة ينقلون موتاهم إلى بلد الزبير، ودفنهم هناك تبركا بالقبر المنسوب للزبير بن العوام.

وقد ذكرنا سابقاً أن هذه النسبة غير صحيحة، وأن هذا القبر بنى على الظنة والتخمين، كما نص على ذلك بعض المؤرخين (2).

ومن الجدير بالذكر، أن النقل بعد الموت عند المسلمين شائع معمول به منذ الصدر الأول عند جميع الفرق والمذاهب.

ونذكر ما يحضرنا ذكره الآن فمنهم:

ص: 196

1- (1) فيضانات بغداد، الدكتور سوسه ص 220.

2- (2) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب.

1-جعفر بن الفضل بن موسى بن الفرات أبو الفضل المتوفى سنة 391 هـ وزير الديار المصرية، توفى بمصر، فنقل إلى المدينة. يقول ابن عساكر: وخرجت الأشراف إلى لقائه وفاء بما أحسن إليهم، ثم يقول: فحجوا به و طافوا و وقفوا فى عرفات، ثم ردّوه للمدينة، و دفنوه فى دار اشتراها من الأشراف بالمدينة (1). و لا ندرى هل كان ورود جنازته أيام الحج فحجوا به، أم أنهم خلقوا له حجا و وقفوا بعرفات فى غير وقت الموسم؟! 2-القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المتوفى سنة 404 هـ دفن فى داره بنهر طابق، ثم نقل إلى جوار قبر أحمد بن حنبل فى مقبرة باب حرب، و يؤم الناس قبره، و يتبركون به. يروى أن أحد شيوخ الحنابلة (أبو الفضل التميمى) حضر يوم وفاته حافيا مع أصحابه، و قعد معهم للعزاء ثلاثة أيام، و كان يزور قبره كل يوم جمعة.

3-أبو البقاء محمد بن المبارك المعروف بابن الخل الشافعى المتوفى ببغداد سنة 552 هـ و نقل إلى الكوفة و دفن فيها.

4-صدر الدين أبو بكر الشافعى خرج من بغداد، فنزل بقرية بين همدان و الكرج، فأصبح ميتا، فحمل إلى أصفهان و دفن بسيلان.

5-و كذلك ولده عبد المطلب مات بهمدان سنة 580 هـ بعد عودته من الحجاز، و حمل إلى أصفهان، و دفن فيها.

6-أحمد الحريرى المتوفى سنة 550 هـ و كان عاملا للمقتضى على نهر الملك و كان من أظلم العالم، و مع هذا يظهر التدين، و كان يجلس على السجادة و بيده سبحة يسبح فيها و يقرأ القرآن، و الناس يعذبون بين يديه. و كان يعلّق الرجال بأرجلهم، و النساء بأثدائهن، و يضربون بين يديه و هو يومى إلى الجلاذ: الرأس، الوجه. و قد سئم الناس حياته، فدخل عليه ثلاثة رجال، فضربوه بالسيوف فمات، و حمل إلى بغداد، و دفن فيها، فأصبح و قد خسف بقبره (2).

7-الملك المظفر على كوجك التركمانى المتوفى سنة 620 هـ ملك أربل،

ص: 197

1- (1) شذرات الذهب ج 3 ص 135. [1]

2- (2) شذرات الذهب. [2]

مات فيها في رمضان، وأوصى أن يحمل إلى مكة فيدفن في حرم الله تعالى، وقال:

استجير به. فحمل في تابوت إلى الكوفة، ولم يتفق خروج الحاج في تلك السنة، فدفن عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

8- كمال الدين محمد بن علي الشافعي يعرف بابن الزلمكان المتوفى سنة 727 هـ بديس، وحمل إلى القاهرة، ودفن إلى جوار الشافعي.

9- إمام الحرمين أبو المعالي الجويني عبد الملك بن عبد الله الفقيه الشافعي المتوفى سنة 478 هـ ودفن بداره في نيسابور، ثم نقل منها بعد سنتين.

وكان لموته يوماً مشهوداً، فلقد أغلقت أبواب البلد، وكشف الناس رؤوسهم حتى ما اجتراً أحد أن يغطي رأسه، وصلى عليه ولده أبو القاسم بعد جهد عظيم من الزحام، وكسر منبره في الجامع، وقعد الناس للجزاء أياماً، وكان طلبته أربعمئة يطوفون في البلد نائحين عليه (1) وقد وصف السبكي يوم موته، وأن الطلبة تجوب موكبهم البلد نائحين عليه مكسرين المحابر والأقلام، مبالغين في الصياح والضجر (2). وقال الذهبي: استمرت الحالة سنة.

10- أبو الحسين بن سمعون الواعظ المتوفى سنة 387 هـ ودفن في داره بشارع العباس، ثم نقل يوم الخميس 11 رجب سنة 426 هـ ودفن بباب حرب، وكان الباقلاني يقبل يده لعظيم منزلته. وحكى الخطيب أن ابن سمعون خرج من المدينة الشريفة إلى بيت الله، فاشتهى الرطب، فلما كان وقت الإفطار صار الثمر رطباً فلم يأكله، فعاد إليه من الغد فإذا هو تمر.

11- ابن طولون خمارويه بن أحمد حمو المعتضد. فتك به غلمان بدمشق سنة 212 هـ وحمل تابوته إلى مصر، ودفن عند أبيه بسفح المقطم.

12- محمود بن السلطان ملك شاه. مات بأصفهان سنة 487 هـ وحمل إلى بغداد، ودفن بالنظامية.

13- أحمد بن محمد غلام خليل. المتوفى سنة 275 هـ ببغداد، وحمل في

ص: 198

1- (1) الشذرات ج 3 ص 360. [1]

2- (2) الطبقات ج 3 ص 257.

تابوت إلى البصرة. قال الخطيب: غلقت له أسواق مدينة بغداد، وخرج الرجال والنساء لحضور جنازته والصلاة عليه، فأدرك ذلك بعض الناس وفات بعضهم لسرعة السير به، ودفن بالبصرة، وبنيت عليه قبة.

يذكر الخطيب في ترجمته عن عبد الله النهاوندي: قلت لغلام الخليل: ما هذه الأحاديث الرقائق التي تحدّث بها؟ قال: وضعناها لترقق بها قلوب العامة. وعن ابن عدى: سمعت عبدان الأهوازي يقول: قلت لعبد الرحمن بن خراش: هذا الحديث الذي يحدث به غلام الخليل لسليمان بن بلال من أين له؟ قال: سرقة من عبد الله بن شيب، وسرقة عبد الله بن شيب من النضر بن سلمة، ووضعه شاذان (1). وكان أكثر ما يتحدّث به بالموضوعات في مناقب الصحابة وغيرهم من الرجال، ويتخذها وسيلة لمعاشه، ومن وضعه حديث: (اقتدوا باللذين من بعدى أبي بكر وعمر) (2).

وهو من المحدّثين والوعاظ القصاصين.

ولا يتسع المجال لأكثر مما ذكرنا في هذا الاستطراد الذي لا تخفى دواعيه وأسبابه إذا ما استحضرنا ما شدّ به أقوام جعلوا من أحمد بن حنبل إماماً وقُدوة، وراحوا يطلقون التهم والتخرّصات في قضايا الأموات والقبور، وقضية النقل بعد الموت، وما يتعلق بالدفن أمر معروف منذ صدر الإسلام إلى يومنا هذا، وقد سار عليه السلف والخلف، فمن ينقل إلى المدينة، ومن ينقل إلى دمشق، ومن ينقل إلى بغداد، ومن ينقل إلى القاهرة، ومن ينقل من رمسه القديم إلى مكان آخر كما رأينا من نقل إلى مقبرة أحمد..

ومقبرة أحمد بن حنبل في محلة الحربية التي تقع وراء مقابر قريش، وفيها الباب الذي كان بنو شيبان قد اتخذوها مقبرة لمن يموت منهم، ثم لمن يموت من أهل الحديث. فدفن أحمد بن حنبل في هذا الباب، لأنه إمام الحديث - كما قالوا - ولأنه من بني شيبان.

أما الحربية أو باب حرب، فقد نسب إلى حرب بن عبد الله أو حرب بن عبد

ص: 199

1- (1) تاريخ بغداد 79/5. [1]

2- (2) لسان الميزان 272/1.



الملك أحد قواد المنصور، ثم غلب عليها اسم أحمد فصارت تسمى مقبرة أحمد.

وأصبحت مزارا تهفو إليه قلوب الحنابلة و تعجّ بالدعاء، و بقعة مقدسة توضع في زوارها المنامات، حتى جرفتها السيول-كما علمنا-و غرق قبر أحمد على اختلاف في تعيين سنة الغرق في القرن السادس أو السابع؟ و لما غرق القبر، تحوّل الناس إلى زيارة قبر ولده عبد الله في القطيعة، يؤدّون الزيارات، و يدعون لقضاء الحوائج.

و أحمد بن حنبل هو آخر رؤساء المذاهب وفاة.توفى أبو حنيفة سنة 150 هـ و مالك سنة 179 هـ و الشافعي سنة 204 هـ ثم أحمد سنة 241 هـ و مذهبه قليل الانتشار، محدود الاتباع.فهو ليس كمذهب أبي حنيفة عددا في البلاد الإسلامية، و لا كمذهب الشافعي في مصر.

## الحنابلة في ظل المتوكل

سبق أن أشرنا إلى مشاعر المتوكل تجاه أحمد، و كونها واحدة من عوامل الميل إلى أحمد بن حنبل، إضافة إلى الأغراض السياسية، و قد قلنا إن أحمد لم يستجب تماما لرغبة المتوكل في (تنصيبه)رئيسا مذهبيا، و لولا التهمة التي غيرت مجرى السعي السلطاني إلى ضمّ أحمد في تلك المرحلة، لا اكتملت مقتضيات السياسة في تبني أحمد تماما و هو في حياته، و قد كانت التهمة خطيرة تهتزّ لها أبدان بنى العباس غيظا، و هي التعاون مع العلويين، فداهموا منزله و منزل ابنه، و دلوا شمعة في البئر، و وجهوا النسوة ففتشن الحرم، مما أفر في إعلان المذهب رسميا.

و بعد ثبوت براءته، لم يعد أمام المتوكل من مانع يمنعه من الاهتمام بأحمد اهتماما بالغا، فكان يأمر بالمال، و يتوجّع لما يصيبه، و اقتنع قناعة تامة بأحمد بن حنبل. و يبدو أن الموت عاجله، فاستأنف ما أراد منه في غيابه.

و لو بحثنا في اتجاه أحمد بن حنبل و آرائه في الأحكام، لوجدنا أن ابن حنبل يرى أن من صفة المؤمن من أهل السنة و الجماعة: صلاة العيدين و الخسوف و الجمعة و الجماعات مع كل أمير برّ أو فاجر، و الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح، و عدم الخروج

عليهم بالسيف (1). وعند ما داهموا بيته بتهمة، إيوائه علويا كان يقول: ما أعرف من هذا شيئا، وإن لأرى طاعته في العسر واليسر والمنشط والمكره والأثرة. وإنى أتأسف على تخلفي عن الصلاة في جماعة، وعن حضور الجمعة ودعوة المسلمين (2).

ولما جاء المتوكل، أظهر ما يتفق مع آراء أحمد ومعتقداته ومنهجه، فأمر بترك النظر والمباحثة في الجدل، وأمر الناس بالتسليم والتقليد، و الترتك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق والمأمون. وأمر شيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة (3). وأشخص الفقهاء والمحدثين، وكان فيهم: مصعب الزبيري، وإسحاق بن أبي إسرائيل، وإبراهيم بن عبد الله الهروي، وعبد الله وعثمان-ابنا أبي شيبه-فقسمت بينهم الجوائز، وأجريت عليهم الأرزاق، وأمرهم المتوكل أن يجلسوا للناس ويحدثوا بالأحاديث التي فيها الرد على المعتزلة والجهمية، وأن يحدثوا بالأحاديث في الرؤية. فجلس عثمان بن أبي شيبه في مدينة المنصور، ووضع له منبر، واجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفا من الناس. وجلس أبو بكر بن أبي شيبه في مسجد الرصافة، واجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفا.

وقد كان من نتائج تقيّد أحمد بالمأثور عنده وتقليده أن يرى الحاكم قد ولاه الله. ولذلك نجده يدعو إلى: السمع والطاعة للأئمة، وأمير المؤمنين البرّ والفاجر، ومن وليّ الخلافة، ومن اجتمع الناس عليه ورضوه، ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة ويسمى أمير المؤمنين ا .هـ

ولا بد أن تكون للمتوكل أولية في ذلك بالنسبة للإمام أحمد، فإذا كان يعتقد بالحكام الذين ملكوا الأمر والسلطة بعد الإسلام بعمومهم، فإن المتوكل أولى بكل ما كان يراه ويعتقده، غير أن التردّد والسلوك الذي سلكه أحمد ينمّ عن أمر نستشعر منه الإحراج إن لم يكن به غناء عن الكناية أو التلميح؟ وقد كتب إليه المتوكل بعد أن استيقن من وضعه وقال: إنى أحب أن آنس بقربك وبالنظر إليك، و يحصل لى بركة دعائك. و لكنّا نجده لا يقرب أكل المتوكل، ولا يمسّ منه شيئا. و يطوى صائما حتى

ص: 201

1- (1) المدخل إلى فقه أحمد بن حنبل: 19.

2- (2) المناقب: 360.

3- (3) مروج الذهب. [1]

جاء- وهو عند المتوكل -جوعا عظيما، وكاد أن يقتله الجوع. وقد قال بعض الأمراء للمتوكل: إن أحمد لا يأكل لك طعاما، ولا يشرب لك شرابا، ولا يجلس على فراشك، ويحرم ما تشربه. فقال: والله لو نشر المعتصم، وكلمنى فى أحمد؛ ما قبلت منه (1). و يروى أنه كان يتألم من هذا اللقاء ويقول: سلمت منهم طول عمرى، ثم ابتليت بهم فى آخره (2). فلما ذا هذا الألم؟ وكيف يتفق ذلك مع الدعوة إلى الطاعة والاستسلام إذا كان الاتصال بالحكام ابتلاء؟ ومن يكن سببا فى البلاء لا بد أن حاله على غير ما يدعو إليه الإسلام، وبخلاف ما يستريح إليه المؤمن. بل أن أحمد بن حنبل يرى أن تكريم المتوكل له يجعله فى غم، ففى رواية أن عمّ أحمد قال له: لو دخلت على الخليفة، فإنك تكرم عليه؟ فقال: إنما غمى من كرامتى عليه.

ونرى الإمام أحمد يصرف همه إلى ما أحاطه به المتوكل من منح وعطايا، ويصبح شغله الشاغل أن يمنع أهله وعمّه -الذى يرافقه دوما- من أخذها، ويلومهم ويعظهم فى كلام طويل. فيحتجّون عليه بالحديث: «ما جاءك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مستشرف؛ فخذ». و أن ابن عمر و ابن عباس قبلا جوائز السلطان. ويقول:

و ما هذا و ذاك سواء. و لو أعلم أن هذا المال أخذ من حقه و ليس بظلم و لا جور؛ لم أبال.

فكيف يقَرّ الظلم و الجور، و تصبح الطاعة من صفات المؤمن؟ و رغم أن أحمد حصر سبب رفضه و ابتعاده عن الحاكم المتوكل بالناحية المالية، فإنه لم يتمكن أن يعزلها عن أسس و حقيقة الحكم القائم. و خلاصة الأمر، أن الإمام أحمد يدعو إلى السمع و الطاعة على الطريقة التى مرّت بنا متأثرا بدعاة السلاطين و سدنة الملوك الذين دسّوا فى الأثر ما ليس له علاقة بمبادئ الإسلام و عدالة السنّة، و يعارض دعوته بسلوكة هذا الذى تقتضيه بدائه العقول، فضلا عن تعاليم الإسلام. ثم لا يتجاوز دائرة السلبية و ضيق المجال الذى يتصرّف فيه إلى رحاب المسئولية الدينية فى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر لدى السلطان الجائر باعترافه هو، و ليس هناك ما يمنع من خشية عليه شخصية أو عدا من جانب المتوكل يمكن أن يؤدى به

ص: 202

1- (1) البداية و النهاية 339/10. و [1] المناقب لابن الجوزى 369.

2- (2) البداية و النهاية. [2]

إلى التلف و الهلاك. فجسور الودّ قائمة، و حبال الوصل ممدودة، و الفترة تشهد سواه ممن يقوم بهذا الواجب. و فى سيرة إسحاق بن حنبل عمّه- ما يشير إلى مخالفة أحمد ليس فى أمر المال فحسب، بل فى نظرتة إلى ما يتاح له من عمل.

فيسأله الدخول على الخليفة ليأمره و ينهاه قائلا له: إنه يقبل منك. و هذا إسحاق بن راهويه يدخل على ابن طاهر فيأمره و ينهاه، فيجيبه أحمد بالسلبية التى لا يرجى تغييرها: الدنو منهم فتنة، و الجلوس معهم فتنة، نحن متباعدون منهم و ما أرانا نسلم، فكيف لو قربنا منهم؟ هذا و الإمام أحمد فى ظل دولة تكاد تعلن آراءه و نهجه مذهباً لها، و يتقرّب إليه ملكها بوّد كبير، و ليس للحكام معه عداً أو مع أهله، و لا يشكل وجوده خطراً عليهم.

و هنا نشير إلى منهج أهل البيت النبوى الكرام، و أولاد الإمام أمير المؤمنين على عليه السّلام و نسوق مثالين: أحدهما فى عصر الأمويين، و الآخر فى عهد العباسيين، إذ لم يتخلّ الحكام عنهم فى كلا العصرين، و استمروا فى معاملتهم بقسوة دموية و سياسة لا إنسانية، لأنهم يشكلون خطراً يتهدّد كيانهم الجائر و سلطانهم الظالم.

عن المسؤولية الدينية و وجه القيام بها فى العصر الأموى نشير إلى الإمام على بن الحسين زين العابدين، الذى عاش مأساة الطف، و شبّ و جريمة الأمويين تصبغ بالعار كل أوجه الحياة، فسلك طريق الانقطاع إلى الله، و توجيه الأمة بالنصح و الإرشاد، و هو فى ظل حكم السلالة الأموية، فيرى أن التارك للأمر بالمعروف و النهى عن المنكر كنازك كتاب الله وراء ظهره، إلا أن يتقى تقاة قيل: و ما تقاته؟ قال:

«يخاف جباراً عنيدا أن يفرط عليه أو أن يطغى» (1).

و عن الضرورة التى تجعل التقية جنة المؤمن عملاً بقوله تعالى: لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً نَحِيلَ إِلَى مَا ضَمَّهُ هَذَا الْكِتَابُ مِنْ صَفْحَاتٍ مِنْ سِيرَةِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ هُوَ يُوَاجِهُ الطَّغْيَانَ الْعَبَّاسِيَّ، وَ يَرَى أَنْ التَّعَرُّضَ لِلدُّوْلَةِ قَتْلَ لِلنَّفْسِ، وَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَ تَعَالَى يَقُولُ: وَ لَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ فَتَحَامَى الْحُكَّامُ، وَ دَعَا إِلَى وَقَايَةِ الْأَنْفُسِ وَ حَفِظَ

ص: 203

الدماء، لأن العباسيين شأنهم شأن من سبقهم من الظلمة لا يتورعون عن سفك دماء آل البيت بسبب أو بدون سبب. ومع شدة حذره عليه السلام تعرّض إلى القتل على يد المنصور تسع مرات، غير أنه عليه السلام وضع قواعد الدعوة الصامتة، وخاطب أصحابه بأن يكونوا دعاة صامتين لآل البيت، ثم رسم للعلماء والمتكلمين من أصحابه الأدوار، وحدد المسؤوليات كما مر بنا في هذا الجزء من الكتاب والأجزاء السابقة.

لم يؤثّر تردّد أحمد بن حنبل، فقد كان سلوكاً لا يجاوز الأسرة، يجري كشأن عائلي بحت مناطه المال. أما آراء أحمد السابقة فهي شائعة عن مريديه ومعروفة للتمتع شخصه واشتهار اسمه في المحنة، والمتوكل يعمل على إلباس عهده صفة الحنبلية، وأحمد يتعاون مع هذا الاتجاه، ويستجيب برغم نفوره من المخالطة؛ إلا أنه كان له الرأي في الأمور المذهبية، وكان المتوكل يستشيريه في التعيين للقضاء، ويأخذ برأي أحمد كما حدث عند ما بعث المتوكل إلى أحمد يستشيريه في تولية محمد بن شجاع الثلجي من فقهاء الحنفية. فقال: لا، ولا على حارس. ورأى أحمد فيه: إنه مبتدع صاحب هوى (1) وأنفذ إليه المتوكل بصاحب لم يعلمه - ونورد القصة بسياقها وهي جديرة بالبحث والتعليق - أن له جارية بها صرع، وسأله أن يدعو الله لها بالعافية، فأخرج له أحمد نعل خشب بشراك خوص للوضوء، فدفعه إلى صاحب له، وقال له: تمضى إلى دار أمير المؤمنين، وتجلس عند رأس الجارية، وتقول له: يقول لك أحمد أيما أحب إليك، تخرج من هذه الجارية أو أصفح الآخر بهذه النعل؟ فمضى إليه، وقال له مثل ما قال أحمد، فقال المارد على لسان الجارية: السمع والطاعة، لو أمرنا أحمد أن لا نقيم في العراق ما أقمنا به، إنه أطاع الله، ومن أطاع الله أطاعه كل شيء. وخرج من الجارية، وهدأت وزوجت ورزقت أولاداً (2).

وعلى عهد أحمد بزغ نجم الحنابلة، وطلع فجر ليلهم الدامس بفضل انتصار المتوكل للإمام أحمد. ويحلوا للحنابلة أن يصوّروا أحماً وحيداً في المحنة، ليتدرّجوا في غلوهم، متناسين أن الأمر صنعتهم أهواء الحكام وأغراض السياسة.

ص: 204

1- (1) المنتظم 57/5. [1]

2- (2) طبقات الحنابلة 233/1. [2]

فتحوّل البعض عن طريقة السلطة العباسية، وبقى أحمد وحيدا في أجواء التحوّل والتغيير، مستمسكا بالطريقة التي تهاب البحث و تخشى النقاش، وإن كانت تحرز كنزا و تدخر ثروة من فهم الكتاب بأى طريقة كانت، وتمثّل السنة بأى صورة تّمت، لأن الظاهر القائم على وضوح النص و تحريّ السبب معين قيّاض يوقّر الحجة و يغنى في الجدل.

بإسناده قال الميموني: سمعت على بن المديني يقول: ما قام أحد بأمر الإسلام بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله و سلّم كما قام أحمد بن حنبل. قال: قلت له: يا أبا الحسن و لا أبو بكر الصديق؟ قال: و لا أبو بكر الصديق. إن أبا بكر الصديق كان له أعوان و أصحاب، و أحمد بن حنبل لم يكن له أعوان و لا أصحاب اه.

سبق أن قدّمنا أن الكرايسى كان أول ضحايا السلطة بعد جنازة ابن حنبل، و قد بدر من المتوكل من مشاعر التقديس و الإجلال لأحمد بن حنبل ما لم يحظ به أحمد من رؤساء المذاهب الذين سبقوه، فيقول لمحمد بن عبد الله بن طاهر: طوبى لك، صلّيت على أحمد بن حنبل.

و بعد موت أحمد اندفع أصحابه تحت شعار- إحياء السنّة و محاربة البدع- إلى إيذاء الناس و الاعتداء على الآخرين. و لمّا تصل الأخبار إلى المتوكل يقول لصاحب الخبر: لا ترفع إلى من خبرهم شيئا، و شدّ على أيديهم فإنهم و أصحابهم من سادات أمة محمد صلّى الله عليه وآله و سلّم (1).

يقول ابن كثير: (كان المتوكل محببا إلى رعيته، قائما في نصره أهل السنة، و قد شبّهه بعضهم بأبي بكر في قتله (أهل الردة) لأنه نصر الحق و ردّه عليهم حتى رجعوا إلى الدين، و بعمر بن عبد العزيز حين ردّ مظالم بنى أمية، و قد أظهر السنّة بعد البدعة، و أحمد أهل البدع و بدعتهم بعد انتشارها و اشتهاها، فرحمه الله).

و تولى الحنابلة- و على رأسهم صالح بن أحمد- نشر المنامات التي تصوّره بأنوار قدسية و بين يدي ربه، لأنه محيي السنة ردا لرعايته و تبنّيه لأمرهم. فقد بلغ الأمر بالمتوكل أنه أرسل جماعات تحصي عدد المصلّين أو المشيعين.

ص: 205

و أخذ المتوكل يروج المنامات عن نفسه على طريقتهم، فيدعى أنه رأى النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم في المنام، وقام إليه فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: تقوم إليّ وأنت خليفة. ويعتبر له الحاشية ذلك بقولهم: أبشر يا أمير المؤمنين، أما قيامك إليه فقيامك بالسنة، وقد عدك من الخلفاء. فيسر بذلك (1).

وهكذا حصرت السنة في رعاية الحنابلة، وترك حبلهم على الغارب يعيشون في الأرض ويرتكبون ما حمل ابن تيمية-أبا بدعة الوهابية و شيخ مذهبهم- أن يقول: بأنهم أتوا من المنكرات والإمام أحمد برىء منهم (2). وهو قول يرمى به إلى نفي المسؤولية عن أسلافه، ويفتقر إلى الصحة، لأن رجال أحمد كالمرودي وأصحابه كانوا على رأس العامة يهيجونهم إذا هدأوا، ويستفزونهم إذا خمدوا. وقد كانت البداية في عهد المتوكل، ثم توالى عهود هيمنتهم وتحكمهم وإلزام الناس بأفكارهم المجسّمة وغيرها، حتى بلغ الأمر تهديد من يخالفهم، واستعداد الحكام عليه، واستخدام قوتهم لأغراض مذهبهم. فكان من وجوه ابتلاء الأمة أن يتعرض كل من لا يرى رأيهم في التجسيم والرؤية (3) للأذى، في حين يبقى يحيى بن أكثم- وهو من أركان الحكم في عهد المأمون- على مكاتته، ويظل في منزلته من الخليفة، لأن أحمد بن حنبل راض عنه. قال المأمون ليحيى بن أكثم: من الذي يقول- وهو يعرض به-:

قاضي يرى الحدّ في الزناء ولا يرى على من يلوط من بأس

قال: أو ما يعرف أمير المؤمنين من قاله؟ قال: لا. قال: يقوله الفاجر أحمد بن أبي نعيم الذي يقول:

حاكمنا يرتشى، وقاضينا يلوط، والرأس شرّ ما راس

لا أحسب الجور ينقضى، وعلى ال أمة وال من آل عباس

(4) ولما كان يحيى بن أكثم قاضيا للبيصرة، رفع الناس إلى المأمون أنه أفسد أولادهم بكثرة لواطه، وبلغ من إذاعته ومجاهرته باللواط في بغداد أن المأمون أمره أن

ص: 206

1- (1) راجع: المناقب لابن الجوزي. و البداية و النهاية. 351/10.

2- (2) قواعد المنهج السلفي 113.

3- (3) انظر: المنتظم 172/6.

4- (4) تاريخ الخطيب 196/14. و [1] مروج الذهب 22/4. [2]

يفرض لنفسه فرضاً يركبون بركوبه، ويتصرفون في أموره. ففرض أربعمائة غلام مرداً اختارهم حسان الوجوه، فافتضح بهم.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: ذكر يحيى بن أكثم عند أبي فقال: ما عرفت فيه بدعة. فبلغت يحيى فقال: صدق أبو عبد الله، ما عرفني ببدعة قط. قال: وذكر ما يرميه الناس به فقال: سبحان الله! سبحان الله، ومن يقول هذا؟ وأنكر ذلك أحمد إنكاراً شديداً (1).

وعلى شاكلة يحيى بن أكثم كانت دفة حكم المتوكل، فلم يكن في وزرائه و المتقدمين من كتابه وقواده من يوصف بجود ولا إفضال، أو يتعالى عن مجون وطرب.

يظهر لنا من ذلك أن صفة إحياء السنة التي تعنى الالتزام بأهداب الدين ومحاربة الخروج عن أصول الإسلام تخفى تحتها واقعا سيئا كأي حاكم آخر ممن تستروا بالدين واتخذوا شعائر الإسلام غطاء لجرائمهم. وهذا الواقع بعيد عن أنظار العامة، فهم في انفعال لا يكاد يخف حتى يشتد، و انقيادهم إلى الذين أطلقوا هذه الصفة انقياد أعمى، حتى كأن العامة تنظر و تنطق بأنظار و السنة النابيهين في تلك الفترة و المتزعمين الذين راحوا يكيلون المدائح للمنقذ المتوكل، و يشيعون الأخبار و المنامات عن جزائه عند الله، و مكانته في الدين، فتأخذ سياسته على أنها السنة، و يحسب كل ما يصدر عنه من الدين و التقوى، و كان من سمات حكمه الغالبة عداؤه الشديد لآل علي، و نغمته الشديدة على الشيعة، و من سوء حظ الأمة أن يتاح للحكام مثل هذه الأدوار ليؤثروا في العامة بصفاتهم الدينية، و هم في غفلة عن حقيقة و دوافع من يحكمهم، لأن الوسطاء الذين يقومون بذلك يحجبون بمكاناتهم و منازلهم الدينية الحقيقية، و لا يرغبون في خروج العامة عن أغراضهم.

حدث نصر بن علي الجهضمي بحديث: أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أخذ بيد حسن و حسين فقال: «من أحبني و أحب هذين و أباهما و أمهما؛ كان معي في درجتي يوم القيامة» فأمر المتوكل بضربه ألف سوط، فكلّموه بأن الرجل من أهل السنة، و لم يزالوا

ص: 207



به حتى تركه، ويعقّب الخطيب البغدادي: إنما أمر المتوكل بضربه لأنه ظنه رافضيا، فلما علم أنه من أهل السنة تركه! وأصاب أهل البيت في ظل المتوكل محنة قاسية و بلاء عظيم، وكان الإمام على الهادي يقيم في المدينة، ويقوم مقام الإمامة و حوله شيعة و أصحابه. فكتب عبد الله بن محمد بن داود العباسي إلى المتوكل عن حاله.

فكتب المتوكل إلى الإمام الهادي بالشخص من المدينة، فشحصه عبد الله بن محمد بن داود و معه يحيى بن هرثمة، و قد اضطر إسحاق بن إبراهيم أن يدخله إلى بغداد في الليل لَمَّا رأى تشوّق الناس إليه و اجتماعهم لرؤيته، فأقام إلى الليل، و دخل به في الليل، فأقام ببغداد بعض تلك الليلة، ثم نفذ إلى سرّ من رأى (1). ثم كان من المتوكل في الإساءة إلى الإمام الهادي ما تجاوز به كل حدّ الأدب و اللياقة.

و شارك المتوكل يزيد بن معاوية في جريمته النكراء التي سوّدت وجوه بنى أمية و من والاهم إلى يوم الدين، فأمر المتوكل سنة 236 هـ بهدم قبر أبي الأحرار الإمام الحسين عليه السّلام و محو أرضه و إزالة أثره، و أن يعاقب كل من وجد به.

و لا نعقّب بشيء آخر، فلا مزيد لمستزيد أمام ما تصرّخ به شواهد سيرته و أفعاله.

يقول الأستاذ حسن خليفة: و قد كان قاسى القلب، ظالما، حتى أطلق عليه المؤرّخون اسم (نيرون المسلمين) (2).

## أحمد و الشيعة

:

كان أحمد في كلّ ما يعرض له من المسائل يتوجّس من القول فيها، سواء كانت في مسائل واقعة تدخل في الخلاف، أو مسائل عامة تمسّ المعاملات و الحياة، حتى قلنا إنه يعاني من هاجس يعبر عنه هو: العلم الذي علمه، أو المذاهب التي أدرك أصحابها و حدّث بها. مما جعله في كثير من الأمور يغمض في الجواب، و يبعد كثيرا عن القطع و الجزم. و قد أسهمت خشيته من السلطان في إضعاف الأحكام التي تترتب على أفعال المتوكل، كإقدامه على حرث قبر الإمام الحسين عليه السّلام. فلم نعلم له

ص: 208

1- (1) تاريخ يعقوبى 209/3. [1]

2- (2) الدولة العباسية ص 147 نقلا عن محمد البيومى: ابن حنبل.

موقفا يليق برجل في منزلته. وبتأثير هذا الموقف راحت توجه الأسئلة إليه: هل يلعن يزيد؟ فقد تظافت أراؤه السابقة في إطاعة الحكام وعدم الخروج عليهم مع صمته على التجروء على مثل هذه الأسئلة. وأغلب الروايات أنه كان يجيب بلعن يزيد، ويقول:

كيف لا ألعنه من لعنه الله في ثلاث آيات من كتابه العزيز في الرعد و القتال و الأحزاب.

وأحمد بن حنبل مبالغ في تقرير شرف الصحبة، فيرى أن الصحابي هو كل من صحب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سنة أو شهرا أو يوما أو ساعة أو رآه فهو من أصحابه. وهو ما يتفق مع نزعتة في تقديس السلف، وميله إلى الأخذ بما عدَّ من الأثر، والمشهور الذي تعاهده حكام بني أمية و بنى العباس بالرعاية و الحماية و الترغيب في الوضع و الانتحال.

فكان على عهد معاوية الحديث: أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم. و هنا على رأى أحمد، وعملا بهذا الحديث فإن معاوية صحابي و إمام من أولئك الذين يعينهم في السمع و الطاعة.

و في عهد بنى العباس كانوا يجعلون المحدثين يقولون: معاوية بن أبي سفيان ستر أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فإذا كشف الرجل الستر اجترأ على ما ورائه (1). و الله أعلم بدوافع قول أحمد: خير هذه الأمة بعد نبينا أبي بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان. و يتوقف، ثم يجعل الإمام على ضمن أصحاب الشورى: الزبير و طلحة و عبد الرحمن بن عوف و سعد (2).

و يرى الشيخ محمد أبو زهرة أن أحمد في ذلك يقف موقفا وسطا بين أبي حنيفة و مالك (فأبو حنيفة في رواية صحيحة عنه يفصل عليا على عثمان رضى الله عنه...)

و مالك يعدّ السبق في ثلاثة: أبي بكر و عمر و عثمان، ثم يذكر أن بعد ذلك يستوى الناس، أما أحمد فإنه لا يعدّ سيف الإسلام في سائر الناس، بل يجعله في أصحاب الشورى الخمسة بعد رفع عثمان رضى الله عنه، و الناس بعد ذلك دونهم على مراتب (3).

و نحن نرى باعتماد الأقوال الأخرى لأحمد أن أحمد واقع تحت تأثير الخوف من المتوكل الذي كان من أشدّ النواصب و المعادين للإمام علي و آل بيته، و هو مشفق

ص: 209

1- (1) تاريخ بغداد ج 1 ص 209. [1]

2- (2) ابن حنبل ص 147. [2]

3- (3) ابن حنبل ص 147.

من هذا الطاغى، أو عامل بما دعا إليه من الطاعة التى يبّرها لنفسه. فعبد الله بن أحمد يسأل أباه: يا أبى، ما تقول فى التفضيل؟ فيقول: فى الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان. فيقول عبد الله: فعلى بن أبى طالب؟ فيقول أحمد: يا بنى، على بن أبى طالب من أهل بيت لا يقاس بهم أحد (1). ولعلنا لو ناقشناه لقال: ذلك ما علمته من السلف فى التفضيل، وأما القول الآخر فهو ما يقتضيه الحق. وعن عبد الله أيضا قال: كنت بين يدي أبى جالساً ذات يوم، فجاءت طائفة من الكرخية، فذكروا خلافة أبى بكر وخلافة عمر وخلافة عثمان فأكثروا، وذكروا خلافة على بن أبى طالب فزادوا وأطالوا، ورفع أبى رأسه إليهم فقال: يا هؤلاء قد أكثرتم القول فى على وخلافة، إن الخلافة لم تزيّن على، بل علىّ زينها (2). وللعلامة المعتزلى ابن أبى الحديد قول فى ذلك فيقول: وهذا الكلام دال بفحواه ومفهومه: أن غيره ازدان بالخلافة وتمت نقيصته، وإن عليا لم يكن فيه نقص يحتاج إلى أن يتمم بالخلافة، والخلافة ذات نقص فى نفسها، فتمم نقصها فى ولايته إياها...

ثم لا نعدم أن نرى أقوالاً تومئ إلى ردّه على زمرة المتوكل والنواصب كقوله:

من لم يثبت الإمامة لعلى فهو أضلّ من حمار (3).

وعلى ذلك، فإن تهمة إيواء العلوى لها مغزى كبير إن لم تكن حقيقة واقعة، ونحن بذلك لا نريد تحويل صورة أحمد، أو نرمى إلى إخراجها مما هو فيه؟ بل إن الموقف من العلويين هو المعيار الثابت لمن كان مثله فى الزهد والتدين.

و ابن حنبل لم يكن منقطعاً عن الشيعة، بل كان على صلة مع رجالهم رغم الإجراءات التى اتخذها المتوكل فى تتبع الشيعة. وربما وجّه بعض المخلصين للإمام أحمد لوما شديداً على اتصاله بمن عرف فى التشيع، فكان جوابه: سبحان الله، رجل أحبّ قوماً من أهل بيت النبى صلبى الله عليه وآله وسلم نقول له لا تحبهم؟ هو ثقة (4).

كما أنه أخذ العلم عن كثير من رجال الشيعة وكانوا من شيوخه، وقد ذكرهم ابن

ص: 210

1- (1) المناقب 163. [1]

2- (2) المصدر السابق.

3- (3) المناقب أيضا.

4- (4) تاريخ بغداد 261/10. [2]

الجوزى فى المناقب، وغيره ممن كتب فى رجال الحديث، ذكرهم فى تعداد شيوخ أحمد مع ثبوت تشييعهم. منهم:

-إسماعيل بن أبان الأزدي المتوفى سنة 216 هـ وهو من شيوخ البخارى وابن معين أيضا.

-إسحاق بن منصور السلوى المتوفى سنة 205 هـ خرّج حديثه أصحاب الصحاح الستة.

-تليد بن سليمان المحاربى المتوفى سنة 110 هـ خرّج حديثه الترمذى وقال فيه أحمد: إن مذهبه التشيع، ولم أرفيه بأسا.

ولسنا هنا فى موضع استقصائهم، وإنما أوردنا أسماءهم كأمثلة. وتسمع عن رحلة أحمد لطلب الحديث، فقد كانت إلى عبد الرزاق بن همام الصنعانى، وهو من رجال الشيعة ومحدثيهم ترجمه الذهبى: أحد الأعلام الثقات... وهو خزنة علم، ورحل الناس إليه: أحمد وإسحاق ويحيى والذهلى جعفر بن أبى عثمان الطيالسى قال: سمعت ابن معين يقول سمعت من عبد الرزاق كلاما يوما، فاستدللت به على تشييعه، فقلت، إن أساتذتك الذين أخذت عنهم كلهم أصحاب سنة: معمر و مالك و ابن جريج و سفيان و الأوزاعى، فعمن أخذت هذا المذهب؟ فقال: قدم علينا جعفر بن سليمان الضبعى، فرأيتة فاضلا حسن الهدى، فأخذت هذا عنه. وذكر رجل معاوية فى مجلسه، فقال عبد الرزاق: لا تغدر مجلسنا بذكر ولد أبى سفيان. قال أحمد بن صالح: قلت لأحمد بن حنبل: هل رأيت أحسن حديثا من عبد الرزاق؟ قال: لا (1).

وأحمد بن حنبل يقرب عزمه على الخروج إلى مكة ليقضى حجة الإسلام بالمضى إلى عبد الرزاق إلى صنعاء بعد الحج، وكان يرافقه يحيى بن معين، ويشد الرحال على ذلك، بل إنه يبقى على نيته وهو يلتقى بعبد الرزاق فى مكة. وإليك نص صالح بن أحمد: عزم أبى على الخروج إلى مكة ليقضى حجة الإسلام، ورافق يحيى بن معين، فقال: نمضى إن شاء الله، فنقضى حجتنا، ونمضى إلى عبد الرزاق

ص: 211

إلى صنعاء نسمع منه. فور دنا مكة، وطفنا طواف الورد، فإذا عبد الرزاق في الطواف يطوف، فطاف و خرج إلى المقام فصلى ركعتين و جلس، فتمننا طوافنا أنا و أحمد و جئنا و عبد الرزاق جالس عند المقام، فقلت لأحمد: هذا عبد الرزاق قد أراحك الله من مسيرة شهر ذاهبا و جائيا و من النفقة. فقال: ما كان الله يراني و قد نويت له نية أفسدها و لا أتمها (1).

توفى عبد الرزاق سنة 211 هـ و لذلك ترى أن في مسنده أحاديث تشتمل على فضائل أهل البيت. يقول الأستاذ محمد رجب البيومي في كتابه (ابن حنبل): (و قد لاحظ بعض كتاب المغرب أن في مسند أحمد ما يدل على شجاعته الأديبة، فقد ذكر أحاديث تشتمل على فضائل علي و آل بيته مما لا نجد نظيرها في صحيح البخاري، و ذلك في عصر يضطهد العلويين و يناوئهم، و يقف بالمرصاد لمن ينسب إليهم بعض الخير في قليل أو كثير...) و معلوم أن المسند روى عن أولاده و أصحابه، و جمع من قبلهم.

و صفوة القول، أن أحمد في سعيه و طلبه للحديث و العلم اتصل بالشيعة، و تتلمذ على رجالهم. و إن كانت هذه العبارة لا تغني عن نتائج البحث و التعمق في حياته، و قد اكتفينا بهذا القدر.

### خاتمة و خلاصة

رأينا أحمد في حياته، و رافقناه في محنته (2) و ذكرنا بعضا من أخباره و سيرته، و اتضح لنا نهجه و منحاه العلمي، و أن كثيرا من أخباره و ما تتضمن صور عظمته كانت من إغراق الحنابلة في مدحه، لأن أكثر ما أوردوه في ذلك هو من وحي الخيال و بدافع التعصب، و قد توّهننا بالمنامات و غيرها و التي يقصد الحنابلة في كثير منها ليس إلى رفع منزلة أحمد و تهويل مكانته فحسب؛ بل و إلى خدمة معتقداتهم في التجسيم. نورد لك منها زيادة، فقد اشتهر عن أحمد الجهر بالرؤية حتى ينقطع نفسه، و الإصرار على ذلك. و راح أحمد يعصّد الرؤية في الآخرة برؤيا له إذ قال أحمد: رأيت الله عز و جل

ص: 212

1- (1) الطبقات 1/175.

2- (2) راجع الجزء الرابع من «الإمام الصادق و المذاهب الأربعة».

فى المنام!فقلت: يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك؟قال: بكلامى يا أحمد (1).

و بإسناده قال أحمد بن محمد الكعدى: رأيت أحمد بن حنبل فى المنام، فقلت: يا أبا عبد الله، ما صنع الله بك؟قال: غفر لى، ثم قال: يا أحمد ضربت فى؟قال: قلت: نعم يا رب.قال: يا أحمد، هذا وجهى، فانظر إليه، قد أبحتك النظر إليه!!! قال عبد الله بن الحسين بن موسى: رأيت رجلا من أهل الحديث-توفى- فيما يرى النائم، فقلت له: بالله عليك ما فعل الله بك؟قال: غفر الله لى. فقلت:

بالله؟فقال: بالله إنه غفر الله لى. فقلت: بما ذا غفر الله لك؟قال: بمحبتى لأحمد بن حنبل. فقلت: فأنت فى راحة؟فتبسّم وقال: أنا فى راحة وفى فرح (2).

و يحدث أحد شيوخهم: رأيت رجلا بجامع الرصافة فى شهر ربيع الآخر من سنة ستين و أربع مائة. فسألته فقال: قد جئت من ستمائة فرسخ. فقلت فى أى حاجة؟قال:

رأيت و أنا ببلدى فى ليلة جمعة كأتى فى صحراء أو فى فضاء عظيم، و الخلق قيام، و أبواب السماء قد فتحت، و ملائكة تنزل من السماء تلبس أقواما ثيابا خضرا و تطير بهم فى الهواء. فقلت: من هؤلاء الذين قد اختصوا بهذا؟فقالوا لى: هؤلاء الذين يزورون أحمد بن حنبل. فاتبعت و لم ألبث إن أصلحت أمرى، و جئت إلى هذا البلد، و زرته دفعات، و أنا عائداً إلى بلدى إن شاء الله اه. إلى ما هنالك من أمور لا تدخل فى دائرة البحث التاريخى، و هى عندهم من الأسس المعتمدة فى تكوين شخصية أحمد.

فرؤياهم النبى المصطفى صلى الله عليه و آله و سلّم-كما يدعون-و أنه أمرهم باتباع أحمد. هو عندهم كأمره فى اليقظة، و قد أثر ذلك فى التحقيق التاريخى عن ترجمة أحمد.

و انتصار المحدثين على خصومهم المعتزلة خلق جوا من الاضطراب فى أخباره و سيرته، فتحامل خصومه و مغالاة أنصاره مع إقبال الدولة عليه، أو جد فجوة كبيرة.

كما أن إهمال العامل السياسى من قبلهم أدى إلى تعدد وجهات النظر فى الواقع

ص: 213

1- (1) الإحياء ج 3 ص 497. [1]

2- (2) الجرح و التعديل ج 1 ص 308.

التاريخي، على أن مشكلة خلق القرآن وقيام المأمون بإلزام الفقهاء في ذلك أوجد مشكلة كلامية تحتاج إلى دراسة واسعة في علم الكلام، و بيان الكلام النفساني، و تعلقه بالذات.

كما أن الأسباب التي دعت المأمون إلى هذا الإلزام، و حملته على نشر ذلك بالقوة كذلك تحتاج إلى دراسة واسعة.

ثم القول بخلق القرآن، هل هو الإحداث، و لا شك أنه محدث، أم أرادوا الخلق أو التكوين الحادث للكلام و هو من صفات الله، و إن صفاته عين ذاته، و قد عرضناها في هذا الجزء بقدر ما تقتضيه ضرورة البحث.

وغير بعيد أن الحنابلة قد أوهموا على الناس في هذه المسألة، و جعلوها في قالب آخر، و أوردوها لهم بصورة ينكرها الجميع، و ذلك بتفسيرهم المخلوق بالمكذوب. فقد ورد في كثير من أقوال العرب اختلق كذا أي كذب فيه. و قد ورد عن الخليل بن أحمد-صاحب كتاب العين- أنه كان يمنع أن يوصف الكلام بالمخلوق و يقول: إن الكلام متى وصف بالخلق فالقصد به الكذب، و لهذا يقال:

كلام خلقه فلان أي تقوله- و قد مر بنا ذلك سابقا-.

و في أيام المحنة أن بعض الفقهاء لما سئل في القرآن قال: أصفه بأنه محدث، و لا أقول بأنه مخلوق لقوله تعالى: مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُّحَدَّثٌ .

فمعنى أنه مخلوق أي مكذوب و هو غير منزل. و غير بعيد على قوة دعاية الحنابلة و تغلغلهم في المجتمع أنهم أفهموا الناس بأن المعتزلة يذهبون إلى خلق القرآن أي إلى عدم كونه منزلا- من الله سبحانه و تعالى. و بهذا هبت عواصف الغضب على المعتزلة، و انتصر عليهم المحدثون.

كما لا أستبعد أن أكثر الحنابلة-الذين يقومون بنشر هذه الدعاية- لا يفهمون إلا المعنى اللغوي، و هو أن المخلوق هو المكذوب، و لم يذهبوا مذهب المعتزلة في الكلام و ما هو معنى ذلك.

و كيف يستبعد انتشار أمثال هذه الدعاية في عصر انتشر فيه الجهل و الجمود الفكري، و أصبح الناس يسير أكثرهم وراء عاطفة عمياء لا يميز بين الحق و الباطل،

ولكن هلم فاعجب من رجل يدعى الإمام بالتاريخ، وكلف نفسه كتابة التاريخ الإسلامى، ولكنه محى أكثر مما كتب، وأفسد أشياء كثيرة، وعقد مسائل واضحة.

هذا الرجل هو جرجى زيدان، يعيش فى القرن العشرين، ولكنه يعيش فى عقلية قرون الجهل والجمود، فهو يذكر لنا فى تاريخه الذى أسماه (التمدن الإسلامى) 141/3 ط 1 أن المأمون تمسك بمذهب الاعتزال، وقرب إليه أشياخه، وصرح بأقوال لم يقو هؤلاء على التصريح بها خوفا من غضب الفقهاء، وفى جملتها القول بخلق القرآن، أى أنه غير منزل.

فأنت ترى أن جرجى زيدان ينسب للمعتزلة إنكار نزول القرآن، وهذا كفر محض، وهو افتراء محض ناشئ من سوء الفهم، وعدم الإلمام بأطراف المسألة، و جهل بالمسائل الكلامية.

ولا نودّ هنا أن نقف مع مؤلف التمدن الإسلامى فنكشف أخطاءه المتعمدة وغيرها. فنحن قد سجلنا عليه الكثير من ذلك، ويكفى هنا تغييره لهذه المسألة، وتحويلها من الصراع الفكرى الحاد إلى جمود لا يتعدى الخلاف بمفهوم اللفظ اللغوى الذى يجعل المسألة من أبسط المسائل وأوضحها. وإن إطلاق المخلوق على المكذوب أمر لا- يحتاج إلى أبحاث علمية و منازعات كلامية بين المعتزلة و المحدثين.

وكما قلنا إن الحنابلة قد انتصروا على خصومهم بما كان لكلمة مخلوق من دلالة، وهى أنه مكذوب. وبهذا استطاعوا أن يحركوا شعور المجتمع ضدّهم. ولكن قوة الحكم و عنف المؤاخذة و حمل الناس قسرا على القول بخلق القرآن جعل للمعتزلة قوة يتحصّنون بها. حتى إذا حان الوقت، وزال ذلك الحكم، وتبدّل وضع الدولة؛ فشل المعتزلة فشلا ذريعا، ونالهم الأذى، ونسب الناس إليهم كل قبيح. وكان لثبات أحمد، وللظروف التى ساعدته على ذلك أثر فى طلوع نجمه، بعد أن أفل نجم المعتزلة بقيام المتوكل العباسى، ورفع للمحنة. ولعل من هذا الفهم لكلمة مخلوق، واتهام المعتزلة بأنهم ينفون وجوده و تنزيهه، كان للمتوكل شأن بين المحدثين، فجمع العلماء من الفقهاء و المحدثين وكان فيهم- كما مر بنا- مصعب الزبيرى، وإسحاق بن أبى إسرائيل، وإبراهيم الهرورى، وعبد الله و عثمان ابنا أبى شيبة، فقسمت بينهم الجوائز، وأجريت عليهم الأرزاق، وأمرهم المتوكل أن يجلسوا للناس، وأن يحدثوا



بالأحاديث التي فيها الرد على المعتزلة و الجهمية، وأن يحدثوا بالأحاديث في الرؤية.

فجلس عثمان بن أبي شيبة في مدينة المنصور، ووضع منبراً، واجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفاً. و جلس أبو بكر بن أبي شيبة في مسجد الرصافة، واجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفاً.

و يلاحظ من هذا أن مشكلة خلق القرآن كانت قضية سياسية بدءاً و ختاماً، فقد قام المأمون بفرض ما يرتئيه، و حمل الناس قسراً على معتقده، و امتحن الناس بعنف و شدة، فقرب من يقول بمقالته، و عاقب من يخالفه بألوان العذاب. و على ذلك سار خلفه، و قد حاولوا جعل الاعتقاد بخلق القرآن عقيدة رسمية، فقد كان أحمد بن أبي دؤاد يأمر المعلمين في الكتاتيب أن يلقنوا الصبيان أن القرآن مخلوق، و أن يصبح ذلك من الدروس التي يلزم تدرسيها في معاهد التعليم، لينشأ الجيل الجديد على عقيدة الاعتزال التي فرضتها الدولة، و امتحن الناس بها.

أما في النهاية، أي في دور المتوكل، فكان الأمر كسابقه يتّصف بالقهر و العنف و الشدة، و حمل الناس على ما ترتضيه الدولة من القول: بأن القرآن غير مخلوق.

و هكذا ضاع جوهر المسألة، و ابتعدت عن مقوماتها العلمية و ما تحتاج إليه من دراسة، و تقديم الطرق العلمية نفيًا و إثباتاً، بل زاد الأمر تعقيداً باستعمال لفظة مخلوق أي مكذوب، و أشيع في الناس أن المعتزلة يذهبون إلى أن القرآن غير منزل من الله تعالى.

و المعروف أن المعتزلة على اختلاف فرقهم و متكلميهم لم يكن أحد منهم يذهب إلى ما اتهموا به من الطغي في القرآن و التشكيك في أنه منزل من عند الله، و قد صدروا في نظريتهم عن الصفات، و منها صفة الكلام التي ترتب عليها قولهم بأن القرآن مخلوق عن إيمان صادق حرصوا فيه على تأكيد وحدانية الله و تنزيهه، حتى وسموا بأهل العدل و التوحيد.

و في عهد المتوكل سار الناس على غير هدى و لا وضوح للمسألة، بل كان الأمر سياسياً و خارجاً عن دائرة النزاع العلمي الذي يؤدي إلى نتائج واضحة سلبيًا أو إيجاباً، و لعل أكثرهم يودّ التعرف على حقيقة الأمر، و يكتفون بذلك خوفاً من السلطة.

و من الأحداث ما يصرّح باعتلاج النفوس و ازدحام الأذهان بالتساؤلات التي تدور بين طبقي رحي السلطة و التعتت. فالإمام أحمد لا يني عن تكفير من تسوّل له نفسه الاستفسار أو تحرى الحق، و لا يتردد في معاملتهم كالمتردّين، فكلام الله غير

مخلوق، و من قال أنه مخلوق فهو كافر بالله العظيم، و من لم يكفر قائله فهو كافر، أو إنهم كفار يستتابون.

و استمر أصحابه على نهجه، كما باتت فرص تحكّمهم فى الناس من خلال السلطة أكبر. و ورث أنصارهم هذا المنحى فى التعنت و التزمّت.

و إلى هنا نتوقف عن الحديث عن أحمد... و ننهى الجزء السابع من كتاب «الإمام الصادق» و سيليه الجزء الثامن بعونه تعالى و توفيقه.

ص: 217







بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا

[الكهف:1]

- وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا [الكهف:29]

- وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى [طه:75]

- وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [النساء:152]

- وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ [المائدة:56]

ص:221



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على هدايته لدينه، والتوفيق لما دعا إليه من سبيله، وأصلى على محمد خاتم الأنبياء وخير الخلق، وعلى آله الطيبين الطاهرين، ومن أتبعه ووالاه.

هذا هو الجزء الثامن من كتابنا (الإمام الصادق والمذاهب الأربعة) وقد أكملته وأنا فى سنّ أَلَمّت بى الأعراض والأمراض، وفى حال من الغربة يزيد من موانع التواصل بالكتابة والتأليف، ولكنى تحاملت على الأيام، وناجزتها بقوى واهنة و ذهن مكدود، وأنا مؤمن بأن ضعف البدن و فتور البال يتحولان بالإيمان إلى طاقة خلاقّة، وقد قال الإمام الصادق عليه السّلام: «ما ضعف بدن عما قويت عليه النيّة».

ولم يكن الجزء الثامن وحده هو ما انعقدت عليه النيّة، وإنما بين يدي كتبي الأخرى التى لم تر النور بعد، وأمامى تنقيح وإضافة بعض الزيادات إلى ما طبع منها ككتابنا: (مع الحسين فى نهضته). وأنا فى ظرف اقتضى أن أتجه فيه إلى مهمات الإرشاد و واجبات العمل الدينى، فقد واجهت صعيدا يستلزم الجهد الذى يضىنى، وفيه كل ما تضمّه القربة إلى الله دون بهارج الدنيا و منافع المادة التى تؤثر فى قوة العمل.

وإذا ما استراح الذهن من الأفكار التى تلحّ عليه، تعلّق بماضى الأيام حيث كان الوقت مستغرقا فى البحث و الكتابة، و ما هى إلا أيام تفرغ و فترات تخصص يركض طالب العلم فيها بنهم وراء المعرفة، ويسعى كل يوم للحصول على المادة التى يحتاجها فى بحثه، فإن عدت فى داره؛ اتجه إلى مجامع الفكر و مؤسسات العلم. فسلام على مدينة العلم، و تحية مقرونة بأهة و دمعة و حسرة، و صلوات الله على أمير المؤمنين و وصى رسول رب العالمين، صلوات دائمة حتى يتشرف جسدى بتراب. أرضه، فإن الأيام تمرّ، و العوارض تزداد، و العمر إلى نفاذ، و لم تتحقق بعد أمنية العودة.



ولقد عانيت كثيرا و أنا أعمل على إكمال الجزء الثامن من كتاب الإمام الصادق فقد رأيت أن ما أكملته من كتب وبحوث-على شدة حرصى وكثرة متابعتى فى إنجازها-قد ضمت بعض الأخطاء الإملائية وغيرها التى لا تخلّ بالسياق.فبذلت جهدى فى التصحيح كما حدث فى كتابنا المخطوط:(الجريمة بين الشرع والقانون) و كتاب(العلوى الثائر)وقد كنت أتمتع ببقايا البصر، فكيف الآن وقد أصبحت أعانى من(الزرقاء)معاناة شديدة مما اضطرنى إلى الاعتماد على الإملاء على الأحبة والأصدقاء، وإذا ما أمسكت بالقلم لأكتب، فإن القدرة لا- تتجاوز بضع كلمات.وقد نظرت فيما لفت نظرى من تلك الأخطاء، فوجدتها بسبب النقل والجمع والتصنيف ونسخها بأكثر من يد.فأرجو مراعاة ما فاق الطاقة و هى فى أواخرها، والنظر فيما عجزت عنه القدرة و هى فى ضعفها، والله ولى التوفيق.

وتصبح الكتابة صعبة وشاقة عند التحوّل إلى طريقة الإملاء على الغير، والبحث فى المصادر بواسطة وعون، أضف إلى ذلك أن ما معى من الكتب والمصادر قليل جدا، ولم يتيسّر فى نطاق العلاقات هنا ما يسدّ الحاجة، فألجأ إلى الذهاب إلى المكتبات للاستعارة، ولم أجد فى هذا المجال ما يقتضى التنويه أو يستحق الشكر إلا ما قدّم لى من يد فى النسخ والكتابة، أضرع إلى الله أن يسدّد ويوفّق كل من قدّم يد العون من الأهل والأصدقاء.

و القصد، فإن هذا الجزء الذى أقدمه إلى القراء كان من أكثر الأجزاء تطلبا للجهد والمعاناة، وكنت عند ما أجد فى نفسى الضعف-بفعل عوامل السن ومقتضيات العمر-اتجه إلى الأعمال الأخرى، فأبحث فيها، وأدوّن مادّتها، لأن هاجس الأجل وانقضاء العمر يحملانى على أن أوزّع ما استشعره من إمكانية على كتبى، ويعلم الله أنى أنظر إلى فراقها كما أنظر إلى فراق الأهل، وأرجو لها كما أرجو لهم أن أتركها على حال يمكنها من تحقق الغرض وتحقيق الأمل.

وفى الجزء الثامن من(الإمام الصادق والمذاهب الأربعة)تناولنا أهم المواضيع التى تتعلق بحياة الإمام الصادق، وبحثنا حياة الإمام مالك والإمام الشافعى، بعد أن عدنا إلى الحديث عن حياة الإمام أبى حنيفة والإمام أحمد فى الجزء السابع، وتناولنا بعض الأمور التى لم نبحثها عن أئمة المذاهب الأربعة فى الأجزاء السابقة من الكتاب.

ولأن امتداد حياة الإمام الصادق عليه السّلام كان عبر عهدين ونظامين للحكم، فقد كانت حياته غنيّة بالأحداث والتحوّلات و المواقف، كما أن حياته عليه السّلام قد امتدت

عبر سيرتين و مرحلتين لنظام الإمامة و تاريخ أهل البيت النبوى عليهم أفضل الصلاة و السّلام. فتعلّق جزء منها بحياة جدّه الإمام زين العابدين عليه السّلام، كما تعلّق شطر منها بحياة أبيه الإمام الباقر عليه السّلام، فكانت حياته عليه السّلام من هذا الجانب زاخرة بالموافق و الأفعال و المبادئ، حتى جاءت شخصيته عليه السّلام و أفكاره و تعاليمه على مستوى من التكامل و النضج، و من العمق و الغنى، ما جعلها مكافئة للأخطار و المهالك التي تحيط بالإمامة و تهدّد الأمة و المجتمع الإسلامى، فقد تسلّم الزعامة الروحية و تولى الإمامة فى مرحلة شديدة الصعوبة، و لو لا آثار الإمام الصادق عليه السّلام و ما نتج عن نهجه الفكرى و نشاطه العلمى، لكانت آثار النظامين الحاكمين، و نتائج أعمال الطغاة، و ما وجّه إلى الأمة الإسلامية من ضربات تستهدف عقيدتها و سلوكها من قبل أعداء الدين، قد أسلمت الكيان الإسلامى بكل جوانب وجوده و وجوه بقائه إلى أزمة حادة أو مشكلة مستديمة. لكن جهد الإمامة، و حكمة استمرار الرسالة فى وصاية الولاية، أبقت جذور العقيدة راسخة، و حفظت أركان الدين قائمة برغم انشغال حكام الزمان بحماية سلطانهم، و انتهاجهم البطش و القسوة، حتى كانت صورة المجتمع الإسلامى محاطة من جهة بظلم الحكام و جبروتهم، و من جهة أخرى بأعداء الإسلام و أفكارهم، و من جهة ثالثة بألوان ضعف الإيمان و البعد عن الدين. و يبرز فى قلب هذه الصورة شخصية المصلح الفدّ و القائد المخلص، فيحيل ظلمات الجهل إلى مشارق أنوار، و يخلق تلك النهضة الفكرية و الحياة العقلية التي نهل منها أئمة المذاهب و علماء المسلمين، و التي حصّنت الأمة ضد حركات الأعداء، و حفظت الفكر من تيارات الإلحاد و الزندقة.

و قد رأيت أن أبدأ الكتاب بشىء من سيرته يلخّص ما بسطنا به القول فى الجزئين الأول و الثانى من الكتاب، و قدّمت عرضاً للفترة السياسية الزمنية، و أسماء الملوك الحكام الذين عاصروهم الإمام الصادق عليه السّلام حتى تكون أمام القارئ الذى لم يتهيأ له قراءة أجزاء الكتاب التي ضمّت تفاصيل القول فى هذه الفترة الزمنية السياسية، صورة عن الأحداث و التحولات التي عاشها الإمام الصادق. ثم سقنا نظرة إلى حوادث عصره لتكون عقب الشىء الذى قدّمناه من سيرته متكاملة فى إطار الصورة التي نريد.

و لما كنت قد أنهيت كتاب: (حياة الإمام الصادق) (1) فقد نهجت فى هذا الجزء

ص: 225

---

1- (1) سنقدمه للطبع إن شاء الله بعد الفراغ من طبع الجزئين السابع و الثامن من الإمام الصادق و المذاهب الأربعة. [1]

على عرض المواضيع التي تتصل بإبراز شخصية الإمام الصادق في إطار المقارنة أو في سياق المرحلة السياسية مما لم يدخل في أغراض الكتابة عن حياة الإمام بشكل منفرد.

ولهذا ضمّ الجزء الثامن عرضاً لمنهج العمل عند الإمام الصادق في مواجهة الطغاة، والمسلك الذي اتبعه عليه السّلام في تجنب الأمة المآسى، وإبعاد أنياب الحكّام ومخالبتهم عن جسد المجتمع الإسلامي، والاتجاه إلى المستقبل ببناء النفوس وعمارة الأذهان بذكر الله و التمسك بتعاليم الدين، وهو ما ميّزه ليس على صعيد الأمة الإسلامية، بل وفي داخل الدوحة المحمدية والشجرة العلوية، حتى استطاع أن يقيم صرحاً فكرياً شامخاً تمثل في مدرسته التي انتسب إليها علماء الأمة ورجالها، وأن يجعل من (الدعوة الصامتة) التي وضع بذرتها جدّه الإمام زين العابدين عليه السّلام منهجاً ونظاماً.

كما تضمّن الجزء الثامن بحثاً في (الدعوة الإسماعيلية) وقد كان ذلك مما تقرّع عن البحث في أبناء الإمام الصادق عليه السّلام حيث تناولنا موضوع الإمامة بعد الإمام الصادق عليه السّلام ودلائل النص على إمامة ابنه موسى بن جعفر. إلى غيرها من الأمور التي قامت الإسماعيلية على إنكارها، والمواضيع التي تطورت منها، وقد حرصنا على تجنب الخوض فيما يمكن أن يستغنى البحث عنه، واقتصرنا على القضايا الأساسية في ابتعاد الدعوة الإسماعيلية عن مذهب الإمام جعفر الصادق وعقائد الشيعة الإمامية، ولم ندخل في تفاصيل و دقائق ذلك لظرف قدرناه، فأهملنا الكثير، ولكن لم نقف دون ذكر الحقائق أو الإتيان بالوقائع.

وأخيراً، فلا بد من كلمة سبق أن توهت بمعناها في أكثر من مورد في ثنايا البحث عن حياة الإمام الصادق، فإن شخصية الإمام الصادق تبقى بحاجة إلى مزيد ومزيد من البحوث والتصانيف، وخاصة أفكاره وتعاليمه التي تضمّ ثروة كبرى.

كما لا بد من القول أن سمو منزلته العلمية وعلو مكانته الدينية لا تؤثر فيهما دواعي التعصب أو بواعث الإساءة، فلقد عفى التاريخ ما أراد له أعداؤه من صورة، وأتت الأيام على محاولات الحكام وأنصار الظلمة، وبقيت صورة الإمام الصادق التي يجمع العلماء على إشراقها ونورها. فهو أعلم زمانه، وإمام علماء عصره، وسيّد أمة جدّه.

وأرجو من الله أن لا يكون هذا آخر العهد بخدمة أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسّلام، وأن يمنّ علىّ بالقوة والطاقة لإكمال المسيرة وتحقيق الآمال، والله من وراء القصد.

الكويت/محرم الحرام 1404/

شئ من سيرته، ونظرة إلى حوادث عصره

الإمام الصادق هو أعظم شخصية في عصره وبعده، وسيبقى مثالا للعالم الذي استطاع أن يؤدي للأمة خدمات لم يمحصها بعد الزمن و تقلب الحوادث و اختلاف الظروف. فقد واجه عليه السّلام مسئوليات جسام و مخاطر عظيمة تهدد مبادئ العقيدة الإسلامية و وجود المجتمع الإسلامي، و تتجلى عظمة الإمام الصادق في تصديّه لتلك الأخطار على تعدد مصادرها و اختلاف عناصرها، فلم يهدأ في صد هجمات الأفكار و موجات التشكيك و الإلحاد.

و لم يقعه الضغط السياسي الذي استعمله أولئك الحكام الذين حاولوا أن يخضعوا لسلطانهم الروح المعنوية التي يتصف بها علماء الإسلام، فيربطوا العلم بعجلة مسيرتهم، و يستخروا الدين لأغراضهم.

و قد حفظ التاريخ لنا ملامح شخصية الإمام الصادق واضحة جلية و هو في خضم ذلك المعترك القاسي. و يبرز دوره عليه السّلام في الحفاظ على أصالة الفكر الإسلامي، و في الذود عن كيان الأمة، و في حماية الرعية من ظلم الحكّام و الطغاة، إلى غير ذلك من جوانب الحياة الإسلامية، و هو في ذاته هدف السياسة و غاية الحكم، حيث كان الطغاة على اختلافهم يسعون إلى القضاء على شخصيته لما تمثله من قوة روحية و سلطة دينية.

و من عظيم الآثار و المفآخر الفكرية، أن يتمكن عظيم كالإمام الصادق- و هو على مثل تلك الأخطار و مواجهة سياسة الحكام- من تأسيس مدرسة إسلامية استطاعت أن تطلق الفكر الإسلامي من عقال الجمود، و توسع دائرة المعرفة بنشر العلوم الإسلامية، و الدعوة إلى التمسك بتعاليم الدين و أفكار العقيدة الإسلامية حتى

سارت بذكره الركبان، وازدحمت على مجلسه الوفود من شتى الأقطار، فكان بحق أعلم أهل عصره، ولم يكن هناك أعلم منه. وقد أعلن عليه السلام للملأ بقوله: «سلوني قبل أن تفقدوني فإنكم لن تجدوا أحدا مثلي» (1).

وقد شهد له علماء عصره من تلامذته ورواد مجلسه كمالك ابن أنس وأبي حنيفة والسفياني 2.

وكان عصره يتصف بمفارقات أو وجدت مشاكل عديدة أثقلت كاهل كل مسلم يحسّ بواجبه تجاه أمته عند ما اصطدمت بأمور محدثة يغلب عليها طابع المصالح الذاتية، وشاعت مظاهر الفساد وترسّخت اتجاهات الشذوذ عن العقيدة والابتعاد عن الإسلام، رغم أبراد التدين التي لبسها الحكام ورسوخ دعائم سلطانهم باسم الدعوة إلى الإسلام والقيام بأمر الخلافة وشئون النظام.

وكان للتحوّل السياسي الذي شهده عصر الإمام الصادق أثر في تعقيد الأوضاع وقيام موجة من الاضطراب، هددت أمن المجتمع الإسلامي، ورمّت به إلى معترك هام قضى على بقايا استقراره.

وعند ما ظهرت الدعوات المختلفة، وقامت الثورات المتلاحقة، وكلّ يدعى المحاماة عن الدين والدفاع عن شريعة محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم وقف الإمام الصادق عليه السلام وسط تراكم الأحداث وانعطاف الأسباب و حدوث التطورات موقف مسئولية كبرى من حيث التصرف الذي تقتضيه المرحلة والمسئوليات التي تطرحها الظروف القائمة على أهل بيت النبوة، والعمل المطلوب أمام تلك المشاكل. فهم رجال رضعوا لبن الفضيلة، وتشربت دماؤهم العقيدة الإسلامية، وقدموا في ميادين الفداء أعظم التضحيات، وبذلوا كل إمكانياتهم في سبيل نشر الدعوة الإسلامية. فقد واكبوا تلك الدعوة في يومها الأول، وعاصروها على مرّ الزمن، حتى باتت لباسهم الحق وسمتهم الأصيلة.

وإمام الصادق ولد في مهبط الوحي، وترعرع في مهد الرسالة، وتدرّج في

ص: 228

---

1- ((1)) و((2)) الذهبي تذكرة الحفاظ ج 1 ص 157. و مناقب أبي حنيفة للموفق المكي ج 1 ص 173. وانظر الجزء الأول والثاني من الإمام الصادق والمذاهب الأربعة.

ربوع النبوة يتفياً ظلال الإيمان، ويتغذى تعاليم الإسلام من مصدرها الأول و منبعها الطاهر، ولما قام بأعباء الإمامة كانت الأمة الإسلامية تمرّ في هذا المنعطف، وتحدّر إلى التفرّق والتمزّق. فوقف الإمام الصادق عليه السّلام موقف المصلح العظيم والزعيم المحنك، ونظر إلى واقع الأمة و ما يحيط بها من مشاكل و أخطار نظرة متفحّصة و عميقة، فأخذ نفسه بمنهج فكرى و عملى يتعاهد المسلمين بالرعاية و يتكفلهم بالحماية. و لولا العناية الإلهية التي تتجلى في سرّ الإمامة و اختيار صاحب نصّها و ولايتها، لما تمكن بشر من النهوض بتلك الأعباء و المسؤوليات التي تترتب على الزعامة الدينية و المنزلة الروحية. و يمكننا القول أن عصر الإمام الصادق كان حلقة التواصل في حياة الأمة الإسلامية.

و هنا نقدم أضواء من سيرته و حياته.

## ولادته:

فهو أبو عبد الله جعفر الصادق، بن محمد الباقر، بن على زين العابدين، بن الحسين سبط رسول الله، بن على بن أبى طالب عليهم السّلام. ولد بالمدينة المنورة يوم الجمعة أو الاثنين عند طلوع الفجر يوم 17 ربيع الأول سنة 83 هـ و قيل سنة 80 هـ و قيل غرة رجب أو غرة شهر رمضان. و المعتمد الأول هو يوم 17 ربيع الأول يوم ولادة رسول الله كما عليه عمل كثير من المسلمين.

## أمه:

أم فروة، و قيل أم القاسم، و اسمها قريية أو فاطمة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر.

أمها: أسماء بنت عبد الرحمن بن أبى بكر. و كانت أم فروة قد ولدت للإمام الباقر ولدين هما: الإمام الصادق و عبد الله أو عبید الله. و أم فروة كانت امرأة ذات معرفة و علم بأمر الدين، أخذت عن الإمام الباقر ما أهلها لمكانة سامية و دراية كبيرة بالعقيدة و الرسالة، و قد تلقت عنه أحاديث متنوعة، و روتها عنه.

روى عبد الأعلى حادثة تدل على مكانتها و علمها، قال: رأيت أم فروة تطوف بالكعبة عليها كساء متنكرة، فاستلمت الحجر بيدها اليسرى، فقال لها رجل ممن يطوفون: يا أمة الله أخطأت السنّة؟

فقال: إنا لأغنياء عن علمك.

أبوها: القاسم بن محمد بن أبي بكر. كان من الفقهاء السبعة، وقد روى له أصحاب الصحاح الستة، كان قريبا من الإمام علي زين العابدين و من ثقاته. أما جدّها فهو ربيب أمير المؤمنين الإمام علي. و كان منه بمنزلة أحد أولاده، اتصف بالثورة على الانحراف، و لعب دورا مهما في إبعاد الأذى عن المسلمين.

### كنيته و ألقابه:

يكنى عليه السلام بأبي عبد الله، و يلقب بالصابر و الفاضل و الطاهر (1). و العالم (2) و أشهر ألقابه الصادق لصدق حديثه، و عرف بذلك، و اشتهر بين علماء عصره و بعده، لأنه ما جرى عليه قط زلل، و لم يتوقف أحد عن رواية حديثه و الأخذ بقوله، و لم يستطع أحد الطعن في أقواله و روايته. و أما قول البخاري: في النفس منه شيء، فلم يخرج حديثه، فذلك يعود لنفسية البخاري و ما فيها، و لا يؤثر ذلك على ما أطبق عليه العلماء، و يكاد يكون العصر كله شاهدا، و قد تعرضنا للبخاري فلا حاجة إلى العودة إليه مرة أخرى. فالإمام الصادق (نقل عنه من العلوم ما لم ينقل عن غيره، و كان إماما في الحديث) (3).

### صفته:

و وصفوه عليه السلام بأنه ريع القامة، أزهر الوجه، حالك الشعر، أشم الأنف، تكسوه الهيبة، و يعلوه الوقار، حسن المجالسة، كثير النوال. و لم يخل عن ذكر الله و الثناء عليه، و كان لا يخلو من ثلاث خصال: إما قائما و إما صائما و إما ذاكرا. كان من أكابر العبّاد و عظماء الزهّاد الذين يخشون ربهم، كثير الحديث عن رسول الله، كثير العواد. كان نقش خاتمه (ما شاء الله لا قوة إلا بالله).

و كما أشرنا، نشأ عليه السلام في المدينة المنورة عاصمة الإسلام و موطن الصحابة و التابعين. و قد شهدت هذه المدينة أوج عظمة النظام الإسلامي، فهي مهبط الوحي و التنزيل، تقصدها الوفود من جميع الأقطار، و ينتهل منها علماء الأمة.

ص: 230

1- (1) تذكرة سبط ابن الجوزي ص 351.

2- (2) تاريخ ابن واضح.

3- (3) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب.

كان الإمام الصادق يحظى برعاية جدّه لأبيه الإمام علي بن الحسين زين العابدين، وهو معلّمه الأول حيث لازمه مدة ثماني عشرة سنة، فترعرع في ذلك الجو الذي يفيض بعقب النبوة، ويستلهم دروس التضحية الكبرى، حيث يهزّ الناس أثر الفجيعة والمأساة، ويرتسم على كل وجه ألم المصاب عند ما تطوف ذكرى استشهاد الحسين و خروجه من المدينة، و ذكرى يوم الحرّة وإباحتها، فتلتهب النفوس و ترتبط برابطة الاتصال بآل محمد كلما أوغل الحكام في الظلم و سفك الدماء و مطاردة الأحرار من المسلمين، و هدم دور الصلحاء و المتعبدين، و ذلك في العهد الأموي الأسود.

توفي جده الإمام زين العابدين سنة 94 هـ فعاش مع أبيه الإمام الباقر الذي كان موضع اهتمام العلماء و موئل الفقهاء، و كانت حلقة درسه تعقد بالمسجد النبوي- و هي المدرسة الكبرى لطلاب العلم و رجال الحديث- فلا تعقد هناك حلقة إلا بعد انتهاء الباقر من حديثه.

و حضر عنده جمع من الفقهاء أمثال: عمرو بن دينار الجمحي، و عبد الرحمن الأوزاعي، و ابن جريج، و محمد بن المنكدر، و يحيى بن كثير، و زيد بن علي.

و خلال تلك الفترة كان الإمام الصادق على اتصال مباشر بالحركة الثورية و النهضة العلمية، و إليه تتجه الأنظار من بعد أبيه لنبوغه و تضلّعه في الفقه و تبخّره في الدين، و لكثرة ملازمته لأبيه في حلّه و ترحاله؛ إذ دخل معه الشام و مكة المكرمة، و ظهرت عليه علائم الفضل و شرف العلم، و عزة النفس و صدق اللهجة، و المهابة و الجود و كرم الأخلاق.

و يقول عمرو بن المقدم: (إذا نظرت إلى جعفر بن محمد، علمت أنه من سلالة النبيين) (1) حتى إذا وافى أباه الباقر الأجل، و انتقل إلى جوار ربه، قام بأعباء الإمامة و تقوّد بالزعامة، و كانت مدة إمامته أربعاً و ثلاثين سنة.

و قد كابد مرارة النكبات الواحدة تلو الأخرى، و عاصر آثار الفجيعة التي منيت بها الأمة بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السّلام و إباحة المدينة ثلاثة أيام في وقعة الحرّة،

ص: 231

1- (1) صفة الصفوة لابن الجوزي ج 2 ص 94. [1] ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ص 457. و [2] تهذيب التهذيب ج 2 ص 104. [3]



ورمى الكعبة و الاستهانة بحرمه الحرم، كما شاهد موقف عمّه زيد ونهايته المفجعة التي انتهت إليها ثورته.

لقد جرّب الإمام الصادق شراسة السلطة و عنفها و اضطهاد الأمة و الاستهانة بحقوقها و عدم المبالاة بالدماء، فسلك طريقا لمحاربتها و الوقوف بوجهها يحول بين الحكام و بين ما يعملون من أجله في سياستهم و سلوكهم.

أكد الإمام على نشر الوعي، و حثّ الأمة على التسلح بسلاح العقيدة، فكان رائدا صادقا، و دليلا خبيرا في مجال العمل و حفظ التراث الإسلامي في عصر تطور الحركة الفكرية، و التحولات السياسية الحديثة، و أن المكانة الحيوية التي يتبوؤها بمزاياه العالية و غزارة علمه، قد جعل الكثير من الناس يتوقعون منه أن يسهم في المعترك السياسي الذي اشتد في عصره و الذي تمخض عن ثورات متتالية.

و ظنوا أنه سيشترك في أحداث ذلك المعترك، و تعدى موقف الكثيرين من الصمت إلى المصارحة، فحرّضوه على الثورة و البدء بالانتفاضة، ظنا منهم بأن الزمن قد حان لقيام حكومة عادلة و دولة تسير وفق نظام الإسلام و قوانينه، بعد أن تجرّدت الدولة الأموية من كل المقومات الروحية، فعبثت بمقدرات الأمة، و هتكت مقدّسات الإسلام و حرّماته، و لا يزال يوم الحسين ماثلا لا يمحي أثره، و صرخته مدوية على مرّ الزمن، و وقعة يوم الحرة لا زالت شاخصة أمام الأعين، و حوادثه تحدث عاصفة غضب و هزة استنكار، و لا تخلو جدران المدينة و لا الحرم الشريف من قطرات الدماء الزكية.

و لكن الإمام الصادق لم يميل إلى جانب من استماله، فهو لم يخدع بالأمال البرّاقة، و لقد عرف نزعات الناس و ميولهم، و طبيعة الموقف الذي يتخذونه، و الغايات التي من أجلها كان تحريضه، و قد زودته تجربته الكبرى و علمه بما وراء الحوادث بالقدرة على تمييز بواعث تلك التحركات، و معرفة مقتضيات الحال، و التي كان يجهلها الكثيرون ممن راحت تضرب نفوسهم بمشاعر صادقة تتأثر بالأحداث و تنفعل.

فكانت نظرته جوهرية مبنية على استيعاب تام لدور الدين في الحياة، و مقدار تأثير تلك الجموع به و خضوعهم له.

و قد شخّص خطورة الموقف، و عرف غايات الدعوة و أهداف القادة، فكان رفضه لطلباتهم من أهم ما يحثّمه عليه واجب الدعوة لمصالح الأمة.

فقد أدت غلبة المصالح و تنازع الأسر إلى ضياع الناس، وارتباطهم بما قام في المجتمع من تيارات منحرفة و مبادئ نفعية تستخدم الإسلام تعديا و ظلما، فكان لا بد من أن يهيء الله لهذه الأمة قائدا يمثل المبادئ الحقّة، و يكشف-من خلال الالتزام المطلق و النهج الروحي القويم-عقم الحركات التي لا ترى أبعد من المصالح القريبة، و تعجز عن استشفاف الآفاق، و تمثّل النتائج البعيدة. فكان الإمام الصادق في نظرتة العميقة و تحمّسه لضرورات الدعوة و متطلبات استمرار الرسالة. يدعو إلى عدم الإسهام في الاضطرابات، و حماية المجتمع، و تجنيبه خطر الحروب التي يجنى ثمارها أعداء الدين. و لما عهد عنه من علم و مكانة دينية، فهو مرهوب الجانب يحسب لرأيه ألف حساب. و قد كان تحركه و نشاطه يلقي رعبا في قلوب أولئك الحكّام كما عبر المنصور عنه بقوله: (بأنه الشّجى المعترض حلقه) لموقفه المؤثر الحساس، و لميل الناس إليه.

وقف الإمام الصادق في تلك الظروف القاسية موقف الصلابة في إيمانه، و الثبات في عقيدته، و الإخلاص في أداء رسالته، فكان رائدا كبيرا في مجال مواجهته الفعلية ضد السياسة التي تأخذ آفاقا جديدة، و تلجأ إلى أساليب بعيدة عن روح الإسلام و مبادئه. و قد امتدت حياته عبر عصرين متناحرين سياسيا و فكريا، فقد عاش في آخر خلافة عبد الملك بن مروان إلى وسط خلافة المنصور الدوانيقي-العصر العباسي- أى من سنة 83 هـ إلى سنة 148 هـ إذ أدرك من خلافة الأول ثلاث سنين أو ست سنين أى من سنة 80 هـ أو 83 هـ إلى سنة 86 هـ و هي السنة التي توفي فيها عبد الملك بن مروان، و مدة خلافته ثلاث عشرة سنة و أشهر، ثم ملك الوليد بن عبد الملك سنة 86 هـ و توفي سنة 96 هـ و كانت مدة خلافته تسع سنين و ثمانية أشهر.

ثم ملك أخوه سليمان بن عبد الملك، و توفي سنة 99 هـ و كانت مدة خلافته سنتين و ثمانية أشهر.

ثم ملك بعده عمر بن عبد العزيز بن مروان المتوفى سنة 101 هـ و مدة خلافته سنتين و ستة أشهر.

و ملك بعده يزيد بن عبد الملك بن مروان المتوفى سنة 105 هـ و كانت مدة خلافته أربع سنين و شهرا.

و ملك بعده هشام بن عبد الملك المتوفى سنة 125 هـ و كانت مدة خلافته عشرين سنة إلا شهرا.

و ملك بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك الفاسق المتوفى سنة 126 هـ و مدة خلافته سنة و ثلاثة أشهر.

و ملك من بعده يزيد بن الوليد بن عبد الملك المتوفى سنة 126 هـ.

و ملك بعده أخوه إبراهيم، و لم تطل أيامه، و تنازل لمروان الحمار بن محمد بن مروان بن الحكم سنة 127 هـ و كان مروان آخر خلفاء بني أمية، و قتل سنة 132 هـ و كانت مدته خمس سنين و عشرة أشهر، و هى فترة الانحدار و السقوط التى شهدت حروبا متوالية و ثورات متعددة لتنتهى الدولة الأموية بنهاية مروان.

كانت المدة التى عاصر الإمام فيها هؤلاء الحكّام-الذين سبق ذكرهم من الأمويين- لا تقل عن ثمان و أربعين سنة و هى بأشخاصها و زمانها تكفى لكشف المراحل التى عاشها الإمام الصادق عليه السلام، و هى حافلة بالمآسى و الويلات التى منيت بها الأمة. إذ انجرف الأمويون وراء شهوات الحكم، و راحوا يسخّرون الدولة لأغراضهم و توطيد نظامهم، فعمّ الظلم جميع الطبقات و كل المسلمين، و لم يسلم من شرهم إلا من سار فى ركابهم، و جار عن سواء السبيل.

لقد كانت لغة الدم هى الساندة و كانت وسيلة العنف هى المتبعة، و كم من إمام و عالم و فقيه قتل على أيديهم و استشهد فى عهدهم. و أولى الحكم الأموى أهمية بالغة للطالبيين، فرصدوا حركاتهم، و قمعوا كل موقف بينهم لصد العدوان و مواجهة الظلم، و خرّ الشهيد منهم تلو الشهيد، و كان همّهم قتل أعيان العلويين و سحقهم، و النيل من الإمام على، إلا الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى منع سب على عليه السلام بعد أن كان قد أدخل فى مناهج التعليم، و أعلنوا به على المنابر فى الأندية و المجتمعات، لينشئوا جيلا تربي على بغض على و أولاده.

قال أبو يحيى السكرى: (دخلت مسجد دمشق فقلت: هذا بلد دخله جماعة من الصحابة، فملت إلى حلقة فيها شيخ جالس، فجلست إليه. فقال له رجل جالس أمامه: من هو على بن أبى طالب؟ فقال الشيخ: خفّاق كان بالعراق، اجتمعت عليه جماعة، فقصد أمير المؤمنين-يعنى معاوية- أن يحاربه، فنصره الله عليه.

قال يحيى: فاستعظمت ذلك، وقلت فرأيت في جانب المسجد شيخاً يصلّي إلى سارية وهو حسن السميت والصلاة والهيئة، فقلت له: يا شيخ، أنا رجل من أهل العراق جلست إلى تلك الحلقة ثم قصصت عليه القصة، فقال الشيخ: في هذا المسجد عجائب، بلغني أن بعضهم يطعن على أبي محمد الحجاج بن يوسف.

فعلى بن أبي طالب من هو؟ (1).

وإذا كان لنا من تعليق على هذه الحادثة، فهو لا يتعدى الصمت الذي يكشف ما فعلته السلطة، ومبلغ الجهل والعداء التي جنّدت له أجهزتها للنيل من الإمام على عليه السلام، حيث لم يكن الأمر مقصوداً على ضرب القوى التي يدفعها إيمانها إلى الوقوف بوجه الظلم، بل راح الأمويون خلال ذلك يذهبون إلى ارتكاب الجرائم وخلق الأهوال. ولقد عانى الناس الضيم والعوز، إذ عملوا على زيادة الخراج، واتباع الطرق الظالمة، وأخذ الجزية ممن لا تجب عليهم الجزية.

لقد كان الأمويون يرون في العلويين منافسين أقوياء لهم، يستأثرون بقلوب الناس وحبّهم، وقد حاول جهازهم الديني والتشريعي والجنائي أن يعمل على إضفاء صفة التكامل والنضوج والقسوة على الحكم الأموي دون هوادة وبمختلف الأساليب.

وكان العلويون -عبر نشاطهم العلمي وموقعهم الديني- يتوغّلون في نفوس الناس، وتنشّد إليهم الجموع، وتدين لهم بالولاء، إذ تمتعوا بقوة دون دولة، وعاشوا في منعة دون عنف؛ بل كان سلاحهم الإيمان، ودرعهم التقوى، ورغم انتهاء السلطة إلى الأمويين وتمتعهم بالقوة، لم يستطيعوا أن يغيروا من الموقع الذي يحتله العلويون في نفوس الناس، فكانت حركاتهم وثوراتهم المستمرة -رغم نهاياتها المفجعة- تزيد من تقرب الناس إليهم، ودنو المسلمين منهم.

## نظرة إلى حوادث عصره

### إشارة

:

ولا بد للباحث عن حياة الإمام الصادق من مواجهة عدة مشاكل تعترض سير البحث ووقف في طريق المؤرخ لحياة هذا الإمام العظيم.

وهي مشاكل كثيرة متشابكة، تكتنف البحث وتحيط بالموضوع، كما أن هناك

ص: 235

عدة أسئلة تفرض نفسها على الباحث، وتحتاج منه إلى إجابة تكشف عما استتر وراءها من أمور.

المشاكل -كما قلنا- كثيرة، منها: مشكلة الشوار الذين يرمقونه بأبصارهم من بعيد و يأملون إسناد الحكم إليه، و مشكلة النزعات الفكرية و الصراع العقائدي، و مشكلة الغلاة، و لعلها أهم مشكلة تقف في طريق الباحث، بل أهم مشكلة تعترض سير الحقائق التاريخية، حيث استطاع التلاعب السياسي أن يوجد منها عوامل يتمكن من خلالها تحقيق أغراضه و أهدافه. و سنأتى لعرض موجز في البيان هنا لأننا قد أوضحنا في بحثنا الموسع ما يتعلق بهذه المشكلة (1).

و عصر الإمام الصادق يتصف -دون غيره من عصور الأئمة- بعوامل كثيرة، أهمها: التحول السياسي الذى حصل فى أيامه، بل خلال أهم أدوار حياته، و ذلك بانتقال السلطة من الأمويين إلى العباسيين بعد أن انتصرت ثورتهم باسم أهل البيت عليهم السلام ذلك التحول الذى أحدث تغييرا جذريا فى المجتمع الإسلامى، وفتح أمام المسلمين آفاقا بعيدة المدى.

و لم تكن نتائج الثورة مجرد انتقال الحكم من أسرة إلى أسرة، بل هى فى الواقع ثورة لها أثرها فى تاريخ الإسلام، تعنى نقطة فاصلة فيه لفعاليتها و آثارها، حيث أحدثت فى المجتمع تغيرا عميقا و تحولا سياسيا و اجتماعيا اتسعت آثاره.

و لم يكن الإمام الصادق عليه السلام بالرجل الذى تهمل الأحداث موقفه، أو بمعزل عن ذلك المجتمع أو فى منأى عن التأثر بتلك الحوادث المحيطة به، فهو كفرد يشمل ما يشمل سائر الناس، يعيش مع الأمة و يشاطرها آلامها و يتعرف على أحوالها. و قد كانت الأحداث تنتهى إليه لمكانته الاجتماعية و السياسية، فالثورة قامت على أساس دعوة دينية نظمت تنظيما دقيقا يضمن لها النجاح، و يمكن جذورها من النمو فى أرض زرعت بجث الأبرياء و سقيت بدماء الشهداء. و الدعوة قامت تحت شعار أخذ الثأر من مرتكبي المجازر و المظالم بحق العلويين، و كان يقوم ذلك على تنظيم سرى يعمل بتكتم شديد، و هو يدور حول الدعوة لأهل البيت، و إسناد الحكم إليهم لأنهم أصحابه الشرعيون، و لا بد من الأخذ بثأرهم و الانتصار لمظلوميتهم، لأن الدولة الأموية

ص: 236

1- (1) انظر الجزء الرابع من الإمام الصادق و المذاهب الأربعة.

عمدت إلى تصفية الحركات العلوية و القضاء على زعمائها بكل وسيلة. وقد جعل السواد لباس الدعوة، وشعارا يرفع العرب إعلانا للحداد على الحسين عليه السلام، فاندفع الناس لخوض تلك المعارك، لأنها معارك تهدف إلى القضاء على معادل الظلم و رموز الضلالة و البدع، فانتشرت الدعوة، و كان أبنائها على اتصال بالإمام الصادق عليه السلام، و دعواتها أكثرهم يأملون بإسناد الحكم للعلويين. فالعباسيون أنصار دعوة و جنود حركة و ليسوا رؤساء! فالدعوة إسلامية المبدأ، شيعية النزعة، لم يتمكن العباسيون من الإعلان عن نواياهم العدائية تجاه أهل البيت، بل عرفوا كيف يستغلون مشاعر الناس و تعاطفهم مع العلويين، و تستروا بدعوة الرضا من آل محمد. فسارت الجموع بحماس شديد سعيا وراء هدف سام هو جعل الإمامة في أهلها الذين يستحقونها بجدارة من أهل بيت النبوة، حتى يصلح الله بهم ما فسد من الأمور و ما اختلف فيه الناس.

و في البيت العلوي رجال يصلحون لتولى الإمامة بظاهرها من حيث الدين و التقوى، و لكن ليس فيهم النص، و لم تكن إليهم الوصية، وإنما كانت لمن شملته العصمة وفاقهم في الخصال. و كلهم لا- ينازع الإمام الصادق موقعه أو مكانته، و عند ما بلغت الأمور- من الجانب السياسي- حدا يساعد على التغيير و التحول في السلطان، كان الإمام الصادق يمد بصره إلى ما وراء الأحداث و المصالح القريبة، فما كان من أبناء عمه ممن نظروا إلى التحول و التغيير في حدوده المحسوسة، إلا أن طلبوا منه الدخول في ما عزموا عليه من إعلان الثورة و إسناد الثوار منهم، و لكنه عليه السلام رفض رفضا باتا.

و قد ذكرنا أنفا أنه طلب من الثوار العلويين التريث في الأمر- و لأهمية هذا الموضوع سنخصص له بابا آخر نبحث فيه الدقائق و التفاصيل- لأن قضية التفريق بين دواعي الموقفين و اختلاف النظرتين قضية هي من الأهمية بمكان لا تنتهي بانتهاء ظرفها، و لأن الإمام الصادق دفع بجوهرها إلى آفاق واسعة ما زلنا حتى اليوم نعيش حقيقة ذلك الجوهر و واقع تلك النظرة، و سيأتي بحث ذلك قريبا.

و من ملامح النظرة التي اتسم بها الإمام الصادق. أن الأمة تحتاج إلى الرجال في مجال الإصلاح و الدعوة، و أن المسلمين يواجهون حكاما عتاة و سلاطين متجبرين، فما كان في عهد الأمويين سيتركز لأنه عليه السلام لمس من العباسيين مذهبهم في توسل كل الطرق إلى سدّة الحكم و عملهم على الصعود إلى السلطان بوسائل تضمن لهم

ذلك ما دام النظام الأموى قد انحدر إلى نهايته. وفي عهد العباسيين، فقد رأى الإمام الصادق أن قوة النظام الجديد، ووحشية الحكام الجدد ستدفع بالأمة إلى أوضاع سيئة. وستعود على أهل البيت بفظائع أخرى و مجازر تزهق فيها أرواحهم و تهرق دماؤهم.

أما فى بدء الأمر، وقبل قيام حكم العباسيين، فإن الأوضاع التى ستؤول إليها الأحداث واضحة، فلا بد من انتهاء حكم الأمويين و زوال ظلمهم، و التحول آت بكل الأحوال، و قد رأى الإمام الصادق مبلغ الاستجابة للدعوة، و تعاطف الناس مع الثورة، و الكل فى عينيه رأى مظالم آل محمد، و مناظر المصائب و المآسى التى حلت بهم على يد الأمويين، فراح الناس يؤيدون الثوار. بيد أن علم الإمامة قد عين هذه الفترات، و قسّم هذه الأدوار. فليس الأمر كما يظن ذوو الأنظار القصيرة من الناس مهما اتسعت تجاربهم و نمت مداركهم، كما أن الثورة ضمت فى تنظيماتها عناصر بعيدة كل البعد عن الأهداف التى من أجلها نظمت الدعوة، و أعلنت الثورة، و قد تسرّ وراءها كثير من النزعات المختلفة و الآراء المنحرفة، و هتافاتهم للرضا من آل محمد لم تدفع به إلى تعريض المجتمع الدينى لخطر السياسة الغاشمة، فقد كان أبعد نظرا مما يرى فى النتائج، فهو ينظر بالفكر الثاقب و النظر الدقيق المسدّد من الله تعالى لعواقب الأمور، و العلم الشامل، و مراعاة المصلحة العامة، و السير وفق الخطط المحكمة و الآراء السديدة فى تقدير الظروف و مناسباتها.

و هو رأس الأمة و إمام الناس و زعيم العلويين، يرى آيات رعاية الله، و يلمس وجوه كلاءته له، ليسلمه من بطش الطغاة و محاولات الظالمين. عليه دور القيادة، و توجيه دفة السفينة، و ليس العكس.

و هو عليه السلام لم يندفع وراء تيار الأقوال البراقة، و لم يجر فى ميدان السياسة و مخاتلتها، و قد حاول الكثير من أتباعه و غيرهم و خلّص أصحابه و المنتمين إليه أن يثيروا عواطفه عند ما استعرت نار الثورة فى البلاد الإسلامية، و انتشرت تلك الشعارات التى تدعو للرضا من آل محمد.

و سعى بعضهم بكل جهده إلى أن يحمل الإمام و أنصاره على الثورة، و لكنهم كانوا ينظرون إلى الأمور نظرة سطحية، فتغلب عليهم سلامة النية و سرعة التصديق بالأمور الظاهرة كبشر يحكمهم الواقع و التأثر بمجريات الأحداث، و ليس كما يرى الإمام

و هو صاحب الولاية الشرعية و قد خصته العناية الإلهية بالأمر، و جعلت في شخصه الإمامة، و الوقائع عنده كما قضت بها الحكمة الإلهية و قدّرتها المصلحة الدينية.

دخل عليه سهل بن الحسن الخراساني فسلم عليه و قال له: يا ابن رسول الله، لكم الرأفة و الرحمة، و أنتم أهل بيت الإمامة، ما الذي يمنعك أن يكون لك حق تقعد عنه؟ و أنت تجد من شيعتك مائة ألف يضربون بين يديك بالسيف؟ و دخل عليه سدير الصيرفي فقال: يا أبا عبد الله ما يسعك القعود؟ فقال عليه السلام: «و لم يا سدير؟» فقال: لكثرة مواليك و شيعتك و أنصارك.

فقال: «يا سدير، و كم عسى أن يكونوا؟» قال: مائة ألف.

فقال الإمام الصادق: «مائة ألف؟!» قال: نعم (1).

فكان جوابه عليه السلام من باب الامتناع عن ذلك، و أشار إلى أن تلك الكثرة التي يتخيّل أنها تحقق الأهداف التي يتطلبها واقع الثورة و النهضة بالمسلمين ليست كذلك، لأن أولئك لم يكونوا من الرجال المخلصين الذين تمكنت العقيدة من نفوسهم، اللهم إلا نفر قليل، فلا يمكنه أن يخوض معركة حاسمة كما يريد أولئك الذين حاولوا إثارة حفيظته مع عدم وجود العدة الكافية من المخلصين الذين يمكن الركون إليهم و التعويل عليهم. كما أن أهل البيت الكرام لهم في كل عصر دور و رسالة، فلقد كانت ثورة الإمام الحسين من أكبر العوامل التي فضحت الردة و عزّت الأمويين، كما أنها أصبحت ينبوع وعى و معين هدى يحمل الناس على الاقتداء بتعاليم الرسالة و الاهتداء بمبادئ العقيدة، و كان من بعد مأساة الطف و ما أثارتها في النفوس أن تجد الأمة من يعزّز في كيانها ذلك التحوّل و يرسّخ نتائج الثورة، فكانت دعوة الإصلاح و منهج الإرشاد.

و قد بلغ منهج الإصلاح الديني و الفكرى و الاجتماعى على يد الإمام الصادق درجة من النمو و التكامل، فامتلك قدرة التأثير في النفوس، و اتصف بالروحانية و الحس الدينى الذى يجتذبها.

ص: 239



وكان عليه السلام في الوقت الذي يحاور فيه دعاة الثورة، يمارس مسؤولياته في وجه السلطة وانحراف الحكّام، ويقاوم نزعات الهدم و موجات القمع و تيارات التشويه و الانحراف.

وكان نهج الحوار طريقة العمل الفكرى لدى الإمام الصادق، تتسم بالشمول وسعة الرأى، وقوة الإقناع التى تقوم على علم ثابت، ورأى سديد. لذا فقد تولّى رد تلك الهجمات، فكان دفاعه عن الإسلام فى درء شبه الزنادقة و الدهرية من أهل الأديان الأخرى قد خلّف ثورة فكرية مهمة ضمّنها عشرات من الكتب.

وكان قد بدأ التنازع فى ذلك العصر بين الفلسفة و بين الإسلام و العقائد التى جاء الإسلام لمحاربتها، و ظهرت بوادر الجدل العقلى، و اتخذ علم الكلام كوسيلة للحجاج.

وكان موقف الإمام الصادق من تلك التيارات و وسط ذلك الجدل و النزاع موقف العالم المنافع عن الدين و المدافع القوى عن العقيدة الذى لا يغلب فى مناظرة و لا ينقطع فى محاوره، و كان لحجّته و وضوح برهانه و رجاحة عقله و قوة استدلاله الأثر الحاسم فى أن يخضع له العقل السليم و يرتاح له الضمير، و تقنيد آراء الأعداء و دحض أفكارهم، و توفير أسس يركن إليها المسلم و يعتمد عليها فى الدفاع عن دينه و عقيدته. و كان يدلى بآرائه أمام خصومه بمنطق يدخل إلى آذان سامعيه فينفذ إلى قلوبهم، فلا يجدون بدّا من التسليم لقوله الحق و منطق الصائب. و قد حفظ لنا التاريخ خصائص منهج الإمام و ميزات منطقته الذى لا يجارى فى استدلالاته، و لا يغلب فى براهينه؛ بل كان هو المتفوّق و السابق فى كل مضمار.

و بهذه المواقف، و بتلك الشهرة التى نالتها مدرسته، و المهمة التى قام بها أصحابه فى محاربة الإلحاد و الملحدين كان لزاما على دعاة تلك المبادئ الذين دخلوا الإسلام أن يتستروا باعتناقه لبثّ سمومهم، و شعروا بخطر موقف الإمام الصادق و محاربتة لكل فكرة من طريق العلم و المنطق، فنظروا إليه نظرة ملؤها الحقد على الإسلام و انتصاره على عقائدهم الفاسدة و أديانهم الباطلة، و لما وجدوا أنفسهم عاجزين عن المجاهرة بما فى نفوسهم من أضغان و عداوة، و أن انتصارات الإسلام دائمة لأن عقيدته هى مصدر هذه الانتصارات، لجئوا إلى التلبّس، و استخدموا أساليب

التستر و الادعاء، و اختطوا لأنفسهم طريقا يقوم على وسائل و شعارات لا حظ لها من الصحة و لا نصيب، يمتنون أنفسهم باستعادة أمجادهم و الوقوف بوجه الإسلام.

و كيف يجديهم ذلك و ينطلى على المؤمنين خداعهم بعد أن ظهرت آثاره في حربهم و انتشرت أخباره في صدورهم، فحاولوا عن طريق الدس أن ينتصروا لمبادئهم الإلحادية، و توصلوا إلى ما توهموه حلا ناجحا و انتقاما سريعا و ذلك عن طريقين:

الأول: انضمام بعض دعاة الإلحاد إلى مدرسة الصادق ظاهرا، و ادعاء حب أهل البيت نفاقا، لكي يعملوا من الداخل على الفساد و الإفساد.

الثاني: استعمال الكذب و الدس على أهل البيت. و من هذا و ذاك كوّنوا طريقا، و صلوا من خلاله إلى غاية في نفوسهم، و هي إظهار الغلو في أهل البيت، و الغلو كما قدمنا هو أعظم مشكلة اصطدمت بها قافلة التشيع، و أدهى مصيبة نكبت بها هذه الطائفة، و حركة الغلو هي حركة إلحادية منشأها معارضة الإسلام من جهة، و تشويه مذهب أهل البيت من جهة أخرى، لذلك ربط كثير من المؤرخين و الكتّاب بين التشيع و بين الغلو؛ بل ذهب بعضهم إلى وصف التشيع بالغلو. و السبب في ذلك قصور نظرتهم و عجزهم عن التحلي بالموضوعية التي تقتضى جهدا لسير تفاصيل و أحداث تلك المرحلة. فليس بين الشيعة و بين الغلاة ما يجمعهم، كيف ذلك و قد كان ظهور دعوات الغلاة و تسللهم قد سبب لأئمة أهل البيت و قادة الشيعة قلقا و إزعاجا لم يهدأ، حتى أحبطت حركاتهم و فشلت مخططاتهم، و قد تناولنا في الجزء الرابع من الكتاب جوانب قيام هذه الحركة و اعتبارها مشكلة. و لا غرابة في وصفها بالمصيبة التي عولجت بجهود الأئمة أهل البيت، و بمزيد الأسف أن يتغاضى البعض عن هذه الحقائق و ينكروا الوقائع و يتلذذوا بالطعن على الشيعة، و هم بذلك ضحايا دعاوى الحكام و المناهضين لأهل البيت سواء من جهة تلقى الدين أو من جهة الأغراض السياسية العمياء التي تريد تشويه الحقائق و قلب الأوضاع و اتهام الأبرياء لإضعاف أثر أهل البيت في المجتمع و النيل من مكانتهم السامية في النفوس.

كان دخول الغلاة في صفوف الشيعة خطوة سياسية أوجدها عوامل متعددة كما أشرنا إلى ذلك، و في مقدمتها: النيل من الإسلام. و قد عالج أهل البيت هذه المشكلة الخطرة، فعرفوا الدوافع التي دعت هؤلاء إلى الالتحاق بصفوف الشيعة، كما اتضح لهم غايات خصومهم. فكانوا يعلنون للملاّ البراءة من الغلو و الغلاة، و جاهروا

بلعنهم، وأمرُوا شيعتهم بالتبرؤ منهم. وتلقى الشيعة تلك الأوامر بالقبول والامتثال، فأعلنوا البراءة منهم، وملاؤا كتبهم بلعن الغلاة والتبرؤ منهم. وأفتوا بحرمة مخالطتهم، وأجمعوا على نجاستهم، وعدم جواز تغسيل ودفن موتاهم، وتحريم إعطائهم الزكاة، ولم يجوّزوا لمن يقول بالغلو أن يتزوج بالمسلمة، ولا المسلم أن يتزوج بالمغالية، ولم يورثهم من المسلمين، وهم لا يرثون منهم.

ولكن يأبى بعض الكتاب المعاصرين إلا الإصرار على الخطأ، والاستسلام للروح الطائفية، والسير في ركاب العصبية، فيتبعوا أهوائهم دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء البحث في حقائق التاريخ، والاطلاع على وقائعه من مصادرها الصافية.

وهناك قضية أخرى أهملت براهين وضعها، وغصّوا الطرف عن أدلة اختلافها، فتمسكوا بها، وهي: قضية عبد الله بن سبأ التي شهدت الوقائع التاريخية بأنها لا تعرف حادثاً من تلك الحوادث التي أسندها المؤرخون لعبد الله بن سبأ. وقد بسطنا القول فيه في عدة مناسبات، في بحثنا الموسع عن الإمام الصادق في موارد عديدة من الأجزاء السابقة، ومواضع كثيرة سقنا خلالها الحجج والأدلة على اختلاق شخصية عبد الله بن سبأ.

لقد نسبوا مبدأ التشيع إلى شخصية وهمية رسمتها السياسة في عصور التطاحن بريشة مصوّر مغرض، بهدف الطعن على أهل البيت، الذين هبّ علماؤهم لبيان زيفها مبينين أن من العار التماشي مع تلك الأسطورة لما فيها من احتقار للأمة وتصغير لقدرها، عند ما تصوّر قطيعاً جرى خاضعاً لتقبل تعاليم ذلك اليهودي وهو عبد الله بن سبأ المخلوق من أهواء السياسة وأغراض التطاحن، بهدف تمزيق صفوفها وإذهاب ريحها، وذلك للتفريق بين الأخ وأخيه.

وعلى كل حال لا بد من أن نشير إلى بعض ما جرى للإمام الصادق من محاورات مع أولئك المنحرفين عن الإسلام ودعاة الإلحاد والزنادقة، وهي محاورات غنية زخرت بها كتب الكلام والفلسفة، وسنأتى على ذكرها في الباب الخاص بالبحث عن الجوانب الفكرية في تراث الإمام الصادق ومنهج مدرسته. وهنا نذكر ما كان مع الجعد بن درهم الذي نشأ وكلّه دعوة ضلالة وإلحاد، كان يغوى الناس ويضلّهم، وهو من الزنادقة الذين استفحل أمرهم، وقد أراد أن يوهم الناس بما يبيده من احتيال، فأخذ قارورة وجعل فيها تراباً وماء، فاستحال ذلك بعد مدة دوداً وهواماً، فقال

لأصحابه: أنا خلقت هذا لأننى كنت سبب كونه. فأرجف بذلك المرجفون، ولما بلغ الإمام الصادق ذلك قال عليه السلام: «ليقل كم هي، وكم الذكران منه و الإناث؟ وليأمر الذى يسعى إلى هذا أن يرجع إلى غيره» (1) قال ابن حجر: فبلغه ذلك- أى قول الإمام الصادق- فرجع.

## دعوة الغلاة

:

ولعل أكثر الدعوات شرًا وأسوأها أثرًا وأهمها عند الإمام الصادق هي دعوة الغلاة- كما قدّمنا- الذين طمحووا فى تلك العاصفة الهوجاء إلى بثّ روح التفرقة بين المسلمين، وشاعت أفكارهم تحت ستار حب آل محمد ليصلوا إلى ما يرمون إليه من إساءة. فبثوا الأحاديث الكاذبة، وأسندوها إلى حملة العلم من آل محمد، وتخلّقوا بأخلاقهم ليعمّوا بها على أتباع أهل البيت. وجاءوا بمفتريات حملوها على مبدأ الشيعة، وأراد أكثرهم أن يلبس نفسه لباس قدسيّة، فموّه على الناس بأن له صلة بالإمام الصادق وعلاقة.

وقد أعلن عليه السلام براءته منهم، ونشر فى العالم الإسلامى كذبهم وزيف أقوالهم وقال:

«لا تقاعدوهم، ولا تواكلوهم، ولا تصافحوهم ولا توارثوهم».

ومن هذه الفقرات التى أعلنها عليه السلام يتبين لنا شدّة اهتمامه بكشف هؤلاء. وقد جعلهم فى عداد الكفّار الذين تحرم مواكلتهم ومصافحتهم، كما أنه عليه السلام باين بينهم وبين المسلمين بعدم التوارث، فكان فى هذا الموقف من الشدة ما يلزم بالتعرف على جذور هذه الدعوة والاطلاع على أسرار معتقداتها وحقيقة أقوالها. وقد قمنا بما نعتقده وأفيا بذلك فى بحثنا عن هذه الحركة سابقا. واهتمام الإمام الصادق وحكمه عليهم وعمله على إشاعة هذا الحكم فى الأقطار يدل على عظيم خطر هذه الحركة، والعمل على فضح ادعائها الحب لأهل البيت. كما أن استقراء عداء الإمام الصادق لهذه الحركة وموقفه منها يقودنا إلى نتائج ودلالات كثيرة منها:

1- إن هذه الحركة تعمد- عن طريق الحب العنيف المصطنع- إلى تشويه العقائد الإسلامية، وإشاعة الكفر والزندقة تحت ستار الإسلام.

ص: 243

2- إن هؤلاء الغلاة تطوى نفوسهم عن بغض دفين للإسلام والمسلمين، وإنهم قوم يتحينون الفرص للانتقام منه ومنهم، وقد لمسوا- حسب تجاربهم واختلاطهم بالعالم الإسلامي- موقع حب أهل البيت من نفوس المسلمين، وعرفوا منزلتهم عند الناس و خضوعهم لهم، فسلكوا طريق حبهم الادعائي الكاذب تمهيدا لتنفيذ أغراض خبيثة في نفوسهم، وكان من أهم ما يقومون به: حركة الإساءة لرجال الإسلام، ونسبة أشياء إليهم تحطّ بسمعتهم، كما أنهم يبذلون قصارى جهدهم في خلق الفوضى في المجتمع الإسلامي، و بلبلة أفكار الناس بواسطة دعاواهم التي تعارض التوحيد، وتناقض الإيمان. واختيارهم أشخاص أهل البيت مدخلا لتحقيق مآربهم وأغراضهم. وتلبّسهم بالولاء و ادعائهم التدين، ولكن حقيقة ما يدعون و جوهر ما يدعون إليه مناقض للإسلام، و مجاف لعقائد أهل البيت.

3- إن العناصر التي تبنت هذه الدعوات الضالة، والتي نشرت الغلو، كانت ممن ضرب الإسلام مصالحتهم، و ضيّع عليهم فرص النفوذ إلى أهدافهم، و هدم معالم مجدهم، و سفّه أحلامهم، و ظهر على أديانهم. و بالطبع فإن هؤلاء لا يدينون للإسلام مخلصين، بل يحقدون عليه و إن طال الزمن و بعد العهد، فإنهم لا ينظرون إليه إلا بعين الحقد و الغضب، و يضخّون بكل ما يملكونه في سبيل نجاح مؤامراتهم ضده.

فما أبعدهم عنه، و ما أشدّ بغضهم لآل محمد، و لكنهم امتزجوا بالمجتمع الإسلامي لأن انفصالهم عنه يجعلهم بمعزل عن تحقيق مآربهم، فتوزعوا كتائب، و تفرقوا جماعات يظهرن حبّ هذا و يقدّسون ذاك، و يحامون عن هذه الشخصية، و ينظّمون إلى ما يعادى الأخرى، و هكذا، و لكن أشدّ محاولاتهم هي ادعاء الصلة بأهل البيت، لأن لأهل البيت أثرهم في الحياة العامة. فهم يميلون إليهم، و يحاربون أعداءهم ادعاء و تسترا ليصلوا إلى أهدافهم من خلال أوسع قاعدة. ثم تأتي الجماعات التي تتجه إلى أقرب الشخصيات إليها في مجال السياسة أو صعيد الإقليم، فتتعلق بها و تخلع عليها صفات القدسية، و تؤدي لها شعائر العبادة، و ما هي إلا فرق قديمة أتى الإسلام على وجودها و محا ذكرها. و لكن من حملهم سوء حظ الأمة إلى أن يؤرخوا، و يكون لهم دور في التأثير على الناس لأنهم أتباع الملوک و جنود الظلمة، أهملوا الحركات التي اتخذت من شخصيات عصرها شعارا و هم ليسوا من أهل البيت، و انصبّ جلّ اهتمامهم فيما ابتلى به أهل البيت و شيعتهم من دعاوى الغلاة.

لقد كان في طليعة حركة الإلحاد و الزندقة رجال لا ينكر أنهم اتصلوا بمدرسة أهل البيت، فانكشف حالهم فيما بعد. وهناك آخرون قد ادعوا الاتصال بتلك المدرسة ليضعوا الأحاديث الكاذبة. وقد أعلن الإمام الصادق كذب هؤلاء و براءته منهم، وكان على رأس هذه الفرقة: المغيرة بن سعيد. فقد كان يدعى الاتصال بأبي جعفر الباقر، و يروى عنه الأحاديث المكذوبة، فأعلن الإمام الصادق كذبه و البراءة منه، قال الإمام الصادق عليه السلام لأصحابه في قوله تعالى: هَلْ أَنْبَأُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ قال «هم سبعة: المغيرة بن سعيد، و بنان، و صائد، و الحارث الشامي، و عبد الله بن الحارث، و حمزة بن عمارة الزيدي».

و كان المغيرة حاذقاً في وضع الأحاديث، و ماهراً في الدس و الكذب على أهل البيت، و إليه تنسب عقيدة تأليه الإمام على عليه السلام و هو أمر لا غرابة فيه إن صحَّ. لأن ليس هناك ما يمنع من قول المغيرة بذلك و الدعوة إليه ما دام أحد أركان حركة الغلاة و الألحاد المعادين لأهل البيت، و لكن الأشهر أنه قال أنه مخلوق و لا بد أن معتقداته حملت على ما اعتقدته الخطائية أو تأثروا بهم فعلاً، فهم من جنس واحد. يقول الأشعري: إن المغيرة زعم أنه يحيى الموتى بالاسم الأعظم، و أراهم أشياء من الترنجات و المخاريق (1).

لقد حمل أئمة أهل البيت سلاح العقيدة كعادتهم في مواجهة هؤلاء الأعداء الجدد، و اهتموا أشدَّ الاهتمام بمقابلة دعاواهم، و إشعار أصحابهم و محبيهم بخروج هؤلاء و كفرهم و شذوذهم. فالباقر عليه السلام كان يقول: «بريء الله و رسوله من المغيرة بن سعيد و بنان بن سمعان، فإنهما كذبا علينا أهل البيت» (2).

و عن عبد الرحمن بن كثير قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام يوماً لأصحابه: «لعن الله المغيرة بن سعيد، و لعن الله يهودية كان يختلف إليها يتعلم منها السحر و الشعبة و المخاريق. إن المغيرة كذب على أبي، فسلبه الله الإيمان. و إن قوما كذبوا على ما لهم؟ أذاقهم الله حرَّ الحديد. فو الله ما نحن إلا عبيد خلقنا و اصطفانا، ما تقدر على ضررٍ و لا نفع، إن رحمتنا فبرحمتها، و إن عدبنا فبذنوبنا، و الله ما بنا على الله

ص: 245

1- (1) المقالات الإسلامية ج 1 ص 7.

2- (2) لسان الميزان ج 1 ص 76.

من حجة ولا معنا من الله براءة، وأنا لميتون و مقبورون و منشورون و مبعوثون و موقوفون و مسئولون، ما لهم لعنهم الله، فلقد آذوا الله، و آذوا رسول الله في قبره، و أمير المؤمنين، و فاطمة، و الحسن و الحسين، و ها أنا ذا بين أظهركم أبيت على فراشي خائفاً، يأمنون و أفزع، و ينامون على فراشهم، و أنا خائف ساهر و جل».

ثم أراد عليه السلام أن يلفت نظر العالم الإسلامي إلى قاعدة لها أهميتها في قبول الرواية عن أهل البيت و العمل بها، لكي يحول دون حملة الكذب و الدس عليه و على آباءه الكرام، و يدفع الناس إلى التمييز و النظر فيما يروى عن الأئمة عليهم السلام فكان قوله القاعدة أشبه ما تكون بالصرخة التي قصد أن يكون دويها في كل نفس، و تبلغ عن طريق أصحابه كل قطر، فقال عليه السلام: «لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن و السنة، أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد لعنه الله دس في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها، فاتقوا الله و لا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا و سنة نبينا صلى الله عليه و آله و سلم».

و جملة أقوال الإمام الصادق في المغيرة، تظهر لنا بوضوح عظيم ألمه و شدة غمّه لما قام به الغلاة، و ما اقترفوه من أكاذيب، و ما اعتقدوه من عقائد الغرض منها الإساءة إلى أهل البيت النبوي الكريم، و خلق الريب و الشكوك في نفوس الناس. و لقد رأينا و صف الإمام الصادق للحال الذي هو عليه بسبب ما قام به الغلاة فهو عليه السلام ساهر و جل يهيمه ما يفعله أولئك الكفرة و ما يشيعوه بين الناس من مفتريات و عقائد فاسدة.

لقد قلنا أن مشكلة الغلاة هي من أدهى ما حلّ بتاريخ العقيدة الإسلامية، و من أفظع ما أصاب تاريخ الشيعة، و لو حسنت النوايا و تجرّدت من سخائم الحقد، لنظر إلى المشكلة بعموم نشأتها، لا بخصوص مدعاها، و بحثت على أساس أغراض أصحابها و بواعث رجالها، فهي إذاً دققنا تاريخ نشوئها و مصادر أفكارها، و اعتبر الإنصاف في القول و روعى الحق، لم تكن حول أهل البيت فحسب - كما أشرنا - بل إن من أصحاب العقائد الفاسدة الذين هاجت في حناياهم الجذور التي قطع الإسلام عنها ماء الحياة، فرق (الخرمدينية) أصحاب أبي مسلم الخراساني، و منهم كان بدء الغلو في القول، و معلوم بعد أبي مسلم عن الإمام الصادق و عدم التقائه به، و إنما كان أبو مسلم من دعاة العباسيين الخالص الذين بنوا إيمانهم في الدعوة على أساس ما تعنيه

الدعوة إلى آل البيت بحسب ما يضمه العباسيون و ما وضعوه في نظامهم السرى، وقد قالت هذه الفرقة: أن الأئمة آلهة. و الأئمة في مفهومهم ليسوا أئمة الهدى من أهل البيت النبوى الذين انعقدت إليهم الإمامة بالنص و الوصية، و الذين هم قادة الشيعة و رموز هداها. و قالت هذه الفرقة أيضا: أن الأئمة أنبياء، و إنهم رسل، و إنهم ملائكة.

و هم الذين تكلموا بالأظلة و التناسخ فى الأرواح، و هم أهل القول بالدور فى هذه الدار، و إبطال القيامة و البعث و الحساب، و زعموا أن لا دار إلا الدنيا، و أن القيامة هى خروج الروح من البدن و دخوله فى بدن آخر غيره، إن خيرا فخييرا و إن شرا فشرا، و أنهم مسرورون فى هذه الدنيا بالأبدان أو معذبون فيها، و الأبدان هى الجنان أو هى النار، و أنهم منقولون فى الأجسام الحسننة الأنسية المنعمة فى حياتهم، و يعذبون فى الأجسام الرديئة المشوهة من كلاب و قرده و خنازير و حيات و عقارب و خنافس و جعلان محوّلون من بدن إلى بدن معذبون فيها هكذا، فهى نعيمهم و نارهم لا قيامة و لا بعث و لا جنة و لا نار غير هذا على قدر أعمالهم و ذنوبهم و إنكارهم لأنتمهم و معصيتهم لهم. إلى آخر أقوالهم الباطلة و معتقداتهم الفاسدة.

و من فرق الغلاة (الروندية) الذين قالوا: إن أبا مسلم نبى مرسل يعلم الغيب، أرسله أبو جعفر المنصور. و قالوا: إن المنصور هو الله، و أنه يعلم سرهم و نجواهم.

و أعلنوا القول بذلك، و دعوا إليه. و لما أمرهم المنصور بالرجوع عن قولهم، قالوا:

المنصور ربنا، و هو يقتلنا شهداء كما قتل أنبياءه و رسله على يد من شاء من خلقه، و أمات بعضهم فجأة و بالعلل و كيف شاء، و ذلك له يفعل ما يشاء بخلقهم لا يسأل عمّا يفعل (1). و كانوا يعينون من انتقلت إليه روح آدم، فيقولون: انتقلت إلى فلان رجل من كبارهم، و أن ربهم الذى يطعمهم و يسقيهم هو المنصور، و أن جبرائيل هو فلان - رجل آخر منهم - و لما ظهر أوتوا قصر المنصور، فطافوا حوله، و قالوا: هذا قصر ربنا (2).

إذا، فإن حقيقة أفكار الغلاة تقوم على بواعث مختلفة و أغراض عديدة، لا تمت إلى الإسلام و التوحيد بصلّة، و من الصحة بمكان القول بأن أخطر جماعاتهم و أكثرها

ص: 247

1- (1) فرق النوبختى ص 36 و 52 و [1] 53.

2- (2) الفخرى ص 143. [2]



ضررا هم أولئك الذين استغلوا الصلة بأهل البيت أو انتحلوها، لأن الدخول على المجتمع الإسلامى من خلال الأئمة و سادة أهل البيت يحدث أثرا سيئا و بليغا فى كيان المجتمع الإسلامى، و يقرب هؤلاء الكفرة من تحقيق أغراضهم و تنفيذ مآربهم، فلا عجب أن نرى من الأئمة مثل هذا الاهتمام، لأن أمر الغلاة أخافهم و أسهرهم و أفزعهم، فلا بد من مقابلة نشاطهم و ملاحقة أفكارهم دفعا للفتنة و حماية للعقيدة، فكان تشديده على رواية الحديث، و التأكد من صحة ما يروى عن أهل البيت، و ما صحب ذلك من أقوال له عليه السّلام فى فضحهم و كشف حقيقة دعاوهم فى محبة أهل البيت، إذ يقول عليه السّلام: «... و الله لو ابتلوا بنا، و أمرناهم بذلك، لكان الواجب أن لا يتقبلوه، فكيف و هم يرونى خائفا و جلا استعدى الله عليهم، و أبرأ إلى الله منهم.

إنى امرؤ ولدنى رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و ما معى براءة من الله، إن أطعته رحمنى، و إن عصيته عذبنى عذابا شديدا».

و قال الإمام الصادق لمرازم- و هو جار بشار الشعيرى أحد دعاة الألحاد و من الغلاة- «يا مرازم، إن اليهود قالوا و وحدوا الله، و إن النصرارى قالوا و وحدوا الله، و إن بشارا قال قولا عظيما، فإذا قدمت الكوفة فأته و قل له: يقول لك جعفر: يا فاسق، يا كافر، يا مشرك، أنا برىء منك».

قال مرازم: فلما قدمت الكوفة، فوضعت متاعى و جئت إليه و دعوت الجارية، و قلت قولى لأبى إسماعيل، هذا مرازم، فخرج إلىّ. فقلت له: يقول لك جعفر بن محمد «يا كافر يا فاسق يا مشرك أنا برىء منك».

فقال بشار: و قد ذكرنى سيدى؟ قال: قلت: نعم ذكرك بهذا الذى قلت لك.

فقال: جزاك الله خيرا، و جعل يدعولى (1).

لقد أراد الإمام الصادق أن يحفظ تراث أهل البيت أيضا إلى جانب حماية العقيدة، فعمل على ترسيخ قاعدة الرواية عن أهل البيت بشروطها فقال: «فاتقوا الله و لا تقبلوا ما خالف قول ربنا و سنّة نبينا صلّى الله عليه و آله و سلّم». و هى القاعدة التى قام عليها منهاج

ص: 248

1- (1) انظر الجزء الرابع من الكتاب، فصل مشكلة الغلاة. و فيه ذكر رؤسائهم، و عوامل نشأة حركاتهم، و بحث جوانب النقص فى دراسة حركة الغلاة من قبل المؤرخين، و موقف الشيعة و أئمتهم من المغالين، و غيرها من النقاط.

مدرسته فى العلم والحديث، والتزمت بها التزاماً شديداً. وقد قال عليه السلام مراراً وتكراراً: «حديثى حديث أبى، وحديث أبى حديث جدّى، وحديث جدّى حديث على بن أبى طالب أمير المؤمنين، وحديث على أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحديث رسول الله قول الله عز وجل».

## أضواء من سيرته عليه السلام

:

قدّمنا فيما سبق نظرة إجمالية لحوادث عصره أو أهمها مما يتعلق بمنهجه الفكرى ومسئوليّاته الدينيّة ومهامه المتعدّدة، ونقتبس الآن بعض الأضواء من سيرته عليه السلام ونقدم شيئاً من الجوانب التي تتصل بالجانب الاجتماعى أو النشاط العام، والعلاقة بين نظرة الفرد المسلم إلى موقعه فى المجتمع، وبين تكوينه الدينى وبنائه الأخلاقى.

لقد عرف الإمام الصادق بحسن البيان و نفاذ البصيرة و كرم الأخلاق و صدق الحديث، واتجه إلى الفرد و المجتمع، وعنى بالأوضاع الاجتماعىة و الخلقىة، و معالجة ما يعانى منه المجتمع، و تهيئة وسائل الإعداد و التربية السلوكىة و الفكرىة، و خلق المناسبات للوعظ و النصح و الإرشاد. و كان مقصده يتخلّص فى قوله عليه السلام:

«أن يسلم الناس من ثلاثة أشياء كانت سلامة شاملة: لسان السوء، يد السوء، و فعل السوء».

و كان إقبال الناس عليه لانتهاج العلم، و اختلافهم إلى مجلسه قد هياً مناخاً دائماً للدعوة، و العمل على إبراز الجوانب المهمة التي تتكون منها شخصىة المسلم. و من جوانب عظمة شخصىة الإمام الصادق و تميّزه فى نهجه الإصلاحى و مسيرته الدينيّة، مباشرته ما يدعو إليه من مكارم الأخلاق بنفسه، و عمل ما يراه و يحضّ الآخرين على عمله، و ممارسته فى الحياة، فهو بذلك كان بحق المصلح الاجتماعى العظيم، و المرشد الدينى الكبير. فجعل من نفسه قدوة ليحفّز الآخرين على اتباعه و الاقتداء بفعله. فكان يحثّ على العمل، و يعمل بنفسه، و قد تضافرت الأخبار بأنه كان يعمل بيده و يتّجر بماله.

و قد عالج بالدعوة و العمل ظواهر التكاسل و صور الابتعاد عن طلب الرزق، و ما تطور فى المجتمع بتأثير حب الانقطاع إلى الله، و قيام الجدل فى استحباب الانقطاع

التام، وترك مجال العمل و اكتساب الرزق، لأنه يدعو إلى الانشغال، وهو من مقومات الدنيا. ورأى الإمام الصادق أن الإيمان الحق في أن يغدو المسلم إلى عمله كل يوم، ويكدّ في تحصيل رزقه، وأن يقوم بدوره في هذه الحياة، ويرى أن قيمة الإنسان في عمله، إذ لم يرض للمسلم البطالة وترك العمل، وكل ما يدعو إلى الاستهانة بالشخص وتحقيره. وفي الحديث: «ملعون ملعون من ألقى كدّه على الناس، ملعون ملعون من ترك من يعول به». وقد قرن الإسلام العمل لطلب الرزق للولد وللعيال بما يصلحهم بالجهاد في سبيل الله.

قال الإمام على عليه السلام: «ما غدوة أحدكم للجهاد في سبيل الله بأعظم من غدوة من يطلب لولده و عياله ما يصلحهم».

و كان الإمام الصادق يروى ما كان جدّه الإمام زين العابدين يفعلهُ ويقول: «كان على بن الحسين إذ أصبح خرج غاديا في طلب الرزق، فقيل له: يا ابن رسول الله أين تذهب؟ فقال: أتصدّق لعيالي».

قيل له: أ أتصدّق؟ قال: من طلب الحلال، فهو من الله عز و جل صدقة عليه» (1).

و كان عليه السلام يروى قول جده الإمام زين العابدين عليه السلام: «ضمنت على ربي ألا يسأل أحد من غير حاجة إلا اضطرته المسألة إلى أن يسأل عن حاجته».

و كان يخاطب أصحابه: «إياكم و سؤال الناس، فإنه ذلّ في الدنيا، و فقر تعجلونه، و حساب طويل يوم القيامة».

و على ضوء هذا الإيمان العميق بالعمل، كان الإمام الصادق يعمل بنفسه ليكون مثالا لغيره. فقد حثّ على طلب الرزق ليرفع من مستوى أخلاقهم و المحافظة على القيم الروحية لديهم، فكان يسمّى التجارة و دخول السوق بالعزّ، كما يحدثنا المعلّي بن خنيس قال: رأني أبو عبد الله و قد تأخرت عن السوق، فقال لي: «أعد إلى عزّك».

ص: 250

وقال لآخر- وقد ترك غدوّه إلى السوق- «مالى أراك تركت غدوّك إلى عزّك؟» قال: جنازة أردت أن أحضرها. قال: «فلا تدع الرواح إلى عزّك».

وعن سليمان بن معلى عن أبيه قال: سأل أبو عبد الله عن رجل - وأنا عنده - فقيل: أصابته الحاجة. قال: «فما يصنع اليوم؟» قيل: فى البيت يعبد ربه. قال: «فمن أين قوته؟» قيل: من بعض إخوانه. قال أبو عبد الله: «للذى يقوته أشدّ عبادة منه».

وقال لمعاذ-بياع الأكسية عند ما ترك التجارة-: «لا تتركها، فإنّ تركها مذهبة للعقل، اسع على عيالك، وإياك أن يكونوا هم السعاة عليك».

وسأل عن رجل من أصحابه، فقيل: ترك التجارة وقل شيئّه. فاستوى الإمام جالسا- وكان متكئا- ثم قال: «لا تدعوا التجارة فتهنونوا، اتّجروا بارك الله لكم».

وقال معاذ: قلت لأبى عبد الله: إني هممت أن أدع السوق؟ فقال: «إذا يسقط رأيك، ولا يستعان بك على شىء».

يحدثنا أبو عمرو الشيبانى: قال رأيت أبا عبد الله الصادق، ويده مسحاة يعمل فى حائط له، والعرق يتصبّب منه. فقلت: جعلت فداك أعطني أكفك. فقال: «إني أحبّ أن يتأذى الرجل بحرّ الشمس فى طلب المعيشة».

لقد هدف الإمام عليه السّلام إلى أن يزرع حبّ العمل فى نفوس الناس، وأن يدفعهم إلى الاعتماد على أنفسهم من خلال الشعور بالمسؤولية. فإنّ التواكل أو الكسل المتعمّد ظاهرة تحط من قيمة الإنسان، وتكشف عن نقص فى مستوى وعيه وإدراكه، وكلما كان المجتمع ينطوى على قاعدة واسعة من الأفراد الذين يدركون قيمة العمل وأهميته فى الرخاء، وتأكيد قدرة الفرد وعدم عجزه؛ كان ذلك مؤشرا إيجابيا على مستوى الوعى الذى يسود المجتمع، ومدى تحمل الأفراد لمسؤولياتهم فى حفظ البلد والدفاع عن عقائدهم، فالإسلام بنظامه رعى حقوق العامل بما لم تأت به أى نظم أخرى.

وعلى أى حال فقد كان الإمام الصادق يركّز على تجسيد ضرورة العمل، وتوضيح العلاقة بين الإيمان وبين الإنتاج. ولقد هدف الإمام الصادق إلى أن يحبط روح الكسل، ويقضى على التواكل، لأنه يرى فى الفرد العامل أنموذجا للعضو الصالح الذى يؤكد ذاته وموقعه من خلال ما ينتج للمجتمع بما منحه الله تعالى من موهبة وحباه من نعمة. وإيضاحا للمقام، وزيادة للمعلومات، نسوق بعض القضايا التى تبعث فى روح المسلم نشاطا لمواصلة عمله على ضوء سيرة الإمام الصادق عليه السّلام:

خرج الإمام الصادق في يوم شديد الحر، فاستقبله عبد الأعلى -مولى آل سام- في بعض طرق المدينة فقال: يا ابن رسول الله حالك عند الله عز وجل، وقرابتك من رسول الله، تجهد نفسك في مثل هذا اليوم!!! فقال عليه السلام: «يا عبد الأعلى خرجت في طلب الرزق لأستغنى عن مثلك».

فهو عليه السلام يضرب لعبد الأعلى المثل الأعلى في إعزاز النفس الذي يحققه المسلم من وراء العمل، وفي نفس الوقت يعكس أولاً أهمية اعتماد المسلم واستغناؤه عن الآخرين مهما كانت منزلته وعظمة رتبته.

و ثانياً: إن استغلال الفرد وكسبه لرزقه يؤكد عزّة نفسه، ويحفظ كرامته، ويعيش سعيداً لا يذلّ لأحد، ولا يستهين بكرامته أحد.

وقد كانت الفترة التي مرّ بها الإمام الصادق قد شهدت نوعاً من التطور الفكري الذي نجم عن التفاعل والحوار بين الحضارات القديمة وبين الفكر الإسلامي، وأخذ الوضع الاقتصادي بالتدهور نتيجة سياسة القمع والضرائب والنهب التي مارسها الحكام لسدّ متطلبات بذخهم ولهوهم، وكذلك الولاة فقد أجهدوا الرعية يأخذ الأموال من غير حقها، كما بيّنا ذلك.

و الإمام الصادق في ذلك العصر حاول أن يقود الأمة إلى كل خير، وفي هذا المجال بالذات يبذل جهده بأن يجعل من الفرد المسلم فرداً متمكناً متجاوزاً عوائق الضيق وآلام الفاقة، فقام بتوعية الناس لمباشرة العمل و تحببهم للنفس، وبتنمية الشعور بالمسؤولية لكي لا تلجئ الظروف أولئك الأفراد-الذين فقدوا خيرات بلادهم- إلى الاضطرار للاستجداء من السلطة والركوع على أعتابها والخنوع لها تحت وطأة قسوة ظروف الحياة ومرارة الجوع.

عن هشام بن سالم قال: كان أبو عبد الله إذا أعتم الليل و ذهب شطره، أخذ جراباً فيه خبز و لحم و دراهم، فحمله على عنقه، ثم ذهب به إلى أهل الحاجة من أهل المدينة، فقسّم فيهم و لا يعرفونه، فلما مضى أبو عبد الله عليه السلام فقدوا ذاك، فعلموا أنه كان أبا عبد الله عليه السلام.

و عن المعلى بن خنيس (1) قال: خرج أبو عبد الله عليه السلام في ليلة قد رشت -أمطرت- وهو يريد ظلة بنى ساعدة، فاتبعته، فإذا هو قد سقط منه شيء فقال:

«بسم الله اللهم رده علينا». قال: فأتيته فسلمت عليه.

قال: فقال: «معلى»: قلت: نعم جعلت فداك. فقال لى: «التمس بيدك فما وجدت من شيء فادفعه إلى» فإذا أنا بخبز منتشر كثير، فجعلت أدفع إليه ما وجدت، فإذا أنا بجراب أعجز عن حمله. فقلت: جعلت فداك، أحمله على رأسي؟ فقال:

«لا أنا أولى به منك، ولكن امض معي» قال: فأتينا ظلة بنى ساعدة، فإذا نحن بقوم نيام، فجعل يدس الرغيف والرغيفين حتى أتى على آخرهم، ثم انصرفنا. فقلت:

جعلت فداك يعرف هؤلاء الحق؟ فقال: «لو عرفوه لو أسيناهم بالدقة -و الدقة هي الملح- إن الله تبارك وتعالى لم يخلق شيئاً إلا وله خازن يخزنه، إلا الصدقة، فإن الرب يليها بنفسه، وكان أبى إذا تصدق بشيء وضعه فى يد السائل، ثم ارتده منه، فقبله وشمه ثم رده فى يد السائل» (2).

و إزاء ظاهرة ابتعاد كثيرين عن العمل، وانزوائهم فى بيوتهم منقطعين للعبادة مع تقاوم أزمة العيش، كان عليه السلام يفضل العامل على ذلك الفرد المنزوى والمنقطع إلى العبادة. فعند ما قيل له: أن رجلاً قال لأقعدن فى بيتي، ولأصلين ولأصومن ولأعبدن الله، فأما رزقى فسيأتيني.

فقال عليه السلام: «هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجيب الله دعاءهم».

فالإمام رغم معرفته بأهمية العبادة، إلا أنها لا تجوز إلا فى موقعها فى حياة الفرد المؤمن، بحيث تكون صلة المؤمن بربه وهويته وسلوكه. وهوية المؤمن العزة، وسلوكه العطاء والعمل.

يقول إسماعيل بن جابر (3) أتيت أبا عبد الله، وإذا هو فى حائط (بستان) له، ويده مسحاة، وهو يفتح بها الماء.

ص: 253

1- (1) مولى الإمام الصادق [1] قتله داود بن على العباسى -والى المدينة- فغضب الإمام الصادق، و [2] دعا على الوالى، فسمعت الصيحة فى داره. انظر الجزء الثانى من الكتاب.

2- (2) فروع الكافى ج 4 ص 8 و 9. [3]

3- (3) ذكره الشيخ فى الفهرست، وقال: له كتاب ذكر سنده.

و عن الفضل بن أبي قرة (1) قال: دخلنا على أبي عبد الله في حائط له، و بيده مسحاة يفتح بها الماء، و عليه قميص، و كان يقول: «إني لأعمل في بعض ضياعي، و إن لي من يكفيني، ليعلم الله عز و جل أني أطلب الرزق الحلال».

و كان عليه السلام يرمى إلى حمل الناس على الخلال الطيبة و الأخلاق الكريمة ليقوم ذلك المجتمع الذي تسوده قيم التكافل و الإخاء الديني. فقال عليه السلام لبعض جلسائه:

«ألا أخبرك بشيء يقرب من الله، و يقرب من الجنة، و يباعد من النار؟» فقال: بلى.

قال عليه السلام: «عليك بالسخاء، فإن الله خلق خلقا برحمته لرحمته، فجعلهم للمعروف أهلا و للخير موضعا، و للناس وجهها يسعى إليهم لكي يحيوهم كما يحيى المطر الأرض المجدبة، أولئك هم المؤمنون بالآخرة، الآمنون يوم القيامة».

لقد كان الإمام الصادق عليه السلام مثالا كاملا لدعاة الإصلاح، و علما شامخا من أعلام رجال الصلاح، فهو يأمر بالأخلاق الفاضلة و السجيا الحميدة، و اكتساب الفضائل، و الابتعاد عن الرذائل، فكان من مآثور أقواله: «بنى الإنسان على خصال، فما بنى عليه أنه لا يبني على الخيانة و الكذب» (2).

و لا يدخر عليه السلام النصيح عن أحد، و هو من أعظم القادة الذين تحتل سيرتهم مكانة مهمة تنعكس آثارها على الناس و المؤمنين في ظل دعواتهم إلى الخير، و على مر التاريخ.

كان من أهم العوامل الحيوية في إنجاح الدعوات و استمرارها هو الإيمان المطلق بالمبادئ، و مبادرة القادة للالتزام بها في خط من التوافق التام بين الدعوة و السلوك، و لقد كان سلوك حملة رسالة محمد صلى الله عليه و آله و سلم و انتشار الإسلام و اتساع رقعته دليلا حيا على إيمانهم العظيم بالدعوة، و من خلال هذا الترابط بين سلوكية القادة و موقف الناس يمكن أن نلاحظ على مدى المراحل التاريخية تأثير الرجال البارزين في نفوس الآخرين، و انجذابهم إلى صفوف الدعوة.

و قد عرف عن الإمام الصادق أقواله الجامعة و توجيهاته الشاملة التي تنير الطريق و تهدي إلى الرشاد، و التي تؤثر في نفوس و سلوك أصحابه.

ص: 254

1- (1) التفليسي من أصحاب الإمام الصادق، [1] انتقل إلى إرمينيا. له كتاب ذكره الشيخ في الفهرست.

2- (2) حلية الأولياء ج 1 ص 194.

يقول عليه السّلام: «الصلاة قربان كل تقى، والحج جهاد كل ضعيف، وزكاة البدن الصيام، والداعى بلا عمل كالرامى بلا وتر».

و جاء فى وصيته عليه السّلام لعبد الله بن جندب: «يا ابن جندب، لو أن شيعتنا استقاموا؛ لصافحتهم الملائكة، ولأظلمهم الغمام، ولأكلوا من فوقهم و من تحت أرجلهم، ولما سألو الله شيئاً إلا أعطاهم. يا ابن جندب بلّغ معاشر شيعتنا وقل لهم لا تذهبنّ بكم المذاهب، فوالله لا تنال ولايتنا إلا بالورع والاجتهاد فى الدنيا، ومواساة الإخوان، وليس من شيعتنا من يظلم منا برياً».

وقد بيّنا فى عدة مواضع ما يكشف لنا طرفاً من الجوانب المهمة من جوانب شخصية الإمام الصادق عليه السّلام وقيامه بالدعوة للإسلام، و التقيّد بتعاليمه، والعمل بأوامره ونواهيه، والالتزام بالسير على نهج هداه و نور عقيدته فكان التطابق بين المبادئ و بين السلوك من أهم صفات حياته، رغم أن أوضاع عصره تبعث الاضطراب فى الحياة لاشتداد الصراع الفكرى و السياسى. وقد اهتزت أفكار الناس، فوقف موقف البطل المؤمن بعقيدته، الذى أعاد بموقفه التوازن فى الفكر و السلوك لأفراد الأمة و المجتمع، و خفف من الضغوط و الأخطار التى تهدد وجودهما. فقد عانى المجتمع فى هذه المرحلة، و تعرّضت الأمة الإسلامية خلالها إلى سياسات أنهكت الرعية، و إلى حملات معادية مختلفة اللبوس و الإشكال. و الخلاصة فإن مجمل العوامل التى واجهت الأمة، و تعرّض لها المجتمع الإسلامى كانت كافية لانتشار القلق و الاضطراب و توغل جذورهما، حتى أن الناظر إلى الأحداث- و لو ببساطة و عجالة- يلحظ أن فوق عناصر القلق و مظاهر الاضطراب تنمو و ترتفع صور لحركة العلم و الدعوة الإسلامية تطغى عليها و تكاد تخفيها، و بصور الدعوة الدينية و مظاهر الحركة العلمية يتمثل موقف الإمام الصادق عليه السّلام و بروزه فى مجتمعه، رغم عداة الملوك له، و عملهم الدائم على إنهاء ذكره. فكان أن أكتسب من التجارب-مضافاً إلى جوهر الإمامة- ما جعله يعيّن طرق تحاشى الأمة ضربات الحكام و تجنّب سيوفهم و رماحهم، و احتل موقعا فى وسط الأحداث هو موقع تكامل و خبرة، فإن فى سيرته تتجسد أعلى مستويات الكفاءة و القيادة، إلى جانب علمه و جهاده.

كان عليه السّلام يحرص على أن تكون صلته بأصحابه قوية و مؤثرة. فعن صفوان،



عن خالد بن نجیح قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «أقرءوا من لقيتم من أصحابكم السلام، وقولوا لهم: إن فلان بن فلان يقرئكم السلام. و قولوا لهم: عليكم بتقوى الله عز وجل، وما ينال به ما عند الله، إني والله ما أمركم إلا بما نأمر به أنفسنا، فعليكم بالجد والاجتهاد، وإذا صليتم الصبح وانصرفتم، فبكرروا في طلب الرزق، واطلبوا الحلال فإن الله عز وجل سيرزقكم ويعينكم عليه».

كان في سيرته وسلوكه يمثل جوانب سامية من التواضع والبساطة مع عظمتة وعلو شأنه، وكان يعامل الناس بالعطف والتسامح. كل ذلك كان له تأثير في نفوس تلامذته ومريديه، وقد وقف أمام التيارات السياسية يوم اجتاحت البلاد ثورة من جميع جوانبها، وقد دعاه القادة- كما أسلفنا- إلى تولي الأمر وإسناد الحكم إليه، كما أن أبا مسلم الخراساني كتب له يدعوه بأن يدعو الناس إلى بيعته، وينتزع الأمر من بني العباس. فأجابه بقوله: «ما أنت من رجالي، ولا الزمان زماني».

وقبل ذلك رجعت رسل أبي سلمة الخلال بالخبيبة عند ما وجههم بكتاب الدعوة إلى الإمام الصادق بأن يكون الأمر له دون بني العباس. فكان جوابه أن أحرق الكتاب أمام الرسل، لأنه كان يقدر أبعاد المعركة، وينظر العواقب، ويحاول أن يؤثر في انفعالات الناس، ويقلل من اندفاعهم على طريق تؤدي نهايتها إلى تعريض المسلمين إلى الأخطار ودفع الأبرياء إلى الموت. وذلك لأن الظروف غير مواتية، رغم ظاهر مناسبتها وملائمتها. و سنبحث موضوع موقفه من الثورة مفصلاً في فصل لاحق.

والغرض، فإن وجوده في منصب الإمامة و تبوءه موقع القيادة والإصلاح يجعله أقرب الأطراف إلى حدّ السيوف، وأدناهم إلى شبا الرماح، وهو من أهل البيت الذين ابتلوا بمصالح الرعية، وجعل فيهم دوام الرسالة المحمدية. فمن خصوص أعمالهم مناهضة الظلم، ومن صميم دعوتهم رعاية أمور المسلمين، وهم مكلفون بما كتب عليهم وقدّر لهم من وجوه المسؤولية والأفعال.

فكان عليه السلام يعمل بوحى ذلك، فلا يرى في ضوء ما يحمله من الأخبار والعلم أن طريق الخلاص في التعرض إلى السلطان، بل في الابتعاد عن مواطن الأذى وموارد الهلكة، والوقوف بوجه الظلم والجبارين بوسائل يضمن نفعها، ويؤمن سلامة الناس فيها.

كما كان عليه السلام يشدد على وحدة الأمة، ويدعو إلى توثيق روابط الإخوة الإسلامية وإلى الألفة والتقارب، وينهى عن التباعد والتباعد، ويحاول تأليف القلوب بمختلف الطرق، ويدرك أثر التكاتف والتآلف. فبذل ماله للقضاء على كل أسباب الخلاف بين المسلمين والعمل على جمع صفوفهم وتآلفهم حرصاً على وحدة الكلمة.

قال أبو حنيفة- واسمه سعيد بن بيان- المعروف بسابق الحاج: (مر بنا المفضل بن عمر وأنا وختن لى نتشاجر على ميراث فى الطريق، فوقف علينا ساعة ثم قال لنا: تعالوا إلى المنزل، فأتيناها فأصلح بيننا بأربعمائة درهم، فدفعها إلينا من عنده، حتى إذا استوثق كل واحد مئاً صاحبه، قال المفضل: أما إنها ليست من مالى، ولكن أبى عبد الله الصادق أمرنى إذا تنازع رجلان من أصحابنا أن أصلح بينهما وأتديهما من ماله، فهذا مال أبى عبد الله (1).

فكان عليه السلام يتخذ السبل العملية الكفيلة بتحقيق مبادئ الإسلام، ويستعين برجاله لى يقضى على عوامل الفرقة ومظاهر الشقاق، ويحقق مبدأ الذى سار عليه فى الإصلاح. ودعا إلى عدم التعاون مع السلطة، فنهى عن المرافعة إلى حكّام اتخذوا السلطة غنيمية يستغلونها لأغراضهم، بعد أن أعلن مقاطعتهم، وصرّح على ملاء من الناس بأن يرجعوا إلى سلطة الحق وميزان العدل فيما ينشأ بينهم من الخلافات، فإن سلطة الحق مفتوحة الأبواب، ومبادئ الدين لا تعطلها عوائق أو ظروف صعبة، إذ الإيمان يرسم الخطوط العامة لدور المؤمن والقائد على السواء، فقال عليه السلام: «أيما رجل منكم كانت بينه وبين أخ له ممارسة فى حق، فدعاه إلى رجل من إخوانكم ليحكم بينه وبين أخيه، فأبى إلا أن يرفعه إلى هؤلاء، كان بمنزلة الذين قال الله عز وجل فيهم: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ».

وعن عمر بن حنظلة- من أصحاب الإمام الصادق- قال: سألت أبى عبد الله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة فى دين أو ميراث، فتحاكما إلى السلطان أو إلى القضاة أو يحل ذلك؟ قال الإمام الصادق: «من تحاكم إليهم فى حق أو باطل، فإنما تحاكم إلى

ص: 257

الجبت و الطاغوت المنهى عنه، و ما حكم له به، فإنما يأخذ سحتا و إن كان حقه ثابتا له، لأنه أخذه بحكم الطاغوت، و من أمر الله عز و جل أن يكفر به، قال الله عز و جل:

يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ .».

قلت: فكيف يصنعان و قد اختلفا؟ قال عليه السلام: «ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا، و نظر في حلالنا و حرامنا، و عرف أحكامنا، فليرضيا به حكما، فإنني قد جعلته عليكم حاكما، فإذا حكم بحكم و لم يقبله منه، فإنما بحكم الله استخفّ و علينا ردّ. و الرادّ علينا كافر و رادّ على الله، و هو على حدّ من الشرك بالله.».

و النوعية التي هدف الإمام إليها، و التعبئة التي قام بها كانت تنزع عن السلطة قاعدتها، و تضع الحواجز بينها و بين الناس، و تكشف للمسلمين انغماس الحكّام في ملاذّهم، و مدى ابتعادهم عن الإسلام و استعدادهم لإنزال الأذى بالمسلمين، و استخدام قوتهم الغاشمة. فقرر الإمام أن يباشر دعوة الحق، و يقوم بإعداد الأمة، و يتبنى مهمة الإصلاح إلى حين استكمال عوامل الثورة- و لأنه لا يرى ما يراه الآخرون من ملائمة الظرف- أصرّ على هذا النهج حماية لأرواح المسلمين، لأن إعلان الثورة كان يعنى سفك الدماء على أيدي الحكام الذين يتمتعون بالقوة و يتصفون بالقسوة و لا- يتورعون عن انتهاك المحارم و إزهاق الأرواح في سبيل الحفاظ على سلطانهم و صيانة ملكهم، ثم إن النفوس امتلأت جراحا، و الأمر كما تبيّنه الأخبار و تعيّن الآثار، فالإمامة معقودة لرعاية الدين و حماية العقيدة، و الأحداث تجري على نماذج من التضحيات، و أمثال من المواقف التي تشحذ الهمم و تؤجج المشاعر، و الخلافة العظمى بإمامتها الروحية تتبوأ المحل الذي وضعها الله فيه. و لكل فترة دور و حال.

و على ذلك يفسر الإمام الصادق قول الله تعالى: ذَلِكَ وَ مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيُنصِرَهُ اللهُ إِنَّ اللهُ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ فيقول: «إن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم لما أخرجته قريش من مكة، و هرب منهم إلى الغار، و طلبوه ليقتلوه فعوقب، ثم في بدر عاقب، لأنه قتل عتبة بن ربيعة و شيبه بن ربيعة و الوليد بن عتبة و حنظلة بن أبي سفيان و أبو جهل و غيرهم، فلما قبض رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم بغى عليه ابن هند بنت عتبة بن ربيعة بخروجه عن طاعة أمير المؤمنين عليه السلام و بقتل ابنه يزيد الإمام الحسين عليه السلام بغيا و عدوانا و قاتلا شعرا:

ليت أشياخي ببدر شهدوا (جزع) الخزرج من وقع الأسل

لأهلّوا واستهلّوا فرحا ثم قالوا يا يزيد لا تشل

لست من خندق إن لم أنتقم من بنى أحمد ما كان فعل

قد قتلنا القرم من ساداتهم و عدلناه بيدر فاعتدل

ثم قال تعالى: لينصرنه الله. يعنى بالقائم المهدي من ولده صلّى الله عليه وآله وسلّم (1)».

و من المعلوم أن التقية كانت من دين الإمام الصادق، جعلها في مكان من عمله رفيع و بارز لاتقاء شرور الحكام و دفع ظلمهم، إلى ما فيها من الإبقاء على الصلات بالأولياء الحقيقيين الذين يتخذهم المسلمون بإيمان و نص من دين الله، وإلا فإن الحديث عن بنى العباس صريح تصرخ به أفعالهم و تصرّح به سياستهم.

و في سيرة الإمام الصادق تتمثل أيضا الأعمال التي على المصلح الديني أن يقوم بها، و الاتجاه إلى الإصلاح بالعمل الديني يقود إلى الإصلاح الاجتماعي و الأخلاقي، و قد قلنا أن الإمام الصادق كان يقرن دعوته بصور عملية حيث يبادر بنفسه إلى العمل لكسب الرزق، و يكف نفسه عمّا نهى الله عنه، فيجد المسلم في سلوك الإمام تطابقا تاما و اتئالا كاملا يجسّد العقائد و المبادئ و الأفكار التي يدعو إليها، فيطمئن الناس إلى صدق النية، و يقبلون على عالم من القول و العمل فيه القربة إلى الله لنيل رضاه و فيه السلامة في الدنيا لنيل السعادة.

سئل عليه السلام عن قوله تعالى: فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ؟ فقال: «إن الله سبحانه يقول للعبد يوم القيامة: عبدي، أ كنت عالما؟ فإن قال: نعم. قال له: أفلا عملت بما علمت؟ و إن قال: كنت جاهلا. قال: أفلا تعلمت حتى تعمل؟ فيخضم. فتلك الحجة...» اهـ.

و يسعى الإمام الصادق عليه السلام إلى معالجة الشذوذ في التصرفات التي تحدث بدافع الجهل، فإن كانت لأجل الإساءة إلى الدين و الطعن في العقائد، فإنها تدخل في جملة القضايا و الأعمال التي يستهدفها جهده عليه السلام في حملة فكرية و عقلية يقابل بها أفكار الزندقة و الألحاد و أهل الأهواء و الآراء. و إذا تحدّث جمع بين التفسير و الوعظ و الوقائع. و إليك ما يضم خلاصة ما قدمناه.

ص: 259

1- (1) ينابيع المودة [1] للحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي ص 510.

قال عليه السلام في قوله عز وجل: إهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ «يقول: أرشدنا للزوم الطريق المؤدى إلى محبتك، والمبلىغ إلى جنتك من أن نتبع أهواننا فنعطب، ونأخذ بآرائنا فنهلك، فإن من اتبع هواه وأعجب برأيه كان كرجل سمعت غناء الناس تعظمه وتصفه، فأحبت لقاءه من حيث لا يعرفنى لأنظر مقداره و محله، فرأيتة فى موضع قد أحقق به جماعة من غناء العامة، فوقفت منتبذا عنهم، متغشيا بلثام أنظر إليه و إليهم، فما زال يراوهم حتى خالف طريقهم و فارقهم، و لم يقرّ، فتفرقت جماعة العامة عنه لحوائجهم، و تبعته أقتفى أثره، فلم يلبث أن مرّ بخباز، فتغفله فأخذ من دكانه رغيفين مسارقة، فتعجبت منه، ثم قلت فى نفسى: لعله معامله. ثم مرّ بعده بصاحب رمان، فما زال به حتى تغفله فأخذ من عنده رمانتين مسارقة، فتعجبت منه، ثم قلت فى نفسى: لعله معامله. ثم أقول: و ما حاجته إذا إلى المسارقة؟ ثم لم أزل أتبعه حتى استقرّ فى بقعة من صحراء. فقلت له: يا عبد الله لقد سمعت بك، و أحببت لقاءك، فلقيتكم لكنى رأيت منك ما شغل قلبى، و إنى سائلك عنه ليزول به شغل قلبى.

قال: ما هو؟ قلت رأيتك مررت بخباز و سرقت منه رغيفين، ثم بصاحب رمان فسرت منه رمانتين؟ فقال لى: قبل كل شىء حدثنى من أنت؟ قلت: رجل من ولد آدم من أمة محمد صلى الله عليه و آله و سلم.

قال: حدثنى ممن أنت؟ قلت: رجل من أهل بيت رسول الله.

قال: أين بلدك؟ قلت: المدينة.

قال: لعلك جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن أبى طالب عليهم السلام.

قلت: بلى.

قال لى: فما ينفعك شرف أصلك مع جهلك بما شرفت به، و تركك علم جدك و أبىك، لأنه لا ينكر ما يجب أن يحمد و يمدح فاعله.

ص: 260

قلت: ما هو؟ قال: القرآن كتاب الله.

قلت: وما الذى جهلت؟ قال: قول الله عز وجل: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَإِنِّي لَمَّا سَرَقْتُ الرِّغِيثِينَ، كَانَتْ سَيِّئَتَيْنِ. وَلَمَّا سَرَقْتُ الرِّمَانَتَيْنِ، كَانَتْ سَيِّئَتَيْنِ. فَهَذِهِ أَرْبَعُ سَيِّئَاتٍ. فَلَمَّا تَصَدَّقْتُ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا كَانَتْ أَرْبَعِينَ حَسَنَةً، أَنْقَضْتُ مِنْ أَرْبَعِينَ حَسَنَةً أَرْبَعُ سَيِّئَاتٍ، بَقِيَ سِتٌّ وَثَلَاثُونَ.

قلت: ثكلتك أمك، أنت الجاهل بكتاب الله، أما سمعت قول الله عز وجل:

إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ إِنَّكَ لَمَّا سَرَقْتَ رَغِيفَيْنِ، كَانَتْ سَيِّئَتَيْنِ، وَلَمَّا سَرَقْتَ الرِّمَانَتَيْنِ كَانَتْ سَيِّئَتَيْنِ. وَلَمَّا دَفَعْتَهَا إِلَى غَيْرِهَا مِنْ غَيْرِ رِضَا صَاحِبِهَا كُنْتَ إِنَّمَا أَضَفْتَ أَرْبَعُ سَيِّئَاتٍ إِلَى أَرْبَعٍ، وَلَمْ تَضِفْ أَرْبَعِينَ حَسَنَةً إِلَى أَرْبَعِ سَيِّئَاتٍ. فَجَعَلَ يَلَاحِظُنِي، فَانصرفت و تركته» (1). اهـ.

الشذوذ في الأعمال استدعى من الإمام ما رأيناه من ملاحظة و تتبع، أما الوجه الآخر فهو الجهل الحقيقي الذى يدور بين الناس على شكل أشخاص يدعون العلم بالكتاب و الفهم بالدين، و هو وجه يسبب أخطارا و أخطاء تجرئ الناس على النصوص و الأحكام، و تضع عراقيل تؤثر فى سير دعوة الإمام الصادق.

و يروى للإمام الصادق تعقيب يبين ما ترتب على ذلك من أضرار فى تاريخ الإسلام، فيقول عليه السلام: «بمثل هذا التأويل القبيح المستكره يضلون و يضلون..» فقد لجأ الظالمون و البغاة إلى مثل ذلك و أباحوا لأنفسهم التقول على الله، و الكذب على النبى الكريم.

لقد اهتم الإمام الصادق بالأصحاب الذين ينقلون عنه الحديث، و بالأقارب الذين يعملون بنهجه فى طبقات المجتمع، و يجتدون أنفسهم لدعوة الإصلاح و التمسك بالدين، و يعنى بطريقة مخاطبتهم الناس، و أسلوب حملهم على العمل بالفرائض و الأحكام. قال الإمام الصادق لأحد أصحابه: «وضع الإسلام على سبعة أسهم: على الصبر و الصدق و اليقين و الرجاء و الوفاء و العلم و الحلم. ثم قسم ذلك

ص: 261

بين الناس، فمن جعل فيه هذه السبعة الأسهم فهو كامل الإيمان محتمل، وقسم لبعض الناس السهم، وبعض السهمين، وبعض الثلاثة أسهم، وبعض الأربعة أسهم، وبعض الخمسة أسهم، وبعض الستة أسهم. فلا تحملوا على صاحب السهم سهمين، وعلى صاحب السهمين ثلاثة أسهم، وعلى صاحب الثلاثة أربعة أسهم، ولا على صاحب الأربعة خمسة أسهم، ولا على صاحب الخمسة ستة أسهم، ولا على صاحب الستة سبعة أسهم، فتثقلوهم وتفرّوهم، ولكن ترقّقوا بهم، وسهّلوا لهم المداخل. وسأضرب لك مثلاً تعتبر به: إنه كان رجل مسلم، وكان له جار كافر (وفي رواية نصراني) وكان الكافر يرفق بالمؤمن، فأحب المؤمن للكافر الإسلام، ولم يزل يزيّن الإسلام ويحبه إلى الكافر حتى أسلم، فغدا عليه المؤمن فاستخرجه من منزله، فذهب به إلى المسجد ليصلي معه الفجر في جماعة، فلما صلّى قال له: لو قعدنا نذكر الله عز وجل حتى تطلع الشمس. فقعد معه، فقال له: لو تعلمت القرآن إلى أن تزول الشمس وصمت اليوم كان أفضل. فقعد معه و صام حتى صلى الظهر والعصر.

فقال له: لو صبرت حتى تصلى المغرب والعشاء الآخرة. ثم نهضاً وقد بلغ مجهوده، وحمل عليه ما لا يطيق. فلما كان من الغد، غدا عليه وهو يريد به مثل ما صنع بالأمس، فدق عليه بابه، ثم قال: أخرج حتى تذهب إلى المسجد. فأجابه: أن انصرف عني، فهذا دين لا أطيعه» (1).

و عن عقبة بن خالد (2): دخلت أنا والمعلّاء و عثمان بن عمران على أبي عبد الله عليه السلام فلما رأنا قال: «مرحبا مرحبا بكم، وجوه تحبّنا و نحبّها، جعلكم الله معنا في الدنيا والآخرة» فقال له عثمان: جعلت فداك. فقال أبو عبد الله عليه السلام:

«نعم مه» قال: إني رجل موسر، فقال له: «بارك الله لك في يسارك» وقال: ويجيء الرجل فيسألني الشيء، وليس هو إبان زكاتي. فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «القرض عندنا بثمانية عشر، والصدقة بعشرة، وما ذا عليك إذا كنت كما تقول لا تردّه، فإن ردّه عند الله عظيم. يا عثمان، إنك لو علمت ما منزلة المؤمن من ربّه ما توانيت في حاجته، و من أدخل على مؤمن سرورا، فقد أدخل على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم» (3).

ص: 262

1- (1) الاثنى عشرية في المواعظ العددية للحافظ العيناثي الجزيني.

2- (2) عقبة بن خالد الأسدي الكوفي من أصحاب الإمام الصادق.

3- (3) الكافي للكليّني. [1]

و بهذه السيرة و التعاليم يقيم الإمام الصادق واقعا محسوسا و معاشا من الألفة و التعاون و التكافل، و في كل جانب من حياته اليومية عليه السلام عليه سيماء الدين و صفة الفقه و الدعوة الإسلامية، فلا غرو أن نجده مهوى أفئدة محبى الحكمة، و مقصد طلاب العلم، كما نجده ملجأ المحتاجين، فهو عليه السلام لا يكتفى بتهنئة أصحابه و محبيه لأداء ما أمر به الإسلام من حقوق للفقراء، بل يجعل من بيته أيضا المقام الأول الذى تجرى فيه تطبيقات أحكام الإسلام و تعاليمه.

جاء إليه عليه السلام رجل فقال له: يا أبا عبد الله، قرض إلى مسرة. فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «إلى غدة تدرى؟» فقال الرجل: لا و الله. قال: «فإلى تجارة تؤوب؟» قال: لا و الله. قال: «فإلى عقدة تباع؟» فقال: لا و الله. فقال أبو عبد الله عليه السلام: «فأنت ممن جعل الله له فى أموالنا حقا». ثم دعا بكيس فيه دراهم، فأدخل يده فيه، فناوله منه قبضة.

و يدعو عليه السلام إلى أن يسعى المؤمن فى حاجة أخيه، و يظهر شديد اهتمامه فى التكاتف و التكافل الذى دعا إليه الإسلام، و يبين جزاء ذلك عند الله ليصبح عمل المسلم فى إطار مجتمعه عملا دينيا و له الصفة الشرعية. فمن أقواله عليه السلام: «قضاء حاجة المؤمن خير من عتق ألف رقبة، و خير من حملان ألف فرس فى سبيل الله».

و كذلك قوله عليه السلام: «لقضاء حاجة امرئ مؤمن أفضل من ألف حجة متقبلة بمناسكها، و عتق ألف رقبة».

و من المعلوم أن الإمام الصادق فى حصنه على إقامة العلاقات بين المسلمين على مثل هذه الصورة من التعاون و المساعدة، يعالج فى أعماله و أقواله تلك الظاهرة التى أشرنا إليها سابقا من الانصراف إلى الأعمال العبادية، أو الانقطاع عن طلب الرزق تحت تأثير فهم محدود، أو حالة خاصة، و التى تشمل أيضا أداء المناسك و الأعمال الخيرية بقصد التظاهر و تمذح الناس و السمعة. و هنا محك هام يضعه الإمام عليه السلام لتوجيه المجتمع إلى الرفاه و التآلف.

و نرى الإمام الصادق يزيد فى القول من ذكر المعروف و فضله ليحبب إلى الناس فعل الخير و يشيعه بينهم، و هو يبدأ بالدعوة إلى المعروف بدون تقييده، فيقول عليه السلام داعيا أصحابه: «اصنع المعروف إلى كل أحد، فإن كان أهله و إلفان أهله».

ثم يتجه فى دعوته إلى عمل المعروف بين المؤمنين فيقول: «أيا مؤمن أوصل إلى أخيه المؤمن معروفا، فقد أوصل ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم».



و من صور حثّه على المعروف قوله عليه السّلام: «ليس شيء أفضل من المعروف إلا ثوابه».

ثم يضع الإمام الصادق لهذا العمل -الذي يكشف عن حب الخير في نفس المؤمن، وعن روح المحبة في صدر المسلم- شروطاً، فيرى أن المعروف لا يصلح إلا بثلاث خصال: «تصغيره في ستره، وتعجيله، فإن المسلم إذا صغره عظمه عند من صنعه إليه، وإذا ستره تمّمه، فإذا عجله هنأه، وإن كان غير ذلك محقه و نكده» (1).

أما الزكاة فإن الإمام الصادق عليه السّلام فيما استفاض عنه من أخبار يشرح وجوبها و علل فرضها، و يبدأ بمن وجبت عليه ليؤدى ما افترض الله عليه. قال عليه السّلام لعَمَّار بن موسى الساباطي (2): «يا عمار أنت ربّ مال كثير؟» قال: نعم، جعلت فداك.

قال: «فتؤدى ما افترض الله عليك من الزكاة؟» فقال: نعم. قال: «فتخرج الحق المعلوم من مالك؟» قال: نعم. قال: «فتصل قرابتك؟» قال: نعم. قال: «فتصل إخوانك؟» قال: نعم. فقال: «يا عمار إن المال يفنى، و البدن يبلى، و العمل يبقى، و الديان حيّ لا يموت. يا عمّار أما أنه ما قدمت فلم يسبقك، و ما أخّرت فلم يلحقك» (3).

و يبيّن الإمام الصادق علّة فرض الزكاة و وجوبها فيقول: «إنما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء، و معونة للفقراء. و لو أن الناس أدّوا زكاة أموالهم، ما بقى مسلم محتاجاً و لا مستغنى بما فرض الله عز و جل له، و إن الناس ما افتقروا و لا احتاجوا و لا جاعوا و لا عروا إلا بذنوب الأغنياء، و حقيق على الله عز و جل أن يمنع رحمته من منع حق الله في ماله. و أقسم بالذي خلق الخلق و بسط الرزق إنه ما ضاع مال في بر و لا بحر إلا بترك الزكاة، و ما صيد صيد في بر و لا بحر إلا بترك التسييح في ذلك اليوم.

و إن أحب الناس إلى الله عز و جل أسخاهم كفاً، و أسخى الناس من أدّى الزكاة في ماله، و لم ييخل على المؤمنين بما افترض الله عز و جل لهم في ماله...» اهـ.

و عن زرارة (4) و محمد بن مسلم (5) أنهما قالاً لأبي عبد الله عليه السّلام: أ رأيت

ص: 264

1- (1) فروع الكافي ج 4 ص 8. [1]

2- (2) من أصحاب الإمام الصادق و الإمام الكاظم. أخواه قيس و صباح كانوا جميعهم من الثقات.

3- (3) فروع الكافي و [2] من لا يحضره الفقيه للصدوق.

4- (4) زرارة بن أعين الشيباني من أصحاب الإمام الباقر و الصادق قال النجاشي: (شيخ أصحابنا في زمانه و متقدمهم. قد اجتمعت فيه خلال الفضل و الدين) ابنه محمد ثقة روى عنه جماعة.

5- (5) محمد بن مسلم بن رباح أبو جعفر الأوقص الطحّان فقيه ثقة. من أصحاب الباقر و الصادق.

قول الله عز وجل: إِنَّهَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ أَكَلَّ هَؤُلَاءِ يَعْطَىٰ وَإِن كَانَ لَا يَعْرِفُ فَقَالَ: «إِنَّ الْإِمَامَ يَعْطَىٰ هَؤُلَاءَ جَمِيعًا لِأَنَّهُمْ يَقْرُونَ لَهُ بِالطَّاعَةِ». قال زرارة:

قلت: فإن كانوا لا يعرفون؟ فقال: «يا زرارة، لو كان يعطى من يعرف دون من لا يعرف، لم يوجد لها موضع. وإنما يعطى من لا يعرف ليرغب في الدين، فيثبت عليه، فأما اليوم فلا تعطها أنت وأصحابك إلا من يعرف، فمن وجدت من هؤلاء المسلمين عارفاً؛ فأعطه دون الناس» ثم قال: «سهم المؤلفة قلوبهم وسهم الرقاب عام، والباقي خاص» قال:

قلت: فإن لم يوجدوا؟ قال: «لا تكون فريضة فرضها الله عز وجل، ولا يوجد لها أهل» قال: قلت: فإن لم تسعهم الصدقات؟ قال فقال: «إن الله عز وجل فرض للفقراء في مال الأغنياء ما يسعهم، ولو علم أن ذلك لا يسعهم لزادهم، إنهم لم يؤتوا من قبل فريضة الله عز وجل، ولكن أوتوا من قبل من منعهم حقهم، لا - مما فرض الله لهم، ولو أن الناس أدوا حقوقهم لكانوا عائشين بخير، فأما الفقراء فهم أهل الزمانة والحاجة، والمساكين أهل الحاجة من غير الزمانة، والعاملون عليها هم السعاة، وسهم المؤلفة قلوبهم ساقط بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسهم الرقاب يعان به المكاتبون الذين لا مأوى له ولا مسكن، مثل:

المسافر الضعيف ومازَّ الطريق. ولصاحب الزكاة أن يضعها في صنف دون صنف متى لم يجد الأصناف كلها» اهـ.

وعن عمار الساباطي قال: قال لى أبو عبد الله عليه السلام «يا أعمار الصدقة والله في السر أفضل من الصدقة في العلانية، وكذلك والله العبادة في السر أفضل منها في العلانية».

وقال عليه السلام: «إن الصدقة تقضى الدين، وتخلف البركة».

وتضعنا أقوال الإمام الصادق إزاء الغرض الذى يسعى إليه، ويعمل من أجل تحقيقه، وهو صورة المجتمع المسلم الذى تنفذ فيه أحكام الإسلام وتطبق تعاليمه، وهو عليه السلام فى طريقة الدعوة وأسلوب الحث على هدى آبائه الطيبين فى البناء والصياغة، فنراه يقول ليحبب الصدقة ويحفر على التصدق: «إن الصدقة تدفع ميتة السوء عن الإنسان».

ثم يسوق هذه الحادثة: «مرَّ يهودى بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: السام عليك. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: عليك. فقال أصحابه: إنما سلم عليك بالموت؟ قال: الموت عليك. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: كذلك رددت عليه. ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: إن هذا اليهودى يعتصه

أسود (1) في قفاه، فيقتله. قال: فذهب اليهودي، فاحتطب حطبا كثيرا، فاحتمله، ثم لم يلبث أن انصرف. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ضعه. فوضع الحطب، فإذا أسود في جوف الحطب عاص على عود. فقال: يا يهودي ما عملت اليوم؟ قال: ما عملت عملا إلا حطبي هذا احتملته و جئت به و كان معي كعكتان، فأكلت واحدة و تصدقت بواحدة على مسكين. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بها دفع الله عنك» (2).

و من وجوه عمله على سدّ حاجة الفقراء، و ضمان ما يقيم صلبيهم بأداء ما أمر به الله و دعا إليه الإسلام، مخاطبته أصحابه بما يريد منهم أن يفعلوه. و هو عند ما يصدر منه، فإن الأصحاب و المحيطين به ينظرون إلى قوله نظرة الأمر، لأنه إمام مفترض الطاعة، و هم بظل إمامته يتقيئون، و بنهج هداه يعملون، فيخاطبهم عليه السلام: «بكرّوا بالصدقة و رغبوا فيها، فما من مؤمن يتصدق بصدقة يريد بها ما عند الله ليدفع بها عنه شرّ ما ينزل من السماء إلى الأرض في ذلك اليوم، إلا وقاه الله شرّ ما ينزل من السماء إلى الأرض في ذلك اليوم».

و قال عليه السلام: «استنزلوا الرزق بالصدقة، و حصّنوا أموالكم بالزكاة» (3).

و بالإسناد عن أبان بن تغلب أنه (4) أمره أن يقطع الطواف، و يذهب إلى رجل أشار إلى أبان ليرى حاجته. قلت: فأقطع الطواف؟ قال عليه السلام: «نعم» قلت: و إن كان طواف فريضة؟ قال عليه السلام: «نعم».

قال: فذهبت معه، ثم دخلت عليه بعد، فسألته، فقلت: أخبرني عن حق المؤمن على المؤمن؟ قال عليه السلام: «يا أبان، دعه لا تزده». قلت: بلي، جعلت فداك. فلم أزل أردد عليه.

فقال عليه السلام: «يا أبان أن تقاسمه شطر مالك» ثم نظر إلى فرأى ما دخلني، فقال: «يا أبان، أ ما تعلم أن الله عز و جل قد ذكر المؤثرين على أنفسهم؟» قلت: بلي جعلت فداك.

ص: 266

1- (1) الأسود هو العظيم من الحيات.

2- (2) فروع الكافي ج 4 ص 5. [1]

3- (3) حلية الأولياء ج 3 ص 195.

4- (4) أبان بن تغلب الربعي من تلامذة الإمام الصادق و أصحابه المقربين. ذكر له ابن النديم كتاب: معاني القرآن، و القراءات، و كتابا من الأصول على مذهب الشيعة.

فقال: «إذا قاسمته لم تؤثره بعد، إنما أنت و هو سواء، إنما تؤثر إذا أعطيته من النصف الآخر».

ويقول لأصحابه: «إن صدقة الليل تطفئ غضب الرب، وتمحو الذنب العظيم، وتهون الحساب. و صدقة النهار تثمر المال و تزيد في العمر. إن عيسى بن مريم عليه السلام لمّا أن مرّ على شاطئ البحر رمى بقرص من قوته في الماء. فقال له بعض الحواريين: يا روح الله و كلمته لم فعلت هذا و إنما هو من قوتك؟ فقال: فعلت هذا لدابة تأكله من دواب الماء، و ثوابه عند الله عظيم».

و يروى عليه السلام من أحاديث جدّه النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم في ذلك الكثير منها: قال عليه السلام:

«قال رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم: تصدقوا فإن الصدقة تزيد في المال كثرة».

و قال عليه السلام: «قال رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم: إن الله لا إله إلا هو ليدفع بالصدقة الداء و الدبيلة (1) و الحرق و الغرق و الهدم، و عدّ سبعين بابا من السوء».

فكيف يتوانى المسلم عن ثواب ذلك و فوائده الدنيوية و الأخروية و هو يسمع بأذنيه هذه الأحاديث و الأحداث. و يرى أمام عينيه مبادرة الإمام إلى تطبيق تعاليم الإسلام، و مباشرته بنفسه سدّ حاجة الناس. و يراعى الإمام مشاعر الناس، و منهم طائفة ترى في أخذ الزكاة حطا من مكائنها، و تخجل أن يكون قبولها إمارة عوز و فقر، فأمر عليه السلام أن يعطى من يستحيى، و لا تسمّ له الزكاة لكي لا يذلّ المؤمن.

و قال عليه السلام: «لو يعلم السائل ما عليه من الوزر، ما سأل أحد أحدا. و لو يعلم المسئول إذا منع، ما منع أحد أحدا» (2).

و نضع آخر قيس من سيرته الكريمة عليه أفضل الصلاة و السلام أمام القارئ الكريم، و فيها جوامع النظرة و مضامين الفكرة. فعن المعلى بن خنيس (3) قال: قلت للإمام الصادق عليه السلام: ما حق المسلم على المسلم؟ قال: «سبع حقوق و واجبات،

ص: 267

1- (1) الدبيلة: الداهية. في الصحاح: هي مصغرة للتكبير يقال (دبلتهم الدبيلة) أي أصابتهم الداهية.

2- (2) فروع الكافي. [1]

3- (3) أبو عبد الله مولى الإمام الصادق، كان مولى لبنى أسد في الكوفة. قتله داود بن علي والي المدينة، فغضب الإمام الصادق و دعا على داود بن علي، فما أستتم دعاءه عليه السلام حتى سمعت الصيحة في دار داود.

ما منهنَّ حقٌّ إلاّ وهو عليه واجب، إن ضيِّع منها شيئاً خرج من ولاية الله و طاعته، ولم يكن لله فيه من نصيب» قلت له: جعلت فداك و ما هي؟ قال: «يا معلّى إني عليك شفيق، أخاف أن تضيِّع و لا تحفظ، و تعلم و لا تعمل» قال قلت له: لا قوة إلا بالله.

قال: «أيسر حق منها أن تحبّ له ما تحبّ لنفسك، و تكره له ما تكره لنفسك. الحق الثاني: أن تجتنب سخطه، و تتبع مرضاته، و تطيع أمره. و الحق الثالث: أن تعينه بنفسك و مالك و لسانك و يدك و رجلك. و الحق الرابع: أن تكون عينه و دليله و مرآته.

و الحق الخامس: أن لا تشبع و يجوع، و لا تروى و يظمأ، و لا تلبس و يعرى. و الحق السادس: أن يكون لك خادم و ليس لأخيك خادم، فواجب أن تبعث خادمك، فيغسل ثيابه، و يصنع طعامه، و يمهد فراشه. و الحق السابع: أن تبرّ قسمه، و تجيب دعوته، و تعود مريضه، و تشهد جنازته، و إذا علمت أن له حاجة تبادر إلى قضائها، و لا تلجأ أن يسألها، و لكن تبادره مبادرة. فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته و ولايتي بولايتك».

و نختم ما يحتمله و سع هذا الفصل بالإشارة إلى تصدّي الإمام الصادق إلى تحقيق هذه الجوانب الحياتية التي تستمد من العقيدة بشعور الزعامة الروحية و قيادة شئون تنفيذ هذه التعاليم، فهو عليه السّلام جعل أمر الحاجة عند المؤمن و مساعدة الضعفاء منهم خاصاً به و شأننا يمسه.

كان عنده جماعة من أصحابه، فقال لهم: «مالكم تستخفون بنا؟» فقام إليه رجل من أهل خراسان فقال: معاذ الله أن نستخفّ بك أو بشيء من أمرك.

فقال: «إنك أحد من استخفّ بي».

فقال الرجل: معاذ الله أن أستخفّ بك.

فقال عليه السّلام: «ويحك ألم تسمع فلانا- و نحن بقرب الجحفة- و هو يقول لك:

احملني قدر ميل، فقد و الله أعيب. فو الله ما رفعت له رأساً، لقد استخففت به، و من استخفّ بمؤمن فبنا استخفّ، و ضيِّع حرمة الله عز و جل».

و بذلك يجعل عليه السّلام إعانة المؤمن و مساعدة الضعيف على اختلاف و جوههما و أحوالهما متصلاً بمنزلته عليه السّلام، و استخدامه لصيغة الجمع تأكيد لعظيم هذا الجانب من حياة المجتمع، و خطر هذا الوجه من العلاقات بين المؤمنين.

وإلى هنا نكتفى بما قدمناه من قبسات من سيرة الإمام الصادق، ونظرة سريعة إلى ظروف عصره وأحداثه، فقد ضُمَّت الأجزاء السابقة من الكتاب مزيداً من البحث وبسطنا فيه القول.

ونتحول الآن إلى مدرسة الإمام الصادق عليه السلام لنقف على الجهود العلمية التي بذلها عليه السلام ونتعرف على تفاصيل أخرى عن منهج هذه الجامعة الإسلامية الكبرى التي أمها علماء الأمة من مختلف الأقطار، وتعلمذ فيها كبار الأئمة، وهي المأثرة العظيمة والمفخرة الكبرى التي تدلل بآثارها ونتائج أعمالها على دور الإمام الصادق في حفظ التراث العلمي الإسلامي وإغنائه.

ص: 269



تتظافر الروايات على أن عدد الذين تتلمذوا على الإمام الصادق وانتسبوا إلى مدرسته هو أربعة آلاف طالب من مختلف الأقطار، فقد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة عنهم من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات فكانوا كذلك، فقد كان عليه السلام أفضل أهل زمانه، وبرز على أقرانه بالفضل والسؤدد في الخاصة والعامة، ونقل الناس عنه من العلوم ما لم ينقل عن أحد من أهل بيته (1).

كان الصادق عليه السلام أفضل الناس وأعلمهم بدين الله، وكان أهل العلم الذين سمعوا منه إذا رووا عنه قالوا: أخبرنا العالم (2). قال أبو الحسن الوشاء: (أدرت في جامع الكوفة تسعمائة شيخ من أهل الدين والورع كلهم يقول: حدثني جعفر الصادق). وقد كانت الكوفة و المدينة تضمّان أكبر عدد من هؤلاء لانتشار التشيع في الكوفة. ولأن المدينة كانت أرض تكوين ومهد دعوته.

ولا نجد من يجراً على إنكار مكانة الإمام الصادق في زمانه وزعامته في ذلك العصر، وقد عودتنا الأيام أن يكابر الكثيرون ويعاند العديدون استجداء للحكام واتباعاً للأهواء والأحقاد، لأن الحقائق كانت تتمع ما تطويه دخائلهم وتضمّه جوانحهم، فقد كان بيته ومجلسه عليه السلام يزدحمان بطلبة العلم وأهل الفقه، يقبلون على الإمام للانتهاج من معين علمه وحكمته، حتى أن الروايات تصف ضيق داره لعظم الوفود والعلماء من مختلف الأقطار، حتى صعب على أصحابه أن يجدوا لهم مجلساً.

ص: 271

1- (1) روضة الواعظين للفتال النيسابوري ج 1 ص 207.

2- (2) تاريخ ابن واضح ج 3 ص 115.



ولم يعرف لأحد غيره مثل هذه الشهرة. فقد كان تلاميذه من العراق ومصر وخراسان وحمص والشام وحضرموت وغيرها.

وقد تصدّر الإمام الصادق حركة المجتمع بجدارة، وتزعم الحركة العلمية بتفرد، فقد (نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته في جميع البلدان) (1). وكان ينذر نفسه لهذه الأغراض، ويتوجه إلى الناس قائلاً: «سلوني قبل أن تفقدوني، فإنه لا يحدثكم أحد بعدى بمثل حديثي» (2). ولذلك: (روى حديثه خلق لا يحصون) (3). وانتشر فقهه في الآفاق، وإذا استعصى الحصر وصعب العدّ لتحديد كل من روى عنه عليه السلام فإن الأربعة آلاف كانوا المتميزين، وإلا فإن الصورة التي لا تقبل الممارسة هي شيوع ذكره بين سائر الناس وعلوّ مكانته في نفوس المسلمين على مختلف أصنافهم وأجناسهم. وعلى ذلك فلا يستغرب أن يعجز الكثير عن إحصاء كل من نقل عنه أو روى حديثه عليه السلام.

ثم حلقات فقهه من أصحابه وتلاميذه المقرّبين وعددهم أربعمئة ممن نبهوا في العلوم وعرفوا بالفقه، وهم رجال مدرسته وهيئتها العلمية الذين اختصوا بفقه الإمام الصادق، وكانوا من العدالة والثقة بمكان لا ترقى إليه سهام الحقد والحسد، وقد ألقوا في فقه الإمام جعفر الصادق والرواية عنه أربعمئة كتاب، وهي الأصول الفقهية للمذهب الجعفري (4).

وقد تحرّى الإمام الصادق كفاءة الأصحاب وقدرات المتعلّقين به، ووجّه كلاهما إلى حيث العمل الذي يتفق ومواهبه وينسجم مع استعداداه، فكان البعض منهم مختصاً بتنفيذ التعاليم التي تتعلق بواقع الأسر والأفراد، أو تتصل بالظواهر الاجتماعية والعلاقات. وقد مرّ بنا طرف من هذه المهمات التي توكل إليهم في الفصل السابق والأجزاء السابقة من الكتاب.

أما الناحية الفكرية-التي تمثل منهج مدرسته- فقد عيّن الإمام الصادق من بين

ص: 272

1- (1) الصواعق المحرقة لابن حجر ص 120. [1]

2- (2) تذكرة الحفاظ للذهبي ج 1 ص 157.

3- (3) خلاصة تذهيب الكمال للخزرجي ص 54.

4- (4) انظر التراجم والبحوث الخاصة بهم في الجزء الثالث والرابع.

هيئة المدرسة العلمية الرجال الذين توكل إليهم المهمات. و تسند شئون المنهج و تطبيقاته، و هي تتجه إلى الأهداف التالية:

1-مناظرة أهل العقائد الفاسدة.

2-محاربة أهل الألحاد و الزندقة.

3-محاورة أهل الكتاب.

4-مواجهة الفرق الشاذة.

5-مقاتلة الظلمة بشدة الإنكار عليهم و توجيه الانتقاد إليهم و فضح سياساتهم.

فجعل أبان بن تغلب للفقه، و أمره أن يجلس في المسجد فيفتي الناس. و كان أبان بن تغلب من الشخصيات الإسلامية التي امتازت بانتقاد الذهن و وفور العقل و بعد الغور، و الاختصاص بعلوم القرآن، و هو أول من ألف في ذلك، و كان فقيها يزدهم الناس على أخذ الفقه عنه، و إذا دخل مسجد المدينة المنورة أخليت له سارية النبي صلى الله عليه و آله و سلم فيحدث الناس، و يسألونه فيخبرهم على اختلاف الأقوال، ثم يذكر قول أهل البيت، و يسوق أدلته و مناقشته على طريقة الإمام الصادق عليه السلام في الإجابة، إذ كان عليه السلام أعلم الناس باختلاف الناس و أفقهم (1).

و كل لحمران بن أعين الأجوبة عن مسائل علوم القرآن. و قد كان أحد حملة القرآن، و ممن يحتج بهم في القراءات، فهو من القراء المشهورين، و ممن يعد و يذكر في كتب القراءة، و كان عالما بالنحو و اللغة، و هو من عائلة مشهورة في الكوفة و لهم منزلة. و أخوه زرارة- و قد مرت الإشارة إليه في آخر الفصل السابق- أو كل إليه المناظرة في الفقه تحت إشراف الإمام الصادق و توجيهه.

و مؤمن الطاق كان للمساجلة في الكلام. و حمزة بن الطيار للمناظرة في الاستطاعة و غيرها. و هشام بن الحكم للمناظرة في الإمامة و العقائد. و كان منهم جماعة يتجولون في الأمصار، أمدهم الإمام بالأموال.

و تظهر لنا شهادات التاريخ بحق الرجال مكانة الإمام الصادق، و اتجاه الأنظار إليه، و اختلاف الناس إلى مجلسه على اختلاف أغراضهم و مقاصدهم. كذلك تبين لنا المصادر أسلوب الإمام و منهجه و توزيع المهمات على أصحابه و الإشراف على ما

ص: 273

1- (1) انظر مناقب أبي حنيفة للمكي ج 1 ص 173. و جامع مسانيد أبي حنيفة لقاضي القضاة الخوارزمي ج 1 ص 222-223.

يدور في حلقات درسهم و مجالس مناظراتهم.

ورد رجل من أهل الشام، فاستأذن على الإمام الصادق، وكان معه جماعة من أصحابه، فأذن له. فلما دخل سلم. فأمره أبو عبد الله عليه السلام بالجلوس ثم قال له:

«حاجتك؟» قال: بلغني أنك عالم بكل ما تسأل عنه، فصرت إليك لأناظرک.

فقال عليه السلام: «فيما ذا؟» قال: في القرآن و قطعه و خفضه و نصبه و رفعه.

فقال عليه السلام: «يا حمران دونك الرجل».

فقال: إنما أريدك لا حمران.

فقال عليه السلام: «إن غلبت حمران فقد غلبتني».

فأقبل الشامي فسأل حمران حتى ضجر و ملّ، و حمران يجيبه.

فقال عليه السلام: «كيف رأيتك يا شامي؟» قال: رأيتك حاذقا، ما سألتك عن شيء إلا أجابني فيه.

فقال عليه السلام: «يا حمران سل الشامي» فما تركه يكثر.

فقال الشامي: أريد يا أبا عبد الله أن أناظرک في العربية.

فقال عليه السلام: «يا أبان بن تغلب ناظره» فناظره فما ترك الشامي يكثر.

قال الشامي: أريد أن أناظرک في الكلام.

قال عليه السلام: «يا مؤمن الطاق ناظره» فسجل الكلام بينهما. ثم تكلم مؤمن الطاق بكلام، فغلبه.

فقال الشامي: أريد أن أناظرک في الاستطاعة.

فقال عليه السلام للطيار: «كلمه فيها».

فكلمه، فما تركه يكثر.

فقال الشامي: أريد أن أکلمک في التوحيد.

فقال عليه السلام لهشام بن سالم: «كلمه».

فسجل الكلام بينهما، ثم خصمه هشام.

قال الشامي: أريد أن أناظرک فی الفقه.

فقال عليه السلام: «يا زرارۃ ناظره». فما ترک الشامی یكثر.

ص: 274

قال الشامي: أريد أن أناظرک فی الإمامة.

فقال عليه السلام لهشام بن الحكم: «كلمه يا أبا الحكم» فكلمه فما تركه يديم.

فقال الشامي: كأنك أردت أن تخبرني أن في شيعتك مثل هؤلاء الرجال.

فقال عليه السلام: «هو ذاك... يا أخا أهل الشام، أمّا حمران فحرفك، فحرت له، فغلبك بلسانه، فسألك عن حرف الحق، فلم تعرفه.

و أما زرارة فقاسك، فغلب قياسه قياسك.

و أما هشام بن الحكم فتكلم بالحق، فما سوّغك ريقك.

يا أخا أهل الشام، إن الله تعالى أخذ ضغثا من الحق وضغثا من الباطل فمغثهما، ثم أخرجهما إلى الناس. ثم بعث أنبياء يفرّقون بينهما. ففرقتهما الأنبياء والأوصياء، فبعث الأنبياء ليعرفوا ذلك، وجعل الأنبياء قبل الأوصياء ليعلم الناس من يفضل الله و من يختص. ولو كان الحق على حدة و الباطل على حدة كل واحد منهما قائم بنفسه، ما احتاج الناس إلى نبي و لا وصي، و لكن الله خلطهما و جعل تفريقهما إلى الأنبياء و الأئمة من عباده».

فقال الشامي: قد أفلح من جالسك.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلّم كان يجالسه جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل، فيصعد إلى السماء فيأتيه الخبر من عند الجبار، و إن كان ذلك كذلك فهو كذلك» (1).

و عن يونس بن يعقوب قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فورد عليه رجل من أهل الشام فقال له: إني رجل صاحب كلام و فقه و فرائض، و قد جئت لمناظرة أصحابك. فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «كلامك هذا من كلام رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلّم أو من عندك؟» فقال: من كلام رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلّم بعضه، و من عندي بعضه. فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «فأنت إذن شريك رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلّم؟» قال: لا. قال: «فسمعت الوحي من الله؟» قال: لا. قال: «فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلّم؟» قال: لا. قال: فالتفت أبو عبد الله عليه السلام إليّ، فقال لي: «يا يونس بن يعقوب، هذا قد خصم نفسه قبل أن يتكلم». ثم قال: «يا يونس لو كنت تحسن الكلام كلمته». قال

ص: 275

يونس: فيا لها من حسرة. فقلت: جعلت فداك سمعتك تنهى عن الكلام و تقول:

«ويل لأصحاب الكلام يقولون هذا ينقاد و هذا لا ينقاد، و هذا ينساق و هذا لا ينساق، و هذا نعقله و هذا لا نعقله؟» فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إنما قلت: ويل لقوم تركوا قولى، و ذهبوا إلى ما يريدون به». ثم قال: «أخرج إلى الباب فانظر من ترى من المتكلمين فأدخله». قال: فخرجت، فوجدت حمران بن أعين - و كان يحسن الكلام - و محمد بن النعمان الأحمول (مؤمن الطاق) و كان متكلماً، و هشام بن سالم، و قيس الماصر - و كانا متكلمين - فأدخلتهم عليه، فلما استقرّ بنا المجلس كُنّا في خيمة لأبي عبد الله عليه السلام على حرف جبل في طرف الحرم، و ذلك قبل أيام الحج بأيام، أخرج أبو عبد الله عليه السلام رأسه من الخيمة، فإذا هو ببيعر يخبّ فقال: «هشام و رب الكعبة». قال: فظننا أن هشاماً رجل من ولد عقيل، كان شديد المحبة لأبي عبد الله عليه السلام، فإذا هشام بن الحكم قد ورد و هو أول ما اختطت لحيته، و ليس فينا إلا - من هو أكبر سنّاً منه، قال: فوسّع له أبو عبد الله عليه السلام و قال: «ناصرنا بقلبه و لسانه و يده» ثم قال لحمران: «كلم الرجل» - يعنى الشامى - فكلمه حمران، فظهر عليه.

ثم قال: «يا طاقى كلمه». فكلمه، فظهر عليه محمد بن النعمان.

ثم قال: «يا هشام بن سالم» كلمه، فتعاديا.

ثم قال لقيس الماصر: «كلمه» فكلمه.

و أقبل أبو عبد الله عليه السلام بيتهم من كلامهما، و قد استخذل الشامى فى يده، ثم قال للشامى: «كلم هذا الغلام» - يعنى هشام بن الحكم - فقال: نعم. ثم قال الشامى لهشام: يا غلام سلنى فى إمامة هذا - يعنى أبا عبد الله عليه السلام - فغضب هشام حتى ارتعد، ثم قال له: أخبرنى يا هذا أربك أنظر لخلقه أم هم لأنفسهم؟ فقال الشامى: بل ربي أنظر لخلقة.

قال: ففعل بنظره لهم فى دينهم ما ذا؟ قال: كلّفهم و أقام لهم حجة و دليلاً على ما كلّفهم، و أزاح فى ذلك عللهم.

فقال له هشام: فما هذا الدليل الذى نصبه لهم.

قال الشامى: هو رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم.

قال له هشام: فبعد رسول الله من؟

قال: الكتاب و السنة.

قال له هشام: فهل ينفعنا اليوم الكتاب و السنة فيما اختلفنا حتى يرفع عنا الاختلاف و مكننا من الاتفاق؟ قال الشامي: نعم.

قال له هشام: فلم اختلفنا نحن و أنت، و جئنا من الشام تخالفنا، و تزعم أن الرأي طريق الدين، و أنت تقر بأن الرأي لا يجمع على القول الواحد المختلفين.

فسكت الشامي كالمفكر، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «مالك لا تتكلم».

قال: إن قلت أنّما اختلفنا كبرت، و إن قلت أن الكتاب و السنة يرفعان عنا الاختلاف أبطلت، لأنهما يحتملان الوجه، و لكن لى عليه مثل ذلك.

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «سله تجده مليئا».

فقال الشامي لهشام: من أنظر للخلق ربهم أو أنفسهم.

فقال هشام: بل ربهم أنظر لهم.

فقال الشامي: فهل أقام لهم من يجمع كلمتهم و يرفع اختلافهم، و يعين لهم حقهم من باطلهم؟ قال هشام: نعم.

قال الشامي: من هو؟ قال هشام: أمّا فى ابتداء الشريعة فرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و أما بعد النبى صلى الله عليه و آله و سلم فغيره.

قال الشامي: و من هو غير النبى صلى الله عليه و آله و سلم القائم مقامه فى حجته.

قال هشام: فى وقتنا هذا أم قبله؟ قال الشامي: بل فى وقتنا هذا.

قال هشام: هذا الجالس -يعنى أبا عبد الله عليه السلام- الذى تشدّ إليه الرحال، و يخبرنا بأخبار السماء، و راثة عن أب عن جدّ.

قال الشامي: و كيف لى بعلم ذلك؟ قال هشام: سله عما بدا لك.

قال الشامي: قطعت عذرى فعلى السؤال.

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «أنا أكفيك المسألة يا شامى، أخبرك عن مسيرك و سفرك: خرجت يوم كذا، و كان طريقك كذا، و مررت على كذا، و مرّ بك كذا».

فأقبل الشامي كلما وصف له شيئا من أمره يقول: صدقت والله. ثم قال له الشامي: أسلمت لله الساعة. فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «بل آمنت بالله الساعة، إن الإسلام قبل الإيمان، وعليه يتوارثون ويتناحون، والإيمان عليه يثابون».

قال الشامي: صدقت، فأنا الساعة أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنك وصي الأوصياء.

قال: وأقبل أبو عبد الله على حمران فقال: «يا حمران تجرى الكلام على الأثر، فتصيب» فالتفت إلى هشام بن سالم فقال «تريد الأثر ولا تعرف» ثم التفت إلى الأحول (مؤمن الطاق) فقال: «قياس رواق».

ثم التفت إلى قيس الماصر فقال: «تتكلم وأقرب ما تكون من الحق والخبر عن الرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم...» وقليل الحق يكفى من كثير الباطل، أنت والأحوال قفازان حاذقان.

قال يونس بن يعقوب: فظننت والله أنه يقول لهشام قريبا مما قال لهما. فقال:

«يا هشام لا تكاد تقع تلوى رجلك، إذا هممت بالأرض طرت، مثلك فليكلّم الناس، اتق الله الزلّة والشفاعة من ورائك» (1).

ويّضح جليا أن وقوع هذه المناظرة وما تشتمل عليه من ملاحظات الإمام الصادق عليه السلام كان في مبدأ نهوض مدرسة الإمام الصادق بخطتها وتنفيذ نهجها، فإن الإشارة إلى عمر هشام تدلّ على أول خطوات المدرسة على طريق العمل العلمي والفكري الشاق. إذ ينبغي أن نتخيل أحوال تلك الفترة وما اعتري الأمة الإسلامية على مختلف المستويات، فإن النهضة العلمية والنشاط الفكري خلق موجات من الجدل وتيارات من الكلام لم تخضع لحدود، لأن الحكام من العهدين كانوا يشجعون ألوان النشاط الفكري المتعددة لأغراض تتعلق بمصلحتهم، فما ينجم من تفوق الفكر الإسلامي وامتداد الحركة العلمية، يدخل في إهاب دولتهم وينطبع بطابعهم. ولما بدأ الإمام الصادق سيرته الشريفة بعد توليه الإمامة جرّد كل ما يستطيع لمعالجة ما يعاني من المجتمع الإسلام وما يتهدد أمة جده المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، وباشر المنهج الروحي والفكري المعروف عن أهل البيت، ووضع له قواعد من العمل

ص: 278



وأركاننا. وكان من أهم صفات منهج المدرسة وكلما يتعلق بها من وسائل مادية ومعنوية هو الاستقلال التام عن السلطة والابتعاد عن مؤثراتها. فرأسها الإمام الصادق عليه السلام، وموقف الحكام منه معروف، وموقفه من ظلمهم وبطشهم من أبرز ملامح تاريخ الشيعة في تلك الفترة. أما رجال هذه المدرسة فهم أنصار أهل البيت، ومن عرفوا بالولاء والتضحية في سبيل الشيع، فتعاهدتهم الإمام بإعداد شامل وتوجيه مباشر، حتى يكونوا بمستوى ما يعهد لهم من مهمات ويوكل إليهم من أعمال، وكان نصب عينيه أن يكونوا الأسوة والقادة، وأن يقال عنهم: «رحم الله جعفر بن محمد ما أحسن ما أدب به أصحابه».

وبمرور الأيام، نجد أن رجال المدرسة-أو من سميّناهم بالهيئة العلمية- يتبوؤن مواقعهم بكفاءة عالية، وتمكن باهر. ولأن الإمام الصادق علم استعداد كل منهم ورعى مواهبهم فوجهها إلى ما يجلو فيها القدرة ويصقل الإمكانية، ونتج من ذلك مجموعة من كبار العلماء الذين خدموا الأمة الإسلامية كمجاهدين تحت عين الإمام الصادق، وعكفوا على حفظ تراثه الفقهي وثروته العلمية في كتب ضمت المسائل والأحكام والتعاليم والأحاديث يفتخر بها الفكر الإسلامي، ويعتز بها الشيعة.

ويتباهون، لأن دقائق المسائل وغنى الأحكام ووضوح البراهين والحجج، وبيان العلل وحكمة التشريع؛ تجعل الفقه الجعفري وعاء العلم الإسلامي، ومن الطبيعي جدا أن تأخذ بعض الحكومات بأحكام الفقه الجعفري لمعالجة بعض المسائل التي تتعلق بأحوال الأفراد لما فيها من رعاية لمصالح الناس ورفع الحرج عنهم، كما فعلت الحكومة المصرية. وكم بين الناس من يلجأ إلى اعتناق المذهب الجعفري منقادا إلى روح العدل والصواب.

والقصد، أن تعقيب الإمام الصادق على اتجاه أصحابه في المحاور والمناظرة كان على سبيل بلوغ ما يرجوه وما يسعى إلى تحقيقه بواسطتهم من خلال تبني المنهج بطرق للحوار والاستدلال عميقة ومؤثرة. وهو من ناحية أخرى يعدّهم بوصاياهم فيقول:

«لا تتكلم فيما لا يعينك، ودع كثيرا من الكلام فيما يعينك حتى تجد له موضعا، فربّ متكلم تكلم بالحق بما يعنيه في غير موضعه فتعب. ولا تمارين سفيها ولا حليما، فإن الحلیم يغلبك والسفيه يرديك».

ومن أقواله عليه السلام التي توضح منهج مدرسته وأسس حركتها العلمية: «دعامة

الإنسان العقل، وبالعقل يكمل، وهو دليله و مبصره و مفتاح أمره».

و يبين عليه السلام أصناف طلبية العلم قائلا:

«طلبية العلم على ثلاثة أصناف، فاعرفهم بأعيانهم و صفاتهم: صنف يطلبه للجهل و المرء، و صنف يطلبه للاستطالة و الختل، و صنف يطلبه للفقه و العقل.

فصاحب الجهل و المرء متعرض للمقال في أندية الرجال، يتذاكر العلم و صفة الحلم، قد تسربل بالخشوع، و تخلى عن الورع، فدق الله من هذه خيشومه.

و صاحب الاستطالة و الختل ذو خب (1) و ملق، يستطيل على مثله من أشباهه، و يتواضع للأغنياء من دونه.

و صاحب الفقه و العقل ذو كآبة و حزن، يعمل و يخشى، و جلا داعيا مشفقا على شأنه، عارفا بأهل زمانه، مستوحشا من أوثق إخوانه».

و مما أوضحه الإمام الصادق عليه السلام من خصائص منهجه، هو اعتماد العقل مع وجوه ما قام به من حركة علمية و اقتران صفاتها العامة به، و قد كان لذلك أثره في تجنب المزالق التي يحدثها القياس الذي على الرأي الذي ينزع كثيرا إلى الهوى و الميل. أما العقل فهو من صفات الاكتمال في شخصية المؤمن، و من مصادر دوام الشرائع و الأحكام. و كبقية القضايا المهمة في وجود الإنسان المسلم، يعرض الإمام الصادق منزلة العقل: فعن محمد بن سليمان عن أبيه قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: فلان من عبادة و دينه و فضله كذا و كذا؟ قال: فقال: «كيف عقله؟» فقلت: لا أدري. فقال: «إن الثواب على قدر العقل. إن رجلا من بنى إسرائيل كان يعبد الله عز و جل في جزيرة من جزائر البحر، خضراء نضرة كثيرة الشجر طاهرة الماء، و إن ملكا من الملائكة مرّ به فقال: يا رب أرني ثواب عبدك هذا. فأراه الله عز و جل ذلك. فاستقله الملك، فأوحى الله عز و جل إليه أن أصحابه. فأتاه الملك في صورة أنسى، فقال له: من أنت؟ قال: أنا رجل عابد، بلغنا مكانك و عبادتك بهذا المكان، فجئت لأعبد معك. فكان معه يومه ذلك، فلما أصبح قال له الملك: إن مكانك لنزهة. قال: ليت لربنا حمار لرعيناه في هذا الموضع، فإن هذا الحشيش

ص: 280

1- (1) الخبّ: الخداع.

يضيع. فقال له الملك: وما لربك حمار؟ فقال: لو كان له حمار ما كان يضيع مثل هذا الحشيش. فأوحى الله عز وجل إلى الملك: إنما أئيبه على قدر عقله» (1).

بهذا المنهج سعى الإمام الصادق إلى إغناء واقع الأمة، وحملها على الالتزام بالمنهج الإسلامي والسنة النبوية الشريفة، فقد أثر عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له». وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «سيد الأعمال في الدارين العقل، وكل شيء دعامة، ودعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته لربه».

ويوضح الإمام الصادق للناس نعمة العقل قائلا: «إذا أراد الله أن يزيل من عبد نعمة كان أول ما يغيّر منه عقله».

ويقول عليه السلام: «كمال العقل في ثلاث: التواضع لله، وحسن اليقين، والصمت إلا من خير» عليه السلام وفي مقابله يضع عليه السلام «الجهل ويقول: الجهل في ثلاث: الكبر وشدة المراء والجهل بالله. فأولئك هم الخاسرون».

وما يتعلق بالمختصين من هيئة مدرسته، فإن صياغة أقواله عليه السلام تقي بالغاية والغرض فيقول: «يغوص العقل على الكلام، فيستخرجه من مكنون الصدر، كما يغوص الغائص على اللؤلؤ المستكنة في البحر» وإن «العاقل إن كَلَّمَ أجاب، وإن نطق أصاب. وإن سمع وعى».

ويقيد الإمام الصادق السلوك المتعلق بالمنهج بالعقل فيقول: «التودّد نصف العقل». ويخاطب رجال مدرسته بأن لا يتقلوا على الناس، ولا ينفروهم، وأن يترفقوا بهم، ويسهلوا لهم المداخل. ويقول لهم: «فرغبوا الناس في دينكم، وفيما أنتم فيه».

ويراجعه الأصحاب فيما يهّمهم من شئون عملهم في تطبيق المنهج. فعن إسحاق قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الرجل آتية أكلمه ببعض كلامي فيعرفه كله، ومنهم من آتية فأكلمه بالكلام فيستوفي كلامي كله ثم يردّه عليّ كما كلمته، ومنهم من آتية فأكلمه فيقول: أعد عليّ؟ فقال: «يا إسحاق، أو ما تدري لم هذا؟» قلت: لا. قال: «الذي تكلمه ببعض كلامك فيعرف كله، فذاك من عجت نطفته بعقله. وأما الذي تكلمه، فيستوفي كلامك: ثم يجيبك على كلامك؛ فذاك الذي ركب عقله في بطن أمه. وأما الذي تكلمه بالكلام فيقول: أعد عليّ. فذاك الذي ركب عقله فيه بعد ما كبر. فهو يقول: أعد عليّ».

ص: 281

و يتكفل الإمام الصادق ببيانه و حكمة أقواله إيضاح أهم الخصائص في خطة العمل و الدعوة فيقول عليه السّلام: «العاقل من كان ذلولاً عند إجابة الحق، منصفاً بقوله، جموحاً عند الباطل، خصماً بقوله، يترك دنياه و لا يترك دينه. و دليل العاقل شيئان:

صدق القول و صواب الفعل. و العاقل لا يتحدث بما ينكره العقل، و لا يتعرّض للتهمة، و لا يدع مداراة من ابتلى به، و يكون العلم دليله في أعماله، و الحلم رفيقه في أحواله، و المعرفة تعينه في مذاهبه. و الهوى عدو العقل، و مخالف الحق، و قرين الباطل».

أما إذا أردنا أن نعلم ما هو الطريق إلى تحصيل هذه الملكة، و رعاية هذه النعمة، فإن الإمام الصادق عليه السّلام يجيبنا بوجيز قول و عظيم معنى يغنى عن كل سؤال فيقول: «كثرة النظر في العلم تفتح العقل».

و لأن الإمام الصادق هو عالم الأمة و صاحب الولاية الشرعية، فقد أقبل عليه الأصحاب فيما يهتمهم و يشغل بالهم، و عرضوا عليه المسائل التي يكثر فيها الجدل، و قصده الكثير للتخلص من الحيرة و الغموض. و كان الإمام الصادق يعلم ما يدور في زوايا المجتمع من محاورات و أحاديث تسبب ارتباكاً و اضطراباً، فانفتح على الناس قائلاً: «سلوني قبل أن تفقدوني» فأقبل الناس عليه من مختلف الطبقات و المراتب، و كانوا يجدون عنده علماً غزيراً، و خلقاً يعجز المرء عن وصفه. لأن شخصية في علمها و ورعها كشخصية الإمام الصادق لا يقارن بها معاصروه، إنما هناك صور للرعاية الإلهية و الحكمة العليا في خصال الإمام الصادق عليه السّلام و علمه و تقاه. فحلمه يسع جميع ضروب أهل الأهواء و المقالات و الجدل، و علمه يفيض على كل سائل و طالب علم، حتى فرض على الحدّاق من المتكلمين و الزنادقة و الملحدين و اضطّرهم إلى الإذعان ليشهدوا: (إنه الحلیم الرزین العاقل الرصین، لا يعتريه خرق و لا طيش و لا نرف، يسمع كلامنا و يصغى إلينا، و يستعرف حجّتنا، حتى إذا استفرغنا ما عندنا، و ظننا أننا قد قطعناه؛ أدحض حجّتنا بكلام يسير و خطاب قصير، يلزمنا به الحجة.

و يقطع العذر، و لا نستطيع لجوابه رداً).

سأله أبو حمزة عما يقال من أن الله جسم.

فقال عليه السّلام: «سبحان من لا يعلم أحد كيف هو إلا هو، ليس كمثله شيء

وهو السميع البصير، لا يحَدُّ، ولا يحسُّ، ولا تدركه الحواس، ولا يحيط به شيء ولا جسم ولا تخطيط ولا تحديد)).

ودخل عليه نافع بن الأزرق فقال: يا أبا عبد الله، أخبرني متى كان الله؟ فقال عليه السلام: «متى لم يكن حتى أخبرك متى كان، سبحانه من لم يزل ولا يزال فردا صمدا لم يتخذ صحابة ولا ولدا».

وقال ابن أبي يعفور: سألت أبا عبد الله عن قول الله: هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ فقلت: أما الأول فقد عرفناه، وأما الآخر فبيّن لنا تفسيره.

فقال عليه السلام: «إنه ليس شيء يبىء أو يتغير ويدخل التغيير والزوال والانتقال من لون إلى لون أو من هيئة إلى هيئة، ومن صفة إلى صفة، ومن زيادة إلى نقصان، ومن نقصان إلى زيادة، إلا رب العالمين. فإنه لم يزل ولا يزال بحالة واحدة، وهو الأول قبل كل شيء على ما لم يزل، لا تختلف عليه الصفات والأسماء» (1).

فإن أردنا التعرف على الآثار اللاحقة في طرق مناظرة أصحاب الإمام الصادق، وكيف استقرّ ما رعاه الإمام وعمل على تحقيقه في وسائل الحجاج وطرق محاوراة أهل الأهواء والفرق والأديان، نلمسها واضحة في أقوالهم ومنطق تعرّضهم.

اجتمع هشام بن الحكم في إحدى رحلاته إلى البصرة بعمر بن عبيد المتوفى سنة 144 هـ وهو من شيوخ المعتزلة، و تناظرا في الإمامة. و كان عمرو يذهب إلى أن الإمامة اختيار من الأمة في سائر الأعصار. وهشام يذهب إلى أنها نص من الله ورسوله على بن أبي طالب و على من يلي عصره من ولده الطاهرين.

فقال هشام لعمر بن عبيد: أليس قد جعل لك عينين.

قال: بلى.

قال: ولم؟ قال: لأنظر بهما في ملكوت السماوات والأرض فأعتبر.

قال: فلم جعل لك سمعا؟ قال: لأسمع به التحليل والتحريم والأمر والنهي.

ص: 283

قال: فلم جعل لك فما؟ قال: لأذوق المطعوم، وأجيب الداعى.

ثم عدّد الحواس كلها.

قال: و لم جعل لك قلباً؟ قال: لتؤدى إليه الحواس ما أدركته، فيميّز بين مضارّها و منافعها.

قال هشام: فكان يجوز أن يخلق الله سائر حواسك، و لا يخلق لك قلباً تؤدى هذه الحواس إليه؟ قال عمرو: لا.

قال: و لم؟ قال: لأن القلب باعث لهذه الحواس على ما يصلح لها.

فقال هشام: يا أبا مروان-يعنى عمرو- إن الله تبارك و تعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً يصحح لها الصحيح، و يترك هذا الخلق كله لا يقيم لهم إماماً يرجعون إليه؟! قال المسعودى: فتحيّر عمرو، و لم يأت بفرق يعرف (1).

و عن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام قال: دخل عمرو بن عبيد البصرى على أبى عبد الله عليه السلام فلما سلّم و جلس عنده تلا هذه الآية قوله تعالى: الَّذِينَ يَجْتَبِئُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوَاحِشِ ثُمَّ أَمْسَكَ عَنْهُ، فقال أبو عبد الله «ما أسكتك؟» قال: أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله. فقال: «نعم يا عمرو، أكبر الكبائر الشرك بالله، يقول الله تبارك و تعالى: إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَاوَاهُ النَّارُ و بعده الأياس من روح الله، لأن الله تعالى يقول: وَ لَا تَتَّسِبُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبِئْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ و الأمن من مكر الله، لأن الله يقول: فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ و منها عقوق الوالدين، لأن الله تعالى جعل العاق جباراً شقيماً. و قتل النفس التى حرّم الله إلا- بالحقّ لأن الله تعالى يقول: فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَ قَذْفَ الْمُحْصَنَاتِ، لأن الله تعالى يقول: الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ إلى قوله: لِعُنُوفِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ و أكل مال اليتيم ظلماً لقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا

ص: 284

1- (1) مروج الذهب ج 4 ص 55. و علل الشرائع للصدوق ص 194. و احتجاج الطبرسى ص 200. و أمالى المرتضى و غيرها.

إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَ سَيَصْلُونَ سَعِيرًا و الفرار من الزحف، لأن الله تعالى يقول:

وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَ ذُبُرِهِ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَاوَاهُ جَهَنَّمَ وَ بئس المصير و أكل الربا: لأن الله عز و جل يقول: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ وَ السحر لأن الله تعالى يقول:

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ يَخَلِّدُ فِيهِ مُهَانًا. إِلَّا مَنْ تَابَ وَ اليمين الغموس، لأن الله عز و جل يقول: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا - أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَ الغلول، يقول الله عز و جل: وَ مَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ منع الزكاة المفروضة، لأن الله تعالى يقول: فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ شهادة الزور و كتمان الشهادة، لأن الله عز و جل يقول: وَ مَنْ يَكْتُمهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَ شرب الخمر، لأن الله عز و جل عدل بها عبادة الأوثان. و ترك الصلاة متعمدا، فقد برىء من ذمة الله و ذمة رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و نقض العهد. و قطيعة الرحم، لأن الله عز و جل يقول:

أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ .

قال: فخرج عمرو، و له صراخ من بكائه، و هو يقول: هلك من قال برأيه و نازعكم في الفضل و العلم.

و عن أبي مالك الأحمسي قال: خرج الضحّاك الشاري (الخارجي) بالكوفة فحكم و تسمّى بإمرة المؤمنين، و دعى الناس إلى نفسه.

فأتاه مؤمن الطاق. فلما رأته الشراة و ثبوا في وجهه، فقال لهم: جانح. فأتوا به صاحبهم، فقال له مؤمن الطاق: أنا رجل على بصيرة من ديني، فأحببت الدخول معكم.

فقال الضحّاك لأصحابه: إن دخل هذا معكم نفعكم. ثم أقبل مؤمن الطاق على الضحّاك فقال: لم تبرأت من علي بن أبي طالب، و استحلتتم قتله و قتاله؟ قال الضحّاك: لأنه حكم في دين الله.

قال مؤمن الطاق: و كل من حكم في دين الله استحلتتم دمه و قتاله و البراءة منه؟ قال: نعم.

قال: فأخبرني عن الدين الذي جئت أناظرک عليه، لأدخل معك إن غلبت حجتي حجتك أو حجتك حجتي، من يوقف المخطئ على خطأه و يحكم للمصيب

بصوابه؟ فلا بد لنا من إنسان يحكم بيننا، فأشار الضحّاك إلى رجل من أصحابه وقال:

هذا الحكم بيننا، فهو عالم بالدين.

قال مؤمن الطاق: وقد حكمت هذا في الدين الذي جئت أناظرک فيه؟ قال:

نعم. فأقبل مؤمن الطاق على أصحاب الضحّاك فقال: إن صاحبکم قد حکّم في دين الله فشأنکم به. فاختلف أصحابه وأسكتوه، وخرج مؤمن الطاق منتصرا (1).

و كنا في الأصل قد خصصنا لحملة الإمام الصادق على الغلاة جزءا من هذا الفصل، غير أننا وجدنا أن البحث قد يطول ويتعدى حدود ما نرجو له من عدم التكرار، و اكتفينا بما سبق من بحث لمشكلة الغلاة، و ما قام به الإمام الصادق من دحض لأقوالهم و فضح لمعتقداتهم، و فيه غنى و بيان و اف لمنهج الإمام في ذلك، و قد كان جهده عليه السلام في هذا المجال مصحوبا بآلام نفسية. فهو يواجه أعداء تلبّسوا بروابط و ادّعاءات، و وجد نفسه عليه السلام هو و آباءه الكرام غاية أولئك الكفرة و غرض مسعاهم.

قلنا إن عصر الإمام الصادق شهد تيارات من الألحاد و الزندقة و غيرها، و قد كانت حركة الزندقة ذات خطر شديد، لأنها عبارة عن تنظيم اجتمع فيه حدّاق الكلام و الخائضون في المقالات و المذاهب، و وضعوا لأنفسهم خطة لإفساد العقائد، و زرع الشكوك في نفوس المؤمنين. و قد لفتت شخصية الإمام الصادق انتباههم و راحوا في مناسبات عديدة يقصدونه و هم على كفرهم، فيخرجون مقطوعين مدحورين.

و كان من أبرز قاداتهم ابن أبي العوجاء (2) و قد أشرنا إليه في أكثر من مورد سابقا و في أجزاء الكتاب السابقة. و قد اجتمع مرّة هو و نفر من الزنادقة منهم: ابن طالوت، و ابن الأعمى، و ابن المقفع في الموسم بالمسجد الحرام، و كان الإمام الصادق فيه إذ ذاك يفتى الناس، و يفسّر لهم القرآن، و يجيب عن المسائل بالحجج و البيّنات. فقال القوم لابن أبي العوجاء: هل لك في تغليط هذا الجالس، و سؤاله عما يفضح عند

ص: 286

1- (1) انظر: رجال الكشي. و [1] مناقب ابن شهر آشوب المازندراني.

2- (2) يذكر الشيخ الصدوق أن ابن أبي العوجاء دخل مكة تمرّداً و إنكارا على من يحجّ، و كان يكره العلماء مسانلته إياهم و مجالسته لهم لخبث لسانه و فساد سريرته.



هؤلاء المحيطين به، فقد ترى فتنة الناس به، وهو علامة زمانه.

فقال لهم ابن أبي العوجاء: نعم. ثم تقدم، ففرّق الناس، فقال: يا أبا عبد الله إن المجالس أمانات، ولا بد لكل من كان به سعال أن يسعل، أفتأذن لي في السؤال؟ فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «سل إن شئت».

فقال له ابن أبي العوجاء: إلى كم تدرسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر؟ من فكر في هذا أو قدر، علم أنه فعل غير حكيم ولا ذى نظر، فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه، وأبوك أسه ونظامه.

فقال له الصادق عليه السلام: «إن من أضلّه الله وأعمى قلبه استوخم الحق فلم يستعذبه، وصار الشيطان وليّه وربّه، يورده مناهل الهلكة ولا يصدره، وهذا بيت استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثّهم على تعظيمه وزيارته، وجعله قبلة للمصلين له، فهو شعبة من رضوانه، وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال ومجمع العظمة والجلال، خلقه الله تعالى قبل دحو الأرض بألفى عام، فأحق من أطيع فيما أمر، وانتهى عما زجر الله المنشئ للأرواح والصور».

فقال له ابن أبي العوجاء: ذكرت يا أبا عبد الله، فأحلت على غائب.

فقال الإمام الصادق عليه السلام: «كيف يكون يا ويلك غائبا من هو مع خلقه شاهد، وإليهم أقرب من حبل الوريد، يسمع كلامهم، ويعلم أسرارهم، لا يخلو منه مكان، ولا يشتغل به مكان، ولا يكون له مكان أقرب من مكان، تشهد له بذلك آثاره، وتدل عليه أفعاله. والذى بعثه بالآيات المحكمة والبراهين الواضحة محمد صلى الله عليه وآله وسلم جاءنا بهذه العبادة، فإن شككت في شيء من أمره فاسأل عنه أوضحه لك».

فأبلس ابن أبي العوجاء، ولم يدر ما يقول، فانصرف من بين يديه. فقال لأصحابه: سألتكم أن تلتمسوا لي خمرة، فألقىتموني على جمرة.

قالوا له: أسكت، فوالله لقد فضحتنا بحيرتك وانقطاعك، وما رأينا أحقر منك اليوم في مجلسه.

فقال لهم: ألى تقولون هذا؟ إنه ابن من حلق رءوس من ترون، وأوماً إلى أهل

وفى رواية الطبرسى زيادة: أن ابن أبى العوجاء قال: فهو فى كل مكان؟ أ ليس إذا كان فى السماء كيف يكون فى الأرض؟ وإذا كان فى الأرض كيف يكون فى السماء؟ فقال الإمام الصادق عليه السّلام: «إنما وصفت المخلوق الذى إذا انتقل من مكان اشتغل به مكان، و خلا منه مكان، فلا يدرى فى المكان الذى صار إليه ما حدث فى المكان الذى كان فيه. فأما الله العظيم الشأن، الملك الديان، فلا يخلو منه مكان، ولا يشتغل به مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان».

و عن هشام بن الحكم قال: كان زنديق بمصر يبلغه عن أبى عبد الله عليه السّلام علم، فخرج إلى المدينة لينظره. فلم يصادفه بها. وقيل: هو بمكة. فخرج إلى مكة ونحن مع أبى عبد الله عليه السّلام فاتته إلى- وهو فى الطواف- فدنا منه وسلم.

فقال له أبو عبد الله: «ما اسمك؟» قال: عبد الملك.

قال: «فما كنييتك؟» قال: أبو عبد الله.

قال أبو عبد الله عليه السّلام: «فمن ذا الملك الذى أنت عبده، أمن ملوك الأرض أم من ملوك السماء؟ وأخبرنى عن ابنك أعبد إله السماء، أم عبد إله الأرض؟» فسكت.

فقال أبو عبد الله: «قل». فسكت.

فقال: «إذا فرغت من الطواف فأتنا». فلما فرغ أبو عبد الله عليه السّلام من الطواف أتاه الزنديق. فقعد بين يديه، ونحن مجتمعون عنده، فقال أبو عبد الله عليه السّلام:

«أ تعلم أن للأرض تحتها و فوقها؟».

فقال: نعم.

قال: «فدخلت تحتها؟».

قال: لا.

قال: «فهل تدري ما تحتها؟».

ص: 288

قال: لا أدري، إلا أنى أظن أن ليس تحتها شيء.

فقال أبو عبد الله: «فالظن عجز ما لم تستيقن». ثم قال له: «فصعدت إلى السماء؟».

قال: لا.

قال: «أفتدري ما فيها؟».

قال: لا.

قال: «فالعجب لك، لم تبلغ المشرق، ولم تبلغ المغرب، ولم تنزل تحت الأرض، ولم تصعد إلى السماء، ولم تخبر ما هناك فتعرف ما خلفهن، وأنت جاحد بما فيهن، وهل يحجد العاقل ما لا يعرف؟».

فقال الزنديق: ما كلمنى بهذا غيرك.

قال أبو عبد الله عليه السلام: «فأنت من ذلك فى شك، فلعل هو، ولعل ليس هو».

قال: ولعل ذلك.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «أيها الرجل، ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم، ولا حجة للجاهل على العالم. يا أخا أهل مصر، تفهم عنى، أما ترى الشمس والقمر والليل والنهار يلجان ولا يستبقان، يذهبان ويرجعان، قد اضطررا ليس لهما مكان إلا مكانهما، فإن كانا يقدران على أن يذهبا فلم يرجعا؟ وإن كانا غير مضطرين فلم لا يصير الليل نهارا والنهار ليلا؟ اضطررا والله يا أخا مصر، أن الذى تذهبون إليه وتظنون من الدهر، فإن كان هو يذهبهم فلم يردهم؟ وإن كان يردهم فلم يذهب بهم؟ أما ترى السماء مرفوعة، والأرض موضوعة، لا تسقط السماء على الأرض، ولا تنحدر الأرض فوق ما تحتها، أمسكها والله خالقها ومدبرها».

قال: فأمن الزنديق على يدى أبى عبد الله. فقال عليه السلام: «هشام خذه إليك وعلّمه».

ومن الزنادقة الذين تظهر أسماؤهم كثيرا غير ابن أبى العوجاء هو: أبو شاكر الديصانى. منها ما يرويه الطبرسى والشيخ المفيد: أنه دخل مرة على أبى عبد الله وقال: يا جعفر بن محمد دلّنى على معبودى.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «اجلس. من أقرب الدليل على ذلك ما أظهره لك ثم دعى ببيضة، فوضعها فى راحته، فقال أبو عبد الله: «يا ديصانى، هذا حصن

مكونون، له جلد غليظ، وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق، وتحت الجلد الرقيق ذهب مائعة، وفضة ذاتية. فلا الذهب المائعة تختلط بالفضة الذائبة، ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهب المائعة، فهي على حالها، لا يخرج منها خارج مصلح، فيخبر عن صلاحها، ولا يدخل إليها داخل مفسد فيخبر عن فسادها. لا يدري للذكر خلقت أم للأُنثى، تنفلق عن مثل ألوان الطواويس. أ ترى له مدبراً؟».

قال: فأطرق ملياً ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأنك إمام و حجة من الله على خلقه، وأنا تائب مما كنت فيه.

و ما دمنا لا نقصد الإحاطة بكل ما جرى بين الإمام الصادق و بين حركة الزنادقة، فإنها من الكثرة و السعة بحيث يضيق بها ما خصصناه لموضوع البحث في منهج الإمام الصادق و منشأ مدرسته الفكرية؛ فإننا نكتفي بهذا القدر و هي مبسطة في مظانها.

و يتجه منهج الإمام الصادق إلى المسألة الثانية بعد التوحيد و الاستدلال على وجود الخالق في مواجهة شكوك الملحدين و أقوال الزنادقة، و هي مسألة الإمامة، أو السلطة الروحية، فيقول عليه السلام:

«نحن نزعم أن الأرض لا - تخلو من حجة، و لا تكون الحجة إلا من عقب الأنبياء. ما بعث الله نبياً قط من غير نسل الأنبياء، و ذلك أن الله شرع لبنى آدم طريقاً منيراً، و أخرج من آدم نسلاً طاهراً طيباً، أخرج منه الأنبياء و الرسل هم صفوة الله و خلص الجوهر، طهروا في الأصلاب، و حفظوا في الأرحام، لم يصبهم سفاح الجاهلية و لا شاب أنسابهم، لأن الله عز و جل جعلهم في موضع لا يكون أعلى درجة و شرفاً منه. فمن كان خازن علم الله و أمين غيبه و مستودع سره و حجته على خلقه و ترجمانه و لسانه، لا يكون إلا بهذه الصفة. و الحجة لا يكون إلا من نسلهم، يقوم مقام النبي صلى الله عليه و آله و سلم في الخلق بالعلم الذي عنده و ورثه عن الرسول. إن جحدته الناس سكت، و كان بقاء ما عليه الناس قليلاً مما في أيديهم من علم الرسول على اختلاف منهم فيه، قد أقاموا بينهم الرأى و القياس. و إنهم إن أقرّوا به و أطاعوه و أخذوا عنه، ظهر العدل و ذهب الاختلاف و التشاجر، و استوى الأمر و أبان الدين، و غلب على الشك اليقين. و لا يكاد أن يقرّ الناس به و لا يطيعوا له أو يحفظوا له بعد فقد الرسول.

و ما مضى رسول و لا نبى قط لم يختلف أمته من بعده. وإنما كان علة اختلافهم على الحججة و تركهم إياه».

قال: فما يصنع بالحججة إذا كان بهذه الصفة؟ قال: «قد يقتدى به و يخرج عنه الشىء بعد الشىء مكانه منفعة الخلق و صلاحهم، فإن أحدثوا فى دين الله شيئاً أعلمهم، و إن زادوا فيه أخبرهم، و إن نفدوا منه شيئاً أفادهم...» اهـ.

تلك هى قاعدة المنهج و أصل الدعوة، و هى محفوفة بالصعاب و العوائق، و ما يسره الله له من علم و زوده به من رفعة و خصال، و ما اختصه به من مزايا الإمامة، كافية لقيام الحججة بالأمر و ظهورها فى الواقع، لكن سبيلها وعر، و قد امتلأت الآفاق بالأخطار و أحاطت الصعاب سيرة الإمام من كل الجهات، و لذلك فإن الرسالة بغاية الصعوبة، و قد أشار الإمام الصادق مرارا إلى المصاعب التى تكتنفه، و إلى ما يحيط بالدعوة. روى المفضل بن عمر أن الإمام الصادق قال:

«إن أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلا: صدور مشرقة، و قلوب منيرة، و أفئدة سليمة، و أخلاق حسنة. لأن الله تعالى قد أخذ على محببنا الميثاق، فمن وفى لنا؛ و فى الله له بالجنة، و من أبغضنا و لم يؤد إلينا حقنا فهو فى النار، و إن عندنا سرا من الله ما كلف الله أحدا غيرنا ذلك. ثم أمرنا بتبليغه، فبلغناه، فلم نجد له أهلا و لا موضعا و لا حملة يحملونه، حتى خلق الله لذلك قوما خلقوا من طينة محمد و ذريته صلى الله عليه و آله و سلم و من نورهم، صنعهم الله بفضل صنع رحمة، فبلغناهم عن الله ما أمرنا، فقبلوه و احتملوا ذلك و لم تضطرب قلوبهم، و مالت أرواحهم إلى معرفتنا و سرتنا، و البحث عن أمرنا.

و إن الله خلق أقواما للنار، و أمرنا أن نبليغهم ذلك، فبلغناهم، فاشمأزت قلوبهم منه، فنفروا عنه، و ردوه علينا، و لم يحتملوه، و كذبوا به، و طبع الله على قلوبهم؛ ثم أطلق ألسنتهم ببعض الحق، فهم ينطقون به لفظا، و قلوبهم منكرة له...» اهـ.

و ينيط عليه السلام أغلب مناظراته و أقواله التى تنعكس عن منهجه بهذا المقصد، فعند ما يتحدث عليه السلام عن التفاضل بالتقوى، و أن ولد آدم كلهم سواء فى الأصل، و يرد على أقوال من يتحرى مظان التدافع و شبه الوهن كما يوهمه الشيطان، يقول عليه السلام:

«نعم، إنى وجدت أصل الخلق التراب، و الأب آدم، و الأم حواء، خلقهم إله

واحد، وهم عبيده. إن الله عز وجل اختار من ولد آدم أناساً طهّروا ميلادهم، وطيب أبدانهم، وحفظهم في أصلاب الرجال وأرحام النساء، أخرج منهم الأنبياء والرسل فهم أزكى فروع آدم، فعل ذلك لأمر استحقوه من الله عز وجل، ولكن علم الله منهم حين ذرأهم أنهم يطيعونه ويعبدونه ولا يشركون به شيئاً، فهؤلاء بالطاعة نالوا من الله الكرامة والمنزلة الرفيعة عنده، وهؤلاء الذين لهم الشرف والفضل والحسب. وسائر الناس سواء، إلا من أتقى الله أكرمه، ومن أطاعه أحبه، ومن أحبه لم يعذبه بالنار».

وتوحى النظرة في حدود مدرسة الإمام الصادق وضروب مساعي أصحابه، باستقرار الأمر واستتباب الحال، لأن مظاهر العمل تجرى بنظام واسع حتى كأن الحكام لا وجود لهم. وذلك ما يدعو إلى التأمل في سرّ هذه القوة، وإلى التفكير - لمن يراودهم الشك - في أصل هذه القدرة وقيامها كسلطة قواعد في القلوب والصدور، وتعتمد تسديد الله لها وتأييده، وتضع سياساتها في مجال الطاعة والعبودية للخالق الواحد. وقد تقدّم كثير من الموارد في ما مضى من الكتاب عن الحالات التي كان سلاح الإمام الصادق فيها هو اللجوء إلى الله والتوكل عليه. وقد جعل الإمام الصادق ذلك من أهم مكوثات منهجه، فيقول لبعض أصحابه: «إذا خفت امرأً يكون، أو حاجة تريدها، فابدأ بالله عز وجل، فمجدّه، واثن عليه كما هو أهله، وصلّ على النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وأسأل حاجتك، وتباك ولو مثل رأس الذباب، إن أبي عليه السّلام كان يقول:

إن أقرب ما يكون العبد من الربّ عز وجل وهو ساجد باك» (1).

وسئل عليه السّلام: ما العلّة التي من أجلها لا يصلى الرجل وهو متوشح فوق القميص؟ فقال عليه السّلام: «لعله التكبر في موضع الاستكانة».

أما الغرض ذاته، فإن الإمام الصادق يصف واجباته بشرح يدخل في عوالم العبودية لله التي تؤدي إلى إشعار المؤمن بالقوة والتفوق في وسط ذلك الخصم من الأحداث.

ففي الركوع يقول عليه السّلام: «لا يركع عبد الله ركوعاً على الحقيقة؛ إلا زينه الله بنور بهائه، وأظله في ظل كبريائه، وكساه كسوة أصفياه. و الركوع أول، والسجود ثان، فمن أتى بمعنى الأول صلح للثاني. وفي الركوع أدب، وفي السجود قرب، ومن لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب، فاركع ركوع خاشع لله عز وجل بقلبه، متذلّل

ص: 292

و جل تحت سلطانه، خافض له بجوارحه خفض خانف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين».

وفي السجود يقول عليه السلام:

«ما خسر والله تعالى قط من أتى بحقيقة السجود ولو كان في العمر مرة واحدة، و ما أفلح من خلا بربه في مثل ذلك الحال شبيها بمخادع نفسه، غافل لاه عما أعد الله تعالى للساجدين من أنس العاجل وراحة الآجل، ولا بعد عن الله تعالى أبدا من أحسن تقربه في السجود، ولا قرب إليه أبدا من أساء أدبه وضيع حرمة بتعليق قلبه بسواه في حال سجوده. فاسجد سجود متواضع لله ذليل، علم أنه خلق من تراب يطأه الخلق، وأنه ركب من نطفة يستقذرها كل أحد، وكون ولم يكن. وقد جعل الله معنى السجود سبب التقرب إليه بالقلب والسر والروح، فمن قرب منه بعد من غيره. ألا ترى في الظاهر أنه لا يستوى حال السجود إلا بالتوازي عن جميع الأشياء، والاحتجاب عن كل ما تراه العيون. كذلك أراد الله تعالى أمر الباطن، فمن كان قلبه متعلقا في صلاته بشيء دون الله فهو قريب من ذلك الشيء، بعيد عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته.

قال الله تعالى: ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قال الله عز وجل ما أطلع على قلب عبد فأعلم فيه حب الإخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي، إلا توليت تقويمه وسياسته. و من اشتغل في صلاته بغيري فهو من المستهزئين بنفسه، واسمه مكتوب في ديوان الخاسرين».

أما التشهد في الصلاة فيصفه عليه السلام:

«التشهد ثناء على الله، فكن عبدا له في السر، خاضعا له في الفعل، كما أنك عبد له في القول والدعوى. وصل صدق لسانك بصفاء صدق سرّك، فإنه خلقك عبدا، وأمرك أن تعبد بقلبك ولسانك وجوارحك، وأن تحقق عبوديتك له وربوبيته لك، وتعلم أن نواصي الخلق بيده، فليس لهم نفس ولا لحظة إلا بقدرته ومشيته، وهم عاجزون عن إتيان أقل شيء في مملكته إلا بإذنه وإرادته. قال الله عز وجل:

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ فكن لله عبدا شاكرا بالقول والدعوى، وصل صدق لسانك بصفاء سرّك، فإنه خلقك، فعز وجل أن تكون إرادة ومشية لأحد إلا بسابق إرادته ومشيته، فاستعمل العبودية في الرضا بحكمته، وبالعبادة في أداء أوامره. وقد أمرك بالصلاة على حبيبه محمد صلى الله عليه وآله وسلم فأوصل

صلاته بصلاته، وطاعته بطاعته، وشهادته بشهادته. وانظر ألا تقوتك بركات معرفة، حرمة فتحرم عن فائدة صلاته. وأمره بالاستغفار لك و الشفاعة فيك إن أتيت بالواجب في الأمر والنهي والسنن والآداب، وتعلم جليل مرتبته عند الله عز وجل».

وقبل أن نأتى إلى التسليم أو استقبال القبلة، فإن ما يطلع عليه المؤمن في عالم العبودية من وجوه الحرية ومظاهر العزة وأسباب القوة، وما يراه في دنيا الطاعة من أشكال النفع وعوامل السيادة، وبواسطة بيان الإمام الصادق وبنائه اللغوي وصياغته البلاغية، يلمس المسلم في ظل الظرف أن عالم الإمامة و منهج الحججة هو الطريق إلى الصميم والغور، وأن عالم السلطان وسياسة خلفاء الزمان هو في الشكل والمظهر، والأول فيه من القوة والمنعة ما يكسر السيوف، ويطل مكايد الحكام، لأنه متصل بالله و متعلق بهدها.

ولهذا رأينا الإمام الصادق- كما في رواية عمّار الساباطي- ينهى أن يتوشّح الإمام. وفي رواية أخرى عن الهيثم بن واقد أن الإمام قال: «إنما كره التوشّح فوق القميص لأنه من فعل الجبابة».

وأي مؤمن مسلم يستغنى على مرّ الدهور عن أضواء الصادق عليه السلام؟ وهو يقود الألباب، ويوجه النفوس إلى عوالم الإسلام وروحانية الرسالة المحمدية التي استملى منها قواعد منهجه، واستمد من بهائها لوائح نهجه. وما أوردناه متعلق بالأجزاء القليلة التي اخترناها، أما غيرها من أقوال الإمام الصادق فهي من السعة والكثرة بحيث قامت عليها أصول كتب الفقه الشيعي، وأغنت مصنفات علمائهم عبر المئات من السنين، وضمّت أبواب الصلاة بيان علل الأركان والركعات والأحكام المتعلقة بها، وما إليها من مستحبات ومبطلات، وكافة المسائل المتعلقة بها مما يحمل المسلم إلى بحر زخّار بالعلم والهداية.

في التسليم يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«معنى التسليم في دبر كل صلاة: الأمان، أي من أتى أمر الله و سنّة نبيه صلّى الله عليه وآله و سلّم خاضعا له خاشعا منه؛ فله الأمان من بلاء الدنيا، والبراءة من عذاب الآخرة. والسلام اسم من أسماء الله تعالى، أودعه خلقه ليستعملوا معناه في المعاملات والأمانات، وتصديق مصاحبتهم فيما بينهم، وصحة معاشرتهم. فإن أردت أن تضع السلام



موضعه، وتؤدى معناه، فاتق الله تعالى ليسلم منك دينك وقلبك وعقلك، ألاّ تدنسها بظلمة المعاصى. ولتسلم منك حفظتك ألا تبرمهم و تملّهم و توحشهم منك بسوء معاملتك معهم، ثم مع صديقك، ثم مع عدوك. فإن من لم يسلم منه من هو الأقرب إليه فالأبعد أولى، ومن لا يضع السّلام مواضعه فلا سلام ولا إسلام ولا تسليم، وكان كاذبا في سلامه وإن أفشاه في الخلق».

أما الاستقبال، فإن الإمام الصادق يجعله خروجاً من مشاغل الدنيا وهمومها، وتطلّعا إلى عالم الله: «إذا استقبلت القبلة فأيس من الدنيا وما فيها، والخلق وما هم فيه، واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن الله تعالى، وعين بسرّك عظمة الله عز وجل، واذكر وقوفك بين يديه، قال الله تعالى: هُنَالِكَ تَبْلُغُونَ كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَقَفَّ عَلَى قَدَمِ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ».

إذا من المكونات الأساسية للمدرسة والمنهج هو العمل على الطاعة، والدخول إلى عالم العبودية المطلقة لله، وفي ذلك سرّ هذا التكامل في المنهج والقوة في الموقف إذا نظرت إلى ذلك العصر بنظرة العموم، من حيث أن الدنيا موضع ابتلاء لامتلائها بالمفاسد والأهواء التي لها سلطان على الأنفس في كل الأحوال، إلا من رحم الله، فقادته إلى الإيمان وهداه إلى الحجة. أما إذا نظرت إلى العصر بخصائصه وأحواله، فهو ملئ بالأحداث كما رأيت، فإن وضعنا مدرسة الإمام الصادق وسط هذه الأحداث، وجدنا أن المدرسة في معركة لا تهدأ، و جهاد لا يفتتر. وقد جلبت شهرة الإمام الصادق وشيوع ذكره أفراداً من الناس لهم أغراض مختلفة، فمنهم الباحث عن الحق الذي يرجوه لشفاء نفسه مما ألم بها لتعرضها إلى الأفكار والأقوال التي يموج بها المجتمع، ومنهم المتبحر في علوم الكلام وفنون الفكر ومذاهب الأولين، ومنهم الملحد الزنديق، إلى غيرهم من الأصناف. والكثير منهم يتصل بفرقة وينتمى إلى مذهب، فالحرورية وغيرها ما زالت في ثنايا المجتمع تعمل بفسادها، والعثمانية ونحوها موعلة في جسم الأمة بعنادها، والمعتزلة وأصنافها متسابقة في المضممار ساعية إلى الانتصار، والجبرية وسلطانها تؤثر في النفوس بأفكارها.

وقد مرّ بنا ذكر أغلبها في معرض أقوال الإمام الصادق وأجوبته، أو مناظرات أصحابه، وحصرتنا علاقة الإمام الصادق بالمعتزلة في أجواء هذا العصر بالجانب الذي يتعلق بموقف الإمام الصادق من الحكام والظلم كما سيأتى. أما أقوالهم الأخرى

وأهمها: أن الإنسان يخلق أعماله، وأن ليس لله في ذلك صنع أو تقدير. ويقابلهم الجبرية الذين ينفون قدرة الإنسان، ويضيفون الفعل إلى الله حقيقة وإضافة.

ففى وسط احتدام الجدل فى ذلك، وتحكم العناد و الانفعال، قال الإمام الصادق مقالة الحق التى تقوم على حقائق التنزيل و دلائل الواقع، فقال عليه السلام: «لا جبر و لا تفويض. لأن الله أعدل من أن يجبرهم على المعاصى ثم يعذبهم عليها».

و كان ذلك فى مبدأ ظهور الجدل فى هذه المسألة، وبقى قوله عليه السلام قاعدة ثابتة و عقيدة راسخة. فالإمام على بن موسى الرضا عند ما يسأل عن قول جدّه الصادق عليه السلام و ما معناه؟ يقول الرضا: «من زعم أن الله عزّ و جل فعل أفعالنا، ثم يعذبنا عليها؛ فقد قال بالجبر. و من زعم أن الله عزّ و جل فوّض أمر الخلق و الرزق إلى حججه؛ فقد قال بالتفويض. فالقائل بالجبر كافر، و القائل بالتفويض مشرك» (1).

و القصد أن تلك الفترة التى عاشها الإمام الصادق شهدت مقالات و اعتقادات و آراء شتى وجدت طريقها إلى عقول الناس، و تباينت آثارها، و اختلف أثرها. و من الحق فإن العناية الإلهية فى توجيه الإمامة و نهوض الإمام الصادق بأعباء مسؤولياتها قد حفظ تماسك الأمة و بقاء معتقداتها الأصلية، و لا يمكن أن نتصوّر شخصا أو جهات متعددة-و إن تظاهرت و اتحدت-بقادرة على القيام بمثل هذه المهمة، و مواجهة ما يجرى على الساحة و ما يزرع فيها من أفكار، غير من يشرق بنور النبوة و يفرغ من معين حكمتها عالما بأسرار الملة، عارفا بدقائق الحكمة الإلهية، محيطا بتاريخ الشرائع و الأديان و الأمم كالإمام الصادق عليه السلام. فتجد فى كل رأى حجة، و فى كل إجابة له مستند يناسب القول و يدعمه.

فعند ما يسأله أعداء الإسلام: كيف يجيء من لا شيء شيء؟ يقول عليه السلام:

«إن الأشياء لا تخلو إما أن تكون خلقت من شيء أو من غير شيء، فإن كان خلقت من شيء كان معه، فإن ذلك الشيء قديم، و القديم لا يكون حديثا، و لا يفنى و لا يتغيّر. و لا يخلو ذلك الشيء من أن يكون جوهرًا واحدًا و لونا واحدًا. فمن أين جاءت هذه الألوان المختلفة و الجواهر الكثيرة الموجودة فى هذا العالم من ضروب شتى؟ و من أين جاء الموت إن كان الشيء الذى أنشئت منه الأشياء حيا؟ و من أين جاءت

ص: 296

الحياة إن كان ذلك الشيء ميتاً؟ ولا يجوز أن يكون من حي وميت قديمين لم يزالا، لأن الحي لا يحيى منه ميت وهو لم يزل حياً. ولا يجوز أيضاً أن يكون الميت قديماً لم يزل لما هو به من الموت، لأن الميت لا قدرة له ولا بقاء».

وفي مورد الردّ على القول بأن الأشياء أزلية. قال عليه السلام:

«هذه مقالة قوم جحدوا مدبر الأشياء، فكذبوا الرسل ومقاتلتهم، والأنبياء وما أنبئوا عنه، وسمّوا كتبهم أساطير، ووضعوا لأنفسهم ديناً بآرائهم واستحسانهم. إن الأشياء تدل على حدوثها: من دوران الفلك بما فيه، وهي سبعة أفلاك. وتحرك الأرض ومن عليها، وانقلاب الأزمنة، واختلاف الوقت، والحوادث التي تحدث في العالم: من زيادة ونقصان وموت وبلى، واضطرار النفس إلى الإقرار بأن لها صانعاً ومدبراً. ألا ترى الحلو يصير حامضاً، والعذب مرّاً، والجديد بالياً، وكلّ إلى تغير وفناء» (1).

ونورد هنا أمثلة بسيطة للإشارة فحسب وليست للاستقصاء والإحاطة ليحصل للقارئ ما يومية إلى أغوار العلوم التي قامت عليها شخصية الإمام الصادق عليه السلام لأن الإحاطة بالجانب العلمي من شخصيته عليه السلام وآثاره في منهجه، أكبر من اختصاص فصل من الفصول، بل هو أكبر مما عليه وسع الطاقة.

فانظر إلى قوله عليه السلام: «إني رأيت الرجل الماهر في طبّه إذا سأله لم يقف على حدود نفسه، وتأليف بدنه، وتركيب أعضائه، ومجرى الأغذية في جوارحه، ومخرج نفسه، وحركة لسانه، ومستقرّ كلامه، ونور بصره، وانتشار ذكره، واختلاف شهواته، وانسكاب عبرته، ومجمع سمعه، وموضع عقله، ومسكن روحه، ومخرج عطسته، وهيج غمومه، وأسباب سروره، وعلة ما حدث فيه من بكم وصمم وغير ذلك. لم يكن في ذلك أكثر من أقاويل استحسناها، وعلل فيما بينهم جوّزوها».

ولكنه عليه السلام يحتجّ بعلمه بتأليف الأبدان وحكمة الخلق في أمور الفقه بقصد التنبيه على تجنّب القول في الدين بالرأى. ويصرّح أن علمه أخبره به أبوه عن جدّه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله تعالى بمنّته وفضله جعل لابن آدم الملوحة في العينين

ص: 297

لأنهما شحمتان، ولو لا ذلك لذابتا. وجعل المرارة في الأذنين من الدواب، فإن دخلت دابة و التمسّت الدماغ، فإذا ذقت المرارة التمسّت الخروج. وجعل الحرارة في المنخرين يستنشق بهما الريح، ولو لا ذلك لأتتن الدماغ. وجعل العذوبة في الشفتين يجد بهما استطعام كل شىء، ويسمع الناس بهما حلاوة منطقه».

و تكشف الأسئلة التي توجه إليه عن نمط من الفكر، متأثر بنتائج الاطلاع على مدارس القدماء وفلسفة الأولين، وهم في ترددهم وقصدهم الإمام الصادق كانوا يستشعرون ضعف أقوالهم وبطلان حججهم، فيزدادون إحافا.

روى أن المفضل لما سمع من ابن أبي العوجاء بعض ما رشح منه من الكفر والإلحاد، لم يملك غضبه فقال: يا عدو الله، أحدثت في دين الله وأنكرت البارى...

قال له ابن أبي العوجاء: يا هذا، إن كنت من أهل الكلام كَلَمناك، فإن ثبتت لك الحجة تبعناك. وإن لم تكن منهم فلا كلام لك، وإن كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هكذا يخاطبنا ولا بمثل ذلك يجادلنا. ولقد سمع من كلامنا أكثر ما سمعت، فما أفحش في خطابنا، وإنه الحلیم الرزین العاقل الرصین، لا يعتریه خرق ولا طيش ولا نزق، يسمع كلامنا ويصغى إلينا، ويستعرف حجّتنا، حتى إذا استفرغنا ما عندنا، وظننا أننا قد قطعناه، أدحض حجّتنا بكلام يسير و خطاب قصير، يلزمننا الحجة، ويقطع العذر، ولا نستطيع لجوابه ردا.

سألوا الإمام الصادق: فيم استحق الطفل الصغير ما يصيبه من الأوجاع والأمراض صلّى الله عليه وآله وسلم بلا ذنب عمله ولا جرم سلف منه؟ قال عليه السلام: «إن المرض على وجوه شتى: مرض بلوى، ومرض عقوبة، ومرض جعل للفناء. وأنت تزعم أن ذلك من أغذية ردية وأشربة وبيّة، أو من علة كانت بأمه. وتزعم أن من أحسن السياسة لبدنه، وأجمل النظر في أحوال نفسه، وعرف الضائر مما يأكل من النافع لم يمرض. وتميل في قولك إلى من يزعم: أنه لا يكون المرض والموت إلا من المطعم والمشرب؟ قد مات أرسطوطاليس معلم الأطباء، وأفلاطون رئيس الحكماء، وجالينوس شاخ ودقّ بصره، وما دفع الموت حين نزل بساحته، ولم يألوا حفظ أنفسهم والنظر لما يوافقها. كم مريضا زاده المعالج

سقما، وكم من طيب عالم، وبصير بالأدواء والأدوية ماهر مات، وعاش جاهل بالطب بعده زمانا، فلا ذاك نفعه علمه بطبّه عند انقطاع مدته و حضور أجله، ولا هذا ضرّه الجهل بالطب مع بقاء المدة و تأخر الأجل».

ثم قال عليه السلام: «إن أكثر الأطباء قالوا: إن علم الطب لم تعرفه الأنبياء، فما نصنع على قياس قولهم بعلم زعموا ليس تعرفه الأنبياء الذين كانوا حجج الله على خلقه وأمناءه في أرضه و خزّان علمه، و ورثة حكيمته، و الإدلاء عليه، و الدعاة إلى طاعته. ثم إنى وجدت أن أكثرهم يتنكب في مذهبه سبل الأنبياء، و يكذب الكتب المنزلة عليهم من الله تبارك و تعالى. فهذا الذى أزهدى فى طلبه و حامله»... اهـ.

و يظهر لنا من أجوبة الإمام الصادق عليه السلام و مناظراته، أن المسائل التى احتوتها لم تترك ضربا من التساؤل و التفكير يتعلق بعلم أو تاريخ أو دين أو فقه إلاّ و أشبعته إيضا و بيانا، و يجرى الكلام فى منهج يعتبر القصد و يراعى الغرض، لأن طريقة الاحتجاج و الردّ فى منهج الإمام الصادق هى غير طريقة الإرشاد و النصح و التعليم، و علامات كل منهما واضحة.

روى محمد بن مسلم و الحلبي عن أبى عبد الله الصادق عليه السلام فى قول الله عز و جل: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ فقال: «إن الله عز و جل اشترط على الناس شرطا، و شرط لهم شرطا، فمن وفى له و فى الله له». فقالا له: فما الذى اشترط عليهم، و ما الذى شرط لهم؟ فقال:

«أما الذى اشترط عليهم، فإنه قال الحج أشهر معلومات، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث و لا فسوق و لا جدال فى الحج. و أما الذى اشترط لهم، فإنه قال: فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه، و من تأخر فلا إثم عليه لمن أتقى. فقال: يرجع و لا ذنب له».

فقالا: أ رأيت من أبتلى بالفسوق ما عليه؟ قال: «لم يجعل الله عز و جل له حدا، يستغفر الله و يلى». فقالا: فمن أبتلى بالجدال فما عليه؟ فقال: «إذا جادل فوق مرتين، فعلى المصيب دم بهريقه شاة و على المخطئ بقرة» اهـ.

و حين يتدرج الزنادقة و الملحدون فى محاورته، و يسأله المشككون و الكفار بكل ما يعنّ لهم، ترى جوابه عليه السلام بشىء من الإيجاز المذهل الذى يجمع أطراف المعرفة و يضمّ الأدلة الشافية.

فمن جملة حوار طويل. يسأل عليه السلام: فما قصة ماني؟ و يجيب عليه السلام: «متفحص أخذ بعض المجوسية فشابهها ببعض النصرانية، فأخطأ الملتين، ولم يصب مذهبا واحدا منهما، وزعم أن العالم دبّر من إلهين نور و ظلمة، وإن النور في حصار من الظلمة على ما حكينا منه، فكذّبتة النصارى، وقبلته المجوس».

قال: فأخبرني عن المجوس، أبعث الله إليهم نبيا؟ فإني أجد لهم كتبا محكمة و مواظب بليغة، و أمثالا شافية، يقرّون بالثواب و العقاب، و لهم شرايع يعملون بها.

قال عليه السلام: «ما من أمة إلا خلا فيها نذير. و قد بعث إليهم نبي بكتاب من عند الله فأنكروه و جحدوا كتابه».

قال: و من هو، فإن الناس يزعمون أنه خالد بن سنان؟ قال: «إن خالدا كان عربيا بدويا، ما كان نبيا، و إنما ذلك شيء يقوله الناس».

قال: أفزردشت؟ قال: «إن زردشت أتاهم بزممة، و ادعى النبوة، فأمن منهم قوم و جحدوه قوم، فأخرجوه، فأكلته السباع في برية من الأرض».

قال: فأخبرني عن المجوس، كانوا أقرب إلى الصواب في دهرهم أم العرب؟ قال عليه السلام: «العرب في الجاهلية كانت أقرب إلى الدين الحنيفي من المجوس، و ذلك أن المجوس كفرت بكل الأنبياء و جحدت كتبهم و أنكرت براهينهم».

و لم تأخذ بشيء من سننهم و آثارهم. و إن كيخسرو- ملك المجوس في الدهر الأول- قتل ثلاثمائة نبي، و كانت المجوس لا تغتسل من الجنابة، و العرب كانت تغتسل من الجنابة، و الاغتسال من خالص شرائع الحنيفية. و كانت المجوس لا تختن، و هو من سنن الأنبياء، و أول من فعل ذلك إبراهيم خليل الله، و كانت المجوس لا تغسل موتاهها و لا تكفننها، و كانت العرب تفعل ذلك. و كانت المجوس ترمى الموتى في الصحارى و النواميس، و العرب توارئها في قبورها و تلحدها و كذلك السنّة على الرسل، إن أول من حفر له قبر آدم أبو البشر و ألحد له لحد. و كانت المجوس تأتي الأمهات و تنكح البنات و الأخوات، و حرمت ذلك العرب. و أنكرت المجوس بيت الله الحرام و سمّته

بيت الشيطان، والعرب كانت تحجّه و تعظّمه و تقول: بيت ربنا. و تقرّ بالتوراة و الإنجيل و تسأل أهل الكتب، و تأخذ. و كانت العرب فى كل الأسباب أقرب إلى الدين الحنيفى من المجوس...».

قال: فإنهم احتجوا بإتيان الأخوات أنها سنّة آدم.

قال: «فما حجتهم فى إتيان البنات و الأمهات (1)، و قد حرّم ذلك آدم، و كذلك نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و سائر الأنبياء و كل ما جاء عن الله عز و جل».

قال: و لم حرّم الله الخمر، و لا لذة أفضل منها؟ قال: «حرّمها لأنها أم الخبائث و أس كل شر، يأتى على شاربها ساعة يسلب لته، و لا يعرف ربه، و لا يترك معصية إلا ركبها، و لا حرمة إلا انتهكها، و لا رحما ماسة إلا قطعها، و لا فاحشة إلا أتاها. و السكران زمامه بيد الشيطان إن أمره أن يسجد للأوثان سجد، و يتقاد حيثما قاده».

قال: فلم حرّم الدم المسفوح؟ قال: «لأنه يورث القساوة. و يسلب الفؤاد رحمته، و يعصّ البدن، و يغير اللون، و أكثر ما يصيب الإنسان الجذام يكون من أكل الدم».

ص: 301

1- (1) معلوم أن الإمام الصادق عليه السّلام ساق الزواج بالمحارم من البنات و الأمهات فى الاستدلال ليكون الردّ أشمل، فقد بيّن عليه السّلام خطأ القول بأن الله أوحى إلى آدم أن يزوج بناته بنيه، و رواية زرارة بن أعين أن الإمام الصادق سئل عن ذلك فأجاب: «تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا يقول من قال هذا: بأن الله عز و جل خلق صفوة خلقه و أحبائه و أنبيائه و رسله المؤمنين و المؤمنات و المسلمين و المسلمات من حرام، و لم يكن له من القدرة ما يخلقهم من حلال. و قد أخذ ميثاقهم على الحلال الطهر الطاهر الطيب. إن الله أمر القلم، فجرى على اللوح المحفوظ بما هو كائن إلى يوم القيامة قبل خلق آدم بألفى عام، و إن كتب الله كلها فيما جرى فيها العلم فى كلها تحريم الإخوة مع ما حرم. لما قتل قابيل هابيل جزع آدم على هابيل جزعا قطعه عن إتيان النساء، ثم تخلى ما به من الجزع، فغشى حواء فوهب الله له شيئا وحده و ليس معه ثانى. ثم ولد له من بعد شيت يافث ليس معه ثانى، فلما أدركا و أراد الله عز و جل أن يبلغ بالنسل ما ترون، و أن يكون ما قد جرى به القلم من تحريم ما حرّم الله عز و جل من الأخوات على الإخوة أنزل بعد العصر فى يوم الخميس حوراء من الجنة، فأمره الله عز و جل أن يزوجه من شيت، فزوجه منه. ثم أنزل بعد العصر من الغد حوراء من الجنة، فأمره الله عز و جل أن يزوجه من يافث. فزوجه منه...» الرواية.

قال: فالميتة لم حرّمها؟ قال عليه السّلام: «فرقا بينها وبين ما يذكر اسم الله عليه، والميتة قد جمد فيها الدم، وتراجع إلى بدنّها، فلحمها ثقيل غير مرىء، لأنّها يؤكل لحمها بدمها.

وأخيرا فإن الإنسان يجد نفسه و هو يبحث في منهج الإمام الصادق و مدرسته العلمية عاجزا عن تحيّل حدّ يعتقد أن الوقوف عنده يكون ختاما مناسباً لما بدأه، لأن شخصية كالأمام الصادق، لا يفى الكلام على نهجها العلمى و ما تركته من مآثر مثل هذا الجهد المتواضع.



و موقفه من الحكام الظالمين

وَ لَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ [هود:113].

وَ مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [المائدة:45].

من أبرز سمات تاريخ أهل البيت، وأظهر خصائص سيرهم، هو النهي عن الظلم و محاربة الظالمين. وقد قام رجال أهل البيت النبوي بما يجب عليهم من نصره العدل و الوقوف بوجه الطغاة، و كانت مواقفهم كما تقتضيه المصلحة الدينية و تحتمه ضرورات الرسالة و الدعوة.

كانوا عليهم السلام يعظمون على الإنسان ارتكاب العدوان على الغير و ظلم الناس، فهذا إمام أهل العدل أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «و الله لئن أبيت على حسك السعدان مسهدا، أو أجزّ في الإغلال مصفدا؛ أحبّ إليّ من أن ألقى الله و رسوله ظالما لبعض العباد و غاصبا لشيء من الحطام».

وقد اتفقت الشرائع و تطابقت الأديان كما تسالمت العقول على قبح الظلم، فسعى سيد الخلق و خاتم النبيين محمد صلّى الله عليه و آله و سلّم إلى إرساء قواعد العدل في حياته، و تأكيد مبادئ المساواة على عهده، ثم وضع الناس في صورة ما ستكون عليه الحال و ما ستؤول إليه. فعن كعب بن عجرة قال: قال لي رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم: «أعيذك بالله يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون بعدى، من غشى أبوابهم و صدّتهم في كذبهم، و أعانهم على ظلمهم فليس مني و لست منه، و لا يرد علىّ الحوض. و من لم يغش أبوابهم و لم يصدّتهم في كذبهم، و لم يعنهم على ظلمهم فهو مني و أنا منه، و سيرد علىّ الحوض» (1).

ص:303

وقد خرج الإمام أحمد و الترمذى و النسائى و ابن حيان فى صحيحه ذلك.

## مرحلة الثورة و مرحلة الدعوة

### إشارة

:

وقد كان من عظيم منزلة أهل البيت عند الله و خطورة شأنهم أن يكونوا مناط الرسالة و وسيلة استمرار الدعوة، فكانت الإمامة مشتملة على صفات العصمة التى تفيض بنور من الجلالة و بسطة من النبوة حتى تكون الدعوة فى حفظ و تبقى فى حرز، و للأئمة من أهل البيت أدوارهم و مهمّاتهم التى ينهضون بها فى كل مرحلة، فكان صلح الحسن حماية للأمة، بعد ما أظهرت الوقائع أن سياسة الختل و حكم الطلقاء هيمنوا على الناس و أفسدوا النفوس، و أن معسكر العراق غلبت عليه أهواء أهل النفوس المريضة و الهمم الضعيفة، و بات المخلصون قلة لا يرجى بهم نصر، فهادن الحسن بشروط معروفة، و استقبلها معاوية بنىة العذر و الخيانة.

ثم كانت ثورة الإباء و نهضة الإيمان على يد أبى الشهداء الإمام الحسين، التى قامت منذ ساعة خروج الحسين من المدينة على بينة كاملة و صورة واضحة من التفاصيل و المجريات، فلا بد من تلك الدماء و التضحيات للوقوف بوجه الانحراف و الردّة و ترسيخ مبادئ العقيدة فى النفوس، و قد كانت الجولة الثانية بين الوثنية التى اضطرت إلى الإسلام لتسلم، و بين رسالة محمد، و كان من نتائج هذه الجولة أن تسفك دماء أهل بيت محمد، و تسيئ نساؤه و ذراريه، و ترتكب أمية تلك المجزرة، و كان ذلك كله وفق تخطيط السماء لمسيرة البشرية و سلسلة الرسل و الأنبياء و الأوصياء عبر التاريخ.

روى أحمد، و أخرج البغوى فى معجم الصحابة، و الطبرانى عن أنس قال:

استأذن ملك القطر ربه أن يزور النبى صلى الله عليه و آله و سلم فأذن له. و كان فى يوم أم سلمة، فقال النبى صلى الله عليه و آله و سلم لأم سلمة: «احفظى الباب لا يدخل علينا أحد، فبينما هى على الباب، إذ دخل عليه الحسين فاقترح يتوثب على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فجعل النبى صلى الله عليه و آله و سلم يلثمه و يقبله» فقال له الملك: أتحبه؟ قال «نعم» قال: إن أمتك ستقتله، و إن شئت أريتك المكان الذى يقتل به. فأراه إيّاه، فجاء بطينة حمراء، فأخذتها أم سلمة فصرتّها فى خمارها.

قال ثابت: بلغنا أنها كربلاء (1).

ص: 304

وأخرج الطبراني عن أبي الطفيل قال: استأذن ملك القطر بأن يسلم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بيت أم سلمة، فقال: «لا يدخل علينا أحد» فجاء الحسين فدخل، فقالت أم سلمة: هو الحسين. فقال: «دعوه» فجعل يعلو رقبة رسول الله ويعبث به، والملك ينظر. فقال الملك: أتجبه يا محمد؟ قال: «أى والله إني لأحبه» قال: أما أن أمتك ستقتله، وإن شئت أريتك المكان. فقام بيده فتناول كفا من تراب، فأخذت أم سلمة التراب، فصرت في خمارها، فكانوا يرون أن ذلك التراب من كربلاء (1).

وعن عبد الله بن نجى عن أبيه أنه سافر مع الإمام على - وكان صاحب مطهرته - فلما جاءوا نينوى وهو منطلق إلى صفين نادى على: «صبرا أبا عبد الله، صبرا أبا عبد الله لشط الفرات» قلت: ومن ذا أبو عبد الله؟ قال الإمام: «دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعينه تفيضان، فقلت: يا نبي الله، أغضبك أحد، ما شأن عينيك؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: بلى قام من عندي جبريل قبل، فحدثني أن الحسين يقتل بشط الفرات، وقال: هل لك أن أشمك من تربته؟ فقلت: نعم. فمد يده، فقبض قبضة من تراب فأعطانيها، فلم أملك عيني أن فاضتا (2)».

ولذلك ترى الحسين يجيب من يريده على العدول عن مواجهة بني أمية بالقول:

«و مهما يقض الله يكن». فهو عليه السلام يعلم رسالته كيف تكون وما هو مقدم عليه، ولا بد من مقاومة الظلم، بعد أن أدى البغي على أبيه وأخيه عليهم السلام إلى قوة غاشمة وسلطان جائر. فكان يرد على ابن عباس: «لأن أقتل والله بمكان كذا أحب إلي من أن استحل بمكة». وفي لفظ: «أحب إلي من أن يستحل بي حرم الله ورسوله» (3).

وأما رجل من مشايخ العرب فقال له عليه السلام: أنشدك الله تعالى إلا انصرفت، فوالله ما تقدم إلا على الأستة و حدّ السيوف، فإن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مئونة القتال ووطئوا لك الأمور، وقدمت من غير حرب كان ذلك رأياً، وأما على هذه الحالة التي ترى فلا أرى لك أن تفعل.

فقال له الحسين عليه السلام: «لا يخفى على شيء مما ذكرته، ولكني صابر محتسب حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً» (4).

ص: 305

1- (1) الحبايك في أخبار الملائك للسيوطي ص 44 و 45.

2- (2) تهذيب الكمال في أسماء الرجال ج 6 ص 401. و [1] المعجم الكبير للطبراني ج 3 ص 106.

3- (3) مروج الذهب ج 3 ص 65. و [2] الكبير للطبراني ج 3 ص 199.

4- (4) نور الأبصار للشبلنجي ص 129. [3]

وقال الحسين عليه السلام فى وصيته لأخيه محمد بن الحنفية:

«إنى لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا مفسدا ولا ظالما، وإنما خرجت أطلب الإصلاح فى أمة جدّى محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّى محمد، وسيرة أبى على بن أبى طالب. فمن قبلنى بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن ردّ علىّ هذا، صبرت حتى يقضى الله بينى وبين القوم بالحق ويحكم بينى وبينهم وهو خير الحاكمين» (1).

ويستشهد الحسين عليه السلام هو وأصحابه، وتجربى تلك الفظائع، ويرتكب آل أبى سفيان قبائح لم تعهد حتى فى الجاهلية، وقد أحزنت قلوب أهل الكتاب، وتوجّع لها أصحاب الشرائع والملل الأخرى. وبثورة الطف حيل بين أمية وبين العودة بالحكم إلى الجاهلية والارتداد بالأمّة إلى الشرك، لأن مظاهر الفداء وصور البطولة والتضحية التى زخرت بها سيرة الإمام الحسين، وظهرت ببهائها على أرض كربلاء بإزاء قوات الشرك والضلالة جدّدت مسيرة الجهاد وأحيت فى النفوس روح الرسالة، ووضعت الأمّة على طريق الهداية والحق (2).

### الإمام زين العابدين

:

ولننظر إلى نهاية المعركة بين الثورة وبين الظالمين، فإن أشكال الحقد التى انطوت عليها نفوس الظالمين وأعاونهم، ومشاعر الحقد والعداء التى تجسدت بتلك الفظائع والانتهاكات. لا يمكن أن يقف أمامها مرض فتى للحسين ويمنعها من قتله.

فكل الأفعال تشهد بانعدام الذمة، وخلوّهم من الرحمة، وتجردهم من الأخلاق. فلم يسلم طفل الحسين الرضيع عبد الله، فقتلوه بسهم، وكان أبوه يطلب الماء له.

وتجرءوا بكل خسة على انتهاك حرمة الخدور، فأفزعوا ربّات الحجال والطهر والعفاف، ويمسك القلم هنا استعظاما.

أقول: نحن مع صفحة من صفحات العناية الربانية لتحفظ الإمام على بن الحسين ويخرج من المعركة، وهو مملوء بالحزن والآلام، وينجيه الله من المواقف الأخرى التى أعقبت المعركة. فقد أمر ابن زياد بقتل الإمام لو لا تدخل بطلّة الطف

ص: 306

1- (1) مقتل الحسين للخوارزمي.

2- (2) انظر كتابنا: مع الحسين فى نهضته، بيروت 1394 هـ وفيه تبادلنا الأحداث بتبسيط ويسر.

العقيلة زينب وقالت له: «حسبك من دماننا، أسألك بالله إن قتلته إلا قتلتي معه» فتركه (1).

وكان الإمام الحسين عليه السلام قد أخبر بنجاة الإمام زين العابدين من مذبحه كربلاء، وبرعاية الله لولده علي من سيوف الأمويين و محاولاتهم حفظاً لمقام الإمامة التي أعد لها و تهيأ و تاهب في ظل السبط المنتجب. وقد ذكر الطبري في دلائل الإمامة كما في رواية السيد ابن طاوس في اللهوف إشارة الإمام الحسين إلى مصرع أصحابه، وأنه لا ينجو منهم إلا ولده علي عليه السلام (2).

وفي رواية المقتل: أن الإمام الحسين منع زين العابدين من أن يشترك في قتال الفجرة أعوان الأمويين و جنودهم، فقد حاول الإمام زين العابدين -لما رأى وحدة أبيه- أن يقاتل برغم مرضه، فمنعه الإمام الحسين رعاية لأمر الله في بقاء الرسالة في نسل النبي المصطفى صلى الله عليه و آله و سلم، فلا اعتبار لمحاولات الاعتذار التي سلكها بعض المؤرخين لتبرير تولى من أسهم في جريمة قتل آل محمد و الأجهاز على أبناء بيت النبوة إرضاء للحكام و عصبية للإمام الذين ينتسب إليهم قادة محاربي العترة الطاهرة و رسالتهم السماوية، فيقولون أن عمر بن سعد قال يوم كربلاء: لا تعرضوا لهذا المريض (3).

و سرعان ما تقلد الإمام زين العابدين أعباء الإمامة، و نهض بمهمات الدعوة، فوقف بصلافة و هو في بلاط أمية و في عاصمة ملكها. و به تبدأ مرحلة الدعوة في ظل آثار ثورة أبيه الشهيد، فالدماء التي أهرقت في كربلاء سرت بأوصال التاريخ و شرايين الأيام، فإن بقي للأمويين الظالمين ذكر فهو؛ لا يمت للعقيدة بصلة، و إنما في ظل الحكم و السلطان، و ما ينمو في ضلالهما من المظالم و المفاسد. أما ثورة الحسين فهي إطار العقيدة الإسلامية، و مدخل انتصار العقيدة في النفوس في ظل الإمامة و الولاية.

لما أراد يزيد من الإمام زين العابدين أن يصعد المنبر و يتكلم بما يريد، قال يزيد: أصعد المنبر فأعلم الناس حال الفتنة و ما رزق الله أمير المؤمنين من الظفر. فقال الإمام علي زين العابدين: «ما أعرفتي بما تريد».

ص: 307

1- (1) الطبقات الكبرى ج 5 ص 212. [1]

2- (2) اللهوف ص 26. [2]

3- (3) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ج 4 ص 388.

فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه. و صلى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: «أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرّفه بنفسى. أنا ابن مكة و منى، أنا ابن المروة و الصفا، أنا ابن محمد المصطفى، أنا ابن من لا يخفى. أنا ابن من علا فاستعلا، فجاز سدره المنتهى، فكان من ربّه قاب قوسين أو أدنى». فضج أهل الشام بالبكاء حتى خشى يزيد أن يرحل من مقعده، فقال للمؤذن: أذن. فلما قال المؤذن:

الله أكبر، الله أكبر. جلس على بن الحسين على المنبر. فقال المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمدا رسول الله. بكى الإمام زين العابدين عليه السلام ثم التفت إلى يزيد فقال:

«يا يزيد هذا أبى، أم أبوك؟» قال: بل أبوك، فأنزل.

فنزل عليه السلام فأخذ بناحية باب المسجد، فلقبه مكحول-صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم- فقال:

كيف أمسيت يا ابن رسول الله؟ قال عليه السلام: «أمسينا بينكم مثل بنى إسرائيل فى آل فرعون، يذبحون أبنائهم و يستحيون نساءهم، و فى ذلكم بلاء من ربكم عظيم (1)».

و فى أشهر الروايات، أن المنهال بن عمرو لقي الإمام زين العابدين فى دمشق فقال له: كيف أمسيت يا ابن رسول الله قال: «أمسينا كمثل بنى إسرائيل فى آل فرعون يذبحون أبنائهم و يستحيون نساءهم. يا منهال أمست العرب تفتخر على العجم بأن محمدا منها، و أمست قريش تفتخر على سائر العرب بأن محمدا منها، و أمسينا معشر أهل بيته و نحن مقتولون مشردون، فإننا لله و إنا إليه راجعون مما أمسينا فيه» (2).

هكذا كانت بداية مسيرة الإمام زين العابدين، و هكذا كان بدء إمامته و منهج دعوته. و كانت فترة إمامته أربعا و ثلاثين سنة، أدرك الإمام الصادق سنوات منها.

قال الإمام الباقر عليه السلام: «إن أبى على بن الحسين عليه السلام ما ذكر نعمة الله عليه إلا سجد، و لا قرأ آية من كتاب الله عز و جل فيها سجود إلا سجد، و لا دفع الله تعالى عنه سوءا يخشاه أو كيد كاید إلا سجد، و لا فرغ من صلاة مفروضة إلا سجد،

ص: 308

1- (1) الاحتجاج للطبرسى ج 2 ص 29. [1]

2- (2) مشير الأحزان للشيخ ابن نما الحلّى ص 84 و اللهوف للسيد ابن طاوس ص 81. [2]

ولا وفق لإصلاح بين اثنين إلا سجد، وكان أثر السجود في جميع مواضع سجوده، فسمى السجّاد لذلك».

وعنه عليه السلام أيضا قال: «كان لأبي عليه السلام في موضع سجوده آثار ناتئة، وكان يقطعها في السنة مرتين في كل مرة خمس ثغفات، فسمى ذا الثغفات لذلك».

قال الزهري: ما رأيت قرشيا أفضل من علي بن الحسين. وقال: بلغني أنه كان يصلي في اليوم واللييلة ألف ركعة إلى أن توفي، وسمى زين العابدين لكثرة عبادته.

وكان الزهري إذا ذكر علي بن الحسين يبكي.

وسياتي ذكر علاقة الزهري بالإمام زين العابدين، وقد انخرط الزهري في حاشية الملوك و التحق بالأمويين في مقر ملكهم بالشام (1).

وعن سفيان بن عيينة قال: حج زين العابدين، فلما أحرم أصفر لونه، وعرضت عليه الرعدة، ولم يستطع أن يلبي، فسئل عنه؟ قال: «أخشى أن أقول: لبيك. فيقول:

لا لبيك» فلما لبى غشى عليه، وسقط من راحلته، فلم يزل يعترضه ذلك حتى قضى حجه (2). قال رجل لسعيد بن المسيب: ما رأيت أحدا أروع من فلان. قال: فهل رأيت علي بن الحسين؟ قال: لا. قال: ما رأيت أحدا أروع منه.

قال طاوس: سمعته وهو ساجد عنه الحجر يقول: «عبيدك بفنائك، سائلك بفنائك». قال طاوس: فو الله ما دعوت بها في كرب إلا كشف عني.

قال محمد بن إسحاق: كان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون و من يعطيهم، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك، فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم في الليل بما يأتيهم به، ولما مات وجدوا في ظهره و أكتافه أثر حمل الجراب إلى بيوت الأرامل و المساكين في الليل. و كان يعول مائة أهل بيت بالمدينة و لا يدرون بذلك حتى مات (3). ففقد أولئك ما كان يأتيهم من معاش، لذا كانت آثار جراب الدقيق على جسده الطاهر (4).

ولا بد من القول أن الإمام زين العابدين يلقي ربه و على ظهره آثار تقواه

ص: 309

1- (1) انظر الجزء الثاني من الكتاب.

2- (2) ينابيع المودة. و [1] تذكرة سبط ابن الجوزي. [2]

3- (3) البداية و النهاية 9 ص 105. و [3] تذكرة سبط ابن الجوزي. و ينابيع المودة. و الإتحاف. و نور الأبصار.

4- (4) صفة الصفوة ج 2 ص 54. [4]

وصلاحه، كما يلقي ربه و على ظهره آثار مظلمته و جريمة بنى أمية، و كان مرأى آثار الجامعة فى عنقه عليه السلام، و آثار جرح القيد فى ساقيه قد أبكى ولده الإمام الباقر لَمَّا وضعه على المغتسل. و كيف تندمل تلك الجراح و الأميون على كراسى الحكم، و دستورهم ظلم أهل البيت؟ فعبد الملك بن مروان على نهج يزيد يحمل الإمام زين العابدين مقيدا من المدينة و يثقله حديدا (1).

ينقل شيخنا المفيد رحمه الله فى الإرشاد و مصادر كثيرة أخرى قول الإمام زين العابدين: «أحبونا حبَّ الإسلام، فما زال حبِّكم لنا حتى صار شيئا علينا» (2). و يأتى مجردا دون الإشارة إلى بواعث مثل هذا القول، و هى أن عصره عليه السلام شهد بدايات ظهور أقوال الغلاة، و ما تحدَّثنا عنه فى مشكلة الغلاة فى الأجزاء السابقة (3) و المتعلق بالأفراد الذين كانت لهم علاقة و صلة بالأئمة الأطهار، و سقطوا فى درك الغلو و الإساءة إلى أهل البيت، يتصل وجودهم بهذه الفترة، و قد عظم أمرهم و اشتد فى زمن الإمام الباقر و الصادق.

و تشعر الروايات الأخرى بردَّ الإمام زين العابدين مزاعم هؤلاء و كفرهم، فيروى أنه قال لهم: «ما أجراكم و أكذبكم على الله، نحن من صافى قومنا، فحسبنا أن نكون من صالحهم». و من اللازم تقييدها بأسبابها، لبيطل تعميم الرواية لأغراض سيئة و خبيثة. و الرواية التى تطلق هى: أنه مرض عليه السلام فدخل عليه جماعة من أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه و آله و سلَّم يعودونه، فقالوا: كيف أصبحت يا ابن رسول الله صلَّى الله عليه و آله و سلَّم فدنك أنفسنا؟ قال «فى عافية، و الله المحمود على ذلك. فكيف أصبحتم أنتم جميعا؟» قالوا:

أصبحنا و الله يا ابن رسول الله صلَّى الله عليه و آله و سلَّم محبِّين وادِّين. فقال لهم عليه السلام: «من أحبنا لله أسكنه الله فى ظل ظليل يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله، و من أحبنا يريد مكافأتنا كافأه الله عنا الجنة، و من أحبنا لغرض دنيا آتاه الله رزقه من حيث لا يحتسب» (4).

و ليس من قصدنا التوسُّع فى البحث عن حياة الإمام السجاد زين العابدين، و إنما الإشارة إلى ما يقتضيه المقام فى بيان مراحل عمل الإمامة و وجوه رسالتها، فكما أن

ص: 310

1- (1) تذكرة سبط ابن الجوزى. و يبايع المودة للقندوزى.

2- (2) الإرشاد ص 238. و [1] راية ابن كثير عن يحيى بن سعيد: «حتى صار علينا عار...»

3- (3) انظر الجزء الثانى و الثالث عن الكتاب.

4- (4) الفصول المهمة لابن الصباغ. [2]



حياة الإمام زين العابدين تتصل بحياة عمّه الإمام الحسن، و حياة أبيه الإمام الحسين، كذلك فإن حياة الإمام الصادق عليه السّلام تتصل بحياة الإمام زين العابدين و حياة أبيه الإمام الباقر.

و نختار من أنوار سيرته و عقب ذكره هذه الآثار القليلة و هي غيظ من فيض، لأن سيرته عليه السّلام و وقائع عصره حافلة بكل ما يعنى من الجلالة و العظمة، بحيث يكتشف الباحث أن أهل هذا البيت لهم دور بإزاء انجرار الناس إلى السلطان و التهافت على الدنيا، و أن ذلك الدور هو الذى أبقى على الأصول و القواعد الدينية و الشرعية.

لقد جسّد عليه السّلام وقع المأساة التى اجتازها فقال كلمته: «فقد الأحبة غربة» و كان صوته عليه السّلام يسمع فى جوف الليل و هو يقول: «أين الزاهدون فى الدنيا، الراغبون فى الآخرة».

و هو من خشية الله يمنع نفسه من ضرب ناقته، فقد روى أنه حج مرة فالتأتأت الناقاة عليه فى سيرها، فأشار إليها بالقضيب، ثم قال «آه لولا القصاص» و ردّ يده عنها.

قال عليه السّلام مبيّنا ولايته الدينية و سلطته الروحية:

«نحن أئمة المسلمين و حجج الله على العالمين، و سادة المؤمنين و قادة الغرّ المحجلين، و موالى المؤمنين، و نحن أمان أهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء، و نحن الذين بنا يمسك الله السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، و بنا يمسك الأرض أن تميد بأهلها، و بنا ينزل الغيث، و بنا ينشر الرحمة و يخرج بركات الأرض، و لولا ما فى الأرض ممّا لساخت بأهلها» (1).

ثم يقول عليه السّلام قولاً لرجل يعيّن فيه مسلك الناس إلى نيل الولاية: «بلغ شيعتنا أنّا لا نغنى عنهم من الله شيئاً، و أن ولايتنا لا تنال إلا بالورع».

و يقول عليه السّلام لجابر الجعفى: «بلغ شيعتى منى السّلام، و أعلمهم أنه لا قرابة بيننا و بين الله عز و جل، و لا يتقرب إليه إلا بالطاعة. يا جابر، من أطاع الله و أحبنا فهو ولينا، و من عصى الله لم ينفعه حبنا، و من أحبنا و أحب عدونا فهو فى النار. يا جابر

ص: 311

1- (1) روضة الواعظين. و [1] احتجاج الطبرسى. [2]

من هذا الذى سأل الله تعالى فلم يعطه، وتوكل عليه فلم يكفه، ووثق به فلم ينجه. يا جابر أنزل الدنيا منك كمنزل نزلته، فإن الدنيا للتحويل عنها، وهل الدنيا إلا دابة ركبها فى منامك، فاستيقظت وأنت على فراشك؟ هى عند ذوى الأبواب كفىء الظلال، لا إله إلا الله إعدار لأهل دعوة الإسلام، والصلاة تثبيت للإخلاص وتنزيه عن الكبر، والزكاة تزيد فى الرزق، والصيام والحج لتسكين القلوب، والقصاص والحدود لحقن الدماء، فإن أهل البيت نظام الدين. جعلنا الله وإياكم من الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون».

و من أقواله ما يعتبر من أهم أركان دعوته وقواعد نهجه كقوله: «التارك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالنابذ كتاب الله وراء ظهره، إلا أن يتقى منهم تقاة» قالوا: وما تقاة؟ قال: «يخاف جبارا عنيدا أن يسطو عليه وأن يطغى».

وروى الطبرانى عنه أنه قال عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: ليقم أهل الفضل. فيقوم ناس من الناس، فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة. فتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة. فيقولون: قبل الحساب؟ قالوا: نعم. قالوا:

من أنتم؟ قالوا نحن أهل الفضل. قالوا: وما كان فضلكم؟ قالوا: كذبنا إذا جهل علينا حلمنا، وإذا ظلمنا صبرنا، وإذا أسىء إلينا غفرنا. قالوا لهم: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين. ثم ينادى مناد: ليقم أهل الصبر، فيقوم ناس من الناس فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة. فتلقاهم الملائكة فيقولون لهم مثل ذلك فيقولون: نحن أهل الصبر، قالوا: فما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا أنفسنا على طاعة الله، وصبرناها عن معصية الله، وصبرناها على البلاء. فقالوا لهم: ادخلوا الجنة، فنعم أجر العاملين. ثم ينادى المنادى: ليقم جيران الله فى داره، فيقوم ناس من الناس وهم قليل، فيقال لهم:

انطلقوا إلى الجنة فتلقاهم الملائكة فيقولون لهم مثل ذلك، فيقولون: بم استحققتم مجاورة الله عز وجل فى داره؟ فيقولون: كنا نتزاور فى الله ونتجالس فى الله ونبادل فى الله عز وجل. فيقال لهم: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين» (1).

و إذا ما دخل الحرم كان عبید بنى أمية يؤذونه. يذكر ابن سعد: كان الإمام زين العابدين يمشى إلى الحجار، وكان له منزل بمنى، وكان أهل الشام يؤذونه، فتحول

ص: 312

إلى قرين الثعالب أو قريب من قرين الثعالب، وكان يركب. فإذا أتى منزله مشى إلى الجمار (1).

ولم تتمكن سياسة البغاة من الحدّ من أثر الإمام زين العابدين أو تأثيره فى النفوس، ولم يخف وجوده فى مواطن العلم ونبوغه فى حلقات الفقه والحديث. فهو بما حباه الله وبما أورثه من وصاية وسداد لا يرقى إلى عتبة علمه أو درجة كماله أحد من أصحاب الفقه والحديث والفتوى والدين. وكان الإمام زين العابدين - وهو فى دوائر التضيق التى يخلقها الحكام الأمويون - يتصدّى لدوره الإيماني، ويدعو إلى إمامته فيقول: «فمن سلّم لنا سلم، ومن اقتدى بنا هدى، ومن يعمل بالقياس والرأى هلك، ومن وجد فى نفسه شيئاً مما نقوله أو نقضى به حرجاً، كفر بالذى أنزل السبع المثاني والقرآن العظيم».

ويبقى فى وسط مدينة جدّه ومهبط الوحي تنوشه سهام الأمويين وتنبحه كلابهم، فكان الإمام زين العابدين يذكر حال من مسخهم الله قردة من بنى إسرائيل ويحكى قصتهم، فلما بلغ آخرها قال: «إن الله تعالى مسخ أولئك القوم لاصطيادهم السمك، فكيف ترى عند الله عز وجل يكون حال من قتل أولاد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم وهتك حرّيمه؟ إن الله تعالى وإن لم يمسخهم فى الدنيا، فإن المعدّ لهم من عذاب الآخرة أضعاف أضعاف عذاب المسخ». فقيل له: يا ابن رسول الله، فإنّنا قد سمعنا منك هذا الحديث.

فقال لنا بعض النصاب: فإن كان قتل الحسين باطلا فهو أعظم عند الله من صيد السمك فى السبت، فما كان الله غضب على قاتليه كما غضب على صيادى السمك؟ قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «قل لهؤلاء النصاب: فإن كان إبليس معاصيه أعظم من معاصى من كفر بإغوائه، فأهلك الله من شاء منهم كقوم نوح وفرعون ولم يهلك إبليس، وهو أولى بالهلاك، فما باله أهلك هؤلاء الذين قصروا عن إبليس فى عمل الموبقات، وأمهل إبليس مع إشاره لكشف المحرمات، أما كان ربنا عز وجل حكيماً تديره حكمة فيمن أهلك وفيمن استبقى؟ فكذلك هؤلاء الصائدون فى السبت، وهؤلاء القاتلون للحسين. يفعل فى الفريقين ما يعلم، أنه أولى بالصواب والحكمة، لا يسأل عمّا يفعل وعباده يسألون».

ص: 313

كما واجه عليه السلام أنصار البغاة وأتباع الطلقاء، فقد جاءه رجل من أهل البصرة وقال له: يا علي بن الحسين، إن جدك علي بن أبي طالب قتل المؤمنين. فهملت عينا علي بن الحسين دموعا حتى امتلأت كفه منها. ثم ضرب بها علي الحصى.

ثم قال:

«يا أبا أهل البصرة، لا والله ما قتل علي مؤمنا، ولا قتل مسلما، وما أسلم القوم ولكن استسلموا وكتموا الكفر وأظهروا الإسلام، فلما وجدوا علي الكفر أعوانا أظهروه، وقد علمت صاحبة الجذب والمستحفظون من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن أصحاب الجمل وأصحاب صفين وأصحاب النهروان لعنوا علي لسان النبي الأُمى وقد خاب من افتري».

فقال شيخ من أهل الكوفة: يا علي بن الحسين، إن جدك كان يقول: «إخواننا بغوا علينا».

فقال الإمام زين العابدين عليه السلام: «أما تقرأ كتاب الله وإلى عادٍ أخاهم هوداً فهم مثلهم، أنجى الله عز وجل هودا والذين معه وأهلك عادا بالريح العقيم».

وقد تعرّض له البعض بالإساءة فأغلظوا له القول وأساءوا معه الأدب، فكان ردّه عليهم آية من آيات خلقه و محمود صفاته.

ولم تنل من هيئته ولا مكانته جميع الأفعال التي اعترضته، فقد كان الإمام علي بالمدينة محترما معظما (1) وكان الناس يقبلون يده (2).

فهو ممن من الله عليهم بالهداية التامة والعصمة الخالصة، وجعلهم في الأرض أصحاب الولاية وحملة الرسالة وحماة الشريعة، إليهم الأمر، وفيهم العلم والنبوة، وقد حفظ الله الإمام زين العابدين من مكائد البغاة وسيف يزيد بن معاوية إبقاء لنور الرسالة وصيانة للشريعة في عهد تغلب فيه الطلقاء، وتحكم فيه الفساق، فترك الإمام زين العابدين وهو يكابد النكبة ويواجه أفسى محنة أثارها كبرى في السلوك والفكر في العمل والذكر.

ص: 314

1- (1) ابن كثير ج 9 ص 104. [1]

2- (2) القعد الفريد ج 1 ص 180.

كان الإمام علي بن الحسين عليه السلام يتّصف بصفات الإمامة ويتحلّى بخلق النبوة. إذا مشى لا تجاوز يده فخذه ولا يخطر بيده (1) و يخشى أن يؤذى أى مخلوق فى زمن ديست فيه المقدسات و انتهكت الحرمات و أسفرت الأيام عن أحقاد جاهلية و عودة إلى الشرك خمدت زمنا ثم هبت و هاجت تكالبا على الدنيا و لجوءا إلى القوة و إسرافا فى الجبرية و التسلط، فكان عليه السلام إذا سار فى المدينة على بغلته لم يقل لأحد: الطريق. و يقول: «هو مشترك، ليس لى أن أنحى عنه أحدا».

و كان عليه السلام مهتما بمصالح الأمة و دفع شرور الحكام عنها، فكان يفكر بأحوال الناس أيام أحداث الحرم و حركة ابن الزبير (2).

و لما قامت ثورة المدينة المنورة ضد الأمويين، و أخرج أهلها عامل يزيد عثمان بن محمد بن أبى سفيان، و أظهر و أخلع يزيد بن معاوية سنة ثلاث و ستين، طلب مروان بن الحكم من الإمام زين العابدين أن يترك نساءه عنده، و قد كان مروان قد كلم عبد الله بن عمر بذلك فأبى ابن عمر أن يفعل. قال مروان للإمام زين العابدين: أن لى رحما و حرمى تكون مع حرمك، فقال: «أفعل» فبعث بحرمه (3).

و هكذا هى أخلاق أولاد النبيين و حجج الله على خلقه، لا كما فعل مروان و أهله بحرم رسول الله و ما صنعوا بأهل بيته. و ما يدعيه الطبرى من صداقة كانت بينهما قديمة لا نصيب له من الصحة، كما أنها ليست من أشكال العلاقات التى استحالت بحلم الإمام و عظيم خلقه من روح العداوة إلى الاحترام و الاعتراف بمنزلة الإمام. كقصة ذلك الرجل الذى سب الإمام زين العابدين و هو خارج من المسجد، فأراد العبيد أن يثوروا به (4) ففى رواية الشبلخى عن درر الأصداف: بالغ فى سبّه و أفرط، فعاد إليه العبيد و الموالى، فكفّهم عنه، و أقبل عليه و قال له: «ما ستر عنك من أمرنا أكثر، أ لك حاجة نعينك عليها؟» فاستحيا الرجل، فألقى إليه خميصة، و ألقى إليه خمسة آلاف درهم. فقال: أشهد أنك من أولاد المصطفى صلى الله عليه و آله و سلم. و فى رواية ابن كثير: فكان الرجل بعد ذلك إذا رآه يقول: إنك من أولاد الأنبياء.

ص: 315

1- (1) انظر الطبقات الكبرى ج 5 ص 212-220. [1]

2- (2) الإتحاف للشبراوى ص 50 و ابن كثير.

3- (3) تاريخ الطبرى ج 7 ص 7. [2]

4- (4) صفة الصفوة ج 2 ص 56. [3]

و لا نظن أن يصدر مثل ذلك من الطريد بن الطريد، وإنما مروان وغيره من الأمويين يعلمون أن آل عبد المطلب أقرب إلى شرائع السماء و أخلاق الأنبياء، وهو وغيره من الأمويين ألصق بطبائع السوقة و أخلاق أهل الغدر، فلاذ بمكانة أهل البيت، و دفع بحرمة إلى حمى حرمتهم، أولئك الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيراً. و ما هو إلا العدو الحاقد الذى يرى فى على و ولده صورة النبى الأعظم الذى فضح أباه و أبعدده ليخلص المسلمين من شرّه، فلما كان والياً على المدينة لمعاوية كان يسبّ علياً كل جمعة على المنبر، و قال له الحسن عليه السّلام: «لقد لعن الله أباك الحكم، و أنت فى صلبه على لسان نبيه» (1).

فمن أين قدم الصداقة بين زين العابدين و مروان بن الحكم، و الأخير من أكثر الأمويين تشفياً بقتل الإمام الحسين (2) ينقل الشيخ ابن نما عن تاريخ البلاذرى: أنه لما وافى رأس الحسين عليه السّلام المدينة سمعت الواعية من كل جانب، فقال مروان بن الحكم:

ضربت دوسر فيهم ضربة أثبتت أوتاد حكم فاستقرّ

ثم أخذ ينكت وجهه بقضيب و يقول:

يا حبّذا بردك فى اليدين و لونك الأحمر فى الخدين

كأنه بات بمجسدين شفيت منك النفس يا حسين

(3) و تحسين صورة هؤلاء الطرداء و أبناء الطلقاء لا تغتير واقع الأمر و حقيقة التصرف الجاهلى الذى واجهوا به أهل بيت النبوة، فنرى كبار من تولّى هذه المهمة لا يفلح

ص: 316

1- (1) ابن كثير ج 8 ص 259. [1]

2- (2) و كذلك الأمر فيما يدّعيه الذهبى فى تذكرة الحفاظ من وجود وّد فى قلب عبد الملك بن مروان و أن زين العابدين كان أحب بنى هاشم إلى عبد الملك (ج 1 ص 70) - و ابن كثير فى البداية و النهاية (ج 9 ص 104) - و [2] ابن عبد ربه فى العقد (ج 1 ص 268) فمن المشهور عداؤه و محاولته الإساءة إلى الإمام زين العابدين فى كل مرة، و الصحيح لجوء عبد الملك إلى التشبّه بسلطة الإمام للتدليس و التلبّس بها أمام ملك الروم، فكتب إلى الحجاج أن يتوعّد و يتهدّد الإمام زين العابدين و أخذ جوابه، فكتب عبد الملك بما قاله الإمام زين العابدين إلى الحجاج و بعث به إلى ملك الروم على أنه صادر منه.

3- (3) مثير الأحزان.

فيما أخذ به نفسه، ويعثر ويسقط ما يحمله من أكاذيب. فقد عرف الإمام زين العابدين بالانقطاع إلى الله، والإكباب على العبادة بعد مذبحه الطف و قتل الأحبة، فكانت مياسم التقوى و سمات الإيمان في وجهه و جسمه، فأطلق عليه: السجاد و ذى الثغفات. و من المعلوم أن مواصلته العبادة و مداومته على الأدعية و الأذكار لم يترك حيزا لما كان يشغل بال الملوك من الأمويين و العباسيين بدواعي الشهوة. و نورد هنا أنموذجا سار عليه الذهبي في الترجمة للأعلام في (سير أعلام النبلاء) حيث يورد ما يخالف الحقائق في كثير من الموارد، فيردّ المفضوح منها الذي لا يمكن السكوت عنه في بعضها، و لا يقوم بشيء في كثير منها يقول: (قال الأصمعي: لم يكن له عقب- يعني الحسين- إلا من ابنه علي، و لم يكن لعلي بن الحسين ولد إلا من أم عبد الله بن الحسن و هي ابنة عمه. فقال له مروان: أرى نسل أبيك قد انقطع، فلو اتخذت السراري لعلّ الله أن يرزقك منهن. قال: قال ما عندي ما اشترى. قال: فأنا أقرضك، فأقرضه مائة ألف، فاتخذ السراري و ولد له جماعة من الولد، ثم أوصى مروان لما احتضر أن لا يؤخذ منه ذلك المال). و يعقب الذهبي: إسنادها منقطع، و مروان ما احتضر، فإن امرأته غمته تحت و سادة هي و جواريتها... الخ (1). و قيل سمية و هي أم خالد بن يزيد بن معاوية، أضمرت له السوء بعد أن وجّه لابنها كلمات بذينة ساقطة.

و يذكر المسعودي أن أسباب ثورة أهل المدينة كانت: جور يزيد و عمّاله و ما عمّهم من ظلم و ما ظهر من فسقه من قتله ابن بنت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم و ما أظهر من شرب الخمر و سيره بسيرة فرعون.

و قد انتقم يزيد من أهل المدينة، و أمر بإباحتها، فكانت مذبحه الحرّة التي قتل فيها أكثر من أربعة آلاف ممن أحصوا من بنى هاشم و سائر قريش و الأنصار و من سائر الناس. و قيل حتى أن الأقدام ساخت في الدم.

و دعا مسلم بن عقبة- المسرف في القتل و الدماء- الناس للبيعة على أنهم خول ليزيد بن معاوية يحكم في دمائهم و أموالهم و أهليهم ما شاء (2).

ص: 317

1- (1) السير ج 4 ص 390.

2- (2) الطبري ج 7 ص 13. [1]

أو أن كل من استبقاه من الصحابة والتابعين على أنه عبد قن ليزيد، إلا الإمام على زين العابدين (1) وقد أورد ابن أبي الحديد ما ينافي الحقيقة، ويبدو أنها من جملة ما حواه وجمعه بدون تحقق وتدبر، فكانت بقية روايته للحادث نقلا عنه كتبة السلطان ومؤرخى الدولة الذين لا تهتمهم الحقائق، ولا يهتمون بالنظر إلى الحادثة فى إطار الواقع.

وأقرب الروايات وأصدقها تروى أن الإمام زين العابدين قد لاذ بقبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم وهو يدعو. فأتى به إلى مسرف- وهو معتاض عليه- فترا منه ومن آباءه، فلما رآه وقد أشرف عليه ارتعد، وقام له، وأقعدته إلى جانبه وقال له: «سلنى حوائجك». فلم يسأله فى أحد ممن قدّم إلى السيف إلا شفعه فيه، ثم انصرف عنه. فقيل لعلى: رأيناك تحرك شفيتك، فما الذى قلت؟ قال: «قلت: اللهم ربّ السموات السبع وما أظللن، والأرضين السبع وما أقللن، ربّ العرش العظيم، ربّ محمد وآله الطاهرين، أعوذ بك من شرّه، وأدرا بك فى نحره، أسألك أن تواتينى خيره، وتكفينى شرّه». وقيل لمسلم: رأيناك تسبّ هذا الغلام وسلفه، فلما أتى به إليك رفعت منزلته؟ فقال: ما كان ذلك لرأى منى، لقد ملئ قلبى منه رعبا (2).

وقد حرصه عين الله ورعته، وجعلت لهيبة الإمامة فى شخصه سلطة أقوى من سلطة الحكام. فهذا هشام بن إسماعيل المخزومى والى المدينة فى عهد عبد الملك كان يؤذى الإمام زين العابدين ويشتم عليا على المنبر وينال منه، فلما ولى الوليد بن عبد الملك عزله وأمر به أن يوقف للناس. قال هشام: والله ما أخاف إلا من على بن الحسين إنه رجل صالح يسمع قوله، فأوصى على بن الحسن أصحابه ومواليه وخصته أن لا يتعرضوا لهشام، ثم مرّ على فى حاجته فما عرض له، فناداه هشام وهو واقف للناس: الله أعلم حيث يجعل رسالته (3).

وردد هذه الآية أيضا الزهرى لما قارف ذنبا.

قال له الإمام زين العابدين: «يا زهرى قنوطك من رحمة الله التى وسعت كل

ص: 318

1- (1) شرح نهج البلاغة ج 1 ص 306.

2- (2) مروج الذهب ج 3 ص 79 و 80. [1]

3- (3) الطبقات الكبرى لابن سعد ج 5 ص 219. و [2] تذكرة سبط ابن الجوزى ص 338. [3]



شيء أعظم من ذنبك». فقال الزهري: أَللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ و كان يقول: علي بن الحسين أعظم الناس عليّ منه (1).

و الزهري أحد تلاميذ الإمام زين العابدين، وبسبب ذلك أصبحت له مكانة في علم الحديث حتى قال ابن أبي شيبة: أصحّ الأسانيد (كلها) الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه عن جدّه.

و لكن الأيام حملته إلى بلاط بني أمية، فأصبح من بطانة عبد الملك و من عاصرهم من الملوک من بعده. و ولأه يزيد بن عبد الملك القضاء، و كتب عمر بن عبد العزيز يوصي بالأخذ عنه. و يبدو أنه غلب مقتضيات الدنيا على واجبات الدين و العلم، فظهر منه بسبب علقته بنبي أمية انحراف عن أهل البيت يتمثل في المجارة و السكوت عن الظلم. و يروى عنه أنه في بعض المواقف لم يذهب إلى مجارة بني أمية في تأويلهم القرآن و تلاعبهم به كما في حادثة دخول سليمان بن يسار على هشام فقال له: يا سليمان من الذي تولى كبره منهم؟ يعنى قوله تعالى: وَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ فقال ابن سلول: قال كذبت، بل هو علي، فدخل ابن شهاب فقال: يا ابن شهاب، من الذي تولى كبره؟ قال ابن أبي. فقال له: كذبت بل هو علي. قال: أنا أكذب...؟ الخ (2).

و لم يتأثر عن طريق الرواية للمضاهاة و للتمويه على الحقيقة التي هي من أكبر حقائق الإسلام في كون الإمام علي أول الناس إسلاماً، فكان ابن شهاب و جماعة من المحدثين و العلماء يقولون: أول من أسلم من الرجال علي (3).

و الغرض أن الإمام زين العابدين تعقّب الزهري بالنصح و الإرشاد، فقد كتب إليه رسالة يعظه فيها و يحذّره الحكام الذين استمالوه و قرّبوه لأغراضهم. و قد عكست الرسالة عمل الإمام زين العابدين على تجريد الحكام من المظاهر الدينية. و اصطناع من عرف بالعلم و الرواية للتستر على باطلهم و تمويه أفعالهم.

و مما جاء في رسالة الإمام زين العابدين إلى الزهري:

ص: 319

1- (1) الطبقات الكبرى لابن سعد ج 5 ص 214. [1]

2- (2) انظر تاريخ الإسلام للذهبي ج 5 ص 145 و 149. [2]

3- (3) انظر الاستيعاب لابن عبد البر بهامش الإصابة ج 3 ص 29. [3]

«كفانا الله وإياك من الفتن، ورحمك من النار، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يرحمك، فقد أثقلتك نعم الله بما أصح من بدنك و أطال من عمرك، وقامت عليك حجج الله بما حملك من كتابه، وفقهك فيه من دينه، وعرفك فيه من سنة نبيه، فانظر أى رجل تكون غدا إذا وقفت بين يدي الله، فسألك عن نعمه عليك كيف رعيته... ولا - تحسبن الله قابلا - منك بالتعذير، ولا راضيا منك بالتقصير. هيهات هيهات.. ليس كذلك أخذ على العلماء فى كتابه إذ قال: لَتَبَيَّنَّتْ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ .

واعلم أن أدنى ما كتمت وأخف ما احتملت أن أنست وحشة الظالم، وسهلت له طريق الغى بدنوك منه حين دنوت، وإجابتك له حين دعيت. فما أخوفنى بإثمك غدا مع الخونة. وأن تسأل عما أخذت بإعانتك على ظلم الظلمة أنك أخذت ما ليس لك ممن أعطاك. ودنوت ممن لم يرد على أحد حقا ولم ترد باطلا حين أدناك، وأحببت من حاد الله. أو ليس بدعائه إياك حين دعاك جعلوك قطبا أداروا بك رحى مظالمهم، وجسرا يعبرون عليك إلى بلاياهم، وسلما إلى ضلالهم، داعيا إلى غيهم سالكا سبيلهم، يدخلون بك الشك على العلماء، و يقتادون بك قلوب الجهال إليهم، فما أقل ما أعطوك قدر ما أخذوا منك، وما أيسر ما عمروا لك فكيف ما خربوا عليك؟ فانظر لنفسك فإنه لا ينظر إليها غيرك، وحاسبها حساب رجل مسئول، وانظر كيف شكرك لمن غذاك فى نعمه صغيرا أو كبيرا. فما أخوفنى عليك أن تكون كما قال الله تعالى فى كتابه: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ (1)».

ولا يفوتنا أن ننوه برسالة الحقوق التى اشتملت على تصنيف دقيق و تبويب جامع لما يهّم المرء من أمور دينه و دنياه و مجتمعه و عائلته، و هى تتولى بيان علم الإمام زين العابدين، ونظرتة إلى ما عهد إليه فى ولاية الإمامة و الخلافة الكبرى. كما تتولى (الصحيفة السجادية) بيان طرق الانقطاع إلى الله و الاعتماد على الخالق، و اللجوء إلى قوته، و إذا كانت الصحيفة (زبور آل محمد) فرسالة الحقوق (منهاج آل محمد) و هى من أكثر مآثر آل محمد حاجة إلى البيان و البحث.

وقد حفظ لنا التاريخ أقواله عليه السلام التى يجد الناس على مختلف مشاربهم فيها صورة الإمام الهادى و الخليفة الداعى الذى ينظر إلى الوجود بمنظار العقيدة، و يصف الدنيا كما هى حقيقتها إذا ما تمكن الهدى من النفس و أسبغ عليها الإيمان أبراده.

ص:320

قال لجابر الجعفي: «يا جابر إني لمحزون، وإني لمشتغل القلب» قلت: وما حزنك وما شغل قلبك؟ قال: «يا جابر، إنه من دخل قلبه صافي خالص دين الله، شغله عما سواه. يا جابر ما الدنيا، ما عسى أن تكون؟ هل هو إلا مركب ركبته، أو ثوب لبسته، أو امرأة أصبتها. يا جابر، إن المؤمنين لم يطمئنا إلى الدنيا لبقاء فيها، ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم، ولم يصمّمهم عن ذكر الله ما سمعوا بأذانهم من الفتنة، ولم يعمهم عن نور الله ما رأوا بأعينهم من الزينة، ففازوا بثواب الأبرار. إن أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤونة، وأكثرهم لك معونة، إن نسيت ذكرك، وإن ذكرت أعانوك. قوالين بحق الله، قوامين بأمر الله. فانزل الدنيا كمنزل نزلت به وارتحلت عنه، أو كمال أصبته في منامك، فاستيقظت وليس معك منه شيء، واحفظ الله في ما استرعاك من دينه وحكمته» (1).

ويتبع عليه السلام أمراض المجتمع، ويعمل على إصلاح العلاقات، وإقامة مودة بين النفوس. سمع رجلا يغتاب آخر فقال عليه السلام: «إن لكل شيء إداما، وإدام كلاب النار الغيبة». وقال عليه السلام: «نظر المؤمن في وجه أخيه المؤمن للمودة والمحبة عبادة». وقال أيضا: «من كمال العقل كف الأذى، فإن فيه راحة للبدن آجلا وعاجلا».

ويحدّث عليه السلام من العداوة فيقول: «لا تعادين أحدا وإن ظننت أنه لا يضرّك».

إن الإمام زين العابدين باشر مرحلة الدعوة بعد مرحلة الثورة، وهو على هدى من رسالته وبيّنة من أمره. ومن يتوهم أن الأمر عدول عن الثورة وترك للجهاد، فليس له علم بأسرار الإمامة ومكاشفات الولاية، كالذي كان من عبّاد البصري عند ما لقي الإمام زين العابدين في طريق مكة فقال له:

يا علي بن الحسين، تركت الجهاد وصعوبته، وأقبلت على الحج ولينه، وإن الله عز وجل يقول: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ - إلى قوله - وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ فقال الإمام زين العابدين: «إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحج».

ص: 321

و خلاصة القول، فإن الإمام زين العابدين الذى كان لا تبرح ذاكرته مأساة الطفّ، و يديم البكاء حتى قال: «إن يعقوب عليه السّلام بكى حتى ابيضت عيناه على يوسف، و لم يعلم أنه مات. و إنى رأيت بضعة عشر من أهل بيتى يذبّحون فى غداة واحدة، فترون حزنهم يذهب من قلبى أبدا؟» يحمل أعباء الإمامة فى ظروف أدت بالحكام إلى أن يرتكبوا جريمتهم التّكراء بحق أهل بيت النّبي. و لَمّا سئل: كيف أصبحت؟ قال عليه السّلام: «أصبحنا فى قومنا بمنزلة بنى إسرائيل فى آل فرعون، يذبّحون أبناءنا، و يلعنون سيدنا و شيخنا على المنابر، و يمنعوننا حقّنا» (1).

و لقد كانت فترة إمامته فترة صعبة و حرجة لم يتغير من السياسة شىء، بل إن المجازر اتسعت و طالت الحرّمين، فيشكوبّته و يدعو ربه: «حتى عاد صفوتك و خلفائك مغلوبين مقهورين مبتزّين يرون حكمك مبدّلا و كتابك منبوذا و فرائضك محرّفة عن جهات أشراعى، و سنن نبيك متروكة. اللهم العن أعداءهم من الأولين و الآخرين، و من رضى بفعالهم و أشياعهم و أتباعهم» و فى وسط ذلك كان عليه أن يمضى فى رسالته بالأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و يحدثّ الناس بحديث جده.

فكانت فيما يهّمهم من أمور دينهم و أحكام شريعته، و تبصيرهم بالمصلحة و ما يعود عليهم بالنفع و البقاء.

و إذا كانت هذه الأوضاع التى يعيشها قد حالت دون أن يتّخذ حلقة، إذ كيف يتسنى له العمل كالأخرين و هو مثقل بهذه الأعباء و الأحزان و الهموم، فإن مآثره فى الفكر و العمل كانت قدوة الصالحين، و أسوة الزهّاد المتعبّدين، و منهجه فى الحياة مثل للأئمة الطاهرين فى أن يكون الدين غاية الدعوة و العدل عمادها، فكانت وصيته إلى ولده، و وصيّته الإمام الباقر عليه السّلام: «يا بنى أوصيك بما أوصانى به أبى، فقد قال لى:

يا بنى إياك و ظلم من لا يجد عليك ناصرا إلا الله».

و من وصاياهم لخليفته الإمام الباقر ما يزن به أصناف الناس، و يرسم صور تصرفاتهم بميزان العاقل الحكيم و بريشة الخبير المفن. قال الإمام الباقر «أوصانى أبى قال:

لا تصحبّ خمسة، و لا تحادّهم و لا ترافقهم فى طريق. قال: قلت: جعلت فداءك يا أبت من هؤلاء الخمسة؟

ص: 322

قال: لا تصحبنّ فاسقا، فإنه يبيعك بأكلة فما دونها.

قال: قلت: يا أبة، و ما دونها؟ قال: يطمع فيها ثم لا ينالها.

قال: قلت: يا أبة، و من الثاني؟ قال: لا تصحبنّ البخيل، فإنه يقطع بك في ماله أحوج ما كنت إليه.

قال: قلت: يا أبة، و من الثالث؟ قال: لا تصحبنّ كذابا، فإنه بمنزلة السراب يبعد منك القريب، و يقرب منك البعيد.

قال: قلت: يا أبة و من الرابع؟ قال: لا تصحبنّ الأحمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك.

قال: قلت: يا أبة و من الخامس؟ قال: لا تصحبنّ قاطع رحم، فإنني وجدته ملعونا في كتاب الله في ثلاث مواضع» (1).

و يروى أن نقش خاتمه عليه السلام كان «علمت فأعمل» و كفى بذلك دلالة على سبيل العصمة و منهج الإمامة و بيان حاله من التقوى و الإيمان.

استشهد عليه السلام مسموما بأمر من الوليد بن عبد الملك سنة 95 هـ.

## الإمام الباقر:

تولى الإمام الباقر الإمامة في عصر قوة الدولة الأموية و امتداد سلطانها و شدة نفوذها، و لم يمنعه ذلك من دعوته الدينية و عمله في نشر تعاليم الإسلام و الاضطلاع بمهام الإمامة (2). بل اتجه إلى العلوم الدينية و الحثّ على التمسك بالدين، و جعل لدعوته أسلوبا يظهر الحقائق التي حاول الأمويون إخفاءها. و لقد ازدهم العلماء على أبواب مدرسته و انتشروا في الآفاق يحملون عنه أصدق الحديث.

ص: 323

1- (1) صفة الصفوة ج 2 ص 56 و 57. [1]

2- (2) عقدنا في الجزء الثاني فصلا عن حياة الإمام الباقر (الإمام الصادق [2] في ظل أبيه الباقر) ضمّ نبذا من سيرته، و إشارات إلى مدرسته و تلاميذه، و نتناول هنا بعض الأمور التي لم نتعرض لها، متحاشين التكرار و الإعادة إلا للضرورة.

و كان عصره يشهد بداية نشاط الآراء و الأقوال التي تعددت مصادرها و تباينت أغراضها، و أهل البيت في صميم هذا النشاط موضع اهتمام القائلين به و الساعين إليه، لأنهم يريدون أن يكون للدين في آرائهم ممسك و لأقوالهم مرجع، أو لأنهم من أهل الفرق و البدع الذين يرمون إلى التشكيك و الطعن، فقصده العلماء للسؤال و كشف الحقائق كعمرو بن عبيد، و الحسن البصرى و نافع مولى ابن عمر (1) و غيرهم ممن يطول ذكرهم. و لكن نورد هنا ما كان من عمرو بن عبيد-شيخ المعتزلة-عند ما وفد على الإمام الباقر عليه السلام ليسأله لا لغرض طلب العلم، و إنما بوجه أن يفاجئ الإمام الباقر بما يعجز عن الإجابة عنه، فقال له عمرو:

جعلت فداك ما معنى قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ جَعَلْنَا مَا هَذَا الرِّتْقَ؟ قال الإمام الباقر: «كانت السماء رتقا لا تنزل القطر، و كانت الأرض رتقا لا تخرج النبات، ففتق الله السماء بالقطر، و فتق الأرض بالنبات» فانقطع عمرو، و مضى ثم عاد إليه فقال:

خبرني عن قوله تعالى: وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى مَا غَضِبَ اللَّهُ؟ فقال له أبو جعفر عليه السلام: «غضب الله تعالى عقابه. يا عمرو، و من ظن أن الله يغيره شيء فقد هلك».

و دخل عليه أعرابي، و قيل رجل من الخوارج-و لا فرق فهم من أشد الأعراب بعدا عن الدين-و قال له: هل رأيت الله حين عبده؟ فقال: «لم أكن لأعبد من لم أراه». قال: فكيف رأيت؟ قال: «لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، و رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يدرك بالحواس، و لا يشبهه بالناس، معروف بالآيات، منعوت بالعلامات، لا- يجوز في القضايا. ذلك الله الذي لا- إله إلا هو» فقال الأعرابي: الله أعلم حيث يجعل رسالته (2).

و مما يحسب الآن من أعمال مجيدة في مجال الملك و تعريف مظاهر السلطان و سك العملة، فهو في حقيقته يعود لإمامنا الباقر عليه السلام. فعبد الملك بن مروان تعاطى العلم، و انخرط في سلك الفقه و الرواية، حتى جاءت له فرصة التحكّم و التسلّط، فتخلّى عن الحديث و ما يقتضيه تعاطى العلم من سمات دينية، و تحوّل إلى الدم

ص: 324

1- (1) انظر احتجاج الطبرسي. و البحار ج 4. و [1] الكافي في احتجاجات الصادق.

2- (2) زهر الآداب ج 1 ص 77. [2]

و الظلم، و هو يستشعر منزلة أهل البيت و مكانتهم، فكان يلجأ إليهم في أكثر الأمور التي تهمة، و يبدو أن عداوته تدفعه إلى إخفاء ما يرجوه منهم، لأن التظاهر بالجوء إلى أهل البيت يسيء إليه كثيرا. لما كتب ملك الروم لعبد الملك بن مروان يتهدده أن يذكر النبي صلى الله عليه و آله و سلم في الدنانير بما يكرهون، فعظم ذلك على عبد الملك، و استشار الناس فلم يجد عند أحد منهم رأيا (1) فقال له روح بن زنباع: إنك لتعلم المخرج من هذا الأمر. و لكنك تتعمد تركه. فقال: ويحك من؟ فقال: عليك بالباقر من أهل بيت النبي صلى الله عليه و آله و سلم. قال: صدقت، و لكنه ارتج الرأي فيه.

فكتب إلى عامله بالمدينة: أن أشخص إلى محمد بن علي بن الحسين مكرّما، و متّعه بمائة ألف درهم لجهازه، و بثلاثمائة ألف لنفقته، و أرح عليه في جهازه و جهاز من يخرج معه من أصحابه. و حبس عبد الملك رسول ملك الروم إلى موافاة الإمام الباقر، فلما وافاه، أخبره الخبر. فقال له الإمام الباقر: «لا يعظم عليك، فإنه ليس بشيء من جهتين:

إحداهما: إن الله عز و جل لم يكن ليطلق ما تهدد به صاحب الروم في رسول الله عليه السلام.

و الثاني: وجود الحيلة فيه».

قال: و ما هي؟ قال: «تدعو بصاغة، فيضربون بين يديك سكا للدراهم و الدنانير، و تجعل النقش عليها سورة التوحيد» (2).

و يتلبس عبد الملك بما يصدر عن الإمامة، و يتطقل على منهجها، و قد أشرنا إلى ذلك سابقا، و يستخدم عماله -عمال السوء و البغي- للاتصال بمقام أهل البيت و تلقى ما يصدر عنهم للتظاهر به أو استعماله في معالجة ما هم فيه. و قد مرّ بنا قبل قليل كيف فعل عبد الملك لما كتب ملك الروم يتوعّده، فضاق عليه الجواب. و كتب إلى الحجاج -و هو إذ ذاك على الحجاز- أن أبعث إلى علي بن الحسين، فتوعّده و تهدّده، و أغلظ له. ثم أنظر ما ذا يجيبك، فاكتب به إليّ. ففعل الحجاج ذلك، فقال

ص: 325

1- (1) شذور العقود للمقريزي ص 7.

2- (2) حياة الحيوان للدميري ج 2 ص 55. و [1] المحاسن و المساوي للبيهقي. و [2] العقد المنير ص 18. و هامش شذور العقود ص 7.

له على بن الحسين عليه السلام: «إن لله في كل يوم ثلاثمائة وستين لحظة، وأرجو أن يكفينيك في أول لحظة من لحظاته» وكتب بذلك إلى عبد الملك. فكتب به إلى صاحب الروم كتاباً فلما قرأه قال: ليس هذا من كلامه، هذا من كلام عترة نبي (1).

و القصد، أن رجال الحكم الأموي نظروا إليه نظرة تهيب و تحفظ، و وقفوا أمام نشر تعاليمه و انتشار ذكره و عارضوها، لأن ذلك يهدد ملكهم، فسلخوا كل سبيل للإساءة، و قد كان هشام بن عبد الملك من أكثرهم بغضاً و أشدهم عداوة لآل البيت النبوي الكريم.

حج هشام بن عبد الملك، فدخل المسجد الحرام متكئاً على يد سالم مولاه و الإمام الباقر جالس في المسجد الحرام، فقال له سالم: يا أمير المؤمنين هذا محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام. قال هشام: المفتون به أهل العراق؟ قال: نعم.

قال: اذهب إليه فقل له: يقول لك أمير المؤمنين ما الذي يأكل الناس و يشربون إلى أن يفصل بينهم يوم القيامة؟ فقال له الإمام أبو جعفر: «يحشر الناس على مثل قرص النقي، فيها أنهار متفجرة يأكلون و يشربون حتى يفرغ من الحساب» فرأى هشام أنه قد ظفر به، و إن في ذلك فرصة لإشاعة حاله، لينفر عنه أهل العراق. فقال: الله أكبر، اذهب فقل له: يقول لك ما أشغلهم عن الأكل و الشرب يومئذ؟ فقال له أبو جعفر عليه السلام: «هم في النار أشغل، و لم يشغلوا عن أن قالوا أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله. فسكت هشام (2).

و ليس أفتح من بذائه و هو يتنمر على الإمام الشهيد زيد بن علي، و ينال من أخيه الإمام الباقر و يقول له: ما يصنع أخوك البقرة؟!

فيجيبه الإمام زيد: سمّاه رسول الله الباقر، و سمّيه البقرة؟ لشد ما اختلفتما، لتخالفنه في الآخرة كما خالفته في الدنيا، فيرد الجنة و ترد النار (3).

و لما انصرف هشام من حجّه أنفذ إلى عامل المدينة بإشخاص الإمام الباقر و ولده الصادق، و أبقاهم ثلاثة أيام، و أذن لهم في اليوم الرابع. و بقى على هذه السياسة التي تستهدف الإساءة و القضاء على الإمام الباقر.

ص: 326

1- (1) تاريخ ابن واضح ج 3 ص 47.

2- (2) الإرشاد و [1] الإتحاف. و [2] روضة الواعظين. [3]

3- (3) انظر طرق الحديث النبوي إلى جابر بن عبد الله الأنصاري: «يوشك أن تبقى، حتى تلقى ولداً لي من الحسين يقال له: محمد. يقرر العلم بقرا، فإذا لقيته فأقرأه مني السلام» في الجزء الثاني من الكتاب.



ولما بدرت من الحكّام الأمويين بادرة على يد عمر بن عبد العزيز، تغيّرت العلاقة بين السلطة وبين الأئمة. فنرى عمر بن عبد العزيز يطلب من الإمام الباقر أن يوصيه بما ينفعه في آخرته و دنياه، فقال له عليه السّلام: «أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولدًا، وأوسطهم أخًا، وأكبرهم أبا. فارحم ولدك، وصل أخاك، وبرّ والدك. وإذا صنعت معروفًا فربّه» (أى آدمه).

ودخل عمر بن عبد العزيز المدينة واجتمع بالإمام الباقر عليه السّلام فأوصاه الإمام بقوله:

«إنما الدنيا سوق من الأسواق، يبتاع فيها الناس ما ينفعهم وما يضرّهم، وكم قوم ابتاعوا ما ضرّهم فلم يصبحوها حتى أتاهم الموت فخرجوا من الدنيا ملومين، ولما لم يأخذوا ما ينفعهم في الآخرة. فقسّم ما جمعوا لمن لم يحمدهم، وصاروا إلى من لم يعذرهم. فنحن والله حقيقون أن ننظر إلى تلك الأعمال التي نتخوف عليهم منها، واتق في نفسك اثنتين: إلى ما تحب أن يكون معك إذا قدمت على ربك فقدّمه بين يديك. وانظر إلى ما تكره أن يكون معك إذ قدمت على ربك فارمه وراءك. ولا ترغبنّ في سلعة بارت على من كان قبلك فترجو أن يجوز عنك. وافتح الأبواب وسهّل الحجاب وأنصف المظلوم وردّ المظالم. ثلاثة من كن فيه استكمل الإيمان بالله: من إذا رضى لم يدخله رضاه في باطل، ومن إذا غضب لم يخرج غضبه من الحق، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له».

ولقد كانت فترة عمر بن عبد العزيز يقظة و عى بما ألمّ بالأمة من جور الأمويين و ما لحق بالمسلمين بفعل ظلمهم، حاول فيها أن يرضى على سلطان بنى أبيه شيئا من أبراد التقى و أثواب الدين، ولكن هيهات له ذلك، لأن أساس الملك قائم على الظلم، و تاريخ بنى أمية بعمومه تاريخ شذوذ و انحراف، و لكن الأيام حفظت لعمر بن عبد العزيز ما رفع من سنّتهم السيئة، و ما بدر منه من عدل.

أما الإمام الباقر عليه السّلام فقد أفاض على ابن عبد العزيز من إشراق الإمامة و معين الخلافة الكبرى، فأعطاه تلك الصورة الرائعة عن الحكم و سياسة الرعية، و الإمام أدري بأن عمر لا يحقق ما يوصيه به لأسباب كثيرة.

و الإمام الباقر فى إمامته و منزلته بين شيعته، يعمل بمنهج الدعوة فى التفريق بين

السلطان الزمني و السلطة الروحية في الإمامة. روى الصدوق بسنده عن جابر عن الإمام الباقر عن أبيه عليهم السلام أنه قال: «إذا كان أول يوم من شهر شوال نادى مناد: أيها المؤمنون اغدوا إلى جوائزكم» ثم قال أبو جعفر عليه السلام: «يا جابر، جوائز الله عز و جل ليست كجوائز هؤلاء الملوك». و روى أيضا بسنده عن عبد الله بن سنان عن الإمام الباقر أنه قال: «يا عبد الله ما من عيد للمسلمين أضحى و لا فطر، إلا و هو يجدد لآل محمد فيه حزن» قال: قلت: و لم؟ قال: «لأنهم يرون حقهم في يد غيرهم» (1).

و لقد انضم إلى الإمام الباقر من التابعين و غيرهم رجال من الثقات و العلماء و الفقهاء ممن احتج بهم رجال الصحاح الستة، و أجمعوا على تقدمهم و شهرتهم (2) و أصبح لأصحاب الإمام الباقر منزلة و أثر في الحياة العلمية يومئذ، و كان الإمام يوجههم لإفتاء الناس، فكان يقول لأبان بن تغلب: «إني أحب أن أرى في شيعتي مثلك» بعد أن أمره أن يجلس في مسجد المدينة و يفتي الناس.

و ازدهرت مدرسة الإمام الباقر بفكره عليه السلام و توجيهه، إذ جذب علمه الرجال من مختلف الأقطار الإسلامية، و توجه إلى مدرسته الرواة. ينقل سبط ابن الجوزي عن ابن سعد: كان (الإمام الباقر) عالما عابدا ثقة، روى عنه الأئمة أبو حنيفة و غيره. قال أبو يوسف: قلت لأبي حنيفة: لقيت محمد بن علي الباقر؟ فقال: نعم، و سألته يوما فما رأيت جوابا أفخم منه. و قال عطاء: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علما منهم عند أبي جعفر، لقد رأيت الحكم عنده كأنه (عصفور) مغلوب، و يعنى بالحكم:

الحكم به عيئة، و كان عالما نبيلًا جليلا في زمانه (3). و في رواية: رأيت الحكم عنده كأنه متعلم (4). و يقول القندوزي: قال بعضهم: ما رأيت العلماء كانوا أقل علما إلا عند الإمام الباقر.

و يبين الإمام عليه السلام كيف تكون النسبة بين مقومات الشخصية العلمية فيقول:

«إني لأكره أن يكون مقدار لسان الرجل فاضلا على مقدار علمه، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا على مقدار عقله» (5).

ص: 328

1- (1) من لا يحضره الفقيه ج 2 ص 62.

2- (2) انظر تلامذة الإمام الباقر و رواة حديثه في الجزء الثاني.

3- (3) تذكرة الخواص ص 347. [1]

4- (4) البداية و النهاية ج 9 ص 311. [2]

5- (5) شرح ابن أبي الحديد ج 2 ص 191. [3]

و خلاصة القول: إن علم الإمام الباقر وعظيم منزلته الدينية جعلاً منه قائداً روحياً اتجهت إليه الأنظار و مالت إليه القلوب، فاحتل منها ذلك المكان السامى و المنزلة الرفيعة. وقد احتفظ لنا التاريخ بكثير من تراثه الفكرى، فقد كان يفيض على سامعيه من الخواطر و الحكم متوجهاً بالنصح و الإرشاد لمجتمعه.

وقد كان عليه السلام يؤدب أصحابه بأداب الإسلام و يحثهم على الطاعة و مكارم الأخلاق. فمن وصيته لجابر الجعفى: «واعلم أنك لا تكون لنا ولياً حتى لو اجتمع عليك أهل مصر و قالوا: إنك رجل سوء. لم يحزنك ذلك. و لو قالوا أنك رجل صالح. لم يسرك ذلك. و لكن أعرض نفسك على كتاب الله، فإن كنت سالكا سبيله زاهداً فى تهيدته راغباً فى ترغيبه خائفاً من تخويفه فائت و أبشر. فإنه لا يضرك ما قيل فيك» و قد مر ذكرها فى الجزء الثانى.

و ينبه عليه السلام أتباعه إلى جوهر التشيع و معدن الولاء لأهل البيت كما فى رواية جابر عن أبى عبيدة الحذاء قال عليه السلام: «تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً و طمعا. لعلك ترى أن القوم لم يكونوا ينامون؟» قال: قلت: اللّٰه و رسوله و ابن رسوله أعلم. قال: فقال: «لا بد لهذا البدن من أن تريحه حتى يخرج نفسه، فإذا خرج النفس استراح البدن و رجع الروح فيه قوة على العمل، فإنما ذكرهم تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً و طمعا أتزلت فى أمير المؤمنين عليه السلام و أتباعه من شيعتنا، ينامون فى أول الليل، فإذا ذهب ثلثا الليل أو ما شاء اللّٰه، فزعوا إلى ربهم راغبين مرهبين طامعين فيما عنده، فذكرهم اللّٰه فى كتابه، فأخبرك اللّٰه بما أعطاهم أن أسكنهم فى جواره، و أدخلهم فى جنته، و آمن خوفهم، و أذهب رعبهم» قال قلت: جعلت فداك، إن أنا قمت فى آخر الليل أى شىء أقول إذا قمت؟ قال:

«قل الحمد لله رب العالمين، و الحمد لله الذى يحيى الموتى و يبعث من فى القبور.

فإنك إذا قلتها ذهب عنك رجز الشيطان و وسواسه إن شاء اللّٰه».

و يتحسس ظروف الإرهاب الأموى و أصناف البلاء و ألوان الرعب التى خيّم على قلوب محبى أهل البيت بعد سياسة معاوية و يزيد و بقية الأمويين فيقول: «إن اللّٰه يلقى فى قلوب شيعتنا الرعب. فإذا قام قائمنا و ظهر مهدينا كان الرجل منهم أجراً من ليث و أمضى من سيف». و ذلك ليجعل أمر الحكام الظلمة غير دائم، و أن الإمامة نظامها سماوى مبشّر به من النبى الأعظم و يقول: الإيمان ثابت فى القلب، و اليقين

خطرات، فيمّر اليقين بالقلب فيصير كأنه زبر الحديد و يخرج منه، فيصير كأنه خرقة بالية، و ما دخل قلب عبد شىء من الكبر إلا نقص من عقله بقدره أو أكثر منه» (1).

و قال عليه السّلام: «اصبر للنوائب، و لا تتعرض للحقوق، و لا تعط أحدا من نفسك ما ضرّه عليك أكثر من نفعه» (2).

و يتصدّى لمهمات و قيامه بالدعوة لأن الله عز و جل قال: فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فيقول عليه السّلام: «نحن أهل الذكر».

و قال عليه السّلام: «شيعتنا من أطاع الله عز و جل و أتقاه». لكنه عليه السّلام يبين شرط هذه الطاعة، فيقول صلوات الله عليه: «أما لو أن رجلا قام ليله و صام نهاره و تصدق بجميع ماله و حج جميع دهره و لم يعرف ولاية و لى الله فيواليه و تكون جميع أعماله بدلالته ما كان له على الله حق في ثوابه و لا كان من أهل الإيمان» و قال عليه السّلام:

«إياكم الخصومة فإنها تفسد القلب، و تورث النفاق».

لقد كان الإمام الباقر يبنى النفوس بالإيمان و يربّيها على تعاليم الإسلام، و يوجه الأنظار إلى حق الإمامة و سلطة الخلافة الكبرى الدينية التي تقوم على القاعدة الدينية و الأصول الشرعية.

روى عنه عليه السّلام أن قوما أقبلوا من مصر، فمات رجل فأوصى إلى رجل بألف درهم للكعبة، فلما قدم مكة سأل عن ذلك، فدلوه على بنى شيبية، فأتاهم، فأخبرهم الخبر، فقالوا: قد برئت ذمتك ادفعها إلينا. فقام الرجل فسأل الناس، فدلوه على الإمام الباقر. قال الإمام عليه السّلام: «فأتاني فسألني، فقلت له: إن الكعبة غنية عن هذا، انظر إلى من أمّ هذا البيت و قطع، أو ذهبت نفقته، أو ضلّت راحلته، أو عجز أن يرجع إلى أهله فادفعها إلى هؤلاء الذين سمّيت لك» قال: فأتى الرجل بنى شيبية، فأخبرهم بقول الإمام عليه السّلام فقالوا: هذا ضال مبتدع، ليس يؤخذ عنه، و لا علم له، و نحن نسألك بحق هذا البيت و بحق كذا و كذا لما أبلغته عنّا هذا الكلام. قال: فأتيت أبا جعفر محمد عليه السّلام فقلت له: لقيت بنى شيبية فأخبرتهم، فزعموا أنك كذا و كذا، و أنك لا علم لك. ثم سألوني بالله العظيم لما أبلغك ما قالوا. قال: «و أنا أسألك بما سألوك لما أتيتهم فقلت لهم: إن من علمي لو وليت شيئا من أمور المسلمين لقطعت

ص: 330

1- (1) البداية و النهاية. [1]

2- (2) تاريخ ابن واضح.

أيديهم، ثم علقتها في أستار الكعبة، ثم أقمتهم على المصطبة، ثم أمرت مناديا ينادى: ألا إن هؤلاء سرّاق الله فاعرفوهم».

ثم تأتي مرحلة الدعوة في عهد الإمام الصادق بعد أن تولى الإمامة وتبوء مكان الزعامة بعد مرافقة للإمامة في أحداثها، وإعداد لدوره و عهده في ظلالها. وقد مرّ بنا في أجزاء الكتاب السابقة فصول من حياته عليه السّلام، و علمنا اتجاهه إلى حفظ شريعة الإسلام و دعوته إلى التمسك بأحكام الدين. وقد تلقى الإمام الصادق انتقال الإمامة إليه و هو يمتلك تجربة غنية و دراية تامة بطبيعة الأحداث و تصارييف الأيام، فظهرت حكمته و بدت حنكته، و قد كانت أيام حياته من أشدّ الأيام صعوبة و هو يتحمل أعباء الدعوة و يقوم بواجبات الإمامة، كان فيها التحوّل السياسي من جهة إلى جهة، و كان فيها النمو الفكري و اتساع الخلاف، و علو موجات الآراء المقالات، و كان فيها إيغال الحكام الجدد بدماء آل البيت و اضطراب أنحاء البلاد الإسلامية. إلى غيرها من الظروف، و ما انطوت عليه من محن و مآزق و معتركات.

روى الشيخ المفيد بسنده عن أبي الصباح الكناني قال: نظر أبو جعفر عليه السّلام إلى ابنه أبي عبد الله عليه السّلام فقال: «ترى هذا، هذا من الذين قال الله عز و جل:

و نُرِيدُ أَنْ نُمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ».

و الإمام الصادق هو السادس من الذين يخلفون النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم على أمور شريعته و حفظ رسالته، و الذين أخبر النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم عنهم بطرق أهل السنّة أنه صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: «في كل خلف من أمّتي عدول من أهل بيتي، ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين، و انتحال المبطلين، و تأويل الجاهلين. ألا و إن أئمتكم و فدكم إلى الله عز و جل، فانظروا من توفدون» (1). و إلى جانب النص على إمامته و الوصية، فقد كان الإمام الصادق أعلم أهل زمانه و أجلّهم قدرا و أعلاهم منزلة، فاختص بالقيام بالنظر في مصالح المسلمين الدينية، و قد رأينا أنه عاش في صميم الأحداث و الوقائع التي مرّت بأهل البيت عليهم السّلام و وعى جوهرها و طابعها الذي كانت عليه. فأحاط بالأخبار و تزوّد بالآثار، فكان كل قول منه عن علم مسبق، و كل أمر سار عليه يعلم ما يقضى إليه كأن العواقب ترتسم في مرآة أمامه.

ص: 331

فكان أن اتجه إلى محاربة الظالمين، و سار على هدى الإمامة و نهج آبائه في الدعوة إلى أحكام القرآن و تعاليم الإسلام في المودة و العدل و مكارم الأخلاق.

فأمر الإمام الصادق بعدم التعاون مع حكام الظلم و الانحراف. فقال: «العامل بالظلم و المعين له و الراضى به شركاء».

و سأله رجل من أصحابه عن البناء لهم و كراية النهر؟ فأجابه عليه السّلام: «ما أحبّ أن أعقد لهم عقدة، أو وكيت لهم وكاء و لا مدّة بقلم، إن أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد» (1).

و سئل عليه السّلام عن رجلين من أصحابه يكون بينهما منازعة في دين أو ميراث، فتحاكما إلى السلطان أو إلى القضاء، أيحلّ ذلك؟ فقال عليه السّلام: «من تحاكم إلى الطاغوت فحكم له، فإنما يأخذ سحتا و إن كان حقه ثابتا، لأنه أخذ بحكم الطاغوت و قد أمر أن يكفر به». قيل: كيف يصنعان؟ قال عليه السّلام: «انظروا إلى من كان منكم قد روى حديثنا، و نظر في حلالنا و حرامنا، و عرف أحكامنا، فارضوا به حكما؛ فإنني قد جعلته عليكم حاكما، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه، فإنما يحكم الله استخفّ، و علينا ردّ، و الرادّ علينا كالراد على الله» (2).

و سئل عليه السّلام عن قاض بين قريتين يأخذ من السلطان على القضاء الرزق؟ فقال: «ذلك السحت» (3).

و يتكلم عليه السّلام بسلطة الولاية و الخلافة الدينية التي اختص بها، فيقول في حديثه لعمر بن أبي الأحوص عن الإسلام و إنه وضع على سبعة أسهم، و قد مرّ ذكره عند الحديث عن سيرته عليه السّلام في أول هذا الجزء فقال في آخره: «فلا تخرقوا بهم، أما علمت أن إمارة بنى أمية كانت بالسيف و العسف و الجور، و إن إمامتنا بالرفق و التآلف و الوفاق و التقية و حسن الخلطة و الورع و الاجتهاد، فرغبوا الناس في دينكم و فيما أنتم فيه» (4).

ص: 332

1- (1) راجع الجزء الثاني، فصل: الإمام الصادق مدرسته و تعاليمه.

2- (2) الوسائل [1] صفات القاضى ج 18 و الاحتجاج للطبرسى ج 2. [2]

3- (3) الوسائل. [3]

4- (4) المواعظ العددية.

و الإمام الصادق في دعوة الإمامة يعطى لنهج الدعوة مجالاً في التطبيق هيأته شهرة الإمام العلمية، وإقبال الناس عليه، وتأثر المجتمع به لينشأ مجتمع الإمامة بخصائصه. عن محمد بن علي الحلبي قال: استودعني رجل من موالى بني مروان ألف دينار، فغاب فلم أدر ما أصنع بالدنانير، فأتيت أبا عبد الله الصادق عليه السلام فذكرت ذلك له وقلت: أنت أحق بها. فقال: «لا، لأن أباي كان يقول: إنما نحن فيهم بمنزلة هدنة، نؤدى أمانتهم، ونردّ ضالتهم، ونقيم الشهادة لهم وعليهم، فإذا تفرقت الأهواء لم يسع أحد المقام» (1).

ويرد ذلك في مورد التأكيد على أداء الأمانات، فيظهر في سياقها خصائص مجتمع الإمامة وسمات الدعوة. ونحوها رواية الحسين الشيباني أنه قال للإمام الصادق: إن رجلاً من مواليك يستحلّ مال بني أمية ودماءهم، وأنه وقع له عنده وديعة؟ فقال عليه السلام: «أدوا الأمانات إلى أهلها وإن كانوا مجوساً، فإن ذلك لا يكون حتى يقوم قائمنا فيحلّ ويحرّم». لأن ذلك من حقوق الأشخاص، ويندرج في باب الأمانة التي يجب الحرص عليها لضمان الأمن في المجتمع، أما الأعمال التي تتعلق بالعدل ولها مساس بمصلحة المجتمع، فتكون من الحقوق العامة، وأمرها إلى الإمام الصادق يحكم فيها بحكم الدين.

و يبين الإمام الصادق ولايته فيقول: «الناس كلهم يعيشون في فضل مظلمتنا، إلا أنا أحللنا شيعتنا من ذلك» (2).

وعن عمر بن أذينة قال: رأيت أبا سيار مسمع بن عبد الملك بالمدينة، وقد كان حمل إلى أبي عبد الله عليه السلام مالا في تلك السنة فردّه عليه، فقلت له: لم ردّ عليك أبو عبد الله عليه السلام المال الذي حملته إليه؟ فقال: إني قلت له حين حملت إليه المال: إني كنت وليت الغوص، فأصبت أربعمئة ألف درهم، وقد جنّت بخمسها ثمانين ألف درهم، وكرهت أن أحبسها عنك، أو أعرض لها وهي حثك الذي جعله الله لك في أموالنا؟ فقال: «(و مالنا من الأرض وما أخرج الله منها إلا الخمس؟ يا أبا سيار، الأرض كلها لنا ما أخرج الله منها من شيء فهو لنا)» قال قلت له: أنا أحمل

ص: 333

1- (1) تذكرة الفقهاء للعلامة الحلبي - كتاب الأمانات. [1]

2- (2) من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق.

إليك المال كله. فقال لي: «يا أبا سيّار قد طيّبناه لك، وأحللناك منه، فضمّ إليك مالك، وكلّ ما في أيدي شيعتنا من الأرض فهم فيه محلّون، ويحلّ لهم ذلك إلى أن يقوم قائمنا» اهـ.

وتمضى الإمامة على عهد جعفر بن محمد الصادق في إقامة سلطانها الروحي و مجتمعتها الديني، و ينتصب الإمام في وسط عالم ينوء بالجور و أفعال الطغاة، يتصرف بما أوجبه الأحكام من حقوق للولاية الدينية و الإمامة الشرعية، و فيما هو حق للإمام.

عن عبد العزيز بن نافع قال:

طلبنا الإذن على أبي عبد الله عليه السّلام و أرسلنا إليه، فأرسل إلينا: «ادخلوا اثنين اثنين» فدخلت أنا و رجل معي، فقلت للرجل: أحب أن تستأذنه بالمسألة، فقال:

نعم. فقال له: جعلت فداك: إن أبي كان ممن سباه بنو أمية، و قد علمت أن بنى أمية لم يكن لهم أن يحزّموا و لا يحلّلوها، و لم يكن لهم مما في أيديهم قليل و لا- كثير، و إنما ذلك لكم، فإذا ذكرت الذي كنت فيه دخلني من ذلك ما يكاد يفسد عليّ عقلي. ما أنا فيه؟ فقال له عليه السّلام: «أنت في حلّ مما كان من ذلك، و كلّ من كان في مثل حالك من ورائي فهو في حلّ من ذلك» قال: فقمنا و خرجنا، فسبقنا معتب (1) إلى نفر القعود الذين ينتظرون إذن أبي عبد الله عليه السّلام فقال لهم: قد ظفر عبد العزيز بن نافع بشيء ما ظفر بمثله أحد قط. فقليل له: و ما ذاك؟ ففسّره لهم. فقام اثنان، فدخلا على أبي عبد الله عليه السّلام فقال أحدهما: جعلت فداك، إن أبي كان من سبايا بنى أمية، و قد علمت أن بنى أمية لم يكن لهم من ذلك قليل و لا كثير، و أنا أحب أن تجعلني من ذلك في حلّ؟ فقال: «و ذلك إلينا؟» ما ذلك إلينا، مالنا أن نحلّ و لا أن نحزّم. فخرج الرجلان، و غضب أبو عبد الله عليه السّلام فلم يدخل عليه أحد في تلك الليلة إلا بدأه أبو عبد الله عليه السّلام فقال: «أ لا تعجبون من فلان، يجيئني فيستحلّني من ما صنعت بنو أمية، كأنه يرى أن ذلك إلينا!». و لم ينتفع أحد في تلك الليلة بقليل و لا كثير إلا- الأولين، فإنهما عنيا بحاجتهما. و ذلك لأن الأولين كانا قد سئلا فيما هو من حق الإمام و ما يقع في باب ما أوجه الله للقائمين بالأمر من أهل بيت النبوة.

و من عموم الأخبار، يبدو لنا بوضوح أن الإمام الصادق وضع السلطة الروحية

ص: 334

1- (1) أحد الموالى القائمين بخدمة الإمام الصادق، روى عنه الأصحاب، و هو ثقة.



التي تقوم على الإيمان بالعتيدة فى مواجهة كيان الملك و السلطان الزمنى الذى يتلبس بالدين، و يدعى الولاية معتمدا على زبانية الجور و لعقة الصحن ممن يتزبون بزى الفقه و لباس العلم، و لهذا كان الإمام الصادق ينه على أولئك الذين يرتضون لأنفسهم أن يكونوا بالمحل الذى تبه عليه جدّه الإمام السجاد فى رسالته إلى الزهرى و هو فى ظل الأميين.

يذكر هشام بن عباد أنه سمع الإمام الصادق يقول: «الفقهاء أمناء الرسل، فإذا رأيتم الفقهاء قد ركنوا إلى السلاطين فاتهموهم» (1). و قد يحسب الذهبى نفسه قد أتى بشيء بقوله: مناقب جعفر كثيرة، و كان يصلح للخلافة لسؤدده و فضله و علمه و شرفه.

فذلك ما عليه النص، و ما تواترت به الروايات، إلا أنها الخلافة الكبرى فى الدين، و ليست خلافة الملك و القوة، تلك الخلافة التى فيها دوام الرسالة و بقاء الدعوة، و لها هيئاتها و رجالها من أهل العلم و الفقه الذين يعظم أمر انحرافهم على الأئمة، و ركونهم إلى الطغاة، لأن سلطان الدين لسعادة البشرية و رعاية مصالح الأمة و دفع الضرر عنها، فحرص الأئمة عليهم السّلام على إبعاد شؤون الدين من علم وفقه و حديث و سائر وجوه الكيان الروحى للإسلام عن السلطان القائم على القهر و انتهاك الحرمات.

إنه عليه السّلام أدار إمامته على قواعد الإصلاح و الإرشاد و إقامة مجتمع دينى مستقل بروحيته عن مبادئ السياسية و قيم الملك الدنيوى، لا يتصل بالسلطان الزمنى إلا- بقدر الضرورة أو تحت تأثيراتها. و أراد أن يكون القضاء بحكم الله بين شيعته و مريديه، و ينأى عن دواوين الحكّام و عمّال الملوك الذين يندر فيهم وجود من يلتزم الحق و لا يغلب مصلحته الشخصية على مصالح الناس. فراح يقول عليه السّلام- كما مر بنا قبل قليل-: «من تحاكم إليهم فى حق أو باطل، فإنما تحاكم إلى الجبت و الطاغوت المنهى عنه، و من أمر الله أن يكفر به».

و جعل عليه السّلام من المتخاصمين من كان قد روى حديث أهل البيت و نظر فى حلالهم و حرامهم و عرف أحكامهم هو الحكم و قال: «فليرضيا به حكما، فإنى قد جعلته عليهم حاكما» و أن الحكم ما حكم به أعدلهما و أفقههما، و أصدقهما فى الحديث و أروعهما، فإن لم يتيسر للمتخاصمين، و هما على صفة الولاء للإمام و التعلّق

ص: 335

بحبل ولايته، ولم يظهر لهما ممسك يقدم لهما الحكم، فإمرهما الإمام بالتوقف عنده حتى يلتقيا الإمام، فإن الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام في الهلكات.

ولم ترهب الإمام الصادق عليه السلام عداوات الحكام والإحن الحى تملأ نفوسهم، وقام بمسئوليته فى أداء الرسالة و توجيه الأمة إلى ما فيه خيرها وسعادتها.

فانقادت إليه النفوس، و آمنت بإمامته، فكان اتجاه الناس إلى حضرته لا يقارن به تهافت العامة على أبواب الحكام، بل تسمو العلاقة عن مثل هذا الانحدار، و الأمر واضح بين الاتجاهين بفروقهما، فمع الإمام دين و تقوى، و مع الحكام دنيا و طمع.

قال إسحاق بن إبراهيم: كنت عند أبى عبد الله الصادق عليه السلام إذ دخل عليه رجل من خراسان فقال: يا ابن رسول الله، أنا من مواليكم، و بينى و بينكم شقة بعيدة، و قد قلّ ذات يدى، و لا أقدر أن أتوجه إلى أهلى، أ لا أن تعينونى؟ فنظر أبو عبد الله و قال: «أ ما تسمعون ما يقول أخوكم؟ إنما المعروف ابتداء، فأما ما أعطيت بعد ما سأل؛ إنما هو مكافأة لما بذل من ماء وجهه، أ يبيت ليلته متأرقاً متملماً بين اليأس و الرجاء، لا يدرى أين يتوجه بحاجته فيعزم على القصد إليك، فأناك و قلبه يجب، و فرائضه ترتعد، و قد نزل دمه فى وجهه، و بعد هذا فلا يدرى أ ينصرف من عندك بكآبة الرد، أم بسرور النجح، فإن أعطيته رأيت أنك قد وصلته، و قد قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم:

و الذى فلق الحبة، و برأ النسمة، و بعثنى بالحق نبياً لما يتجشّم من مسألته إياك أعظم مما ناله من معروفك».

و على أى حال، فإن سلطان الإمامة أصبح له كيان روحى معروف يقصده الناس من كل الأقطار، و تؤمن من كل البلدان. يروى عبد الرحمن بن سيّابة: لما هلك أبى سيّابة، جاء رجل من إخوانه إلىّ فضرب الباب على، فخرجت إليه، فعزّانى و قال:

هل ترك أبوك شيئاً؟ فقلت له: لا. فدفع إلىّ كيساً فيه ألف درهم و قال لى: أحسن حفظها و كل فضلها. فدخلت على أمى و أنا فرح، فأخبرتها، فلما كان بالعشى أتيت صديقاً كان لأبى فاشترى لى بضائع سابرى، و جلست فى حانوت، فرزق الله فيها خيراً كثيراً. و حضر الحج، فوقع فى قلبى، فجنّت إلى أمى و قلت لها: قد وقع فى قلبى أن أخرج إلى مكة. فقالت لى: فردّ دراهم فلان عليه فهاتها، و جنّت بها إليه، فدفعها إليه فكأنى و هبتها له فقال: لعلك استقللتها فأزيدك؟ قلت: لا، و لكن قد وقع فى قلبى الحج فأحببت أن يكون شيئك عندك. ثم خرجت و قضيت نسكى. ثم رجعت إلى المدينة فدخلت مع الناس على أبى عبد الله عليه السلام و كان يأذن إذنا عاماً، فجلست فى

مآخبر الناس و كنت حدثنا، فأخذ الناس يسألونه و يجيبهم، فلما خفّ الناس أشار إليّ، فدنوت إليه، فقال لي: «ألك حاجة؟» فقلت له: جعلت فداك، أنا عبد الرحمن بن سيّابة. فقال لي: «ما فعل أبوك؟» فقلت: هلك. قال: فتوجّع و ترخّم، ثم قال لي:

«أفتركت شيئاً؟» قلت: لا. قال: «فمن أين حججت؟» قال: فابتدأت فحدثته بقصة الرجل، فما تركني أفرغ منها حتى قال لي: «فما فعلت في الألف؟» قلت: رددتها على صاحبها، فقال لي: «قد أحسنت». و قال لي: «إلا أوصيك؟». قلت: بلى جعلت فداك، قال: «عليك بصدق الحديث و أداء الأمانة» الرواية...

قال أبو ربيع الشامي: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام و البيت غاصّ، فيه الخراساني و الشامي و من أهل الآفاق، فلم أجد موضعاً أقعد فيه، فجلس أبو عبد الله متكئاً ثم قال: «يا شيعة آل محمد، إنه ليس منّا من لم يملك نفسه عند غضبه، و من لم يحسن صحبة من صحبه، و مخالفة من خالفه، و مرافقة من رافقه. يا شيعة آل محمد، اتقوا الله ما استطعتم، و لا حول و لا قوة إلا بالله العظيم».

و القصد هنا من تقديم الروايتين بيان اتجاه الأنظار إلى الإمام الصادق و مدى اتساع دعوته و إقبال الناس عليه، و هو يتمتع بكيان روحى يفوق فى تأثيره سلطان القوة و نفوذ الحكم، و هو عليه السلام يعيّن خصائص هذا الكيان المستقل و الذى يشتمل على الوجود العلمى لمدرسته، و على النشاط الفكرى لجماعته، و يبيّن استقلالها و تفرّدها عن الحكام بالمصدر و المضمون. قال أبو بصير: سمعت أبا عبد الله الصادق يقول:

«اتقوا الله، و عليكم بالطاعة لأئمتكم، قولوا ما يقولون، و اصمتوا عمّا صمتوا، فإنكم فى سلطان من قال الله تعالى: «وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ فَاتَقُوا اللَّهَ، فَإِنَّكُمْ فى هدنة، صلّوا فى عشائرهم، و اشهدوا جناتهم، و أدّوا الأمانة إليهم، و عليكم بحج البيت؛ فإن فى إيمانكم الحج دفع مكاره الدنيا عنكم و أهوال يوم القيامة».

ثم يصف الإمام الصادق الطوائف التى يختلف عنها و ينفصل اتجاهه عن اتجاهها و يقول: «إنى لأرجو النجاة لهذه الأمة لمن عرف حقنا منهم إلا لأحد ثلاث:

صاحب سلطان جائر، و صاحب هوى، و الفاسق المعلن.

أما توجيهاته عليه السلام و وصاياه لأصحابه فمنها: «اجعلوا أمركم هذا لله و لا تجعلوه للناس، فإنه ما كان لله فهو لله، و ما كان للناس فلا يصعد إلى السماء، و لا

تخاصموا بدينكم، فإن المخاصمة ممرضة للقلب، إن الله عز وجل قال لنبيه عليه السلام:

أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . ذرُوا النَّاسَ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ أَخَذُوا عَنِ النَّاسِ، وَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمْ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ وَعَنِ عَلِيٍّ وَلَا سِوَاءَهُ، وَإِنِّي سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ:

إذا كتب الله على عبد أن يدخله في هذا الأمر كان أسرع إليه من الطير إلى وكره».

إن أهل البيت عليهم السلام جوّزوا الولاية إذا كان فيها صيانة العدل وإقامة حدود الله، والإحسان إلى المؤمنين والسعي في الإصلاح و مناصرة المظلومين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالإحسان إلى الأئمة عليهم السلام التي تبين ما على الولاية والموظفين ممن لهم من الأمر شيء، فإن مشاعر الناس التي هاجت للمظالم التي لحقت بأهل البيت وقيام الدعوة إلى الرضا من آل بيت النبي محمد، تخلق البواعث على الظهور في مواجهة الظالمين إلى السيف واعتباره وسيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما فعل الإمامة وتوجيه صاحب الأمر الشرعي فيتمثل في جوانب من دعوة الإمام الصادق في قوله: «من تولى أمرا من أمور الناس فعدل، وفتح بابه ورفع ستره، ونظر في أمور الناس كان حقا على الله عز وجل أن يؤمن روعته يوم القيامة ويدخله الجنة».

وقال عليه السلام:

«إذا أراد الله برعيته خيرا جعل لها سلطانا رحيمًا، وقبض له وزيرًا عادلاً» [1].

وكان عبد الله النجاشي واليا للمنصور على الأهواز، وكان يرى رأى الزيدية، وقدم المدينة ودخل على الإمام الصادق، وسأله بمسائل عديدة، فخرج منه وقد عدل عن رأيه وقال: هذا عالم آل محمد، ولا زال يرأس الإمام ويسأله عن أهم الأمور وما يقربه إلى الله وإلى رسوله وهو بعمله في الولاية [2]. فبعث إليه برسالته المشهورة وهي الميثاق الدائم الذي عليه سيرة الأئمة الطاهرين. ومن جوابه عليه السلام: «اعلم أن خلاصك ونجاتك في حقن الدماء وكف الأذى عن أولياء الله والرفق بالرعية، والتأني وحسن المعاشرة مع لين في غير ضعف وشدّة في غير عنف».

«يا عبد الله إياك أن تخيف مؤمنا، فإن أبي محمد حدّثني عن أبيه عن جدّه

ص: 338

1- (1) روضة الواعظين. [1]

2- (2) انظر الجزء الثاني والجزء الرابع من الإمام الصادق والمذاهب الأربعة. [2]

على بن أبي طالب أنه كان يقول: من نظر إلى مؤمن نظرة ليخيفه بها أخافه الله يوم لا ظل إلا ظله».

و ذكر الحلواني في نزهة الخاطر، أن كاتب المهدي المعروف بأبي عبد الله سأل الإمام الصادق عمّا يستطيع به مداراة السلطان و تدبير أمره، فأجابه الإمام عليه السلام بما يرشده لذلك، و شرح له طرق السلوك في مداراة السلطان، و أوصاه بأمر هامّة، و نصحه في أشياء كثيرة. و لا يخفى أن السائل كان كاتباً للمهدي و هو في ولاية عهده. و كان ممن يوالى أهل البيت شأنه شأن كثير من القوّاد و الأمراء و الكتّاب الذين دخلوا في سلطان بنى العباس لمساعدة الضعفاء، و دفع الظلم عنهم قدر استطاعتهم بعد أن كان أساس التحاقهم بهم هو الظنّ بأنّ سلطانهم قام لنصرة آل البيت و الرضا منهم.

أما ولاية الجور في عموم حكمهم و نظام سلطانهم، فإن الإمام الصادق سنّ قاعدة التعامل معهم و التعاون و إياهم في حدود الضرورة، و الإلجاء لدفع ضررهم و شرّهم، و اتقاء ظلمهم، فقال عليه السلام و هو يجيب سائله عن جهات معاش العباد التي فيها الاكتساب و التعامل بينهم و وجوه النفقات:

«جميع المعاش كلها من وجوه المعاملات فيما بينهم مما يكون لهم فيه المكاسب أربع جهات، و يكون منها حلال من جهة، و حرام من جهة.

فأول هذه الجهات الأربعة: الولاية، ثم التجارة، ثم الصناعات، ثم الإجارة.

و الفرض من الله تعالى على العباد في هذه المعاملات: الدخول في جهات الحلال، و العمل بذلك الحلال منها، و اجتناب جهات الحرام. فأحدى الجهتين من الولاية، ولاية العدل الذين أمر الله بولايتهم على الناس.

و الجهة الأخرى ولاية ولاية الجور، فوجه الحلال من الولاية ولاية الوالى العادل، و ولاية ولاته بجهة ما أمر به الوالى العادل بلا زيادة و لا نقصان. فالولاية له و العمل معه، و معونته و تقويته حلال محلل.

و أما وجه الحرام من الولاية فولاية الوالى الجائر، و ولاية ولاته، فالعمل لهم و الكسب معهم بجهة الولاية لهم محرم حرام، معذب فاعل ذلك، على قليل من فعله أو كثير. لأن كل شىء من جهة المعونة له معصية كبيرة من الكبائر، و ذلك أن في

ولاية الوالى الجائر دروس الحق كله، فلذلك حرّم العمل معهم و معونتهم و الكسب معهم إلا بجهة الضرورة، نظير الضرورة إلى الدم و الميته» (1).

و هنا مقتضى القاعدة إقامة المعاملات ليس على أساس الإقرار بشرعية سلطانهم و ولايتهم، و لا على أساس التعاون معهم فى كل شأن و فى كل ما يأمرن به، و إنما الأمر هدنة تقدم فيها الروابط و الصلات الاجتماعية، و ما اتصل بالولاية فيجرى مجرى الضرورة و أحكامها التى لا تتعدى الحدود التى أباحها الشرع فى دفع الهلاك و المضرة، و قد جعل الإمام الصادق لذلك كفارة من جنس العمل، فقال عليه السلام: «كفارة عمل السلطان: قضاء حوائج الإخوان».

و هناك بعض الأقوال للإمام الصادق التى تتعلق بهذه القاعدة كقوله: «من عذر ظالما بظلمه؛ سلّط الله عليه من يظلمه. و إن دعا لم يستجب له، و لم يؤجره الله على ظلامته».

قوله عليه السلام: من ولّى شيئا من أمور المسلمين و ضيّعه، ضيّعه الله» و قوله: «من ظلم مظلما أخذ بها فى نفسه أو فى ماله أو فى ولده».

و فى وصيته إلى محمد بن على بن النعمان - مؤمن الطاق -:

«إن من كان قبلكم كانوا يتعلّمون الصمت و أنتم تتعلمون الكلام. كان أحدهم إذا أراد التعبّد يتعلم الصمت قبل ذلك بعشر سنين، فإن كان يحسنه و يصبر عليه تعبّد، و إلا قال: ما أنا لما أروم بأهل».

«إنما ينجو من أطال الصمت عن الفحشاء، و صبر فى دولة الباطل على الأذى، أولئك النجباء الأصفياء الأولياء حقا و هم المؤمنون. إن أبغضكم إلى المتراسون المشاءون بالنمائم، الحسدة لإخوانهم ليسوا منى و لا أنا منهم. إنما أوليائى الذين سلّموا لأمرنا، و اتبعوا آثارنا».

«و اقتدوا بنا فى كل أمورنا... يا ابن النعمان، إذا كانت دولة الظلم فامش و استقبل من تتقيه بالتحية، فإن المعترض للدولة قاتل نفسه و موبقها، إن الله يقول:

وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ (2).

ص: 340

1- (1) تحف العقول. [1]

2- (2) تحف العقول.

و يبدو جليا أن الإمام يحذر من مواجهة دولة الظلم، لأن رجالها في كلا العهدين انطوت نفوسهم على كره شديد لأهل البيت خصوصا، و حقد أسود لكل مناصر لهم في دعوتهم إلى إقامة الحق و إطفاء الباطل، و ما زال الإمام تحفّه المخاطر و تبقى بكل وسيلة محاولات الظلمة للقضاء على ذكر أهل بيته ورثة علم المصطفى، هذا و الأمر موصول كما جرت به الأقدار و أراده الله، فدولة الظلم بإزائها دعوة الحق و حملة الإيمان التي يقوم بها حجج الله المكلفون بالخلافة الدينية حتى يقضى الله بخروج حجته القائم، فكان الإمام الصادق كثيرا ما يقول:

«لكل أناس دولة يرقبونها و دولتنا في آخر الدهر تظهر»

(1).

و يقول عليه السلام:

«إذا قام القائم عليه السلام، دعا الناس إلى الإسلام جديدا، و هداهم إلى أمر قد دثر، و ضلّ عنه الجمهور، و إنما سمى المهدي مهديا لأنه يهدي إلى أمر مضلول عنه و سمى القائم لقيامه بالحق».

و من قوله عليه السلام:

«إذا أذن الله تعالى للقائم في الخروج، صعد المنبر و دعا الناس إلى نفسه، و ناشدهم بالله، و دعاهم إلى حقّه، و أن يسير فيهم بسيرة رسول الله، و يعمل فيهم بعمله، فيبعث الله جبرئيل عليه السلام حتى يأتيه، فينزل على الحطيم، ثم يقول له: إلى أي شيء تدعو؟ فيخبره القائم. فيقول جبرئيل: أنا أول من يبايعك، فيمسح على يده، و قد وافاه ثلاثمائة و بضعة عشر إلى المدينة».

و قال عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ذَلِكَ وَ مَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ «إن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لما أخرجته قريش من مكة، و هرب منهم إلى الغار، و طلبوه ليقتلوه فعوقب. ثم في بدر عاقب لأنه قتل عتبة بن ربيعة و شيبه بن ربيعة و الوليد بن عتبة و حنظلة بن أبي سفيان و أبو جهل و غيرهم، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بغى عليه ابن هند بنت عتبة بن ربيعة بخروجه عن طاعة أمير المؤمنين عليه السلام و بقتل ابنه يزيد الإمام الحسين عليه السلام بغيا و عدوانا، و القائل شعرا:

ص: 341

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلوا واستهلوا فرحا ثم قالوا يا يزيد لا تشل

لست من خندف إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل

قد قتلنا القوم من ساداتهم وعدلناه ببدر فاعتدل

ثم قال تعالى: لَيْنُصْرَتَهُ اللَّهُ يَعْنِي بِالْقَائِمِ الْمَهْدِيِّ مِنْ وَلَدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ (1) ويروى عن أبيه الباقر عليه السلام في قوله تعالى: وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ هم القائم وأصحابه.

## ثورات العلويين

:

وبمرور الأيام تزداد الشقة بين حملة الرسالة وبين حكام الأمة بالباطل بعدا، و تصبح سيرة العلويين مآثر خالدة من التضحيات والبطولة التي تحيي في النفوس مبادئ العدل وعقائد الإيمان، وقد بات أساس حكم الأمويين معروفا، وسياستهم واضحة في قيامها على استهداف شخصية أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب، والنيل من مكانته في النفوس بعد أن أتمن معاوية التأثير في العوام والجهلة من أهل الشام، ممن تحكمتهم الأطماع والمنافع وبواسطة علماء السوء الذين جعلوا لباس صحبة معاوية للنبي محمد وغيره من الطلقاء ستارا للجاهلية التي استسلمت يوم الفتح، وأعطت عن يد صاغرة لتهدأ إلى حين، وقد وضعت في حسابها مسايرة الأحداث ومماشاة الإسلام، فكانت تلك الأحداث التي اتجهت إلى إبعاد أهل بيت النبوة عن منازلهم الحقيقية ومراكزهم التي أرادها الله لهم، لتأمين دوام الدعوة وبقاء الرسالة على أصولها ومبادئها، وكلما اتسعت مجالات الانحراف عن قواعد الإسلام وأحكامه، أصبحت الدعوة إلى مقاومة الباطل والقضاء على الانحراف شديدة تنطلق بها الحناجر، وتزهق من أجلها الأرواح وتهرق الدماء، وقد جعل الله لأمناء دعوة الإسلام في مواجهة الباطل والضلال أزمانا هم بالغوها بما عهد إليهم، و جرت به مقاديرهم التي تمضى في مسلك الإمامة والخلافة الكبرى.

غير أن العلويين وقد باتوا في مواجهة الجاهلية بأصنافها والباطل بطوائفه، كانوا سياج الإمامة وجندها، فملئوا الأرض بآثار التقوى وشواهد الحق، ووضعوا نصب

ص: 342



أعينهم ما قدر لأهل بيتهم و ما وضع فى أعناقهم و ما وجب على أمتهم من الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر. و هم قدوة الناس و قادتها تتطلع إليهم النفوس فى المهمات، و تشرئب إليهم الأعناق فى الملمات، فلما وجدوا أن أمية لا تقف عند حد فى عدائها لأهل البيت، و لا ترعوى و تترك المجاهرة بالضلال و المعالنة بالباطل، نهضوا ببناء أيهم الحسين مرة أخرى، و أعادوا صفحات البطولة و الفداء.

و قد سلك الأمويون مسلكا حاولوا فيه تشتيت العلويين و تمزيق صفوفهم، بعد أن أحاطوهم بما يبقى نشاطهم تحت أعين عمالهم، بتوجيه رقابة شديدة، و الاحتيال للتقرب منهم طمعا فى إزالة صفات النعمة و الابتعاد عن حكم الأمويين. تلك الصفات التى تضعف موقع الأمويين فى النفوس التى تتقرب منها، و تلهب المشاعر فى القلوب التى تقف إلى صف أهل البيت.

و قد كان هشام بن عبد الملك يزيدا آخر فى سلسلة الطغاة الأمويين، اتسم بكل قبائحه، و اتصف بالبذاءة و الحقد و اللؤم، و قد أدت السياسة التى يتبعها إلى أن يسمع ما يكشف الغشاوة و يزيلها عن عينيه لما دخل عليه الشهيد زيد بن على فقال له: ليس أحد من عباد الله دون أن يوصى بتقوى الله سبحانه، و لا أحد فوق أن يوصى بتقوى الله سبحانه، و أنا أوصيك بتقوى الله.

فقال هشام: أنت زيد المؤمل للخلافة، الراجى لها، و ما أنت و الخلافة، لا أم لك، و أنت ابن أمة.

فقال زيد: لا أعلم أحدا أعظم منزلة عند الله من نبي بعثه و هو ابن أمة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ما يقصرك برجل جدّه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم و أبوه على بن أبى طالب.

فوثب هشام و وثب الشاميون و دعى قهرمانه و قال: لا يبيتن هذا فى عسكرى الليلة. فخرج زيد عليه السلام و هو يقول لهشام: أخرج ثم لا ترانى إلا حيث تكره. ثم قال هشام: ألتستم تزعمون أن أهل هذا قد بادوا، و لعمري ما انقرض من حقل هذا خلفهم (1).

و كانت قضية الخلاف فى أوقاف الإمام على و ولايتها مدخلا عبّته أرجل

ص: 343

---

1- (1) للمزيد انظر الجزء الأول ص 124-127 و قد ضمّ كتابنا الذى أنجزناه (العلوى الثائر) ترجمة و بحثا عن الشهيد زيد.

الأمويين الدنسة، وامتدت من طريقه أيديهم القذرة لإذكاء الخصومة بين بني الحسين وبنى الحسن. ولا ندخل فى تفاصيل هذا الخلاف الذى أسهبت المصادر فى ذكرها والكثير منها يحتاج إلى تدقيق وأناة فى النظر، لتبين دور الأمويين فى كل ما نسب إلى أى من الطرفين، وعندى أن هذه السبيل التى سلكها الأمويون كان الغرض منها حمل العلويين على اللجوء إلى بنى أمية، وفى ذلك خدمة لسياستهم، إذ تظهر العلويين بمظهر الاعتراف بسلطان الأمويين والتحاكم إليهم، وقد أبطل الطرفان ما استتبع ذلك من سياسة وأغراض أرادها الأمويون، فقد فطن عبد الله بن الحسن وزيد بن على لشماتة الوالى بهما، فذهب عبد الله ليتكلم، فطلب إليه زيد فسكت، وقال زيد للوالى: أم والله لقد جمعتنا لأمر ما كان أبو بكر وعمر ليجمعانا على مثله، وإنى أشهد الله أن لا أنازعه إليك محققاً ولا مبطلا ما كنت حياً. ثم قال لعبد الله: انهض يا ابن عم. فنهضا وتفرق الناس (1). وقد كان من فعل الوالى لشدة الأناظر إلى هذا الخلاف إن كانت المدينة تغلى كالمرجل، يقول قائل كذا، وقائل يقول قال زيد كذا، وقائل يقول قال عبد الله كذا.

ويتخوف هشام بن عبد الملك من دخول زيد العراق، فيكتب إلى عامله (أنه رأى زيدا رجلاً جدلاً لسنا خليفاً لتمويه الكلام وصوغه، واجترار الرجال بحلاوة لسانه وبكثرة مخارجه فى حججه، وما يدلى به عند لدد الخصام من السطوة على الخصم بالقوة الحادة لنيل الفلج) وهشام بذلك يفصح عن خذلان منطقته وعجزه عن الوقوف أمام كلام زيد الذى يستمد من القرآن حججه، فيملاً قوله آيات بينات، ويستملى من الحقائق لغته، أما السطوة فهى من فيض النبوة وتسديد الله مما منع منه هشام وأهله لفسقهم وظلمهم. فتراه مذعوراً يكتب إلى عامله بهذا، و منه: (فعجل بأشخاصه - أى زيد - إلى الحجاز، ولا تخله والمقام قبلك، فإنه إن أعاره القوم أسماعهم فحشاها من لين لفظه وحلاوة منطقته مع ما يدلى به من القرابة برسول صلى الله عليه وآله وسلم وجدهم ميلاً إليه).

ثم قامت ثورة الشهيد زيد فى سنة 124 هـ على اختلاف فى الروايات، منها إحدى وعشرين ومائة وما بين ذلك. فلما خفقت الراية على رأسه قال: (الحمد لله الذى أكمل لى دينى، والله إنى كنت أستحى من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن أرد عليه الحوض

ص: 344

غدا ولم أمر في أمته بمعروف ولا أنهى عن منكر (1).

و حينما أخبر الإمام الصادق عليه السلام عن مقتله و ما جرى عليه، بكى بكاء شديدا وقال: «إنا لله و إنا إليه راجعون، عند الله احتسب عمي» ثم قال: «مضى و الله شهيدا، كشهداء استشهدوا مع رسول الله و علي و الحسين». و قال عليه السلام: «فلعن الله قاتله و خاذله، و إلى الله أشكو ما نزل بأهل بيت نبيه بعد موته، و نستعين الله على عدونا و هو المستعان» (2).

و هكذا حلّت بالمسلمين فاجعة أخرى، و إن كان أمرها معروفا فيما كان لدى الأئمة الأطهار من علم، إذ قال له أبوه الإمام زين العابدين: «أعيذك بالله أن تكون زيدا المصاب بالكناسة». و بلفظ: «أعيذك بالله أن تكون صليب الكناسة».

و ثورة الشهيد زيد هي من مقتضيات الحال، و من الأعمال التي تنجم عن جور الحكام و ظلمهم لآل بيت النبي محمد، و هي إحياء للحق، و عمل بأمر الله في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر. و لذلك قال الإمام الصادق: «إن زيدا كان عالما، و كان معروفا، و لم يدعكم إلى نفسه، و إنما دعاكم إلى الرضا من آل محمد. و لو ظهر لوفى بما دعاكم إليه، إنما خرج على سلطان مجتمع ينقضه».

و ما اعتقده البعض من إمامته كان سببه (خروجه بالسيف يدعو إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه و آله و سلم فظنوه يريد بذلك نفسه و لم يكن يريد بها، لمعرفة باستحقاق ابن أخيه (الصادق) عليه السلام للإمامة من قبله، و وصيته عند وفاته إلى أبي عبد الله عليه السلام) (3).

و قول زيد بن علي مشهور: (في كل زمان رجل متا أهل البيت، يحتج الله به على خلقه، و حجة زماننا ابن أخي جعفر، لا يضل من تبعه، و لا يهتدى من خالفه) (4).

و قد كان وقع المأساة عظيما في نفس الإمام الصادق، و أثرها شديدا في نفسه، فلما بلغه قول الحكم بن عباس الكلبى:

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة و لم أر مهديا على الجذع يصلب

ص: 345

1- (1) عمدة الطالب ص 256. و [1] صحاح الأخبار لأبي المعالى الرفاعى ص 36.

2- (2) انظر الجزء الرابع من هذا الكتاب.

3- (3) الإرشاد ص 251. [2]

4- (4) المناقب لابن شهر آشوب ج 2 ص 147. [3] و انظر الجزء الرابع من الإمام الصادق و المذاهب الأربعة. [4]

رفع الإمام يديه إلى السماء وقال: «اللهم سلّط عليه كلبا من كلابك» فبعثه بنو أمية إلى الكوفة، فافترسه الأسد في الطريق، فبلغ الإمام ذلك فخرّ ساجدا وقال:

«الحمد لله الذى أنجزنا وعده» (1).

ويستفاد من الروايات أنه عليه السلام جلس للعزاء، ودخل الناس عليه يعزّونه.

يقول فضيل الرسان: دخلت على جعفر بن محمد أعزّيه عن عمّه زيد، ثم قلت له:

ألا أنشدك شعر السيد-الحميرى-؟ فقال: «أنشد». فأنشده:

فالناس يوم البعث راياتهم خمس فمنها هالك أربع

قائدها العجل و فرعونهم و سامريّ الأمة المفطع

و مارق من دينه مخرج أسود عبد لكع أو كلع

و راية قائدها وجهه كأنه الشمس إذا تطلع

و روى الشيخ أبو نصر البخارى عن محمد بن عمير أنه قال: قال عبد الرحمن ابن سيّابة: أعطاني جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ألف دينار، وأمرني أن أفرّقها في عيال من أصيب مع زيد، فأصاب كل رجل أربعة دنانير (2).

و تكفل الإمام الصادق بالحسين بن زيد، وربّاه و علمه. أما يحيى فخرج إلى المدائن، ثم إلى الرى، ومنها إلى نيسابور و سرخس، حتى قتل بالجوزجان.

يروى عمير بن متوكل الثقفى عن أبيه قال: لقيت يحيى بن زيد بن على عليه السلام و هو متوجه إلى خراسان بعد قتل أبيه، فسلمت عليه، فقال لى: من أين أقبلت؟ قلت من الحج. فسألنى عن أهله و بنى عمه بالمدينة، و أخفى السؤال عن جعفر بن محمد عليه السلام فأخبرته بخبره و خبرهم و حزنهم على أبيه زيد بن على، فقال لى: قد كان عمى محمد بن على عليه السلام أشار على أبى بترك الخروج، و عرفه إن هو خرج و فارق المدينة ما يكون إليه مصير أمه، فهل لقيت ابن عمى جعفر بن محمد عليه السلام؟ قلت: نعم. قال: فهل سمعته يذكر شيئا من أمرى؟ قلت نعم. قال:

بم ذكرنى؟ خبرنى. قلت: جعلت فداك ما أحب أن أستقبلك بما سمعته منه. فقال:

أبالموت تخوفنى؟ هات ما سمعته. فقلت: سمعته يقول: إنك تقتل و تصلب كما قتل

ص: 346

1- (1) الكواكب الدرية للمناوى و نور الأبصار للشبلنجي ص 147. [1]

2- (2) عمدة الطالب و [2] صحاح الأخبار. و رجال الشيخ محمد طه نجف فى ترجمة عبد الرحمن.



أبوك و صلب. فتغير وجهه وقال: يمحو الله ما يشاء و يثبت و عنده أم الكتاب، يا متوكل إن الله عز و جل أيد هذا الأمر بنا، و جعل لنا العلم و السيف، فجمعنا لنا و خص بنو عمنا بالعلم و حده (1). فقلت: جعلت فداك، إن رأيت الناس إلى ابن عمك جعفر عليه السلام أميل منهم إليك و إلى أبيك؟ فقال: إن عمى محمد بن على و ابنه جعفر عليهما السلام دعوا الناس إلى الحياة، و نحن دعوناهم إلى الموت. فقلت: يا ابن رسول الله أهم أعلم أم أتم، فأطرق إلى الأرض مليا، ثم رفع رأسه و قال: كلنا له علم، غير أنهم يعلمون كلما نعلم، و لا نعلم كلما يعلمون. ثم قال: أ كتبت من ابن عمى شيئا؟ قلت: نعم (2).

و تنتشر ثورات العلويين و تمتد، فهم سلالة أمير أهل العدل و يعسوب الدين و أول المسلمين إسلاما الإمام على بن أبى طالب عليه السلام و هم جند الدعوة و رجال الحق و الآباء الذين يابون الضيم و يأنفون الاستكانة للظالمين. و قد ارتكب الأمويون من المجازر و المظالم ما يهزّ ضمائر أهل الذمة و أصحاب الملل و الشرائع الأخرى فضلا عن استثارتها مشاعر المؤمنين و استهواهم ما حدث، و جندوا كل ما تحت أيديهم للقضاء على ذكر الإمام على بن أبى طالب عليه السلام و قتل و تشريد أهل بيته و أصحابه و شيعته، فكانت النفوس تغلى بنار النعمة، و لما أخذت دولة الأمويين تنحدر إلى نهايتها و يظهر ضعفها، نمت حركة التحول و التغيير فى ظل الاتجاه الذى تنحدر إلى نهايتها و يظهر ضعفها، نمت حركة التحول و التغيير فى ظل الاتجاه الذى اتخذه العلويون، و كانت مظالمهم مادة الحركة و مدارها. يقول أبو الفرج: فكان أول ما يظهره فضل على بن أبى طالب و ولده و ما لحقهم من القتل و الخوف و التشريد، فإذا استتب لهم الأمر ادعى كل فريق منهم الوصية لمن يدعو إليه (3). و قد ذكرنا و بيّنا فى الأجزاء السابقة من الكتاب أن العباسيين دخلوا فى ثنايا هذه الدعوة، و أظهرها ما أظهر الآخرون و هم فى قرارات أنفسهم يخفون وراء الدعوة إلى الرضا من آل محمد أطماعا خاصة، و أغراضا سلطوية لو أبدوها لفظهم الناس من بين صفوفهم و رفضهم كافة بنى هاشم.

ص: 347

- 1- (1) سيأتى ذكر سيف النبى محمد و وجوده عند الإمام الصادق بعد قليل إن شاء الله.
- 2- (2) وردت الرواية فى التقديم للصحيفة السجادية، و إنما سقتها هنا للتدليل على أن العلم الذى يختص به الإمام لا ينازع حتى أن يحيى باستفساره الأخير كان يطلب التواصل مع ما يصدر عن الإمام الصادق.
- 3- (3) مقاتل الطالبين ص 233. [1]

و كان اجتماع الأبناء (1) و حضره جماعة من بنى هاشم، فقال صالح بن علي:

قد علمتم أنكم الذين تمدّ الناس أعينهم إليهم، وقد جمعكم الله في هذا الموضع، فاعقدوا بيعة لرجل منكم تعطونه إياها من أنفسكم، و توثقوا على ذلك حتى يفتح الله و هو خير الفاتحين.

و يروى أبو الفرج أن أبا جعفر المنصور قال: لأى شىء تخذعون أنفسكم، و والله لقد علمتم ما الناس إلى أحد أميل أعناقاً و لا أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى - يريد محمد بن عبد الله بن الحسن - و إذا نظرت فإن أبا جعفر ثانى الخلفاء العباسيين و ممن أسسوا الدولة العباسية و هو قاتل محمد بن عبد الله النفس الزكية و أخيه إبراهيم، ولكنه يومئذ لا يعدّ له وزن و لا تحسب له قيمة، بل هو ليس بشىء إذا ما قورن بمحمد النفس الزكية بفقهه و ورعه و جوده. و قد أظهر ذلك لأمر، بل أكثر منه ما يحدث به عمير بن الفضل الخثعمي، قال:

رأيت أبا جعفر المنصور يوماً، و قد خرج محمد بن عبد الله بن الحسن من دار ابنه، و له فرس واقف على الباب مع عبد له أسود، و أبو جعفر ينتظره، فلما خرج وثب أبو جعفر فأخذ بردائه حتى ركب، ثم سوّى ثيابه على السرج، و مضى محمد فقلت - و كنت حينئذ أعرفه و لا أعرف محمداً - من هذا الذى أعظمته هذا الإعظام حتى أخذت بركابه، و سوّيت عليه ثيابه؟ قال: أو ما تعرفه؟ قلت: لا. قال: هذا محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، مهدينا أهل البيت.

و قد علمنا سابقاً كيف كان الإمام الصادق يبين مسألة المهدي، كما أن حقيقة هذه الدعوى من جهة الأغراض السياسية معلومة، أما حقيقتها من جهة العلويين فليست محققة و لا مضمونة الصحة، لأن الحسينيين - من آباء عبد الله و ابنه محمد - لم يدع أحد منهم الإمامة، و قد قضى الحسن المثنى و لم يظهر منه ما يخالف النص و الولاية، و حاشاهم ذلك، فظهور الفضل فى أبناء عمهم جلي (و إلا فمن يخفى عليه فضل زين العابدين على بن الحسين السّجاد عليه السّلام على الحسن بن الحسن و عبد الله بن الحسن. و فضل الباقر محمد بن علي عليه السّلام على محمد بن

ص: 348

1- (1) موضع بين مكة و المدينة.

عبد الله بن الحسن وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن (1) أما الإمام الصادق فلا يمكن أن ينعقد أمر يخص الأمة و مصالح المسلمين دون رأيه، فهو الذى يمثل الإمامة وله بين الناس الأثر البالغ. ولما اجتمع بنو هاشم، و خطبهم عبد الله بن الحسن، فحمد الله و أثنى عليه قال: إنكم أهل البيت قد فضّلتمكم الله بالرسالة و اختاركم لها، و أكثركم بركة يا ذرية محمد صلّى الله عليه و آله و سلّم. إلى آخر الخطبة التى قال فيها: فهلم نبايع محمداً، فقد علمتم أنه المهدي. فلا يعتقد منه الظاهر من القول، لأن كثيراً من الروايات عن عبد الله نفسه تدفع ذلك، منها رواية المقانعى بسنده عن محمد بن بشر قال: قال رجل لعبد الله بن الحسن: متى يخرج محمد؟ قال: لا يخرج حتى أموت. و هو مقتول.

و كان عمرو بن عبيد ينكر أن يكون محمد بن عبد الله هو المهدي و يقول:

كيف و هو يقتل؟ و إذا سلّمنا صحة القول، فلا- وجه له إلا- التيمن باسم المهدي، أو الإشارة إلى صفة محمد فى الهداية و الورع، كتسمية (النفس الزكية) التى هى أوضح و لا تفضى إلى لبس، و كذلك وصفه بالشبه.

و بعد أن انتهى عبد الله بن الحسن من خطبته فى الاجتماع قالوا: لم يجتمع أصحابنا بعد، و لو اجتمعوا فعلنا، و لسنا نرى أبا عبد الله جعفر بن محمد (2).

و فيما وراء العلويين كان العلماء و أصحاب الفكر كالمعتزلة الذين كانوا أبرز الجماعات الفكرية فى هذه الفترة، بلغ من شهرتهم أن نسبوا الإمام زيد إلى حركتهم، و كذلك محمد النفس الزكية، و هى نسبة لا أساس لها من الواقع، و لا تتم فى إطار المنطق، لأن الأولى أن ينسب بعض وجوه فكر المعتزلة إلى هذين الرجلين لا العكس.

يروى عبد الكريم بن عتبة الهاشمى قال: كنت عند أبى عبد الله عليه السلام بمكة إذ دخل عليه أناس من المعتزلة، فيهم: عمر بن عبيد، و واصل بن عطاء،

ص: 349

1- (1) انظر المسائل الجارودية [1] فى تعيين الخلافة و الإمامة فى ولد الحسين بن على عليه السلام للشيخ المفيد ص 52. [2]

2- (2) مقاتل الطالبين. [3]



و حفص بن سالم و أناس من رؤسائهم. و ذلك أنه حين قتل الوليد، و اختلف أهل الشام بينهم فتكلموا فأكثروا، و خطبوا فأطالوا.

فقال لهم أبو عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام: «إنكم قد أكثرتم عليّ فأطلتم، فاسندوا أمركم إلى رجل منكم، فليتكلم بحجتكم أو ليوجز». «

فاسندوا أمرهم إلى عمرو بن عبيد فأبلغ و أطال. فكان فيما قال أن قال: قتل أهل الشام خليفتهم، و ضرب الله بعضهم ببعض، و تشتت أمرهم، فنظرنا فوجدنا رجلا له دين و عقل و مروة و معدن للخلافة و هو محمد بن عبد الله بن الحسن، فأردنا أن نجتمع معه فنبايعه، ثم نظر أمرنا معه، و ندعو الناس إليه، فمن كنا معه كان متئا، و من اعتزلنا كففنا عنه، و من نصب لنا جاهدناه و نصبنا له على بغية و نردّه إلى الحق و أهله، و قد أحببنا أن نعرض ذلك عليك، فإنه لا غنى بنا عن مثلك لفضلك و لكثرة شيعتك (1). و جرت بذلك مناظرة احتج فيها الإمام بما عهد عنه من الوضوح و السطوة و الفلج، و لو لا أخذنا بالإيجاز و تجاوزنا في هذا الفصل ما قرر له من حدود لأوردناها بطولها لغناها و شمولها، و لكن نكتفي بما ختم به الإمام الصادق قوله، إذ أقبل على عمرو و قال:

«أتق الله يا عمرو، و أنتم أيها الرهط فاتقوا الله، فإن أبي حدثني -و كان خير أهل الأرض و أعلمهم بكتاب الله و سنة رسوله- أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال: من ضرب الناس بسيفه و دعاهم إلى نفسه، و في المسلمين من هو أعلم منه فهو ضال متكلف».

و الظاهر أن بني هاشم عقدوا أكثر من اجتماع، منها ما حضره الإمام الصادق، و منها ما لم يحضره، و النوع الأخير حال دون انعقاد أمرهم على شيء لغياب الإمام عنه. أما أن يكون اجتماعا واحدا، و هو ما تشعر به رواية ابن الطقطقي فهو بعيد، و لا بد أن ابن الطقطقي جمع الأحداث في مدلول واحد، و من الخير إيراد روايته:

يقول ابن الطقطقي: كان بنو هاشم الطالبيون و العباسيون قد اجتمعوا في ذيل دولة بني أمية، و تذاكروا حالهم و ما هم عليه من الاضطهاد، و ما قد آل إليه أمر بني أمية من الاضطراب، و ميل الناس إليهم و محبتهم لأن تكون لهم دعوة، و اتفقوا على أن يدعوا الناس سرا، ثم قالوا: لا بد لنا من رئيس نبايعه. فاتفقوا على مبايعة النفس

ص: 350

الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام وكان محمد بن سادات بنى هاشم ورجالهم فضلا و شرفا وعلما، وكان هذا المجلس قد حضره أعيان بنى هاشم من علويهم وعباسيهم، فحضره من أعيان الطالبين: الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام، وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وابناه محمد النفس الزكية وإبراهيم قتيل باخمري وجماعة من الطالبين. ومن أعيان العباسيين: السفاح والمنصور وغيرهما من آل العباس. فاتفق الجميع على مبايعة النفس الزكية، إلا الإمام جعفر بن محمد الصادق... الخ (1).

و الغرض فإن العباسيين حاولوا دفع العلويين بالاتجاه الذي يمكنهم من تحقيق أغراضهم، وزجّهم في المعترك السياسي، لأنهم يعلمون بالخطوة التي اختطها الإمام الصادق لنفسه ولأبناء عمومته، من الانعزال عن تلك الاتجاهات، والاحتفاظ بمركزهم الديني، لأن الظروف غير مؤاتية للثورة، وكل شيء يقع قبل أوانه يؤدي به التعجيل إلى الفشل، ولكن العباسيين استطاعوا صدع الصف العلوي بجلب البعض إليهم من بنى الحسن.

ويذكر أبو الفتح الشهرستاني -بعد ذكره لمقتل يحيى بن زيد و محمد وإبراهيم (رض)- أن الإمام الصادق عليه السلام أخبرهم بجميع ما تمّ عليهم، وعرفهم أن آباءه عليه السلام أخبروه بذلك كله، وأن بنى أمية يتناولون على الناس حتى لو طاولتهم الجبال لطالوا عليها، وهم يستشعرون بغض أهل البيت، ولا يجوز أن يخرج واحد من أهل البيت حتى يأذن الله تعالى بزوال ملكهم. وكان يشير إلى أبي العباس و أبي جعفر ابن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس: «أنا نخوض الأمر حتى يتلاعب بها هذا وأولاده» إشارة إلى المنصور (2).

وصفوة القول أن الإمام الصادق هو الوحيد الذي لا يقع تحت تأثير المنافع القريبة والمصالح الظاهرة، فهو الإمام الذي أهله الله للقيادة و العلم بعواقب الأمور، واستشفاف ما وراء الحوادث، فلم يخدع بتلك المغريات ويعرض نفسه وأهل بيته، بل المجتمع الإسلامي كله لخطر لا قبل لهم على دفعه.

ص: 351

1- (1) الفخرى ص 146 و 147. [1]

2- (2) الملل و النحل ج 2 ص 252-253. [2]

ذكر كثير من المؤرخين أن أبا سلمة (1) كاتب ثلاثة من أعيان العلويين وهم:

جعفر بن محمد الصادق، وعمر الأشرف بن زين العابدين. وعبد الله المحض، وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم يسمى محمد بن عبد الرحمن بن أسلم مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال أبو سلمة للرسول: العجل العجل، فلا تكونن كوافد عاد. وقال له: أقصد أولا- جعفر بن محمد الصادق، فإن أجب فأبطل الكتابين الآخرين، وإن لم يجب فالتق عبد الله المحض، فإن أجب فأبطل كتاب عمر، وإن لم يجب فالتق عمرا:

فذهب الرسول إلى جعفر بن محمد أولا، ودفع إليه كتاب أبي سلمة، فقال الإمام عليه السلام: «مالي ولأبي سلمة؟ وهو شيعة لغيري» فقال له الرجل: اقرأ الكتاب.

فقال عليه السلام لخادمه: «أدن السراج مني» فأدناه. فوضع الكتاب على النار حتى احترق، فقال الرسول: ألا تحببته؟ قال عليه السلام: «قد رأيت الجواب، عرف صاحبك بما رأيت».

فخرج الرسول من عنده، وأتى عبد الله بن الحسن، ودفع إليه الكتاب وقراه، وابتهج، فلما كان غد ذلك اليوم الذي وصل إليه فيه الكتاب، ركب عبد الله حتى أتى منزل أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق، فلما رآه أبو عبد الله أكبر مجيئه وقال:

«يا أبا محمد (كنية عبد الله المحض) أمر ما أتى بك؟» قال: نعم هو أجل من أن يوصف. فقال له: «(وما هو يا أبا محمد؟)» قال: هذا كتاب أبي سلمة يدعوني إلى الخلافة، وقد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان. فقال له أبو عبد الله: «يا أبا محمد، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك؟» أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان، وأنت أمرتهم بلبس السواد؟ وهؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم أو وجهت فيهم؟ وهل تعرف منهم أحدا؟» فنازعه عبد الله بن الحسن الكلام إلى أن قال: إنما يريد القوم ابني محمدا لأنه مهدي هذه الأمة. فقال أبو عبد الله جعفر الصادق: «ما هو مهدي هذه الأمة، ولئن شهر سيفه ليقتلن» (2).

ص: 352

1- (1) انظر ترجمته في الجزء الرابع من هذا الكتاب.

2- (2) إن عدم احتجاج الإمام الصادق [1] بالمعروف من الأحاديث عن القائم المهدي، ورد قول عبد الله بالنصوص التي يعرفها عبد الله أيضا، يحمل على الاعتقاد بأن القول بمهدية محمد ليس بما يعنيه الاعتقاد الحقيقي بالإمام المهدي، وإنما لأغراض جذب الناس إليه و زيادة التعريف به.

فقال عبد الله: كان هذا الكلام منك لشيء؟ فقال الصادق: «قد علم الله أنى أوجب النصيح على نفسى لكل مسلم، فكيف أدخره عنك، فلا تمنّ نفسك بالأباطيل، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء. وقد جاءنى مثل الكتاب الذى جاءك» (1).

لقد بذل الإمام لأبناء عمه النصيح، و جهد أن يجنّبهم المهالك، ويصّرهم بعاقبة ما يقدمون عليه، بعد أن مرّت الأيام، و حدث التحوّل السياسى. فقد جاءت محاولة أبى سلمة متأخرة، لذا نرى الإمام الصادق عليه السّلام يشير إلى أبى مسلم و أهل خراسان و لبس السواد، فكان عليه أن يحذّر الحسينيين، فلقى منهم استنكارا و اتهاما.

و لكنه عليه السّلام كان يرى ما لا يروونه، و يعجزون عن معرفته، حتى كأن العواقب و مجريات الأحداث القادمة يقرأها فى كتاب أمامه.

كما إنه عليه السّلام لم يكشف من قبل عن رأيه فى صور من التقرب كانت تبدر من أبناء عمومته تجاه الحكام الظلمة و التّقائهم بالأمويين، فيما كان عليه السّلام مشغولا بالواجبات الدينية و معالجة ما يعانى منه المسلمون، و حماية نفسه و شيعته من سلطان الجور و حكم الطغاة، فلما قتل زيدا يوسف بن عمرو و صلب جثته بالكناسة، و بعث برأسه مع شبة بن عقال، و كلف آل أبى طالب البراءة من زيد، و قام خطبائهم، فكان أول من قام عبد الله بن الحسن، فأوجز فى كلامه، ثم جلس. و قام عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، فأطنب (2). و إن صحّ ذلك، ففيه تجاوز لمقتضيات الحيطة و ضرورات التقية.

و إن الإمام الصادق فى كيانه الروحى و الفكرى كان على نهجه فى عدم التقرب إلى الحكام و الالتقاء معهم إلا فى حدود دفع الخطر و الهلاك، و كانت مصيبة زيد - كما أشرنا - قد آلمته كثيرا و أحزنته، و لكنه عليه السّلام أظهر موقع ثورة زيد و الموقف منها. و لما بدأت فى ظل العباسيين بوادر ثورة جديدة هى ثورة النفس الزكية بعد جهده فى حملهم على العدول عن فكرة التعرّض لبنى العباس بدولتهم، و أن فى طرق الإصلاح سعة، و الدعوة بين المسلمين بمبادئ العدل و الإيمان هى أمان الأمة. و من نتائج منهج الإمام أن يكون المسلم على علم بانحراف الحكام، و يتعقب جورهم و فسادهم و باطلهم بالقول و الوعى، حتى كانت بيئة مدرسته عليه السّلام و أوضاع حياته

ص: 353

1- (1) الآداب السلطانية ص 137. و [1] مروج الذهب ج 3 ص 269.

2- (2) زهر الآداب ج 1 ص 79. [2]

إطارا لسلطة الإمامة الروحية التي لها في الأحداث رأى يصيب كبد الحقيقة، فرأى الإمام أن البيت العلوي مقبل على مأساة أخرى سيقدم فيها الدماء والأرواح، وكان عليه أن يسعى إلى حفظ هذه الدماء و حماية أهله، فأتى محمدا النفس الزكية و قال له:

«تحب أن يصطلم أهل بيتك؟» و لولا حرصه على ذلك لكان أول من يعلن الثورة، و لكن كيف يدفع بأهله و الناس إلى التهلكة؟ و لقد كان عليه السلام من وفائه لأغراض العدل أن ترك ولديه موسى و عبد الله، و لم يبخل بهما على الثورة العلوية التي أدى استئثار العباسيين و تنصلهم من أقرب الناس إليهم إلى إصرار محمد و اندفاعه في الخروج لأنه يرى نفسه صاحب الأمر و المنصور قد بايع له.

كما كان الإمام يرمى إلى أن يحفظ مكانة البيت العلوي الذي تمثلت به القيادة الروحية. غير أن حقد المنصور قد وجد الذريعة للاعتداء على مكانة أهل البيت و سفك دمائهم، فعن الحسين بن زيد: إني لواقف بين القبر و المنبر، إذا رأيت بنى الحسن يخرج بهم من دار مروان مع أبي الأزهر، يراد بهم الربذة. فأرسل إليّ جعفر بن محمد فقال: «ما وراءك؟» قلت: رأيت بنى الحسن يخرج بهم في محامل.

فقال: «أجلس» فجلست. قال: فدعا غلاما له، ثم دعا ربّه كثيرا، ثم قال لغلامه:

«اذهب، فإذا حملوا فات فأخبرني». قال: فاتاه الرسول فقال: قد أقبل بهم. فقام جعفر، فوقف وراء ستر شعر أبيض من ورائه، فطلع بعبد الله بن الحسن و إبراهيم بن الحسن و جميع أهلهم، كل واحد منهم معادله مسود (1) فلما نظر إليهم جعفر، هملت عيناه حتى جرت دموعه على لحيته، ثم أقبل عليّ فقال: «يا أبا عبد الله و الله لا تحفظ لله حرمة بعد هؤلاء، و الله ما وقت الأنصار و لا أبناء الأنصار لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم بما أعطوه من البيعة على العقبة» (2).

و نال حقد المنصور من الإمام الصادق نفسه؛ بل انفلت عداؤه، و حدث ما كان يخشاه الإمام، فكلم الإمام بكلام غليظ و نهره و قال: يا جعفر، قد علمت بفعل محمد بن عبد الله الذي تسمّونه النفس الزكية، و ما نزل به، و إنما انتظر الآن أن يتحرك منكم أحد فألحق الصغير بالكبير (3).

ص: 354

1- (1) أى أن كل واحد منهم جلس على الجهة الأخرى من محمله شخص من العباسيين أو أنصارهم الذين يلبسون السواد شعارا لهم- للمعادلة في حفظ استقرار المحمل-.

2- (2) الطبري ج 9 ص 194. و [1] مقاتل الطالبين 219.

3- (3) نور الأبصار. [2]

و عن علي بن عمر بن علي قال: سمعته -أي الإمام الصادق- حين أمره أبو جعفر أن يسير إلى الربذة فقال: «يا علي... سر معي» فسرت معه إلى الربذة، فدخل علي أبي جعفر، وقمت أنتظره، فخرج علي جعفر و عيناه تذران، فقال لي: يا علي ما لقيت من ابن الخبيثة، والله لا أمضي، ثم قال: رحم الله ابني هند، إنهما إن كانا لصابرين كريمين. والله لقد قضيا ولم يصبهما دنس... هـ.

و نحن إذا نظرنا في التاريخ لرأينا أن سنة معاوية و سياسة الحجاج باقيتان متأصلتان في الملك رغم التحول السياسي. فالمنصور بعد مذبحة أحجار الزيت التي استشهد فيها محمد النفس الزكية، و مذبحة باخمري التي استشهد فيها أخوه إبراهيم يقول لجلسائه: تالله ما رأيت رجلا أنصح من الحجاج لبني مروان. فقام المسيب بن زهير الضبي فقال: يا أمير المؤمنين ما سبقنا الحجاج بأمر تخلفنا عنه، والله ما خلق علي جديد الأرض خلقا أعزّ علينا من نبينا صلى الله عليه و آله و سلم و قد أمرتنا بقتل أولاده فأطعنناك و فعلنا ذلك، فهل نصحناك أم لا؟ فقال له المنصور: اجلس لا جلست (1).

قال الأصمعي: أحضر يوما إلى أبي جعفر هريسة الفستق، و معها مصارين الدجاج محشوة بشحم البط و السكر و دهن الفستق. فقال: إن إبراهيم و محمد أرادا أن يسبقاني إلى هذا، فسبقتهما إليه.

و ذكر أيضا أن المنصور هبت له عجة من مخ و سكر، فاستطابها فقال: أراد إبراهيم أن يحرمني هذا و أشباهه (2).

لقد كان الإمام الصادق يقول: «إن الله أخبر نبيه بما يلقي أهل بيت محمد و أهل مودتهم و شيعتهم» و الإخبار هذا اشتملت عليه علوم الإمامة التي وصلت إلى الإمام الصادق بالوصاية و النص.

و قد كان الإمام علي و وارث علم محمد و سلاحه، و هما مع الإمامة و من علاماتها أن صار إليه السلاح أوتى الإمامة، للدلالة على الأهلية بالخلافة عن الرسول في الرئاسة الدينية و الزعامة الروحية. كذلك درعه صلى الله عليه و آله و سلم و لامته و مغفرته.

و لذلك كان الادعاء بحيازة عبد الله بن الحسن لهذا السيف من ضروب الدعاوى لهم

ص: 355

1- (1) مروج الذهب. [1]

2- (2) مروج الذهب ج 3 ص 309. [2]

كقضية التشبه بالمهدى، ونفى الإمام الصادق ذلك قائلاً: «... ما رآه عبد الله بعينه، ولا بواحدة من عينيه، ولا رآه أبوه. اللهم إلا أن يكون رآه عند علي بن الحسين عليه السلام... إن عندى لسيف رسول الله، وإن عندى لراية رسول الله ودرعه ولامته ومغفرته» (1).

و خلاصة القول، فإن موقف الإمام الصادق من الحكام الظالمين هو الموقف الذى يثير فى نفوس الحكام المخاوف، ويخلق لهم المصاعب من خلال بناء النفوس والأفكار على قيم العدل و شجب الباطل و الفساد، والعمل على تحقيق علاقات فى التعامل بين الأفراد تسودها روح المحبة و الإخاء و عزة النفس و الإباء. دخل عليه رجل فقال: يا ابن رسول الله أخبرنى بمكارم الأخلاق؟ فقال عليه السلام: «هى العفو عن ظلمك، و صلة من قطعك، و إعطاء من حرمك».

و قال يوماً لأصحابه:

«إنّا لنحبّ من كان عاقلاً فهما حليماً مدارياً صبوراً صدوقاً وفياً، إن الله عز و جل خصّ الأنبياء بمكارم الأخلاق، فمن كان فيه، فليحمد الله على ذلك. و من لم تكن فيه فليتنزّع إلى الله عز و جل و ليسأله إياها».

و قال غير مرة: «ما قدّست أمة لم تأخذ لضعيفها من قوتها بحقّه».

و قال عليه السلام: «اتقوا الله و اعدلوا، فإنكم تعيرون على قوم لا يعدلون» فيسعى عليه السلام إلى تحقيق العدل فى السلوك و التعامل و التزام العباد أولاً- فيما بينهم بذلك، لأن الإصلاح بالأقوال و المواعظ الخلقية و الاجتماعية لا- تحقق أثرها، إلا- إذا كانت الأعمال مظاهرها. فوضع العمل الصالح و العدل و الخلق الطيب قواعد لدعوته فى مكافحة الظلم بكافة أنواعه و الوقوف إلى جانب المظلومين، ليظهر بذلك خطأ أولئك الذين اغتصبوا حقوق الأمة و ترأسوا عليها، و قد انحرفوا كل الانحراف عن مبادئ الإسلام و تعاليمه (2).

و لقد أراد بعض أصحابه- كما ذكرنا فى أول هذا الجزء- حملته على إعلان الثورة، و ذكروا له أن مائة ألف يضربون بين يديه. فرفض لأنه يعول على دعوته فى هزّ

ص: 356

1- (1) انظر إرشاد المفيد و [1] احتجاج الطبرسى. [2]

2- (2) انظر الإمام الصادق، [3] الدعوة الصامتة، الجزء الرابع من هذا الكتاب.

أركان الظالمين، ويرى مواصلة الجهاد بالطرق التي تضمن سلامة المجتمع و حماية أبناء الأمة الإسلامية من الملوک الذين لا تخفّ شهوتهم للدماء، ولا يفتر ظلمهم للرعية و انتهاك الحرمات و سلب الأموال و الحقوق.

لقد كان عليه السّلام يولى العدل أهمية كبرى، و يسعى إلى فضح سيرة الملوک الذين تسلّطوا على رقاب الأمة و أعوانهم الظلمة، و يكشف حقيقة حكمهم و واقع نظامهم الذى تلبّس بالإسلام و تستر بشعاراته. فعند ما تمرّ الأيام و تحدث فى بعض النفوس الصحوّة ممن ارتضت إقرار الظلم و مساعدة الجبارين، يجعل الإمام ضمان حقوق الأمة و معالجة ما لحق بها من الظلم هو الأصل فى السلامة و العودة إلى جادة الدين.

فقد جاءه رجل ممن عمل للأمويين، و كان فى معاونة الحجاج، فقال الإمام عليه السّلام:

إنى لم أزل واليا منذ زمن الحجاج إلى يومنا هذا، فهل لى من توبة؟ فسكت الإمام عليه السّلام. ثم أعاد عليه الرجل، فقال عليه السّلام: «لا، حتى تؤدى إلى كل ذى حق حقه» (1).

و الذين شاركوا فى سلب أموال المسلمين، كانوا لا يجدون من الإمام الصادق عليه السّلام ذلك التسامح الذى يظهره غير أهل البيت عليهم السّلام فى إبقاء الصبغة الدينية على حكم الظلمة و الفساد، و هو تسامح على حساب العقيدة و الأحكام ليكون إزهاق الأرواح تأويلا، و سلب الأموال و انتهاك حرمات المسلمين اجتهادا. و لكنها عند الإمام الصادق حفظ الدين، و صون الحقوق و المصالح، و الحكم بما أمر الله و رسوله. سئل عليه السّلام عن رجل أصاب مالا من عمّال بنى أمية و هو يتصدق منه و يصل قرابته و يحج ليغفر له ما اكتسب و يقول: إن الحسنات يذهبن السيئات. فقال الإمام عليه السّلام: «إن الخطيئة لا تكفّر الخطيئة، و إن الحسنة تحطّ الخطيئة». فقيّد الإمام الصادق الفعل الذى يعين على التوبة بالحسنة، و أن يكون خالصا ليس من جنس أموال الظلمة و أعمالهم، و أن بالطيب من الأفعال تحطّ الخطيئة. فكل ما يتصل بحال السلطان الظالم الغشوم و واقع ملكه قائم على غير هدى الإسلام و تعاليمه، فلا يمتّ إلى عمل الخير بصلة، و لا يحصل من الاتصال به حسنة تنال من الله القبول و تمحى بها السيئات.

ص: 357

1- (1) انظر الفصول المهمة للحر العاملى، باب جهاد النفس. [1]









ونعود إلى الحديث عن المذاهب الأربعة ورؤسائها. ونبدأ في البحث عن حياة الإمام مالك بن أنس.

وتختلف المصادر في سنة ولادته، ولم تقطع كتب المناقب بصحة أحدها، فظل الاختلاف في سنة مولده كالاختلاف في مدة حملته. ف قيل أنه ولد سنة 90 هـ، وقيل سنة 93 هـ، وقيل سنة 94، أو 95، أو 96 في المدينة المنورة. كما قيل في مدة بقائه في بطن أمه: سنتين، أو ثلاث، أو أربع. وقد تناولنا ذلك في القسم السابق من حياة مالك الذي تضمنه الجزء الثاني من الكتاب.

### من هو الإمام مالك

:

هو أبو عبد الله بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمر بن الحارث بن عثمان بن عمر بن الحارث، وهو ذو أصبح من حمير بن سبأ وهي قبيلة يمنية، وأمّه أزدية وهي العالية بنت شريك (1).

وطعن في صحة هذا النسب، فقال محمد بن إسحاق: إن مالكا وأباه وجده وأعمامه موالى لبني تميم بن مرة (2).

وقد ادعى أن حصول هذه الشبهة في نسب مالك وعدم كونه عربيا أن مالك بن أبي عامر قدم المدينة متظلما من بعض ولاية اليمن، فمال إلى بعض بني تميم بن مرة فعاقده، وصار معهم. ويلزم من ذلك أنه حليف ليصرف معنى المولى إلى المناصرة.

ص: 361

1- (1) وقيل الغالية بالغين المعجمة.

2- (2) الانتقاء لابن عبد البراص.

و ليس الطعن مقتصرًا على ابن إسحاق، فإن ابن شهاب أستاذ مالك حدث عن أبي سهيل نافع بن مالك -عم مالك بن أنس- فقال: حدثني نافع بن مالك مولى التميميين.

كما يروى ابن عبد البر عن البخاري بسند عن نافع بن مالك بن أبي عامر قال:

قال لي عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله وهو ابن أخي طلحة: هل لك إلى ما دعانا إليه غيرك فأبينا عليه، أن يكون هدمنا هدمك ودمنا دمك ترثنا ونرثك؟ وينسب هذا إلى الربيع بن مالك -عم مالك- أيضًا.

و كما طعن في أبي مالك و عدم صحة عرويته، فكذلك الحال في أمه العالية، وقيل إنها طليحة مولاة عبيد الله بن معمر. حكاه القاضي عياض (1) وابن عائشة.

وقال ابن عمران التميمي: ما بيننا وبينه نسب، إلا أن أمه مولاة لعمى عثمان بن عبد الله (2).

وقد أثرت هذه الأقوال على مالك، وكانت السبب في تكذيب مالك لمحمد بن إسحاق و طعنه عليه (3). و لما بلغ مالك قول ابن شهاب قال: لبيته لم يرو عنه شيئًا (4).

## عصر مالك و علمه

:

قلنا فيما مرّ من الأجزاء السابقة، إن النزاعات الفقهية و المشكلات التي طرأت كانت سببا في ظهور الأسماء، و تغلب جماعة دون أخرى. و قد كان النزاع بين أهل العراق و بين أهل الحجاز سببا في ظهور مدرسة الرأي و مدرسة الحديث، و تزعم أبي حنيفة للأولى، و تزعم مالك للثانية. و كانت مصالح الحكام قد اقتضت أن تقف إلى جانب أبي حنيفة، و تشدّ أزر أصحابه، و تقدّم الموالى لتحط من قيمة العرب. ثم اقتضت أن توجه الأنظار إلى مالك و تتبناه و تجعل منه إمام الدولة المطاع.

ثم لعب الغلوّ دوره في تعزيز اتجاه كل من الطرفين، فوضعت الأحاديث و المنامات على لسان النبي محمد صلّى الله عليه و آله و سلّم كما في حديث: يكون في أمتي رجل اسمه

ص: 362

1- (1) تزيين الممالك في مناقب الإمام مالك للسيوطي ص 4.

2- (2) الديباج المذهب لابن فرحون ص 17.

3- (3) الانتقاء ص 11.

4- (4) الديباج المذهب.

النعمان وكنيته أبو حنيفة هو سراج أمتي، هو سراج أمتي، هو سراج أمتي (1). وغالطوا الحقائق فقالوا: إن أهل الكوفة كلهم موالى لأبي حنيفة-أى عبيد-فأعتقهم (2).

يريدون نفى حقيقة أن أبا حنيفة كان مولى لبيت من بيوت الكوفة و كان لهم ولاؤه.

وقد دخل التعصب في إطار الأشخاص و تقديس الرؤساء، لأن الأحوال أدت إلى اصطناع المذاهب و تعيين الرؤساء، وراح الناس في ظل التنازع و التعصب يلتحمون بالطائفة التي شَبَّوا في أفيائها و عاشوا بأوساطها، و قد لجأ المالكية إلى حديث عالم المدينة، فإن كان صحيحا، فأين ذهب عن مالك في حينها ليحتج به لنفسه؟ و ذلك أول ما يتبادر، لأن عموم حديث مالك و غاية جهده أن يجعل موقع المدينة و منزلتها الشرعية في المكان الأول، و عمل أهل المدينة متبعا بحكم تشرفها بهجرة الرسول محمد و هبوط الوحي، و مكانة المدينة تحجب عليها السرائر و تعبّر عنها المشاعر قبل أن تنص عليها الأقوال و الأفعال، إلا أنها جعلت في صيغة يلتمس بها الظفر و الفلج في وجوه و موارد هي من التصرف و السلوك، و ليس من مضامين العلم أو أغراض الشريعة المحضنة.

لقد جعلوا من الحديث النبوي معتمدا في ترجيح المذهب المالكي من خلال ترجيح شخصية مالك و انطباقه عليه و حده، و هو أنه صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: يوشك أن تضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم. و في رواية: يلتمسون العلم، فلا يجدون عالما أعلم. و في رواية: أفقه من عالم المدينة. و في رواية: من عالم بالمدينة. و في بعضها: أباط الإبل، مكان: أكباد الإبل. و قد رواه البخاري عن ابن جريج موقوفا على أبي هريرة، و محمد بن عبد الله الأنصاري عن ابن جريج، و رواه أيضا المقبري عن أبي هريرة: لا تنقضى الساعة حتى يضرب أكباد الإبل من كل ناحية إلى عالم المدينة يطلبون علمه. و خرّجه النسائي مرفوعا إلى أبي هريرة: يضربون أكباد الإبل و يطلبون العلم و لا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة. و روى عن أبي موسى الأشعري بلفظ: يخرج ناس من المشرق و المغرب في طلب العلم، فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة. إلى آخر الروايات التي ذكرها كتاب المناقب كابن فرحون.

ص: 363

1- (1) جامع مسانيد أبي حنيفة ج 1 ص 15.

2- (2) مناقب أبي حنيفة للمكي ج 1 ص 174.

وقد قلنا فى القسم الأول، إن الحديث لا يخلو من خدشة فى السند، فإن أبا الزبير - وهو أحد رواة هذا الحديث - قد تكلموا فيه و طعنوا.

كما أن صرف الحديث إلى إرادة مالك دون غيره يبقى ضعيفا و لا يتجه. لأن الحديث يراد به المنزلة العلمية للمدينة أولا، و لرجل العلم فيها ثانيا الذى عيّن بصفات عامة تدور مع حركتها العلمية و منزلتها، و لا يتمكن شيوخ المالكية من نفي ذلك و هم يسوقون الحديث، فابن فرحون يذكر تأويل محمد بن إسحاق المخزومي: (ما دام المسلمون يطلبون العلم فلا- يجدون أعلم من عالم المدينة، كان بها أو غيرها، فيكون على هذا سعيد بن المسيب- كما يرى- لأنه النهاية فى وقته. ثم من بعده غيره ممن هو مثله من شيوخ مالك، ثم بعدهم مالك، ثم بعده من قام بعلمه و كان أعلم أصحابه بمذهبه، ثم هكذا، ما دام للعلم طالب و لمذهب أهل المدينة إمام، و يجوز على هذا أن يقال هو ابن شهاب فى وقته، و العمرى فى وقته، و مالك فى وقته).

و تعلق المالكية بدار الهجرة و شهادة السلف. قال القاضى عبد الوهاب: لا ينازعنا فى هذا الحديث أحد من أرباب المذاهب، إذ ليس منهم من له إمام من أهل المدينة فيقول هو إمامى. و نحن نقول إنه صاحبنا بشهادة السلف له، و بأنه إذا أطلق بين العلماء قال عالم المدينة و إمام دار الهجرة فالمراد به مالك دون غيره من علمائها، و قال القاضى عياض: فوجه احتجاجنا بهذا الحديث من ثلاثة أوجه، الأول: تأويل السلف أن المراد به مالك، و ما كانوا ليقولوا ذلك إلا عن تحقيق. الثانى: شهادة السلف الصالح له و إجماعهم على تقديمه يظهر أنه المراد إذا لم تحصل الأوصاف التى فيه غيره و لا أطبقوا على هذه الشهادة لسواه. الثالث: ما تبه عليه بعض الشيوخ أن طلبه العلم لم يضربوا أكباد الإبل من شرق الأرض و غربها إلى عالم، و لا رحلوا إليه من الآفاق رحلتهم إلى مالك (1).

وقد ذكرنا طائفة من العلماء فى ذلك الوقت هم من شيوخ مالك و أعلم منه (2) كربيعة الرأى بن أبى عبد الرحمن، و الذى أراده العباسيون فى مطلع دولتهم أن يدلى

ص: 364

1- (1) شرح الموطأ للزرقانى ج 1 ص 4.

2- (2) انظر الجزء الثانى من الكتاب.

بدلوه بين الدلاء فى تعضيد دولتهم و خدمتهم. و يروى مالك عن سيرة أستاذه: لما قدم ربيعة بن أبى عبد الرحمن على أمير المؤمنين أبى العباس أمر له بجائزة، فأبى أن يقبلها، فأعطاه خمسة آلاف درهم يشتري بها جارية حين أبى أن يقبلها، فأبى أن يقبلها. قال ابن وهب: و حدثنى مالك عن ربيعة قال: قال لى حين أراد الخروج إلى العراق: إن سمعت أنى حدثهم شيئاً أو أفيتهم، فلا تعدنى شيئاً. قال: فكان كما قال، لما قدمها لزم بيته فلم يخرج إليهم و لم يحدثهم بشىء حتى رجع (1). و لا بد أن روايته عن سيرة أستاذه جاءت عقب وفاة ربيعة، و مالك لم يتحول بعد إلى صف العباسيين و يتخلى عن ميوله و عواطفه السابقة التى تشده إلى الأمويين و تجعله يتغاضى عن جرائمهم و ما فعلوا بالحرمين و ما ارتكبوا من مجازر بحق أهل المدينة، فهو يبنى تفوقه و يرجح نفسه بانتسابه إلى المدينة، و يرى أن ينقاد غيره إليه كما يقول فى رسالته إلى الليث بن سعد (2):

(اعلم رحمك الله أنه بلغنى أنك تفتى الناس بأشياء مختلفة، مخالفة لما عليه الناس عندنا و ببلدنا الذى نحن فيه، و أنت فى أمانتك و فضلك، و منزلتك من أهل بلدك، و حاجة من قبلك إليك، و اعتمادهم على ما جاء منك حقيق بأن تخاف على نفسك، و تتبع ما ترجو النجاة باتباعه، فإن الله تعالى يقول فى كتابه: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ وَ قال تعالى: فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ فَإِنَّمَا النَّاسُ تَبِعُوا لَأهل المدينة، إليها كانت الهجرة، و بها نزل القرآن، و أحلّ الحلال و حرّم الحرام... الخ رسالته.

قال أبو مصعب: قدم علينا ابن مهدي (3) فصلّى خلف مالك، و وضع رداءه بين يدي الصف، فلما سلّم الإمام رمقه الناس بأبصارهم، فقال مالك: من هنا من

ص: 365

1- (1) تاريخ بغداد ج 2 ص 425. [1]

2- (2) أبو الحرث- الحرث- ابن عبد الرحمن الفهمى من أصبهان، ولد بمصر سنة أربع و ستين، روى عن الزهري و عطاء و نافع كانت له حظوة و خضع القضاء لأوامره، فكان إذا رابه من أحد شىء كاتب فيه فيعزل، و فى الشذرات أن المنصور أراد له لولاية مصر، فأبى و تولى قضاءها.

3- (3) هو الحافظ عبد الرحمن بن مهدي بن حسان الأزدي، مولاهم أبو سعيد البصرى اللؤلؤى روى عن شعبة و الثورى و مالك، وثقه أبو حاتم و أحمد، قال القواريرى: أملى علينا ابن مهدي عشرين ألفاً من حفظه، كان يحج كل سنة، توفى سنة 198 هـ.



الحرس؟ فجاءه نفسان. فقال: هذا صاحب هذا الثوب فاحبساه. فحبس، فقيل له:

إنه ابن مهدي. فوجه إليه و حضر عنده فقال له: أ ما خفت الله و اتقيته إن وضعت ثوبك بين يديك في الصف و أشغلت المصلين بالنظر إليه، و أحدثت في مسجدنا شيئاً ما كنا نعرفه، و قد قال النبي صلى الله عليه و آله و سلم: من أحدث في ديننا شيئاً فعليه لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين (1).

و يروى كتاب مناقب مالك، أن أمه قالت له: اذهب إلى ربيعة، فتعلم من أدبه قبل علمه. قال مالك: كان لي أخ في سن ابن شهاب (2) فألقى أبي يوماً علينا مسألة، فأصاب أخي و أخطأت، فقال لي أبي: ألهمت الحمام عن طلب العلم. فغضبت، و انقطعت إلى ابن هرمرز 3 سبع سنين. و في رواية ثمان سنين لم أخلطه بغيره، و كنت أجعل في كمي تمرًا و أناوله صبيانه و أقول لهم: إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا مشغول! يريد أن ينفرد بالشيخ و لا يشاركه أحد بمجلسه، و لا بد أن الصبيان قالوا بما أراد لهم أن يقولوا.

و يذكر مالك مدة اختلافه إلى ابن هرمرز ثلاثين سنة، فيشير إلى المدة دون ذكر ابن هرمرز كما أراد، و الناس تعرف منه الإشارة.

كذلك أخذ مالك عن نافع مولى بن عمر، و قال: كنت أتى نافعاً نصف النهار و ما تظلني الشجر من الشمس، أتحنّ خروجه، فإذا خرج أدعه ساعة كأنى لم أراه، ثم أتعرض له فأسلم عليه و أدعه، حتى إذا دخل البلاط أقول له: كيف قال ابن عمر في كذا و كذا؟ فيجيبني، ثم أحبس عنه، و كان فيه حدة، و كنت أتى ابن هرمرز من بكرة فما أخرج من بيته حتى الليل.

و القصد أن مالكا أراد أن يتهياً للفتيا، و أن يتأهل للحديث. و لكن موهبة الحفظ و الذاكرة عنده كانت أظهر من غيرها، فيروى أنه قال: (حدثني ابن شهاب أربعين حديثاً و نيفا فيها حديث السقيفة، فحفظت، ثم قلت: أعدها علىّ فأني نسيت النيف).

فأبي، فقلت: أ ما كنت تحب أن يعاد عليك؟ قال: بلى. فأعاد، فإذا هو كما حفظت). و اشتهر عنه ذلك و كان من أخص صفاته. يقول سفيان بن عيينة: دارت

ص: 366

1- (1) الاعتصام ج 2 ص 68. و المدارك ص 130.

2- ((2) و (3)) انظر ترجمتهما في الجزء الثاني.

مسألة في مجلس ربيعة. فتكلم فيها ربيعة. فقال مالك: ما تقول يا أبا عثمان؟ فقال ربيعة: أقول فلا تقول، وأقول إذ لا تقول، وأقول فلا تقفه ما أقول. و مالك ساكت، فلم يجب بشيء و انصرف (1).

و أخرج الخطيب عن إبراهيم المزني قال: حججت سنة، فأتيت المدينة، فحدثني إسماعيل بن جعفر الخياط فقال: نزلت بي مسألة، فأتيت مالكا فسألته فقال:

انصرف حتى أنظر في مسألتك. فانصرفت و أنا متهاون بعلمه، و قلت: هذا الذي تضرب إليه المطى لم يحسن مسألتى. فأتاني آت في منامى فقال: أنت المتهاون بعلم مالك، أما إنه لو نزل بمالك أدق من الشعر، وأصلب من الصخر، لقوى عليه باستعانتة عليه بما شاء الله لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم (2).

و قد لجأ مالك إلى المنامات بنفسه، فكان يقول: ما بت ليلة إلا رأيت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم (3). و عن خلف بن عمر: دخلت على مالك فقال لي: انظر ما ترى تحت مصلاي. فنظرت فإذا أنا بكتاب، قال: اقرأه. فإذا فيه رؤيا رآها له بعض إخوانه. فقال: رأيت النبي صلى الله عليه و آله و سلم في المنام في مسجده قد اجتمع الناس عليه، فقال لهم: إني قد خبأت لكم طيبا و علما، و أمرت مالكا أن يفرقه على الناس. فانصرف الناس و هم يقولون: إذن ينفذ مالك ما أمره رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، ثم بكى، فقمت عنه (4).

و قال محمد بن ربح: حججت مع أبي و أنا صبي لم أبلغ الحلم، فتمت في مسجد النبي صلى الله عليه و آله و سلم بين القبر و المنبر، فرأيت النبي صلى الله عليه و آله و سلم قد خرج من القبر متكئا على أبي بكر و عمر رضی الله عنهما، فسلمت عليهم، فردوا علي السلام، فقلت: يا رسول الله، أين أنت ذاهب؟ فقال أقيم لمالك الصراط المستقيم. فانتبهت، فأتيت أنا و أبي مالكا، فوجدنا الناس مجتمعين عليه، و قد أخرج لهم الموطأ أول ما خرج (5).

و قال محمد بن ربح أيضا: رأيت النبي صلى الله عليه و آله و سلم في المنام منذ أربعين سنة فقلت:

ص: 367

- 1- (1) الديباج ص 21.
- 2- (2) مناقب مالك للسيوطي ص 12.
- 3- (3) حلية الأولياء ج 6 ص 317.
- 4- (4) مناقب مالك ص 8. و حلية الأولياء ج 6 ص 317.
- 5- (5) مناقب مالك لعيسى بن مسعود الزواوي ص 17.

يا رسول الله مالك و الليث يختلفان فى المسألة؟ فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: مالك مالك ورت جدى يعنى إبراهيم (1).

وقال بشير بن أبى بكر: رأيت فى النوم أنى دخلت الجنة، فرأيت الأوزاعى و سفيان الثورى، و لم أر مالك بن أنس. فقلت أين مالك؟ قالوا: و أين مالك؟ رفع مالك رفع مالك. فما زال يقول: و أين مالك، و أين مالك، رفع مالك حتى تسقط قلنسوته 2.

و روى أبو نعيم عن إبراهيم بن عبد الله قول إسماعيل بن مزاحم المروزى قال: رأيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى المنام فقلت: يا رسول الله من نسأل بعدك؟ قال: مالك بن أنس (2).

و عن مصعب بن عبد الله الزبيرى قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ أتاه رجل فقال: أيكم مالك؟ فقالوا: هذا. فسلم عليه، و اعتنقه، و ضمه إلى صدره و قال: و الله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم البارحة جالسا فى هذا الموضع، فقال: اتوا بمالك. فأتى بك ترعد فرائصك، فقال: ليس بك بأس يا أبا عبد الله. و كئناك و قال: اجلس.

فجلست. قال: افتح حجرك. ففتحتة، فمأله مسكا مشورا، و قال: ضمه إليك، و بثه فى أمتى. قال: فبكى مالك و قال: الرؤيا تسر و لا تغر و إن صدقت رؤياك فهو العلم الذى أودعنى الله (3).

و يطول بنا المقام لو أحصينا الرؤى و المنامات و ما تفيض به الأحلام. و قد أوردنا بعضا مما كان على عهد مالك نفسه، و بذلك أصبح من حقهم أن يعتمدوا المنامات ركناء، و يلجأ و إليها فيما يريدون ترجيحه و شيوعه، و خلاصة القول؛ إن مالكا عرف بالحفظ و الذاكرة، فاتجه إلى المنحى الذى يتفق مع موهبته، ثم ظهر منه كراهية للسؤال، فمال إلى استخدام سلاح الاتهام بالبدعة. و غالبا ما يظن بالسائل أنه يريد المغالطة، و يقوم برده بهذه الآية: وَ لَلْبَسِّ نَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ و الحال يقتضى التهيؤ للمناظرة، و الإقبال على الحوار، لأن الفترة قد شهدت بوادى اتساع الأقوال فى الصفات و إثباتها أو تعطيلها، و ليس من الحكمة فى شىء الزجر دون اقناع، أو التعنيف و ترك الحجاج، مما يترك فى نفس السائل الحيرة، أو يؤكد فى عقله الميل و من ثم الانجراف.

ص: 368

1- (1) و (2) الجرح و التعديل ج 1 ص 28.

2- (3) حلية الأولياء ج 6 ص 317.

3- (4) الانتقاء ص 39. و شرح الموطأ للزرقانى ج 1 ص 4.

يروى حفص بن عبد الله قال: كنا عند مالك، فجاء رجل، فقال: يا أبا عبد الله الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى كيف استوى؟ فقال: كيف غير معقول، و الاستواء غير مجهول، و الإيمان به واجب، و السؤال عنه بدعة. و أظنك صاحب بدعة.

و أمر به، فأخرج.

و الجواب بلا أدري أهون بكثير حتى و إن بات قاعدة يورثها مجلسه، فلا عيب في ذلك، لأن السائل يتحرى عند غيره الإجابة، و هو المعروف عن مالك أيضا، فعن الهيثم بن جميل قال: شهدت مالكاً سئل عن ثمان و أربعين مسألة، فقال في اثنين و ثلاثين منها: لا أدري. و غالبا ما يلجأ إلى (لا أدري) فعن ابن وهب أنه قال: لو شئت أن أملاً ألواحاً من قول مالك (لا أدري) فعلت (1) و من علماء المالكية من يتعجب من قول لا أدري (2).

إن عصر مالك كان من أكثر العصور ازدهارا، و قد أصبحت المدينة موطناً للعلم و مولداً لطلابه من مختلف الأقطار الإسلامية، و امتازت بالتمسك بالحديث في مقابلة العراقيين و امتيازهم بالرأى و القياس، و عظم العداوة بين البلدين، و أدى إلى اتهامات و خصومات ابتعدت كثيرا عن العلم.

كان أبو سعيد الرأى يمارى أهل الكوفة، و يفضل أهل المدينة، فجاءه رجل من أهل الكوفة و اسمه شرشيرا و قالوا كلب في جهنم يسمى شرشيرا فقال:

عندى مسائل لا شرشير يعرفها إن سيل عنها و لا أصحاب شرشير

و ليس يعلم هذا الدين يعلمه إلا حنيفة كوفية الزور

لا تسألن مدينا فتكفره إلا عن البم و المثنى و الزير

فكتب أبو سعيد إلى أهل المدينة: إنكم قد هجيتهم، فردّوا. فردّ عليه رجل من أهل المدينة يقول:

لقد عجبت لغا و ساقه قدر و كل أمر إذا ما جمّ مقدور

قالوا المدينة أرض لا يكون بها إلا الغناء و إلا البم و الزير

لقد كذبت لعمر الله إن بنا قبر النبي و خير الناس مقبور

(3)

ص: 369

1- (1) المناقب للسيوطى ص 12 و ص 16. و حلية الأولياء ج 6 ص 323.

2- (2) انظر المجلد الأول/الجزء الثاني من هذا الكتاب.

3- (3) العقد الفريد ج 3 ص 408. [1]

أما فى المدينة، فكان مالك بمنزلته يوجه الناس ضد أهل العراق، وكان يقول لرجل من أهل الكوفة: لم يأخذ أولونا عن أوليكم، فكذلك لا يأخذ آخروننا عن آخريكم. ووصفها مالك بدار الضرب، فقال: هى دار الضرب، يضربون بالليل ما ينفقون. وكان ينسب إلى ربيعة القول: ما رأيت عراقيا تام العقل.

و نسب إلى أحد علماء المدينة قوله: كأن النبى الذى بعث إلينا غير النبى الذى بعث إليهم.

و كان يقال بالمدينة: تركوا أحاديث أهل العراق منزلة أحاديث أهل الكتاب، فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم (1).

وفى وسط هذه المنازعات و الخصومات التى استباحث الكثير من عصم الإيمان و روابط العقيدة، كانت مدرسة الإمام الصادق تفيض بإشراقها من علم أهل بيت النبوة، و تغنى بإلهامها عقول العلماء، فكان الإمام الصادق محيطا بموارد النزاع و عارفا بوجه الخلاف بصورها على المسائل و الآراء، و صبغتها التى مضت عليها فى المجالس و الحلقات. و يجرى علمه فى أوساط الأمة بأصوله من الكتاب و أدلته من السنة، بشمول لا يتهيا لبشر، و دراية يعجز عنها غيره، فكان أفقه الناس و أعلم أهل زمانه.

و كان أبو جعفر المنصور أول ما أراد أن يجعل أبا حنيفة و سيلته فى التأثير على مكانة الإمام الصادق فى النفوس و النيل من منزلته العلمية، و ذلك قبل أن يتحول إلى الإمام مالك.

قال الحسن بن زياد اللؤلؤى: سمعت أبا حنيفة - و سئل من أفقه من رأيت -؟ قال: ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد الصادق، لَمَّا أقدمه المنصور بعث إلى فقال:

يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهبى له من المسائل الشداد، فهيات له أربعين مسألة. ثم بعث إلى أبو جعفر و هو بالحيرة، فأتته، فدخلت عليه، و جعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلني لأبى جعفر، فسلمت عليه، و أوما إلى فجلست، ثم التفت إليه فقال: يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة. فقال: «نعم» ثم اتبعها: قد أتانا، كأنه

ص: 370

كره ما يقول فيه قوم أنه إذا رأى الرجل عرفه، ثم التفت إلى فقال: يا أبا حنيفة ألق على أبي عبد الله من مسائك. فجعلت ألقى عليه، فيجيبني فيقول: «أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا» فربما تابعنا، وربما تابعهم، وربما خالفنا جميعاً، حتى أتيت على الأربعين مسألة، ما أخل منها بمسألة. ثم قال أبو حنيفة: ألسنا روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس... 101هـ (1).

و مما علم من منهج الإمام الصادق و منطق قوله، فإن تفسير الكتاب عنده ليس بالأخذ من الغير، والحديث هو بإسناد أبائه الطيبين. فمن المؤكد هنا أن المسائل التي كانت عدة السلطان أبي جعفر و سلاحه في مواجهة الإمام الصادق كان يعرضها الإمام الصادق على مصادره و أصوله و يناقشها، فما وافق منها حسبه أبو حنيفة متبعة، و ليس الأمر كذلك. لأن الإمام الصادق في علمه لا يتبع إلا القرآن و سنة النبي و الأئمة من أهل بيته، أما المخالفة فأمرها معروف.

و كما رأينا فإن مالكا كان من طلاب مدرسة الإمام الصادق و من تلاميذه، قال مالك عن صلته بالإمام الصادق: (جعفر بن محمد اختلفت إليه زمانا، فما كنت أراه إلا على إحدى ثلاث خصال: إما مصلاً، و أما صائماً، و إما يقرأ القرآن) (2).

وقوله: (ما رأيت عين، و لا سمعت أذن، و لا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً و عبادة و ورعاً) (3) و قال مالك: (لقد كنت أرى جعفر بن محمد و كان كثير الدعابة (4) و التبسّم، فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه و آله و سلم اصفرّ، و ما رأيته يحدث عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إلا على طهارة، و لقد اختلفت إليه زمانا، فما كنت

ص: 371

1- (1) المناقب للموفق المكي ج 1 ص 173. و [1] سير أعلام النبلاء ج 6 ص 256.

2- (2) تهذيب التهذيب ج 2 ص 104. [2]

3- (3) المجالس السنوية للعامل ج 5. و التوسل و الوسيلة لابن تيمية ص 52.

4- (4) تروى عند بعض المالكية «كثير المزاح» و لا نستغرب الوصف بالمزاح أو الدعابة، لأن عمر بن الخطاب وصف بها الإمام علي، و كان قوله موضع نظر ورد، إلا أن يتدع بها اصطلاحاً و يحدث بها مسمى جديد فيكون معناها التقوى و شدة الالتزام بالدين، أو حسن الخلق و المعاشرة، فإن كان القصد ظاهر معناها، فهي من الفلتات، و لا يحمل عليهما إلا قصد الإساءة و النيل، و دون ذلك عصمة الله و رعايته من دين راسخ و علم وافر و منزلة سامية و خصائص عالية هي الغاية في الكمال و النهاية في الرفعة.

أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصلياً أو صائماً وإما يقرأ القرآن. ولا يتكلم فيما لا يعنيه و كان من العلماء و العباد الذين يخشون الله عز و جل (1).

و من المحدثين كثير يحملهم التقليد و التعصب على إغفال الجوانب المهمة فى اختلاف مالك إلى الإمام الصادق و الأخذ عنه و الرواية له، و يخال بعضهم كمصطفى الشكعة أن إظهار الصحبة يؤدي إلى المقارنة بينهما بميزان الاستواء و التعادل، و ليس الشكعة أول من يفعل ذلك، و لا هذه أول النزعات المعلنة، فقد علمناها منه فى كتبه السابقة، و قد وصلنى كتابه (الأئمة الأربعة) فأثار فى نفسى تساؤلات كثيرة، و كلما تصفّحته كثرت الملاحظات و تعددت المؤاخذات، و لو أشرت إلى بعضها لطل بنا الحديث، نرجو الله أن ييسر و يعين لتحرير الردّ عليه، فقد بنى كتابه فى الطعن على الشيعة على أساس الوهم و الادعاء الباطل بوجود «التشيع المذهبي» و هى مقولة فتن بها الناظرون إلى التاريخ بمنظار الهوى و مصطلحات السياسة، ممن عظم عليهم كون التشيع و عاء الإسلام و إطراره، و أن رجاله و قاداته هم سادة العرب و فرسانها رفعهم الله بعز الإسلام إلى موكب الدعوة و جيش الولاء لصاحب الرسالة النبى الهادى المصطفى، و نبذوا حمية الجاهلية و نعرات القبلية، فأصبحوا دعاة حق و حملة رسالة يتهافتون على الموت فى سبيلها.

و مهما كان من أمر الشكعة فهو لا يقوى على إنكار الحقائق الناصعة التى تقود إليها و تنتهى جهوده فى البحث عن الأئمة الأربعة فيقول: (و لم يكن مالك و أبو حنيفة و حدهما الآخذين من فيض الإمام جعفر من بين أئمة أهل السنة، و إنما أخذ عنه و اتصل به السفينان الثورى و ابن عينية و شعبة بن الحجاج و غيرهم) (2).

و مما يقوله الشكعة: لقد تأثر مالك بكثير مما فى جعفر. تأثر به فى الحديث فروى له، و لقد ضمّن مالك كتابه «الموطأ» عدداً من الأحاديث التى رواها. و لقد تأثر به مالك فى أنه لم يجلس ليحدّث حديث رسول الله إلا و هو على الطهارة. و القصد أننا أردنا الإشارة إلى كتاب الشكعة، و نتركه أمل تحرير الردّ عليه و إلحاقه بالمناقشات المجموعة.

ص: 372

1- (1) مناقب الزواوى ص 33 و 34.

2- (2) د. مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ص 317، مصر 1979.

أما تأثر مالك بالإمام الصادق فإن مجالاته واسعة، ولقد استمر المالكية على تعصيد مذهبهم بعد وفاة إمامهم، معتمدين على حضور مالك عند الإمام الصادق والاستماع إلى حديثه، وتلقى تعاليمه في مدرسته، فسمحوا لأنفسهم أن يتخيلوا أموراً لتكون لهم شهادة تؤيد المذهب، فادّعوا أن الإمام الصادق أوصى إلى مالك عند وفاته، ورووا عنه أنه دخل عليه قوم من أهل الكوفة في مرضه الذي توفي فيه، فسألوه أن ينصب لهم رجلاً يرجعون إليه في أمر دينهم، فقال: عليكم بقول أهل المدينة، فإنها تنفى خبثها كما ينفى الكير خبث الحديد، عليكم بأثر من مضى، فإني أعلمكم أني متبع غير مبتدع، عليكم بفقهاء أهل الحجاز، عليكم بالميمون المعين المبارك في الإسلام، المتبع آثار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد امتحنته فوجدته فقيهاً فاضلاً متبعاً مريداً لا يميل به الهوى، ولا تزدرية الحاجة، ولا يروى إلا عن أهل الفضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن اتبعتموه أخذتم بحظكم من الإسلام، وإن خالفتموه ضللتكم وهلكتم، أستم تقولون إنني هين من العلم غير محتاج إلى أحد من الخلق؟ فإنه قد أخذ عنى كل ما يحتاج إليه، فلا يميل بكم الهوى فتهلكوا، إنني أحذركم عذاب الله يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، أحذركم، فقد أرشدتكم إلى رجل نصّبته لكم، فإنه أمين، مولود في زمانه، قالوا: من هو بيته لنا؟ قال: ذلك مالك بن أنس، عليكم بقول مالك. ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إنى برىء من ظنهم وتخريصهم ومن رواة السوء منهم، اللهم إنك تعلم أنه قد قيل عن عيسى بن مريم ما لم يقل، وروى عن مالك ما لم يكن، وقيل عن عزيز ما لم يقل، وروى عنه ما لم يكن، وقيل عن على بن أبي طالب ما لم يقل، وروى عنه ما لم يكن، فمن روى عنى ما لم نقل، فعليه لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين (1).

و الرواية صريحة الوضع، نقلناها كاملة للتدليل على مسلك النزاع والخصام في استحلال الوضع، والتماس الظفر بالإقرار بالوقائع العلمية للبناء عليها في مورد، وإنكارها وتجاهلها في مواضعها الأصلية، لأنها في سياقها حجة لغيرهم. و صفة القول، فإن أصحاب الحديث أرادوا أن يثقلوا موازينهم بهذه المبتدعات، حتى اضطروهم الأمر إلى الوضع لادناء مالك من منزلة الإمام الصادق، ووضع في التأهل

ص: 373



لاحتلال تلك المنزلة بعد وفاته، ولتكون له الرئاسة بوصية وعهد من الإمام الصادق، وذلك من الجهل بمكان فإذا اتسع المجلس لمالك في مجال التلمذة والأخذ العلمي، فلا- تتسع الوصاية له أو لغيره من الناس إلا من نص عليه في خبر الإمامة، وجاء ذكره في آثار الولاية المحفوظة والمعهودة عند أولياء الأمر من الأئمة الهداة المعصومين.

وكذلك فإن كتاب المناقب جعلوا من اسم الإمام الصادق وسيلة لإضفاء القدسية على سيرة مالك كما فعل القاضي عياض بدعواه أن الإمام الصادق قال: قيل لمالك اخترت مقامك بالمدينة وتركت الريف والخصب؟ فقال: وكيف لا أختاره وما بالمدينة طريق إلا سلك عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجبريل عليه السلام ينزل عليه من عند رب العالمين في أقل من ساعة (1). ولا نعلم مناسبة لذلك ولا وجهها، والدعوى لا تساعد المالكية في تشبّثهم بدار الهجرة لأن الإمام الصادق أعرق أصلا وعلما فيها.

وبالجملة فإننا قد اعتمدنا في بيان منازل رؤساء المذاهب على أقوال معاصريهم وأقرانهم من العلماء، فإن فعلنا لا نجد ما يدل على امتيازهم وتفردهم بخصائص تؤهله للمرجعية دون غيره، وقد ذكرنا الكثير منها لتكوين الاطلاع والعلم اللازم للموازنة والمقارنة بين شخصيات رؤساء المذاهب وأئمتها.

سئل أحمد بن حنبل عن مالك؟ فقال: حديث صحيح ورأى ضعيف (2).

قال يحيى بن بكير: الليث أفقه من مالك، لكن الحظوة لمالك (3).

قال الشافعي: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحاب لم يقوموا به.

وفي رواية: الليث أفقه من مالك إلا أنه صنيعة أصحابه 4.

وقال سعيد بن أيوب: لو أن الليث و مالكا اجتمعا، لكان مالك عند الليث أبكم، ولباع الليث مالكا فيمن يريد (4) وقد اطلعنا- سابقا- على بعض رسالة مالك إلى الليث ومنها:

ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبيل، ويتبعون تلك السنن، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهرا معمولا به، لم أر لأحد خلافه للذي في أيديهم من تلك

ص: 374

1- (1) ترتيب المدارك ج 1 ص 59.

2- (2) مناقب الشافعي للفخر الرازي.

3- ((3) و(4)) شذرات الذهب ج 1 ص 288. [1]

4- (5) الرحمة الغيثية لابن حجر ص 6. و تذكرة الحفاظ ج 1 ص 209.

الوراثة التي لا يجوز انتحالها ولا ادعاؤها، ولو ذهب أهل الأمصار يقولون: هذا العمل ببلدنا، وهذا الذي مضى عليه من مضى لم يكونوا فيه من ذلك على ثقة، ولم يكن لهم من ذلك الذي جاز لهم.

وكان من ردّ الليث على مالك: إن كثيرا من أولئك السابقين الذين عناهم بقول الله تعالى: وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله، فجندوا الأجناد، واجتمع إليهم الناس، فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه. وأن أصحاب رسول الله قد اختلفوا بعده في الفتيا في أشياء كثيرة، ويقول له:

(ولو لا أتى قد عرفت أن قد علمتها لكتبت بها إليك. ثم اختلف التابعون في أشياء بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سعيد بن المسيب ونظراؤه أشد الاختلاف، ثم اختلف الذين كانوا من بعدهم، فحضرتهم بالمدينة، ورأسهم يومئذ ابن شهاب وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وكان من خلاف ربيعة لبعض من قد مضى ما قد عرفت و حضرت و سمعت قولك) مشيرا إلى تلمذته عليهما و حضوره عندهما.

و سأل علي بن المديني يحيى بن سعيد: أيما أحب إليك، رأى مالك أو رأى سفيان؟ قال: رأى سفيان، لا يشك في هذا.

وقال: سفيان فوق مالك في كل شيء.

و دخل عليه محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة - وهو حدث - فقال: ما تقول في جنب لا يجد الماء إلا في المسجد؟ فقال مالك: لا يدخل الجنب المسجد. قال:

فكيف يصنع وقد حضرت الصلاة وهو يرى الماء؟ قال: فجعل مالك يكرر: لا يدخل الجنب المسجد. فلما أكثر عليه قال له مالك: فما تقول أنت في هذا؟ قال: يتيمم و يدخل فيأخذ الماء من المسجد و يخرج فيغتسل. قال: من أين أنت؟ قال: من أهل هذه - وأشار إلى الأرض - فقال: ما من أهل المدينة أحد لا أعرفه. فقال: ما أكثر من لا تعرف؟ ثم نهض، قالوا لمالك: هذا محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة. فقال:

محمد بن الحسن، كيف يكذب وقد ذكر أنه من أهل المدينة؟ قالوا: إنما قال من أهل هذه، وأشار إلى الأرض. قال: هذا أشد علي من ذلك (1).

و إذا عدنا إلى الحديث و اعتمدنا رأى أحمد بن حنبل بعد أن اطلعنا على وصفه

ص: 375

مالكا بالضعف فى الرأى، فإن أحمد يقول: كان مالك من أثبت الناس، و كان يخطئ (1).

و هو فى جميع الأحوال لا يسلم سنده و لا يخلو طريقه من اختلاف، و لذلك يرجح الحفاظ فى كثير من الأحاديث سند غيره كما فى حديث «أنا و كافل اليتيم فى الجنة... الحديث» فرجح أبو زرعة و أبو حاتم سند ابن عينة على رواية مالك (2).

وقد اختار مالك حبيب بن أبى حبيب الورّاق كاتباً له، و هو معروف بالكذب و متروك. قال ابن حبان: كان يورق بالمدينة على الشيوخ، و يروى عن الثقات الموضوعات كان يدخل عليهم ما ليس من حديثهم. و قال ابن معين: كان يقرأ على مالك و يتصفح ورقتين ثلاثة، فسألونى عنه بمصر، فقلت: ليس بشيء. و قد كذبه أبو داود و آخرون، و هو متروك إلا أنه كان قريباً من مالك، و جعله وسيلة عرضه للحديث (3).

## مالك بين الأموية و العباسية

:

لقد اتصف مالك بميول أموية واضحة، و قد رأينا أنه أدرك من العهد الأموى أربعين سنة، و من العهد العباسى أكثر من ذلك. و لا بد أن هذه الميول كانت متوارثة فى عائلته منذ جد أبى مالك، و هو أبو عامر الذى برز من بيت مالك بسبب دعاوى الصحبة التى ليست بشيء، و لكن أبرز أعمال جد أبى مالك كونه أحد الأربعة الذين حملوا عثمان ليلاً إلى قبره (4)، و هى رواية يبادر بها أبو عامر قال: (كنت أحد حملة عثمان حين قتل، حملناه على باب، و إن رأسه لتقرع الباب لإسراعنا به، و إن بنا من الخوف لأمرًا عظيمًا، حتى واريناه فى قبره فى حش كوكب).

أما الرواية عن عبد الله بن ساعدة فهى: لبث عثمان بعد ما قتل ليلتين، لا يستطيعون دفنه، ثم حملة أربعة: حكيم بن حزام و جبير بن مطعم و نيار بن مكرم و أبو جهم بن حذيفة (5). فأين جد أبى مالك؟

ص: 376

1- (1) شرح علل الترمذى ج 1 ص 437.

2- (2) أيضًا ج 2 ص 842.

3- (3) تهذيب التهذيب 181/2 و [1] ميزان الاعتدال 210/1 و المجروحين لابن حبان 260/1. و شرح علل الترمذى 830/2.

4- (4) مناقب السيوطى ص 4.

5- (5) الطبرى ج 5 ص 144. [2]

أما مالك، فإن حرصه و توخّيه في الرواية أذياه إلى أن يكون ركيزة لحديث موضوع في معاوية أخذه عن أستاذه نافع، عن ابن عمر و هو: كنت عند رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلّم فأهدى إليه سفر جل، فأعطى أصحابه واحدة واحدة، و أعطى معاوية ثلاث سفر جلات و قال: ألقني بهنّ في الجنة.

و يتقلد مالك حديث الوضوء من مسّ الذكر، و بإسناده مروان و بسرة بنت صفوان و أنها سمعت رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلّم يقول إذا مسّ أحدكم ذكره فليتوضأ. و بسرة مجهولة لم تكن صحبتها أو مكانتها إلا من صنع الأمويين و حاشيتهم، و لكن مالك بن أنس يرى مكانتها في علاقتها بالأمويين، لذا فهي مقبولة عنده و غير مجهولة، و لا يفيد طعن رجال الحديث في روايتها و قلة صحبتها- إن وجدت- فيقول مالك: أتدرون من بسرة بنت صفوان؟ هي جدة عبد الملك بن مروان أم أمّه فاعرفوها (1) فكأن (إمام المدينة) نسي الزرقاء؟! و يتبع الأمويين بميوله، و يتمنى أن يكون في المدينة مثل عبد الرحمن بن معاوية الداخل إلى الأندلس، و يقول مالك: ليت أن الله زيّن حرمنا بمثله (2) كأن لم يكف ما فعل أسلاف الدّاخل و أبناء معاوية الأول من جرائم، و ما انتهكوا من حرّات، حتى كان الرجل من أهل المدينة بعد وقعة الحرّة إذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها، و يقول:

لعلها قد افتضت في وقعة الحرّة (3). و المدينة التي يحتج بفضلها مالك و يسعى إلى أن يقتدى به الآخرون لأن فيها الصحابة و هو من أهلها أيضا، ختم الحجاج أعناق الصحابة من أهلها كجابر بن عبد الله الأنصاري و أنس بن مالك و سهل بن سعد الساعدي ليذلّهم.

أما رأيه في التفضيل، فهو من آثار هذه الميول. فهو يرى أن الإمام عليا كسائر الصحابة. روى مصعب- و هو أحد تلامذة مالك- أنه سأل مالكا:

من أفضل الناس بعد رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلّم؟ فقال مالك: أبو بكر قال:.. ثم من؟ قال: عمر. قال: ثم من؟ قال: عثمان. قال: ثم من؟ قال: هنا وقف الناس.

ص: 377

1- (1) كتاب الاعتبار لابن حازم الهمداني ص 43.

2- (2) مالك لأمين الخولي ص 200 نقلا عن شرح العيون [1] لابن نباتة.

3- (3) الفخرى ص 107. [2]

ولكنه أخذ يتردد في ضمّ عثمان إلى الشيخين لأنه التحق بركب العباسيين فيما بعد-كما سيأتي-و سار على ما يسير عليه المنصور في ذلك، فإنه لما دخل عليه مالك قال له المنصور: من أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال مالك: أبو بكر وعمر. فقال المنصور: أصبت، وهذا رأى أمير المؤمنين-يعنى نفسه-و كانت موافقة مالك للمنصور و اتباعه السلطة من المحفزات على اتخاذ مالك عالما لها.

قال الشيخ أبو زهرة: إن مالكا يخالف بذلك-أى التفصيل-إمامين آخرين عاصراه: أحدهما أسنّ منه و مات قبله و هو أبو حنيفة. و ثانيهما أصغر منه و هو تلميذه الشافعى. فإن أبا حنيفة لا يعد عليا كسائر الناس بل «يرفعه» إلى مرتبة الراشدين من الخلفاء، و يقدمه فى الترتيب على عثمان. و الشافعى يعلن محبته لعلى، و يحكم على خصومه بأنهم بغاة... (1).

و نحن نقول أنه خالف إماما ثالثا و هو أحمد بن حنبل، فما كان رأيه كراى مالك، بل كان يعدّ عليا من أهل بيت لا يجارون، و لا يقاس بهم أحد، و ذلك عند ما سأله ولده عبد الله: من أفضل الناس؟ قال: أبو بكر وعمر، و عثمان. ثم سكت، فقال له فعلى: فقال: يا بنى، على من أهل بيت لا- يقاس بهم أحد. و له كثير من الآراء فى تفضيل الإمام على. حتى أنه ألف كتابا فى مناقب الإمام على، فهو يرى أن ما لأحد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحاح مثل ما لعلى (2).

و لا يصح اعتبار التفضيل سببا فى تعرّضه إلى الأذى على يد جعفر بن سليمان و الى المدينة سنة 146 هـ و إطلاق اسم المحنة على هذه الحادثة التى تعرض بها إلى الأذى، فقد جرّد من ثيابه، و مدّت يده، و ضرب بالسياط حتى انخلعت كتفاه لعدم رضا الطالبين عن مذهب مالك بهذا الخصوص.

و علينا أن نتف عند هذه الحادثة لأنها الفاصل بين الميول الأموية فى حياة مالك و الميول العباسية التى ظهرت عليه بما لا ينسجم مع ماضيه. إذ أن دخوله فى أمر ثورة محمد النفس الزكية أمر غير متوقع، فلذلك لا غرابة فى عدم الإجماع على سبب واحد لهذه الحادثة. فإضافة إلى ما ذكرناه من القول فى أن عدم الرضا من قبل

ص: 378

1- (1) مالك ص 70.

2- (2) مناقب أحمد لابن الجوزى ص 163.

الطالبين كان سببا في ذلك لرأى مالك في التفضيل. فهناك قول أن السبب هو مجاهرة مالك بمخالفة ابن عباس في جواز نكاح المتعة، فقيّل له في قول ابن عباس فيها، فقال: كلام غيره فيها أوفق لكتاب الله. وأصرّ على القول بتحريمها، فطيف به على ثور مشوّها، فكان يرفع القدر عن وجهه ويقول: يا أهل بغداد أنا مالك بن أنس فعل بي ما ترون لأقول بجواز المتعة (1).

و هذا بعيد عن الواقع، لأن الحادثة وقعت في المدينة، وإذا سلّمنا صحة هذا السبب، فهل أصرّ مالك على رأيه فيما بعد؟ و وافقته الدولة و تخلّت عن رأيها و قرّبتة؟ أم أنه وافق رأيها و تنازل عن إصراره، و ترك ما وافق كتاب الله لما وافق رأيهم؟ و لا يبعد أن يكون وراء وضع هذه الصور المتعددة أنصار مالك لغرض اشتهاره و توسيع دائرة ذكره.

و مهما يكن، فإن سبب الحادثة الأقرب، هو التظاهر بتأييد ثورة محمد النفس الزكية. و الرواية كما في الطبرى و ابن الأثير: أن مالك بن أنس استفتى في الخروج مع محمد و قيل له: إن في أعناقنا بيعة لأبى جعفر. فقال: إنما بايعتم مكرهين و ليس على كل مكره يمين. فأسرع الناس إلى محمد، و لزم مالك بيته (2). أما ابن عبد البرّ فيروى - من بين ما يروى - أن أبا جعفر نهى مالكا عن الحديث (ليس على مستكره طلاق) ثم دسّ إليه من يسأله عنه، فحدّث به على رءوس الناس، فضربه بالسياط (3).

و الفرق بين الروايتين كبير، فإذا اعتبرنا الثانية، فإن رواية مالك للحديث تأتي من اختصاصه في حفظ الحديث و الرواية، و تشدّد في رواية الحديث الذى يرتبته و يصحّحه. فهو يجمع لموطئه، و عامل موهبته هو الحفظ. و يأتي نهى المنصور في ظروف بحثه عن محمد النفس الزكية و استعداد العلويين للثورة.

أما الرواية الأولى فليس دور مالك في الثورة بهذا الشكل، فقد علمنا ظروف الثورة و الحركة العلوية التى يناهضها مالك، و من المبالغة بمكان أن يكون رأى مالك هو سبب إسراع الناس، و ذلك ما ينفرد به الطبرى و من ورائه ابن الأثير.

ص: 379

1- (1) شذرات الذهب ج 1 ص 290. [1]

2- (2) الطبرى ج 9 ص 206. و [2] ابن الأثير ج 5 ص 251. [3]

3- (3) الانتقاء ص 43 و 44.

و خلاصة القول، أن الحديث الصحيح الذى منع المنصور مالكا من روايته كان مصداقا للتحلل من بيعة المنصور. وإنما كان مالكا يرويهِ لكونه حديثاً وليس لغرض يخدم حركة العلويين، فلما قامت الثورة، قال مالكا بما كان يرويهِ. و تظاهره بذلك لا يخلو من كراهيته لما فعل العباسيون بالأمويين. و من ثم كان انصرافه إلى بيته بانتظار ما سيسفر عنه الأمر. و لو صحَّ هذا التأييد فما هو عذره فى السكوت عن جرائم أبى جعفر المنصور فى بنى الحسن، و دفنهم و هم أحياء، و قتل النفس الزكية؟! و المنصور هو هو من شدة عدائه و حقدده على من يناوئ حكمه و يمالئ أعداءه، و لو كان هناك ما يشمُّ من مالكا غير نشاطه اليومي فى الرواية التى خشى أثرها المنصور، لما كان هذا الاعتذار منه لمالكا، و بهذا الشكل الذى يصفه لنا مالكا بلسانه: (لما دخلت على أبى جعفر، و قد عهد إليّ أن آتية فى الموسم. قال لى: و الله الذى لا إله إلا هو ما أمرت بالذى كان، و لا علمته، إنه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم، و إنى أخالك أماناً لهم من عذاب، و لقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة، فإنهم أسرع الناس إلى الفتن، و قد أمرت بعد و الله أن يؤتى به من المدينة إلى العراق على قتب، و أمرت بضيق محبسه، و الاستبلاغ فى امتهانه، و لا بد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك).

و لا نكتشف أى إشارة للاتهام أو الاعتذار فى سبب معين، و قول مالكا أو روايته يأتى مبيناً لرأى المنصور فى مالكا، لا يشوبه غضب متجبر أو ظالم كالمنصور، بل هو يشعر مالكا بأن لوجوده بين أهل المدينة أثراً فى التخفيف من نقمته، أولئك الذين يصفهم المنصور بأنهم أسرع إلى الفتن. و الأمر بمقتضى الرواية المالكية لا يعدو رواية الحديث و التظاهر، و قد يكون من مالكا بفتحة ضيقة من وراء بابه، يرفع بها صوته، مردداً ما منعه المنصور من روايته فى تلك الظروف، و بعدها إحكام رتاج الباب حتى انتهاء الأحداث.

و لو كانت هذه الحادثة لعلوية أنزلها الله فى قلب مالكا، لكان مصيره بلا شك كمصير الآخرين من الفقهاء و الرجال الذين سلط المنصور عليهم نقمته لانحيازهم إلى محمد النفس الزكية، و كابن هرمرز الذى اختلف إليه مالكا ثلاثين سنة للفتقه - كما مر بنا - و عبد العزيز بن محمد الدراوردي، و عبد الرحمن بن أبى الموالى الذى ضربه المنصور أربعين سوطاً لكى يدلّه على محمد فلم يدلّه، و عبد الله بن عمر بن حفص

الذى أخذ أسيراً، فأتى به المنصور فقال له: أنت الخارج علىّ؟ قال: لم أجد إلا ذلك أو الكفر بما أنزل الله على محمد. و عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير الذى هرب بعد قتل محمد، فأتى البصرة فأخذ منها و أتى به المنصور فقال له: هيه يا عثمان، أنت الخارج علىّ مع محمد؟ قال: بما بايعته أنا و أنت بمكة، فوفيت بيعتى، و عذرت بيعتك. قال المنصور: يا ابن اللخناء، قال: ذاك من قامت عنه الإماماء. فأمر به فقتل. و غيرهم كثير.

و لا نريد أن نبرئ المنصور تماما من بعض الأسباب التى تتعلق برواية الحديث و لا تتعداه، و هو أمر عابر لم يترك أثرا فى نفس المنصور التى تتسم بالحقد، و إلا فهناك رواية تبين أن جعفر بن سليمان هو الطرف فى منع رواية الحديث، و قد تصرّف بعقلية العباسى الذى ينتمى إلى أسرة لها الحكم و الطاعة، و رواية حديث: (ليس على مستكره طلاق) يؤدى إلى تبرير نقض إيمان بيعة بنى العباس (1). و قيل له: إنه لا يرى خلافتكم، فضربه سبعين سوطا، و مدّت يده حتى انخلعت (2).

كما لا نريد أن نظلم مالكا، فقد دافع عن الفقهاء الذين يغلى صدر المنصور عليهم بحقده الأسود عند ما قال له: ما هذا الذى يبلغنا عنكم معاشر الفقهاء و أنتم أحق الناس بالطاعة، و أعرفهم بما يلزم من حق الأئمة؟ فقال مالك: فقلت يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول فى كتابه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ جَاءَكُمُ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصَوَّبُوا بِحُجُوبِ اللَّهِ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ فجرى بينهما كلام و مذاكرة، إلى أن ذكر له مالك أنه لما بعث إليه ليلا و طلبه خاف منه القتل على نفسه. فقال أبو جعفر: حاشا لله يا أبا عبد الله أن أثلم ركنا للمسلمين، فإن لم أكن بالذى أبنيه لهم، فلست بهادمه لهم. ثم عرض عليه الذهاب معه إلى بغداد.

و بالجملة. فإن كل آراء المنصور فى مالك هى آراء حسنة، و من ينظر إلى موقف المنصور و ثباته إزاء مالك، يعلم أن «أمر المحنة» ليس كما صوّره الطبرى و ابن الأثير و غيرهما. و ما اختيار المنصور لمالك فى أمر الفقهاء إلا لما عهده من مالك من موافقة فى الاعتقادات التى عليها الحكم العباسى، و قد رأينا قول مالك فى التفضيل،

ص: 381

1- (1) الانتقاء 44.

2- (2) شذرات الذهب ج 1 ص 290. [1]



وفى عثمان. كما أن من لواحق قول مالك المعروفة-والتي تتم عن الأموية الواضحة- وجعله الإمام على كسائر الصحابة الآخرين هو قول مالك: وليس من طلب الأمر كمن لم يطلبه. ومحمد النفس الزكية تتناوله ولا شك هذه القاعدة، فكل الوجوه فى سيرة مالك تنفى الميل العلوى، وإنما نمو ميل عباسى ليس على بقايا الميل الأموى ولكن إلى جانبه (لأن رأى مالك فى الإمام على متفق مع الولاة والخلفاء) (1). ومما يلاحظ أن مالكاً لم يسطع نجمه إلا بعد أن احتضنته الدولة وذلك فى سنة 149 هـ أى بعد وفاة الإمام الصادق عليه السلام بسنة. فقد كانت الشهرة التى تلفت مدرسة الإمام الصادق هى معارضة الدولة، وتطبيق منهج إصلاحى يبصر الأمة، ويحملها على الالتزام والتمسك بأحكام الدين، ولم يؤثر موقف الحكام العباسيين على انتشار مذهب أهل البيت، فقد كانت مدرسة الإمام الصادق من أبرز الحركات الفكرية، ومن أشهر معالم النهضة العلمية. وكانت الدولة العباسية فى طفولتها تعارض حركة انتشار المذهب-من وراء الستار- إذ ليس فى إمكانها التظاهر بالمعارضة، لأنهم كانوا بحاجة ملحة لاستمالة أعيان أهل البيت، للتأثير فى نفوس الناس الذين يدينون لهم بالولاء، ويتفجعون لما أصابهم من ويلات وما لحقهم من مصائب، وليس للعباسيين نفوذ يستطيعون به حماية الدولة، فكان لا بد من الاستعانة بزعماء الشيعة لتثبيت أركانها وحمايتها.

ولم يكن هناك شهرة لأحد سوى الإمام الصادق، وقد رأينا كيف كان الإمام الصادق يمثل خطراً أتعب المنصور أمره، فحاول مرات أن يقتل الإمام، وقد كلاه الله بعنايته ونجاه من شره. ويذكر أن المنصور وصف الإمام الصادق بالشجى المعترض حلقه.

أما مالك بن أنس، فقد كان فى حياة الإمام الصادق كأحد رجال المدينة، قاده شهرة مدرسة الإمام الصادق إلى ما بين يدي الإمام، فكان أحد طلابها، ولم ينتشر ذكره إلا بعد سنة 148 هـ وهى سنة وفاة الإمام الصادق.

ولا يخفى أن غرض المنصور من وراء إظهار مكانة مالك وإبرازه، هو منزلة الإمام جعفر بن محمد الصادق. فقد علمنا محاولته فى استعمال فقه أبى حنيفة ومكانته للتأثير على منزلة الإمام الصادق، ومرّ بنا أمر هذه المحاولة. ويتجه المنصور

ص: 382

بنفس تلك الدوافع إلى مالك لأن من قام بأمر الإمامة بعد الصادق هو وصيّه الإمام موسى بن جعفر. رجل الصلاح والدين والعبد الصالح كما وصفه الناس وهم ملتقون حوله ولقبوه بالعالم.

فلاحت للمنصور فكرة إخضاع العلم الديني للحكم، وربطه بالدولة بتوحيد الأحكام واستعمال القوة، فروى أبو مصعب أن أبا جعفر المنصور قال لمالك: ضع للناس كتاباً أحملهم عليه. فكلّمه مالك في ذلك. فقال: ضعه، فما أحد اليوم أعلم منك. فوضع الموطأ (1).

ولم يرغب عن مالك مغزى ذلك، فأجابه: يا أمير المؤمنين لا تفعل. أما هذا الصقع فقد كفيته، وأما الشام ففيه الرجل الذي علّمته -يعنى الأوزاعي- وأما أهل العراق فهم أهل العراق.

فكان المنصور يشدّ أزر الأوزاعي ويرأسله.

واخبر المنصور مالك أن من لا يرضى سيضرب عليه بالسيف ويقطع عليه ظهورهم بالسياط (2) وفي رواية: كتب به إلى أمراء الأجناد وإلى القضاة فيعملون به، فمن خالف ضربت عنقه (3). وكان عند الرشيد محل إجلال وتقدير، وله علاقة مع الرشيد قوية وحميمة، وكان لا يتردد في الشكوى إلى الرشيد مما يهّمه، فكان يشكو إليه ما عليه من دين، ويطلب المساعدة في زواج ابنه محمد (4).

## موطأ مالك

:

يتضح أن موطأ مالك كان الكتاب الذي طلبه العباسيون، وقد وضع المنصور بنفسه خطة الكتاب، فبعث إلى مالك حين قدم، فقال له: إن الناس قد اختلفوا بالعراق، فضع للناس كتاباً تجمعهم عليه. فوضع الموطأ (5) والظاهر أن بعض كتّاب المناقب من المالكية حاولوا التمويه على اشتراط المنصور أو خطته الكتاب الذي يريده

ص: 383

1- (1) الديباج ص 25.

2- (2) أيضا.

3- (3) الزواوي ص 24.

4- (4) العقد الفريد ج 1 ص 110. [1]

5- (5) الجرح والتعديل ج 1 ص 12.

من مالك، فوضعوا روايات أخرى منها: أن المنصور قال: يا أبا عبد الله ضع هذا العلم و دُونَ كتابا و جنّب فيه شذائد عبد الله بن عمر، و رخص عبد الله بن عباس و شواذّ ابن مسعود، و أقصد أواسط الأمور و ما أجمع عليه الصحابة (1).

أما الرواية التي تتضافر على صحتها المدلولات و الأقوال، فهو قول المنصور:

يا مالك عليك بما تعرف أنه الحق عندك، و لا تقلدني عليا و ابن عباس أو نحو هذا.

و نرى أن ذكر ابن عباس من الزوائد أيضا التي قام بها كتّاب المناقب، و لعلمهم استعظموا أن يكون أساس كتاب المذهب هو التحذير من الإمام علي.

إن العباسيين تخلّوا عن ذاك الالتزام بسيرة الإمام علي، و انتهت أغراضهم من ذكر فضائله و معالم سيرته، فتحولوا -بعد قيام دولتهم- إلى العدا و النصب. أما ابن عباس فقد بقي رمزا لديهم تجرّهم إليه العصبية و تشدّهم إلى ذكره مصالح حكمهم، و ليس لعلم أو منزلة، فهم على حلية نكاح المتعة لا لعدم النص على نسخها و عدم جواز منعها أو تحريمها من قبل أحد غير النبي محمد، و لكن لأن ابن عباس يقول بجواز نكاح المتعة، و قد رأينا أن مسألة نكاح المتعة كان من جملة الأسباب التي احتملت في تعرّض مالك للأذى.

و لهذا فاشتراط المنصور أو خطته كانت موضع تنفيذ، و وفي مالك بالشرط، إذ لم يرو عن علي عليه السلام في موطأه، و يروى أن الرشيد قال له: لم نر في كتابك ذكرا لعلي و ابن عباس؟ فقال: لم يكونا ببلدى و لم ألق رجالهما. و يعتذر الزرقاني فيقول:

فإن صحّ هذا فكأنه أراد ذكرا كثيرا. و إلا ففي الموطأ أحاديث عنهما (2).

و نال الكتاب شهرة، و أصبح موضع تقديس حتى أطلقوا عليه اسم الصحيح و قالوا: إنه لا مثيل له، و لا كتاب فوقه بعد كتاب الله عز و جل (3).

و وضعوا عن رسول الله منامات في مدحه، و أنه قال: ليس بعد كتاب الله عز و جل و لا سنّتي في إجماع المسلمين حديث أصحّ من الموطأ (4). و قالوا: إن النبي سمّي الكتاب بهذا الاسم... إلى غير ذلك.

ص: 384

1- (1) الديباج و شرح الموطأ للزرقاني ج 1 ص 7.

2- (2) شرح الموطأ ج 1 ص 8.

3- (3) مقدمة النص لابن عبد البر ص 9. [1]

4- (4) كشف المغطى في فضل الموطأ ص 2.

وقد روى عن مالك أنه قال: عرضت كتابي هذا على سبعين فقيها من فقهاء المدينة، فكلهم واطأني عليه، فسَمَّيته الموطأ. وقيل: لما ألف الموطأ، ألقاه في الماء وقال: إن ابتل فلا حاجة لي به. فلم يبتل منه شيء.

وكان قد جمع فيه عشرة آلاف حديث، ثم هدَّبه وتَّقَّحه، فلم يبق من ذلك العدد إلا ألف وسبعمائة حديث. وقيل: خمسمائة (1). وقيل: أقل وأكثراً لاختلاف النسخ زيادة ونقصاً وإسناداً وإرسالاً.

وجملة ما في الموطأ 1720 حديثاً، المسند منها 600، والمرسل 288 والموقوف 613. ومن قول التابعين 285.

وقد بلغ من اهتمام العباسيين بالموطأ أنهم عرضوا على مالك أن يكتب بماء الذهب ويعلِّق في الكعبة. وأن الرشيد قام يمشى مع مالك إلى منزله ليسمع منه الموطأ، فأجلسه معه على المنصة، فلما أراد أن يقرأه على مالك قال له: تقرؤه علي؟ قال مالك: ما قرأته على أحد منذ زمان، قال: فيخرج الناس عني حتى أقرأه أنا عليك.

فقال: إن العلم إذا منع من العامة لأجل الخاصة لم ينفع الله تعالى به الخاصة (2).

## سيرة مالك

:

وكيف كان، فإن مالك بن أنس نال الحظوة عند بني العباس. فقد مكَّنه المنصور في الحجاز من أن يتمتع بسلطة تنفيذية مع ما خوّله من السلطة التشريعية، وكان من أهم مظاهر إحقاق مالك بالدولة العباسية و اعتباره عالمهم، أن منادى المنصور كان في أيام الحج يعلن: بأن لا يفتى إلا مالك.

ولما قام المهدي بالأمر بعد أبيه، عظمت منزلة مالك، وكان يحترمه ويصله بهدايا جزيلة، ويعطيه عطاء وافراً، ويقرب مجلسه، وينفذ ما يريده، وكان المهدي يشيد بشأن مالك.

ولما جاء الرشيد لم تتغير منزلة مالك، بل كانت تزداد، وكان الرشيد يقصده إذا دخل المدينة ويجلس بين يديه إظهاراً لمنزلة مالك و جلباً لأنظار الناس إليه. وأمر عامله ألا يقطع أمراً دون مالك.

ص: 385

1- (1) شرح الزرقاني على الموطأ ج 1 ص 7.

2- (2) شذرات الذهب ج 1 ص 291. [1]

وقد رأينا مالكا قبل إحقاقه بالدولة وهو يسعى إلى العلم، فلم يظهر عليه إلا الرغبة في السماع. و من المفخر أن يؤدي به طلب العلم إلى أن ينقض سقف بيته و يبيع خشبه- كما يروي ابن فرحون- غير أن إقبال الحكام عليه أحدث انقلابا في مسلكه و سيرته و استجاب لما تضيفه عليه السلطة.

فعند ما يحاول أولياء و أقرباء بعض المسجونين في سجون المدينة المنورة التوسط لدى المنصور، و يلجأ المنصور إلى الصيغة التي تجنّب اللوم و نسبة الظلم إليه بإدخال العلماء و أهل الدين في المعاينة، نجد مالكا يجيب وفق ما يريد المنصور.

و معلوم أن أمر المدينة كان يشقّ على المنصور، و كانت السجون التي فيها تعكس مشاعر المنصور تجاه أهلها، فلما ولي عبد الصمد على المدينة عاقب بعض القرشيين و حبسه حبسا ضيقا، فكتب بعض قرابته إلى المنصور و شكى ذلك إليه و أخبره. فكتب المنصور إلى المدينة و أرسل رسولا و قال: اذهب فانظر قوما من العلماء، فأدخلهم عليه حتى يروا حاله و تكتبوا إلي بها، فأدخلوا عليه في حبسه مالكا بن أنس، و ابن أبي ذئب، و ابن أبي سيرة و غيرهم من العلماء فقال: اكتبوا بما ترون إلى أمير المؤمنين.

قال: و كان عبد الصمد لما بلغه الخبر حلّ عنه الوثاق، و ألبسه ثيابا، و كنس البيت الذي كان فيه، و رشّه، ثم أدخلهم عليه. فقال لهم الرسول: اكتبوا بما رأيتم. فأخذوا يكتبون: يشهد فلان و فلان. فقال ابن أبي ذئب: لا تكتب شهادتي، أنا أكتب شهادتي بيدي إذا فرغت، فارم إلي بالقرطاس. فكتبوا: محبسا لنا، و رأينا هيئة حسنة. و ذكروا ما يشبه هذا الكلام، ثم دفع القرطاس إلى ابن أبي ذئب، فلما نظر في الكتاب فرأى هذا الموضع قال: يا مالكا داهنت و فعلت و ملت إلى الهوى. اكتب: رأيت محبسا ضيقا، و أمرا شديدا. و جعل يذكر شدة الحبس (1).

و أخذ مالكا باستعمال العنف و المعاملة بالقسوة، فكان إذا حدّث يقوم على رأسه الحرس، فإذا تكلم أحد أو اعترض عليه، أشار للحرس فيسحبون المتكلم و يخرجونه من المجلس، و إن اقتضى السجن سجن، و قد رأينا سابقا كيف أمر بحبس ابن مهدي و كان يصلى خلفه، و من سياق القصة يتبين لنا أن الحرس كان معه حتى

ص: 386

و هو يؤم الناس في صلاتهم، لأن مالك سأل: من هنا من الحرس؟ فجاءه نفسان، و طلب منهما أن يحبسا ابن مهدي (1).

و مما يؤلم أن تتعدى الشدة الحدود إلى القسوة التي لا علاقة لها بحكمة تشريع الحدود، كما كان عليه الحال في قصة الرجل الذي عدا على أخيه، حتى إذا أدركه دفعه في بئر، و أخذ رداءه و أبوا الغلامين حاضران، فقال جماعة من أهل العلم:

الخيار للأبوين في العفو أو القصاص. فقال مالك: أرى أن تضرب عنقه الساعة. فقال الأبوان: أ يقتل ابن بالأمس، و نفجع في الآخر اليوم؟ نحن أولياء الدم، و قد عفونا.

فقال الوالي: يا أبا عبد الله، ليس ثم طالب غيرهما و قد عفوا. فقال مالك: و الله الذي لا إله إلا هو لا تكلمت في العلم أبدا أو تضرب عنقه. و سكت، فارتجت المدينة- فلما رأى الوالي عزمه، قدّم الغلام، فضرب عنقه، فلما سقط رأسه، التفت مالك إلى من حضر فقال: إنما قتلتته بالحراية حين أخذه ثوب أخيه، و لم أقتله قودا، إذ عفا أبواه.

و يسرى تأثير السلطة إلى منهجه، دخل عليه رجل فقال: ما تقول فيمن قال:

القرآن مخلوق؟ فقال مالك: زنديق اقتلوه. فقال: يا أبا عبد الله، إنما أحكى كلاما سمعته؟ قال: لم أسمع من أحد، إنما سمعته منك (2).

و قال سحنون: أخبرني بعض أصحاب مالك أنه كان عنده جالسا، فأتى رجل فقال: يا أبا عبد الله مسألة. فسكت ثم قال: مسألة. فسكت، ثم أعاد عليه، فرفع رأسه كالمجيب له فقال له السائل: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى كَيْفَ اسْتَوَاهُ؟ قال: فطأطأ مالك رأسه ساعة، ثم رفعه فقال: سألت عن غير مجهول، و تكلمت في غير معقول، و لا- أراك إلا- أمرا سوء، أخرجه (3). و وردت سابقا بلفظ آخر، و لكن تجمعهما النهاية. و في الحلية: و أظنك صاحب بدعة. و أمر به فأخرج (4).

و ما كان يتهياً لأحد بالمدينة أن يقول قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إلا حبسه مالك في الحبس، فإذا سنل فيه، قال: يصح ما قال ثم يخرج. و لقد كان ابن كنانة و ابن أبي

ص: 387

1- (1) مالك للخولى ص 274 نقلا عن ترتيب المدارك.

2- (2) مناقب السيوطى ص 14.

3- (3) الزواوى ص 32.

4- (4) حلية الأولياء ج 6 ص 325.

حازم و الدراوردى وغيرهم سمعوا مع مالك من مشايخ، وتركوا الحديث عنهم هيبة له حتى مات ففشا ذلك فيهم (1).

و ابن فرحون ينقل فى وصفه: كان كالسلطان له حاجب يأذن عليه، فإذا اجتمع الناس ببابه أمر أذنه فدعاهم، فحضر أولاً أصحابه، فإذا فرغ من يحضر، أذن للعامة.

و إذا أتاه الناس خرجت إليهم الجارية فتقول لهم: يقول لكم الشيخ تريدون الحديث أو المسائل؟ فإن قالوا: المسائل. خرج إليهم و أفتاهم. و لا بد هنا من ملاحظة قول ابن القاسم الذى يورده ابن فرحون بعد أسطر قليلة من النصوص التى تصف مالك. قال ابن القاسم: سمعت مالكا يقول: إنى لأفكر فى مسألة منذ بضع عشرة سنة، ما اتفق لى فيها رأى إلى الآن. و كان يقول: ربما وردت علىّ المسألة فأسهر فيها عامة ليلتى.

و قال ابن عبد الحكم: كان مالك إذا سئل عن المسألة، قال للسائل: انصرف حتى انظر. فينصرف و يتردد فيها!! ه.

أما إذا طلب الناس الحديث، قيل لهم: اجلسوا. فيدخل مغتسله، فيغتسل و يتطيب، و تلقى له المنصة، فيخرج إليهم، و يوضع عود، فلا يزال يتبخّر حتى يفرغ من حديث رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم و كان لا يوسع لأحد فى حلقتة و لا يرفعه، يدعه يجلس حيث انتهى به المجلس. و مع هذا كان إذا استزاده أحد من الناس فى الحديث يشير إلى السودان الذين يقفون عند رأسه، فيخرجونه من الدار (2).

و كان يلبس طيلسانا طرازيا و قلنسوة متركّة و ثيابا مروية جيادا، و فى بيته و ساند يقعد عليها أصحابه و قوم الطيلسان بخمسمائة، و كان يقع جناحه على عينيه، و قيل فى هذه الهيئة: إنه أشبه شىء بالملوك. و وصف منزله بأنه كان مبسوطا بأنواع المعارش (3).

و لقد كان متأنقا فى ملبسه و مأكله أيضا، فقد مات و ترك مائة عمامة و خمسمائة زوج نعل، و كان يهدى إليه الهدايا الفاخرة، و اشتهى يوما كساء قرمزيا، فأهدى إليه سبعة منها.

و أهدى إليه يحيى بن يحيى النيسابورى هدية باع من فضلتها ثمانين ألفا. قال

ص: 388

1- (1) الديباج ص 24.

2- (2) الانتقاء 42.

3- (3) البداية و النهاية ج 10 ص 174. [1]

قتيبة: كُنَّا إِذَا أَتَيْنَا مَالِكًا خَرَجَ إِلَيْنَا مَطِيئًا، قَدْ لَبَسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِهِ، فَتَصَدَّرَ وَدَعَا بِالْمَرَاوِحِ، فَأَعْطَى كُلَّ إِنْسَانٍ مَرُوحَةً (1).

وقد نصح بعضهم مالكا بالتواضع، وترك ما هو عليه. فكتب إليه يحيى بن يزيد بن عبد الملك النوفلى المدنى -وكان من أهل الحديث- بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على رسوله محمد فى الأولين والآخريين، من يحيى بن يزيد بن عبد الملك إلى مالك بن أنس، أما بعد فقد بلغنى أنك تلبس الدقاق، وتأكل الرقاق، وتجلس على الوطاء، وتجعل على بابك حاجبا، وقد جلست مجلس العلم، وقد ضربت إليك المطى، وارتحل إليك الناس، واتخذوك إماما رضوا بقولك؛ فاتق الله يا مالك، وعليك بالتواضع، كتبت إليك بالنصيحة كتابا ما أطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى والسلام.

ويكتب إليه مالك كتابا يقرّ فى آخره بما آخذه به يحيى ويقول: فنحن نفعل ذلك، ونستغفر الله تعالى، فقد قال الله تعالى: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ وَإِنِّي لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه (2).

والخلاصة، إننا لم نجد عند أحد من رؤساء المذاهب أو العلماء الذين كان لهم حظ وافر من تقريب السلطة لهم ما وجدناه عند مالك، فهذا الإمام أحمد كان يتحلى بروح إنسانية عالية بعيدة عن الميل والعنف -مع تشدده- فقد سئل يوما عن حبس أهل البدع، فأنكر ذلك بحجة أن لهم والديات وأخوات. أى أنه كره أن يتعدى عقابهم إلى الأبرياء من ذويهم ممن ليس لهم ذنب أو جريمة، وما خلا القول بخلق القرآن والرؤية، فإننا نرى الإمام أحمد يسمح بالمناظرة والقول.

ومن العجب أن يستجيب رجل الدين للدولة ويؤثر فيه ميلها إليه بحكم مصالحها واحتضانها له لأغراضها، ويسمح لنفسه بأن يعامل الآخرين بهذا الشكل من النكال. فيشمل ذلك طلبة العلم أو العلماء، وأنهم -كما رأينا- تركوا أن يحدثوا بشيء لأنه كان يعاقب من يروى عن النبى حديثا فيسجنه ما لم يصح عنده. فماذا يعتذر له بذلك؟ فليسوا أصحاب جدل ولا شبهة هوى أو بدعة، وإنما علماء عاصروه وهم أعلم منه أو فى طبقته، وما علمنا ذلك إلا من شئون الملوك وسلاطين الزمان. ولكن

ص: 389

1- (1) تذكرة الحفاظ ج 1 ص 196.

2- (2) إحياء علوم الدين ج 1 ص 114. [1]



أدى رضا السلطان واحتضانه لمالك إلى أن يكون مثله فيزدحم الناس على بابه، ويقف الحجاج عليها يمنعونهم من الدخول عليه، فإذا أذن لهم ازدحموا.

قال أبو مصعب: كانوا يزدحمون على باب مالك، فيقتتلون على بابه من الزحام، وكتنا عنده فلا يكلم هذا هذا، ولا يلتفت ذا إلى ذا، والناس قائلون برءوسهم هكذا (مبالغة في الإنصات) وكان الأمراء تهابه، وهم مستمعون، وكان يقول في المسألة: لا أو نعم. فلا يقال له: من أين لك هذا.

وقد أنكر عليه بعض العلماء ما رأوه من حاله وأعماله، وترك الحديث عنه الحكم بن نافع الحمصي وهو أحد العلماء، ومن احتج الشيخان بحديثه، فإنه رأى مالكا ولم يسمع منه لما رأى من الحجاج والفرش (1).

و تكلم فيه أيضا إلى جانب ابن أبي ذؤيب و ابن إسحاق عبد العزيز بن أبي سلمة و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم و ابن أبي يحيى و ابن أبي الزناد، و عابوا أشياء من مذهبه، و تكلم فيه غيرهم. و تحامل عليه الشافعي و بعض أصحاب أبي حنيفة، و عابه قوم في قعوده عن مشاهدة الجماعة في مسجد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم (2) و قال الخطيب: قد ذكر بعض العلماء أن مالكا عابه جماعة من أهل العلم في زمانه بإطلاق لسانه في قوم معروفين بالصلاح و الديانة و الثقة و الأمانة (3).

و ما يرويه الإمام الشافعي في أول اتصاله بمالك يؤيد ذلك، عند ما أخذ من والى مكة وصية إلى والى المدينة يطلب منه إيصال الشافعي إلى مالكا.

قال الشافعي:

فأوصلت الكتاب إلى والى، فلما قرأه قال: يا فتى، إن مشى من جوف المدينة إلى جوف مكة حافيا راجلا أهون على من المشى إلى باب مالكا بن أنس، فلست أرى الذلة حتى أقف على بابه. فقلت: أصلح الله الأمير إن رأى أن يوجه إليه ليحضر؟ قال: هيهات، ليت إنى إذا ركبت أنا و من معى، و أصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا. قال: فواعدته العصر، و ركبنا جميعا، فوالله لكان كما قال، لقد أصابنا

ص: 390

1- (1) ميزان الاعتدال 272/1.

2- (2) جامع بيان العلم ج 2 ص 161. [1]

3- (3) تاريخ بغداد ج 1 ص 223. [2]

من تراب العقيق. قال: فتقدم رجل، ففرع الباب، فخرجت إلينا جارية سوداء، فقال لها الأمير: قولي لمولاك أني بالباب. قال: فدخلت، فأبطأت، ثم خرجت فقالت:

إن مولاى يقرئك السلام و يقول: إن كانت مسألة فارفعها فى رقعة يخرج إليك الجواب، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف. فقال لها: قولى له:

إن معى كتاب والى مكة إليه فى حاجة مهمة. فدخلت و خرجت و فى يدها كرسى، فوضعتة، ثم إذا أنا بمالك... إلخ الرواية (1).

ولنتأمل تهيب الوالى من الوصول إلى مالك، فهو أمر غير معهود، بل و غريب، و لكن مصلحة الملوك اقتضت ذلك. فقد نقل أن المنصور كان يطلب من مالك أن يبدى رأيه فى ولاته على الحجاز. و قال له:

إن رابك ريب من عامل المدينة أو عامل مكة أو أحد من عمّال الحجاز فى ذاتك أو ذات غيرك، أو سوء أو شرّ فى الرعية، فاكتب إلّى بذلك، أنزل بهم ما يستحقّون.

فامتناع مالك فى أول الأمر كان لظنّه أن الطارق من طلبه العلم. أما عند ما علم بأنه من قبل والى مكة فقد تغيّر الحال، لأن ذلك من شئون الدولة. و لذلك فإن العلم يفرض علينا أن نستغرب صدور مثل هذه التصرفات فى السلوك و المظهر من رجل له مكان الصدارة فى مجلس العلم. و يبوئ نفسه مقام المرجعية لأحكام الشريعة، لأنها أمور لا يتوقع صدورها إلا من الحكام الذين عدت عندهم مقاييس العدل و المساواة.

و على أى حال، فإن الإمام مالك انتشر ذكره فى الحجاز بعوامل السلطة، فقرّبه الحكّام و الزموا الناس بالرجوع إليه، فأقبلت عليه الدنيا و استجاب هو لأشكال هذا الإقبال.

و نرى فيما قدّمناه كفاية، و قد أصبحت الصورة عن الإمام مالك متكاملة، و كان القسم الأول فى الجزء الثانى قد ضمّ الأمور الفقهية، و لم نأت هنا على ما بحثناه فى السابق من الجوانب التى تتعلق بالمذهب المالكي.

ص: 391

:

كثر الاختلاف فى وفاة مالك كاختلافهم فى ولادته، ف قيل أنه مات فى 10 ربيع الأول، وقيل 14 منه، وقيل 13، وقيل 12 من شهر رجب سنة 199 هـ أو سنة 198 هـ وقيل من صفر 199 هـ أو فى سنة 180 هـ.

و شيع جثمانه، وصلى عليه الخليفة العباسى، و دفن بالبقيع، و نصبوا على قبره فسطاقا، و رثاه الشعراء منهم ابن أبى المعافى:

الأقل لقوم سرهم فقد مالك إلا إن فقد العلم إذ مات مالك

فمالى لا أبكى على فقد مالك وفى فقدته سدّت علينا المسالك

و مالى لا أبكى عليه و قد بكت عليه الثريا و النجوم الشوابك

وقالوا أن امرأة رثته بقولها:

بكيت بدمع و اكف فقد مالك وفى فقدته ضاقت علينا المسالك

و مالى لا أبكى عليه و قد بكت عليه الثريا و النجوم الشوانك

إلى آخر الأبيات و هى مشابهة لأبيات ابن أبى المعافى، و لا نستغرب هذا الاختلاف، فقد اشتبه الرواة أو نسبوا شيئا غير صحيح.

## أولاده و أحفاده

:

خلف مالك ولدين هما: يحيى و محمد، و ابنة اسمها فاطمة، و زوجها لابن أخته إسماعيل بن أبى أويس، و كان يحيى يروى عن أبيه نسخة من الموطأ و هى التى تروى عنه باليمن.

قال العقيلي: إن يحيى بن مالك حدّث عن أبيه بالمناكير (1) و قال القروى: كنا نجلس عند مالك، و ابنه يحيى يدخل و يخرج، و لا يقعد، فيقبل علينا مالك، و يقول:

إن مما يهون علىّ أن هذا الشأن لا يورث، و أن أحدا لم يخلف أباه و مجلسه إلا عبد الرحمن بن القاسم.

ص: 392

وقال مصعب الزبيري: كان محمد بن مالك يجيء و هو يحدث و على يده بائق و نعل كيسانى و أرخى سراويله عليه (1).  
و كان لمحمد هذا ولد اسمه أحمد، سمع من جده مالك، و هو معدود من رواة، و لكنهم ضعّفوه و تركوه، بل تركوا أباه و عمه كذلك.  
و ليس لمالك غير هؤلاء، و قيل: إن له ولدا رابعا اسمه حمّاد و ليس له ذكر.

و لا عقب لمالك يذكر فى التاريخ.

ص: 393

---

1- (1) الديباج المذهب 18.



## إشارة

لم نفرغ من حياة الإمام الشافعي ببحثنا عنه في الجزء الثالث، لأن كثرة ما ذكر عنه، وسعة مواطن حياته، وتعدد مزاياه يحتاج إلى استفاضة و إسهاب، وأغلب المسائل التي تتعلق بمراحل عمره لّفها اللبس وأحاطتها التناقضات، لأن الحقيقة غشيتها سحب العاطفة، أو لوتتها ردود الأفعال المختلفة. وشعورنا بإجلال شخصية أو حبّها ربما يكون لعوامل هي بعيدة عن واقعها، كما أن البعد عنها والنفرة منها ربما تكون لرد فعل وهي لا تستحق ذلك، وربما يكون أيضا عن واقع يحمل على عدم الرضا و يبعث على النفور إذا كان الشعور نابعا عن عقل و روية، كما تبرز ما للشخصية من خصال. أما إذا غلبت الميول وسيطرت العاطفة أو تحكمت ردود الفعل، فهناك تقع الحيرة، ويحدث التناقض، لأن الحقيقة استكّنت بمعزل عن العاطفة و ردود الأفعال.

وها نحن نستأنف البحث عن حياة الإمام الشافعي بمنهجنا القائم على اتباع الحق و التماس الحقيقة.

## نسبه

:

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف.

ولد سنة 150 هـ نهار الجمعة آخر يوم من رجب، وقيل في اليوم الذي مات فيه أبو حنيفة، وقيل غير ذلك على اختلاف الأقوال.

و المطلب الذي ينتهي إليه نسب الشافعي، هو أحد أولاد عبد مناف الأربعة.

و هم المطلب و هاشم و عبد شمس جدّ الأمويين و نوفل. و المطلب هو الذي ربّى عبد المطلب ابن أخيه هاشم جدّ النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم.



و يروى أنها قد رأت حين حملت به كأن المشتري خرج من فرجها حتى انقضَّ بمصر، ثم وقع في كل بلد منه شظية! أما أبوه إدريس، فلم يفصح التاريخ عن شيء من حياته و سيرته و وفاته، و لم يحتفظ إلا بالاسم فقط، فليس له ترجمة في جميع الكتب التي ذكرت الشافعي، و لا في غيرها من كتب الحديث و الرجال و الأدب.

و ما ذكر عنه أو أشير إليه بعيد عن الصحة، كقول هداية الله الحسيني أن والد الشافعي سلّمه للنفقة إلى مسلم بن خالد الزنجي -مفتي مكة- و هذا غير صحيح بالإجماع، لأن الروايات متضاربة على أن الشافعي نشأ يتيماً في حجر أمه، و تولت تربيته، و عند ما خشيت عليه الضيعة أرسلته إلى مكة و هو ابن عشر سنين.

فالشافعي لم يتربّ في ظلال أبيه، و لم يتولّ ذلك إلا أمه، و لا نعلم أنه عرف أباه و حدّث عنه، كما لا نعلم هل ولد الشافعي في حياة أبيه أم أن أباه مات و هو حمل في بطن أمه؟ و هل أن إدريس كان في مكة و رحل إلى اليمن، و ما هي أسباب رحلته؟ و جاء في مقدمة كتاب الأم: أن والد الشافعي كان رجلاً حجازياً فقيراً، خرج مهاجراً من مكة إلى الشام، و أقام بغزة و عسقلان ببلاد فلسطين، ثم مات بعد ولادة الشافعي.

لكن هذا القول لم يستند إلى نص تاريخي. و أياً كان، فالروايات مختلفة و الأقوال متفرقة في ولادته و محلها، و هجرته و وقتها، و كذلك رحلاته المتعددة و تحصيله للعلم بأي زمن، فهل كان من صغر سنه أم بعد نشأته، و كذلك دخوله إلى مكة، فقيل إنه لما بلغ من العمر سنتين، و أصبح قرّة عين والدته، فرأت أن تحمله إلى مكة المكرمة صوناً لنسبه من الضياع إذا بقي في غزة، فهاجرت به، و نزلت بجوار الحرم بحى يقال له (شعب الخيف) و لما ترعرع، أرسلته أمه إلى الكتّاب، و حفظ القرآن و عمره سبع سنوات، و قيل: إن الشافعي ولد بغزة، و حمل إلى عسقلان، و دخل مكة و هو ابن عشر.

## طلبه العلم

:

و قد تكون هذه النقاط غير مهمة في سياق الأحداث أحياناً إذا ما جاءت مجردة لا يعتمد عليها جانب من السيرة المتعلقة بها، أما في حياة الإمام الشافعي فهي تكتسب



أهمية لأن الاختلاف كبير في تحديد سنّ تأهله للعلم أو تبوئه مكان الفتيا، وقد قادت العواطف وأدى التعصب إلى إظهار علمه واجتهاده في سن مبكرة أو نبوغه في فترة قصيرة (1).

والذي نستظهره أن اتجاه الشافعي لطلب العلم كان في العقد الثالث من عمره، وعلى رواية ابن كثير أن بقاءه في البادية عشرين سنة، فيكون طلبه للفقهاء في العقد الرابع، أي بعد تجاوزه الثلاثين من عمره، فتكون ملازمته لمسلم بن خالد الزنجي الذي أخذ الشافعي عنه الفقه (2) قصيرة جدا. حيث روى أن مسلم بن خالد قال له:

أفت. وهو ابن خمس عشرة سنة، وفي رواية الخطيب البغدادي عن الحميدي ما يشعر أن مسلم الزنجي مرّ على الشافعي وهو يفتي (3) وأن الشافعي يقوم بالفتيا فعلا، وليس كما في الروايات الأخرى أن مسلما أذن للشافعي بالفتيا بعد درسه عليه و ملازمته له.

و كما قلنا في بدء الحديث عن الإمام الشافعي، فإن العواطف أو ردودها العكسية هي وراء مثل هذه المبالغات، أو الاتهامات، وما بين أيدينا من الأدلة التاريخية، يصرّح بأن الشافعي لم يعرف بالفقهاء إلا بعد مدة طويلة، مع أن الحميدي لم يدرك مثل هذا التاريخ، وأن الخطيب بعد نقل الحكاية يقول: وليس ذلك بمستقيم لأن الحميدي كان يصغر عن إدراك الشافعي وله تلك السن.

و مهما يكن من أمر، فإن الشافعي لم يعرف الفقه والحديث وهو في مكة.

ولكن رحل إلى المدينة، وواصل دراسته، فأصاب الشهرة بعد المدة التي استغرقها طلب العلم.

قال ابن حجر: انتهت رئاسة الفقه في المدينة إلى مالك، ورحل الشافعي إليه و لازمه، وأخذ عنه. وانتهت رئاسة الفقه إلى أبي حنيفة، فأخذ عن صاحبه محمد حملا ليس فيها شيء إلا وقد سمعه عليه، فاجتمع له علم أهل الرأي و علم أهل الحديث.

ص: 398

1- (1) انظر التفاصيل: الإمام الصادق و المذاهب الأربعة، مجلد 2 جزء 3. [1]

2- (2) مسلم بن خالد بن سعيد مولى آل سفیان بن عبد الأسد المخزومي و هو من الشام، كان مسلم أبيض مشربا حمرة، و الزنجي لقب لقب به و هو صغير. و في الطبقات الكبرى لابن سعد: [2] كان كثير الحديث، كثير الغلط و الخطأ في حديثه، و كان في بدنه نعم الرجل، و لكنه كان يغلط اه. ضعّفه أبو داود و غيره.

3- (3) تاريخ بغداد ج 2 ص 64. [3]

لأن الشافعي - مع أخذه العلم على مالك - كان يتمتع بقدره على المناظرة و معرفة باللغة و مزايا أخرى تبعده عن حدود الرواية و التقيد بها فقط. قال هارون بن سعيد الأيلي: (لو أن الشافعي ناظر على هذه العمود التي من حجارة أنها من خشب، لغلب لاقتداره على المناظرة). و نرى أن الرحلة إلى العراق كانت بدوافع علمية، بعد أن أتقن علم الحديث، ليطلع على أهل الرأي و هم في مصرهم فقال: (سميت ببغداد: ناصر الحديث) فيما كان إقباله على الأخذ من محمد بن الحسن يفوق إقباله في المدينة على أصحاب الحديث.

و مما لا شك فيه أن الشافعي كان ذكياً في صباه، إلى جانب الحفظ، فكان معلمه كلما علّم صبياً شيئاً كان الشافعي يتلقف ذلك الكلام، ثم إذا قام المعلم من مكانه، أخذ الشافعي يعلم الصبيان تلك الأشياء، فنظر المعلم فرأى الشافعي يكفيه أمر الصبيان أكثر من الأجرة التي كان أهل الشافعي لا يجدونها لفقر حالهم. و كان في كل أحواله و هو في طلب العلم فهما مدركا.

لقد أدى الإعجاب بالشافعي و التعامل بالمذهبية إلى تكلف أمور لا نشكّ بأنها أصبحت من أمارات السيادة و علامات الرئاسة، رغم علمهم بأن استسهال الوسائل كالمنامات لإيجاد الصلة بالنبي محمد لا يخفى حقيقة الغرض و البواعث، بدليل تقليدهم غيرهم فيما يعملون، فهم ليسوا بدعا في ذلك، و سير رؤساء المذاهب التي أكملها الأصحاب و الأتباع، ممن سبق الشافعي قد أخذت بالظهور في المجالس و الحلقات، و عانى من بواعثها المتعصبة الإمام الشافعي نفسه عند ما استقرّ بمصر أو خلال وجوده في بغداد.

وقد كان أولى بأهل العلم أن يدعوا الشافعي يأخذ منزلته بما وهبه الله من علم، و يتبوّأ مكانته بما يستحقّه. فالمزني يقول: رأيت النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم في المنام، فسألته عن الشافعي. فقال لي: من أراد محبتي و سنتي فعليه بمحمد بن إدريس الشافعي المطّلبى فإنه منى و أنا منه.

و بعض هذه المنامات يتجاوز حدود اللياقة اللازمة لذكر المصطفى، مما يجعل منام المزني الأنف متميزاً بمراعاة الحضرة النبوية. أما أحمد بن حسن الترمذي - على ما رواه الخطيب البغدادي - ففيه من الإساءات ما يحتاج إلى قول أوسع و أشمل. قال:

كنت في الروضة فأغفيت، فإذا النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم قد أقبل، فقممت إليه فقلت: يا رسول الله قد

كثر الاختلاف في الدين، فما تقول في رأى أبى حنيفة؟ قال: أف و نفض يده. قلت:

فما تقول في رأى مالك؟ فرفع يده و طأطأ و قال: أصاب و أخطأ. قلت: فما تقول في رأى الشافعى؟ قال: بأبى ابن عمى -هكذا العبارة فانظر- أحيى سنتى (1).

و فى تفسير الأحلام- أو تعبيرها- التى تروى عن الشافعى نفسه يذهبون بعيدا أيضا، فعن المزنى: سمعت الشافعى يقول: رأيت على بن أبى طالب فى النوم، فسلم على و صافحنى، و خلع خاتمه و جعله فى إصبعى، و كان لى عم ففسرها لى فقال لى: أما مصافحتك لعلى فأمان من العذاب، و أما خلع خاتمه فجعله فى أصبعك فسيلغ اسمك ما بلغ اسم على فى الشرق و الغرب!؟ و مما تواضع عليه منتسبو المذاهب كعلامات للرئاسة إلى جانب المنامات- و قد أطلعنا على المنامات التى وضعت لكل رئيس مذهب- هو الحديث النبوى بحق رئيس المذهب، فمنها ما يصرح بالاسم و الصفة، و منها ما يتبنى تخصيصه على صرف الصفات الواردة فيه بدون دليل. و قد كانت حصة الإمام الشافعى الحديث: (اللهم اهد قريشا فإن عالمها يملأ- طباق الأرض علما، اللهم كما أذقتهم عذابا فأذقهم نوالا). و لا نريد أن نناقش الأحاديث الأخرى و باختلاف الألفاظ، كما نترك الخوض فى طرقها و أسانيدها. و ننزل فالحديث عن عالم من قريش إن لم يوقت فهو يتناول عالما من قريش.

و نتفق فى القول أنه: (علامة بيّنة للمميز، أن المراد بذلك رجل من علماء هذه الأمة من قريش قد ظهر علمه، و انتشر فى البلاد، و كتبوا تأليفه كما تكتب المصاحف، و استظهروا أقواله). و إلى هنا فإن من أئمة قريش و علمائها من هو أحق و أولى من الشافعى. و ما القول: بأن هذه صفة لا نعلمها قد أحاطت إلا بالشافعى. إلا تحكّم بدون دليل، لأن الدليل مع منهم أعلم من الشافعى و أحق بهذه الصفة، ممن وضع الله فيهم رسالته و أورثهم أمين السماء علمه و ولايته.

فقد أحتجّ به الإمام على يوم حروراء، عند ما بعث إليهم ابن عباس و قال: «قل لهم: علام تتهمونى و أشهد، فسمعت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يقول ذلك».

و وجه الاستدلال لديهم تجهر بأن القصد هو الانتصار فى معركة تنازع

ص: 400

المذاهب، فمن نصوصهم: (أن هذا الخبر يتناول رجلا اجتمعت فيه خصال ثلاثة إحداها: أن يكون من قريش، وبهذا الطريق يخرج عن هذا الحديث مالك و أبو حنيفة و أحمد بن حنبل و أبو يوسف و محمد. و ثانيهما: أن يكون ذلك الرجل كثير العلم بحيث يكون قد وصل علمه إلى أهل الشرق و الغرب، و الشخص الموصوف بهذه الصفات ليس إلا الشافعي. و ذلك لأن جماعة من رجال قريش كانوا قد بلغوا في العلم مبلغا، إلا أن أحدا منهم لم يبلغ علمه إلى جميع أهل الأرض، و أما الشافعي فإنه هو الذي صنّف في أصول الشريعة و فروعها، و انتشرت تلك التصانيف و العلوم في الشرق و الغرب، و لم يبق بيت في الدنيا من بيوت الموافقين و المخالفين و المنكرين إلا- وصلت تلك العلوم و الكتب فيه، أما الأصحاب و الأتباع و الموافق فلنقرر الإثبات، و أما المخالفون فللظن فيه، و الجواب عنه، و الناس كتبوا تلك الكتب كما تكتب المصاحف التي تتلى و الأخبار التي تروى، و كل يوم تزداد قبولا و إقبالا. فكان اللائق بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و إن عالمها يملأ طبقات الأرض علما ليس إلا الشافعي) اهـ.

و لسنا بصدد الإطالة في البحث عن ثمرات العواطف، و لكننا نحاول هنا أن نأتي على الأشياء التي نستكمل بها ما بحثناه من حياة الشافعي في القسم الأول، و قد أخذنا بتجنب التكرار إلا ما كان لضرورة اقتضتها (1).

و قد أشرنا في القسم الأول أن التأسى بأئمة المذاهب كان وراء هذه التكاليف و الأقوال، فأبو حنيفة قتل مسموما بدعوى أنه لم يقبل القضاء. و مالك بن أنس ضرب بالسياط لفتوى تخالف السلطان، أو لاشتراكه في ثورة العلويين. و من بعده أحمد بن حنبل امتحن في مسألة خلق القرآن. فإذا لم يبق من أمارات الرئاسة إلا المحنة. فبادر كتّاب المناقب إلى ذلك، و قد اطلعت على الطعون التي وجهناها إلى الرواية في الجزء الثالث من الكتاب، و مهما يكن من قول فإن المناقب احتوت على باب يحكى المحنة التي مرّ بها الإمام الشافعي، و عقدت فصول في بيانها و كيفية وقوعها، و أشهرها في كتبهم: (إنه جرى بالشافعي رضى الله عنه إلى العراق، و أدخل ليلا، و كان في رجله حديد، لأنه كان من أصحاب عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، و كان ليلة الاثنين لعشر خلون من شعبان سنة أربع و ثمانين و مائة و في ذلك الوقت كان أبو

ص: 401

يوسف على قضاء القضاة، ومحمد على المظالم). ولا نزيد في الاقتباس على هذا، لأن وفاة أبي يوسف مع الاختلاف في سنة 182 أو 183 هـ والثابت أنه لم يلتق بالشافعي، وتختلف الروايات هل حمل من اليمن أو من مكة؟ وهل كان في اليمن واليا أو مقيماً؟ ويضمّن ابن كثير روايته إشارة إلى موت أبي يوسف، وأن الاجتماع اقتصر على محمد بن الحسن، وتبين للرشيد براءته مما نسب إليه، وأنزله محمد بن الحسن عنده وأكرمه (1).

ولا يغير ذلك منه أن المحنة قد وضع حكايتها عبد الله بن محمد البلوي، وقد تضمّنت أشياء كثيرة لا أصل لها (2). ولم تكن إلا- من تلاطمات المناقبة، وموجات العواطف، ولا نذكر ما للشافعي فيه تضلّع وبصر كالأحكام والشعر و صنوف الأدب الأخرى التي جاءت على لسان الشافعي وهو يجيب الرشيد، لكننا نذكر طرفاً من أسئلة الرشيد وأقوال الشافعي وهو يجيبه. قال الرشيد: فكيف علمك بالنجوم؟ قال الشافعي: أعرف الفلك الدائر والنجم السائر، والرجوع والاستقامة والسعود والنحوس وهيئاتها وطبائعها وما أهدى به في بر وبحر، وما يستدلّ به في أوقات الصلاة وأحوال الفصول والأوقات. قال الرشيد: فكيف علمك بالطب؟ قال الشافعي: أعرف ما قالت الروم مثل أرسطاطاليس وبقراط وجالينوس وقرقوربوس وابنه قليس بلغاتها، وما نقله أطباء العرب وقتنته فلاسفة الهند، ونمّته علماء الفرس مثل جاماسب وساهمرد وبزرجمهر... الخ الرواية. إلى غيرها من رغبات التابعين الذين يحملهم الهوى على وضع صورة لشخصية محبوبهم ومقتداهم تفوق مواهب الآخرين وقدرات البشر على التعلم مما لم يدّعيه الشافعي ولم ينطق به. فقالوا في معرفته بالطب أنه كان يقول:

العلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان. ثم تارة يقول: علم الأبدان هو الطب، وعلم الأديان هو الفقه. وأخرى يقول: علم الأبدان هو الفقه، لأنه يحثّ على التكليف المتوجهة على الأعضاء والجوارح. وعلم الأديان هو علم الباطن، وهو معرفة الله تعالى وكيفية الدواعي والصوارف والنيات في الأعمال.

ص: 402

1- (1) البداية والنهاية ج 10 ص 252. [1]

2- (2) انظر قصتها في الحلية ج 9 ص 85. والمناقب للرازي ص 23-27. ومعجم الأدباء ج 17.

ولم يدعوا أقواله في الفرق بين الفقه و الطب و منازعهما على ما وردت به مما يعلمه كل فقيه عالم بالأحكام عارف بالحديث، غير أنهم ادعوا معرفته بالطب و احتجوا بمزيد من الأقوال كقوله: لا- تسكن بلدة لا- يكون فيها عالم يخبرك عن دينك، و لا طبيب يخبرك عن أمر بدنك. و إنه كان يتلهّف على إعراض المسلمين عن علم الطب.

و إذا نظرنا إلى عصر الرشيد، رأينا أن ظهور النصارى بالطب، و دخولهم في خدمة الرشيد، و حذقهم في ذلك قد حمل المسلمين على التلهف على كون الطب في غير المسلمين، و أن ادعاءهم مبنى على استشعار المسلمين هذه الحاجة. فالشافعي يعرف الطب في هذه الظروف التي أدت إلى استخدام النصارى، لأن المسلمين جهلوا ما في دينهم من وجوه الاهتمام بالبدن و وصايا الطب، فقد روى الثعلبي في تفسيره أن بختيشوع بن جبريل المتطبب النصراني كان يخدم الرشيد، و كان حاذقا، فقال يوما بحضرة الرشيد لعلى بن الواقد الواقدي: ليس في كتابكم من علم الطب شىء، و العلم علمان علم الأبدان و علم الأديان. فقال له على بن واقد: قد جمع الله الطب في نصف آية من كتابه و هو قوله تعالى: كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لَا تُسْرِفُوا فقال النصراني: أو لا يروى عن نبيكم شىء من الطب؟ فقال الواقدي جمع النبي صلى الله عليه و آله و سلم الطب في كلمات و هى قوله: «المعدة بيت الداء، و الحمية رأس كل دواء، و أعط كل بدن ما عودته».

فقال النصراني: ما ترك كتابكم و لا نبيكم لجالينوس طبا (1).

و برواية المحنة تكتمل شروط الرئاسة المذهبية، و بتفاصيل تفرده في النبوغ و المعرفة يصبح مؤهلا إلى أن يبعث لهذه الأمة، و يكون بمقتضى رواية أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» هو المقصود، و ينسب إلى أحمد بن حنبل ترويح ذلك و أنه قال: نظرت في سنة مائة فإذا هو رجل من آل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و نظرت في رأس المائة الثانية فإذا هو رجل من آل رسول الله صلى الله عليه و سلم محمد بن إدريس رحمه الله.

ثم يمضون، فيضعون في رأس كل مائة أحد شيوخهم من الشافعية، و قد

ص: 403

يختلفون إذا تكافأ الاثنان كأبي حامد الاسفراييني وسهل بن أبي سهل الصعلوكي أو الفخر الرازي والرافعي (1).

## بين الحديث و الرأي:

ذكرنا سابقا رأى ابن حجر فى اجتماع الحديث و الرأى فى الشافعى، و خلصنا إلى أن الرحلة إلى العراق حقيقتها كانت لدوافع علمية، لأن الشافعى - و هو يتلقى على مالك - كان قادرا على المناظرة، و مستعملا الرأى الذى يخالف به أستاذه، و يقوم بالاستنباط، فقد روى عنه أنه كان جالسا بين يدى مالك بن أنس، فجاء رجل إلى مالك فقال: يا أبا محمد، إني رجل أبيع القمري، و إني بعت يومى هذا قمريا، فبعد زمان أتاني صاحب القمري و قال: إن قمريك هذا لا - يصيح، فتشاجرنا إلى أن حلفت بالطلاق أن قمري ما يهدأ من الصياح؟ فقال مالك: طلقت امرأتك. فانصرف الرجل حزينا، فقام الشافعى إليه و قال للسائل: أ صياح قمريك أكثر من سكوته أم سكوته أكثر؟ فقال السائل: بل صياحه. فقال الشافعى: انصرف، فإن زوجتك ما طلقت. ثم رجع الشافعى إلى الحلقة فعاد السائل إلى مالك. فقال: يا أبا عبد الله تفكر فى واقعتى لتستحق الثواب. فقال مالك: الجواب ما تقدم. فقال: فإن عندك من قال الطلاق غير واقع. فقال مالك: و من هو؟ فقال السائل: هو هذا الغلام. و أوما إلى الشافعى، فغضب مالك عليه و قال له: من أين لك هذا الجواب؟ فقال الشافعى: إني سألته أن صياحه أكثر أم سكوته؟ فقال: إن صياحه أكثر. فقال مالك: و هذا الدليل أقبح، و أى تأثير لكثرة صياحه أو قلة سكوته فى هذا الباب؟ فقال الشافعى: إنك حدثتني عن عبد الله بن يزيد عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن فاطمة بنت قيس أنها أتت النبي صلى الله عليه و آله و سلم فقالت: يا رسول الله أن أبا جهم و معاوية خطباني، فأيهما أتزوج؟ فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم: أما معاوية فصعلوك، و أما أبو جهم فرجل لا يضع عصاه عن عاتقه.

و قد علم النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن أبا جهم كان يأكل و ينام و يستريح، فعلمنا أنه صلى الله عليه و آله و سلم عبّر بقوله - لا يضع عصاه عن عاتقه - على تفسير أن الأغلب من أحواله ذلك اه.

و اشتهر منه ذلك و هو فى الحجاز، حتى لفت أنظار أهل الرأى كبشر المريسي (2)

ص: 404

1- (1) انظر مفتاح السعادة لطاش كبرى زادة ج 2 ص 94. [1]

2- (2) بشر بن غياث بن عبد الرحمن المريسي المعتزلى أدرك أبا حنيفة و أخذ عنه، ثم لازم أبا يوسف و أخذ عنه، و صار من أخص أصحابه، و اشتهر بعلم الكلام و الفلسفة، و قال بخلق القرآن، و إليه تنسب المريسية من المرجئة، و كفره أكثرهم. و نسبته إلى مريسة توفى سنة 219 هـ.

فكانت مناظراته مع الشافعي من أشهر ما ذكر عن المريسي و قالوا: حج بشر المريسي فرجع فقال لأصحابه: رأيت شابا من قریش بمكة ما أخاف على مذهبا إلا منه (1).

و في رحلته إلى بغداد ينزل الشافعي على بشر المريسي، فقالت له أم بشر: لم جئت إلى هذا؟ فقال أسمع منه العلم. فقالت: هذا زنديق. و في رواية أن أم بشر جاءت إلى الشافعي فقالت: يا أبا عبد الله أرى ابني يهابك و يحبك، و إذا ذكرت عنده أجلك، فلو نهيتة عن هذا الرأي الذي هو فيه، فقد عاداه الناس عليه، و يتكلم في شيء يواليه الناس عليه و يحبونه؟ فقال لها الشافعي: أفعل. فقال الشافعي لبشر:

أخبرني عما تدعو إليه أ كتاب ناطق، أم فرض مفترض، أم سنة قائمة، أم وجوب عن السلف البحث فيه و السؤال عنه (2)؟ و لا نستطرد في ذكر أقوالهما لأن ذلك ليس في نطاق البحث.

و الغرض أن الشافعي نهج مع بشر منهج الحوار و القول بالحق، و ناظره في مسائل كثيرة، فتبدلت علاقتهما و ساءت، لأن الناس مالت إلى الشافعي، و خفوا عن بشر، فلما قيل لبشر: هذا الشافعي الذي كنت تزعم قد قدم؟ فقال: إنه قد تغير عما كان عليه (3).

و في المرة الأولى من قدمه بغداد انقطع الشافعي إلى محمد بن الحسن، فحمل عنه (4) و قد قدر ما كتبه بوقر بعير، و كان الناس يعظمون محمد بن الحسن لقربه من الرشيد، و قد اجتمعا على باب هارون، فاندفع محمد يعرض بالشافعي و يذم أهل المدينة بقوله: من أهل المدينة؟ و أي شيء يحسن أهل المدينة؟ و الله لقد وضعت كتابا على أهل المدينة كلها لا يخالفني فيه أحد، و لو علمت أن أحدا يخالفني في كتابي هذا تبلغني إليه آباط الإبل، لصرت حتى أرد عليه.

و ينتبه الشافعي إلى أصل التحامل و مداره بين الأشخاص، فيروي الشافعي:

فتقدمت إليه فقلت: أصلحك الله - طعنك على أهل المدينة و ذمك لأهل المدينة إن

ص: 405

1- (1) تاريخ بغداد ج 2 ص 65. [1]

2- (2) راجع تاريخ بغداد ج 7 ص 59. [2]

3- (3) أيضا ج 2 ص 65.

4- (4) معجم الأدباء ج 17 ص 283. [3]



كنت أردت رجلا واحدا و هو مالك بن أنس فألا ذكرت ذلك الرجل بعينه و لم تطعن على أهل حرم الله و حرم رسوله و كلهم على خلاف ما ادعيته. و أما كتابك الذى ذكرت أنك وضعته على أهل المدينة، فكتابك من بعد «بسم الله الرحمن الرحيم» خطأ إلى آخره. ثم يذكر الشافعى أقوال ابن الحسن و ردّه عليها (1).

و عند ما يسمع الناس عن منعى الشافعى فى محاوره أهل الرأى يطلقون عليه (ناصر السنة) أو (ناصر الحديث) على اختلاف فى التسمية بين ما ذكره ابن كثير و هو الأول بسنده عن الشافعى، و ما ذكره الخطيب بسنده عن الشافعى أيضا و هو الآخر.

و من الواضح أن الشافعى يأخذ بالرأى و يقوم بالاستنباط فى عموم آرائه بعد تردده على بغداد لعدة مرات و لسنين، و لكنه يبقى للحديث الشريف الأوليّة، فقد قالوا عنه: إذا صحّ عندكم الحديث عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم فقولوا به و دعوا قولى، فإنى أقول به، و إن لم تسمعوا منى - و فى رواية - فلا تقلدوني، و فى رواية فلا تلتفتوا إلى قولى، و فى رواية فاضربوا بقولى عرض الحائط. فلا قول لى مع قول رسول الله (2).

و تلك من مزايا الإمام الشافعى، لأن صحة الحديث النبوى الشريف و التحقق من طرقه من أعظم الأمور التى يتحرّها الفقيه للاتباع أو للاستنباط.

و صفوة القول، فإن الإمام الشافعى كان طلابية علم و بحاثه يروى المواطن التى يرى فيها لفكره فائدة، إما اطلاعا أو أخذًا، فهو كثير السؤال، و يدلنا قوله: (ما رأيت أحدا سأل عن مسألة فيها نظر، إلا رأيت الكراهة فى وجهه إلا محمد بن الحسن) (3).

و مع تحوطه و تحرّزه، فإنه يثنى على مقاتل بن سليمان (4) و قول الشافعى مشهور: (الناس كلهم عيال على ثلاثة: على مقاتل فى التفسير، و على زهير بن أبى

ص: 406

1- (1) المرجع السابق. [1]

2- (2) تاريخ ابن كثير ج 10 ص 254.

3- (3) الانتقاء ص 69.

4- (4) مقاتل بن سليمان بن بشر أبو الحسن البلخى، قدم بغداد و حدّث بها، و اشتهر بالتفسير. قال ابن المبارك: ما أحسن تفسيره لو كان ثقة، قال بالتشبيه و أفرط فى إثبات الصفات و تشبيه الله عز و جل بالمخلوقات. قال أبو حيان: كان يأخذ من اليهود و النصرارى من علم القرآن الذى يوافق كتبهم توفى سنة 150 هـ.

سلمى فى الشعر، وعلى أبى حنيفة فى الكلام (1). كما أن قراءته لتفسير مقاتل بن سليمان معروفة كما فى أشكال المعنى عليه فى قوله تعالى: وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (2).

ولا ندرى هل تصافر التفسير و الشعر و الكلام على تمكّنه من ضرب من الألغاز يرد فى التفسير؟ نسوق بعض نصوص دون تعليق:

قيل له-أى الشافعى- كم قرء أم فلاح؟ فأجاب: على البديهة من ابن ذكا إلى أم شملة. و المراد بالقرء الوقت، و أم فلاح الفجر، و هو كنية الصلاة. و السؤال واقع عن مدة وقت صلاة الفجر، و قول الشافعى رضى الله عنه: من ابن ذكا. أى من وقت الصبح، و إلى أم شملة، و هى كنية الشمس، أى إلى طلوع الشمس. و هذا التفسير منسوب إلى الخطابى.

و ثانيها: سئل نسى أبو دارس درسه قبل غيبة الغزاة بلحظة، ما ذا يجب على أمه؟ فقال: عليها قضاء وظيفة العصرين. قال السائل: لجناية جناها أبو دارس؟ قال الشافعى: بل لكرامة استحقت أمه. و تفسيره أن نقول: أبو دارس: كنية فرج النساء، و الدارس: الحيض. فقال: نسى درسه، أى ترك حيضه. و الغزاة: الشمس، و المراد بأم دارس: المرأة، إذ أم الشىء أصله... سئل: هل تسمع شهادة الخالق؟ قال:

لا، و لا روايته. و الخالق: الكاذب، قال الله تعالى: إن هذا خلق الأولين... الخ.

و قد حرص تلامذته على حفظ نزعة الشافعى فى غرض لا يؤاخذ عليه كأحمد بن حنبل إذ يقول: خير خصلة فى الشافعى أنه ما كان يشتهى الكلام، إنما كان همته الفقه. و قد بات علم الكلام يومئذ محذورا، و أصبح يعنى الأهواء و النحل المختلفة، و يصف الشافعى الظرف الذى كان فيه فيقول: رأيت أهل الكلام يكفّر بعضهم بعضا، و رأيت أهل الحديث يخطئ بعضهم بعضا، و التخطئة أهون من الكفر. و عرف عن الشافعى طعنه فى علم الكلام و بغضه لأهله، و أحاطه الأصحاب بما يوحى بأن الشافعى اقتصر على ما بأيديهم من طرق و لم يجاوز الأثر و الحديث، و لم يخض فى جدل أو حوار، و أنه انتهى من اطلاعه إلى أن أهل الكلام على شىء ما توهمه، و لئن يبتلى المرء بجميع ما نهى الله تعالى عنه سوى الشرك بالله، خير من أن يبتلى بالكلام. و كان ذلك بتأثير العصر الذى عاش فيه الشافعى، إذ ارتأى الأصحاب

ص: 407

1- (1) تاريخ بغداد ج 13 ص 161. [1]

2- (2) مناقب الرازى.

والتلاميذ أن يبعدوا اسم رئيسهم عن مجالات النقاش و الجدل، و لا نريد أن نخوض في الأسباب، وإنما نقول أن طرق الكلام تقوم على المناظرة و الحوار و إجادة الحجج و المجادلة، و قد شهد الميدان رجالا تسلّحوا بالإيمان و تزوّدوا بالأحكام و اقتحموا تلك المعتركات للذّب عن العقيدة و فضح أهل الأهواء و البدع.

أما الأتباع بعد عصر الشافعي فإنهم لا- ينفون الحقائق، و لا ينكرون ما كان عليه الشافعي فيقولون: إن الشافعي كان قويا في المناظرة و المجادلة. بل أنهم يرون تمكنه من ذلك سببا في رجوع الناس عن قول أبي حنيفة و قول مالك لمخالفته لهما (1).

و لا- نريد أن نتوسع في القول، فقد ذكرنا قبل قليل بعض ما يشير إلى خوضه في الرأي و المناظرة، و فيه مجال لمزيد من القول، و لكننا آثرنا الاختصار، لأن غاية البحث في أغراض أخرى، و لا مانع من القول أن الشافعي- في طلبه و بحثه- كان لا يتوقف عند التهم، و لا يمتنع من الاتصال و الاطلاع بنفسه. لأن سلاح الاتهام بالبدع و الأهواء استعمل في مناسبات و أغراض اختلطت فيها الصور، و مرّت الموجة لتشمل آخرين لا ذنب لهم، و قد ذكرنا طرفا من علاقته بالمريسي، و أنه جاء إليه للعلم، و مضى الشافعي في مجادلته لما تبين له ضلاله.

عن أبي ثور قال: سمعت الشافعي يقول: قلت لبشر المريسي: ما تقول في رجل قتل، و له أولياء صغار و كبار، و هل للأكابر أن يقتلوا دون الأصاغر؟ فقال: لا.

فقلت له: فقد قتل الحسن بن علي بن أبي طالب ابن ملجم و لعلى أولاد صغار؟ فقال: أخطأ الحسن بن علي. فقلت: أ ما كان جواب أحسن من هذا اللفظ؟ قال:

و هجرته من يومئذ. فترى أن الإمام الشافعي يهجر من كان يتوسّم فيه العلم و هو من أهل الكلام لأنه أساء اللفظ في وصف السبط الزكي. و يذمّ الآخرين ممن استهواهم الجدل و غلب عليهم الرأي، فأباحوا لأنفسهم ما لا يرضى الله أو أدت لهم أهواءهم إلى الخروج إلى غيرها. و من الأسباب التي يمكن أن يحتج بها لأقوال الشافعي و من جملتها أيضا ما ذكرناه من هوى الأصحاب و الأتباع في الحفاظ على منهج الشافعي في سياقهم، و لا نرى وجها للتعليل بأن نهى الشافعي عن علم الكلام و التحذير منه كان لما بدر من المعتزلة، لأنهم كانوا القوامين عليه.

ص: 408

و لقد بحثنا فى الجزء الثالث آراء الإمام الشافعى فى علم الكلام و خلق القرآن و الصفات و الإمامة. و نرى ما حررناه فى هذا الجزء جديرا باستكمال الفائدة (1).

## الانتقال إلى مصر:

لا- شك أن الشافعى كان طموحا، فلم يتمكن من الإقامة فى بغداد إلى جانب محمد بن الحسن الشيبانى و صفته فيها طالب علم، حتى قال: حملت عن محمد بن الحسن حمل بختى. و مرة قال: وقر بعير ليس عليه إلا- سماعى منه (2). و كان فى قدومه الأول منقطعا إلى الحسن.

و تختلف الروايات فى الأسباب التى حملت الشافعى على الانتقال إلى مصر، و نحن نرجح أن يكون اصطدامه بحواجز الشهرة و السلطان التى كانت تقف أمامه و تحيط مكانة محمد بن الحسن، و بلوغه درجة علمية تجعله يطمح إلى مكانة أعلى لا يبلغها بوجود محمد بن الحسن.

و قد قيل: إنه كان يتشوق إلى مصر، و روى له شعرا بذلك:

أرى النفس قد أضحت تتوق إلى مصر و من دونها قطع المهامة و القفر

فو الله ما أدرى أ للفوز و الغنى أساق إليها أم أساق إلى القبر؟

و هذه الأبيات تنسب إلى الحسن بن هانى المعروف بأبى نؤاس، و إن الشافعى تمثّل بها.

و قيل إنه قدم مصر رغبة منه فى معارضة انتشار أقوال أبى حنيفة و مالك- كما حدّث الربيع- قال: سألتنى الشافعى عن أهل مصر، فقلت: هم فرقان فرقة مالت إلى قول مالك و ناضلت عليه، و فرقة مالت إلى قول أبى حنيفة و ناضلت عليه. فقال:

أرجو أن أقدم مصر إن شاء الله فأتبهم بشىء أشغلهم به عن القولين.

و الحقيقة إنه قوبل فى مصر كتلميذ لمالك، و كان لمالك ذكر فى مصر و تلامذته ينشرون أقواله و يتبعونه، و نزل ضيفا على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، فكرّم مثواه، و كانت لمحمد هذا مكانة فى مصر، و هو من تلامذة مالك و إليه انتهت الرئاسة فى مصر و لا يعدلون به أحدا.

ص: 409

1- (1) تاريخ بغداد ج 7 ص 60.

2- (2) الانتقاء.

وكان نزول الشافعي عنده من عوامل ظهور الشافعي، فهو معدود من تلامذة مالك، وآل الحكم كذلك فقدموا له كلما يحتاجه، والأغلب أن للشافعي قدومين إلى مصر، الأول كان سنة 188 هـ وفيه كان نزوله عند آل الحكم، وبعده عاد إلى بغداد للمرة الثانية سنة 195 هـ فاختلف إليه جماعة من العلماء منهم: أحمد بن حنبل وأبو ثور الكراييسي والزعفراني، وأملى أقواله وآراءه، وهو ما يعرف بمذهبه القديم. ثم رجع إلى مكة وعاد إلى العراق سنة 198 هـ للمرة الثالثة، فأقام بها مدة يسيرة، وفي آخر سنة 199 هـ عاد إلى مصر وأملى مذهبه الجديد. وهذه التواريخ تقوّيها أحداث حياة الشافعي المعروفة، ولقد ضمّت كتب المناقب والسير أن القدوم إلى مصر كان مرة واحدة، وأن بقاءه في بغداد-آخر قدوم له- كان شهراً، ولكن بعض الوقائع تخلّ بهذا الترتيب.

والظاهر أن ابن عبد الحكم وأهله لمسوا من الشافعي طموحه، فأخذوا في الأعداد لشهرة الشافعي ولرئاسة، فنرى ابن عبد الحكم يقول: لمّا أن حملت أم الشافعي به رأت كأن المشتري خرج من فرجها حتى انقضّ بمصر، ثم وقع في كل بلد منه شظية (1).

وفي مصر ظهرت مواهب الشافعي العلمية ومقدرته وسعة اطلاعه، وقصده الناس، وأصبح له تلامذة، وأملى مذهبه الجديد، وكان ابن الحكم المساعد الأول له. فقد أقبل على مذهب الشافعي وتحمّس له، وتحوّل عن مذهب مالك، ولمّا استخلف الشافعي البويطي في حلقة، نعم ابن الحكم، وعاد إلى المذهب المالكي، وتحوّل عن الشافعي تماماً، ووضع كتاب الردّ على الشافعي فيما خالف الكتاب والسنّة. وفي مصر تنكّر الشافعي لأستاذه مالك، فردّ أقواله. وعظم ذلك على المالكية وتعصبوا عليه، وسعوا به عند السلطان، وقالوا له: أخرجه وإلا أفتتن به البلد. فأتاه الشافعي فكلّمه فامتنع الوالي وقال: إن هؤلاء كرهوك، وأخشى الفتنة. فقال له الشافعي: أجّلني ثلاثة أيام، فمات الوالي فيها (2) وكان الشافعي لما دخل مصر حضر إلى السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن علي، وسمع عليها الحديث، وكانت لها منزلة في مصر (3) وهي زوجة إسحاق بن الإمام جعفر بن محمد الصادق.

ص: 410

1- (1) تاريخ بغداد. [1]

2- (2) توالي التأسيس ص 84.

3- (3) وفيات الأعيان ج 5 ص 57. [2]

و أدى اتساع حلقة الشافعي في مصر إلى سخط المالكية، و إلى تعرّضه إلى مسلك من التعصب. فذكر الساجي: إن الشافعي إنما وضع الكتب على مالك بسبب أنه بلغه أن قلنسوة لمالك يستسقى بها، و كان يقال لهم: قال رسول الله. فيقولون:

قال مالك. فقال الشافعي: إنما مالك بشر يخطئ. فدعاه ذلك إلى تصنيف الكتاب في اختلافه معه و كان يقول: استخرت الله في ذلك مدة سنة.

و في مصر بلغ الشافعي درجة من الاجتهاد و النضج العلمي. و لا نشك في ذلك، فإن القول القديم و هو العراقي، و القول الجديد و هو المصري، أو مذهبه الجديد و مذهبه القديم، ينمّان عن تطور في المدارك، و سعة في التحصيل. و لقد قيل أن السبب في هذا التحول في الأقوال هو من عوامل البيئة و من مظاهر التأثير بالأوضاع، و الأمر قد يتسع للأقوال بهذا الخصوص، و لكنها لا تتسع للادعاء بأنه أعلم الأمة، و أن أمر التشريع انحصر به، و انتهى إليه الفقه. فإذا نظرنا إلى المدة فإن الشافعي رحمه الله توفي سنة 204 هـ فهي لا تكفي ليتحقق هذا الادعاء، و قد وجدنا من المبالغات في مواهبه ما لا يقره الواقع، و لا يحتمله العقل. و لكن عواطف الأصحاب، و الإيقاع، و مما حركات التعصب، و ظروف التنازع المذهبي أدت إلى تعاطي ما يخالف الحقائق.

و من الإنصاف القول أنه لم يبلغ الدرجة التي يستحق أن يكون بها عند أتباعه، لأن الإساءة بوضع الأقوال بتأثير ردود الأفعال واضحة، و الإمام الشافعي له من العلم و الفضل الحقيقيين ما يغني، و احتلاله المنزلة التي يراها هو لنفسه خير من عواطف و ردود أفعال مرتجفة.

و قد قلنا و تحدثنا مرارا عن أمواج الادعاءات، و قد كان الشافعي يعترف لأحمد بن حنبل بأنه أعلم منه في الحديث.

لقد امتاز الشافعي عن غيره من أئمة المذاهب بتدوين مذهبه و تأليف كتبه. و قد ذكر له كثير من الكتب، ذكرها ابن النديم و البيهقي و ياقوت، و نسب له المسند، و ليس من تأليفه، و إنما استخرجه بعض أصحابه من أسانيد الأم. و قد كان تدوين المذهب، سببا في الادعاء أن الشافعي هو أول من قعد القواعد و أصّل الأصول، و هو ما يجافي الحقيقة و لا يتفق مع الواقع، لأن التدوين لا يعنى السبق في تعديد القواعد و تأصيل الأصول، و إنما هو تحرير للمذهب و تقرير للرأى، و قد ناقشنا في فصل (تدوين العلم) في الجزء الثاني ذلك، فلا حاجة إلى ذكر المزيد هنا.

و القصد، فإن الانتقال إلى مصر لم يكن كرحلاته السابقة لطلب العلم، إنما اختار بلداً و هو عازم على أن يكون محلاً لإقامته ليس فيه من ينازعه. فقد حلّ بين رجال يجمعهم أتباع مالك، و لما استقرّ أخذ في الردّ على أستاذه، و قد انتهى إلى مذهبه الجديد و قد كلفه ذلك حياته، إذ اعتدى عليه أتباع مالك.

و كيف كان فقد جاء الشافعي بمذهبه الجديد، و كان قد درس المذهبين: مذهب أهل الرأي و مذهب أهل الحديث. و قد لاحظ ما فيهما من نقص، فبدأ له أن يكمل ذلك، و أخذ ينقص بعض التعريفات منه ناحية خروجها من متابعة نظام متحد في طريقة الاستنباط، و ذلك يشعر باتجاهه في الفقه اتجاهاً جديداً لا يكاد يعنى بالجزئيات و الفروع.

و خير ما يلخص مسلكه هو أنه قال: الأصل قرآن و سنة، فإن لم يكن، فقياس عليهما. و إذا اتصل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و صحّ الإسناد فهو سنّة، و الإجماع أكبر من الخبر المفرد، و الحديث على ظاهره، و ما احتمل معاني فما اشتبه منها ظاهر أولاهها به، و إذا تكافأت الأحاديث فأصحها إسناداً أولاهها، و ليس المنقطع بشيء ما عدا منقطع ابن المسيب، و لا يقاس أصل على أصل، و لا يقال للأصل لم و كيف.

و إنما يقال للفرع، فإذا صحّ قياسه صحّ و قامت به الحجة.

فهو بهذا المسلك و بهذا المنحى قد ردّ على مالك، لتركه الأحاديث الصحيحة لقول واحد من الصحابة أو التابعين أو رأى نفسه.

و هاجم أبا حنيفة و أصحابه لأنهم يشترطون في الحديث أن يكون مشهوراً، و يقدّمون القياس على خبر الآحاد و إن صحّ سنده، و أنكر عليهم تركهم لبعض السنن لأنّها غير مشهورة، و عملهم بأحاديث لم تصحّ عند علماء الحديث، بدعوى أنها مشهورة. و وقف في القياس موقفاً وسطاً، فلم يتشدّد فيه تشدّد مالك، و لم يتوسّع فيه توسّع أبي حنيفة (1).

و يقول إمام الحرمين الجويني: فمالك أفرط في مراعاة المصالح المطلقة

ص: 412

---

1- (1) انظر تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للأستاذ مصطفى عبد الرازق ص 225. وضحى الإسلام لأحمد أمين ج 2 ص 224.

المرسلة غير المستندة إلى شواهد الشرع، وأبو حنيفة قصر نظره على الجزئيات والفروع والتفاصيل من غير مراعاة القواعد والأصول.

ثم يتعقب ذلك الجويني -كشافعي- فيقول: والشافعي (رض) جمع بين القواعد والفروع، فكان مذهبه أقصد المذاهب، ومطلبه أسدّ المطالب.

وتدلنا الحوادث بوضوح أنه لقي أذى كثيرا في إظهار مخالفته لمالك وردّه عليه، كما أنه لم يلتق في مصر الإقبال الذي كان يرجوه ويأمله رجل مثله، فقد جفاه الناس ولم يجلس إليه أحد، فقال له بعض من قدم معه: لو قلت شيئا يجتمع إليك الناس.

فقال: إليك عنى وأنشأ:

أثر دژا بين سارحة النعم وأنظم منشورا لرعاية الغنم

(1).

و كان يظهر التذمر و التألم، و يدلنا على ذلك قوله:

و أنزلنى طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت امرأ لا أشاكله

أجامعه حتى تقال سجيّة و لو كان ذا عقل لكنك أعاقله 2

وقال الكندي: لما دخل الشافعي مصر كان ابن المنكدر يصيح خلفه: يا كذا... دخلت هذه البلدة و أمرنا واحد و رأينا واحد؛ ففرقت بيننا و ألقيت بيننا الشرّ، فرّق الله بين روحك و جسمك (2).

## أدبه و شعره

:

كان الشافعي على درجة عالية من المعرفة في اللغة العربية، واطلاع كبير على معانيها وعلومها، و كان أحمد بن حنبل يقول: الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء: في اللغة و أيام الناس و المعاني و الفقه. و نسب إليه أنه قال: (أقمت في بطون العرب عشرين سنة، أخذ أشعارها و لغاتها) و ذلك لإظهار طول المدة التي استغرقها كدليل على تمكنه من اللغة و معرفته بها، و هي فترة تترك ثغرة في مسار حياة الشافعي كما رأيناها، فليست إلا من عواطف الأتباع، و إنما الحقيقة التي تكفي لإظهار ما عليه

ص: 413

1- ((1) و (2)) معجم الأدباء. [1]

2- (3) الولاية و القضاة ص 438. [2]



الشافعي أنه عاش بين القبائل في البداية ليأخذ المعاني والألفاظ الفصحى، وقد ظهر ذلك مع مفرداته وأقواله و تحصيله موهبة الشعر، وقد كان غرض إقامته بين القبائل أن يستعين باللغة على الفقه (1).

و منهم من يقول أن الأصمعي صحح أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس الشافعي، و منهم من يروى قول الأصمعي دون ذكر عبارة: يقال له و ما بعدها، وإنما قال الأصمعي: صححت أشعار هذيل على فتى من قريش.

و مهما يكن من قول فإن الشافعي حفظ أشعار العرب و شعر هذيل. يقول ياقوت: و حكى لنا عن مصعب الزبيري قال: كان أبى و الشافعي يتناشدان، فأتى الشافعي على شعر هذيل حفظا و قال: لا تعلم بهذا أحدا من أهل الحديث، فإنهم لا يحتملون هذا (2).

فهو يخشى مجتمعه. و لقد التمس وسيلة تساعد في اتجاهه للفق و سعيه إلى العلم، فأخضع موهبته الشعرية لهذه الضوابط فقال:

و لولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد

فهو يرى أن منزلة العالم أسمى من كل منزلة، و قد ترك الشعر مع تمكنه من أدواته و قدرته على نظمه، و قد ظهر قبل سنوات قليلة ديوان شعر للشافعي جمعه:

محمد عفيف الزعبي في أقل من خمسين ورقة طبع في سنة 1391 هـ.

إلا أن الشافعي يقول الشعر بعاطفة خالصة، كشعره في حب آل البيت الذي كان سببا في اتهامه بالتشيع، و ينظم الشعر في تجاربه مع الحياة و الناس كما مرّ بعض ذلك.

قال الربيع بن سليمان: حججت مع محمد بن إدريس الشافعي إلى مكة، فما كان يصعد شرفا و لا يهبط واديا إلا أنشأ يقول:

يا راكبا قف بالمحصّب من منى و اهتف بساكن خيفها و الناهض

ص: 414

1- (1) مناقب الرازي ص 89.

2- (2) معجم الأدباء ج 17 ص 299. [1]

سحرا إذا فاض الحجيج إلى منى فيضا كملتطم الفرات الفاض

إن كان رفضا حبّ آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى

(1) و يروى ابن عبد البرّ أنه قيل للشافعى إن فيك بعض التشيع؟ قال: وكيف؟ قالوا: ذلك لأنك تظهر حب آل محمد. فقال: يا قوم، ألم يقل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين». وقال: «إن أوليائى من عترتى المتّقون» فإذا كان واجبا علىّ أن أحبّ قرابتي وذوى رحمتى إذا كانوا من المتّقين، أليس من الدين أن أحبّ قرابة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم إذا كانوا من المتّقين، لأنه كان يحبّ قرابته؟ وأنشد: يا راكبا قف بالمحصّب من منى.

و من شعره فى مولاة أهل البيت:

إذا فى مجلس نذكر عليا و سبطيه و فاطمة الزكيّة

يقال تجاوزوا يا قوم هذا حديث من حديث الرافضيّة

برئت إلى المهيمن من أناس يرون الرفض حبّ الفاطميّة

(2) و كان يجب على تهمة التشيع بجرأة فى ظروف كانت فيها التهمة بالتشيع تعنى الهلاك و الحرمان، و لا يكتف رأيه فيقول:

أنا الشيعى فى دينى و أصلى بمكة، ثم دارى عسقلية

بأطيب موطن و أعزّ فخر و أسمى مذهب يسمو البريّة

ص: 415

1- (1) الانتقاء و معجم الأدباء. [1]

2- (2) ذكر القندوزى الحنفى فى ينابيع المودة [2] نقلا- عن البيهقى عن الربيع بن سليمان الأبيات الشعرية و فيها زيادة رأينا ذكرها فى الهامش، لأن ما ورد فى المتن هى الأشهر: قيل للإمام الشافعى رحمه الله إن أناسا لا يصبرون على سماع منقبة أو فضيلة لأهل البيت الطيبين، فإذا رأوا واحدا متّا يذكرها يقولون هذا رافضى. فأنشأ الشافعى: إذا فى مجلس ذكروا عليا و سبطيه و فاطمة الزكية فأجرى بعضهم ذكرا سواه فأيقن أنه سلقلية إذا ذكروا عليا أو بنيه تشاغل بالروايات العلية و قال تجاوزوا يا قوم عن ذا فهذا من حديث الرافضية برئت إلى المهيمن من أناس يرون الرفض حب الفاطمية على آل الرسول صلاة و لعنته لتلك الجاهلية .

وله أيضا:

قالوا: ترفضت. قلت: كلا ما الرفض ديني و لا اعتقادي

لكن توليت غير شك خير إمام و خير هادي

إن كان حب الولي رفضا فإن رفضي إلى العباد

وقوله:

يا آل بيت رسول الله حبكمو فرض من الله في القرآن أنزله

يكفيكم من عظيم الفخر أنكمو من لم يصلّ عليكم لا صلاة له

وله أيضا:

لم يبرح الناس حتى أحدثوا بدعا في الدين بالرأى لم يبعث بها الرسل

حتى استخفّ بدين الله أكثرهم و في الذي حملوا من حقه شغل

وله في الدعاء:

بموقف ذلي عند عزتك العظمى بمخفى سرّ لا أحيط به علما

باطراق رأسى باعترافى بزلتى بمدّ يدي استمطر الجود و الرحما

بأسمائك الحسنى التى بعض وصفها لعزتها تستغرق النثر و النظما

بعهد قديم من أ لست برّبكم بمن كان مجهولا فعلمته الأسماء

أذقنى شراب الأنىس يا من إذا سقى محبّا شرابا لا يضام و لا يظما

و منه ما رواه الربيع بن سليمان أنه كتب إلى محمد بن الحسن، وقد طلب منه كتباً ليستنسخها فتأخرت عنه:

قل لمن تر عيننا من رآه مثله

و من كان من رآه قد رأى من قبله

العلم ينهى أهله أن يمنعون أهله

لعله يبذله لأهله لعله

و عن الربيع أيضا أن الشافعي قال يعزّي ببعض إخوانه:

إنى أعزّيک لا إنى على طمع من الحياة و لكن سنّة الدين

فما المعزّي بباق بعد صاحبه و لا المعزّي و إن عاشا إلى حين

و لا بد للشافعي أن لا يدع من يستفزّهم ذكر آل محمد و يغضبهم موالاة من

ص:416

أوصى بموالاتهم صاحب الرسالة، فهو على الاعتقاد الذى أجمعوا عليه، غير أنه يرى حب آل محمد فيقول:

إذا نحن فضلنا عليًا فإننا روافض بالفضل عند ذوى الجهل

و فضل أبي بكر إذا ما ذكرته رميت بنصب عند ذكرى للفضل

فلا زلت ذا رفض و نصب كلاهما بحبيهما حتى أوسد في الرمل

و منها:

شهدت بأن الله لا ربّ غيره و أشهد أن البعث حق و أخلص

و أن عرى الآيات قول مبين و فعل زكىّ قد يزيد و ينقص

و أن أبا بكر خليفة ربه و كان أبو حفص على الخير يحرص

و أشهد ربي أن عثمان فاضل و أن عليا فضله متخصص

أئمة حق يهتدى بهداهم لحي الله من إياهم يتقص

و أشعار الشافعى كثيرة فى مدح آل البيت عليهم أفضل الصلاة و السلام، و لكن ذلك لا يجعله فى عداد الشيعة، و مع كونه قد أخذ كثيرا من الأحكام عنهم، و ضعف بسبب ذلك، لأننا لم نجد صلة حقيقية بينه و بين الشيعة و لا اتصالا مع الأئمة فى عصره. و قد عقدنا له بحثا فى الجزء الثالث، و أدخلناه فى قفص الاتهام، و بعد الحوار و المناقشة أخرجناه ببراءة من تهمة التشيع.

و يقتضى ذلك أن نقول: إن البعض يقع فى خطأ، و منهم الكتاب و المؤرخون أو عامة الناس، فيذكرون أن الشيعة يأخذون بقول الشافعى، و يذكرون فى كتبهم أقواله فيقولون: قال محمد بن إدريس، أو أن المذهب الشيعى يلتقى بالمذهب الشافعى فى كثير من الموارد دون غيره من مذاهب السنة. و هو خطأ أو ضحناه فى مكانه، و قلنا إنه ناشئ من عدم التحقيق، و لأن الشيعة يذكرون أقوال محمد بن إدريس الحلى -عالم الشيعة فى عصره و مؤلف كتاب السرائر- فيقولون: قال محمد بن إدريس، أو قال ابن إدريس. فيظنون أن المقصود هو محمد بن إدريس الشافعى.

و لكن الشافعية زعموا أن الشيعة قالوا إن الشافعى منهم (1) و أنهم احتجوا بهذه

ص: 417

الأشعار. ولا نستغرب ذلك، لأن الخشية من تهمة التشيع شملت أصحاب الشافعي و تلامذته بينما كان آخرون بخلاف ذلك فقد روى أن المزني قال: قلت للشافعي: أنت توالى أهل البيت، فلو عملت في هذا الباب أبياتاً فقال:

وما زال كتمانك حتى كأنني برّد جواب السائلين لأعجم

وأكتم ودّي في صفاء مودّتي لتسلم من قول الوشاة فأسلم

واتهمه يحيى بن معين بالتشيع وقال: طالعت كتابه السير، فوجدته لم يذكر إلا على بن أبي طالب. وقوله: نظرت في قتال أهل البغي، فرأيتته قد احتج من أوله إلى آخره بعلى بن أبي طالب. وكان يأخذ بحديث الإمام الصادق و خاصة بأحكام الصلاة (1).

وقد أكثر الشافعي من الرواية عن إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى أبو إسحاق المدني أحد تلامذة الإمام الصادق عليه السلام روى أحاديث أهل البيت وله مؤلف مبوب في الحلال والحرام على مذهب أهل البيت، وهو أستاذ الواقدي و كتب الواقدي مأخوذة عنه. وكان الشافعي يقول: لأن يخرّ إبراهيم أحبّ إليه من أن يكذب.

ولأن الشافعي أكثر في الرواية عن إبراهيم و هو (متهم بالتشيع) كان الشافعي يذكر اسمه مرة و يورّى عنه أخرى و يقول: حدثني الثقة، حدثني من لا اتهمه. إذا فالشافعي يأخذ من رجال الشيعة، و ينهل من مصادرهم، و يستقي من منابعهم، و لكنهم لا يدعون أنه منهم.

لقد كانت مصر هي المكان الذي صدر عنه المذهب الشافعي، و منه انتشر في الأقطار، و ذلك بفضل جهود تلامذته المخلصين الذين شغلوا الناس عن دراسة المذهب المالكي و المذهب الحنفي، و كانا قد انتشرا هناك.

قال السبكي في الطبقات عن مصر و الشام بالنسبة للمذهب الشافعي:

هذان الإقليمان مركز ملك الشافعية، منذ ظهر المذهب الشافعي، اليد العالية لأصحابه في هذه البلاد. لا يكون القضاء و الخطابة في غيرهم، أما الشام فقد كان

ص: 418

مذهب الأوزاعي حتى ولي القضاء أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي الشافعي و يقول: كان (محمد بن عثمان) رجلا رئيسا يقال أنه هو الذي أدخل مذهب الشافعي إلى دمشق، وأنه كان يهب لمن يحفظ مختصر المزني منه مائة دينار.

و على أي حال فإن المذهب الشافعي كانت بذرته الأولى في مصر، ومنها انتشر بفضل جهود أصحاب الشافعي، ولو لا هم لكان أثرا بعد عين. و لكان مصيره مصير مذهب الليث بن سعد الذي لم يتهيا له أصحاب مخلصون يقومون بنشره، و لعل أهم العوامل التي هيأت للشافعي أسباب النجاح في مصر هي:

1- إنه كان معروفا بأنه تلميذ مالك و خريج مدرسته، و كان لمالك هناك ذكر و لمذهبه انتشار، فقبل بالعناية، و ذلك قبل إظهاره المعارضة لمذهب مالك و الردّ عليه.

2- نشاط الشافعي و علوّ همّته و تفوّقه بالأدب و معرفة اللغة، و إحاطته بأقوال مالك و أهل العراق، و ما عرف عنه من انتصار لأهل الحديث و الردّ على أهل الرأي.

3- اشتهار قرشيته و اعتصامه بالانتساب للنبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و هذا له أثره في قلوب المصريين.

4- صلته بحاكم مصر الجديد عبد الله بن العباس بن موسى، و معرفته به يوم كان بمصر، و أنه سافر معه من بغداد عند تعيينه، أو أنه حمل له وصية من الخليفة على اختلاف الروايات.

5- اختياره النزول عند أقوى بيت في مصر و أعزّهم جانبا و هم بنو الحكم، و التفاف أعيان أصحاب مالك حوله كأشهب و ابن القاسم و ابن الموّاز و غيرهم.

تغلب المذهب الشافعي على المذهب المالكي بمصر بعد أن كان هو السائد و له السلطان هناك. و ذكرنا مقابلة أنصار المذهب المالكي لأصحاب الشافعي، و قد تمت له الغلبة هناك أيام الدولة الأيوبية، لأنهم كانوا جميعا شافعية إلا عيسى بن الملك العادل سلطان مصر فإنه كان حنفيا، و لم يكن فيهم حنفي سواه، ثم تبعه أولاده و كان شديد التعصب لذلك المذهب، و يعدّه الحنفية من فقهاءهم، و له شرح على الجامع الكبير في عدة مجلدات.

و لما خلفت دولة المماليك البحرية دولة الأيوبيين، لم تنقص حظوة المذهب

الشافعي، فقد كان سلاطينها من الشافعية إلا سيف الدين الذي حكم قبل بيبرس فقد كان حنفيا، ولكن لم يكن له أثر في الدولة لقصر مدته. ولم يختلف بشيء عن سياسة الأيوبيين تجاه المذهب، وعملهم على نشر المذهب وتشجيع المنتمى إليه، وجعل القضاء للشافعية، وعلى غرار ما عملت به الدولة العباسية في المشرق وحصره بالحنفية.

وبقيت صبغة المذهب صبغة رسمية حتى قيام الظاهر بيبرس وقيامه بتطبيق فكرة توزيع منصب القضاء على المذاهب الأربعة، فتأثرت مكانة المذهب الشافعي ونفوذه عما كانا عليه من قبل، ولكنه ظل يحتفظ بمكانة أعلى من غيره من المذاهب.

وكذلك استمر المذهب في عصر المماليك الجركسية، حتى جاء دور العثمانيين واستيلائهم على مصر، فأبطلوا القضاء بالمذاهب الأخرى وحصروه بالمذهب الحنفي لأنه المذهب الرسمي للدولة. وقد بينا أسباب اعتناق الأتراك للمذهب الحنفي دون غيره من المذاهب، لأنه لا يشترط القرشية في الخلافة، وسلاطين آل عثمان ادعوا الخلافة على المسلمين، والمذهب الحنفي يجوز ذلك دون غيره.

و خلاصة القول، إن المذهب الشافعي شارك المذهب الحنفي والمذهب المالكي في اهتمام السلطان والرعاية، وأن العلاقة بالحكم كانت من أعظم مقومات الانتشار والوجود كالمذهب الحنفي والمذهب المالكي اللذين انتشرا بقوة السلطة ومشيئتها، وكان مذهب أبي حنيفة في بغداد يسمى مذهب السلطان (1).

## وفاته

:

لعل وفاة الشافعي من أغرب أعمال التعصّب. لأن أرحم الروايات وأقربها إلى الصحة هي موته بسبب الاعتداء عليه من جماعة تعصبوا لفتيان-الرجل المالكي- الذي كان يناظر الشافعي كثيرا ويجمع الناس عليهما، وقد كان في فتیان حدّة و طيش وهو من أصحاب مالك بن أنس. وقد هجموا على الشافعي وضربوه، فحمل إلى منزله، فلم يزل عليلا حتى مات.

ولما توفي أدخلت جنازته على السيدة نفيسة بنت الحسن التي تلمذ لها في

ص:420



الحديث، وصدت عليه في دارها. هكذا حكاه ابن خلكان و ابن كثير (1).

وقد وضعت نبوءة لإبراز أدوار و منازل أصحاب الشافعي التي كانت بعد موته على أنها تجري كما علمها الشافعي و تنبأ بها. يقول الربيع: دخلنا على الشافعي أنا و البويطي و محمد بن عبد الله بن الحكم و المزني، فنظر الشافعي إلينا ساعة ثم قال للبويطي: أما أنت يا أبا يعقوب، فستموت في حديدك. و أما أنت يا مزني فستدرك زمانا تكون أقيس أهل ذلك الزمان. و أما أنت يا محمد فسترجع إلى مذهب أبيك أي مذهب مالك. و أما أنت يا ربيع فأفنع لي في نشر كتبتي.

توفي الشافعي رحمه الله في شهر رجب سنة 204 بمصر.

و بعد وفاته يقول الربيع:

رأيت الشافعي بعد وفاته في المنام فقلت: يا أبا عبد الله ما صنع الله بك؟ قال:

أجلسني على كرسي من ذهب، و نثر عليّ اللؤلؤ الرطب (2).

## أولاده

:

و للشافعي ولدان كل منهما اسمه محمد، أما الأصغر فتوفي بمصر صغيراً، و محمد الثاني يلقب أبو عثمان ولي قضاء الجزيرة و توفي سنة 241 هـ (3).

ص: 421

1- (1) وفيات الأعيان ج 5 ص 57. و [1] البداية و النهاية ج 10 ص 262. [2]

2- (2) تاريخ بغداد ج 2 ص 70. [3]

3- (3) النجوم الزاهرة ج 2 ص 306. [4]



إن البحث في حياة أولاد الإمام الصادق وأحفاده له أهمية كبيرة، سواء من حيث متطلبات موضوع الكتاب و اكتمال أجزائه، أو من الناحية الدينية و التاريخية، لأن المرحلة التي جاءت بعد الإمام الصادق كانت من أكبر المراحل خطورة و أهمية: كما أن البحث في الأولاد و الأحفاد يستلزم جهوداً مضمّنية إذا ما أردنا الإيفاء بكل ما يندرج في سلسلة النسب و الأسماء، فهو يعنى الحديث عن الأئمة المعصومين صلوات الله عليهم و هو ما بقى مجال جهد و بحث للعلماء و الرجال منذ مئات السنين و حتى اليوم، و لم تتوقف البحوث و لن تكف الجهود عن كشف صفحات الأئمة المعصومين من أبناء محمد صلى الله عليه و آله و سلم لأنهم نبراس الهدى، و منار الحق الذى يهتدى به الناس. و لذلك اقتصررت على أولاده و أحفاده رضوان عليهم حسب مجريات الأحداث و سياق البحث، و أعطينا سرداً مختصراً يوفى بغرض إعطاء صورة عن عقبة عليه السلام و باستخلاص واقع الملابسات فى مجرى الإمامة و التى ظهرت بعد وفاته عليه السلام و اقتبسنا شيئاً من أنوار سير الأئمة و اضمادات قليلة من أزاهير حياة بعضهم عليهم السلام.

### أولاد الإمام

#### إشارة

:

قال الشيخ المفيد: كان لأبى عبد الله عشرة أولاد: إسماعيل، و عبد الله، و أم فروة. أمهم فاطمة بنت الحسين بن على بن الحسين السبط عليه السلام.

و موسى عليه السلام و إسحاق، و محمد، لأم ولد. و العباس، و على، و، أسماء و فاطمة. لأمهات شتى.

و قال ابن عنبه الحسنى: و أعقب جعفر الصادق عليه السلام من خمسة رجال:

موسى الكاظم، و إسماعيل، و على العريضى، و محمد المأمون، و إسحاق، و ليس له

ولد اسمه ناصر، معقب و لا غير معقب ياجماع علماء النسب، وأسفزار من ولاية هراة خراسان قوم يدعون الشرف، و ينتسبون إلى ناصر بن جعفر الصادق عليه السلام و هم أذعاء كذّابون لا محالة، و هم هناك يخاطبون بالشرف على غير أصل، و يعرف هؤلاء القوم ببارسا و كذبهم أظهر من أن ينبه عليه (1).

و قال سراج الدين الرفاعي: و كان له عشرة أولاد: إسماعيل و عبد الله و أم فروة، أمهم فاطمة بنت الحسين الأشرف بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. و موسى الكاظم الإمام المعصوم رضی الله عنه، و إسحاق المؤمن، و محمد الديباج، لأم ولد يقال لها حميدة البربرية.

### علي بن جعفر عليه السلام

:

يكنى أبا الحسن، و يلقب بالعريضي نسبة إلى العريض (بضم العين المهملة و فتح الراء) قرية على أربعة أميال من المدينة كان يسكنها و أمه، و يقال لولده العريضيون و هم كثير هناك (2) و هو أصغر أولاد الإمام الصادق عليه السلام مات أبوه و هو طفل، و روى عن أخيه موسى الكاظم، و له كتاب ما سأله به، و روى عن أبيه عليه السلام على صغر سنه، و له كتاب في مسائل الحلال و الحرام عنه، و كذلك روى عن ابن أخيه الرضا، و ابنه الجواد. و طال عمره إلى أيام الإمام الهادي عليه السلام فكانت وفاته سنة 210 هـ.

روى العميرى أن أبا جعفر الجواد دخل على علي بن جعفر، فقام له قائما و أجلسه في موضعه و لم يتكلم حتى قام، فقال له أصحابه: أ تفعل هذا مع أبي جعفر و أنت عمّ أبيه؟ فضرب بيده على لحيته و قال: إذا لم يرها الله أهلا للإمامة أراها أنا أهلا للنار؟ (يعنى بادعاء الإمامة و هي ليست له) و قد ناصر أخاه محمد بن جعفر الصادق الثائر في أيام المأمون و الذي أسس دولة في مكة المكرمة. و بعد أن أسر محمد، نزل علي بالكوفة، ثم استدعاه القمّيون، و نزل قم و مات و قبره مشهور يزار.

قال الشيخ المفيد: علي بن جعفر رضی الله عنه رواية للحديث، سديد الطريقة

ص: 424

1- (1) عمدة الطالب. [1]

2- (2) صحاح الأخبار ص 48.

شديد الورع، كثير الفضل. ولزم أخاه موسى عليه السلام وروى عنه شيئا كثيرا من الأخبار.

وقال الشيخ الطوسي: على بن جعفر جليل القدر، ثقة، له كتاب المناسك و مسائله لأخيه موسى الكاظم سأله عنها.

وقال الشريف أحمد بن زين باعلوي في شرح العينية عند ذكر علي العريضي:

خلف أولادا أعقب منهم أربعة رجال: أحمد و الحسن و جعفر الأصغر و محمد.

وقال في العمدة- في عقب الإمام الصادق-: وأما علي العريضي بن جعفر الصادق عليه السلام و يقال لولده العريضيون و هم كثيرون متفرقون في البلاد، و منهم بالمدينة الشريفة أولاد يحيى المحدث بن يحيى ابن أبي الحسن عيسى الردي الأ-كبر بن محمد بن علي العريضي، و إليه يرجع نسب السادة أهل حضرموت. يقول الشريف أحمد بن محمد: أعقب علي بن جعفر الصادق أبناءه... علي و جعفر و الحسن و محمد و أحمد، و في محمد نسب السادة الحضارمة العلويين. و يجمعهم بن جعفر بن محمد بن علي الحسيني، و هم فروع متوسعة إلا أننا سنذكر من يوجد منهم في المدينة و مكة المكرمة، و ممن يسكن المدينة قديما: آل جميل الليل، و آل مشيخ بن أحمد بن حسين (و غيرهم) و منهم بمكة المكرمة: بيت السيد الحبش من علماء مكة المكرمة و أجلائها و بيت السيد عقيل (1).

قال الذهبي: علي بن جعفر روى عن أبيه و أخيه موسى و الثوري، و روى عن الجهضمي و البزى و الأوسى و جماعة، و روى له الترمذى في كتابه.

و أسند الذهبي عنه في الميزان عن أبيه أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أخذ بيد الحسن و الحسين و قال: «من أحبني و أحب هذين و أبويهما كان معي يوم القيامة».

و خرّج له الإمام أحمد في مسنده، و عدّه ابن حجر في الطبقة العاشرة. و قال أحمد بن زين الحبش: السيد علي بن جعفر فهو أبو الحسن شمس أهل البيت كان رحمه الله جوادا سخيا عالما كبيرا، و هو أصغر أولاد أبيه ستّا و أطولهم عمرا، أخذ عن أبيه و صحبه، و أخذ عن أخيه موسى الكاظم، عن الحسن بن زيد، و روى عنه ابنه أحمد و محمد و حفيده عبد الله بن الحسن و إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر الصادق.

ص: 425

1- (1) انظر الدرر السننية للشريف أحمد بن محمد بن صالح.

وردت مسائله لأخيه الإمام الكاظم في كتب علمائنا و روى له الشيخ الصدوق و الشيخ الطوسي و العلامة الحلي و غيرهم من علمائنا.

قال المخزومي أعقب علي بن جعفر أربعة رجال هم: محمد و أحمد و الحسن، و جعفر الأصغر. و هذه العشيرة أفخاذ و فصائل، ضمت جماعة كثيرة في العراق و الشام و اليمن و الحجاز، و لهم ذيل بشيراز، و الدينور، و منهم بواسط، و قد أنجبت قبيلتهم فأتت بالكثير الطيب. قال العمدة: من أشياخ أهل البيت، إن السبب في ذلك إذعان علي العريض بإمامة محمد بن أخيه.

أما عقب أولاده الأربعة كما يلي باختصار:

1- أحمد المعروف بالشعراني، فإنه أعقب من عبد الله، و عقبه بالمراغة.

و يعرفون بيني الحسينية و الحسين، و عقبه بالرقعة.

و محمد و علي: و لهم جماعة بالبصرة و مرو و قم و شيراز.

2- و أما محمد بن علي بن جعفر فإن في ولده العدد المتفرق في البلاد، أعقب من خمسة و هم:

عيسى النقيب، و يحيى، و الحسن، و الحسين، و لكل واحد من هؤلاء عقب منتشر في مصر و الري و بغداد و اليمن و الشام و الكوفة و أصفهان و قزوين و الديلم.

3- جعفر بن علي بن جعفر، فعقبه من ابنه عبد الله، و عبد الله أعقب من علي و موسى، و لهما عقب منتشر في البلاد الإسلامية.

**محمد**

:

محمد بن جعفر الصادق، و يلقب الديباج، و كان وجيها محبوبا عند الناس شجاعا كريما ورعا تقيا، و كان يصوم يوما و يفطر يوما، و كان يرى الخروج بالسيف على الظالمين، و بايعه أهل مكة سنة 200 هـ.

قال ابن الأثير: كان يروى العلم عن أبيه، و كان الناس يكتبون عنه، و قال ابن خلدون: كان محمد بن جعفر عالما زاهدا.

و قال الشيخ المفيد: كان محمد بن جعفر سخيا شجاعا، و روى عن زوجته خديجة بنت عبد الله بن الحسين أنها قالت: ما خرج من عندنا محمد يوما قط،

ص: 426

فرجع حتى يكسوه. وكان يذبح كل يوم كبشاً لأضيافه، وخرج على المأمون في سنة تسعة و تسعين و مائة بمكة، و اتبعته الزيدية الجارودية، فخرج لقتاله عيسى الجلودى، و بعد قتال طويل تفرق جمع محمد، فأخذ المأمون، و لما وصل إليه أدنى مجلسه منه و أكرمه و أحسن جائزته، و كان مقيماً معه بخراسان، يركب إليه في موكب من بنى عمه، و كان المأمون يحتمل منه ما لا يحتمله السلطان من رعيته.

و قد أنكر المأمون ركوبه إليه في جماعة من الطالبين الذين خرجوا على المأمون سنة مائتين فأمّنهم، فخرج التوقيع إليهم: لا تركبوا مع محمد بن جعفر، و اركبوا مع عبد الله بن الحسين. فأبوا أن يركبوا و لزموا منازلهم، فخرج التوقيع: اركبوا مع من أحببتهم. فكانوا يركبون مع محمد بن جعفر إذا ركب، و ينصرفون بانصرافه.

و أخبر محمد بن جعفر: أن غلمان ذى الرئاستين قد ضربوا غلمانك على حطب اشتروه. فخرج مؤتزراً ببردين و معه هراوة و هو يقول:

الموت خير لك من عيش بذلّ و تبعه الناس حتى ضرب غلمان ذى الرئاستين، و أخذ الحطب منهم. فرفع الخبر إلى المأمون، فبعث إلى ذى الرئاستين فقال له: أنت محمد بن جعفر، فاعتذر إليه و حكّمه في غلمانك. فخرج ذو الرئاستين إلى محمد بن جعفر. قال موسى بن سلمة: فكنت عند محمد بن جعفر جالسا حتى أتى، فقيل: هذا ذو الرئاستين. فقال:

لا- يجلس إلا- على الأرض، و تناول بساطا في البيت، فرمى به، و لم يبق في البيت إلا و سادة، و جلس على الأرض، فاعتذر إليه و حكّمه في غلمانه.

و توفي محمد بن جعفر سنة 203 هـ، فركب المأمون ليشهد جنازته، و قد خرجوا به، فلما نظر إلى السرير نزل فترجّل و مشى حتى دخل بين العمودين، فلم يزل بينهما حتى وضع، فتقدم و صلّى عليه، ثم حمله حتى بلغ به القبر، ثم دخل قبره، فلم يزل فيه حتى بنى قبره، ثم خرج فقام على القبر حتى دفن، فقيل له: لو ركبت؟ فقال:

هذه رحم قطعت منذ ثمانين سنة، فأحببت أن أصلها (1). و مات محمد بن جعفر عن عمر ينيف على السبعين كما ذكره الذهبي في الميزان، و قبره بجرجان (2). و ما ذكره

ص: 427

1- (1) الإرشاد للمفيد 169. و صحاح الأخبار لسراج الدين ص 54.

2- (2) 35/3.

بعضهم من أنه مات و له تسع و أربعون سنة فهو غلط، و الصحيح ما ذكرناه، لأن وفاة الإمام الصادق كانت سنة 148 هـ.

و ذكر الشيخ المفيد: أن إسماعيل بن محمد بن جعفر قال: قلت لأخي و هو لجنبي و المأمون قائم على القبر: لو كلمناه في دين الشيخ، فلا نجده أقرب منه في وقته هذا. فابتدأنا المأمون فقال: كم ترك أبو جعفر من الدين؟ فقلت له: خمسة و عشرين ألف دينار. فقال: قد قضى الله عنه دينه. إلى من وصّى؟ قلنا: إلى ابن يقال له يحيى بالمدينة. فقال: ليس هو بالمدينة، و هو بمصر، و قد علمنا بكونه فيها، و لكن كرهنا أن نعلمه بخروجه من المدينة لئلا يسوؤه ذلك لعلمه بكرهتنا لخروجه عنها (1).

و أعقب محمد بن الإمام الصادق عليه السلام: علي و القاسم و الحسين، و عقب القاسم من ولده: يحيى و علي و عبد الله. و القاسم يعرف بالطيّب، و ابنه يحيى يعرف بيحيى الشبيه.

قال السخاوي: هو يحيى بن القاسم الطيب بن محمد المأمون بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم، قيل كان شبيها برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و كان له خاتم بين كتفيه كخاتم النبوة، و كان الناس إذا شاهدوه أكثروا من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم.

و كان ابن طولون أقدمه من الحجاز، و لما سمع أهل مصر بقدمه، خرجوا إلى ظاهر مصر يتلقونه، و كان يوم قدومه يوما مشهودا. و بالقرافة بمصر قبر أبي عبد الله محمد بن القاسم بن محمد بن جعفر الصادق صلى الله عليه و آله و سلم. و دفن يحيى بمصر، و قبره مشهور يعرف بمشهد يحيى الشبيه. و دفن معه أخوه عبد الله بن القاسم الطيّب.

و قبره في وسط القبة، و عند وسطه لوح رخام فيه نسبه، و كانت وفاته يوم الاثنين 13 من شهر رمضان سنة 261 هـ.

و كان عبد الله كأخيه في العبادة و الخير و العفة و الصلاح، و هم بيت عظيم معروفون بإجابة الدعاء (2). و في نفس التربة دفنت أم عبد الله زوجة القاسم الطيب.

و في مصر أيضا: الحسن بن يحيى الشبيه بن القاسم الطيّب، و عليه رخامة

ص: 428

1- (1) الإرشاد ص 269. [1]

2- (2) انظر تحفة الأحاب و بغية الطلاب [2] للسخاوي.



مكتوب فيها اسمه و اسم آبائه الطاهرين. وفي القرافة مشهد يعرف بمشهد السيدة العيناء، وهي السيدة كلثم أو أم كلثوم بنت محمد بن جعفر الصادق عليه السّلام وقبرها معروف بإجابة الدعاء.

وفي القرافة أيضا مشهد يعرف بمشهد الحسن و المحسن، وهما أولاد القاسم الطيب بن محمد بن جعفر (1).

و ذكر أبو نصر البخاري: أن جميع بنى محمد بن جعفر لصلبه سبعة: على و إسماعيل من أم ولد، و القاسم أمه أم الحسن بنت حمزة بن القاسم بن الحسن بن زيد..

و يحيى و جعفر أمهما خديجة بنت عبيد الله. و موسى و عبد الله من أم ولد.

## عبد الله

:

ابن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السّلام و كان أكبر إخوته بعد إسماعيل، و لم تكن منزلته عند أبيه كمنزلة غيره من ولده في الإكرام، و ادعى الإمامة بعد أبيه لأنه الأكبر، و جلس مجلس أبيه مدّعا وصايته، فمال إليه كثير من الناس بادعاء أن الإمامة في أكبر الأولاد.

و حيث لم يكن بمنزلة من العلم، فقد امتحنه جماعة ممن اتبعه بمسائل في الحلال و الحرام و الصلاة و الزكاة و غير ذلك، فلم يجد عنده علما، فنفروا منه، و عادوا إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام و بقى جماعة على القول بإمامته و يعرفون (بالفطحية) لأن عبد الله يكنى بالأفطح، كان أفطح الرأس، و قيل كان أفطح الرجلين، و هم فرقة قليلة رجعوا عن القول بإمامته. مات و لم يعقب، فقالوا بإمامة موسى بن جعفر عليه السّلام. و لم يبق من هذه الفرقة أحد. و مات عبد الله بعد وفاة أبيه بسبعين يوما.

## إسحاق

:

ابن الإمام الصادق عليه السّلام كان رواية للحديث و من أهل العلم.

ص: 429

قال الشيخ المفيد: وكان إسحاق بن جعفر من أهل الفضل و الصلاح و الورع و الاجتهاد، و كان ابن كاسب (1) إذا حدّث عنه يقول: حدثني الثقة الرضى إسحاق بن جعفر، و كان إسحاق يرى إمامة أخيه موسى بن جعفر عليه السّلام و روى عن أبيه النص بالإمامة.

و قال المخزومي: ولد لإسحاق: عبد الله و الحسن، و لهما عقب بهمدان و جيرفت. و فى عمدة الطالب: و أما إسحاق بن جعفر الصادق و يكنى أبا محمد و يلقب بالمؤتمن، فقد ولد بالعريض و هو واد بالمدينة، و كان من أشبه الناس برسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و كان محدثاً جليلاً و ادعت فيه طائفة من الشيعة الإمامة. و كان سفيان بن عيينة شيخ الإمام الشافعى رضى الله عنهما إذا ما روى عنه يقول: حدثني الثقة الرضا إسحاق بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين رضى الله عنهم، و هو أقل المعقّبين من ولد جعفر الصادق عدداً، إذ أعقب ثلاثة رجال: محمداً و الحسن و الحسين. و تعرف ذريته بالإسحاقيين.

يقول المقرئى فى خطه: و تزوّج -إسحاق- بنفيسة (2) رضى الله عنها، و كان يقال له إسحاق المؤتمن، و كان من أهل الصلاح و الفضل و الخير و الدين، روى -الناس- عنه الحديث، و كان ابن كاسب إذا حدّث عنه يقول: حدثني الثقة الرضا إسحاق بن جعفر. و كان له عقب بمصر، فهم بنو الرقى، و بحلب بنو زهرة.

## الإمام موسى بن جعفر عليهما السّلام

### إشارة

كان موسى بن جعفر على جانب عظيم من العلم و الكمال، فقد أشبه بمواهبه و أخلاقه، و كان أبوه الإمام الصادق إذا ما اجتمع أولاده يقول: هؤلاء أولادى و هذا

ص: 430

1- (1) هو يعقوب بن حميد بن كاسب المدنى المتوفى 241 هـ و ينسب إلى جده، و كان من المحدّثين الإعلام. [1] قال القاسم بن عبد الله بن مهدى: قلت لأبى مصعب، بمن توصينى بمكة و عمن أكتب؟ فقال عليك بشيخنا أبى يوسف يعقوب بن حميد. و قد روى الحديث عنه جماعة، و خرّج له البخارى فى أفعال العباد.

2- (2) نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن السبط عليه السّلام و هى المعروفة بالسيدة نفيسة المتوفاة سنة 206 هـ و قبرها بمصر يزار و يعرف باستجابة الدعاء، و لها كرامات، و كانت عالمة جليلة القدر عظيمة الشأن يحترمها العلماء و يعظمها الأمراء. قالوا أن الشافعى كان يزورها و يسمع منها الحديث، و قد زار قبرها أكابر العلماء و أعيان [2] الدولة، و ظهرت لها كرامات فى حياتها و بعد وفاتها رضى الله عنها.

سيدهم. وروى أن أبا حنيفة قال: دخلت المدينة فأُتيت أبا عبد الله الصادق عليه السلام فسلمت عليه وخرجت من عنده، فرأيت ابنه موسى في دهليز داره قاعداً في مكتب - وهو صغير السن - فقلت له: أين يحدث الغريب عندكم إذا أراد ذلك؟ فنظر إلى ثم قال: «تجنّب شطوط الأنهار، و مسقط الثمار، وفيء النزال، وأفنية الدور، والطرق النافذة والمساجد، ويرفع ويضع بعد ذلك حيث شاء». فلما سمعت هذا القول نبّل في عيني وعظم في قلبي، فقلت له: فممن المعصية؟ فنظر إليّ ثم قال: «أجلس حتى أخبرك» فجلست فقال: «إن المعصية لا بد أن تكون من العبد أو من ربه أو منهما جميعاً، فإن كانت من الله عزّ وجلّ فهو أعدل وأنصف من أن يظلم عبده بما لم يفعله، وإن كانت منهما فهو شريكه والقوى أولى بإنصاف عبده الضعيف. وإن كانت من العبد وحده فعليه وقع الأمر وإليه توجه النهي وله حق الثواب والعقاب، و لذلك وجبت الجنة والنار» قال: فلما سمعت ذلك قلت: ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم (1).

فقد كشف الإمام موسى الكاظم - على صغر سنّه - عن المسألة التي استعصى فهمها على الناس، وكانت مثار جدل وسبباً في العداوات والقتل والطعون، حتى شملت أبا حنيفة نفسه.

لقد كان المجتمع ينظر إلى الإمام موسى نظرة إكبار وتقدير، ولما آلت إليه الإمامة وتسلّم زعامة البيت العلوي، صادف على الحكم بعد المنصور حكاماً كالمهدي والرشيد ترتعد فرائصهم خوفاً ورعباً من البيت العلوي، إذ مضى زمن المنصور الداهية الذي استطاع أن يواجه البيت العلوي، ويلجأ إلى كل السبل والوسائل للوقوف بوجه الإمامة والمنزلة الروحية، ويستخدم الوحشية والقتل ليقضي على ثوراتهم وحركاتهم.

فكان البيت العلوي شغل الدولة الشاغل وهاجسهم الدائم، يقصّ مضاجعهم، ويكدر أوقات سكرهم وملذاتهم وتبدّلهم في الملاهى والشهوات.

ومن المتسالم عليه، أن الملوك الذين عاصروهم الإمام الكاظم عليه السلام كانوا قد شدّدوا الرقابة عليه و اتهموه بأنه مصدر حركات الثوار و محل تجمع الفئات التي لا تعترف بشرعية الدولة، وكذلك الذين ينقمون على الحكام سوء تصرفهم فإنهم يجدون

ص: 431

فى الإمام موسى الكاظم شخصية الخليفة العادل و الحاكم الذى تحتاج الأمة رعايته و قيادته.

فكان محل تخوؤ الحكام. فهم يحذرونه أشد الحذر، فهو أكبر العلويين و أعلمهم، و الشيعة تغدو و تروح إليه، و هم يقصدونه من سائر البلاد الإسلامية، و لا يملك بنو العباس أنفسهم تجاه هذه المكانة. فيروى المأمون عن أبيه هارون أنه قال لبنيه فى حق الإمام الكاظم: أنا إمام الجماعة فى الظاهر و الغلبة و القهر، و إنه- أى الكاظم عليه السلام- و الله لأحق بمقام رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم منى و من الخلق جميعا، و الله لو نازعنى هذا الأمر لأخذت بالذى فيه عيناه فإن الملك عقيم (1).

و سنطلع على نبذ أخرى من سيرته الزكية.

## ولادته

:

ولد الإمام موسى بن جعفر سنة 128-129 هـ يوم الأحد سابع صفر بالأبواء- قرية بين مكة و المدينة- عند رجوع أبيه و أمه من الحج فى تلك السنة، فبشّر الإمام الصادق أصحابه الذين كانوا معه فى ذلك الموضع و أخبر خواص أصحابه بأنه الإمام من بعده، ثم أجرى جميع المراسيم الشرعية لمولده الجديد، فأذن فى أذنه اليمنى، و أقام فى أذنه اليسرى، و أولم بعد ولادته، فأطعم الناس ثلاثا.

و عند ما دخل المدينة المنورة، أقبلت الوفود إليه يهنئونه بمولوده و يشاركونه أفراحه، و كان عليه السلام يظهر لهم فرحه بهذا المولود، و يشيد به و أنه الخلف الصالح و الإمام من بعده. و نشأ صلوات الله عليه تحت رعاية أبيه نشأة صالحة، و اتصف بخصال الكمال، و لُقّب بالعبد الصالح، و ينعت بالكاظم، و يكنى بأبى إبراهيم و بأبى الحسن.

و أمه أم ولد اسمها حميدة الأندلسية أو البربرية، و مدحها الإمام الصادق عليه السلام بأنها مصفاة من الدنس كسبيكة الذهب. و مات أبوه الصادق و له من العمر تسع عشر سنة.

و حصل بعد موت الإمام الصادق عليه السلام خلاف بين أتباعه، فمنهم من قال

ص: 432

بإمامة محمد بن إسماعيل بن الإمام الصادق وهؤلاء قلة، ولم يسمعوا النص على الإمام موسى من أبيه، وبعد مدة رجع أكثرهم إلى القول بإمامته. ومنهم من قال بإمامة موسى عليه السلام للنص عليه من أبيه، وسيأتي بيان ذلك.

وكان عبد الله الأفطح قد ادعى الإمامة واتبعه البعض، ولم يكن عنده علم، ولم يجدوا فيه مؤهلات الإمامة، فرجعوا عنه.

وقام الإمام موسى عليه السلام بأعباء الإمامة في ذلك العصر المضطرب بالفتن، وقد كثرت فيه الخلافات في الآراء، وظهرت فيه العقائد المختلفة، ونبغ أناس حادوا عن طريقة المسلمين، فجاءوا بآراء إلحادية، ونشروا أقوالاً تثير الشك. فكانت مدرسته التي تزعمها بعد أبيه تواصل نشاطها في قمع تلك الحركات، وصدت تلك الهجمات عن الدين الإسلامي. وخرج دعاة الإمام موسى إلى الأقطار الإسلامية لنشر الدعوة والتصدي لرد تلك الأقوال، وتنفيذ تلك الآراء التي انتشرت في المجتمع الإسلامي.

والذي يظهر من تتبع الروايات أنه في بدء أمره كان يحذر أشد الحذر من المنصور الدوانيقي، لأن المنصور ملاً المدينة بالجواسيس ليعرف على من يجتمع الناس بعد جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فإذا عرفه فهناك سيحتال لقتله لعلمه بتعلق الناس بأهل البيت، وأن الإمام الصادق قد انتشر ذكره، وتفرقت دعواته في جميع الأقطار ولا بد أن يقوم مقامه أحد، فرأى عليه السلام في بدء الأمر، أن يحذر ويحسب لنقمة المنصور حسابها، ولكن بعد وفاة المنصور سنة 152 هـ خفت الوطأة وقل الحذر عند ما ولي المهدي، لأنه أقل شدة من أبيه في معاملة أهل البيت عليه السلام.

ولكن التفاف الناس حول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وإقبالهم على أخذ الأحكام منه والرواية عنه، جعل المهدي قلقاً من أمره، لأنه أعراف الناس بمنزلة أهل البيت في قلوب الأمة. فهم الساسة الذين ابتعدوا عن الاستغلال والأثرة، وجانبوا كلما من شأنه أن يضع من قيمة تلك المنزلة السامية، وهم يحتفظون بمكانتهم الروحية ورتبهم العلمية، لم يطلبوا بذلك جاهاً، أو يحاولوا جمع الأموال و صرفها في غير ما شرعه الله.

وقد أوضحوا في سيرتهم أنهم ينهجون نهج جدّهم الرسول الأعظم في إقامة العدل ونصرة المظلوم وإعلان الحرب على الظالمين وبذل النصيحة لجميع المسلمين.

و كان الإمام موسى عليه السلام تتمثل فيه خصال الكمال، و تتجسّم فيه شخصية الإمام الحق، و لعظم الأهوال و شدّة المحن، غلبت عليه صفة الكاظم، و كان من خصاله: التجاوز عن المعتدين (1).

و كان يدعى بالعبد الصالح لعبادته و اجتهاده، و كان سخيا كريما، و كان يبلغه عن الرجل أنه يؤذيه؛ فيبعث إليه بصرّة فيها ألف دينار (2).

و بقى عليه السلام مدة في أيام المهدي في المدينة، يقوم بإرشاد الناس و هداية الخلق، الأمر الذي جعل المهدي يتخوّف من انتشار دعوته و قوة جانبه، فلم يأمن وثبة الشيعة بقيادة الإمام موسى، فعمد إلى إبعاده عن المدينة و إقامته في بغداد تحت رقابة شديدة، أو أنه سجنه كما هو المشهور.

و مكث عليه السلام في السجن مدة أشهر، ثم أطلقه المهدي لرؤيا رآها كما حدّث الفضل بن الربيع عن أبيه أنه لما حبس موسى بن جعفر عليه السلام رأى في النوم على ابن أبي طالب و هو يقول: يا محمد (أى المهدي) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُكْفِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ تَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ. قال الربيع: فأرسل إلى ليلا فجنّته، فإذا هو يقرأ هذه الآية، و كان أحسن الناس صوتا و قال: علىّ بموسى بن جعفر، فجنّته فعانقه و أجلسه إلى جانبه و قال: يا أبا الحسن إني رأيت أمير المؤمنين على بن أبي طالب في النوم يقرأ علىّ كذا، فتؤمنني أن لا تخرج علىّ أو على أحد من ولدي.

فقال عليه السلام: «و الله لا فعلت ذاك و لا هو من شأنى».

قال: صدقت. يا ربيع أعطه ثلاثة آلاف دينار، و ردّه إلى أهله إلى المدينة (3).

و على رواية الجنابدى في المعالم أنه وصله بعشرة آلاف.

و من هنا نستظهر أن المهدي لم يسجن موسى لشىء في نفسه من عداء أو اعتداء، و إنما كان يحذره على ملكه من الزوال، و لم يخش أى شخصية في عصره من جميع الطوائف و البيوت سوى الإمام موسى لمؤهلاته و مكانته في نفوس الأمة، فهو يخشى من نهضة تطيح بعرشه، و لا تكون إلا على يد الإمام.

ص: 434

1- (1) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب لأبي الفوز البغدادي.

2- (2) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد 257/13، [1]

3- (3) نفس المصدر 26/13، [2]

و يمكننا القول بأن المهدي فرض عليه الإقامة الجبرية في بغداد، و هيأ له مكانا يسكن فيه، كما يدل عليه قوله للربيع: و رده إلى أهله في المدينة. إذ لو اقتصر على قوله: إلى أهله. فالمتبادر إلى محله المعد له في بغداد. فأكد عليه بقوله: أن رده إلى المدينة. فأسرع الربيع تجهيزه بسرعة خشية تبدل الأمر، و يندم المهدي إلى إطلاقه.

و أقام صلوات الله عليه بالمدينة مدة أيام المهدي، و لما وليّ موسى الهادي فكانت واقعة فح المروعة و قتل الحسين بن علي صاحب فخ، و حمل رأسه و الأسرى من أصحابه إلى موسى الهادي، و أمر برجل من الأسرى، فوبخه ثم قتله، ثم صنع ذلك بجماعة من الطالبين، و جعل ينال منهم، إلى أن ذكر موسى بن جعفر عليه السلام و قال: و الله ما خرج حسيني إلا من أمره، و لا أتبع إلا محبته، لأنه صاحب الوصية في أهل هذا البيت، قتلني الله إن أقيت عليه.

فقال له أبو يوسف القاضي: يا أمير المؤمنين أقول أم أسكت؟ فقال موسى: قتلني الله إن عفوت عن موسى بن جعفر، و لو لا ما سمعت من المهدي فيما أخبر به المنصور ما كان به جعفر من الفضل عن أهله في دينه و علمه و فضله، و ما بلغني عن السفاح فيه من تقرضه و تقضيله لنبشت قبره.

فقال أبو يوسف: نساؤه طوالق، و عتق جميع ما يملك من الرقيق، و تصدق بجميع ما يملك من المال، و حبس دوابه، و عليه المشى إلى بيت الله الحرام إن كان مذهب موسى الخروج، و لا يذهب إليه و لا مذهب أحد من ولده، و لا ينبغي أن يكون هذا منهم.

و لم يزل أبو يوسف يخاطب الهادي، و يخفف حدة غضبه بكلام رقيق، حتى سكن غضبه.

و كتب علي بن يقطين (1) إلى أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام فلما وصل

ص: 435

---

1- (1) من أكبر أصحاب الإمام الكاظم و أعظمهم منزلة، و كان أبوه من وجوه الدعوة إلى الرضا من آل محمد، فطلبه مروان، فهرب. و لما قامت دولة بني العباس عمل يقطين مع السفاح و المنصور، و كان شيعيا يقول بالإمامة، و يحمل الأموال إلى الإمام الصادق، و [1] كان على من كبار رجال دولة بني العباس في عهد هارون الرشيد. و لما توفي صلى عليه ولي العهد محمد. له كتب منها: ما سئل عنه الصادق من الملاحم، و كتاب مناظرة الشاك بحضرته، و له مسائل عن الإمام الكاظم. ولد رحمه الله في الكوفة سنة 124 هـ و توفي في بغداد سنة 182 هـ.

الخبر أخبر عليه السّلام أهل بيته و شيعته، وقال لهم: «ما تشيرون في هذا؟» فأشاروا عليه بأن يتوارى و يباعد بشخصه عن الطاغية.

فتبسم عليه السّلام ثم تمثّل بيت كعب بن مالك أخو بني سلمة:

زعمت سخينة أن ستغلب ربّها فليغلبنّ مغلب الغلاب

ثم أقبل على من حضر من مواليه، و أهل بيته و قال: «ليفرخ روعكم، إنه لا يرد أول كتاب من العراق إلا بموت موسى الهادي و هلاكه».

فقالوا: و ما ذاك أصلحك الله؟ ثم أخبرهم بأنه رأى رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم في المنام و شكى إليه موسى بن المهدي. و ما جرى منه في أهل بيته. فقال رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم «لتطب نفسك يا موسى، فاجعل الله لموسى عليك سبيلا» ثم قال صلّى الله عليه و آله و سلّم: «قد أهلك الله أنفا عدوك، فلتحسن لله شكر».

و في رواية الحافظ ابن شهر آشوب أنه عليه السّلام تمثّل بقول الشاعر:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع

ثم رفع رأسه إلى السماء و قال:

«إلهي كم من عدو شحذ لي ظبة مديته، و أرهف لي شبا حدّه، و داف لي غوائل سمومه، و لم تنم عنّي عين حراسته، فلما رأيت ضعفي من احتمال الفواحش، و عجزى عن ملّمات الجوائح، صرفت ذلك عنّي بحولك و قوتك، لا بحولي و قوتي...» إلى آخر الدعاء.

ثم أقبل على أصحابه فقال لهم: «إنه لا يأتي أول كتاب من العراق إلا بموت موسى بن المهدي». ثم تفرّق القوم، فما اجتمعوا إلا لقراءة الكتب الواردة بموت موسى بن المهدي، و في ذلك يقول شاعر أهل البيت في وصف سرعة استجابة الدعاء:

و سارية لم تسرف في الأرض تبتغي محلا و لم يقطع بها البعد قاطع

سرت حيث لم تحد الركاب و لم تنخ لورد و لم يقصد بها البعد مانع

تمرّ وراء الليل و الليل ضارب بجثمانه فيه سمير و هاجع

تفتح أبواب السماوات دونها إذا قرع الأبواب منهنّ قارع

إذا وفدت لم يردد الله و فدها على أهلها و الله راء و سامع



وإني لأرجو الله حتى كأنما أرى بجميل الظن ما الله صانع

وكان الإمام من جرّاء حب الناس له وتقديسهم إياه يرجو أن لا يظنّ به فوق مرتبته الدينية و مهمات إمامته، ويبعد بالناس عن أسباب الغلو، سأله أحدهم:

إني رأيت الليلة في منامي أني سألتك كم بقي من عمري، فرفعت يدك اليمنى وفتحت أصابعها في وجهي مشيرا إليّ، فلم أعلم خمس سنين أم خمسة أشهر أم خمسة أيام؟ فقال عليه السّلام: «(ولا واحدة منهن، بل ذاك إشارة إلى الغيوب الخمسة التي استأثر الله تعالى بها في قوله: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...»

### من حكمه و مواعظه

:

«إياك أن تمنع في طاعة الله، فتتفق مثليه في معصية الله».

وقال له وكيله: ما خنتك. فقال: «خيانتك و تضييعك عليّ ما لى سواء، و الخيانة أشرهما عليك».

وقال عليه السّلام: «ليس حسن الجوار كفّ الأذى، و لكن حسن الجوار الصبر على الأذى».

وقال عليه السّلام: «لا تذهب الحشمة بينك و بين أخيك، و أبق منها، فإن ذهابها ذهاب الحياء».

وقال عليه السّلام لبعض ولده: «يا بنى إياك أن يراك الله في معصية نهاك عنها، و إياك أن يفقدك الله عند طاعة أمرك بها، و عليك بالجدّ و لا- تخرجنّ نفسك من التقصير في عبادة الله و طاعته، فإن الله لا يعبد حق عبادته. و إياك و المزاح فإنه يذهب بنور إيمانك و يسحق مروّتك. و إياك و الضجر و الكسل فإنهما يمنعان حظك من الدنيا و الآخرة».

وقال عليه السّلام: «إذا كان الجور أغلب من الحق، لم يحلّ لأحد أن يظنّ بأحد خيرا حتى يعرف ذلك منه».

وقال لعلى بن يقطين: «كفّارة عمل السلطان الإحسان إلى الإخوان».

وقال عليه السّلام: «كلما أحدث الناس من الذنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعدّون».

وقال عليه السّلام: «إذا كان الإمام عادلا كان له الأجر و عليك الشكر، و إذا كان جائرا كان عليه الوزر و عليك الصبر».

«إن صلاحكم من صلاح سلطانكم، فإن السلطان العادل بمنزلة الوالد الرحيم، فأحبوا له ما تحبون لأنفسكم، وأكروهوا له ما تكرهون لأنفسكم».

وقال عليه السلام: «أخذ أبي بيدي وقال: إن أبي محمد بن علي أخذ بيدي وقال:

إن أبي علي بن الحسين أخذ بيدي وقال: يا بني افعل الخير إلى كل من طلبه منك، فإن كان من أهله فقد أصبت موضعه. وإن لم يكن له بأهل فكن أنت من أهله، وإن شتمك رجل عن يمينك، ثم تحول إلى يسارك واعتذر إليك؛ فاقبل منه».

«إن أهل الأرض لمرحومون ما تحابوا و أدوا الأمانة و عملوا بالحق».

«لا تضيع حق أخيك اتكالا على ما بينك وبينه، فإنه ليس بأخ من ضيقت حقه، ولا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته».

«من طلب هذا الرزق من حله ليعود به على نفسه و عياله، كان كالمجاهد في سبيل الله، فإن غلب عليه فليستدن على الله و على رسوله، فإن مات و لم يقضه كان على الإمام قضاؤه، فإن لم يقضه كان عليه وزره، إن الله عز و جل يقول: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسَاكِينِ وَ الْعَامِلِينَ... الخ و هذا فقير مسكين مغرم».

«الناس أشكال، و كل يعمل على شاكلته، و الناس إخوان فمن كانت أخوته في غير ذات الله فإنها تعود عداوة، و ذلك قوله تعالى: الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ».

«من استحسّن قبيحا كان شريكا فيه».

«كفر النعمة داعية المقت، و من جازاك بالشكر فقد أعطاك أكثر مما أخذ منك».

«لا تضمّر نفسك الظنّ على صديق قد أصلحك اليقين له، و من وعظ أخاه سرا فقد زانه، و من وعظه علانية فقد شانه».

«لا يزال العقل و الحمق يتغالبان على الرجل إلى أن يبلغ ثمانى عشرة سنة، فإذا بلغها غلب عليه أكثرها فيه».

«و ما أنعم الله عز و جل على عبد نعمة، فعلم أنها من الله، ألا كتب الله على اسمه شكرها له قبل أن يحمدّه عليها».

«الشريف كل الشريف من شرفه علمه، والسؤدد كل السؤدد لمن اتقى ربه».

«لا تعجلوا الأمر قبل بلوغه فتندموا، ولا يطولنّ عليكم الأمل فتفسد قلوبكم، وارجموا ضعفاتكم، واطلبوا الرحمة من الله بالرحمة منكم».

«من أمّل فاجرا، كان أدنى عقوبته الحرمان».

«موت الإنسان بالذنوب أكبر من موته بالأجل».

«لو كانت السموات والأرض رتقا على عبد، ثم اتقى الله يجعل الله له منهما فرجا».

«من وثق بالله و توكل على الله نجاه الله من كل سوء و حرسه من كل عدو».

و الدين عزّ، و العلم كنز، و الصمت نور، و غاية الزهد الورع، و لا هدم للدين مثل البدع، و لا أفسد للرجال من الطمع. و بالراعى تصلح الرعية، و بالدعاء تصرف البلية.

و من ركب مركب الصبر اهتدى إلى مضمار النصر. و من غرس أشجار التقى اجتنى ثمار المنى».

و قال عليه السلام لبشر بن سعد: «يا بشر، للمحن أخريات، فيجب على العاقل أن ينام لها إلى إدبارها، فإن مكابدها بالحيل عند إقبالها زيادة فيها» (1).

«كيف يضيع من الله كافله، وكيف ينجو من الله طالبه».

«إن لله عبادا يخصّهم بدوام النعم، فلا تزال فيهم ما بذلوها؛ فإن منعوها نزعتها الله عنهم و حولها إلى غيرهم».

«ما عظمت نعمة الله على أحد إلا عظمت إليه حوائج الناس، فمن لم يتحمل تلك المثونة عرض تلك النعمة للزوال. أهل المعروف إلى ما يصطنعون أحوج من أهل الحاجة إليه، لأن لهم أجره و فخره و ذكره، فمهما اصطنع الرجل من معروف فإنما يبتدئ فيه نفسه».

«من أجلّ إنسانا هابه، و من جهل شيئا عابه، و الفرصة خلصة».

«من استغنى بالله افتقر الناس إليه، و من اتقى الله أحبه الناس».

«الجمال فى اللسان، و الكمال فى العقل».

ص: 439

«العفاف زينة الفقر، والشكر زينة البلاء، والتواضع زينة الحسب، والفصاحة زينة الكلام، والحفظ زينة الرواية، وحفظ الجناح زينة العلم، وحسن الأدب زينة الورع، وبسط الوجه زينة القناعة».

«حسب المرء من كمال المروءة أن لا- يلقي أحدا بما يكره، ومن حسن خلق الرجل كفه أذاه، ومن سيمائه برّه بمن يجب حقّه عليه، ومن إنصافه قبول الحق إذا بان له، ومن نصحه نهيه عمّا لا يرضاه لنفسه، ومن حفظه لجواره، تركه توبيخه، ومن رفقه تركه عدل ذلك بحضرة من تكره، ومن حسن صحبته لك إسقاطه عنك مؤونة التحفظ، ومن علامة صداقته كثرة موافقته وقلّة مخالفته، ومن شكره معرفة إحسان من أحسن إليه، ومن تواضعه معرفته بقدره، ومن سلامته قلّة حفظه لعيوب غيره وعنايته بصلاح عيوبه».

«من أخطأ وجوه المطالب خذلته الحيل، والطامع في وثاق الذل».

«العلماء غرباء لكثرة الجهال بينهم».

«الصبر على المصيبة مصيبة على الشامت».

«ثلاث يبلغن بالعبد رضوان الله كثرة الاستغفار، ولين الجانب، وكثرة الصدقة».

«ثلاث من كنّ فيه لم يندم: ترك العجلة، والمشورة، والتوكل على الله عند العزم».

«لو سكت الجاهل ما اختلف الناس».

«مقتل الرجل بين فكّيه، والرأى مع الأناة، وبئس الظهر الرأى الفطير».

«ثلاث خصال تجتلب بهنّ المودّة: والإنصاف في المعاشرة، والمواساة في الشدّة، والانطواء على قلب سليم».

وقال عليه السّلام لهشام: «من أراد الغنى بلا مال، وراحة القلب من الحسد، والسلامة في الدين؛ فليترضّع إلى الله عز و جل في مسألته بأن يكمل عقله. فمن عقل قنع بما يكفيه، ومن قنع بما يكفيه استغنى، ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى».

أنجب الإمام موسى بن جعفر عدة أولاد ذكورا وإناثا، وكانوا مثالا للفضل وصورة صادقة للخلق الإسلامى الكامل، يقول الشيخ الطوسى: إن لكل واحد من أولاد أبى الحسن موسى فضلا ومنقبة مشهورة.

وقد وقع اختلاف فى تحديد عدد تلك الذرية الطيبة، فمن قائل أنهم ثلاث و ثلاثون الذكور منهم، والإناث ستة عشر. وقيل: الذكور 37 و الإناث 19. أو أن الذكور 38 و الإناث 18. و المشهور أن ذريته عليه السّلام سبعة و ثلاثون ولدا ذكرا و أنثى.

أما الذكور فهم: إبراهيم و العباس و القاسم، لأمهات أولاد، و إسماعيل و جعفر، و هارون و الحسن لأم ولد، و أحمد و محمد و حمزة لأم ولد، و عبد الله و إسحاق و عبيد الله و زيد و الحسن و الفضل و سليمان لأمهات أولاد.

أما البنات فهن: فاطمة الكبرى، و فاطمة الصغرى، و كلثم، و أم جعفر، و لبابة، و زينب، و خديجة، و عليّة، و آمنة، و حسنة، و بويهة، و عائشة، و أم سلمة، و ميمونة، و أم كلثم.

هكذا ذكرهم الشيخ المفيد عليه الرحمة. و قال ابن الخشّاب: ولد له عشرون ولدا ذكرا و ثمانية عشر بنتا.

و عدّهم فى صحاح الأخبار سبعة و ثلاثين ولدا بين ذكر و أنثى، ثم ذكرهم مع اختلاف بسيط بين ما ذكرهم و بين ما قدمناه.

وقد اختلفوا فىمن أعقب من أولاده عليه السّلام و قد اتفقوا على أن عقبه من عشرة من أولاده، و قيل أربعة عشر.



## إشارة

مرت الإمامة في عهد أبي جعفر المنصور بأدوار غاية في الصعوبة-كما رأينا- وقد تمكن الإمام الصادق عليه السلام أن يجتاز دوائر الهلاك التي وضعها الحاكم الظالم وأن يجنّب أصحابه و شيعته ابتلاءات الحديد، وأن لا يعصّبهم سيف الحكام قدر الإمكان، وقد علم الإمام الصادق-بما وهبه الله من حكمة و معرفة بالأحوال-إن غدر المنصور لن ينتهي، وأنه يتربّص الفرص للانتقام من أهل بيت النبوة، فكان تدبيره الوصية بالشكل الذي يفوّت على المنصور الفرصة، فلما توفي الإمام الصادق عليه السلام و بلغ المنصور الخير، كتب: إن كان أوصى الإمام الصادق إلى رجل بعينه يقدّم و يضرب عنقه. فرجع إليه الجواب أنه أوصى إلى خمسة نفر أحدهم أبو جعفر المنصور و محمد بن سليمان و عبد الله و موسى و حميدة. وفي رواية أخرى: إن الإمام الصادق عليه السلام أوصى إلى أبي جعفر المنصور و موسى و محمد بن جعفر أولاده، و مولى لأبي عبد الله عليه السلام.

فقال أبو جعفر المنصور: ليس إلى قتل هؤلاء سبيل (1).

و سنرى أن أمر الوصية و تدبيرها على هذا الشكل قد مرّ بمرحلتين:

الأولى: الإعداد للوصاية و التهيؤ للإمامة، و إظهار ابنه موسى في منزلتهما لدى شيعة أهل البيت، حتى إذا وضح في أذهان الناس النص و استقروا على الأمر، أتبعه الإمام الصادق بالتدبير التالي و المرحلة الثانية: التي قصد بها كفّ الأذى عن وصيّيه و إمام الناس من بعده، و هو تدبير أحبط مسعى عدوّهم، و أسقط في يده. و لو لا هذا التدبير الذي أراده الله، لنفّذ الدوانيقي ما كان يتمناه، فكان الرشيد من تولى الجريمة، و لكن بعد أن قام الإمام الكاظم بالتبليغ، و نفذ الرسالة و الأحكام، وهكذا الحكام من

ص: 443

1- (1) الغيبة للشيخ الطوسي. و منهج الدعوات للسيد ابن طاوس.

الأمويين و العباسيين يتوارث الخلف عن السلف مهمة قتل أبناء النبوة وإنزال المصائب بأهل البيت الكرام.

روى ابن شهر آشوب فى المناقب عن داود بن كثير الرقى قال: أتى أعرابى إلى أبى حمزة الشمالى فسأله خبرا فقال: توفى جعفر الصادق، فشهبق شهقة و أغمى عليه.

فلما أفاق قال: هل أوصى إلى أحد؟ قال: نعم، أوصى إلى ابنه عبد الله و موسى و أبى جعفر المنصور. فضحك أبو حمزة و قال: الحمد لله الذى هدانا إلى الهدى، و بين لنا عن الكبير، و دل على الصغير، و أخفى عن أمر عظيم. فسئل عن قوله؟ فقال: بين عيوب الكبير، و دل على الصغير لإضافته إياه، و كنم الأمر بالوصية للمنصور، لأنه لو سأل المنصور عن الوصى. لقليل: أنت (1).

و يورد الشيخ المفيد أمر الوصية مورد الدلالة على النص بالوصية للإمام موسى بن جعفر، و ينفى -رحمه الله- ذكر الإمام الصادق لأحد من أولاده مع ولده موسى، و يقول:

وقد تظاهر الخبر فيما كان عن تدبير أبى عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام و حراسة ابنه موسى بن جعفر عليه السلام بعد وفاته من ضرر يلحقه بوصيته إليه، و أشاع الخبر عن الشيعة إذ ذاك باعتقاد إمامته من بعده، و الاعتماد على حججهم، لذلك على إفراده بوصية مع نصه عليه بنقل خواصه، فعُدل عن إفراده بالوصية عند وفاته، و جعلها إلى خمسة نفر أولهم المنصور، و قدّمه على جماعتهم، إذ هو سلطان الوقت و مدبر أهله، ثم صاحبه الربيع من بعده، ثم قاضى وقته، ثم جاريتة و أم ولده حميدة البربرية، و ختمهم بذكر ابنه موسى بن جعفر عليه السلام يستر أمره و يحرس بذلك نفسه، و لم يذكر مع ولده أحدا من أولاده لعلمه بأن منهم من يدعى مقامه من بعده، و يتعلق بإدخاله فى وصيته، و لو لم يكن موسى عليه السلام ظاهرا مشهورا فى أولاده، معروف المكان منه و صحة نسبه و اشتهاه فضله و علمه و حكيمته و امتثاله و كماله، بل كان مثل ستر الحسن عليه السلام ولده لما ذكره فى وصيته، و لاقتصر على ذكر غيره ممن سميناه، لكنه ختمهم فى الذكر به كما بيناه (2).

ص: 444

1- (1) أعيان الشيعة للسيد العاملى ج 4 ص 226. [1]

2- (2) الفصول العشرة فى الغيبة للشيخ المفيد.



و يتجه القول إذا علمنا أن عبد الله كان يظهر المخالفة لأبيه الإمام الصادق، روى الفضل عن طاهر بن محمد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: رأيت يوم عبد الله ابنه ويعظه ويقول له: «ما يمنعك أن تكون مثل أخيك، فوالله إنى لأعرف النور فى وجهه؟» فقال عبد الله: وكيف أليس أبى وأبوه واحداً، وأصلى وأصله واحداً؟ فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «إنه من نفسى، وأنت ابنى» (1).

و إن عبد الله أفتح الرجلين، ناقص التكوين. يروى الشيخ المفيد أن جماعة من أصحاب الإمام الصادق كانوا فى المدينة، فسألوا عبد الله -و قد اجتمع عليه من ظن بإمامته بعد أبيه- فسألوه عن الزكاة فى كم تجب؟ فقال فى كل مائتى درهم خمسة دراهم، فقالوا له: ففى مائة؟ قال درهمان ونصف، فقالوا: والله ما تقول المرجئة هذا. فقال: والله ما أدرى ما تقول المرجئة.

و يتبين بذلك جهل عبد الله بأحكام الشريعة، وعدم أهليته لاحتلال مكان أبيه، وقد وشّحت أنوار الإمامة وجه أخيه موسى منذ كان فى المهد، فكان الإمام الصادق يقف على رأسه وهو فى المهد ويسأزه طويلاً وروى الوشاء عن على بن الحسين، عن صفوان الجمال قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن صاحب هذا الأمر؟ فقال:

«إن صاحب هذا الأمر لا يلهو ولا يلعب» فأقبل أبو الحسن عليه السلام وهو صغير ومع بهمة (ولد البقر أو المعز أو الضأن) وهو يقول لها: «اسجدى لربك» فأخذه أبو عبد الله عليه السلام وضمه إليه وقال: «بأبى وأمى من لا يلهو ولا يلعب» (2).

و كان الإمام الصادق يميّزه عن أولاده، ويفضّله عليهم ويقول: «هؤلاء أولادى، وهذا سيدهم» (3). ولشدة حب الإمام الصادق عليه السلام له قيل له: ما بلغ من حبك لموسى؟ قال عليه السلام: «وددت أن ليس لى ولد غيره، لئلا يشركه فى حبى أحد» (4).

و روى محمد بن الوليد قال: سمعت على بن جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام يقول: سمعت أبا جعفر بن محمد عليهما السلام يقول لجماعة من خاصته وأصحابه:

«استوصوا بابنى موسى عليه السلام خيراً، فإنه أفضل ولدى، ومن أخلف من بعدى، وهو القائم مقامى، والحجة لله تعالى على كافة خلقه من بعدى».

ص: 445

1- (1) الإرشاد ص 271. [1]

2- (2) الإرشاد. [2]

3- (3) ينابيع المودة للقندوزى الحنفى.

4- (4) الإتحاف [3] للشبراوى الشافعى.

وقد ذكر الشيخ المفيد جماعة ممن روى صريح النص بالإمامة من أبي عبد الله عليه السلام على ابنه أبي الحسن موسى عليه السلام من شيوخ أصحاب الإمام الصادق و خاصته و ثقاته الفقهاء الصالحين رحمة الله عليهم، منهم: المفضل بن عمر الجعفي، و معاذ بن كثير، و عبد الرحمن بن الحجاج، و الفيض بن المختار، و يعقوب السراج، و سليمان بن خالد، و صفوان الجمال و غيرهم ممن يطول ذكرهم.

وقد روى ذلك من أخوى الإمام الكاظم: إسحاق و علي. و كانا من الفضل و الورع على ما لا يختلف فيه اثنان.

فروى عن المفضل بن عمر الجعفي رحمه الله قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدخل أبو إبراهيم موسى عليه السلام - و هو غلام - فقال لي أبو عبد الله عليه السلام: «استوص به، وضع أمره عند من تثق من أصحابك».

و روى عن معاذ بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام قلت: أسأل الله الذي رزق أباك منك هذه المنزلة أن يرزقك من عقبك قبل الممات مثلها، فقال: «قد فعل الله ذلك» قلت: من هو جعلت فداك؟ فأشار إلى العبد الصالح و هو راقد فقال: «هذا الراقد» و هو يومئذ غلام.

و عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: دخلت على جعفر بن محمد عليهما السلام في منزله، فإذا هو في بيت كذا من داره، في مسجد له و هو يدعو، و علي يمينه موسى بن جعفر عليهما السلام يؤمن على دعائه. فقلت له: جعلني الله فداك، قد عرفت انقطاعي إليك و خدمتي لك، فمن ولي الأمر بعدك؟ قال: «يا عبد الرحمن، إن موسى قد لبس الدرع و استوت عليه» فقلت له: لا أحتاج بعد هذا إلى شيء.

و عن الفيض بن المختار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: خذ بيدي من النار، من لنا بعدك؟ قال: فدخل أبو إبراهيم و هو يومئذ غلام. فقال: «هذا صاحبكم فتمسك به».

و عن منصور بن حازم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: بأبي أنت و أمي، إن الأنفس يغدا عليها و يراح، فإذا كان ذلك فمن؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إذا كان ذلك فهو صاحبكم» و ضرب على منكب أبي الحسن الأيمن، و هو فيما أعلم يومئذ خماسي.

وصفوة القول: أن الروايات تتعاضد في إثبات النزعات إلى الإمامة من بين أولاد الإمام الصادق، وهو أمر توهموه بالعاطفة وتمنّوه، لأن الإمامة تجرى بدلائل وتتم بشروط، فيتهدى بيسر إلى صاحبها، وتصرح السجايا والأعمال باكتمال الشروط، وهو أمر معلوم أصحابه في عدد معين وشخص مثبتين، وقد مرّ بنا كيف كانت علامات الإمامة وأمارات الانتساب إلى البيت النبوي في جواب الإمام الكاظم إلى أبي حنيفة.

فذاع عن أصحاب الإمام الصادق يومئذ ما كان الإمام يقوم به في رعاية وصيّة الإمام موسى، وانتشر ما كان يوصيه به. منها: «يا بني اقبل وصيتي، واحفظ مقالتي، فإنك إن حفظتها تعش سعيداً وتمت حميداً، يا بني إنه من قنع بما قسم الله استغنى ومن مدّ عينه إلى ما في يد غيره مات فقيراً، ومن لم يرض بما قسم الله عز وجل له اتهم الله في قضائه، ومن استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره، ومن استصغر زلة غيره استعظم زلة نفسه. يا بني من كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته، ومن سلّ سيف البغي قتل به، ومن احتفر لأخيه بثراً سقط فيها، ومن خالط السفهاء حقر، ومن خالط العلماء وقر، ومن دخل مداخل السوء اتهم. يا بني قل الحق لك وعليك، وإياك والنميمة فإنها تزرع الشحنة في قلوب الرجال، يا بني إذا طلبت الجود فعليك بمعادنه (1).

ومعلوم أن العصر الذي خضنا في بحثه هو من أخطر العصور السياسية وأشدها على شيعة أهل بيت النبي وأئمتهم المعصومين عليهم السلام وقد كانت الوصية بالشكل الذي ارتاه من التدبير للإبقاء على حياة وصيّته وحمايته من ظلم المنصور وحقده.

فتولى الإمام الكاظم أعباء الإمامة وهو يعلم ما عليه المنصور من ظلم واعتداء، فحرص على أن لا يذاع أمره ولا تنتشر أجوبته و مسائله، فقد كان يقول لمن يجيبه:

«فإذا أذعت فهو الذبح».

ولكن من خلف المنصور كان أعتى وأعدى، وقد رأينا ما ذا كان عليه المهدي، بعد أن أخذ الإمام الكاظم في المدينة يحتل مكانته ويقوم باستقبال الوفود والطلاب من كافة الأقطار. ثم جاءت فترة حكم الرشيد، وبدأ وجود الإمام الكاظم يقصّ مضجع الرشيد

ص: 447

العباسي، وعلى عادتهم إذ كانوا يتخذون الحج ذريعة للوصول إلى مواقع الأئمة من أهل البيت، فحج مرة واجتمع بالإمام الكاظم عند الكعبة، وقال له الرشيد: أنت الذي يبايعك الناس سرًا؟ فقال الإمام عليه السلام: «أنا إمام القلوب، وأنت إمام الجسوم» (1).

ولا يدع الإمام لهارون الرشيد فرصة يفتخر بها على المسلمين بالانتساب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا يتركه يتمتع و يدلّ بشرف القرابة التي يستعملها لظلمه، فلما حج هارون الرشيد مرة، فأتى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم زائرًا له، وحوله قريش وأفياء القبائل، ومعه الإمام موسى الكاظم، فلما انتهى إلى القبر قال الرشيد: السلام عليك يا رسول الله يا ابن عمي. افتخارا على من حوله، فدنا الإمام موسى بن جعفر فقال: «السلام عليك يا أبة» فتغيّر وجه هارون وقال: هذا الفخر يا أبا الحسن حقا (2). وفي بعض الروايات أن الإمام الكاظم أجابه: «و عليك السلام يا عبد الله» فلم يحتملها الرشيد (3).

ولما قرب الرشيد من المدينة، استقبله الوجوه من أهلها، وتقدمهم الإمام الكاظم على بغلة، فقال له الربيع: ما هذه الدابة التي تلقيت عليها أمير المؤمنين، وأنت إن طلبت عليها لم تدرك، وإن طلبت لم تقم؟ فقال: «إنها تطأطأت عن خيلاء الخيل، وارتفعت عن ذلة العير، وخير الأمور أوساطها» (4).

ولم يكن الإمام الكاظم ليخشى الرشيد في أمر هو فيه الحكم وإليه المفزع، فهو صاحب السلطة الروحية، وإليه أمر الشريعة، فسأله محمد بن الحسن يوما- بمحضر الرشيد وهو بمكة- فقال: يجوز للمحرم أن يضلل محمله؟ فقال الإمام: «لا يجوز له ذلك مع الاختيار» فقال محمد بن الحسن: أفيجوز له أن يمشى تحت الضلال؟ فقال له: «نعم» فتضاحك محمد بن الحسن من ذلك. فقال له الإمام عليه السلام: «أ تعجب من سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتستهزئ به، إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كشف ضلاله في إحرامه، ومشى تحت الظلال وهو محرم، إن أحكام الله لا تقاس، فمن قاس بعضها على بعض فقد ضلّ عن سواء السبيل» فسكت محمد بن الحسن لا يرجع جوابا.

ص: 448

1- (1) الإتحاف ص 55. [1]

2- (2) تاريخ بغداد ج 13 ص 31. و [2] تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص 259. و تاريخ ابن كثير ج 10 ص 183.

3- (3) الإتحاف ص 55. [3]

4- (4) روضة الواعظين. [4]

و تبين الأحاديث و الأسئلة التي دارت بين الرشيد و بين الإمام الكاظم طوايا نفس الرشيد، و ما ضمّت جوانحه من غيظ على الكاظم لتمتّعه بمنزلة الإمامة و برتبة الولاية الشرعية التي تتقاد لها القلوب، حتى كان لا يملك إخفاء ذلك، و يقول لبنيه في حق الإمام موسى الكاظم: (هذا إمام الناس، و حجة الله على خلقه، و خليفته على عباده).

أنا إمام الجماعة في الظاهر و الغلبة و القهر، و الله إنه لأحق بمقام رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم منّي و من الخلق).

و كان المأمون في خلافته يقول: كان الرشيد سمع جميع ما يجري بيننا (بينه و بين أخيه الأمين) من موسى بن جعفر و لذلك قال ما قال (1). و تصديقا منه لما قاله الإمام الكاظم له من أنه إمام القلوب و الرشيد إمام الجسوم. و يظل الرشيد على ما تقتضيه سلامة الملك و دوام الحكم باحثا عن ألوان من الإساءة في الألفاظ و التصرف، و ساعيا إلى النيل من المنزلة و الرتبة التي حبا الله بهما الإمام الكاظم، فيسأل الرشيد الإمام الكاظم: أخبرني لم فضّلتم علينا و نحن و أنتم من شجرة واحدة، و بنو عبد المطلب و نحن و أنتم واحد، إنا بنو عباس، و أنتم ولد أبي طالب، و هما عمّا رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و قرابتهما منه سواء؟ فقال الإمام: «نحن أقرب» قال: و كيف ذاك؟ قال الإمام: «لأن عبد الله و أبا طالب لأب و أم، و أبوكم العباس ليس هو من أم عبد الله و لا من أم أبي طالب».

قال: فلم ادّعيتم أنكم ورثتم النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و العمّ يحجب ابن العم، و قبض رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و قد توفي أبو طالب قبله و العباس عمه حتى؟ فقال له: «إن رأى أمير المؤمنين أن يعفيني عن هذه المسألة، يسألني عن كل باب سواه يريد».

فقال: لا، أ و تجيب.

فقال الإمام: «فأمّني».

قال الرشيد: أمّنتك قبل الكلام.

فقال الإمام: إن في قولك على بن أبي طالب عليه السلام إنه ليس مع ولد الصلب ذكرا كان أو أنثى لأحد سهم إلا الأبوين و الزوج و الزوجة، و لم يثبت للعم مع ولد الصلب ميراث، و لم ينطق به الكتاب العزيز و السنة، إلا أن تيما و عديا و بنى أمية

ص: 449

قالوا: العم والد. رأيا منهم بلا حقيقة، ولا أثر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن قال بقول علي من العلماء قضاياهم خلاف قضايه هؤلاء. هذا نوح بن دراج يقول في هذه المسألة بقول علي وقد حكم به: «إلى أن قال عليه السلام: «إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: أقضاكم علي. وكذلك عمر بن الخطاب قال: علي اقضانا. وهو اسم جامع، لأن جميع ما مدح به النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه من القرابة والفرائض والعلم داخل في القضاء».

قال الرشيد: زدني يا موسى.

قال الإمام الكاظم: «المجالس بالأمانات، وخاصة مجلسك».

فقال: لا بأس به.

قال الإمام الكاظم: «إن النبي لم يورث من لم يهاجر، ولا أثبت له ولاية حتى يهاجر».

فقال: ما حجتك فيه؟ قال الإمام: «قول الله تبارك وتعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ عَمِيَ الْعَبَّاسُ لَمْ يَهَاجِرْ».

فقال له الرشيد: إنني أسألك يا موسى، هل أفتيت بذلك أحدا من أعدائنا أو أخبرت أحدا من الفقهاء في هذه المسألة بشيء؟ فقال الإمام: «اللهم لا...» اهـ.

ونحو ذلك ما أثاره الرشيد التماسا للطعن والإساءة لأن عامل القرابة من الرسول كان من أهم العوامل التي أقام عليها العباسيون صبغتهم الدينية وصبغتهم الشرعية، إذ سأل الإمام الكاظم: جؤزتم للعامة والخاصة أن ينسبواكم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويقولوا لكم: يا بني رسول الله، وأنتم بنو علي. وإنما ينسب المرء إلى أبيه، وفاطمة إنما هي وعاء. والنبي جدكم من قبل أمكم؟ فقال: «يا أمير المؤمنين. لو أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نشر فخطب إليك كريمتك، هل كنت تجيبه؟».

قال: سبحان الله! ولم لا أجيبه، بل افتخر على العرب والعجم وقريش بذلك.

فقال الإمام: «لكنه لا يخطب إلي ولا أزوجه».

فقال الرشيد: ولم؟ قال الإمام: «لأنه ولدني ولم يلدك».

فقال: أحسنت يا موسى! ثم قال: كيف قلت إننا ذرية النبي والنبي لم يعقب، وإنما العقب الذكر لا الأنثى، وأنتم ولد الابنة، ولا يكون ولدها عقبا له.. الخ حديثه.

فقال الإمام: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ».

فقال: ليس لعيسى أب.

فقال الإمام: «إنما ألحقناه بذراري الأنبياء عليهم السلام من طريق مريم عليها السلام وكذلك ألحقنا بذراري النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قبل أمنا فاطمة. أزيدك يا أمير المؤمنين؟».

قال: هات.

فقال الإمام: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ وَ لَمْ يَدْعُ أَحَدٌ أَنَّهُ أَدْخَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ تَحْتَ الْكِسَاءِ عِنْدَ مِبَاهِلَةِ النَّصَارَى إِلَّا عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ فَاطِمَةَ وَ الْحَسَنَ وَ الْحُسَيْنَ، أَبْنَاءَنَا: الْحَسَنَ وَ الْحُسَيْنَ، وَ نِسَاءَنَا: فَاطِمَةَ، وَ أَنْفُسَنَا: عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. عَلَى أَنْ الْعُلَمَاءُ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنْ جِبْرَائِيلُ قَالَ يَوْمَ أَحَدٍ: «يَا مُحَمَّدُ إِنَّ هَذِهِ لَهِيَ الْمَوَاسَاةُ مِنْ عَلَى» قَالَ: «لَأَنَّهُ مَنَى وَ أَنَا مِنْهُ» فَقَالَ جِبْرَائِيلُ: «وَ أَنَا مِنْكُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ». ثُمَّ قَالَ: لَا سَيْفَ إِلَّا ذُو الْفَقَارِ وَ لَا فَتَى إِلَّا عَلَى، فَكَانَ كَمَا مَدَحَ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ بِهِ خَلِيلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ يَقُولُ: قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ إِنْ نَفْتَخِرْ بِقَوْلِ جِبْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنَى» (1).

و من جميع الروايات، تظهر لنا صورة الرشيد الحاكم الذي يعاني أشد المعاناة من الوجود الشخصي للإمام الكاظم، ويحتال بمختلف السبل للنيل منه أو الغض من المكانة الروحية التي يعجز هو بحكمه و جبروته عن تحقيق أربه و غرضه، و لم يظفر بشيء في كل تلك المحاولات، فالنفوس تهفو إلى أهل البيت، ولا يزداد محبّوهم إلا منعة و تمسّكا. و الإمام الكاظم احتلّ منصب الإمامة، بالعهد، فكان أهلا لما قدر له و ما جرى به سابق علم الرب تعالى، فأى وجه للمدافعة و المقارنة بين سلطة تقوم بأمر الله و هدى الإسلام، و بين حكم يقوم بالقهر و الغلبة. و قد اتفق المخالف و المؤلف على عظيم منزلة الإمام الكاظم. روى الخطيب البغدادي: كان موسى بن جعفر يدعى العبد الصالح من عبادته و اجتهاده. روى أصحابنا أنه دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

ص: 451

1- (1) الاحتجاج للطبرسي ج 2 ص 163-165. و [1] عيون أخبار الرضا للصدوق. و نور الأبصار للشبلنجي.

فسجد سجدة في أول الليل، وسمع وهو يقول في سجوده: «عظيم الذنب عندي، فليحسن العفو عندك يا أهل التقوى يا أهل المغفرة» فجعل يرددتها حتى أصبح. وكان يبلغه عن الرجل أنه يؤذيه، فيبعث إليه بصرة فيها ألف دينار، وكان يصرّ الصّرر ثلاثمائة دينار و أربعمائة دينار و ماتى دينار، ثم يقسمها بالمدينة. وكان مثل صرر موسى بن جعفر إذا جاءت الإنسان الصرة فقد استغنى (1).

يقول الشبلخي: كان الإمام موسى الكاظم أعبد أهل زمانه وأعلمهم وأسخاهم كفا، وأكرمهم نفسا، وكان يتفقد فقراء المدينة، فيحمل إليهم الدراهم و الدنانير إلى بيوتهم ليلا، وكذلك النفقات، ولا يعلمون من أى جهة وصلهم ذلك إلا بعد موته اه.

و لم يتمكن الرشيد-بسلطانه الغاشم-من أن يحجب نور الإمام بحبسه الإمام الكاظم، بل كان المكلفون به لا يملكون إلا تقديسه و تبجيله، و من وراء القضبان كانت أخبار الإمام الكاظم أشدّ تأثيرا على العباسيين. عن عمار بن أبان يروى الخطيب، قال: حبس أبو الحسن موسى بن جعفر عند السندی، فسألته أخته أن تتولى حبسه- و كانت تتدين-ففعّل، فكانت تلى خدمته، فحكى لنا أنها قال: كان إذا صلى العتمة حمد الله و مجّده و دعاه، فلم يزل كذلك حتى يزول الليل، فإذا زال، قام يصلى حتى يصلى الصبح، ثم يذكر قليلا حتى تطلع الشمس، ثم يقعد إلى ارتفاع الضحى، ثم يتهيا و يستاك و يأكل، ثم يرقد إلى قبل الزوال، ثم يتوضأ و يصلى حتى يصلى العصر، ثم يذكر في القبلة حتى يصلى المغرب، ثم يصلى ما بين المغرب و العتمة، فكان هذا دأبه. فكانت أخت السندی إذا نظرت إليه قالت: خاب قوم تعرّضوا لهذا الرجل، و كان عبدا صالحا... اه. و تروى له الكرامات و الفضائل في السجون الأخرى التي كان بها الإمام الكاظم، و قد رويت في المصادر التي ذكرت سيرته عليه السّلام.

و كان الإمام الكاظم لا ينفكّ في سجنه يصف الرشيد بالطاغية، و يحذر حاشيته مما ينتظرهم على يديه، و أبى أن يعطى الدنيا في دينه فيقر للظلمة بسلطان أو يوافقهم على ما يريدون، فكان الإمام الكاظم غمّا على الرشيد ينغص عليه عيشه و ملذاته و لهوه، و قد حيّرت الرشيد الدلائل و المعجزات التي ظهرت للإمام الكاظم، فاستعان يحيى بن خالد البرمكى و قال له: يا أبا على أ ما ترى ما نحن فيه من هذه العجائب، ألا تدبّر في أمر هذا الرجل تدبيرا يريحنا من غمه؟ فقال له يحيى: الذى أراه لك يا

ص: 452



أمير المؤمنين أن تمنن عليه وتصل رحمه، فقد والله أفسد علينا قلوب شيعتنا. فقال هارون: انطلق إليه و أطلق عنه الحديد، وأبلغه عني السلام، و قل له: يقول لك ابن عمك إنه قد سبق مني فيك يمين أني لا أخليك حتى تقر لي بالإساءة و تسألني العفو عما سلف منك، وليس عليك في إقرارك عار و لا في مسألتك إياي منقصة. و لما قام يحيى بالمهمة حذره الإمام الكاظم مما ينتظره و قال له: «انظر إذا سار هذا الطاغية إلى الرقة و عاد إلى العراق لا- يراك و لا- تراه لنفسك، فإني رأيت في نجمك و نجم ولدك و نجمه أنه يأتي عليكم فاحذروه» ثم قال: «أبلغه عنى: يقول لك موسى بن جعفر، رسولى يأتيك الجمعة، فيخبرك بما ترى، و ستعلم غدا إذا حادثتك بين يدي الله من الظالم و المعتدى على صاحبه و السلام» (1).

و بعث إليه الإمام عليه السلام من الحبس رسالته التى يقول فيها: «إنه لن ينقضى عنى يوم من البلاء إلا انقضى عنك يوم من الرخاء، حتى تقضى جميعا إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون» (2).

و لقد كان من خوف الرشيد و فرعه من الإمام الكاظم أنه وضع العيون على الإمام الكاظم و هو فى سجنه، فكانوا يرفعون إلى الولاة و البلاط العباسى أحواله فى العبادة و أوضاعه فى الديانة، و كتب بعض العيون التى كانت عليه أنه سمعه عليه السلام يقول فى دعائه: «اللهم إنك تعلم أنى كنت سألتك أن تفرغنى لعبادتك، اللهم قد فعلت».

و بالجملة فإن الشيعة قد اتجهت إلى الإمام الكاظم و أخذت الوفود تقد على المدينة من الأقطار المختلفة للانتهال من علم الإمام و الاستفسار عن الأمور التى تهمها، و تحصيل الإجابات المطلوبة، و قد كان أخبار الأموال التى تحمل إلى الإمام من أكبر الأمور التى جعلت الرشيد فى حال من الضيق و الرعب. و نظر إلى طبيعة العلاقة بين الإمام و بين شيعة أهل البيت نظرتة إلى اعتبار الجباية و جمع الأموال أساس الملك، لأنها مصدر الإسراف و البذخ فى قصور العباسيين، و بها قوة الدولة، و حسب أن إقبال الناس على الإمام الكاظم، و أخبار جوده و سخائه بداية ثورة تقوّض ملكه و عرش آبائه. فكان يرى أن اختلاف الناس إلى إمامهم، و حملهم العبادات المالية المفروضة إلى جهتها الشرعية تمرّد عليه و حركة ضده، سيما و أن الإمام عليه السلام كان

ص: 453

1- (1) انظر الغيبة للشيخ الطوسى ص 20. [1]

2- (2) صفة الصفوة لابن الجوزى. و [2] تاريخ بغداد. [3]

يشعر الرشيد بأن له في السلطان الذى هو فيه رأى، إضافة إلى بيانه عليه السلام للرشيد بأن سلطة الرشيد هي على الجسوم، وأنه إمامها. بمعنى قائدها و سلطان زمانها، تنساق وراءه بحكم القوة و القهر، و أما سلطته عليه السلام فهي منصوبة على الإيمان بالعقيدة و الاقتداء بهدى الرسالة المحمدية، فقد بين له الإمام عليه السلام أن الدولة التي عليها ملكه و تخضع لحكمه هي بمنزلة ما يخص أهل البيت من الممتلكات، لَمَّا قال هارون للإمام الكاظم: خذ فدكا. و الإمام يمتنع، فلمَّا أُلح عليه قال: «ما أخذها إلا - بحدودها» قال: و ما حدودها؟ قال: «الحد الأول عدن»، فتغير وجه الرشيد قال:

و الحد الثاني؟ قال: «سمرقند» فارتدَّ وجهه، قال: و الحد الثالث؟ قال: «إفريقية».

فأسودَّ وجهه، قال: و الحد الرابع؟ قال: «سيف البحر مما يلي الخزر و أرمينية». فقال هارون: فلم يبق لنا شيء فتحول في مجلسي فقال الإمام: «قد أعلمتكم أنى لو حددتها لم تردّها». فعند ذلك عزم الرشيد على قتله (1).

و يعمد الرشيد إلى انتهاك حرمة بيت من بيوت الله كان موضع عبادة الإمام موسى الكاظم و محل حلقاته، فيأخذه من المسجد، و لما دخل به إليه، قيده في تلك الساعة. و تدلنا طريقة ترحيله للإمام الكاظم على مدى خوفه من الناس و توقعه أن يثوروا به و لا يتركوا ابن بنت نبيهم صلَّى الله عليه و آله و سلَّم يرسف بقيود الرشيد. و لكي يعمى أمره على الناس استدعى قبتين. فجعله في إحداهما على بغل، و جعل القبة الأخرى على بغل آخر، و خرج البغلان من داره عليهما القبتان مستورتان، و مع كل واحدة منهما خيل.

فافترت الخيل، فمضى بعضها مع إحدى القبتين على طريق البصرة، و الأخرى على طريق الكوفة، و كان الإمام في القبة التي مضى بها على طريق البصرة، و أمر القوم الذين كانوا مع قبة الإمام بأن يسلموه إلى عيسى بن جعفر بن المنصور - و كان على البصرة - فحبسه عنده سنة، و تنقل من حبس عيسى إلى حبس الفضل بن الربيع. فبقى عنده مدة طويلة، فأراد الرشيد على شيء من أمره، فأبى. فكتب إليه بتسليمه إلى الفضل بن يحيى، ثم إلى السندی بن شاهك (2).

و توفي الإمام في حبس السندی بن شاهك مسموما سنة 183 هـ و له خمس و خمسون سنة.

ص: 454

1- (1) تذكرة الخواص [1] نقلا عن ربيع الأبرار للزمخشري. [2]

2- (2) الإرشاد ص 281. و [3] الغيبة 23. و روضة الواعظين ص 220. و [4] نور الأبصار ص 151. و [5] الإتحاف ص 56. [6]

وذكر الشيخ الطوسي رحمه الله رواية محمد بن يعقوب عن شيخ من العامة ممن كان يقبل قوله قال: جمعنا السندي بن شاهك ثمانين رجلا- من الوجوه المنسوبين إلى الخير، فأدخلنا على موسى بن جعفر عليه السلام وقال لنا السندي: يا هؤلاء انظروا إلى هذا الرجل هل حدث به حدث، فإن أمير المؤمنين لم يرد به سوء وإنما ننتظر به أن يقدم لناظره وهو صحيح موسع عليه في جميع أموره، فسלוه وليس لنا هم إلا النظر إلى الرجل في فضله وسمته. فقال موسى بن جعفر عليه السلام «أما ما ذكره من التوسعة و ما أشبهها فهو على ما ذكر، غير إنني أخبركم أيها نفر إنني قد سقيت السم في سبع تمرات، وأنا غدا أحتضر، وبعد غد أموت» فنظرت إلى السندي بن شاهك يضطرب ويرتعد مثل السعفة (1).

و خلاصة القول أن الإمام موسى بن جعفر كان أكثر أولاد أبيه علما ودينا وزهدا، أحاطه الإمام الصادق بالرعاية مذ كان في مهده باعتبار الوصي والخليفة من بعده، فكان أجلّ ولد أبي عبد الله عليه السلام قدرا، وأعظمهم محلا، وأبعدهم في الناس حقا، ولم ير في زمانه أسخى منه ولا أكرم نفسا وعشرة، وكان أعبد أهل زمانه وأورعهم وأجلهم وأفقههم، واجتمع جمهور الشيعة على القول بإمامته والتعظيم لحقه والتسليم لأمره، ورووا عن أبيه عليهما السلام نصوصا كثيرة عليه بالإمامة، وإشارات إليه بالخلافة، وأخذوا عنه معالم دينهم، ورووا عنه من الآيات والمعجزات ما يقطع بها على حجية وصواب القول بإمامته (2).

## الإسماعيلية

:

قدمنا أبرز الوجوه في سيرة الإمام الكاظم لإظهار مسار الإمامة، والتعرف على الخصائص والفضائل التي تقطع القول، وهنا نبداً بعرض لحياة إسماعيل بن الإمام الصادق، ومسلك الانشقاق عن مسيرة الإمامة.

إن الروايات في إسماعيل لم تتطابق، ولا نذهب إلى أبعد من القول أن كونه أكبر أولاد الإمام الصادق كان سبب اللبس الذي وقع عند البعض، لأن الإمامة للأسن، ونعلم من صفته أنه كان أعرجا، فهو كأخيه عبد الله الأفطح، وإن كان أرجح الروايات تصف إسماعيل بحال يختلف عن عبد الله، ولكن الإمام الصادق الرجل

ص: 455

1- (1) الغيبة.

2- (2) الإرشاد. [1]

الذى استطاع أن يقود الأمة فى أخطر فترة وأشد معترك، وأن يفتح آفاق الفكر، ويرسى قواعد الفقه، ويتحاشى مأزق السلطان والسياسة، كان فى بيته الألب الحانى والمربى العالم الذى يظل أولاده بالعطف ويغذيهم بالهداية والنور، ويحبهم ويبرهم جميعا. ونحن على أن إسماعيل كان على الصلاح والهداية، وكان يلقى من الإمام الصادق حب الأب ورعاية الإمام، فالتقت صور العطف هذه مع كون إسماعيل أكبر أولاد الإمام الصادق فى تكوين الظن بأنه الإمام من بعد أبيه. وأما ما قيل من البداء فى هذا المورد وبهذا المفهوم فلا أساس له، لأن الإمام الصادق لم يشر إلى إمامة إسماعيل بالرغم من أن الأسئلة التى كانت توجه إليه كثيرة، وما روى عن الادعاء بالبداء، صادر من المخالفين الذين أباحوا لأنفسهم الكذب والتقول على الشيعة وأئمتهم كالجبرية (1) والبترية (2) وأصل أقوالهم التى نسبوها إلى الشيعة فى البداء كان فى تحولات الغلاة وبحثهم عن الأفكار التى تتسجم مع جذورهم كجماعات تسعى إلى إظهار ما جاءت عليه أيام الإسلام من عقائدهم، وأطلقوا هذه المقالة فى ظروف أصابهم الفشل فيها بعد أن حاولوا فى غلوهم وانحرافهم -الانتساب إلى ثورة محمد النفس الزكية (3) وقد كان المغيرة بن سعيد يدعى الصلة بمحمد بن عبد الله بن الحسن، ويقول أن الإمام على زين العابدين عليه السلام أوصى إليه، وأن النفس الزكية أذن له فى أمور منها: خنق الناس (4).

ولما فشلت تلك الثورة وقتل محمد وأخوه إبراهيم، ادّعوا أن الشيعة وضعت البداء، لكى لا يظهر من أئمتهم القول بخلاف ما أخبروا به.

والتاب الذى لا يرقى إليه الشك هو أمر وفاة إسماعيل فى حياة الإمام الصادق.

ذكر ابن خلدون أنه توفى فى حياة أبيه فى العريض فى المدينة المنورة، ودفن بالبيع سنة 145 هـ (5) ويقول المقرئى: إن إسماعيل توفى سنة 138 هـ وجعفر والده لا

ص: 456

1- (1) اتباع سليمان بن جرير من الفرق [1] الزيدية قال بأن الإمامة شورى وأنها تتعقد بعقد رجلين من خيار الأمة، وأجاز إمامة المفضل، ويذكر البغدادي أن بعض أصحاب التواريخ ذكروا أن سليمان بن جرير سم إدريس بن عبد الله بن الحسن، ويسمى الشهرستانى السليمانية.

2- (2) اتباع الحسن بن صالح بن حى وكثير النواء الأبر، وهم كالجبرية وقد توقفوا فى عثمان.

3- (3) انظر الفرق بين الفرق ص 148.

4- (4) شرح ابن أبي الحديد ج 2 ص 309. [2]

5- (5) تاريخ ابن خلدون ج 3 ص 360.

يزال على قيد الحياة (1) كما أن تواتر ذكر الإمام الصادق عند وفاة ابنه إسماعيل لما بدا لله يفيد أن الله أظهر بوفاة إسماعيل ما كان في سابق علمه من جعل الإمامة في الأشخاص الذين خلقوا لتحملها. واختلاف التواريخ لا يخرج عن فترة بقاء الإمام الصادق على قيد الحياة.

ولما توفى إسماعيل حزن عليه الإمام الصادق حزنا عظيما. وأمر بوضع سريره على الأرض قبل دفنه مرارا كثيرة، وكان يكشف عن وجهه و ينظر إليه يريد بذلك تحقق أمر وفاته عند الظالمين خلافته له من بعده، وإزالة الشبهة لهم في حياته (2).

و كان موت إسماعيل -رحمه الله- قد أزال الظن والوهم اللذين وقع فيهما بعض أصحاب الإمام الصادق.

أما الآخرون الذين تصفهم المصادر بالأبعد والأطراف، وليسوا من خاصة الإمام الصادق، منهم الذين ادعوا بقاء حيا وإنه لم يموت، وتلك مقولة الغلاة في كل زمن، وعقيدتهم التي يقتربون بها من الحلول والتناسخ. فأنكرت موت إسماعيل، وقالوا: كان ذلك على جهة التلبيس من أبيه على الناس لأنه خان، فعيبه عنهم، وزعموا أن إسماعيل لا يموت حتى يملك الأرض، يقوم بأمر الناس، وأنه هو القائم، لأن أباه أشار إليه بالإمامة بعده وقلده ذلك (3). ولو لا هؤلاء الذين ظلوا يتربصون، لما كانت قضية موت إسماعيل تصل إلى هذا الحد من الأهمية، وقد تولى كتاب الفرق القول بإمامة إسماعيل. لأنه أدنى إلى الإساءة إلى الشيعة، ومن طريقه يسهل نسبة كل فرقة إلى الشيعة، ويتحمل الشيعة الاثنا عشرية تبعه هذه الأقوال، ويجرى بين الأمة الإسلامية إطلاقات ومقولات هؤلاء، فتتلقاها بالقبول والاطمئنان.

يقول المقرئ:

و كانت الشيعة فرقا، فمنهم من كان يذهب إلى أن الإمام من ولد جعفر الصادق هو إسماعيل ابنه، وهؤلاء يعرفون من بين فرق الشيعة بالإسماعيلية من أجل أنهم

ص: 457

1- (1) اتعاظ الحنفا.

2- (2) التكملة للشيخ عبد النبي الكاظمي ج 1 ص 192 نقلا عن أعلام الوري. [1]

3- (3) فرق النوبختي ص 67-68. [2]

يرون أن الإمام من بعد جعفر ابنه إسماعيل، وأن الإمام بعد إسماعيل بن جعفر الصادق هو ابنه محمد المكنوم (1).

وفي الوقت الذي يذكر البغدادي في الفرق بين الفرق لفظ الزعم لتجنب القطع أو الجزم، يقول الشهرستاني بما عرف عنه من تعصب و تحامل أن الإمام إسماعيل هو الابن الأكبر للإمام جعفر الصادق، وهو الذي نصّ عليه في بدء الأمر، ولقد حدث الاختلاف على موته.

ويذهب ابن الجوزي في المنتظم بعيداً، فيدرج معهم في هذا المسلك الخرمية والبابكية والمحمّرة، وأن آرائهم ومذاهبهم أخذوا بعضها من المجوس وبعضها من الفلاسفة، وأنهم دخلوا تحت ستار ذكر ظلم السلف الأشراف من آل النبي، ودفعهم عن حقهم، وقتلهم وما جرى عليهم من الذل، فتنصروا وتكاتفوا، وانتسبوا إلى إسماعيل بن جعفر بن محمد الصادق.

و ابن الجوزي يقصد بذلك الغلاة الذين سبق ذكر حركتهم في أكثر من موضع وبحث في سياق الكتاب، والذين تصدى الإمام الصادق لحركتهم وتبرأ منهم، ولما مات عليه السلام قالوا أن الإمام الصادق حي لم يموت ولا يموت حتى يظهر ويلى أمر الناس، وإنه هو المهدي، وزعموا أنهم رووا عنه أنه قال: إن رأيتم رأسي قد أهوى عليكم من جبل فلا تصدقوه، فإني أنا صاحبكم. وإنه قال لهم: إن جاءكم من يخبركم على أنه مرضني و غسلني و كفنني فلا تصدقوه فإني صاحبكم صاحب السيف.

و لا يمكن الجزم بأن الغلاة هم قوم الفرقة الإسماعيلية. لأن أولئك الذين يصفهم العلماء بالأبعد مع أنهم ليسوا من خاصة أصحاب الإمام الصادق وأنهم من الأطراف، يحتمل وجود من أقام على الظن وبقى على الاعتقاد الذي أراد الإمام الصادق إزالته و منعه، فظلت (إسماعيلية) خالصة تدين بإمامة إسماعيل، ومنها ما كان بالاتصال بإسماعيل كالمباركية التي تزعمها مبارك مولى إسماعيل، فزعمت أن الإمام بعد الإمام الصادق هو محمد بن إسماعيل، وقالوا: إن الأمر كان لإسماعيل في حياة أبيه، فلما توفي قبل أبيه جعل جعفر بن محمد الأمر لمحمد بن إسماعيل، وكان الحق له، و لا يجوز غير ذلك، لأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد الحسن

ص: 458

و الحسين عليهما السلام ولا تكون في الأعقاب، ولم يكن لأخوى إسماعيل عبد الله و موسى في الإمامة حق كما لم يكن لمحمد بن الحنفية حق على بن الحسين.

و غيرها من المعتقدات و الآراء التي تتصل بنشوتها و اتصالها بعقائد الشيعة إلى أن تنتهي إلى هذه الفترة من الزمن و حدوث الاختلاف بعد وفاة الإمام الصادق، و على ذلك فلا نريد أن نظلم إخواننا من الإسماعيلية الذين آمنوا بعمق و عقيدة بوصاية النبي للإمام على عليه السلام، و توليهم الأئمة المعصومين، إلى أن كانت الأقوال التي التزموها و ابتعدوا بها عن منهاج الشيعة.

و أن الفاطميين على لسان قاضيهم النعمان تبرءوا من الغلاة، و التزموا موقف الشيعة، و أنكروا أقوال أبي الخطاب. قال القاضي النعمان: (ثم كان أبو الخطاب في عصر جعفر بن محمد من أجلّ دعائه (!) فأصابه ما أصاب المغيرة. فكفر و ادعى أيضا النبوة. و زعم أن جعفر بن محمد إله، تعالى الله عن قوله، و استحل المحارم كلها، و رخص فيها، و كان أصحابه كلما ثقل عليهم أداء فريضة. أتوه و قالوا: يا أبا الخطاب، خفف علينا في أمرهم بتركها، حتى تركوا جميع الفرائض و استحلّوا جميع المحارم و ارتكبوا المحظورات، و أباح لهم أن يشهد بعضهم لبعض بالزور. و قال: من عرف الإمام فقد حل له كل شيء كان حرم عليه، فبلغ أمره جعفر بن محمد (...). فلم يقدر عليه بأكثر من أن لعنه و تبرأ منه، و جمع أصحابه و عرفهم ذلك و كتب إلى البلدان بالبراءة منه و باللعنة عليه، و عظم ذلك على أبي عبد الله جعفر بن محمد (...). و استفضه و استهاله (1). و يبدو أن القاضي المغربي يجهل تفاصيل ما قام به الإمام الصادق من جهد في دحض و فضح أفكار الغلاة حتى كان لا ينام الليل، و إن كان قوله فيما قدر عليه الإمام الصادق يحتمل إرادة ما يقوم به الحكام من المحاربة بالسيف كعيسى بن موسى العباسي عامل الكوفة، و إذا كان غير ذلك فلا وجه لقوله.

و مهما يكن من أمر فرقة الإسماعيلية و الاختلاف في إسماعيل، فإن التاريخ يجهل جهلا يكاد يكون تاما كيفية بدء الدعوة لإمامة إسماعيل، فلا يعرف أول من دعى لإمامته، كما لا يمكن تحديد عوامل تأخير ظهورها إلى الوجود، فالتاريخ لم يعرف شيئا اسمه الفرقة الإسماعيلية حتى أواخر القرن الثالث الهجري، و هو بدء ظهور

ص: 459

1- (1) دعائم الإسلام ج 1 ص 63 (1) [الهفت-غالب].

حركتهم، وإذا كان ذلك دور الستر في معتقدات الإسماعيلية. فإن أقوال الإسماعيلية عن هذا الدور هي الأقوال الوحيدة التي تظهر أسباب التستر والاختفاء متعلقة بالدعوة وقيامها على الشكل الذي يدعون إليه، وهم دائما يتحدثون عن تاريخ أئمتهم في هذه الفترة بشيء من عدم التطابق في العدد والوقائع.

ولكن الثابت أنه بعد وفاة الإمام الصادق عليه السلام انتقل فريق منهم إلى القول بإمامة موسى بن جعفر عليه السلام بعد أبيه عليه السلام وافترق الباقرين، فريق منهم رجعوا عن حياة إسماعيل وقالوا بإمامة محمد بن إسماعيل لظنهم أن الإمامة كانت في أبيه وأن الابن أحق بمقام الإمامة من الأخ. وفريق ثبتوا على حياة إسماعيل. ويقول الشيخ المفيد - رحمه الله - المتوفى سنة 413: (وهم اليوم شذاذ لا يعرف منهم أحد يومى إليه، وهذان الفريقان يسميان بالإسماعيلية، والمعروف منهم الآن من يزعم أن الإمامة بعد إسماعيل في ولده وولد ولده إلى آخر الزمان). ١٥.

وقد أعقب إسماعيل محمدا وعليًا. ونحن بإزاء الاثنين نلمس في سيرتهما تلك الآثار النفسية التي تحدث في الأبناء انحيازًا للأب في مجال الأسرة الواحدة كأي بشر ينقاد إلى العواطف وينجر إلى الأهواء، وهذه الآثار لا علاقة لها بالتهيب للإمامة، فليس هناك ما يثبت أن محمدا قد تطلع على عهد جده الإمام الصادق إلى شيء من الإمامة أو أنه أعد لها نفسه، إذ يفترض حسب الادعاء أن يكون من نصب بعد وفاة إسماعيل وفي حياة الإمام الصادق عالما بما نصب له.

و السيد ابن عنبه في العمدة يذكر قول شيخ الشرف العبيدلى: هو - إسماعيل - إمام الميمونية وقبره ببغداد. وقول ابن خداع: كان الإمام موسى الكاظم عليه السلام يخاف ابن أخيه محمد بن إسماعيل ويبرّه، وهو لا يترك السعى به إلى السلطان من بنى العباس. كما ينقل السيد ابن عنبه قول أبو نصر البخارى: كان محمد بن إسماعيل بن الصادق عليه السلام مع عمه موسى الكاظم عليه السلام يكتب بالسر إلى شيعته في الآفاق، فلما ورد الرشيد الحجاز، سعى محمد بن إسماعيل بعمه إلى الرشيد فقال: أعلمت أن فى الأرض خليفتين يجبى إليهما الخراج؟ فقال الرشيد: ويلك أنا ومن؟ قال: موسى بن جعفر. وأظهر أسرارهم، فقبض الرشيد على موسى الكاظم عليه السلام وحبسهم و كان سبب هلاكه، وحظى محمد بن إسماعيل عند الرشيد، و خرج معه إلى العراق ومات ببغداد، ودعا عليه موسى بن جعفر عليه السلام بدعاء



استجابہ اللہ تعالیٰ فیہ و فی أولادہ، ولما لیم موسیٰ بن جعفر علیہ السّلام فی صلة محمد بن إسماعیل و الاتصال مع سعيه به قال: «إني حدثني أبي عن جده عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: الرحم إذا قطعت فوصلت، ثم قطعت فوصلت، ثم قطعت فوصلت، ثم قطعت قطعها الله تعالى، وإنما أردت أن يقطع الله رحمه من رحمي» (1).

أما علي بن إسماعيل فقد وردت الرواية به بهذا الخصوص، وهي المرجحة، لأن أبطالها البرامكة، ولكن ظهور اسم محمد في تاريخ الفرقة الإسماعيلية على اسم أخيه علي يعطى الأولى أهمية، و دور علي بن إسماعيل مهم أيضا لعلاقته بالبرامكة الذين أخفوا مجوسيتهم، وكانوا مدار سياسة العداء للعلويين في زمنهم، حتى انتقم الله من ظلمهم لآل بيت النبي الأطهار علي يد ظالم آخر. و الرواية عن النوفلي عن أبيه عن مشايخهم قالوا: إن السبب في أخذ موسى بن جعفر عليه السّلام أن الرشيد جعل ابنه في حجر جعفر بن محمد بن الأشعث، فحسده يحيى بن خالد بن برمك على ذلك وقال: إن أفضت إليه الخلافة زالت دولتي و دولة ولدي. فاحتال علي جعفر بن محمد -و كان يقول بالإمامة- حتى داخله و أنس به، فكان يكثر غشيانه في منزله، فيقف على أمره و يرفعه إلى الرشيد، و يزيد عليه في ذلك بما يقدر في قلبه. ثم قال لبعض ثقاته أ تعرفون لي رجلا- من آل أبي طالب ليس بوسع الحال يعرفني ما احتاج إليه؟ فدلّ علي بن إسماعيل بن جعفر بن محمد، فحمل إليه يحيى بن خالد مالا، و كان موسى عليه السّلام يأنس بعلي بن إسماعيل و يصله و يبرّه، ثم أنفذ إليه يحيى بن خالد يرغبه قصد الرشيد و يعده بالإحسان إليه، فعمل علي ذلك، فأحسّ به موسى عليه السّلام فدعا به و قال له: «إلى أين يا ابن أخي؟» قال: إلى بغداد. قال الإمام: «و ما تصنع؟» قال: عليّ دين و أنا مملق. فقال له الإمام موسى الكاظم عليه السّلام: «أنا أقضى دينك و أفعل لك و أصنع». فلم يلتفت إلى ذلك، و عمل على الخروج. فاستدعاه أبو الحسن عليه السّلام و قال له: «أ أنت خارج؟» قال: نعم، لا بد لي من ذلك. فقال له:

«انظر يا ابن أخي و اتق الله و لا توتّم أطفالي» و أمر له بثلاثمائة دينار و أربعة آلاف درهم، فلما قام من بين يديه قال لمن حضره: «و الله ليسعين في دمي و يويتمن أولادي» فقالوا:

جعلنا فداك، أو أنت تعلم هذا من حاله و تعطيه و تصله؟ قال: «نعم، حدثني أبي عن

ص: 461

آبائه عن رسول الله...» الحديث... فخرج على بن إسماعيل حتى أتى يحيى بن خالد فعرف من خبير الإمام موسى بن جعفر، فرفعه إلى الرشيد، وسأله الرشيد عن عمه فسعى به إليه وقال له: إن الأموال تحمل إليه من المشرق والمغرب، وإنه اشترى ضيعة سماها البشيرة بثلاثين ألف دينار... ثم خرج يحيى بن خالد على البريد حتى وافى بغداد، ثم دعا السندي بن شاهك فأمره في موسى بن جعفر بأمره فامتثل، وكان الذي تولى به السندي بن شاهك وضع له سما في طعام قدام إليه. ويقال أنه جعله في رطب، فأكل منه موسى، وأحس بالسّم، ولبث بعده ثلاثاً موعوكاً، ثم مات في اليوم الثالث... وأخرج ووضع على الجسر، فأمر يحيى بن خالد أن ينادى عليه عند موته:

هذا موسى بن جعفر الذي تزعم الرافضة أنه لا يموت فانظروا إليه (1).

والإسماعيليون يعدّون البرامكة إسماعيلية على مذهبهم، وكذلك زبيدة زوجة الرشيد هي الأخرى إسماعيلية، وينفون عنها تدبير قتل البرامكة (2).

يقول النوبختي: فأما (الإسماعيلية) فهم «الخطابية» أصحاب (أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي الأجدع) وقد دخلت منهم في فرقة محمد بن إسماعيل، وأقروا بموت إسماعيل بن جعفر في حياة أبيه، وهم الذين خرجوا في حياة أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام.

وكانت الخطابية بعد براءة الإمام الصادق عليه السلام منهم ولعنهم والوقوف بوجه إلحادهم وزندقته، قد تفرقوا فصاروا أربع فرق، وكان أبو الخطاب يدعى أن الإمام الصادق جعله قيمه ووصيه من بعده، وعلمه اسم الله الأعظم، ثم ترقى إلى أن ادعى النبوة، ثم ادعى الرسالة. ثم ادعى أنه من الملائكة، وأنه رسول الله إلى أهل الأرض والحجة عليهم. ففرقة منهم قالت: إن أبا عبد الله جعفر بن محمد هو الله جلّ وعزّ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وأن أبا الخطاب نبي مرسل أرسله جعفر، وأمر بطاعته، وأحلّوا المحارم من الزنا والسرقه وشرب الخمر، وتركوا الزكاة والصلاة والصيام والحج. وأباحوا الشهوات بعضهم لبعض وقالوا: من سأله أخوه ليشهد على

ص: 462

- 
- 1- (1) الإرشاد 279-280. و [1] الغيبة 21. و روضة الواعظين ص 218. و [2] مقاتل الطالبين ص 501-502. و [3] كشف الغمة في معرفة الأئمة للإربلي ص 247. [4]
- 2- (2) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص 145. [5]

مخالفه فيصدقته ويشهد له، فإن ذلك فرض عليه واجب. وجعلوا الفرائض رجالا سمّوهم، والفواحش والمعاصي رجالا وتأولوا قول الله عز وجل: يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ. وقالوا: خفف عني الخطاب، ووضع عنا الأغلال والآصار، يعنون الصلاة والزكاة والصيام والحج، فمن عرف الرسول النبي الإمام، فليصنع ما أحب. وفرقة قالت بزيع نبي رسول مثل أبي الخطاب، أرسله جعفر بن محمد، وشهد بزيع لأبي الخطاب بالرسالة، ويرى أبو الخطاب وأصحابه من بزيع. وفرقة قالت: السري رسول مثل أبي الخطاب، أرسله جعفر وقال: إنه قوى أمين، وهو موسى القوى الأمين، وفيه تلك الروح، وجعفر هو الإسلام، والإسلام هو السلام وهو الله عز وجل، ونحن بنو الإسلام كما قالت اليهود: نَحْنُ أَوْلَادُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ. وقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: سلمان ابن الإسلام. فدعوا إلى نبوة السري ورسالته، وصلوا وصاموا وحجوا لجعفر بن محمد، ولتبوا له فقالوا: لبيك يا جعفر لبيك.

وفرقة قالت: جعفر بن محمد هو الله عز وجل، وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، وإنما هو نور يدخل في أبدان الأوصياء فيحل فيها، فكان ذلك النور في جعفر، ثم خرج منه فدخل في أبي الخطاب، فصار جعفر من الملائكة، ثم خرج من أبي الخطاب فدخل في معمر (1).

وجميع ما نجم عن حركة الغلاة وانتسب إلى أبي الخطاب لا يخلو من الادعاء بالربوبية والنبوة، وأغلبها تقول ببقاء الأموات، والزعم أن معبودهم لا يموت، فالمعمرية عبدوا أبا الخطاب كما عبدوا معمرا هذا، وقد كان رجلا يبيع الحنطة، وزعموا أن الدنيا لا تقنى، وأن الجنة هي ما يصيب الناس من العافية والخير، وأن النار ما تصيب الناس من خلاف ذلك. وقالوا بالتناسخ، وأنهم لا يموتون ولكن ترفع أرواحهم إلى السماء وتوضع في أجساد غير تلك الأجساد، واستحلوا الخمر والزنا وسائر المحرمات، ودانوا بترك الصلاة (2).

ولا شك أن حركة الغلاة هي حركة سياسية إضافة إلى كونها حركة دينية ضمت بقايا العقائد والأديان التي محق الإسلام وجودها، واجتث جذورها، ولما ظهرت

ص: 463

1- (1) انظر فرق النوبختي 42-44. [1]

2- (2) الحور العين [2] لابن نشوان ص 167.

بوادرها كان ظهورها في ضلال الحكّام و حواشى عظمتهم. و استطاع الظلمة و المتجبرون أن يجعلوها سلاحا فتاكا في حملتهم ضد أهل البيت و شيعتهم، فأسهموا في نشاط تلك الفرق، و سهّلوا لهم التظاهر و الادعاء بحب أهل البيت، و قد عالج الأئمة الأطهار عليهم أفضل الصلاة و السّلام مشكلة تسلل الغلاة و دخولهم في صفوف المسلمين، فكان الإمام الصادق يلعن أبا الخطّاب و أصحابه و جميع الدعاة إلى الألحاد و الغلو، و يفضح أصولها و مصادرها، و من أقواله عليه السّلام: «إنّما أهل بيت صادقون لا نعدم من كذّاب يكذب علينا عند الناس، يريد أن يسقط صدقنا بكذبه علينا». ثم ذكر المغيرة و بزيح و السرى و أبا الخطّاب و معمر و بشّار الشعيرى و حمزة اليزدى و صائد النهدي فقال: «لعنهم الله أجمع، و كفانا مؤونة كل كذاب».

و قال عليه السّلام: «إن قوما يزعمون أنى لهم إمام، و الله ما أنا لهم بإمام، مالهم لعنهم الله، أقول كذا و يقولون كذا. إنّما أنا إمام من أطاعنى. و من قال بأننا أنبياء، فعليه لعنة الله. و من شك في ذلك فعليه لعنة الله» (1).

و إذا كان الفاطميون قد أملوا على قاضيه أن يثبت البراءة من أبى الخطّاب لتتزيه معتقداتهم، فإن بقية الإسماعيلية لم يوافقوهم على ذلك، كما لم يوافقوهم على أعمالهم الأخرى كمحاربتهم القرامطة و التصدّى لجرائمهم، و قد ألمحنا إلى أن التاريخ الإسماعيلى يظهر عليه الاضطراب و عدم الانسجام، لأن هناك فراغا و ثغرات ظلت ظاهرة لم تنفع في ملئها المحاولات الكثيرة، و قد أدى ذلك إلى أقوال غير واقعية، و آراء لا نصيب لها من الصحة، كالقول بأن بذور حركة الإسماعيلية قد بذرت في عهد جعفر بن محمد. يقول عارف تامر- و هو من الإسماعيلية-: و لا يوجد هناك من يستطيع إنكار هذه الحقيقة، و قد كانت هذه الدعوة سرّية، و كان يعمل لها في الخفاء إسماعيل بحياة أبيه، يعاونه الداعية الكبير أبو الخطّاب، و جاء بعد إسماعيل ولده محمد، و كان على جانب كبير من العبقرية و الثقافة راجح الفكر ثاقب النظر (2).

و هذا تحكّم واضح، و قول يبعد عن الواقع، و لا أساس له من الصحة، و لكنه يعتقد كبقية الإسماعيلية أن محمد بن إسماعيل خرج من المدينة إلى الكوفة مصحوبا بأخيه و جماعة حركته، و استتر، فبنوا تاريخا لمحمد بن إسماعيل على مقتضى التنظيم

ص: 464

1- (1) انظر بحث: الغلاة، المجلد الأول، الجزء الأول من الإمام الصادق و المذاهب الأربعة. [1]

2- (2) مقدمة كتاب عبقرية الفاطميين لمحمد حسين الأعظمى ص 14.

السرى و الحركة الباطنية، وأنكروا ما تذكره المصادر و تثبته الحقائق من التحاق محمد بركب العباسيين و تحكم المنفعة و الرغبة فى الدنيا حتى حملته إلى الموت فى بغداد.

و يحدد الأستاذ تامر عام 128 هـ تاريخاً لنشأة الإسماعيلية كدعوة دينية (من قبل الفقيه المتشرع الإمام جعفر الصادق) ثم يقول إنها بدأت تتحول إلى حركة سياسية عام 259 هـ.

و لا- نريد الخوض فى مناقشة مثل هذه الآراء لأنها تكشف عن نفسها، و لا نرغب بالإطالة فى بحث الإسماعيلية و الإمامة، فالمصادر الإسماعيلية التى يستقى منها الكتاب المعاصرون- تامر و غيره- تشير إلى مثل هذا الادعاء، و قد قلنا أننا أن الحركة الإسماعيلية اختارت الوقائع و المعتقدات المهمة فى تاريخ الشيعة، و ساقى انفصالها و انشقاقها عن المذهب الجعفرى فى صياغه مشابهة، فاختارت مبدأ التقية لدى الشيعة ليكون ذريعة للقول بالتنظيم السرى الباطنى القائم على الرموز و المعانى التى لا صلة لها باللغة أو مبادئ التفسير. فالتقية عند الشيعة عمل بقوله تعالى: لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً .

و قد كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يوصى بالتقية و يأمر بها، و ليس ذلك منه إقراراً، فقد علم تشدده فى الحق، و عدم خشيته أحداً غير الله، لكنه أمر بها لأنها من الأمور التى يحكم بها العقل و السمع. أما من حيث العقل فالأولى أن يجنب الإنسان نفسه شرور من يستطيع أن يناله بشرراً إما بسلطة أو قوة أو ظرف، فيتقى شره و يحفظ حياته. و أما من حيث السمع، فإن قصة أصحاب الكهف و فرارهم بدينهم: إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَ وَقائع دعوة موسى: إِذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقَوْلَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا وَ غيرها من الأحداث الكثيرة كافية لإظهار أن التقية- أو مبدأ تجنب المخاطر و حفظ الوجود- من أوامر الشرائع، و قد قال الله عز و جل لنبيه الكريم: إِذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ثم تأتى الآية التى تنص على التقية فى العلاقة مع المشركين أو السماع ببعض الأعمال: فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ مَا نَزَلَ فِي حَقِّ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ: إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَ عَلَى ذَلِكَ رَأَيْنَا كَيْفَ كَانَ تَوْجِيهِ الإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَصْحَابِهِ وَ التَّزَامِ التَّقِيَّةِ. وَ نَرَى كَيْفَ يَخَاطَبُ الأئمة عليهم السلام

الظلمة والعتاة بإمرة المؤمنين للإبقاء على حياتهم وكفّ شرور الحكّام الطغاة عن شيعتهم، وكل الأعمال المعهودة في تطبيق التقيّة لا تحتمل أكثر من مقاصدها التي أذن بها الشرع، فإن الأئمة عليهم السّلام كانت مناهج سيرهم واضحة، وأقوالهم في معاهدتهم وبيوتاتهم معروفة. وما يصدر عنهم في مقابلة الملوك و سلاطين الزمان بالقدر الذي يوجبه الشرع لحفظ النفس، وكذلك رجال الشيعة وقادتها عملوا بأوامر الشرع و طبقوا توجيهات أئمتهم في حال الاضطراب. وإلى هنا ينتهي أمر التقيّة، أي عند الحدود التي تكفل إبعاد الخطر و دفع الشر، فليس من تقيّة الشيعة التخيّي، والنظام القائم على السريّة و الرموز و الأرقام و الإشارات التي تخص أقواما خلت و مذاهب سالفة.

وقد استغل الإسماعيليون مذهب التقيّة في سبيل أغراضهم و مصالحهم فكانوا سنيين مع أهل السنة و(شيعيين) مع الشيعة و مسيحيين مع المسيحية (1).

كذلك أدعى الإسماعيلية التدبير الذي رآه الإمام الصادق لحفظ حياة وصيه و خليفته الإمام موسى الكاظم و قالوا: إن قصة وفاة إسماعيل بن جعفر في حياة أبيه كانت قصة أراد بها الإمام جعفر الصادق التمويه و التغطية على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور الذي كان يطارد الشيعة في كل مكان، فخاف جعفر الصادق على ابنه و خليفته إسماعيل، فادّعى موته (2). و قالوا إن موسى الكاظم لم يجعله الصادق إماما إلا ستر على ولى الأمر (محمد بن إسماعيل) ليكتّم أمره على الأضداد، و لتلا يطلع ما خصّ به أهل العداوة و العناد حتى يستطيع الإمام المستقر الحقيقي النهوض بأعباء الدعوة سرا (3). و لا تنفق الإسماعيلية على موت إسماعيل في حياة أبيه، فمنهم من يرى ذلك، و منهم من ينكر موته، و أنه بقي حيّا و شوهد في البصرة. و مهما يكن من قول فإنهم أقنعوا أنفسهم بالادعاء بالنص، و جعلوه مادة لبحوثهم و أفكارهم قالوا:

ولما وجدناه قد نصّ عليه، كان منه العلم بأنه غير منقطع النسل و العقب، و إذا كان غير منقطع النسل و العقب فالإمامة له و لنسله ثابتة، و إن كان (م.ع) لم ينص على أحد بعد نصه على إسماعيل (م.ع) فالإمامة لإسماعيل، فإذا ثبتت إمامة إسماعيل ثبت

ص: 466

1- (1) عبقرية الفاطميين ص 18.

2- (2) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص 16. [1]

3- (3) زهر المعاني [2] للداعي إدريس ص (48-49)-غالب-أعلام الإسماعيلية.

نسله. إذا لا يستحق الإمامة من لا يكون له عقب بكونها محفوظة في العقب، وإذا ثبت نسله فالإمامة لنسله ثابتة (1).

و يدعون: بما أن إسماعيل هو صاحب الحق الشرعي في الإمامة بعد أن نص أبوه علي ذلك، فلا بد إذن أن تتسلسل الإمامة في ابنه محمد بن إسماعيل. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية كان محمد بن إسماعيل أكبر سنا من عمه موسى الكاظم اه.

فإذا عدنا إلى تاريخ ولادة إسماعيل نجد أن ولادته كانت سنة 132 هـ فيما كان الإمام موسى الكاظم عليه السلام قد ولد سنة 128 هـ. أما وجوه المقارنة الأخرى فهي واضحة ولا تحتاج إلى جهد في الردّ والنقاش، لأنها لا تثبت أمام الحجج، فليس هناك من نص على إسماعيل بالمرّة. كما أنه لم يجمع مؤهلات الخلافة، ولم يصلح لها بعد أبيه، ولكن الإسماعيلية ادّعوا ذلك، وأيدوا دعواهم بما لا يصلح للتأييد ورد الاعتراض وأن وفاة إسماعيل في حياة أبيه و ما ذهبوا إليه من التمويه من قبل الإمام الصادق إنما هو من صنائع الغلو، والقصة خيالية وضعها المغالون في هذا المبدأ من مؤرخي وكتّاب الإسماعيلية الذين يكثرون من أمثال هذه القصص في كتاباتهم ليضيفوا على الأئمة الإسماعيلية مناقب وفضائل لا يقرّها عقل (2).

وإن الخوض في غمار البحث عن الطائفة الإسماعيلية ونشأتها ومقومات دعوتها أمر يخرجنا عن الغرض الذي من أجله تعرّضنا لذكر أولاد الإمام الصادق عليه السلام ولكننا رأينا أنفسنا ملزمين بهذه الدراسة إلى التعرّض لبعض ما يتعلق بتاريخ هذه الفرقة في إطار ادعائها بالإمامة ومعقداتها. وسنقتصر على الجوانب الأساسية فيما يلي من البحث.

إن الوقائع التاريخية لا يضيرها الادعاء ولا تؤثر عليها في جوهرها محاولات التغيير والتحريف، فإذا ما خيل للمتسلّطين أن كثرة اللغط بما أرادوه وزيادة التردد لما افتعلوه قد حسم ما كان يهددهم وقطع ما كان يقصّ مضاجعهم، فليس ذلك من الحقيقة في شيء. وأنا أذكر ذلك، وقصدى ما تجنّى الحكام الجائرون به من أقوال و دسائس ومؤامرات على الأئمة الأطهار من آل البيت رضوان الله عليهم، وما كان

ص: 467

1- (1) المصاييح في إثبات الإقامة لأحمد حميد الدين الكرمانى ص 130.

2- (2) الطائفة الإسماعيلية، الدكتور محمد حسن كامل ص 3.

لأصحاب العروش من زبانية و أذئاب سايروهم على الكذب و أقروهم على الظلم، و لكن تاريخ و حقائق الأئمة الأطهار و شيعتهم بقى جليا ناصعا برغم كل نتائج الملوک الفساق و الظالمين، و قد شمّر رجال الشيعة عن ساعد الجدّ، و بذلوا أقصى الجهود منذ مئات السنين لإظهار تلك الحقائق، فما كان الإمام على إلا وصيًا، و أول القوم إسلاما و أقدمهم إيمانًا، و هكذا كل وصى من ذريته، حتى إمامنا و مولانا الصادق عليه السّلام.

فلم يكن إلا صاحب الإمامة و الخلافة الكبرى الذى تنطق بفضائله الآثار، و تصرخ بمكائنه الحقائق، و الذى واجه ظروفًا شائكة و أوضاعًا صعبة تجلّت عناية الرب و تسديده فيما ألهمه الله من حكمة استطاع بها أن يحمى نفسه و يحفظ وجود شيعته.

و هكذا إذا تسلسلنا فى البحث حتى غيبة الإمام الثانى عشر حجة الله القائم بأمره صاحب الزمان المهدي عجل الله فرجه.

و قد حملنى على هذا التلميح دواعى الاستجابة لروح الإخاء و المودة التى أراها عند الكثير من الأخوة الإسماعيلية، فأثرت أن المح بمجمل الإمارات الهامة فى تاريخ الشيعة لأدخل منها إلى القول بأن الأخوة الإسماعيلية لم ينتبهوا إلى أصل و سبب الاختلاف و الاضطراب الذى يحيط بالأحداث الأساسية التى تتعلق بتاريخهم. و ذلك من حيث المواقع التى تجرى عليها، و الأشخاص و التفاصيل، و من الطبيعى حدوث ذلك لأنها محاولات تبني عبر عصور متلاحقة، و أقوال تنشأ فى أزمان متعددة، و الأصل أو الحقيقة تأبأها.

و مع هذا النظام السرى و القول الباطنى، ارتكب الإسماعيليون خطأهم بأن أباحوا للمستشرقين التلاعب فى آثارهم، و اعتمدوا عليهم فى التحقيق و الإخراج، بحيث تجدهم يرون فى أحكام المستشرقين على الآثار و النصوص الصحة و لا يتطرق إليهم الشك، و ما من مستشرق- إلا ما كان أندر من الكبريت الأحمر- إلا و اتصل بسبب، و التقى بغاية مع حركة الاستشراق الاستعمارية الخبيثة، بل أقرّ الإسماعيلية لهم بالفضل حتى قالوا: و بفضل تلك الدراسات التاريخية الهامة التى قامت بها فئة من المستشرقين (الثقات) الضليعين فى علوم الإسماعيلية، و على رأسهم أو بالأحرى فى مقدمتهم العلامة و المستشرق الروسى الكبير البروفسور (يفانوف) و البرفسور ماسينيون...

و الدكتور شتر و طحان و سبوكوربان... و المستشرق الإنكليزى برنارد لويس (1).

ص: 468



و الغريب أن البعض منهم يرى في تأييد المستشرقين لآرائه حجة، كما فعل عارف تامر و هو يقول: قلت في أكثر من مكان بأني لا أفترق بين الحركات الثلاث:

الإسماعيلية و القرمطية و الفاطمية، فكلها باعتمادى حركة واحدة نبعت من نبع واحد و انحدرت من أصل واحد، وقد يكون دى ساسى و دوزى و هامر و كاترمير و غويارد و بلوشه و دى خويه متفقين معى بالرأى (1).

و فى الوقت الذى يعانى الشيعة من افتراءات المستشرقين و نتائج حملة الاستشراق اللعينة، و أخذهم بالأقوال التى تجافى الحقيقة، و يعمل كتابهم و باحثوهم و مؤرخوهم على فضح حملة الاستشراق و من انتسب إليها من الكتاب العرب، يفسح الإسماعيلية الباب لهؤلاء، و كأن الغرض الإسهام فى الإساءة إلى الشيعة و نشر دوائر الخلط بين مذهب الشيعة و الفرق الأخرى التى يعزى إلى الشيعة معتقداتها، فيزداد تراكم الأخطاء، و يظفر الأعداء باعتراف و إقرار بما يقوله المستشرقون، و نحن - بكل جهد و منذ عشرات السنين - لا نهذاً عن مواجهة المستشرقين و تلاميذهم فى البلاد الإسلامية، و لم نحقق من النتائج إلا اليسير إذا ما نظرنا إلى أصقاع العالم التى تأخذ بأقوال المستشرقين و تلتفت إلى آراء المتعصبين الذين نحروا الإخاء و ضحوا بالروابط.

فبرنارد لويس -على سبيل المثال لا الحصر- لا نتوقع منه أن يفهم التقيّة كما هى عند الشيعة لأمرين: الأول: بعده عن الإسلام. و الثانى: تأثيره بنصوص مؤرخى الحكّام و الملوك، و اعتباره أن كل ما يطلق عليهم شيعة هم متفقون على هذه الآراء، فهو يقدم ملاحظات و آراء تشعر بالتمييز فى مواضع، لكنه فى قضية التقيّة أبعد ما يكون عن الصواب و الإدراك (2).

و هكذا شأنه فى بقية القضايا التاريخية فاسمع لقوله: (فلما توفى الإمام جعفر الصادق سنة 765 م انقسم أتباعه إلى فريقين حول أحد ابنه، موسى و جعفر، و أيد حقه فى الخلافة، و اعترف أتباع الأول بالأئمة من نسله حتى الإمام الثانى عشر بعد على بن أبى طالب عليه السلام) تجد خطأه فى الشخصيات الناجم عن خطئه فى فهم التاريخ الإسلامى (3).

ص: 469

1- (1) القرامطة ص 84-85.

2- (2) انظر الدعوة الإسماعيلية الجديدة (الحشيشية) لبرنارد لويس ص 39.

3- (3) انظر: (برنارد لويس): العرب فى التاريخ ص 150.

فإذا أعدنا النظر إلى الظروف التي نشأت فيها حركات الغلو والتي بحثنا عواملها وكونها من المؤامرات على الشيعة، نجد برنارد لويس يتبنى الرأي الذى حاوله الحكام وقاموا بترويجه بظهور الفرق وأنصاف الفرق بين جماعات كانت مذاهبهم متعددة ومزيجة، وأن النصف الأول من القرن الثامن كان فترة نشاط هائل بين الشيعة المتطرفين. ويقول: وكان التحول من طائفة أو رئيس إلى آخر سهلا ومتكررا. وتسمى المصادر الإسلامية الكثير من المبشرين الدينيين الذين كان بعضهم أشخاصا من أصل وضيع قادوا ثورات و وصفوا للسيف، وتعزى لبعضهم عقائد أصبحت فيما بعد خاصة بالإسماعيلية (1).

ويشير إلى العراق لذات الغرض الذى توخاه الطاعنون على الشيعة، و لكننا نجده متفهما لظروف الدعوة الإسماعيلية ومعتقداتهم فيقول: ويمكن وصف الفترة الواقعة بين القرن الثامن الميلادى وأوائل القرن التاسع بأنها فترة استعداد، نظم خلالها إسماعيل وابنه محمد وعدد من الأتباع المخلصين بناء هذه الفرقة والدعوة لها، وتختلف تعاليمهم اختلافا بينا عن تعاليم السنة، كما أنها تضم كثيرا من الأفكار الأفلاطونية الحديثة والهندية، وقد تمكنوا من إدخال هذه الأفكار بقولهم بمبدأ التفسير الباطنى الذى يجعل لكل آية معنيين: أحدهما ظاهر وحرفى، والآخر باطن لا يقف عليه إلا أهل العلم. وكانت التعاليم السرية لهذه الفرقة تشر على مراتب من التنشئة (...). لا يرقى إلى أعلى مراتبها إلا من يتم تحوله إلى المذهب الإسماعيلى، وكان من شأن هذا التنظيم السرى أن ساعد الإسماعيلية على البقاء والازدهار على الرغم من يقظة شرطة العباسيين (2).

و خلاصة القول، فإن الكتاب الإسماعيليين يكشفون عن عناصر قيام معتقدات الفرقة الإسماعيلية، وننتهى إلى حقيقة أن الإمامة والافتراق عن خطها بعد سنين طويلة من موت إسماعيل و حقائق سيرة ابنه محمد هى المنفذ، فهم يقولون أن الفكرة الإسماعيلية ليست وليدة حادثة معينة أو تفكير استبد بشخص أو جماعة فى أمر من الأمور، أو حال من الأحوال، بل هى امتداد أزلى لنظرة أزلية عاشت فى دم الإنسانية

ص: 470

1- (1) الدعوة الإسماعيلية لبرنارد لويس ص 39.

2- (2) العرب فى التاريخ ص 150-151.

منذ بدء الخليقة. وستستمر في تجددّها و تصاعدها نحو الأكمّل ما دامت الخليقة و ما دامت الحياة، و لربما استطاع المؤرخون أن ينسبوا ميلاد الحركات و العقائد إلى أحداث تاريخية معينة تسببت في خلقها و عملت على تطويرها و بلورتها، غير أن هذا المقياس لا ينطبق على الفكرة الإسماعيلية من حيث جوهرها الذي كان توأماً للحياة عينها (1) و قد صارت مع تطور الزمن بعد نشأتها حركة عقلية تدل على أصحاب مذاهب دينية مختلفة، و أحزاب سياسية و اجتماعية متعددة، و آراء فلسفية و علمية متنوعة (2).

و يعتبر الإسماعيليون أنفسهم من أنجب التلاميذ الذين درسوا الفلسفة اليونانية دراسة واقعية، و أخذوا عنها الأفكار و النظريات و طبّقوها و حوّروها في مجتمعهم، و ليست جمهورية أفلاطون إلا أحد الكتب المفضلة القيمة التي درسوها بعناية و طبّقوها بامعان (3).

و يتفق الإسماعيليون على أن عقيدتهم فلسفية. يقول مصطفى غالب: (إذا ما أردنا تعريف الإسماعيلية بإيجاز و تقديمها باختصار، و وصفها بمختلف الأوصاف، فلا نقول عنها إلاّ إنها العقيدة الفلسفية التي تتطور مع الزمن و تتكيف معه، أو بلغة أصحّ هي انطلاق الفكر الوثاب في هذا العالم اللامتناهي، أو وثوب الروح نحو مثلها الأعلى). و يبين عارف تامر فضل البحوث و الدراسات في التعرف على الدعوة الإسماعيلية و يقول: (و بعد ظهور هذه المصادر و المخطوطات، أصبحت الحركة الإسماعيلية معروفة بأنّها رسالة فلسفية مستقلة، و دعوة سياسية أممية ذات أثر ظاهر بمجرى الحياة العامة، و فكرة عقائدية باطنية تخفي وراءها أهدافا و مقاصد لا يزال الفكر يسعى لجلاء غوامضها و سبر أغوارها) ٥.

و قد وجدت هذه المقاصد و الأفكار (الوثابة) في قضية موت إسماعيل، و تطلع ابنه محمد متنقّسا و ثغرة، فصاغ أصحابها و الداعون إليها معتقدات الإسماعيلية بالمضمون و المنطق الفلسفيين، و كانت تقوم و لا شك على الفلسفة اليونانية حتى كانت خير و عاء لها، و استطاع الداعون إلى هذه الفلسفة من إدخالها في العقائد

ص: 471

1- (1) أعلام الإسماعيلية ص 13.

2- (2) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص 14. [1]

3- (3) القرامطة لعارف تامر ص 64.

والتنظيم والسلوك، فكانت الكواكب والأجرام والنفس والعقل والحركة والثبات والاختيار والفعل والأرض والبحار والسموات والأزهار والبشر والحيوان وغيرها تربط بها الأسماء وتوصل بها.

وكانت مسألة الباطن والظاهر أعمق من الأوصاف التي عرفوا بها، لأن الباطنية والتخفي من أزم الحالات لمثل هذه الدعوات التي تنتمي إلى أمم أخرى ومذاهب ومعتقدات قديمة، إذ لا يمكنها الظهور ولا الإفصاح، فالباطن هو الحال الذي لا يمكنها غيره، ومن هذه الباطنية امتدت الصفات التي تستمد من القول بالإمام الظاهر والإمام الباطن، وبالمعنى الظاهر والمعنى الباطن، فإنهم ادّعوا أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجرى مجرى اللب من القشر، وإنها توهم الأغبياء صوراً، وتفهم الفطناء رموزاً وإشارات إلى حقائق خفية. وأن من تقاعد عن العرض على الخفايا والبواطن متعثر، ومن ارتضى إلى علم الباطن انحط عنه التكلف، واستراح من أعبائه، واستشهدوا بقوله تعالى: وَ يَصْغَع عَنْهُمْ لِصِرْهُمُ وَالْأَعْلَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ قَالُوا:

و الجهال بذلك هم المرادون بقوله: فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ (1).

يقولون في قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ أَهْ الْقِيَامِ مِنَ النُّومِ، ومثل النوم مثل الغفلة. والمستجيب-أول رتبة يصل إليها المنتسب إليهم-طول ما كان فيه قبل استجابته في غفلة من أمر الله وأمر أوليائه بمنزلة النائم في الظاهر، فإذا انتبه بكسر كاسر (الكاسر من يتفقه بالدعوة ويصل إلى مدخل الفلسفة) كسر عليه، أو بمنبه له من قبل نفسه كما قد يتنبه النائم كذلك من ذات نفسه، وقد يوقظه عن نومه غيره. وأراد الصلاة قصد إلى بيت الخلاء، وقد ذكروا أن مثله مثل الدعوة التي فيها يتخلى من كل كفر وشرك ونفاق وخطية كما يتخلى في بيت الخلاء من أمثال ذلك من النجاسات والأقذار، يتخلى من ذلك في الظاهر من أراد الطهارة في الظاهر، وفي الباطن من أراد الطهارة الباطنة بالتبري من جميع ذلك، ثم يقبل على استماع العلم والحكمة اللذين مثلهما في الظاهر مثل الماء الذي منه أصل الحياة الظاهرة، كما أن من العلم أصل الحياة الباطنة للأرواح (2).

و يدخلون الإمامة في سياق معتقداتهم، فبعد أن يذكروا أن القلب أول متكوّن من الجنين، ككون الشمس أول ما تكون من الفلك، والناطق أول ما ظهر في عالم

ص: 472

1- (1) المنتظم ج 5 ص 111. [1]

2- (2) تربية المؤمنين من كتاب تأويل دعائم الإسلام للقاضي النعمان بن محمد ص 55.

؟؟؟، وهذه النفس النامية لا توجد إلا بوجود موضوعها الذى هو جسمها، فوجوده وجودها وبعدهم عدمها... يقولون ثم إنه كان إلى الأئمة الأطهار الذين هم حجب الإبداع على مرّ الأعمار، وإلى باب كل واحد منهم حجة وداعية، وما دونه حججه الاثنا عشر-عدد المراتب فى الدعوة الإسماعيلية-الذين لا يفارقون إقامة الدعوة الباطنة. وإلى الأبواب الظاهرة والحجج والدعاة والمأذونين إقامة الدعوة الظاهرة، فحدود الظاهر يستخرجون الأنفس من عالم الطبيعة ويهدّبونها أولاً بالرياضة والشريعة، وينقلونها إلى المعارف الحكيمة، ويصوّرونها بالصورة العلمية لكون الأئمة المستقرّين هم الذين أقاموهم وأحلّوهم فى منازلهم على قدر الاستحقاق ورتبّوهم، فكان أول قائم بالدعوة فى دور الستر آدم، وتبعه نوح، وقام إبراهيم الخليل عليه السّلام واجتمع عنده أهل المستقر، فكان لها كالشمس وهى له كالقمر، لأن هيكلة من جملة الهياكل النورانية... (1).

وعندهم آدم الجزئى و آدم الكلى، والفرق بين آدم الكلى و آدم الجزئى هو أول دور الستر، و آدم الكلى هو صاحب الجثة الإبداعية، لأنه أول الكل، وإليه انتهاء الكل فى الابتداء، و آدم دور الستر جزئى بالنسبة إليه. و آدم الجسمانى يقع على كل ناطق من نطقاء دور الستر، وضده إبليس الجسمانى فى دور كل ناطق. ويقول صاحب النص:

(فاعلم ذلك و إبليس ناطقنا صلوات الله عليه هو... كتابة سرية رمزية...) لعنه الله، فاعلم ذلك، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم «قرن بكل نبي شيطان، و قرن بى شيطانان» يعنى أبا جهل و أبا لهب (كتابة سرية) لأنهما كانا معادين له و لمقيمه فى أول دوره (2).

و هم يبقون عمل النبوة فى أئمتهم لا على أساس النيابة و بقاء الدعوة إلى الشريعة و دوام الهداية إلى الرسالة، فيقولون: (إن الإمام رسول إلى الخلق بأمر الله تعالى و نص رسوله من قبل الوحي و الإمام الثانى كذلك من قبل الإمام الأول، الأول بأمر الوصى، و النبى بأمر من الله عز و جل، و هلمّ جرّاً من واحد إلى واحد إلى يوم القيامة، يصح ذلك و يثبت قوله سبحانه لنبيه (ع.م): **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**

ص: 473

1- (1) الذخيرة فى الحقيقة [1] للداعى الفاطمى اليمانى على بن الوليد ص 102-104.

2- (2) مسائل مجموعة من الحقائق العالية و الدقائق و الأسرار السامية التى لا يجوز الاطلاع عليها إلا بإذن من العقد و الحل ص 129-134 تحقيق د. شتروطحان.

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ عَنِّي هَاهُنَا بِالْمُؤْمِنِينَ: الوصى والأئمة من ولده وقوله تعالى:

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ فَقُولْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ (والمؤمنون) عنى به الأئمة الطاهرين من ذرية الرسول أولاد الوصى و البتول عليهم السلام فلفظ «المؤمنون» هاهنا عام ومعناه خاص، فلو لم يكن ذلك لم يدر من المأمور بالعمل و من الذى يراه، وكذلك جميع الحدود الذين هم دون الإمام: الباب و الحجلة إلى المكاسر، كل واحد منهم رسول إلى من دونهم بنص من هو فوقه، بأمر متسلسل إلى الله سبحانه (1).

و من الواضح اختلاف المضمون عند الشيعة فى أمر الوصاية و النص عنه فى هذا السياق، فهو تشبّه بهم، و لكنه يفترق عنه من حيث تقييد الإمامة بحدود الولاية و النيابة عن صاحب الرسالة و المبعوث بالنبوة، فالإمامة عند الشيعة امتداد لأمر الدعوة و مداومة على الأحكام و العمل بالأصول. أما الإسماعيليون فقد أوقعهم الغلو فى الادعاء بأن محمد بن إسماعيل مشهود له بالرسالة فى الأذان عند قوله: أشهد أن محمدا رسول الله، لأن شهادته لنفسه غير جائزة، وإنما كانت شهادته لمحمد بن إسماعيل (2).

كذلك فإن الغلو نال من جوهر العقيدة بالصفة الروحية للأئمة التى يعتقدونها الشيعة فى الأئمة المعصومين لكى يكون الدين كاملا و يناط أمر الشريعة بإمام له من صفات صاحب الرسالة ما يعصمه، فقد قال الإسماعيلية: إن النبى صلى الله عليه و آله و سلم نقل إلى الإمام على بعض علومه الإلهية مباشرة ليتوارثها الأئمة من نسله بعده، و هى علوم تتمثل على الخصوص فى تفسير القرآن أو ما عرف بالتأويل أو المعنى الباطن، إذ لكل تنزيل تأويل، و كل كتب الإسماعيلية تشير إلى ذلك. كما ردّوا كل الأحاديث النبوية إلى أئمتهم و هى المعروفة بالأخبار، و قد جعلهم ذلك يثبتون لأئمتهم صفة إلهية (3). و هو ما يبرأ منه الشيعة، و قد اتخذ أعداؤهم ذلك ذريعة للطعن، و أنكروا كل حقائق التنزيه و دلالات النقاء و السمو فى عقيدة الشيعة.

ص: 474

- 1- (1) كتاب الأزهار و مجمع الأنوار للداعى ابن آدم الهندى البهروجى ص 184/ منتخبات إسماعيلية تحقيق د. عادل العوّا.
- 2- (2) الأنوار اللطيفة فى فلسفة المبدأ و المعاد للداعى طاهر بن إبراهيم الحارثى ص 161 الباب الخامس من السراقة الرابع الفصل الثانى. و المسائل المجموعة من الحقائق ص 99.
- 3- (3) الحاكم بأمر الله ص 13-14.

وقد بين الأئمة-أنفسهم-منازلهم الدينية و مراتبهم، ووضحوا معالم الإمامة و صفات صاحب الأمر الشرعى، و لم يدع أحد منهم صفة إلهية.

و لا ننكر أن الحركة الإسماعيلية قد اتسمت بأساليب تنظيمية و بهياكل سرية و مناهج دعائية تدل على إدراك عميق لنفسيات شعوب الشرق الأدنى، و على فهم دقيق لمصادر التذمر، و لا يبعد عن الواقع من يقول أن للإسماعيلية سحرا خاصا و جاذبية قوية كانت تهفو بنفوس فريق من الناس و تستميلهم، و تستأثر بأهوائهم، و تبلغ منهم مبلغا يدفعهم إلى المخاطرة و المجازفة و الإتيان بغرائب الأعمال، و قبول الطاعة العمياء و الاستسلام المطلق، و أن فى الكتمان و السرية و الخفاء و الغموض ما يستهوى الخيال و يرغب النفوس و يطلق الأوهام و الأحلام، و كلما كان السرّ أدق و أخفى، أو كان اللغز أعوص و أغمض كان سحر الخفاء أشدّ جاذبية و أقوى إطلاقا للخيال. و ما زال الإنسان منذ أقدم العصور مولعا بالغرائب و العجائب، محبّا لاستطلاع الأسرار و كشف المخبّات و استجلاء الغوامض المحجوبة و الأسرار المنيعّة (1). و جميع ذلك من مقتضيات الأفكار الفلسفية و العقائد الغامضة التى عبّرت عن نفسها بالحركة، و ليست من النقية فى شىء. فما أوضح الاختلاف، و ما أجلى الفرق بين الاثنين؟ و يصرّح الكتاب الإسماعيليون بأن حركتهم كان لها القدح المعلّى فى مضمار التنظيمات من حيث الدقة، و إنهم برعوا براعة لا توصف فى تنظيم أجهزة الدعاية على قلة الوسائل فى ذلك العصر، و استطاعوا أن يشرفوا بسرعة فائقة على أقاصى بقاع المسلمين، و يتنصّمون أخبار إقناعهم. فقد كان الإمام الإسماعيلي- و الذى يعتبر رئيسا للدعوة- يعتبر الدعاة عصبا مهما للدعوة، فينتخب الدعاة من ذوى المواهب. و وفقت الحركة الإسماعيلية بين جهاز الدعاية الذى نظمته و بين نظام الفلك و دورته، فجعلوا العالم- الذى كان معروفا فى عصرهم- مثل السنة الزمنية. فالسنة مقسمة إلى اثنى عشر شهرا، فقسّموا العالم إلى اثنى عشر قسما، و سمّوا كل قسم جزيرة، و جعلوا على كل جزيرة داعيا، و قالوا: إن الدعوة لا تستقيم إلا باثنى عشر داعيا يتولّون إدارتها، يقابلهم فى عالم الفلك الواحد اثنا عشر برجاً، يطابقها فى جسد الإنسان اثنا عشر نقيبا، يقابلها فى عالم الحجب اثنا عشر حجابا. و هكذا إلى بقية تنظيماتهم،

ص: 475

و التي تحتاج إلى بيان يفصّل بنا إلى الإطالة و الخروج عن القصد، وقد أغفلنا الكثير من جوانب الموضوع خشية ذلك. و لم نذكر إلا ما كان إغفاله يخلّ بالعرض.

لقد شكّت الدعوة الإسماعيلية طريقها في المجتمع الإسلامي لعوامل متعددة و لجهازها السري و الدعائي، فتضافرت المواهب التي تنتمي إلى مختلف الجماعات و الأفكار على دراسة الظروف الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية، و اشترط على الداعي أن يكون ملماً بذلك، ليسهل عليه الدخول بين طبقات المجتمع الذي يوجّه إليه. فهو مزوّد بمعلومات عن اختلاف الناس في الدين و المذهب و العقلية، و يخاطب في دعوته كل جماعة بما يروقها ليجذبها إلى صفوف الحركة، مع التأكيد على التكتّم و التخفّي و السريّة، و كان أتباع كل مرتبة منهم لا يعرفون أسرار المرتبة الأخرى. أما التقوى فهي أن يلزم الداعي الخير و يعمل به و يتجنّب الشرّ و يحذره (1).

و حقيقة الحركة أنها أممية، لم تكن حركة قومية عنصرية، كما أنها لا ترتبط مع الشيعة الإمامية إلا بالتسميات الشكلية، فكل مبدأ لدى الإمامية يتحول لديهم بما ينسجم مع معتقداتهم. و الحركة الإسماعيلية استغلّت تذرّ الناس مما ارتكبه حكام تلك العهود من جرائم و من سوء السيرة و الاستبداد، و لم تظهر أمام انحراف الحكام و ظلمهم دعوة تردعهم، أو حركة تثور بهم إلا من قبل شيعة أهل البيت و بزعامتهم، فالإسماعيلية تنخرط في إعلان المعارضة و توجيه السخط الاجتماعي و الديني في البلاد الإسلامية و المطالبة بحق العلويين الشرعي في الحكم مع الاحتفاظ بالأهداف السريّة، و التنظيمات الخفية التي تخلو منها ثورات العلويين، و التي تتميز بوضوح أهدافها و اشتها رجالها بالعلم و الدين و الدعاية الجليلة.

و كان نهج الشيعة الإمامية الزاهر و سبيلها الراشد يتأنيان عن الطرق الباطنية و أساليبها السريّة و وسائلها العنيفة، فكانت عقائد الإمامية تحكم تصرفات من آمن بها و التزم، و لم يتردّد علماء الإمامية في شجب و إدانة ما يتجافى مع روح الإسلام و يخشى نور عقيدته و وضوح أهدافه، و ينزوي في السريّة و الباطن، و قاموا بدورهم الديني فشملمهم الباطنية بأعمال القتل، فراح الكثير منهم ضحايا و شهداء.

و كان التشيع قد انتشر في بلاد المغرب على يد الإمام إدريس بن عبد الله بن

ص: 476

1- (1) القاضي أبو حنيفة النعمان المغربي: المهمة في إتباع آداب الأئمة ص 55.



الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام الذي فرّ من أيدي العباسيين بعد موقعة فخ في عهد الخليفة الهادي سنة 169 هـ. وأقام الأدراسة في المغرب الأقصى دولة شيعية سنة 172 هـ التفت حولها البربر، ومن ثم أصبحت بلاد المغرب أرضا صالحة للدعوة الإسماعيلية، وكان ذلك مما سهّل على كل من الداعيين: أبي سفيان والحلواني عملهما، فلما ذهب أبو عبد الله الشيعي إلى المغرب في أوائل سنة 180 هـ وجد الأمور ممهدة له، كما وجد التشيع قد دخل في عقول البربر، واعتقه كثير من وزراء الأغالبة (1). وكان من الحنكة السياسية بحيث استطاع أن يفهم الزعماء المحليين أن الخلاف بينهم هو السبب في ضعفهم، وأن الاتحاد تحت لواء التشيع سيكون لهم القوة، فمهّد الداعي لمجيء مولاه المهدي عبيد الله بانتصارات ومكاسب، فدفع قبيلة كتامة إلى مهاجمة دولة الأغالبة و مهاجمة دولة الرستميين في تاهرت بعد ذلك، وهكذا قامت دولة إسلامية شيعية جديدة، ودخل المهدي القيروان فاتحا (2).

لقد اجتذبت الدعوة الإسماعيلية إلى صفوفها جماعة من المفكرين، كما نسبوا إليهم جمعية إخوان الصفا. لأن حركة الإسماعيلية قامت على أسس سياسية ثورية عنيفة و متطرفة مازجت الأفكار والعقائد الفلسفية التي حددت المنحى و صاغت النظرة التي يتّصفون بها، ولذلك كان يطلق على كل متفلسف بأنه إسماعيلي و لو في فترة محدودة اشتهر بها وضع الإسماعيلية و أخبار حركتهم الخيالية التي تجمع بين الأفكار الفلسفية و بين الأعمال الانتحارية التي تقرب من الأساطير، والأساليب التي تعتمد على المنحى الخيالي و الدعائي الذي لا يهتم بنوعية الأسلوب.

واقترب الإسماعيلية من الطريقة الشيعية في تبني ظلامات الناس و الدفاع عن المحرومين و البائسين، و ارتبطوا بالحركة الشيعية بمفهومها العام، فيما كان قادتهم يختارون الأشخاص للإيغال به في عالمهم الخفي. كذلك ارتبط الإسماعيلية بالشيعية من خلال الشعار الذي يقصّ مضاجع الجبابرة بالنصفة لآل محمد و الرضا منهم و الانتقام لهم، و لكن كان الأمر بمفهومهم الخاص لا بالمفهوم الشيعي الواضح و الصريح الذي تهفو له الأفئدة و تندفع في ظلّه النفوس إلى الموت و الشهادة إرضاء لله

ص: 477

- 
- 1- (1) مصر في عصر الدولة الفاطمية: محمد جمال الدين السرور.
  - 2- (2) الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي لألفريد بل ص 158.

و انتقاما للنبي وآله الطيبين. فكان الإسماعيلية مع الشيعة في مواطنهم في الكوفة وبقية مناطق العراق، واستغل الدعاة الإسماعيليون اضطهاد الشيعة و جور الولاة، و اتصلوا بهم. كذلك كانت دعوتهم في اليمن (1) وانضمت إليها بتحدي الخلافة العباسية. وقد ظهرت الحركة الإسماعيلية على مسرح الأحداث السياسية متسلحة بسلاح العقيدة بعد أن بسطت دعوتها في أرجاء البلاد الشاسعة، و حاولت أن تزيل الخلافة العباسية و تقيم على أنقاضها دولة إسماعيلية، و لأن دعوتها لم تنجح في بغداد، فقد سرت في كثير من بقاع الأمة العربية غربي العراق لتجعل من العرب من الجزيرة و جنوب سوريا قوام دولتها و لب حضارتها و حملة لواء دعوتها، ثم تتولى الدفاع عن الأرض العربية ضد الغزوات الصليبية، في الوقت الذي انحدرت فيه خلافة بغداد، إلى فرض الصراع السياسي و الخضوع للغزاة الأجانب تاركة عبء الدفاع عن بلاد العرب لسيوف المصريين و السوريين بقيادة الدولة الفاطمية (2) و التي كانت في عقائدها حريصة على المظهر الذي يجعلها قريبة من عقائد الشيعة، و تعمل على إخفاء المضامين الفلسفية و المعتقدات الغريبة التي لحقت بالفرقة الإسماعيلية.

## الدولة الفاطمية

### إشارة

:

قويت الدعوة الإسماعيلية تحت ظل ملوك مصر الفاطميين و لا بأس بالإشارة إلى تاريخ هذه الدولة بموجز من القول، فإنني لا أحاول بهذه العجالة إعطاء صورة عن الدولة الفاطمية، فهي دولة إسلامية خدمت الإسلام، و تركت آثارا تشهد للفاطميين. و التاريخ سجّل لهم صحائف بيضاء. و لكن الأقلام الملوثة بأوساخ الطائفية و أدران التعصب أقامت الحواجز.

كان أول ظهورها بالمغرب سنة 297 هـ / 909 م و لم يرض خلفاؤها بالبقاء في المغرب، بل حملهم الطموح و ساقهم إلى إخضاع ما جاور المغرب من البلاد، وفتحوا مصر سنة 358 هـ / 969 م و نقلوا قاعدة حكمهم إليها، و قد دامت دولتهم زهاء قرنين من سنة 358 هـ / 567 هـ (969-1171 م).

و أنشؤا مدينة ملكية لتكون مقرّ سكناهم و بلاطهم، و هذه المدينة هي مدينة

ص: 478

1- (1) رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد ص 33.

2- (2) الإسماعيليون و الدولة الإسماعيلية لبميساف ميشيل لباد ص 11 ط الاتحاد.

القاهرة (1)- المدينة الخاصة التي كانت تحيط بها أسوار ضخمة- فأصبح في مصر لأول مرة بلاط خلفاء ينافس بلاط خلفاء بني العباس. و في عهدهم انفصلت مصر عن الإمبراطورية العباسية، وأصبحوا أشدّ أعداء تلك الدولة، واتخذت الدولة العباسية أساليب الدعاية ضدّهم، فقد طعنوا في نسبهم، وأطلقوا عليهم بدل لفظ الفاطميين -العبيديين- باسم الخليفة عبيد الله المهدي، أول خليفة فاطمي، وهو الذي أسس الدولة الفاطمية في المغرب، وشككوا في صحة نسب عبيد الله، فأطلق عليهم أعداؤهم هذه التسمية للقضاء على نسبتهم لفاطمة الزهراء عليها السلام و سيأتى ذكر ذلك.

كما أن بعض مؤرخي العرب سلب عنهم هذه التسمية، وسمّاهم الخلفاء المصريون، و منهم من سمّاهم بالرافضة، و من خصومهم من سمّاهم (المجوس) على اسم أتباع زرادشت الذين كانوا في فارس حتى ظهور الإسلام. و سمّوهم أيضا الباطنيين.

و أيا كانت التسمية و الألفاظ، فقد بسطوا سلطانهم، و دام ملكهم مدة من الزمن.

فقد تأسست الدولة سنة 297 هـ / 909 م في المغرب، و انتقلت إلى مصر سنة 358 هـ / 969 م و سقطت سنة 567 هـ / 1171 م.

و كان عدد خلفاء مصر (11) خليفة هم:

1- المعز أبو تميم معد 341 هـ 952 م.

2- العزيز أبو المنصور نزار 365 هـ 975 م.

3- الحاكم أبو علي المنصور 386 هـ 996 م.

4- الظاهر أبو الحسن علي 411 هـ 1020 م.

5- المستنصر أبو تميم معد 437 هـ 1045 م.

6- المستعلي أبو القاسم أحمد 487 هـ 1094 م.

7- الأمر أبو علي المنصور 495 هـ 1101 م.

8- الحافظ أبو ميمونة عبد المجيد 541 هـ 1146 م.

9- الظافر أبو منصور إسماعيل 544 هـ 1149 م.

10- الفائز أبو القاسم عيسى 549 هـ 1154 م.

ص: 479

وأبرز شخصية فى الدولة الفاطمية اشتهرت فى التاريخ هى شخصية الحاكم، حتى غلا فيه محبّوه. و سنشير لذلك.

و كانت الإسماعيلية وحدة لا تنقسم تحت زعامة الفاطميين، و كانت الدولة الفاطمية وقتئذ تسمى (الدعوة القديمة) و بموت الخليفة المستنصر الفاطمى حصل ذلك الانشقاق على (الدعوة القديمة) و انتهى المنشقون إلى نزار بن المستنصر، و قالوا إن أباه عيّنه فى الإمامة و الخلافة من بعده، و استطاع زعيم هذه الدعوة (الحسن الصباح) أن يكوّن دولة نزارية لها كيانهما الخاص فى فارس، و أن ينشئ دعوة عرفت فى التاريخ (بالدعوة الجديدة) و عرف أنصارها بالإسماعيلية النزارية أو (الإسماعيلية الحشيشية) و أخذت دولتهم تغالب الدهر منذ سنة 488 هـ حتى سقطت فى سنة 654 هـ على يد هولاء المغولى، و لم تمت الدعوة النزارية بموت دولتها، و ظل أنصارها يعملون فى الخفاء حتى بعثوا اليوم باسم (الآغاخانية) اتباع آغاخان، و هؤلاء هم النزارية المحدثون.

و أما أنصار الدعوة القديمة، فأولوا دعوتهم للمستعلى الابن الأصغر للمستنصر، و سموّوا المستعلية، و لمّا مات الخليفة الأمر، و ولى الخليفة الحافظ اعترف إسماعيلية مصر له بالرياسة، فسمّيت دعوتهم الدعوة الحافظية، و اعترف إسماعيلية اليمن بالطيّب فسمّوا الطيبية.

لقد كان من أكثر الأحداث تأثيراً فى إضعاف الدولة الفاطمية توالى الانقسامات المذهبية السياسية، و تعرّض الدولة إلى هزّات قوية، فقد كانت الاختلافات حول القائم بالحكم و البيعة له سبباً فى تمزيق رعيّتهم و تشتيت أتباعهم، فعند وفاة المستنصر - كما قلنا - فإن نزارا - الابن الأكبر - كانت له ولاية العهد، و قد أجلسه أبوه فى حياته، فلما مرض المنصور أراد أخذ البيعة له، لكن الوزير القائم بالحكم الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمّال كان يكره أن يكون الحكم لنزار لعداوة كانت بينهما بسبب أن نزار قال للأفضل يوماً: انزل يا أرمنى يا نجس (1). و كان نزار قد وعد محمود بن وصال اللكى بالوزارة و التقدمة على الجيوش مكان الأفضل.

ص: 480

و كان الأفضل هو الذى بادر بإخراج أبى القاسم و مبايعته و نعتة بالمستعلى و قال: بأن النص و الوصية للابن الأصغر، و بادر و خرج من وقته و أخذ معه أخاه عبد الله، و توجهوا إلى الاسكندرية، و لا نخوض فى تفاصيل النزاع لأن ذلك ليس مقصدنا، و قد انتهى النزاع بهزيمة نزار، و انقسام الإسماعيلية منذ ذلك الحين إلى:

1-الإسماعيلية النزارية.

2-الإسماعيلية المستعلية.

و لاقت الدولة الفاطمية بعد هذا الانقسام الأمرين من معارضة النزارية و مقاومتهم (1).

و حدث انقسام آخر بعد وفاة الأمر، فقد خولفت أصول المذهب، و لى الخلافة ابن عم الأمر، و حدث ذلك لأول مرة، و ليس لذلك من سبب، لأن الأمر قد ولد له قبيل وفاته ابن اسمه الطيب، فأخذت له البيعة بولاية العهد، و لكن الحافظ قد استقرت له الأمور بعد أن ضعفت قوته لما أبداه وزيره أحمد بن الأفضل من رغبته فى الاستقلال و الدعوة إلى نفسه.

و الغرض أن الحافظ فى ولايته الخلافة، و ظهور مخالفة أصول المذهب كان يمثل جماعة تحالف أغلبية الفاطميين الذين يرون الحكم، فقد كان الحافظ محبوبا فى حياة الأمر. و أدى ذلك إلى انقسام جديد كان من عوامل إضعاف الدولة.

و أصبحت الإسماعيلية منقسمة إلى:

1-إسماعيلية حافظية.

2-إسماعيلية طيبة.

و تعرّضت الدولة إلى خلافات و منافسات فى عهد الحافظ بسبب الولاية على العهد، فقد عهد الحافظ أولا لابنه الأكبر سليمان، و لكنه مات بعد قليل، فعهد لابنه الثانى حيدرة، مما أثار حقد ابنه الثالث و اسمه حسن، فقام بثورة عنيفة انقسم بسببها الجيش الفاطمى إلى فريقين يحارب كل منهما الآخر، مما أدى إلى إضعاف الجيش فى مجموعه (2).

ص: 481

1- (1) مجموعة الوثائق الفاطمية، جمال الدين الشيتال 21/.

2- (2) نفس المصدر 22/.

و حدث في السنة التالية لوفاة الأمر فترة من أهم فترات التاريخ الفاطمي، و دامت لمدة سنة. فقد ولي الحافظ- و هو ابن عم الأمر- غداة وفاة الأمر كولي للعهد و كفيلاً لطفل منتظر، ثم ثار به أبو علي أحمد بن الأفضل شاهنشاه، و خلعه في اليوم التالي و سجنه و استقل هو بالحكم.

و هذا الذي فعله الوزير أحمد يعدّ انقلاباً سياسياً تام الأركان، و أوشك بفعلته هذه أن يقضى نهائياً على الدولة الفاطمية، فقد كان أبو علي الحامى المذهب، و لهذا فقد عمل على إلغاء كثير من الشعائر الإسماعيلية. و يروى صاحب النجوم الزاهرة بأنه أظهر التمسك بالإمام المنتظر في آخر الزمان، فجعل الدعاء في الخطبة له، و يغلط بشكل شنيع في مذهبه لأن ابن تغرى يروى على المنقول و الموروث من أن الشيعة هم كل من حمل الاسم، فلذلك لا يرى في انقلاب الوزير و مخالفته إلا مضادة تامة و مخالفة كاملة تضع الوزير في الصف المعادى.

و كاد أبو علي أحمد أن يقضى على الدولة الفاطمية، و أن يقيم في مصر دولة جديدة، لكن أمراء الإسماعيلية و قوادهم ثاروا عليه، و تمكنوا من قتله و إعادة الحافظ.

و لهذا اعتبر الإسماعيلية اليوم الذي أطلق فيه سراح الحافظ و إعادته إلى الحكم عيداً من أعيادهم الهامة و أسموه (عيد النصر) (1) و ظلوا يحتفلون به إلى آخر أيام دولتهم لأنهم اعتبروه نصراً للمذهب الإسماعيلي و للدولة الفاطمية و إحياء لهما بعد أن حاول الوزير أحمد تغييرهما.

و قد أنجبت زوجة الأمر بعد وفاته ولداً آخر غير الطيب، و لكنها أخفته في القرافة خوفاً عليه من الحافظ الطامع في الخلافة.

و لما عاد الحافظ للحكم، ظل دائب البحث عن الطفل المختفى، إلى أن عثر عليه، و تخلص منه، و أعلن نفسه خليفة (2).

(والبوهرة) اليوم هم الإسماعيلية المستعلية، يعتقدون أن إمامهم الحادى

ص: 482

---

1- (1) يقول المقرئ في الخطط: عيد النصر هو السادس عشر من المحرم، عمله الخليفة الحافظ لدين الله لأنه اليوم الذي ظهر فيه من محبسه، و يفعل فيه ما يفعل في الأعياد الأخرى من الخطبة و الصلاة و الزينة و التوسعة في النفقة ج 1 ص 490.

2- (2) مجموعة الوثائق الفاطمية 24/.

و العشرين (الطيب) ابن الأمر المستعلى قد استتر، وبدأ سلسلة الدعاة المطلقين، وقد ظهر منهم ثلاثة وعشرون في اليمن، ثم ثلاثة وعشرون في الهند. ويعتقدون أن الأيوبيين لم يتسلموا الحكم من الورثة الحقيقيين، بل من الخلفاء المزيّفين، لأن الحافظ وأولاده يعدّون غاصبين (1).

و على أى حال فإن أهم شخصية برزت في التاريخ الإسلامى للطائفة الإسماعيلية هي شخصية الحاكم بأمر الله، و دارت حول تلك الشخصية أقوال و أساطير، فلنقتصر على ذكره منهم.

### الحاكم بأمر الله:

هو المنصور بن نزار العزيز بالله، ولد بالقاهرة ليلة الخميس 23 من شهر ربيع الأول 335 هـ 985 م. كنيته أبو على، و لقبه الحاكم بأمر الله، و هو أول خليفة من الفاطميين، ولد في القاهرة.

ولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة 386 هـ في شهر رمضان، و كان له من العمر إحدى عشرة سنة و نصف.

و قام بالوصاية عليه برجوان الصقلّى، و كان يطمع بالاستئثار بالسلطة، و شعر الحاكم بخطر برجوان و ما يقصده، فعمل على التخلص منه، فاحتال على قتله سنة 350 هـ و بذلك استعاد الحاكم سلطته، و قلّد الحسين بن جوهر أمور الدولة، و لقبه بقائد القواد.

و اتصف الحاكم بصفات النبيل و الشهامة و الأخلاق الفاضلة، و مثّله بعمر بن عبد العزيز بعدله.

و كانت تقوى الحاكم البالغة قد جعلت أتباعه يبالغون في تقديرهم لشخصيته، فظهرت أقوال كثيرة بين أتباع المذهب الإسماعيلي تبين أن الحاكم ليس بإمام مثل الأئمة، و إنما بشرت به الأنبياء، و أشير إليه بالرمز في التوراة على أنه الزاهد الراكب الحمار ليأتى بهذه الأعمال الباهرة (2).

ص: 483

1- (1) الحقائق الخفية لمحمد حسن الأعظمى 18.

2- (2) عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه 106.

و لقد كانت خلقة الحاكم بأمر الله تساعده كذلك، توحى بأنه شخص متميز عن الآخرين، و تؤكد لديه هذا الإحساس. فلقد وصفته الروايات المعاصرة له فقالت:

(كان منظره مثل الأسد، و عيناه واسعة شهل - (يخالط سواد عينيه زرقة) و إذا نظر إلى الإنسان يرتعد لعظم هيئته، و كان صوته جهر مخوف، فإذا أشرف عليهم، سقطوا على الأرض وجلا منه، و فحموا عن خطابه) (1).

و زاد الطين بلة أن الغلو في ذات الحاكم وصل إلى حد التآليه، و أن الغلو جاء من بعض المقرّبين إليه، بحيث انفرط عقد مبادئ المذهب، و اختلطت عقائده.

و يعتبر أحد الدعاة عن هذه الحالة في زمن الحاكم بقوله: (فغلا فيه صلى الله عليه من غلا، و سفل بذلك من حيث ظن أنه علا، و وقع في أهل الدعوة و المملكة في الاختباط، و كثر الزبغ و الاختلاط) (2).

و لعل المتدائلين في صفوف المسلمين - و الذين يسعون بكل جهد لمحو العقيدة الإسلامية - قد استغلوا هذا الشعور و غلّوا الاتباع في شخصية الحاكم، فنفتوا السموم في جسم ذلك المجتمع المتماسك في عقيدته بالوحدانية و النبوة، فراحوا يبتون تأليه الحاكم و نفى التوحيد و النبوة.

و من أولئك: الفرغانى المعروف بالأخرم، رجل من بلاد فارس، تسمى بالحسن بن حيدرة، و هو رجل أجدع الأنف أو مثقوبه، فعرف بالأجدع، و كان ظهور دعوته سنة 409 هـ 1018 م على خلاف في ذلك.

قام الأخرم بنشر الإلحاد، و قال أن المعبود هو الحاكم، و دعى لإبطال النبوة، فأسقط اسم الله و اسم النبي صلى الله عليه و آله و سلم و اعتبر التنزيل و التأويل و التشريع خرافات و قشورا.

و دخل في خمسين رجلا - من أعوانه إلى الجامع الذى كان فيه قاضى القضاة ابن أبى العوام، فدخلوا فيه راكبين، و أخذوا أموال الناس و ثيابهم، و سلّموا لابن أبى الهوام رقعة ليقراها الناس، و قد بدأ باسم الحاكم الرحمن الرحيم، فرفع القاضى صوته منكرا، و هجم الناس على الأخرم و قتلوا أصحابه، أما هو فقد هرب (و قيل قتل) و إنه

ص: 484

1- (1) محمد عمارة: عند ما أصبحت مصر عربية ص 97 نقلا عن: الحاكم بأمر الله و أسرار الدعوة الفاطمية لمحمد عبد الله عثان.

2- (2) الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه.



يقوم بعمليات أمثال هذه في البلاد الإسلامية ليقتل المسلمون بعضهم بعضاً، وتبقى آثار هذه الهجمات المنكرة يتوارثها أجيال لم يمحسوا الأمور كما يراد، فيكيلون الدّم ويتهمون الأبرياء.

وكذلك ظهر داعية آخر اسمه محمد بن إسماعيل سنة 408 هـ/1017م وقيل اسمه: أنوشتكين أو هشكتين. ويظهر أنه تركي، ولقب بالدروز الذي لا يعرف لها أصل. وهذا الداعية قرّبه الحاكم في أول الأمر، حتى عرف بأنه غلام الحاكم، وارتفعت منزلته في الدولة، وأظهر الغلو في الحاكم، وأنه الإله الذي صنع العوالم، وصنف كتاباً أسماه الدستور، وحصل له اتباع عرفوا بالدرزية بلغ عددهم ستة عشر ألفاً كانوا يأتون بأمور مبتذلة... (1).

و اختلف في نهاية الدرزي، و خلط بينه وبين الأ-خرم، فبينما تقول رواية أنه قتل و جماعة من الدرزية على يد الأتراك و هو في موكب الحاكم، و إنهم لم يقتلوه بسبب اعتقاده، بل لأنه نصح الحاكم بإزالة الألقاب التي كانوا يباهون بها. و تقول رواية ثانية إنه هرب إلى الشام، و نشر دعوته فيها، و تقول ثالثة إنه قتل في إحدى المعارك.

و الذي يهتّمنا في هذا الموضوع هل أن طائفة الدروز في سوريا و غيرها ينتمون إليه أم لا؟ و الذي يظهر أنهم لا يحبّون أن يلقّبوا بهذا اللقب، و يستنكرون أن ينسبهم أحد إلى الداعي نوشتكين الدرزي المسمى محمد بن إسماعيل الدرزي- و هم كما يظهر- يرمونه بالإلحاد و الخروج عن عقيدتهم، و يطلقون على أنفسهم اسم الموحدين و تسميتهم بالدروز تسمية خاطئة، و مع ذلك فقد أصبح اسم الدروز لهذه الفرقة ملازماً لهم. و الباحث يجد نفسه مضطراً لإطلاق هذا الاسم لاختصاصه بهم في الدلالة و الاشتهار.

و كذلك اختلف الكتاب و المؤرخون في أصل الدروز هل أنهم فرس أم أتراك؟ و قيل: إنهم مزيج من عناصر مختلفة من عرب و فرس و هنود.

ص: 485

و ذهب البعض من مؤرخى الأفرنسيين فى القرن السابع إلى أن الدرروز هم سلالة الجنود الفرنسيين الصليبيين الذين كانوا تحت قيادة الكونت «دى دروكس».

أسكنهم جبال لبنان بعد سقوط عكا!!!فكلمة الدورز هى تحريف «دى دروكس».

و التاريخ يدلنا على أن هذه القبائل التى اعتنقت عقيدة الدرروز كانوا يسكنون هذه المنطقة من لبنان و حوران و وادى التيم قبل أن تبدأ الحروب الصليبية بأكثر من ثلاثة قرون، و أن قبائلهم و عاداتهم معروفة بأصولها و تقاليدها الرفيعة.

يقول الأستاذ محمد كامل حسين: و ربما أراد المؤرخون الفرنسيون بهذا القول أن عددا كبيرا من جنودهم كانوا أسرى عند الدرروز، فاتخذهم الدرروز عبيدا لهم، كما اتخذوا النساء الفرنسيات إماء و سبايا (1).

و الذى يبدوا أن عقيدة الدرروز فى تأليه الحاكم أخذت عن الداعى حمزة بن على الذى قدم مصر سنة 395 هـ و أخذ بنشر الدعوة سرا إلى تأليه الحاكم، و كان الأخرم الفرغانى من أعوانه، قد شجعه حمزة على الجهر بتأليه الحاكم كما تقدم.

و لما قتل الفرغانى حلّ محله الدرزى محمد بن إسماعيل الذى تنسب إليه الدرروز، و هم يتبرءون منه.

و قضية علاقة الدرزى بالحاكم تضمّ الإشارة إلى إنكار الحاكم لما ادّعه الدرزى، و لكن اتفقت النقول و تطابقت الآراء على أن الحاكم إنما أنكر خوفا من الرعية بعد أن قدم الدرزى مصر - و كان من الباطنية القائلين بالتناسخ - فاجتمع بالحاكم و ساعده على ادعاء الربوبية، و صنف له كتابا ذكر فيه أن روح آدم عليه السلام انتقلت إلى الإمام على، و أن روح الإمام انتقلت إلى أبى الحاكم، ثم انتقلت إلى الحاكم، فأظهر الحاكم الانقياد له و إطاعته. و لما ثار الناس، قال له الحاكم: أخرج إلى الشام، و أنشر الدعوة فى الجبال، فإن أهلها سريع الانقياد. فقرأ الكتاب على أهله، و استمالهم إلى الحاكم، و أعطاهم المال، و قرر فى نفوسهم الدرزى التناسخ، و أباح لهم شرب الخمر، و أخذ مال من خالفهم، و الزنا، و إباحة دماء أعدائهم. و لعل موافقة المصادر الإسماعيلية لعلاقة الدرزى بالحاكم هى الأصل فى اعتقاد صحة الاتهام، فقد جعلت شخصية الدرزى هى الصلة بين الإسماعيلية و الدرروز، أو تروى أن الدرزى تمكن فى

ص: 486

وقت قليل من السيطرة على الموقف فى وادى اليتيم، وإعادة الهدوء و السكينة إلى صفوف الإسماعيلية هناك بعد فرقة و اختلاف، و عمل جاهدا لتوسيع و انتشار الدعوة الإسماعيلية فى تلك البلاد، وبقى الدرزى رئيسا للدعوة و كبيرا لدعاتها فى بلاد الشام حتى إعلان وفاة الحاكم و ولاية الظاهر، فلم يعترف الدرزى بوفاة الحاكم مدّعيًا بأن وفاته لم تكن سوى نوع من الغيبة لتخليص أنفـس مريدى الحاكم من الأدران. وبقى متمسكا بإمامة الحاكم، و منتظرا عودته من تلك الغيبة. و بذلك أعلن انفصاله عن الإسماعيلية التى لا تعتقد بالغيبة، و تقول بفساء الجسم و بقاء سرّ الإمامة بالروح، فينتقل بموجب النص إلى إمام آخر، و هو المنصوص عليه من قبل الإمام المتوفى، و سمّيت الفرقة التى تبعث (الدرزى) بالدرزية نسبة إليه (1).

و عقائد الدروز تلتقى مع عقائد الإسماعيلية فى الأمور التى انشّقوا بها عن المجتمع الإسلامى الشيعى، و تطرّفهم فى أمور لا يقرّها الشيع، و انقسموا عن المسلمين فى عقائدهم التى لا يقرّها و لا يؤمن بها أتباع أهل البيت. لأن هناك عقائد هى مجموعة من أفكار و فلسفات قديمة صيغت فى صورة إسلامية، و هذا أبعد ما يكون عن نهج أهل البيت و أتباعهم، و قد بيّنا ذلك.

و أيا كان، فالحديث عن الدروز و عقائدهم صعب، فإن لهم كتبًا مقدسة و آراء يشدّون بها عن المسلمين، فهم يتبعون حمزة فى تعاليمه و تأليهه للحاكم، و هنا نقول:

إن الأيدى العابثة أو الفئات الحاكمة استطاعت خلق هذا الاعتقاد- تأليه الحاكم- و تشويه عقائد المسلمين بعقائد بعيدة عن روح الإسلام، و استغلال ظروف الناس العامة و أوضاع الأشخاص.

و ذلك عند ما حاولت بعض الطوائف إحياء، نحلها القديمة، و اتخذت لها مبادئ كان من أهمها: مناعة سلطان الإسلام السياسى، و إعادة مجد أسلافهم. مما يحملنا على القول بأن هؤلاء الدعاة الذين وفدوا على مصر، و حاولوا نشر ألوهية الحاكم، كانوا ينتمون إلى هذه الطوائف، و قد عمدوا من وراء دعوتهم التى قاموا بنشرها إلى إثارة الفتن و القلاقل فى القاهرة، ليمهّدوا بذلك للقضاء على الدولة الفاطمية، غير أن محاولتهم سرعان ما باءت بالفشل (2).

ص: 487

1- (1) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص 238-239. [1]

2- (2) انظر كتاب طائفة الدروز للدكتور محمد كامل حسين ط دار المعارف بمصر 1962.

ولكنهم نجحوا في نشر العقائد الفاسدة وبثّ روح الفرقة بين الطوائف، وأوجدوا تجمعا على الباطل، وتفرقا وابتعادا عن الحق.

فهؤلاء الذين دعوا إلى تأليه الحاكم لم تكن عقولهم بهذا المستوى من الجهل والغرور، وأن يسندوا خلق الأكوان إلى مخلوق عاشروه، ولكنهم استغلوا شخصية الحاكم و موقعها في النفوس، فراحوا ينشرون ظلالهم وإحاديثهم، وقد تألفت هذه الجماعة من ثلاثة: الفرغانى و محمد بن إسماعيل و حمزة، وقد وقع الاختلاف بينهم و اختص حمزة بنشر الدعوة. و من رسائل إحداه (توكلت على أمير المؤمنين جل ذكره فى جميع الأمور معلّ علة العلل صفا صفاة العلة). (من عبد أمير المؤمنين و مملوكه حمزة بن على بن أحمد هادى المستجيبين المنتقم، من المشركين بسيف أمير المؤمنين و شدة سلطانه، و لا معبود سواه).

و أصبح حمزة يلقب بالإمام، و لمّا غاب الحاكم، صرّح حمزة بأنه هو الإمام، و أنه سيغيب أيضا على أن يرجع مرة أخرى.

و لا نخوض فى تفاصيل سيرة الحاكم، فحديثها يطول، و فيها ما يدعو إلى الاستغراب و الدهشة من الأعمال الكثيرة و القدرة الفائقة على تحرّى العدل فى أوضاع العامة، و المبالغة فى العقوبات و الأحكام، إلى غيرها من التحوّلات فى الأوامر و التغييرات فى الأمور التى يقرّرها، و قد كانت سببا فى الطعون و النقمة على الحاكم.

و كان سبب اختيارنا له فى البحث، و اقتصارنا فى الحديث عليه للعبارة فى فعل الأهواء و تأثير الأحقاد التى استخلصت من سيرة الحاكم الأعمال التى تدل على روح العدل و الحرص على مصالح الرعية. و وافت بها ما ينسجم مع الهوى و الحقد للانتهاج إلى أن الحاكم دعا لنفسه بالأهوية، و ارتكب من الأفعال ما ارتكب. و التحقيق يثبت أن الحاكم فى كل أمر يخرج عن سيرة العدل كان يقابله بالإنكار، و لا أريد هنا أن أفق مدافعا عن الحاكم بأمر الله، بقدر ما أقصد إلى التأكيد على مسألة الأهواء و التعصب، و ما تفعله فى التاريخ من تشويه حتى تمكنت من إخفاء آثار أعماله و أوامره التى ألزم الناس بها و هو يعالج بها أوضاعا فى المجتمع، و يقصد إلى القضاء على الفساد فيها و تستهدف المحافظة على الأخلاق، و معالجة موجات الانحلال التى بدأت تشيع بسبب الترف فى الأوساط الغنية أو تنتشر بسبب المجاعات فى أوساط الفقراء، فحرّم عمل (الفقاع) و بيعه و كان من مسكرات ذلك العصر... و لقد جاء فى سجل أصدره

بتحريم المسكرات فى سنة 400 هـ (1009 م) أن: المسكر هو مجمع السيئات، والقائد إلى قبائح الأفعال.

و مما يؤكد أن الحاكم إنما كان يواجه موجة من التحلل الخلقى فى المجتمع القاهرى فى ذلك الحين، ذلك المرسوم الذى أصدره فى سنة 401 هـ و الذى يمنع فيه اللهو و الغناء، و خاصة بالنسبة للنساء، و الذى يحرم الاجتماعات الماجنة التى كانت تعقد فى الخلاء بالصحراء، و عند ذلك هوجمت أماكن البغاء بشدة، و أزيلت دورهم و أوكارهم، و طهرت منهم أحياء المدينة، و كانوا ينبثون فى معظم جنباتها. كما سبق و حرّم على الناس دخول الحمام إلا- بمنزلة يستر بعض عوراتهم، و حرم على غير الباعة و المشتريين للأرقاء دخول أسواقهم حتى يمنع العابثين من تمضية الوقت فى التمتع بالجوارى بحجة الشراء، كما طلب من تجار الرقيق عدم الجمع بين الغلمان و الإماماء فى مكان واحد، و أن يفرد لكل منهم مكان خاص بالبيع و الشراء (1).

و يقوم الحاكم بقتل قاضيه حسين بن على بن النعمان، و كان من أسباب قتله أن الحاكم كان قد ملأ عينه و يده، و شرط عليه العفة عن أموال الناس. فرفع إلى الحاكم شخص متظلم رقعته يذكر فيها أن أباه مات و ترك له عشرين ألف دينار، و أنها كانت فى ديوان حسين، و كان ينفق عليه منها مدة معلومة، فحضر يطلب من ماله شيئاً، فأعلمه القاضى أن الذى له نفذ. فاستدعى الحاكم القاضى، فدفع إليه الرقعة، فأجابه بما قال للرجل، و أن الذى خلفه أبوه استوفاه فى نفقته. فأمر الحاكم بإحضار ديوان القاضى فى الحال، فأحضر ففتش فيه من مال الرجل، فظهر أنه إنما وصل إلى القليل منه، و وجد أكثره باق، فعدّ على القاضى ما رتبه و أجره عليه و إكرامه إياه و ما شرط عليه من عدم التعرض لأموال الرعية، فجزع و هاله و قال: العفو و أتوب. و انصرف بالرجل، فدفع إليه ماله، و أشهد عليه. فحقد الحاكم عليه ذلك، فأمر به فحبس، ثم أخرج بعد ذلك على حمار نهاراً و الناس ينظرون (2).

و أمر الحاكم قاضيه عبد العزيز بن محمد بن النعمان بالنظر فى المساجد، و تفقد أوقافها، و جمع الربيع و صرفه فى وجوهه. ففعل ذلك و بالغ فيه.

ص: 489

1- (1) محمد عمارة: عند ما أصبحت مصر عربية ص 107-108.

2- (2) ولاية مصر الكندى ص 599.

وبنى الحاكم جامع القاهرة و جامع راشدة على النيل بمصر، و مساجد كثيرة، و نقل إليها المصاحف المفضضة و الستور الحرير و قناديل الذهب و الفضة، و منع من صلاة التراويح، و قطع الكروم، و منع من بيع العنب، و لم يبق في ولايته كرما، و أراق خمسة آلاف جرّة من غسل في البحر خوفا من أن تعمل نبیذا، و منع النساء من الخروج من بيوتهن ليلا و نهارا (1).

و لم يرض الحاكم بعادة من سبقه من الحكّام في حمل الناس على تقبيل الأرض بين أيديهم، فنهى عن ذلك، و نهى عن الصلاة عليه في الخطب و المكاتبات، و جعل مكان الصلاة عليه: السّلام على أمير المؤمنين.

و أمر الحاكم قاضيه عبد العزيز في يوم عاشوراء أن يمنع النساء و الناس و هم في مواكب العزاء من المرور في الشوارع، لكي لا تمتدّ يد العامة إلى أمتعة الباعة، و أن يختص النوح و النشيد خارج المدينة.

و لما منع الحاكم النساء الخروج من دورهنّ و منع الأساكفة من عمل الخفاف لهن، اتفق أن القاضى مرّ على دار امرأة، فناشدته أن يقف لها و يسمع كلامها، فوقف، فبكت بكاء شديدا إلى أن رقى لها، و حلفت له أن لها ابنا أنه في السياق، و أنها تريد أن تراه قبل أن يموت. فأمر بعض رجاله بأن يمضى معها إلى دار أخيها، فأغلقت بابها، و أعطت مفتاحها لجاريته، و ذهبت مع الرجال إلى دار طرفتها، ففتحت لها، فدخلت، و استمرت مقيمة فيها، فكشف عن أمرها، فإذا هو منزل رجل كانت تهواه و يهواها.

فأخبر القاضى بذلك، فتعجّب من فطنتها حتى توصلت إلى مرادها، و إذا بزوجها قد جاء إلى القاضى و قال: ما أعرف زوجتى إلا منك. و حلف أنها ليس لها أخ و إنما ذهبت إلى عشيقها. فسقط في يده، و خاف القاضى أن يبلغ الخبر الحاكم، فيكون سبب غضبه عليه، فركب في الحال إلى الحاكم، و قصّ عليه القصّة و بكى. فأمر الحاكم بإحضار المرأة و الرجل، فمضى الأعوان إليهما بغتة، فوجدوهما نائمين متعائنين لا يعقلان من السكر، فحملوهما إلى الحاكم، فأمر بإحراق المرأة في بارية، و ضرب الرجل بالسياط ضربا مبرحا، و زاد في الاحتياط على النساء و التحجير عليهنّ (2).

ص: 490

1- (1) النجوم الزاهرة ج 4 ص 177. [1]

2- (2) ولاة مصر ص 607.

لقد كان الحاكم يدور فى الأسواق على حماره، يبحث عن الذين يغشون الناس، ويتولى عمل الحسبة بنفسه.

فإذا انتهت هذه الأعمال تاريخياً إلى الذين أسهموا فى إشاعة بدع الضلال، واستسهلوا إطلاق كلمة الفساد و الرداءة على الآخرين، وقيد مداركهم التعصب، وشوّه علمهم الهوى، قالوا بما يضحك، وكتبوا زورا، ولكنهم مرغمون على ذكر الحقيقة كقولهم: (فمن وجدته قد غش فى معيشة، أمر عبدا أسود معه يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى، وهذا أمر منكر ملعون لم يسبق إليه، وكان قد منع النساء من الخروج من منازلهنّ، وقطع شجر الأعناب حتى لا يتخذ الناس منها خمرا، ومنعهم من طبخ الملوخية وأشياء من الرعونات التى من أحسنها منع النساء من الخروج و كراهة الخمر...) (1).

ثم تسهم الإقليمية فى الحملة على الحاكم بأمر الله الذى استطاع أن يقيم حكما قويا، أن ينشغل به ملوك الأقطار الإسلامية الأخرى الذين ضعفت قبضتهم و وهنت قواهم، وهم بأبراد الخلافة و أزياء الإسلام التى تكفل لهم الخضوع و الاستسلام.

يقول محمد عمارة: (و نحن نرى أن شخصية الحاكم بأمر الله شخصية تاريخية قد أصابها الكثير من الظلم و التعسف فى التفسير و التحليل من قبل الكثير من المؤرخين و الباحثين. بل و نرى أن هذا الظلم قد انسحبت أذياله على القاهرة و مصر، فبدت فى ثوب من السخرية و الاضطراب، و جو من الإجراءات التى لا رابط لها و لا منطق وراءها خلال فترة حكم هذا الخليفة التى امتدت ربع قرن من الزمان) (2).

و لقد بلغ من قوة الحاكم و قدرته على السلطان و الملك، أن ينفذ إلى بنى العباس فى إقليم سلطانهم و موضع ملكهم، فخطب أبو المنيع قرواش بن المقلد الملقب بمعتمد الدولة للحاكم سنة 401 هـ فجمع معتمد الدولة أهل الموصل، و أظهر طاعة الحاكم، و أحضر الخطيب يوم الجمعة، و أعطاه نسخة ما يخطب تقتطف منها:

(الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، و الله أكبر و لله الحمد، الحمد لله الذى انجلت بنوره غمرات الغضب، و انهدت بقدرته أركان النصب، و أطلع بقدرته شمس الحق من

ص: 491

1- (1) ابن كثير ج 12 ص 9. [1]

2- (2) عند ما أصبحت مصر عربية، محمد عمارة ص 96.

الغرب، الذى محا بعدله جور الظلمة، وقصم بقوته ظهر الغشمة، فعاد الأمر إلى نصابه و الحق إلى أربابه.

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم اصطفاه واختاره لهداية الخلق، وإقامة الحق، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وهدى من الضلالة، والناس حينئذ عن الهدى غافلون، وعن سبيل الحق ضالون، فأنقذهم من عبادة الأوثان، وأمرهم بطاعة الرحمن، حتى قامت حجج الله وآياته، وتمت بالتبليغ كلماته صلى الله عليه وآله وسلم وعلى أول مستجيب إليه على أمير المؤمنين وسيد الوصيين، أساس الفضل والرحمة، وعماد العلم والحكمة، وأصل الشجرة الكرام البررة، النابتة فى الأرومة المقدسة المطهرة، وعلى خلفائه الأغصان البواسق من تلك الشجرة، وعلى ما خلص منها وزكا من الثمرة (1).

ويذكر ابن الجوزى أن الحاكم كان يرسل الرسل إلى قرواش، ويكاتبه حتى استماله، فأقام الدعوة له بالموصل، وانحدر إلى الأنبار، وأظهر قرواش الخلاف، وأدخل يده فى المعاملات السلطانية، وورد على الخليفة من هذا ما أزعجه، فراسل عميد الجيوش، وكاتب بهاء الدولة البويهى.

ولقد كان هذا التهديد الفاطمى خطيرا، حمل العباسيين على اللجوء إلى كل الوسائل لدفعه عنهم و النيل من الحاكم و الفاطميين، و لجئوا إلى الطعن فى نسب الفاطميين، و تحريك المشاعر الدينية ضدّهم، و الضرب على أوتار الزندقة و الإلحاد، و رمى الآخرين بالكفر و الفسوق، مما اعتاده علماء العوام و خدمة الملوك، فكتب فى ديوان الخلافة محضرا بذلك أخذت فيه خطوط الأشراف و القضاة و الفقهاء (شهدوا جميعا أن الناجم بمصر و هو منصور بن نزار المتلقب بالحاكم حكم الله عليه بالبور و الدمار و الخزى و النكال و الاستيصال ابن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد لا أسعده الله، فإنه لما صار إلى الغرب تسمى بعبيد الله و تلقب بالمهدى، و من تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس عليه و عليهم لعنة الله و لعنة اللاعنين أديعاء خوارج لا نسب لهم فى ولد على بن أبى طالب، و لا يتعلّقون منه بسبب، و أنه منزّه عن باطلهم، و أن الذى ادّعوه من الانتساب إليه باطل و زور، و أنهم لا- يعلمون أن أحدا من أهل بيوتات الطالبين توقف عن إطلاق القول فى هؤلاء الخوارج أنهم أديعاء، و قد

ص: 492

1- (1) المنتظم ج 7 ص 149. و [1] النجوم الزاهرة ج 4 ص 225. [2]



كان هذا الإنكار لباطلهم ودعواهم شائعا بالحرمين، وفي أول أمرهم بالغرب منتشرا انتشارا يمنع من أن يتدلّس على أحد كذبهم، أو يذهب وهم إلى تصديقهم، وإن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفّار وفساق فجار ملحدون زنادقة، معطلون، وللإسلام جاحدون، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون، قد عطّلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وأحلّوا الخمر، وسفكوا الدماء، وسبّوا الأنبياء، ولعنوا السلف، وادعوا الربوبية).

وقد سقناه بكامل نصه ولفظه لإظهار ما كان عليه العباسيون من ضيق وقلق، فالتمسوا في الطعن، وكيل التهم متنفسا ومخرجا. ولهم من الأتباع ممن تمسحوا بالعلم وتزيوا بالفقه ما يحقق لهم أغراضهم ويترجم رغباتهم. وقد لجئنا إلى التزوير، فوضعوا خط الشريف الرضى في المقدمة (1).

ومعلوم أن الشريف الرضى -بمكارمه وعظم منزلته وجلالة قدره في مجتمعه وأهل بيته- كان لا يرى في الملوك العباسيين من هو أهلا لها، وقد عرف القادر منه ذلك، وأصبح يخشى السيد الرضى لأنه يرى هوانا في مقامه في ظل حكّام كالقادر، فيفصح عن رأيه في حكم العباسيين، ويجهر بميوله إلى الفاطميين مبالغة في إظهار الخلاف للعباسيين، ويقول السيد الرضى:

ما مقامى على الهوان وعندى مقول صارم وأنف حمى

أحمل الضيم فى بلاد الأعادى وبمصر الخليفة العلوى

من أبوه أبى، ومن جدّه جدّى إذا ضامنى البعيد القصى

ومنها:

لف عرقى بعرقه سيّدا الناس جميعا محمد وعلّى

إن جوعى بذلك الربع شيع وأوامى بذلك الطلّ رى

ولا يبعد أن يكون اعتراف الشريف الرضى بالحكام الفاطميين والتصريح برغبته في اللحاق بهم في نظر العباسيين بمستوى واحد من الأهمية مع اعتراف الولاة بالطاعة للفاطميين، وذلك لعظيم مكانة الشريف الرضى وهيبته وتأثيره على الناس، لعلمه وشرفه وفضله، وأن يكون ذلك من أسباب لجوء العباسيين إلى كتابة محضر ديوانهم،

ص: 493

1- (1) انظر: المنتظم ج 7 ص 255 و البداية و النهاية ج 11 ص 346. و [1] النجوم الزاهرة ج 4 ص 229.

و من الروايات ما يفيد أن أبيات الشريف الرضى الشعرية كانت وراء أمر القادر بكتابة المحضر.

و مهما يكن من قول، فإن الشريف الرضى لم يكن بالرجل الذى ينصاع لإرادة الباطل و أوامر الجور، و يتخلى عمّا يليق بمنزلته من قول الحق.

و لم يحرك محضر العباسيين مشاعره أو يثير غضبه، بل أهمله تماما.

## و الخلاصة:

فإن الحاكم كانت تبدو عليه منذ حداثة سنّه مظاهر التفوّق و الذكاء و قوة الشخصية، و قسّمات الإنسان المتميز عن الأشباه و الأقران، و كان صاحب اهتمامات ثقافية و فكرية مبكرة، لا فى مجال الفلسفة و التشييع و الفلك و التنجيم فقط- كما اشتهر عنه- بل و فى مجال التذوّق الأدبى للشعر و النثر، و المشاركة فى مجالسهما و مخالطة أعلامهما فى ذلك الحين (1).

و برز فى عهده أسماء كان لها أثرها فى انتشار الإسماعيلية كأحمد حميد الدين الكرمانى، و القاضى عبد العزيز بن محمد بن النعمان، و الحسن بن الحسن بن الهيثم و غيرهم من الدعاة و رجال الفكر الإسماعيلى.

أى أن الحركة العلمية التى بدأها المعزّ الفاطمى مع بنائه القاهرة لم تهدأ، و بقيت على و تآثرها المتعددة، منها ما يتعلق بالفكر الإسماعيلى، و منها ما يتصل بالحياة الفكرية و الأدبية المختلفة، و التى تدين للمعزّ الفاطمى بأعماله و عنايته، كما تدين العلوم الإسلامية لعمله الأزهر بالفضل. و لا جدال فى أن عصر المعزّ لدين الله من أزهى العصور، و كيفما اتجهت إليه النظرة، فإن عصره يمتاز بأمارات التقدم و الترقى و الحضارة.

و يحتل فى العقيدة الإسماعيلية موقعا متميزا بين أئمتهم، فقد عدّ بعد إمامهم محمد بن إسماعيل مجددا للشريعة، عند ما أمر القاضى النعمان بن محمد بتجديد الشريعة و رفع مبانيها و إظهار ظواهرها و معانيها، فألفها فى مائتى كتاب تزيد على عشرين، و زاد على ذلك عدة كتب، جاء فيها من ذكر الحلال و الحرام و القضايا و الأحكام (2).

ص: 494

1- (1) عند ما أصبحت مصر عربية نقلا عن: الحاكم بأمر الله لمحمد عبد الله عنان.

2- (2) كتاب الذخيرة فى الحقيقة، الفصل الحادى و العشرون. [1]

وهنا لا بد من معاودة الإشارة إلى أن الفاطميين من الإسماعيلية كانوا في معتقداتهم العامة بالإمامة يرددون اعتقاد الشيعة الإمامية، وجرى في أحوالهم السياسية هذا الاعتقاد، وجهدوا في الحفاظ على الطابع الذي يخفى آثار الباطنية التي أبعدهم عن الأركان والأصول، وعند ما تقترب منه نقاط الاختلاف ومواضع الافتراق، تتحول معتقداتهم إلى أمور بعيدة عن عقائد الشيعة على ما تضمنه من اعتراف بمنزلة الإمامة وعقيدة الوصاية-فهى كما قلنا سابقا-واحدة في الأصل، لكنها في السياق تفتقر من بعد عصر الإمام الصادق عليه السلام ويشعر المسلم الشيعى في مراسيم الدولة الفاطمية وأقوال حكامها بالقرب من عقيدة الإمامة الشيعية في أصولها وأحكامها، إلا أنها سبقت بعد الانشقاق إلى أشخاص فيهم صفات الحكام والسلاطين غالبية، ولا يبدو عليهم مهما أضيف إليهم من صفات أخرى أى قدر من المنافسة لأصحاب الإمامة الحقة وأهل الخلافة الكبرى ممن حفظ النص بهم، وجعلت فيهم الولاية والخلافة والإمامة: وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ .

ولقد كان الأخ الصديق العلامة محمد حسن الأعظمى-عميد كلية اللغة العربية بكراتشى-واقعا تحت تأثير دعوته الإيمانية الطيبة إلى التقريب والوحدة عند ما حكم بأن الشيعة الإمامية يتفقون مع الفاطميين على المسائل العامة في الفقه. والصديق الأعظمى يقدم مشاعر التقريب والاتفاق على الحقائق التي لا سبيل إلى تجاوزها، وقد عرفناه واسع النشاط، غزير المعرفة، صادق الكلمة، يحمل رسالة المودة والصفاء، ولأقواله أثر في المحافل. لذلك ذهبت مقالته نصا اعتمدها الأستاذ الدكتور محمد غلاب-أستاذ الفلسفة بالدراسة العليا بالأزهر-و لو ترك القول دون أن يعقبه تفصيل لحملناه على العموم وقلنا إن السيد الأعظمى يريد أن المسلمین جميعا يتفقون في المسائل العامة في الفقه بأصولها، وهو ما يشملنا والفاطميين. كذلك قوله فيما تختص به الشيعة من الأخذ عن طريق أهل البيت، لكنه يحصر الاختلاف في أمرين أساسيين:

أولا: فيما يتعلق بمواقيت الصيام والقطر. فالفاطميون يكملون رمضان ثلاثين يوما في كل عام، ولا يلتزمون برؤية الهلال، بل يعتمدون على التقويم الفاطمى والحساب، والاثنى عشريون يقيّدون صيامهم اعتمادا على أحاديث صحّت عندهم برؤية الهلال كأهل السنة.

ثانيا: الاثنا عشريون يجيزون زواج المتعة، أما الفاطميون فلا يجيزون المتعة كأهل السنة.

وليس الأمر بهذه السهولة، ونخشى أن يخرج الحديث عن موضوعه، فإن الأجزاء السابقة من الكتاب ضمت بحوثا عن المتعة، استوفينا بها أوجه الخلاف، و يضيق وسع الكتاب الآن، كما نحذر الدخول في المسائل الفقهية القليلة و القصيرة التي تسربت عن الإسماعيلية، لأن أحكامهم خاصة بهم بعد عصر الافتراق. وقد أخذنا على أنفسنا التعرض للاعتقادات المهمة، لأننا لا نودّ أن نحجب الحقائق الدينية، و لكننا لا نتزحزح عن نورها إلى ضيق و عتمة الرموز و التأويلات المتكلفة، فالفاطميون يقولون: إن أسرار الدين متوقفة على تعليم الأئمة من نسل فاطمة الزهراء، و هم الكواكب و النجوم و المصابيح، ترسل نور المعرفة إلى قلوب أتباعهم، كما أن العين المبصرة بدون القمر و الشمس و المصباح لا تحقق الفائدة المرجوة، كذلك المسلم لا بدّ له من أن يستمدّ من الأئمة أنوار العلم و المعرفة. و إلا فإن العقول وحدها لا تكفى (1). ورووا عن النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم أنه قال: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله و عترتي أهل بيتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلوا أبدا، و إنهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض» (2). و قوله للإمام علي: «سوف تقاتل على تأويله، كما قاتلت على تنزيله» (3). فهذا كله يدل على أن الوصى و من تبعه من الأئمة من ذريته هم الذين اختصوا بتأويل القرآن، و لذلك رووا عن علي قوله: «ما نزلت آية من القرآن إلا علمت كيف نزلت، و أين نزلت، و في أي شيء نزلت، سلوني قبل أن تفقدوني».

و نكتفى إلى هنا بما أورده السيد الأعظمي حيث تبدأ بعد هذه النقطة مجالات الافتراق عتّا و دخولهم في عالمهم الخاص بهم. ففي بدء كل مسألة يساق النص بلفظ أو بآخر، ثم يعقبه عرض بحسب معتقداتهم. فمثلا يأتي لفظ (فالإمامة عندهم - الفاطميين - هي قيادة العالم و حمل الحقيقة إليه، و مثل هذا المرشد ضروري وجوده في كل عصر حتى لا يبقى العالم جاهلا) (4). و هو من نصوصهم الخاصة، و لا ينافي

ص: 496

1- (1) الحقائق [1] الخفية عن الشيعة [2] الفاطمية ص 24.

2- (2) المجالس المؤيدية ج 1 ص 147 (3) الحقائق. [4]

3- (3) أسرار النطقاء ج 2 ص 203 (الحقائق). [5]

4- (4) كلام بير ص 21 (الحقائق).

مضمون الإمامة من حيث كون الإمام هو الهادى والمرشد إلى الطريق الحق، وهو القدوة لقوله تعالى: **وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** وقوله عز وجل: **وَاجْعَلْنَا لَهُمْ أُيُتَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا** والإمامة التى تنطوى عليها الخلافة هى لدوام النبوة وبقاء الرسالة لقوله تعالى: **إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا** وقوله سبحانه: **وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** والشيعنة تقيد الإمامة بالنص، وتجعلها فى إطارها الشرعى وأصلها الدينى، فهى من أركان الدين، وليست من الفروع حتى يمكن أن يجتهد فيها، وتفوض تفاصيلها وأحكامها إلى البشر، فيكون للأمويين الرأى فى الإسراف فى الظلم واتخاذ مظاهر السلطان والعظمة، ويصبح للعباسيين الحق فى قتل أولاد النبى محمد، وارتكاب المحارم، وصرف أموال الرعية فى غير وجوها وحلها. وقد أطلق الإمام الكاظم - كما علمنا - كلمته فى شدة المواجهة مع السلطان والملوكية التى تتلبس بالإسلام، فقال للرشيد قوله: **«أنا إمام القلوب، وأنت إمام الجسوم»** لأن مظاهر الخضوع والموافقة التى تنسجم مع مظاهر الأبهة والسلطنة كانت من مقتضيات القهر والغلب، ولقد جاء من سوغ إظهار الحكم المتسلط بالسيف والقائم بالغبلة بمظهر الإمامة، وإقرار سلطانه مع الفجور، وذلك من أبعد ما يكون عن الإسلام، ومن أغرب ما اختاروه للإساءة إلى عقيدة الإمامة.

وإذا نظرنا إلى الملوك الفاطميين، وجدنا انسياقهم إلى مظاهر الملوكية بأوسع صورها. وقد كان المعز - صاحب المواكب والركوبات التى تبعث على الدهشة والانبهار - إذا ما أطلع المرء على ما كتب عن هذه المواكب والركوبات التى يترك وصفها فى النفس والذهن صوراً خيالية، وهى تجرى على نظام وترتيب ومراسيم وأعمال لم يكن مثلها فى عصر أو قطر آخر (1). والقصد أن مسلك حياتهم أقرب إلى الدنيا والسياسة، وأدنى إلى الإمامة الجسوم وسلطة الزمان، وهم أوفق بها. أما الإمامة الكبرى فهى مقيدة بشروطها، ومتعلقة بأهلها الذين أحاطهم ولاية الجور بأسوار من الرعب. ولكن نور الإمامة لا تحجبه زنانات الحكام أو عساكرهم، ولم ينل الحكام من تفانى الأئمة الأطهار من أهل البيت فى الدعوة إلى التمسك بالعقيدة ونشر الأحكام.

والخلاصة، فإن الفاطميين قاموا بدور كبير ومشرف فى مجال رفعة شأن

ص: 497

---

1- (1) انظر تفاصيل وصف المواكب هذه فى النجوم الزاهرة ج 4 ص 79-101.

الإسلام وإبراز عظمة فكره، وقد جذبوا إليهم الكثيرين من المفكرين و الأدباء و الفقهاء فانضموا إلى الدولة الفاطمية، واعتنقوا الإسماعيلية، و أصبحوا قادة فيها، وهم كما قلنا فى مظهر عقيدتهم يتوحدون ما يتفق مع العقائد و الأحكام، و يقتربون من عقائد الشيعة فى مهمات الأمور و الأحداث التاريخية، و لعل صحة النسب و بقاء الانتماء إلى الدوحة المطهرة كان من أهم عوامل تميزهم عن بقية الفرق الباطنية.

## الهفت و الأظلة:

حاولت فى بحثى عن الإسماعيلية و الإمامة أن أحصل على أغلب المصادر و الكتب التى تختص بالإسماعيلية، و أن تكون من مظانها و تصدر من أصحاب العلاقة.

و قد نشر معهد الدراسات الشرقية فى بيروت كتابا سَمّى: بالهفت و الأظلة.

و قدم له الأستاذ الإسماعيلي عارف تامر بضميمة الأب عبده خليفة اليسوعي، و هو ينسب للمفضل بن عمر، و الكتاب جاء كمجالس متعددة تتضمن أسئلة متفرقة من المفضل بن عمر إلى الإمام الصادق يوجهها المفضل، و الإمام الصادق عليه السلام يجيب.

و انتشر الكتاب بعنوان أنه من كتب الإسماعيلية، ثم صدر كتاب (الهفت الشريف) تقديم و تحقيق الأستاذ الإسماعيلي مصطفى غالب.

و الكتاب مجهول المؤلف و معدوم السند، بل يفقد كل عوامل الصحة و مقومات القبول، و مع الفرض أن المؤلف معروف و اسمه مشهور و الإسناد موجود، فإن العقل يحكم بأن الكتاب نوع من أنواع المهازل، و صورة من صور الخرافات المؤلمة التى منى بها المجتمع الإسلامى، فكم ابتلينا بدسّاسين، و أثقل كاهل المسلمين بما وضعه الذين يفترون الكذب على الله و رسوله من أفكار و أقوال و ما سطرته تلك الأيدي من كتب نسبوها إلى رجال الأمة من حملة العلم و رؤساء المذاهب مما لا ينسجم مع ما عرف عنهم و ما هم فيه من المنزلة، و لولا واجب الحق و إظهار الحقيقة لألقيناه فى سلة المهملات أسوة بغيره من الكتب المكذوبة التى تضم الأراجيف و الخرافات، و تعلن عن نفسها بنفسها لوضوح مضامينها و ما تضم بين صفحاتها، و لا ندرى ما الدافع على نشر الكتاب إذا كان الناشر نفسه يعترف بأنه يحتاج إلى مناقشته بابا بابا، و فكرة فكرة، ففيه ما لا يقبله العقل كما يعترف بقوله:

(إن الإمام الصادق- وهو الحكيم الموحد المعروف بسعة علمه وإيمانه- يترقّع عن تعميم هذه الأفكار لتلاميذه و تبليغها لمريديه).

و أول ما يسترعى الانتباه من الناشر قوله: (مما لا جدال فيه أنه قد نواخذ على محاولتنا هذه، وقد نلام من الأصدقاء و الإخوان، لأن الكتاب الذى نشره الآن من الكتب السريّة التى لا يجوز نشرها على العامة، لأن فيها تعاليم ربما يساء فهمها و تؤوّل على غير حقيقتها، مما يحدث آثارا سيئة فى النفوس و يمزّق وحدة الصفوف، و ما أحوجنا إليها فى هذه الظروف، و لكن لا بد من القول و نحن أمام موضوع خطير بأنه كم يثلج صدورنا إذا ما فتح هذا الكتاب أمام علماء و أدباء و باحثين لإبراز نصوص علمية تدحض، و إثبات أشياء تخالف الوقائع، فنحن لا يهمنا إلاّ جلاء الحقيقة و حدها، و إبراز الواقع بوجهه الناصع، و الحقيقة تأبى إلا الظهور مهما اعترضها من عقبات).

يخيل للقارئ عند الوقوف على هذه العبارات أنه سيقف على شىء فى النهاية يستحق الخوض فى قراءة أو تحقيق أمور مخالفة للحقيقة و يرفضها الواقع، أو أن فى ثناياها بعد التشذيب عطاء فكريا أو دلالة عقائدية أو نتاجا أدبيا يقدّمه الأستاذ تامر إلى العالم خدمة للحقيقة و قياما بواجبه العلمى كما يشير إلى ذلك بقوله:

(إذ نضع هذا الكتاب بين أيدي العلماء نعلم علم اليقين بأننا قد أدّينا جزءا من واجبنا نحو العلم و الحقيقة التى عاهدنا الله أن نجعلها هدفنا و مثلنا الأعلى فى الحياة).

مما يشعرونا بأن الأستاذ عارف قد أطلق هذه الكلمة نتيجة لدراسة موضوع علمى بطريقة منهجية هادفة إلى كشف حقيقة أو إظهار تفاصيل أو دقائق فى اتباع أصول التحقيق لإبراز ما يخدم العلم و يظهر الحقيقة نتيجة ما اكتسبه من خبرة فى ممارسته، و عند ما نقف على الكتاب نصاب بخيبة الأمل و للوهلة الأولى، إذ لا نعثر فيه على أمر يناسب قوله، فليس فى الكتاب مواضيع معقولة، فضلا عن أن يكون علما أو فكريا أو نحوهما.

ليس فيه من المعرفة المتسعة المنسّقة و المرتبطة بنظام يعنى من الأقوال أو الأفكار شىء، بل فيه كل ما يمجّه الذوق و يرفضه العقل و لا يقره العرف.

و نعود للاستغراب عند ما نقف على قوله أن نشر هذا الكتاب لا بد أن يلقى استنكارا... الخ.

و حق أن يكون الكتاب موضع استنكار و استخفاف لكل من يقرأه، فكيف لا يستنكر مثل هذه الأمور التي تفاجأ بها الأمة في عصر الثقافة و العلم، و في زمن التقدم و التطور، ينفذ إلينا من بوابة عضاداتها أحد المختصين الإسماعيليين و أحد الآباء المسيحيين، و الغريب أن يطبع طبعة أولى عام 1960 م و طبعة ثانية عام 1965 م. و إنى لأكبر الذوق الأدبي و البحث العلمى عن هذا الفهم السقيم و الذوق الهابط حتى يكون هناك إقبال على تناول هذا الكتاب إلا للاستهزاء و السخرية، و على الأغلب تكون من قبل أعداء الإسلام و الساعين بكل جهد و قدرة للنيل من أبنائه، و إعطاء صورة مشوهة عن مجتمعه. و لا أدري أى شىء فى الكتاب يدل على صحته و يشير إلى ثبوته حتى يحتاج إلى دحض، و أى عمل يوصف بالموضوعة و المنطق حتى يدعو إلى نقد؟! و لا بد أن نتساءل بموضوعية عن مقومات أى بحث تاريخى أو أثر علمى، أليس المضمون أو المنهج أو المعالجة أو الوصف التاريخى هى الأسباب التى تكسب البحث أهمية و الأثر دلالة؟ فيتوخى منه الفائدة، و يرجى منه المعرفة. أما إذا كان الأثر و الكتاب يحدث آثارا سيئة لعدم هذه الأسباب و لخلوّه من الأهمية، فلا مبرر لذكره فضلا عن التفكير فى نشره، و إن كان من صنف (الهفت) بخرافاته و أباطيله و أكاذيبه، فعلى المرء -أى امرئ مسلم- أن يسعى إلى إتلافه و يعمل على محوه، لما يحدثه من آثار سلبية تمس وحدة المجتمع.

أضف إلى أن الكتاب منحول من قبل شخص لا يجيد الوضع، و لا يحسن الألفاظ التى صاغ بها أكاذيبه.

و الكتاب مجهول المؤلف و معدوم السند، فكيف أقدم الاثنان على تكليف نفسيهما إشاعة عمل لا تتوافر فيه عناصر الصحة. و إن يكن عتب فعتب على عارف تامر لكونه إسماعيلى المذهب، و فى مثل هذا العمل إساءة بالغة سيما إذا كانت تصدر من إسماعيلى. و نستغرب متسائلين: ما هو الدافع و ما هى الخدمة التى يسديها بنشر هذا الكتاب؟ فليس من خدمة العلم و الحقيقة فى شىء أن تنشر هذه الأقوال الكاذبة و الخرافات الشائنة و تنسب إلى شخصية (خارقة متفوقة ذات مستوى رفيع هامت بجلائل الأعمال) هى شخصية الإمام الصادق عميد أول مدرسة فكرية فى الإسلام و رئيس أول مركز لتعليم الفلسفة، و مخرج العقل فى العصور الإسلامية من نطاقه المحدود إلى فضاء رحيب تسيطر على أرجائه حرية الفكر العلمى السليم القائم على



الحقيقة والمنطق والواقع، وأن مدرسته عليه السلام قد أنجبت خيرة المفكرين و صفوة الفلاسفة و جهابذة العلماء- كما يقول عارف نفسه-  
(1).

ولم يستبق الناشر النتائج بوعيه عند ما يقول ويعترف أن الكتاب لا يليق بالنشر، و ذلك ما يدعو إلى الحيرة، فإن النتائج هي أحداثه الفرقة في المجتمع، و تعريض وحدة الصف إلى التمزق لأنه لا يضم بين دفتيه إلا الإساءة لجميع طوائف المسلمين و التهجم على العقائد، و الطعن برجالهم.

و لا يدري أحد منّا إلا الناشر نفسه ما هي الأسباب التي تكمن وراء نشر الكتاب و هو يصرح برأيه فيه.

كان اللازم- كما يقضى واجب النشر و أمانة النقل- أن يتأكد الناشر من صحة الكتاب و نسبته للمفضل، و أن يتحرى صفة المؤلف من الكتاب، فإذا عدم الاسم استدل بالأثر، فهل كان المؤلف ثقة في النقل و رجال أسانيده كذلك. فإذا كان الأثر عبارة عن أكاذيب و مفتريات و خرافات، فالمنتحل أبعد ما يكون عن صفات الثقة و الأمانة.

و لا أجد تبريراً أو احتمالاً مناسباً يجعلنا على علم بارتكاب مثل هذا الخطأ، و قد كنت بحسن الظن أحاول ذلك باعتبار الأستاذ عارف من الكتاب الذين ينادون بحرية الكلمة و الموضوعية. إذن لا بد أن هناك أسباباً خاصة و عوامل غامضة حدثت به إلى أن يقوم بطبع الكتاب، فيقدم للمكتبة العربية و الأمة الإسلامية كتاباً لا يحتوى- باعترافه- إلا آراء غريبة و شاذة، الأمر الذي يصبح أمامه موضوع العلم و الحقيقة مجرد ادعاء و صبغة يحاول أن يطلى نفسه بها دوماً، فأى حقيقة فيما يدور بين الأشباح و الأظلمة، و ما يعرضه أمامنا من عالم المهووسين و المصابين، و تزكم أنوفنا رائحة الدس التي تفوح من الآراء و الحوادث التي وردت في الكتاب كالأظلمة و الأشباح و المسوخية و الناسوتية و الأدوار و الأكوار و الرسخ و المسخ و الزواجر و حجب الآدميين و قد القدود و سطح السطوح و الحجب الشجي... الخ... و نظريات أخرى تتعلق بالإمام أمير المؤمنين على عليه السلام و سلمان الفارسي، و بدء الخليقة، و تقمص المرأة... و افتراءه على الإمام الصادق عليه السلام في كثير من تأولاته، فيقول بكل جرأة

ص: 501

إن الإمام الصادق هو مؤسس الباطنية في الإسلام، وفي عهده نمت وترعرعت البذور التي غرست حتى بذور ابن سبأ، فتراها هنا يثير قضية لا صلة لها بالواقع، فحكمه بأن تأسيس الباطنية يعود إلى الإمام الصادق هو من جملة المفتريات التي أشرنا إليها في بدء الحديث وقلنا أن قدم الاعتقادات الإسماعيلية واتصالها بالمدارس الفلسفية والمذاهب القديمة التي سبقت الإسلام حملها على الافتراء والالتصاق بالإمام الصادق، ونسبة المعتقدات التي ظهرت بعد انحرافهم عن مسار الوصاية والإمامة إلى الإمام الصادق وأهل البيت وكل أحكامهم بلا بينة وجميع أقوالهم بلا دليل، لأن عزل النصوص عن مقاصدها وسوق الأفعال التي تصدر عن الإمام الصادق أو غيره من الأئمة المعصومين في غير ظرفها تجن واضح وافتئات مشين.

ويدي لنا الأستاذ على صفحات الكتاب رأيه في قضية ابن سبأ، وأن آراءه قد ترعرعت بذورها في ذلك العهد، فإذا به يتعزى تماما من صفات التحقيق والتثبت.

وقضية ابن سبأ لا تقل خرافية وكذبا عن (الهفت) الذي قدمه عارف ثامر فما هي إلا شخصية وهمية أوجدتها العناصر المعادية للإسلام، وغدتها الطائفية الرعناء، وكان غرسها ونسج خيوطها في القرن الثالث الهجري. وقد بحثناها في غير موضع في أجزاء الكتاب السابقة.

ولا نجهد أنفسنا بأكثر من ذلك في الرد على عارف، بل نحيل الرد على الأستاذ الإسماعيلي مصطفى غالب فيقول:

ولا بد لنا ونحن نستعرض بعض ما كتبه عارف ثامر من أن نشير إلى الكتابين اللذين أصدرهما مؤخرا وهما: (الإمامة في الإسلام و القرامطة) لما أورد فيهما من الأراجيف والخرافات المضحكة، مع علمنا الأكيد بأنه هو نفسه يعرف حقيقة تلك الأراجيف والأساطير التي لا تتفق مع المنطق والتاريخ، وتتناقض أشد التناقض، ولكنه جاء بها لينال ما يرضى شهوته ويشبع نهمه، معتمدا في ذلك على المبدأ الذي يقول: (خالف تعرف) ولقد شحن هذين الكتابين بكل ما هو غريب ومخالف لجميع من سبقه من الكتّاب والمؤرخين، وإن كنا نعجب لمن يختلق مثل هذه الروايات، ويفتعل النصوص، ويحرف الوثائق، تقول والألم يعصر قلوبنا ويحز في أعماقنا أن الغاية لدى هذا الإنسان تبرر الوساطة، حتى ولو كانت الوساطة تقويض دعائم الدين، وطعنه في الصميم، والإجهاز على آخر رمق من الضمير الإنساني، علما بأنه لو أردنا

الرجوع إلى أى كتاب من الكتب التى حققها أو ألفها عارف ثامر نجد تقيض ما قال فى الآخر، فهو يأتى بالفكرة أو المصدر أو الرأى فى هذا الكتاب، فى حين أنه يخالفه أشد المخالفة، وينقضه أشع النقض فى كتاب آخر، ذلك لأن كل كتاب سار فيه حسب الهوى الجارف (1).

وعن الهفت و الأظلة يتحدث الأستاذ مصطفى غالب حول ما ارتكبه الأستاذ ثامر من التحريف و الزيادة و إن كان (الهفت) الذى شرفوه-و إنما يشرفون الخرافة و الافتراء-فى متنه هو من جنس ما قدمه ثامر، و لكن مصطفى غالب يدعى أنه لفرقة باطنية أخرى، و لا يعنينا ذلك لأن العبرة فى المضمون و فى الاتجاه الباطنى الذى نخالفه. و على أن أسوق القول على طوله لمقتضيات البحث:

(مما لا جدال فيه أننا نعيش فى عصر تطوّر فيه العلم و الفكر، و انطلقت عصابات الأدمغة المفكرة لتفعل و تبني صروح البشرية على أساس علمى صحيح رائده الخلق و التقدم و الإبداع، و لتتير الطريق الصحيح أمام الأجيال الصاعدة التواقّة إلى الارتشاف من منهل العلم و المعرفة، و أصبح للفكر رسالة مقدسة هدفها التوضيح و النوعية و الأمانة بعيدا عن الارتزاق و الهوى و التحريف. فإنسان هذا القرن (التكنولوجى) أصبح ينظر إلى العلم بمنظار الواقع و الحقيقة و الصدق فى تتبع الأحداث التاريخية و الوقائع العلمية... دعانى لإطلاق هذه الصرخة الداوية ما لمستته مؤخرا أن بعض الأيدى قد عبثت و لا تزال تعبث فى تراثنا الفكرى، و خاصة ما يتعلق منه بآثار الفرق الباطنية السريّة. نعم لقد امتدت الأيدى (غير الأمانة) فتلاعبت بما عثرت من نصوص مخطوطة فغيّرت و بدلت فيها بدون رادع من ضمير أو وازع مناقبى.

فى مطلع عام 1958 ميلادية طلب إلىّ المستشرق الألمانى الكبير البروفسور (شتر وثمان) أن أعيره نسخة خطية من الكتاب الهفت الشريف الذى كان فى ذلك الوقت يعمل على نشره و تحقيقه فى (هامبورغ)... فقد لبّيت طلبه و أرسلت له النسخة المطلوبة...

و راحت الأيام تدور، و إذا بى أفاجئ بكتاب معروض فى الأسواق أصدرته

ص: 503

المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة 1960 م على حساب دائرة (البحوث و الدراسات بإدارة معهد الآداب الشرقية) عنوانه (الهفت و الأظلة) المنسوب إلى المفضل بن عمر الجعفي، وقد قام بتحقيقه و التقديم له عارف ثامر و الأب أ.عبد خليفه اليسوعي.

اللّهُ. اللّهُ. كيف تبدل عنوان الكتاب بهذه السرعة الصاروخية من الهفت الشريف إلى الهفت و الأظلة؟ فقلت لنفسي: ربما كان هذا كتابا آخر. أم أن هنالك بعض النسخ المخطوطة تحمل هذا العنوان. فرحت أبحث و أنقب خلال ثلاث سنوات حتى تمكنت من الاطلاع على أكثر من ثلاثين مخطوطة، و قد جاءت كلها بعنوان واحد هو (الهفت الشريف)... فأخذت أراجع النسخ المطبوعة و أطابقتها على نصوص النسخ الخطية فوجدت مع الأسف الشديد بأن التلاعب و التزوير قد وقع بالفعل، و لما كنت أحرص على أن يكون المؤرخ أو العالم أو المحقق متّصفا على الأقل بالأمانة العلمية و الدقة و الإخلاص و التجرد و النزاهة، فقد عمدت إلى تحقيق الكتاب مشيرا إلى الزيادات و التحريفات بقدر الإمكان..

ثم يخاطب الأستاذ غالب الأستاذ ثامر:

نحن لا ننكر الخدمات التي قدمتها للمكتبة الإسماعيلية حيث قمت بنشر و تحقيق بعض المؤلفات بالرغم من أنها جاءت مشوّهة مقلوبة رأسا على عقب، و بصراحة أقول: إننا نفضل ألف مرة أن تبقى تلك الآثار في طي الكتمان و الإهمال على أن تتناولها الأيدي مبتورة. تلاعب التحقيق بنصوصها و حتى بعناوينها... (1).

و أعود و أعتذر لهذا النص الطويل، و لكنه من ضرورات اكتمال السياق و عرض الصورة بأبعادها، و نحن أخذنا من الأستاذ غالب ما اكتشفه في عمل الأستاذ تامر من تلاعب بالنصوص، و هي ثورة حقيق بها أمر ذوبال و أهمية. و الذي يبدو أن المحتوى و المضمون في الآثار الإسماعيلية لا يحتل أهمية بقدر ما يحتل النص و المنقول. و كان مما يناسب عصر العلم و التكنولوجيا أن يتجه نقد الأستاذ غالب إلى النص ذاته و إلى حقيقة هذه الخرافات و الافتراءات، و ليس الأمر مجرد آثار محفوظة و سرّية مما يضرّ به على الآخرين، و لا يطلع عليه إلا المنتسبون إلى الجماعات السريّة الباطنية. و من

ص: 504

1- (1) مقدمة كتاب: الهفت الشريف من فضائل مولانا جعفر الصادق عليه السّلام رواه المفضل بن عمر الجعفي.

المؤسف أن يكون الفصل في تقرير أهمية النص أو صحته بأيدي المستشرقين، فيلجأ إليهم في تحديد واقعية النصوص وربما العقائد.

والغريب أن يكون لهذا الهفت الساقط نسخ عديدة وكثيرة. ومهما كانت المكانة التي يحتلها الكتاب، فإن وجود مثل هذه النصوص أمر غير محسوم من جهة الإسماعيلية والفرق الباطنية الأخرى بدلالة ما وقع بين الأستاذين بهذا الخصوص ونحن استشهدنا بأقوال الأستاذ غالب في مؤاخذته على الأستاذ ثامر لإظهار ما عليه الأخير من عدم التثبت وعدم الدقة، أما الناحية الأخرى وهي المهمة فإن لهذه النصوص وجودا وأثرا في الحياة الدينية للفرق الباطنية لأنها تتفق مع نمط العقائد وطريقة العلاقات والمراسيم، ولذلك من الصعب أن يحكم الإنسان على إغفالها من قبل الإسماعيلية أخذًا بأقوال الأساتذة من الإسماعيلية، وإنه لمّا يحزّ في النفس حقيقة أن تبقى عناوين الأغلفة بعباراتها، وتظل أسماء هذه الكتب بألفاظها (1).

فالشيعي عند ما يقول: مولانا الإمام الصادق. يدرك ما ذا وراء هذه العبارة، ويعبر عن معتقده بهذا القول، لأن الإمام الصادق عليه السلام هو سادس الأئمة الأطهار وهبه الله المعرفة والحكمة، ومنحه الإمامة والولاية، واجتاز بالعقيدة الإسلامية ذلك المعترك القاتل والمحنة القاسية، فحفظ الله على يديه تراث آل محمد، وأنقذ الله به شيعة آل محمد في نفس الوقت الذي حفظ به الإسلام وحصّنه.

إن النزعات الباطنية والميول الخفية في المعتقدات التي التقت بالإسماعيلية اعتمدت بعض الوجوه التي عليها في السير بعض الغموض، و هنا كان الاختيار، وقد وقع على المفضل الجعفي، وقد تأثروا بالاختلاط الذي وقع في الأقوال عنه، وبما حصل من تدافع، غير أن الأغلب والأرجح هو تعديل المفضل والركون إليه عندنا، وكلما قيل عنه من تحول واختلاط في النظرة إليه والقول فيه من قبل المصنّفين قد هدّبه و عدّله رواية علمائنا عنه كالشيخ الصدوق والشيخ المفيد. وغلبه مدح الأئمة، مما يكشف لنا أن قادة الاتجاه الباطني يختارون ما يمكن النفاذ منه بالبناء على الخلط والجرح، وما علموا أن الحقائق والعقائد السليمة يموت حولها ما يعلق من شوائب، هذا إذا كان الاختلاط في النظرة إلى المفضل مقصورا على الكتب القليلة التي خاضت

ص: 505

---

1- (1) الكتاب بعنوانين، أحدهما خارجي: كتاب الهفت الشريف من فضائل مولانا جعفر الصادق عليه السلام رواه المفضل بن عمر الجعفي، وداخلي: كتاب الهفت الشريف رواه المفضل الجعفي.

فيه. أما القول الحق فهو ما أخذ من حقائق سيرته و من وقائع حياته، و ينحسر ما علق بصورة المفضل من غموض إذا تجنّبنا ملاسبات انشقاق الإسماعيلية عن مسار الإمامة، كما لا يخفى دور الزنادقة فى الإساءة إلى المفضل لتصديده لهم، و ردّه عليهم. فإن بعض الروايات التى لا يركن إليها تصوّر المفضل بأنه وراء انحراف إسماعيل بن الإمام الصادق عن أبيه، و أنه كان منقطعاً إليه، يقول فيه مع الخطّابية ثم رجع بعده. أما الزنادقة فإن من آثار الإمام الصادق العلمية و أجوبته الخالدة هو كتاب (التوحيد) فى أجوبة الإمام للمفضل بن عمر حينما سمع كلام ابن أبى العوجاء و إنكاره الصانع، فناظره المفضل، ثم بادر إلى الصادق عليه السّلام و طلب منه أن يملئ عليه ما يقوى به على مناظرة الزنادقة، فأجابته بدلائل التوحيد و محكم البراهين على وجود الصانع الحكيم (1). فاختر الكذّابون الذين وصفوا (هفتهم) ذات الطريقة فى الإملاء بمجالس، و حسبوا أنهم سيسلمون من الفضيحة أو ينجون من العقاب. و لا ننسى أن نذكر أن طبيعة الدعوة الباطنية و غموضها يساعد على هذا الافتراء، و ذلك للانقياد الأعمى و الاستسلام التام، و إذا ما خرج بعضها إلى نور الحقيقة انهارت و تبدّدت.

### خاتمة الكتاب

و بذلك نصل إلى ختام البحث الذى استغرق عشرات السنين، رافقت فيها الإمام الصادق، و تشرّفت بالكتابة عن شخصيته، إلى جانب البحث عن شخصيات أئمة المذاهب الإسلامية.

و قد كان نهج البحث يقوم على الحقائق و النظرة إلى واقع الأمور بتجرّد و إنصاف، و عرضنا لغرض المقارنة لشخصيات أئمة المذاهب، بحيث تجرى على بساط البحث و بنتيجة التقييم.

و كان بوّدى أن ألحق بالجزء الثامن بقية ما يتعلق بالمسائل الفقهية فى الصوم و الحج و الطلاق و الفرائض و غيرها، غير أن اتساع الجزء الثامن بمواضيعه حال دون ذلك. عسى الله أن يجعل له مناسبة أخرى.

و أرى فى ختام الكتاب و انتهاء سلسلة البحث عن الإمام الصادق و نشأة المذاهب

ص: 506

---

1- (1) انظر بعض هذه المجالس التى أملى فيها الإمام الصادق [1] أجوبته فى المجلد الثانى/الجزء الرابع من الإمام الصادق و المذاهب الأربعة. [2]

أن أعيد التنويه بالحقائق التي لا تحتاج إلى كبير عناء في إثباتها، وفي مقدمتها دور الملوك وأصحاب السلطان في تعدد المذاهب وزرع الفرقة و الخصومة بين أبناء الأمة الواحدة. وقد ابتدأت الفكرة منذ الفترة الأولى للانحراف عن مبادئ العدل الإسلامى و الانغمار فى مظاهر الملوكية و التسلّط، فكان على يد معاوية الترويج لشرعية العسف و الظلم، حيث أوجد له مؤسسات ضمّ إليها الكثير ممن تزيّياً بزى العلم و الدين، و راحت هذه المؤسسات تلبّي رغبات معاوية و الحكام فى إضفاء طابع الشرعية و الصبغة الإسلامية على واقع حكمهم و حقيقة سلطانهم القائم على القبلية و العصبية الجاهلية.

و بعد سقوط حكم الأمويين و قيام حكم الملوك من بنى العباس فى ظل و أفياء الدعوة إلى الرضا من آل محمد، أرسى الملوك العباسيون تلك الفكرة على أسس طبّقوها و نفّذوها فى فترة أصبح فيها التشيع خطراً يتهدّد الكيان العباسى.

فقد نبغت شخصية الإمام الصادق، و شاع ذكره فى الآفاق، و أصبح سيد علماء الأمة و قائد حركة العلم و الفقه، فبات أمره شغل النظام الشاغل و همّه الدائم، و لمّا فشلت محاولات القضاء على حياة الإمام الصادق، و كانت آيات نجاته و حفظه من أيدي المنصور؛ التمس الدوائقي طريقاً آخر، فسوّى للعباسيين سنّة إدناء شخصية معينة ممن يتوسّم فيها الفقه، لتكون فى الموضوع الذى يكتسب من الحكم نفوذه و قوته، و تستعمل السياسة فى أغراض التمهيد، و إخضاع العلم الدينى لأغراض الدولة بحيث ترتأى الأحكام التى تأمن جانبها.

فيما كان الشيعة يمثّلون الاتجاه المناوئ، و يقفون بوجه هذه الأغراض، لأنها تستهدف النيل من مكانة الإمام الصادق، و تحاول بيأس التأثير على موقعه الروحى و شهرته العلمية، و كان الانصراف إلى الدين و العلم و الدعوة إلى التمسك بأحكام الإسلام و التقيد بأوامره، و اجتناب نوايه الصفة الأساسية للصرح العلمى الذى سرت آثاره، و انتشرت أفكاره فى المجتمع الإسلامى، و الذى تمثّل بمدرسة الإمام الصادق التى انتسب إليها أربعة آلاف طالب، قاموا بدورهم فى رواية الحديث و بيان الأحكام و تبصير الناس و حفظ تراث الإسلام، فكان عليه السلام: مشغولاً بالعبادة عن حب الرئاسة (1). و أثر العزلة و الخشوع (2) و الانصراف لمهمّاته الدينية.

ص: 507

1- (1) صفة الصفوة ج 2 ص 94.

2- (2) حلية الأولياء ج 3 ص 192.

و من الحقائق أيضا، أن الشيعة في عقائدهم من حيث النشوء كانوا مع مراحل الرسالة و تطورات الإسلام، فلا يخضعون لمقاييس التمدّيب هذه، و ما كان من تسميته (المذهب الجعفرى) فهو بحكم اصطلاحات فترة التمدّيب التى تبناها الحكام، و بروز شخصية الإمام الصادق فى ذلك العصر و تصديّه بمؤسسات مدرسته و رجال دعوته إلى تيارات الخلاف و الاختلاف، فتتج أن الإمام الصادق رأى أن يبرز معالم أحكامه و فقهه و طريقة مدرسته و منهجها التى هى امتداد لأحكام أهل البيت الكرام و آباءه المعصومين، و فى فترة اتضحت فيها المقاصد، فراح عليه السّلام يختار من أصحابه و مرّيديه الرجال، فيحملهم المهام الدينية و الفكرية و الاجتماعية ليظهروا-فى خضم تلك الفترة التى تعدّدت فيها الموجات و اتسعت- أحكام آل محمد، و يطبقوا طريقة الإمام الصادق فى الدعوة الدينية، و حماية مبادئ العقيدة و روح الإسلام مما يحيط بها من مخاطر و ويلات، فكان مصداق ما سعى إليه عليه السّلام أن يقال عنهم: «رحم الله جعفر بن محمد ما أحسن ما أدّب به أصحابه».

و قد كان تفرّد الإمام الصادق بصفات خاصة من الحقائق التى عجزت السلطة عن إخفائها أو طمسها، و ظلت منزلته الدينية و العلمية لا ينال منها العداة أو النصب، فتراه عليه السّلام سيد الفقهاء و أستاذهم الذى يفتخر بالأخذ عنه، و يتشرف برواية حديثه.

و قد استظهرنا من تتبع ظروف نشأة مدرسة الإمام الصادق و أحوال نشاطها تلك المهمات الجسام التى كان على الإمام الصادق أن يتولاها، و تلك العوائق التى واجهها الإمام الصادق، فقد كان الخطر من السلطة الحاكمة بطابعه السياسى، و الخطر من الحركات التى قامت و اشتدت بطابعها الدينى و الفكرى.

و يدلنا البحث على متانة الصرح الفكرى الذى شيّده الإمام الصادق، بحيث تمكّن من أداء المهمات، و استطاع مواجهة تلك الأخطار، و أرسى حركة الفقه و العلم على قواعد ثابتة و أصول دائمة. و لذلك فإن الحاجة تزداد ظهورا فى عصرنا إلى إحياء منهج مدرسة الإمام الصادق و نشر أفكاره، لأن التكوين العقائدى لمدرسة الإمام الصادق و الذى اشتمل على حاصل ما قرره النبى محمد و الأئمة الأطهار من أهل بيته الكرام تكوين ثابت و مستقر، له القابلية-بمقتضى ما انطوى عليه من أحكام و ما ضمّه من تراث-على ضمان بقاء الأمة و تحقيق أمنها و مواجهة أعدائها.

و نرى اليوم ما يعانى منه الفكر الشيعى و اشتداد الهجمة المعادية من قبل الحكام



والمتمسّطين، فقد احتفظت الأيام و مرّ التاريخ على أطراف المواجهة بين دعاة العدل الإسلامى وبين الملوك والحكام الذين يتخذون من الدين ستارا لمصالحهم، ويذيقون شعوبهم الويلات.

و خلاصة القول فإن مدار البحث هو أن السلطان الروحى والقيادة الدينية اللتين اختصّ بهما الأئمة الأطهار هما من صور الإمامة التى حفظت بها منزلة النبوة، وضمن بها بقاء الدعوة، و من هنا كان سرّ تميّز سيرة الأئمة الأطهار و سبب نفوذهم الذى عجّزت قوة الباغين و الطغاة عن القضاء عليه.

لقد أثبت الشيعة وجوب عصمة الأنبياء قبل اصطفائهم و بعد اصطفائهم لأنهم الأمناء و القادة، و قد كلف الله الخلق باتباعهم، فلا يجوز على المصطفين الإثم، لأن النبوة دعوة و تبشير بأمر إلهى، و الدعوة تتأثر بشخصية الداعى، فإذا جرب على نبي إثم أو عرف عنه ذنب، فإن مجرى الدعوة يتأثر بهما، و درجة إقبال الخلق أيضا.

قال الله تعالى مخاطبا إبراهيم عليه السلام: **إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا** فعلى الناس اتباعه و الاقتداء به، و هم مكلفون بذلك. فذهب الشيعة إلى تنزيه الأنبياء عن المعاصى لأن ارتكابها ينقّر الناس. بخلاف غيرهم من المذاهب فى تجويز المعصية قبل النبوة.

و قد كان من سير الأئمة عليه السلام و أحوالهم و أوضاعهم و خلقهم شواهد كبرى على تسديد الله و عصمتهم، مما يؤثر فى سير الدعوة و وقع الأحكام فى النفوس، و لذلك لا تجد فى فقه الشيعة قضية تدور عليها الآراء و الاجتهادات فى أن ولى الأمر إذا أخطأ، فمن الذى يقيم عليه الحكم. كما هو فى المذاهب الأخرى.

فولى الأمر الشرعى عند الشيعة هو فى منزلة و مرتبة دينية لها من النبوة الوصاية على أمر الشريعة و حماية الدين و مصالح الأمة، و ليس فى فكر الشيعة أوقفهم ما يبعد عن هذه الخصائص التى تدور فى فلك النبوة، فكيف يجرأ فاسق أو فاجر على أن يتولى من أمرهم شيئا؟ فيما جوّزت المذاهب الأخرى إمامة المتمسّط و من اتصف بذلك من غلبة أو غيرها، و كذلك الحال مع الفاجر، حتى نسب إلى النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم الأمر بالصلاة خلف البرّ و الفاجر، و قد تناسى من وضع الحديث و غفل من تعاطاه أن نبي الرحمة حمل رسالة العدل و بشر بمرحلة جديدة من الإنسانية تصان فيها الدماء و الأموال بأعظم صيغ التشديد على حرمة حياة الإنسان و بأوضح عبارات تأكيد حرّيته،

لكن فهم الإمامة بمنطق الحاكمين و المتسلطين كان من بواعث الوضع و من دواعى التسليم بصحته تحت ذريعة (الجماعة) و حفظ الأمة بعيدة عن (الفتنة) و ما الفتنة إلا مهادنة البغاة و الجائرين على انتحالهم صفة الدين، و مجاراتهم على انتهاك حرمة دماء المسلمين و أموالهم و أعراضهم، و كان هذا المنطق وراء إظهار النظم المنحرفة بمظاهر إسلامية لا تمت إلى روح الإسلام بصلة.

و قد مرّ من خلال البحث جوانب مختلفة من سير و مواقف الأئمة الأطهار من أهل البيت عليهم السّلام و كيف عالجوا العلاقة بالحكّام، و كانت صفحات حياة الإمام الصادق عليه السّلام منهج هداية و رشاد يحصّ الأمة على التمسك بجوهر الإسلام و تعاليم القرآن، و يعمل على دفع الأذى عن المؤمنين، و معالجة سياسة الحكام، و كيف كان الاتجاه نحو دولة العدل التي ينشؤها مهدي الأمة الذي جاءت به بشارة النبي محمد صلّى الله عليه و آله و سلّم.

و ختاماً، و نحن في نهاية المطاف أقول: إن منهج البحث في هذه السلسلة قد استهدف كشف الحقائق و بيان الوقائع، و من خلال المقارنة ندع النتائج طليقة، و لا نحصرها في فصل من البحث، سيّما و نحن نعترف أن الجهد يقصر عن الإحاطة التامة بشخصية كالإمام الصادق، و نأمل أن نلتقى بالقرّاء قريباً في بحث مخصوص عن حياة الإمام الصادق.

و لله الشكر على توفيقه و عونته على إنجاز هذا البحث، و له الحمد أولاً و آخراً.

و صلى الله على نبينا محمد و على آله الكرام الطيبين، و على من اتبعه و والاه.

## تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم  
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ  
الزمر: 9

عنوان المكتب المركزي  
أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباه اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : [www.ghbook.ir](http://www.ghbook.ir)

البريد الالكتروني : [Info@ghbook.ir](mailto:Info@ghbook.ir)

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 021 - 88318722

قسم البيع 09132000109 شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز  
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية  
اصبهان  
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم  
**www.Ghaemiyeh.com**

[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)

[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)

[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

